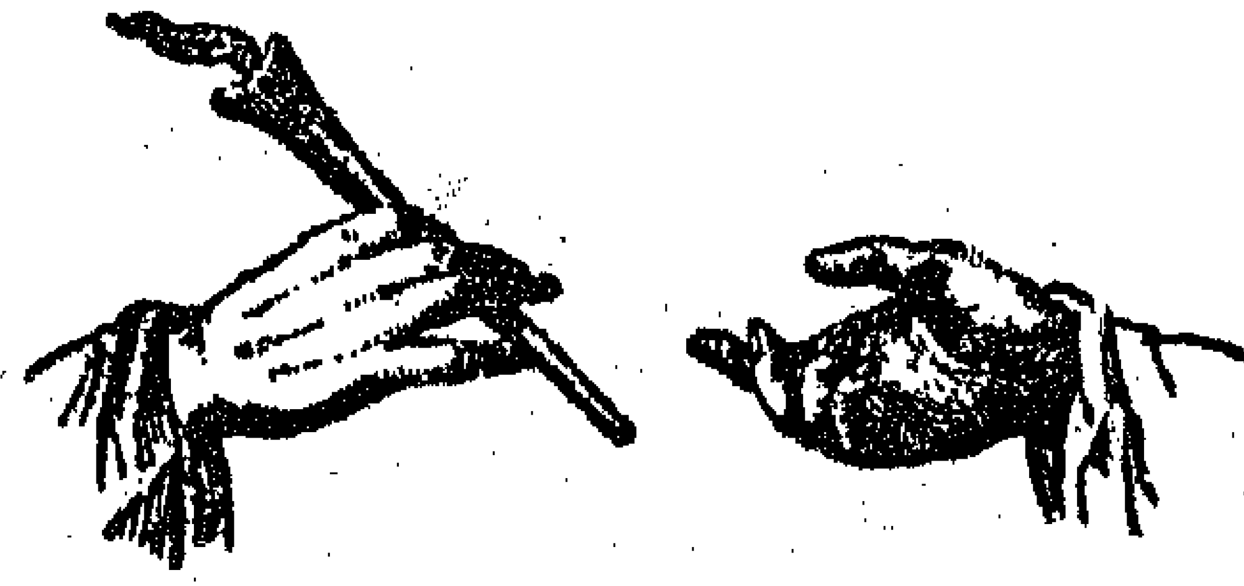


المقتطف

الجزء الاول من المجلد العاشر بعد المئة

١٠ يناير ١٩٤٧ — ١٧ صفر ١٣٦٦

« وعلى الوالي أربعُ خصالٍ هي أعمدة السلطان وأركانه التي بها يقوم وعليها يثبت : الاجتهاد في التخير ، والمبالغة في التقدم ، والتعهد الشديد ، والجزاء العتيد »

(ابن المقفع)

المقتطف

مجلة علمية صناعية زراعية

لمنشئيها

الدكتور يعقوب صروف و الدكتور فارس نمر

رئيس تحريرها اسماعيل مظهر

قيمة الاشتراك — في القطر المصري ١٢٠ قرشاً مصريًّا وفي سورية ولبنان وفلسطين وشرقي الاردن والعراق ١٤٠ قرشاً مصريًّا وفي الولايات المتحدة ٧ دولارات اميركية وفي عدن وأفغانستان وايطاليا والمانيا وبلاد الانجليز ٣٠ شلناً

اشتراك الطلبة والمدرسين — قيمة الاشتراك للاساتذة والطلبة الذين يرفقون طلبهم بقيمة الاشتراك وبشهادة من رئيس المدرسة تكون ١٠٠ قرش مصري في مصر و ١١٠ قروش مصرية في الخارج بالبريد العادة

الاعداد الضائعة — الادارة لا تعد بتعويض المشتركين ما يضيع من اعدادهم في الطريق ولكن تجتهد ان تفعل ذلك

المقالات — لا تقبل المقالات للنشر في المقتطف الا اذا كانت له خاصة ولا يعد قلم التحرير بارجاع المقالات التي لا تنشر فنرجو من حضرات الكتّاب ان يحتفظوا بنسخة من المقالات التي يرسلونها

العنوان — ادارة المقتطف بالقاهرة — مصر

AL-MUKTATAF

An Arabic Monthly Review of Current Science and Literature.

Published in Cairo Egypt

Founded 1876 by Drs. Y. Sarruf & F. Nimr

Edited by I. Mazhar

المقتطف

الجزء الاول من المجلد العاشر بعد المئة

١٠ يناير سنة ١٩٤٧ ١٧ صفر سنة ١٣٦٦

النساطرة في أسيا

إشتهرت مدينة « أنطاكية » بأنها من أولى مدن المسيحية التي قام زعماء الدين فيها بأول حركة من تلك الحركات الفكرية التي كانت ذات أثر كبير في شيوع الفلسفة، وفروع الفلسفة اليونانية خاصة. ذلك بعد مناظرات لاهوتية طويلة ممضّة. وقام بالحركة في « إنطاكية » معلمان يقال لأحدهما « ديودوروس » (١) والآخر « تيودوروس » (٢) المَصّيصي، وكانا شديدي الإعتقاد في اكتمال الناسوتية في المسيح عليه السلام.

وكان أكبر المؤيدين لهذا المذهب راهب من رهبان إنطاكية يقال له « نسطوريوس » (٣) انتقل إلى القسطنطينية أسقفاً لها في سنة ٤٢٨ م، وتبع تأييد « نسطوريوس » لهذه الفكرة

(١) Diodorus (٢) Theodorus of Mopsuesta (٣) Nestor and the Nestorians نسطور بطريرك القسطنطينية من ٤٢٨ الى ٤٣١ م. أسقطه مجمع أفسوس متهماً بالهرطقة، وتوفي في سنة ٤٣٩ م. والنساطرة أتباعه، وقد انكروا اتحاد طبيعتين في شخص المسيح، وقالوا بأنه شخصيتين منفصلتين، وان اتحاد تينك الشخصيتين معنوي محض. وبعد مجمع أفسوس أسس النساطرة مدارس الرها ونصيبين وسلوقية، ثم طردوا بمقتضى ارادات امبراطورية الى بلاد فارس، حيث استقروا ونشروا تعاليمهم، ومن ثمت انحدروا الى الهند ثم الى الصين. وحوالي سنة ١٤٠٠ م اضطهدهم تيمورلنك المنولي، فهدمت مدارسهم وزالت معالمها، وفي القرن السادس عشر اندمجت بقيتهم في الكتلة الرومانية

مناقشات حادّة حتى انتهى الأمر بعقد مجلس دينيّ في مدينة « أفسوس » سنة ٤٣١ م ، فانتصر حزب الاسكندرية ، وهو الحزب القائل بما يضاد المذهب النسطوريّ ، واعتبر « نسطوريوس » وأتباعه هراطقة [١] .

أما النساطرة فكانوا على اعتقاد كامل في أن نظراءهم بعيدون عن حكم العقل والضرورات الطبيعية . لذلك سعوا ، بعد مضي عامين على حكم مجلس « أفسوس » الى جمع شملهم ، وعلى الرغم من مطاردتهم والإستبداد بهم ، نزلوا مصر واتخذوها مقرّاً لبث تعاليمهم .

* * *

قبيل ذلك العهد أغلقت مدرسة نصيبين [٢] ، أو بالأحرى انتقلت إلى الرُّها [٣] ، وفي سنة ٣٦٣ م ، سلمت مدينة نصيبين إلى الفرس تنفيذاً للمعاهدة التي عقدت إثر الحرب التي أشعل نارها الامبراطور « يوليانوس » [٤] ، وكان رجال مدرستها منتشرين في الممالك المسيحية إذ ذاك ، فعادوا الى التجمّع في الرُّها ، وفتحوا مدرسة سنة ٣٧٣ م ، وبذلك أصبحت تلك المدينة ، ولو أنها في أرض تابعة للامبراطورية البوزنطية [٥] ، مركزاً للكنيسة التي ينطق زعماؤها باللسان السرياني .

أصبحت مدرسة « الرُّها » بعد ذلك موطناً لأفراد من زعماء النساطرة الذين تقبلوا

---

(١) Heretics : يونانية معربة ، وهم المارقون من الدين ، والهرطقة : المروق

(٢) نصيبين : Nisibis : مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على جادة القوافل من الموصل الى الشام (معجم البلدان ٣٩٢ : ٨) وكانت تدعى أيضاً « انطيوخية موغدونية » : Antiochia Mygdonia في العصر القديم . وهي عاصمة إقليم موغدونية : Mygdonia في ما بين النهرين ، وفي بقعة من أخصب بقاع العراق . وكان من أكبر البلدان التجارية ، فضلا عن موقعها الحربي العظيم (Classical Dictionary : 605- 606)

(٣) الرها (بضم الراء) : Edessa : وكانت تدعى في العصر القديم « انطيوخيا قاليرغوية » Antiochia Callirrhoe مدينة من أقدم المدن في شمال الجزيرة ، وكانت عاصمة اقليم أوسروينية Osroëne ، وبجوار الرها قتل الامبراطور قراقلا سنة ٢١٧ م . (Classical Dictionary p. 308) واسمها بالرومية أذاسا ، والنسبة اليها رهاوي . بنيت في السنة السادسة من موت الاسكندر بناها الملك سلوقس (معجم البلدان ٣٤٠ : ٤) ، (٤) Julian (٥) The Byzantine Empire

حكم مجلس « أفسوس » . غير أن الامبراطور « زينون » [1] أغلق تلك المدرسة في سنة ٤٣٩ م ، بحجة أن صبغتها نسطورية متطرفة ، فلم يجد أهلهـا من موئل سوى الهجرة الى البلاد الفارسية ، فهاجروا ومعهم كبيرهم « بارسوما » [2] سنة ٤٥٧ م .

نجح « بارسوما » في أن يقنع فيروز [3] ملك الفرس بأن النساطرة يوالون أبناء فارس ويمضون خاضعين لقوانينهم ، وظلوا على عهدهم هذا ما كفين في كل الحروب التي وقعت من بعد ذلك . ثم أسس النساطرة مدرسة أخرى في نصيبين فأصبحت بورة تشع منها التعاليم النسطورية ، تلك التعاليم التي كوّنت وجهاً من أوجه المسيحية مصبوغاً بالصبغة الشرقية البحتة .

ومن ثمت انتشر النساطرة في جوف آسيا وبلاد العرب ، يذيعون تعاليم المسيحية ، ولم يكونوا عاملين على نشر المسيحية لاغير ، بل أرادوا أن ينشروا معها تعاليمهم الخاصة في طبيعة المسيح ، فأخذوا يستعينون على بث أفكارهم بأقوال ومذاهب متنوعة من الفلسفة اليونانية ، فأصبح كل مبشر نسطوري بحكم الضرورة معلماً في الفلسفة اليونانيـة ، كما أنه مبشر بالدين المسيحي [4] .

كان السبب الذي حفز النسطوريين إلى نشاطهم هـذا ، نشاط أبداه نظراؤهم القائلون بالطبيعة الواحدة ، وندعوهم الوَحدِيطَبَعِيُّون [5] (في المسيحية) والوحديطبعي [6] هو أحد القائلين بأن للمسيح طبيعة واحدة ، وبمعنى أشمل واحد من طائفة نصرانية يعتنق فكرة أنه ليس للمسيح غير طبيعة واحدة متحدة أو مندمجة ، جزء منها قدسي (إلهـي)

---

(١) Zeno : امبراطور بوزنطي (٤٧٤ — ٤٩١ م) وكان ، ايزورياً Isaurian بالولد وهو ابن زوجة الامبراطور ليون الاول.وقد اشتهر في التاريخ بأنه قمع عدة ثورات ؟ وهو الذي أغرى ثيودوريك Theodoric أحد ملوك القوط الشرقيين بأن يغزو ايطاليا ، وكذلك أعلن الانوطيقون Henoticon ، وهي معاهدة تفاهم عقدت بين زينون وثيودوريك ، على ان يترك هذا مناوأة الامبراطورية الرومانية الشرقية ، وينقض على « أودوسر » فيملك منه ايطاليا (٢) بارسوما Barsuma : أسقف نصيبين في ما بين النهرين (٤٣٥ — ٤٨٩ م) وهو المؤسس الاكبر للكنيسة النسطورية في شرقي آسيا (موسوعة سنشوري ص ١٢٤) . (٣) Piruz (٤) راجع كتابنا تاريخ الفكر العربي (١٩٢٨)

(٥) Monophysites (٦) Monophysite

وجزء منها بشري ، على العكس من المعتقد الارثوذكسي ، القائل بأنه بالتجسد نشأت طبيعتان كل منهما مستقلة عن الأخرى ، القدسية والبشرية ، اتحدتا من غير أن تختلطا أو تطغى إحداهما على الأخرى في شخص المسيح .

* * *

ولقد انقسم الوحديطبيعيون أقساماً وتفرقوا شيعاً . ومن أقدم هذه الشيع شيعة « الأوتوخيين » [1] أتباع أوتوخس »[2] الذي اتهمه المجمع الخلقيدوني[3] في سنة ٤٥١ م وتنحصر تعاليمهم في القول بأن المسيح ليس له غير طبيعة واحدة هي الطبيعة القدسية (الالهية) . أما الوحديطبيعيون الأصلاء ، فيقولون بأن الطبيعة القدسية والطبيعة البشرية، إندمجتا في المسيح فصارتا واحدة.

إن أوائل القائلين بهذا المذهب ، ومؤسسوا الكنيسة القبطية في مصر هم ديوسقورس[4] الذي اتهمه مجلس خلقيدونية (ومات سنة ٤٥٤ م) وطيموثي أو طموثيوس أيلوروس[5] (الملقب بالهر) الذي صار بطريركاً في سنة ٤٥٧ م. وكان سَفَروس (سويرس)[6] أعظم رجال هذا المذهب حوالى سنة ٥٢٠ م . في حين كانت طائفة أخرى منهم تدعى اليوليانية.[7] وانتشر الوحديطبيعيون في سوريا انتشاراً واسعاً في خلال القرن السادس وسُمّوا اليعاقبة نسبة إلى يعقوب، بارادايوس[8] (وهو يعقوب السروجي) أسقف الرها (٥٤١ — ٥٧٨ م) ، وقد انقسم الوحديطبيعيون أكثر من ثلاثين فرقة :

ان كان « نسطوريوس » قد أُتهم أمام الكنيسة ، وصدر حكم مجلس « أفسوس » عليه فإنه ترك الكنيسة أمام مشكلة من مشاكلها العظمى، التي ظلت تعمل في رؤوس الناس زماناً ،

---

(١) Eutychians (٢) Eutyches (٣) Chalcedonian Council (٤) Dioscorus (٥) Timothy Ælurus

(٦) Severus (٧) Julians (٨) يعقوب بارادايوس : Jacob Baradaeus وهو يعقوب السروجي Jacob Siruge : مؤسس شيعة اليعاقبة النصرانية انتشرت في سوريا وما بين النهرين وغيرها ، وهي فرع من المذهب الوحديطبيعي ، ونسبت هذه الشيعة اليه ، وهو سوري الاصل رسم اسقفاً للرها حوالي سنة ٥٤١ م ، ورأس هذه الكنيسة يدعى بطريرك انطاكية

حتى انتهت المناقشات الشيعية بمجمع عقد في سنة ٤٤٨ م بمدينة «خلقيدونية» [1] وكانت نتيجته أن أخرجت فئة أخرى من الكنيسة الرئيسة، هم فئة المعتقدين بالطبيعة الواحدة في المسيح.

اضطهدت امبراطورية بوزنطية الشيعة اليعقوبية. ولكن أعضاءها لم يخرجوا عن حدود الامبراطورية، بل ظلّوا في داخلها قسماً مستقلاً بصورة خاصة من أصحاب الطبيعة الواحدة (الوَحْديطبيعيّون)، وأرسلوا طائفة منهم في خارج الامبراطورية تبث تعاليمهم. على أنّ هؤلاء قد اتبعوا نفس الطريقة التي اتبعها النساطرة في ترك لغة نظرائهم في الدين، وعمدوا الى استعمال اللغة القبطية واللغة السريانية. وفي الحق أن عصر اللغة السريانية الذهبي لا يبدأ إلاّ برجوع اليعاقبة عن استعمال اللغة اللاتينية، الى اللغة السريانية.

إذا تأملنا من النتائج التي ترتبت على خروج النساطرة واليعاقبة، استطعنا أن نفهم لماذا ترجمت أعمال الفلاسفة اليونان إلى اللغة السريانية. بينما نجد أن الحركة النسطورية قد أصبحت بالتدريج الوسط الذي تركزت فيه ثمار التثقيف اليوناني، وانتشرت في آسيا عبر حدود الامبراطورية البوزنطية في خلال بضعة القرون التي تقدمت انتشار الاسلام.

إذن فالمذهب النسطوري قد انتشر في لجاج أسيا، ولكن إلى أي مدى كان انتشاره، وإلى أي حد بلغ أثره؟ مما يدل دلالة قاطعة على ذيوع المذهب النسطوري في أسيا وعظم انتشاره واستفاضة تعاليمه في هذه القارة، ما ننقله هنا عن كتاب «النصرانية في الصين [2]» تأليف «هوك»، وكتاب «الديانات العشر العظام» تأليف «كلارك» [3]، واليك هو:

(١) لم تذكر المدينة في معجم البلدان وانما ذكر ما يأتي:

«الخلقدونة ويروى الخلقدونة: هو الصقع الذي منه المصيصة وطرسوس وقد ذكر في موضع قبل هذا، وهو في الاقليم السادس حول خمسون درجة وعرضه سبع وأربعون درجة (٤٥٨ : ٣)

وفي معجم الاعلام القديمة: خلقيدونية: مدينة إغريقية في بيثونيا: Bithynia على شاطىء فروبنطس Propontis عند مدخل البوسفور، وتواجه تقريباً مدينة بوزنطية، أسستها جالية هبطت ذلك المكان من ميغارا Megara سنة ٦٨٥ ق. م. ولأنها تقع في مكان أقل شأناً من المكان الذي تقوم فيه بوزنطية، سمتها الكهانة «مدينة العميان» انظر اسطرابون ص ٣٢٠، وحوليات طاقيطوس ج ١٢ ص ٦٣)، وبعد أن ظلت زماناً مدينة مستقلة، سقطت تحت سلطة ملوك بيثونيا الذين نقلوا معظم أهلها الى مدينة نيقوميديا: Nicomedia الجديدة (سنة ١٤٠ ق. م.) وأعاد الرومان تحصينها، وجعلوها المدينة الاولى في ولاية بيثونيا أي فونطيقا فريما: Pontica Prima كما سموا هذه الولاية، وقد محاها الاتراك محواً.

(٢) Christianity in China: Huc (٣) Ten Great Religions: James Freeman Charke

« في سنة ١٦٢٥ كان جماعة من العمال الصينيين يعملون في حفر جدار لاقامة بيت في خارج أسوار مدينة « سي ــ نجاو ــ فو » Si - Ngau - Fou ، عاصمة مقاطعة « تشن ــ سي » Chen - Si ، فعثروا على حجر تذكاري يشبه تلك الأحجار التي اعتاد الصينيون أن يقيموها لتنقل الى الأخلاف تذكارات أحداث كبار أو ذكريات عن عظماء الرجال . والحجر عبارة عن لوح من الرخام الأسود ، تبلغ مساحته عشر أقدام طولاً في خمس عرضاً ، وعلى صفحة منه نقش بالصينيّة القديمة ، مع بعض حروف غير معروفة في الصين » .

« وعنى « اليسوعيون » الذين رأوا هذا الحجر بأخذ نُقُول منه أرسلوها الى أوربّا . وقد أودع واحد من هذه النقول بمكتبة البيت اليسوعي في روما العظمى ، حيث كان محط الأنظار وسبباً في اجتلاب الزُّوَّار . وبعد ذلك بقليل أخذت نسخة بمقياس اللوح نفسه وأرسلت الى باريس وأودعت المكتبة العامة بشارع ريشليو ، وربما رئيت الى الآن في متحف المخطوطات » .

« هذا الأثر الذي استكشف في أنقاض منسية في ضواحي عاصمة قديمة من عواصم الامبراطورية الصينية ، قد أثار عاصفة من العجب . فإنه عندما بحث وعولجت نقوشه لمعرفة معانيها ، ظهر مع العجب أن الديانة النصرانية كان لها في الصين رسل كثيرون في بداية القرن السابع الميلادي ، وانها ظلت مزدهرة هنالك زماناً طويلاً . أما الحروف الغريبة غير المعروفة في الصين ، فقد اتضح أنها من تلك التي كان يستعملها سكان سوريا القدماء ، وتعرف باسم الخط الاسترانجيلي[1] estrangélhos : وقد يعثر بها في مخطوطات سريانية تتقدم القرن الثامن الميلادي » . وهذه ترجمة ما نقش في هذا اللوح : —

« تذكار الانتشار الأعظم للعقيدة النورانية في الامبراطورية الوسطى ، ألفه « كهنج

(١) وفي الموسوعة البريطانية ج ١ ص ٦٨٤ (a) ما يلي : استعمل نصارى سوريا الشمالية نوعاً من الالفبية العربية تعرف باسم استرانجيلي Estrangelos ، وهذه نقلها مبشرو النسطوريين الى أسيا الوسطى ، فاتخذت هنالك أصلا لعدد عظيم من الالفبيات التي انتشرت حتى اقليم منشوريا ، وجاء في الجزء ٢٢ من هذه الموسوعة :

Documents bave also been found in Estrangelo (two fomrs), Brahmin, and even Tibetan. p. 618; 22 a.

ـ تسنج : Khing-Tsing ؛ زاهد معبد « تا ـ ثسن » : « Ta : Thsin »

١ — « يوجد على الدوام سبب واحد حقيقي، هو الأول ولا بداية له ، فائق العلم ، غير مادي ، وهو الآخر ، وفيه تنحصر كل الكمالات . هو الذي أقام قطبي السماء ، وخلق كل الموجودات قدسي كلي القداسة ، كما هو منبع الكمال . هذا الموجود الباهر ، أليس هو الثالوث : Triune الملك الحق الأبدي : أو لُوهُو » (1) .

« قسم الدنيا بصليب أربعة أقسام . وبعد أن حلل الهواء الأوّل (الأصلي) خلق العنصرين . نُظِّمَ السماء ، ومن ثمّ ظهرت الشمس والقمر . وجعل الشمس والقمر يدوران ليكون الليل والنهارْ . هو جبَل الأشياء التي عدّتها عشرة آلاف وكمّلها . ولكنه عند ما خلق الانسان الأول زوّده بأُلفةٍ نقية تامة ، وأوصاه بأن يرعى ذلك البحر اللُّجيّ الذي يغمره من الشهوات . وكانت طبيعته خلو من الرذيلة ومن الخطأ . أما قلبه ، وكان بسيطاً نقيًّا ، فقد كان في المبدإ خالصاً من النزوات المهوّشة » .

٢ — « غير أن « سا ـ ثـنـج » : Sa-Thang روّج الأكاذيب، ولوّث بخبثه ما كان نقيًّا قدسيًّا . أعلن وأكد أن ما يعلن هو الحق ، مبدإ التساوي في العظمة ، فاستطاع أن يقلب الأفكار جميعاً . ومن هذا نشأ خمس وستون وثلاثمائة شيعة ، (٢) طاونت كل منها الأخرى في سلسلة طويلة ، وحاكت ، على حد ما يقال ، شبكة من الشرائع ، وَضعَ بعضها المخلوق محل الباقي ، وأنكر بعضها وجود المخلوقات وهدمت المبدأين معاً (٣) وشرع بعضها الصلوات والقرابين ليحصلوا على الخير . وتظاهر البعض بالزهد ليخدعوا الناس، وراحت عقول الناس تعمل في جهد جاهد وملأها الريب والقلق . وانقطع التطلع الى الخير الأسمى ، وظلوا هائمين من غير أن يحصلوا على شيء وانحدروا من سيء الى أسوأ منه . واشتدّ الظلام وغلظ ، وعميت بصيرة الناس ، فمضوا يهيمون على وجوههم ، عاجزين عن استرداد ما فاتهم (٤) .

٣ — هنالك اميدّ إلـهُـنا الثالوثي بجوهرة الأقدس ، السيد « مي ـ شي ـ هو »

---

(١) الله (٢) هذا بعدد أيام السنة ولعل المقصود بالشيع هنا طقوس دينية تدور مع أيام السنة ، لكل يوم طقسه الخاص (٣) لعل المقصود مبدأ الخلق ومبدأ الخالق . (٤) لعل في ذلك وصفاً لحالة الخلق قبل خلاص الانسانية بصلب المسيح كالمعتقد النصراني

Mi-Chi-Ho (المسيح) فَخَشي على عظمته الحقيقية ، وظهر في الدنيا على صورة إنسان ، .
وفرح بذلك ملائكة السماء ، وولدت عذراء قديساً في « تا – ثسن » . ولقد هتفت لهذه
المناسبة السعيدة كوكبات السماء العظمى . وشهد الفارسيون ذلك البهاء ، فسارعوا الى
الطاعة والخضوع . ولقد تحقق بذلك ما بشَّر به الأربع والعشرون قديساً منذ أزمان بعيدة .
ونظَّم بناموسه ووصاياه الأسر والممالك ، ووضع ديانته على أساس الفكرة الصحيحة ،
فكرة التثليث في الوحدة . وجعل الايمان الحق حاكماً للضمير . وأعطى الناس الوصايا الثماني ،
وطهَّر الانسانية من دنيَّاتها بأن فتح الباب للفضائل الثلاث (١) .

« لقد نَشر الحياة وقضى على الموت . وعلق الشمس المضيئة لتقضي على مقر الظلام ،
فقضى بذلك على أكاذيب الشياطين . لقد وجَّه سفينة الرحمة نحو حرم الضوء ، فنجا بذلك
كل المخلوقات ذوات الذكاء والعقل . وبعد أن فرغ من هذا العمل الدَّال على القدرة ،
ارتفع عند منتصف النهار ومضى نحو « الحق » . وخَلَّف سبعاً وعشرين كتاباً » .

« لقد أوسع ينابيع الرحمة ، حتى يؤمن الناس ويدخلوا في دينه . والتعميد بالماء
وبالروح شريعة تطهِّر النفس وتجمِّل المظْهر . وعلامة الصليب تجمع نواحي الدنيا الأربع ،
وتعيد تلك الألفة التي ذهبت . فاذا قرعنا على قطعة من الخشب ، جعلنا صوت البرّ والرحمة
تتجاذب أصداؤه . أمّا إذا قرَّبنا قرباناً متجهين نحو الشرق ، فإنَّا بذلك نعرف طريق
الحياة النظيمة » .

« يرسل رؤساؤنا لحاهم ، ليظهروا بذلك تفانيهم في سبيل جيرانهم (٢) . أما اللاَّطيئة (٣)
التي يلبسونها على رؤوسهم ، فالدلالة على أنهم انصرفوا عن الحياة الدنيوية . ولأن نمنح
العبد حريته ، فانك تصبح حلقة الوصل بين القوي والضعيف . إنَّا لا نجمع المال والغنى ،
ونقسم مع الفقير ما نملك . والصَّوْم يقوي القدرات العقلية ، والإباء عن الطعام والاعتدال ،
يحفظان الصحة . نتعبّد سبع مرات كل يوم ، وبصلواتنا نساعد الأحياء والأموات .
ونقرّب قرباناً في اليوم السابع ، بعد أن نُطهّر قلوبنا ونتلقى الحَلّ من معصياتنا . وهذه

(١) لعل المقصود بذلك روح التثليث (٢) يظهر ان ارسال اللحى كان رمزاً على ذلك

(٣) شبه قلنسوة صغيرة تلزم على جلدة الرأس : ويستنتج ان ارسال اللحى ولبس اللاطئة كانا مظهرين من مظاهر رهبان النصرانية هنالك ، ولها دلالة خاصة .

الديانة على كمالها وحسنها، من الصعب تسميتها، ولكنها تنير وتُذْهِبُ الظلام بوصاياها. إنها تدعى « الديانة اللاّمعة ».

٥ — [١] العلم بغير قداسة لا عظمة فيه، والقداسة بغير علم لا تحدث ارتقاءً. وعندما يأتلف العلم مع القداسة ويسيران معاً، فان الكون يأخذ زخرفه ويأتلق ».

« لقد جمَّل الامبراطور « تاي ــ تسونج » Tai-Tsoung ملكه الامبراطوري. لقد بدأ عهد الانقلاب، وحكم الناس بقداسة. وكان في عهده رجل سامي الفضيلة يقال له أولوبن » : Olopen جاء من مملكة « تا ــ ثسن » : Ta-Thsin ولقد هدَتهُ السحب الزرق لحمل إنجيل العقيدة الصحيحة، واتبع أحكام الرّياح، فاستطاع أن يخترق مفاوز عصيبةٌ مُدْنِيَة للحتوف ».

« في العام التاسع من حكم « تشنج ــ كوان » : Tching-Kouan (٦٣٦) وصل الى « تشانج ــ نجان » : Tchang-ngan فأمر الامبراطور وزير الامبراطورية الاول، وكان يدعى « فانج ــ هي ــ ونْ ــ لِنج » : Fang-hi-wen-ling أن يذهب مصحوباً بعدد كبير من الأتباع الى الضاحية الغربيـة، ليقابل ذلك الغريب ويحضره الى القصر. وقد ترجمت الأناجيل المقدسة في المكتبة الامبراطورية، وتلقت الحاشية تلك العقيدة، وتأملت منها مليَّا، وفهمت وحدة الحق العظمى، وصدرت وثيقة خاصة تجيز إذاعتها ونشرها ».

« وفي السنة الثانية عشرة من حكم « تشنج ــ كوان » : Tching-Kouan وفي خلال القمر السابع منها، حيث كان الخريف، أذيعت الوثيقة متضمّنةً ما يأتي :

« ليس لهذه العقيدة اسم خاص، وليس للقدسية جوهر محدود، إنها تنظّم ديانات توافق أمماً مختلفة، وتحمل الناس على طريقتها زمراً وذرافات. إن « أولوبن » Olopen أحد « أهالي تا ــ ثسن » : Ta-Thsin وهو رجل سامي الفضيلة، ويحمل الأناجيل والصور، قد حضر ليقدّمها إلينا في البلاط العالي. وبعد بحث لم يتجاوز مداه لحظة واحدة في روح هذه الديانة، إتَّضح أنها حسنة دقيقة ترمي الى السلام، وأن التأمل من مبدئها الأصيل

---

(١) لم يذكر الاصل رقم « ٤ » بين ٣ و ٥ .

يُسري أنها تولّد الكمال وتركز الارادة . إنها مفيدة للناس ، فينبغي أن تنشر في كل مكان تظله السّماء . ولهذا أمر الحُكّام أن يقيموا معبد « تا ــ أسن » في الناحية المسمّاة « تا ــ ننج » : Ta-ning من المدينة الامبراطورية ، وأن يخصّص للخدمة فيه واحد وعشرون من رجال الدين » .

١٠ ــ [1] إن « سو ــ تسونج » : Sou-Tsoung الامبراطور المستنير الدائم الصيت ، قد أقام في « لنج ــ أو » : Ling-ou وغيرها من البلاد ، بلغت في المجموع خمس ، معابد لامعة . وبذلك قويت شكيمة الخير الأول ، وازدهرت الهناءة . وأقيمت في بعض الأحيان قدّاسات فيها المهابة والوقار ، وخطت الامبراطورية في طريق فسيح من السعادة » .

١١ ــ « إنَّ تاي ــ تسُونج : Tai-Tsoung (٧٦٤) وهو امبراطور محارب مثقف قد استمر في تأييد هذا الانقلاب ، وجعل همّه محصوراً في السلام والهدوء . وكان في كل سنة عند حلول ساعة الميلاد (عيد الميلاد) يحرق البخور ، السّماوي ، إحياء لذكرى الخير القدسي ، ويقيم الولائم الامبراطورية ليبارك الجمهور اللامع (النصارى) .

٢١ ــ [2] نصب هذا التذكار في السنة الثانية من حكم « كين ــ تشونج » Kien-Tshoung : أحد أفراد أسرة : « ثانج » : Thang العظيمة (٧٨١ م) في اليوم السابع من ربع القمر الثاني . وكان « ننج ــ شو » : Ning -Chou راعي هذه العقيدة ، رئيساً لأبناء الدين اللامع في مملكة الشرق » .

هذه ترجمة الكتابة التي وجدت على الأثر الذي عثر به في « سي ــ نجاو ــ فو » سنة ١٦٢٥ م . وقد أجمع النقاد على أن في العبارات ما يدل على نزعة نسطورية أكيدة . والراجح أن الذين نشروا هذا المذهب في تلك الأصقاع ، جماعة من النساطرة عبروا دجلة والفرات ، ثم دخلوا خراسان ، ووصلوا امبراطورية الصين من مقاطعة « شنسي » Chen-Si

ولقد أثار هذا الكشف كثيراً من النقود والبحوث ، اشترك فيها « فولتير » وغيره من النقاد والكاتبين ، وقد نأتي على طرف منها في بحث آخر .

اسماعيل مظهر

(١) ليس في الاصل ارقام ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ (٢) هكذا في الاصل ولا توجد أرقام بين (١١) و (٢١)

الفكر العربي

لا يزال في الأغلال

شيوخ نجد وشيوخ مصر

بمناسبة كتاب « هذي هي الأغلال »

أصدر العالم النجدي الأستاذ عبد الله علي القصيمي كتابه « هذي هي الأغلال » يريد به أن يجرب المسلمون والعرب الحياة بعد أن جربوا الموت طويلاً ، فهبت عليه عواصف الرجعية والجمود من كل مكان ، في مصر وفي المملكة العربية السعودية ، وقاموا يرمونه بكل سهم وجدوه حتى لقد استعانوا بالكذب والوشاية وبما هو أقل منهما ندراً . وتاريخ النضال بين الرجعية وبين أنصار التقدم والوثوب تاريخ طويل ، زاخر بالبطولة والنبل من جهة ، والنذالة والصغار من جهة أخرى. والإنسانية أجمع مدينة بكل ما لديها من علوم وأفكار وآداب وحضارات وصناعات ، وأديان أيضاً ، لهؤلاء الرجال القلائل الذين يوهبون الجرأة على الباطل الموروث وعلى التقاليد الآخذة بالمخانق وعلى الأصنام المرفوعة وعلى كل نقص وضعف قديمين. ولو أننا تصورنا البشرية محرومة من هؤلاء الرجال البسلاء لما كان هنالك بد من أن نتصورها تحبو في مطلع وجودها الفطري البدائي المهين ، عاجزة عن الوقوف على قدميها. وقد تقدم البشر في العصور الأخيرة تقدماً عظيماً من حيث الإستعداد لقبول الجديد من الأشياء ونبذ القديم الذي يثبت فساده أو نقصه أو عجزه عن تحقيق الأهداف العليا للحياة السعيدة الصالحة . وقد عدت أوروبا وأمريكا اليوم نموذجين واضحين في هذا الإستعداد . ومن أجل هذا استطاعتا أن تسيرا في خطوات سريعة دائبة إلى هذا التفوق الذي أوقع العالم كله تحت سيادتهما الظافرة . أما نحن — والشواهد على ذلك كثيرة متلاحقة — فلا نزال حيث كانت البداية الفكرية ، وحيث كان الجمود الصارم العنيد . وقد يكون من شواهد هذه القضية السيئة، هذه الضجات والصرخات التي تنطلق ملعلعة حول كل ومضة فكرية أو وثبة عقلية يقدم عليها — في ركام من الركود والهجود — أحد الذين رزقوا هذه الموهبة الإنسانية النادرة التي لا تستطيع بيئتها الخاملة الكسول أن تمنحها الإنطلاق الموقوت في

سبلها المرسومة وإن أقرب الشواهد على هـذا الخمول والـكفران الذهني لدينا — معشر العرب أو معشر المسلمين — هـذا الرجفان المزلزل من الأباطيل والأكاذيب ضد هذا الـكتاب : كتاب « هذي هي الأغلال » والمهم هنا جداً أن نعرف من هؤلاء المتناصرون المتحالفون لمحاربة هذا الـكتاب ، وما هي الأغراض الحقيقية الخفيّـة التي تدفعهم أو تدفع أكثرهم إلى خوض هذه المعركة ، وما الذي يجب أن يصنعه أولو الفكر والرأي والأمر لرد هجومهم وللأخذ على أيديهم — إذا كنا حقّـاً راغبين في أن نسلك الجادة التي سلكها الناجحون في الحياة الصانعون لها ، وإذا كنا أيضاً نريد أن نتقبل هذه الحياة تقبل الأحرار المشاركين في التبعات ، لا تقبل العبيد الذين تفرض عليهم حياتهم ووجودهم فرضاً !!

إن الذين نهضوا لحجب هذا الضياء هم فريقان من حيث المكان : فريق هنا في مصر حيث تضج بالأضواء والأفكار والصناعات التي أبدع في إيجادها ذلك العقل الذي تفلت من أغلاله ، وفريق في الحجاز ونجد حيث يدأب ذلك العقل العربي العبقري — الملك عبد العزيز — على إحياء الموات وإيجاد الحياة وجلب الخضرة الى تلك الآكام الجرداء والى رؤوس الحجارة الصماء ... ولكل من الفريقين المتحالفين في هـذه الحرب أغراض ودوافع . أما الذين يقاومون الـكتاب في الحجاز ونجد فهم فريقان أيضاً : أحدهما أولئك الغرباء الذين جمعتهم المطامع وشهوات الحيـاة الرخية حول عرش ذلك الجواد العظيم ، ثم ثانيهما أولئـك الشيوخ النجديون أو الحجازيون الذين ينكرون أن يكون في الدنيا ما يطلب أو ما يتعلم سوى كتب الفقه والتوحيد . أما أولئك الغرباء الحافون بعرش طويل العمر من مستشارين وموظفين، فهم ينكرون هذا الـكتاب لأنهم يعلمون أن سلطانهم ومجدهم موقوتان بوجود الليل في بلاد العرب ، وإنهم حينما يطلع النهار هناك يشدون رحالهم لا محالة الى حيث كانوا قبل أن يبدأوا هـذه الرحلة السعيدة الموفقـة . وحينئذٍ يفقدون كل ما وجدوا في عالمي الجاه والمـال . إذ هم يعرفون من جهة أخرى أن هذا الـكتاب كتاب « الأغلال » — هو بمثابة النهـار الذي يشرق فيهزم الظلام ويلزم الذين يعملون في الظلام بأن يكفوا عن العمل ، وأن الشعب الذي يقرأ مثل هذا الـكتاب لا بدّ أن يحب المعرفة ولا بدّ أن يتعلم، ويومئذٍ يفقد هؤلاء الغرباء السعداء ميزتهم التي بهـا استغلوا تلك

البلاد وأصبحوا جباة أموالها . ولو أن أهل هذه البلاد قرأوا أمثال هـذا السفر وأجابوا نداءه ونهلوا من ينابيع المعارف والعلوم ، لـكان هؤلاء الضيوف خارج حدود البلاد من أزمان . . . أنهم يعرفون كل هذه الأمور معرفة جيـدة وهم من أجل هذه المعرفة يناوئون كل نور قد يتسلل على غفلة منهم إلى موضع مجدهم وسلطانهم الطويل العريض ، وهم من أجل هذه الحقيقة أيضاً يحسّنون — بلا اخلاص ولا تقوى — لأهل البـلاد حالتهم ويوحون إليهم بألاّ يغيروها لأن في تغييرها — على حسب زعمهم وقولهم — ضياع الدين والخلق والسعادة . وهم إذن على قول من يقول : « الغاية تبرر الوسيلة » غير مخطئين ولا ملومين . ولـكننا نحن المخطئون الملومون يوم نجهل أهدافهم ومساعيهم وما يحاولون ويريدون .

* * *

أما المحاربون لهذا الـكتاب من شيوخ نجد والحجاز فهم جماعة من الذين سجنت أفـكارهم منذ وجدوا في كهوف مظلمة صنعتها أفـكار مظلمة في عهود مظلمة ، فلا أمل في أن يتقبلوا بسهولة وسرعة هـذا الضياء الذي يحمله هذا الـكتاب ولا عجب في أن يثوروا وينكروا . ولا ريب أيضاً في أن بعض هؤلاء الشيوخ الذين قاوموا الـكتاب إنما حملهم على مقاومتهم هذه علمهم بأن من الأفضـل والأبقى لمصالحهم الشخصية الخاصّة ولملـكهم الروحاني القاهر أن يبقوا وأن يبقى كل شيء كما هم وكما هو . وآخرون من الشيوخ هم من الغرباء أيضاً الذين ذهبوا هناك يطلبون الصيد . فلا مندوحة لهم عن أن يقاوموا ما قد يطير بعض صيدهم من أيديهم المغتصبة الرخوة .

وكم عانى جلالة الملك عبد العزيز — هبة الجزيرة العربيـة بدون نزاع — من هؤلاء الشيوخ حينما أحبّ أن يدخل الى بلاده ما لا بدّ منه من حسنات هذه الحضارة وضروريات هـذا العصر . . . وقد حرموا استعمال السيارة والتلغراف والتليفون والراديو والساعة في بعض الأوقات ! ! وزعموا أن ذلك كله ، لا يعدو أن يكون من أعمال الشياطين . وقد اضطرّ جلالة الملك منذ سنين تحت ضغطهم المتواصل القوي أن يأمر بوقف استعمال بعض هـذه الامور مدة من الزمان وبتحطيم الأجهزة ، وهم لا يزالون حتى اليوم يحرمون العلوم — غير

علوم الدين — ويمنعون افتتاح المدارس ! ! وحسبك أن تعلم بأنه لا توجد حتى اليوم في العاصمة — الرياض — مدرسة حتى ولا ابتدائية . وهذا بسبب مقاومتهم ومنعهم مع حرص جلالة الملك وكثيرين من رجال الدولة الأصلاء أن تنتشر العلوم والمدارس في أرجاء المملكة. ومن أغرب ذلك وأشنعه أنهم إذا وجدوا كتاباً في الحجاز مكتوباً عليه مثلاً : « كتاب الطبيعة » استنكروا ذلك وعدّوه ضرباً من ضروب المروق والاشراك بالله ، وهم يلزمون بأن تزال من الكتب كلمة « الطبيعة » ولا يقبلون في هذا الأمر جدالاً . ونحن نشهد أن الملك عبد العزيز عبقري عظيم حيث استطاع أن يسير بدولته وبشعبه في هذه السبيل بين هؤلاء الخرافيين الجامدين .

وأننا لا نشك لحظة في أن مثل هذا الملك الفذ العبقري لا يمكن أن يحكم أمثال هؤلاء الشيوخ في مثل مؤلف كتاب « الأغلال » أو في كتابه ولا أن يقضي عليه بما يقولون ويزعمون ، بل لا نشك في أن القضية ستكون معكوسة أي أن الاستاذ القصيمي هو الخليق بأن يكون رأيه وكتابه هو الحكم المقضي بما فيه مع مخالفيه .

ان الأمم كلها لتفاخر بالممتازين من رجالها المفكرين وتعمل على الانتفاع بهم وبمواهبهم العقلية ، وتعد هؤلاء الرجال القلائل هم أعظم فضائلها ومفاخرها . هذا في الأمم التي يكثر مفكروها ، فكيف بأمثال أممنا التي عقمت عن أن تلد من هؤلاء إلاّ القليل في الزمن القليل . ومن ثمة فليس لدينا ذرة من الشك في أن جلالة الملك عبد العزيز وسائر الأمراء ورجال الدولة الأصلاء ، سيحاولون أن تنتفع البلاد والشعب بهذا الكتاب وبكاتبه . لا أن يسمعوا فيه أقوال الجاهلين والجامدين والوشاة المغرضين .

أما الذين يقاومون الكتاب من المصريين فهم عبارة عن شيخ شهر بالتبلد والجهل في بلده مصر وفي الحجاز الذي هاجر إليه مرتزقاً ، ثم رجع منه مطروداً يحمل أوزاره وفضائحه الخلقية والعلمية على كتفيه . هذا أحد المقاومين ، ثم جمعية دينية يديرها جماعة من الشبان الذين يعدّون على أصابع اليد . ونحن لا نتهم هؤلاء الشبان في اخلاصهم ولكننا نتهمهم في عقولهم . ويكفي تدليلاً على هذا أن يكتبوا في الشيخ محمد عبده والسيد الأفغاني وأن يقولوا أنهما كانا منافقين وفاسقين وداعيتين للاستعمار ، وأنهما كانا يؤلفان الجمعيات

السرية لهدم الاسلام . وأن يكتبوا ويقولوا مثل هـذا القول في سعد باشا زغلول وفي كل رجل من رجال الدولة والوطن والدين كالشيخ المراغي والشيخ مصطفى عبد الرازق والشيخ شلتوت ، وفي أمثال علوبة باشا وأمين الحسيني مفتي فلسطين وفي كل رجل له شأن في وطنيته أو في دينه . وعلى رغم أننا نعتقد أنهم مخاصون ، فاننا نرى أنهم من أجرإ خلق الله على الاختلاق وعلى الاتهام بالباطل . وهـذا طبعاً ليس من صفات المؤمنين الأتقياء ، ولـكنها الغرارة الدينية الطائشة والخصومة التي تقع من غير الرجال ... وثمة خصم ثالث لهذا الـكتاب وهو رجل يتعاطى صناعة الأدب الصناعي ولـكن مقاومتـه لهذا الـكتاب والأسلوب الذي اختار للمقارنة كانا برهانين على براءته من كل صلة بالأدب بكل معانيـه ومبانيه . هؤلاء هم خصوم هذا الـكتاب في مصر لا غير . أما أحرار الفـكر وقادة الرأي فقد أجمعوا بلا استثناء على امتداحه والدعوة إليه وعلى أنه العـلاج لأمراض الأربعمائة المليون المسلم الذين عجزوا لشدة أمراضهم عن أن يسايروا ركب الحياة .

* * *

والذي نحب أن نشير اليه اشارة قصيرة من هؤلاء الخصوم الثلاثة هو الخصم الأول ، هو رئيس جماعـة من الجماعات الدينيـة الجامدة . والذي نريد أن نقوله هنا انه في معارضته ومقاومته لم يفعل فعل الأتقياء المتدينين الذين يزعم انه من أفضلهم أو على رأسهم — بل لم يصنع صنع الرجال المحـترمين الذين يعرفون أن لهم مكانة في الهيئـة الاجتماعية يجب أن يحافظوا عليها ، وحرمة لا بد أن يرعوها ، والا فهل يعرف البشر أن رجلاً محترماً يقيم لنفسه وزناً — أو يظن أن الناس يقيمون له وزناً — يعمد الى كتاب مطبوع يملأ الأيدي والمـكتبات يحاول الرد عليه أو هدمه على حسب ادعائه ، فينقل منه عبارات وفقرات ويحرّفها تحريفاً فاضحاً حتى يزعم أنها باطلة وأنها يجب الرد عليها وأن كاتبها كافر ؟ فيجيء مثلاً الى هذه العبارة في الـكتاب : « وقد عمل الاسلام اعمالاً باهرة لا تـُـكـفـَـر . . . » فينقلها هكذا بعد أن عمل لها مقدمة وشرحاً يوضح غرضه المحرف

المكذوب — : « وقد عمل الاسلام أعمالاً لا تكفي...» (فأبدل بالراء ياء) وهكذا يكثر من هذا التحريف في الردود التي كتبها ليرد بها على الكتاب. وقد أتى كل صنوف التحريف المعروف عند البشر — زاد ونقص واختزل وغير ... ونحن نحب أن يعرف كل من يقرأ لهذا الشيخ أن كل ما ينقله من عبارات الكتاب وألفاظه — دع ما فهمه منه فهماً — محرف بأحد وجوه التحريف المذكورة فلا حجة بما يقول ويكتب إلاّ لدى من لم يوهبوا الملكات الانسانية التي أحد معانيها التمييز والفهم لما يقرأ ويرى. وكفى أن نقول أنه طرد من الحجاز. ولماذا ؟ ذلك ما نترك القول فيه له هو، فليس من شأننا أن نقول في ذلك شيئاً الاّ اذا حملنا على ذلك.

***

كتاب « هذي هي الأغلال » في اعتقادي أنه هو كتاب العصر في موضوعه وفي القضية التي عالجها، وأنه لا حياة للعرب أو المسلمين ما لم يأخذوا بالأفكار الصارمة التي ضمنها والتوجيهات الحية التي جاء بها ... إنه الكتاب الذي يجب — في رأيي طبعاً — أن يفرض على المعاهد العالية أجمع ليستطيع القيام بعملية تطهير عامة قوية من ركاكات الماضي وسخافات التقاليد وبقايا الضعف الذهني والاعتقادي والديني — تلك البقايا التي تلازم من يتخرجون في الجامعات وفي المعاهد العالية فيأتون — على رغم تعليمهم العالي عاجزين عن النجاح في الحياة وعن الابداع فيها — بل عاجزين عن الانتفاع بكل ما اقتنوا من علوم ومعارف عالية. والسبب الأكبر في هذا العجز هو ما ذكرنا من سلطان الماضي السخيف العتيد الذي جاء هذا الكتاب ليجعله أحاديث ومزقاً

***

وكتاب كهذا لا شك عندنا في أنه لن يلقى لدى سيد الجزيرة وأمرائها ورجالها إلاّ التأييد والنصر الأكيد.

مسلم مر

المحاكم المختلطة

في تاريخ مصر القديم

بمناسبة قرب الغائها

قد لا يعرف إلاّ القلة أن هناك ما يسمى « بالمحاكم المختلطة » في مصر القديمة أنشئت لغرض خاص وزالت بزوال الظروف، فمصر القديمة كما كانت مهداً للحضارات، كانت كذلك وطناً للتشريع والتقنين. ولم تقل عناية الشعب والقائمين على شؤونه بهذه الناحية الاجتماعية عن عنايتهم بعباداتهم وتقديسهم لآلهتهم، وذلك لأن العدل أساس الملك والعدالة شرط لا بدّ منه إذا أريد للدولة الحياة وللامة البقاء.

فلا عجب إذن أن نرى للعدل إلاهة تدعى «معات» تهيمن على ممثليها في الأرض كالملك والوزراء والقضاة وسائر الأفراد. فالمعبودة «معات» هي التي ينتسب إليها القاضي ويدعى كاهنها، و«معات» هذه هي التي كانت تتحلى بتمثالها الصغير من القلادة التي يلبسها القاضي، حول عنقه عند النظر في القضايا. ولعلها في ذلك الوقت كانت تشبه صورة مليك البلاد باعتباره حامياً للقضاء وكان هذا التمثال يوضع في كل قاعة من قاعات العدل ليطمئن المظلوم ويرهب الظالم

ولتعميم العدالة في البلاد أنشئت في مصر القديمة محاكم من نوعين، مدنية وجنائية — وكان اختصاص المحاكم المدنية الفصل في المنازعات العقارية من انتقال ملكية أو بيع أو شراء أو هبة أو وصية أو ميراث أو إيجار وما إلى ذلك — وكانت المحاكم المدنية على ثلاث درجات: —

١ — محاكم كانت تعقد في القرى أو المدن الصغيرة وكان يطلق عليها عادةً في اللغة المصرية القديمة إسم « جاجات » بمعنى مجالس قضائية. وكان القضاة ينتخبون من الطبقة الخاصة من الموظفين المعروفين باسم « سرو » أي « الكبار » وكانت تعقد جلسات هذه المحاكم بإشراف حاكم القرية.

٢ — الثانية محاكم عواصم الأقاليم أو بالمصرية القديمة « حات ور» أي البيت الكبير وكانت تنظر في القضايا التي تشبه تلك التي تنظر أمام محاكم الدرجة الأولى وينتخب قضاتها من طبقة كبار الموظفين السابقة. وكانت تعقد جلساتها برياسة حاكم الأقاليم — ووزير العدل هو الذي كان يعين قضاة محاكم الدرجتين الأولى والثانية.

٣ — الثالثة وهي محاكم استئنافيــة تنظر أمامها قضايا محاكم الدرجة الاولى والثانية وتسمّى « سوني حات ور » ويختار قضاتها الستة من أعضــاء مجلس العشرة وكان يرأسها الوزير بصفته وزيراً للعدل والملك هو الذي يعين قضاة هذه المحاكم الاستئنافية .

ومما هو جدير بالذكر أن القاضي كان يعرف في المصرية القديمة باسم « صاب » أي المصلح إشارة إلى مهمة القاضي والغرض من القضاء ، وهــذا النوع من المحاكم لم يلازم الشعب المصري القديم في جميع عصوره ، بل تحوّل مع مرور الزمن . ففي عصر الوحدة الثاني (الدولة الوسطى) ظهر نوع آخر يعرف باسم « قنبت » واستمرّ في عصر الوحدة الثالث (الدولة الحديثة) وامتاز بأن يجلس للحكم في القضايا الجنائية عدد من القضاة يتراوح بين ستة وثمانية. وكانت المحاكم الاستئنافية لهذا النوع من المحاكم تسمى «قنبت» ما واستمر الحال على هذا المنوال حتى عصر البطالمة فبقيت هذه المحاكم الوطنيــة لتطبيق القانون المصري في النزاع بين المصريين والفصل في قضاياهم وسميت باليونانية « محاكم الـ Laocritae »

أما الأغريق فـكانت تطبق عليهم القوانين الأغريقيــة في محاكم أفريقية تسمى محاكم الـ « Chrematistae » إذا كان فريقا النزاع منهم ، وهي تشبه المحاكم القنصلية. ولكثرة نزوح الأغريق إلى مصر بعــد غزو اسكندر الأكبر لمصر سنة ٣٣٢ قبل الميلاد ثم قيام أسرة ملـكية جديدة للبطالمة .

ولما زاد عدد الأجانب الذين وفدوا على مصر وكثرت المداولات التجارية مع وجود اختلاف بين القوانين المصرية المحلية والأغريقيــة ونشوء المنازعات بين الأجانب والمصريين واختلاف اللغة الأغريقية عن المصرية القديمة وضرورة الفصل في هذه المنازعات، أنشئت محاكم جديدة عرفت باسم « Koinodikion » أي « محاكم مختلطة » إبتدائية في الفيوم أو الإسكندرية وطيبة ومحكمة استئناف مختلطة في الإسكندرية (مقر الملك) تضم عدداً من القضاة اليونان أو المقدونيين والمصريين .

ولما انقضى الغرض الذى من أجله أنشئت هذه المحاكم زالت بزواله . وفي الوقت عينه تقلص حكم الدولة اليونانية المعروفة بدولة البطالمة وحلّت الامبراطورية الرومانية محله .

ولعلنا نجد فسحة من الوقت لنوافي القارىء بتفاصيل هــذا النظام بين القضايا التي وصلت إلينا .

دكتور باهور لبيب
الامين في المتحف القبطي

عين شمس

كتاب ملخص

ألعوبة الحرية

(هذه قصة كبيرة وضعها الكاتب الانجليزي المعروف فيلبس أوبنهايم ، تحوي كثيراً من طرائف مغامر أمريكي ، وكثيراً من فضائح الطبقات العليا في انجلترا . ولما كان فيها مشابهة لكثير مما عندنا ، رأينا تلخيصها هنا ، وخاصة ما يتعلق منها بحرب الانتخابات البرلمانية ، فكثيرون من الناس يظنون أن الاساليب التي يتبعها المتنافسون على النيابة قاصرة على مصر ، ولكن لها أشباهها في أرقى البلاد المتمدنة)

كانت جلسة النبيل الانجليزي السيد وولرلي ، هذه الليلة في أحد مطاعم لندن الكبيرة على مائدة واحدة مع السيد يوسف پاركر الاميركي . وابنته الحسناء الآنسة حواء .

ولم يكن بين النبيل الانجليزي وبين الامريكي ، وابنته معرفة سابقة ، ولكن المستر پاركر قدم نفسه للشاب الانجليزي على أنه رجل أفاق . وابنته فتاة أفاقة !

واستنكف النبيل الانجليزي أن يقدم رجل اميركي نفسه الى رجل لا يعرفه بهذه الصفة وفي أول مرة يلقاه فيها . فكاد يتركه ويتخلص منه ، لولا أن جمال الفتاة الغالب أبقاه ، عندما جلست معه ، فرأى فيها جاذبية غريبة .

ولكن المستر پاركر كان رجلاً مشتبهاً فيه لدى رجال البوليس ، ولعلّ المستر پاركر ألقى بنفسه على هذا النبيل الانجليزي — عند ما تخيل فيه ملامح النبلاء ، حتى يستطيع أن يتخلص من رجال البوليس اذا داهموه ، بادعائه أنه صديق لهذا النبيل !

وكان مع الأميركيين رجل آخر ، ومعه حزمة صغيرة في جيبه . فطلب إليه پاركر أن يخرجها ويضعها على المائدة ، ففعل . وما لبثت أن اختفت تلك الحزمة والمستر پاركر يقول : كان في إمكاني أن أنشلها من جيبك دون أن تشعر ! .

وفي تلك اللحظة أقبل أحد ضباط البوليس السري الانجليزي ، واتجه إليهم ، ووضع يده على كتف المستر پاركر وحياه ، وطلب إليهم في أدب أن يصحبوه الى حجرة داخلية

للتفتيش ، بحجة سرقة بعض الملاعق والشوك ! .

واحتجَّ المستر پاركر على هذه الاهانة التي ستلحق بصديقه النبيل الانجليزي ، واحتج النبيل الانجليزي على هذا الادعاء ، فهو لم يعرف المستر پاركر من قبل حتى يسميه صديقه ! .

وذهب پاركر وزميله مع الضابط . ثم عادا ليتناولا عشاءهما الذى طلبه الأميركي وهو ذاهب مع الضابط ، الى أن يعود ، فقد كان واثقاً من عودته السريعة لأنه لم يسرق شيئاً ، والحزمة التي كانت مع الأفّاق الآخر اختفت ! .

ورأى النبيل الانجليزي نفسه مسوقاً إلى أن يتصل بالرجل الأميركي وابنته الجميلة ، وهو لا يدري لذلك سبباً إلاّ دافعاً خفيًّا نحو الفتاة .

* * *

واتضحَ للنبيل الانجليزي أن هذا الأميركي يعرف الكثير جدًّا عن معظم الأشخاص الذين يمرون بهم، وعن أبناء لندن نفسها . ولعله كان يعرف الكثير عن (وولمزلي) ولكنه أخفى ذلك عنه .

وعجب وولمزلي أن تنحدر فتاة بهذا الجمال الى تلك الأعمال الاجرامية ، فقالت له إنها وأباها يعيشان بهذه الوسيلة ! .

وتشاء المصادفات أن يرتكب الأميركي بعض أعمال النشل أمام النبيل الانجليزي ، فيجد النبيل في ذلك تسلية بالرغم منه ، ويجد نفسه مسوقاً معهما ، ولكنه في نفس الوقت كان لا ينفتأ يحاول إصلاح الفتاة ، وتهذيب الرجل ! .

واختلط الأميركي وابنته بكل أوساط المجرمين واللصوص في لندن الكبيرة ، وفي أندية القمار ، وانغمر النبيل الانجليزي معهما ، ولم يفلح في حملهما على الإقلاع عن تلك الحياة ، ولم تشفع له مساعدتهما على السرقات ، وعلى الخروج من بعض الورطات التي وقعا فيها ! .

واتفق الأميركي مع لص انجليزي خطر على الذهاب الى دار (الأوپرا) ذات ليلة ، فلما سأل النبيل حواء لماذا تفضل الأوپرا على غيرها قالت له وقال والدها : لأن (الشغل) هنالك أربح وأضمن .

ولما ذهبوا إلى هنالك ، كانت شقيقة النبيل مع زوجها ، وهو لورد ، وكانت جالسة

الأميركي وابنته ، واللص الآخر بمقربة منهما . وكان في الصف الأمامي زوجة أحد أصحاب الملايين ، وهي تتحلى بعقد ثمنه عشرون ألف جنيه .

ومال اللصان وتهامسا ، وعرف النبيل أنهما يتآمران على سرقته ، وكان ! .

ولم تتبين النبيلة سرقة عقدها إلاّ عند الانصراف ، فأغلقوا الأبواب ، ولم يدعوا إلاّ النبلاء يخرجون . وبحث صديقهم فلم يقع لهم على أثر ، فأسرع الى المطعم الذي اعتادوا اللقاء فيه ، فوجدهم هناك ، ووجد العقد الثمين بين يدي المستر پاركر الأميركي يتفرّج عليه هو وإبنته ! .

ولم يكد الانجليزي يراهم ويرى العقد مع صديقه اللص ، حتى طلب إليه أن يخفيه ولكن الأميركي لم يطعه ، وظلّ يتأمله حتى دهمهم ضابط البوليس السري الذي يتتبع خطوات الأميركي وإبنته وقد رآهما منذ قليل في الأوپرا . فأخذ يراقبهما ، ولكن الأميركي اختفى عن ناظره كالمسحور . فلما اكتشفت السرقة عرف أن الأميركي هو السارق ، فأسرع خلفهم ، ودهمهم والعقد بين أيديهم ، فساقهم الى مركز البوليس ، ولشد ما أدهش النبيل الانجليزي أن جاء الخبير في الجواهر فقرر أن العقد زائف ، فأطلقهم البوليس واعتذر رئيسه ! .

وفي صباح اليوم التالي وجد النبيل الانجليزي العقد الحقيقي في جيبه ، فأرسله الى صاحبته ، من لص تائب ! .

***

وتكررت أمثال هذه الحوادث كثيراً ، ولكن الحادثة التي ساعدهم فيها النبيل الانجليزي مساعدة حقة ، هي عند ما كانوا في المطعم الكبير ، وقد اصطحب الاميركي لصًّا انجليزيًّا آخر كبيراً ، وفرر معه نشل رجل أخرج حافظة نقوده من جيبه وأخذ يتأملها ، ولعله كان من رجال البوليس . وقد نصبوا هذا الفخ ليوقعوا الأميركي الذي دوّخهم بسرقاته وعبقريته في السرقة ! .

ونشلت الحافظة بمهارة عجيبة ، وأقبل ضابط البوليس السري يجري وأمسك بتلابيب الأميركي وزميله اللص الآخر .

وسافهما إلى مركز البوليس ، ولكن النبيل ترك الفتاة التي يحبها — بنت الاميركي — جالسة في المطعم وأسرع لعله يستطيع انقاذ والدها ، وأحاط بهم رجال البوليس ، ولكن الأميركي الماهر تمكن من أعطاء الحافظة للنبيل الانجليزي الذي كان أسرع من الأميركي في نشلها منه بمهارة عجيبة ، ووضعها في جيب صاحبها الأول !

وتركهم ضابط البوليس وهو يعض شفتيه ، وقد أدرك أن النبيل الانجليزي هو الذي فعل ذلك ، لأن الأميركي وزميله الآخر كانا محوطين برجال البوليس السري . وهز الضابط رأسه ، ولعله كان يفكر في تدبير آخر !

وعادوا ثانية الى حواء قبل منتصف الطريق !

***

ونصح الضابط السري للنبيل الانجليزي أن يبتعد عن ذلك اللص وابنته لأنهما مشبوهان وهما ان أفلتا من قبضة القانون اليوم فلن يفلتا منه إلى الأبد ، فسيقعان في يده يوماً ما ...

وليس من الكرامة أن يكون أحد النبلاء محلاً للشبهات ؟

والقانون لا يرحم ...

فإذا ضبط النبيل معهما أثناء تلبسهما بارتكاب حادث سرقة ، اتهم بما يتهمان به ، ولكن النبيل لم يرتدع وكان كل غرضه أن يتزوج من الفتاة وينتشلها من تلك الحياة ، فيعرض عليها الزواج فتصده عنها أولاً في رفق ولين ، ثم تعود فتغلظ له ثم تلين ، ولكنه لا ييأس ...

وعرض عليها ماله لتنفق منه هي وأبوها مرة وأخرى ، ولكنها قاطعته محتدة وطلبت إليه أن يكف عن هذا ...

ولما صحبهما إلى أحد أندية القمار القذرة ، ورأى أساليب المقامرين في السرقة ، ورأى كيف نشل أبوها الفين من الجنيهات كانت على مائدة القمار ، ورأى تألم الفتاة لهذه الحياة ، هاف لها ذلك ، فصمم على أن يصلحها بأية حال ... ولكنها كانت تقول أنها ليست من طبقته ، فيبدو عليه أنه ابن أحد النبلاء ، وأما هي فابنة رجل أفاق !

ويدعوها الشاب إلى حفلة عشاء في أحد المطاعم الفخمة ليقدمها فيها إلى أقاربه

فيرفضان أولاً ، ولكن النبيل الشاب يلحف عليهما فيقبلان ولكن على شرط أن يغير الأميركي وابنته اسمهما ، وان يحضرا الحفلة باسم آخر هو — مستر بندركوم وابنته !

ويقدمهما النبيل لاخته وأقاربه فيرحبون بهما ويحيونهما .

وتأخذ عمة الشاب تتحدث إلى هذا الأميركي — بندركوم — وتخبره أن ابنها عند ما عاد اليهم من أميركا أخذ يمتدح لهـا أحد الأغنياء الكبار بهذا الاسم — بندركوم — ويمتدح ابنته ، فقد أكرماه وقضى معهما وقتاً طيباً .

وتخبر قريبها الشاب أنها أرسلت في طلب ابنها ليسلم عليهما لأنه يشتاق الى رؤيتهما واكرامهما كما أكرماه . . .

ويذهب النبيل ليخبر الأميركي بالورطة التي وقع فيها بانتحال هـذا الاسم . فيهرب الأميركي وابنته ، ويترك ورقة للمضيف يعتذر عن الانصراف المفاجىء . ثم يكتشف النبيل حينئذٍ ان قلادة أخته سرقت ، وحلية عمته نشلت ، وخاتماً ثميناً جداً لأحد أقاربه فقد ، فيفكر الشاب ويسرع اليهما فيجد المسروقات فيعود بها حالاً ويقول ان أحد الخدم في المطعم نشلها ، وقد طرد في الحال !

* * *

ويتقابل الشاب والفتاة فتعتذر عن سرقة أبيها حتى لأقاربه ويعرض عليها الزواج أيضاً هذه المرة فتثور فيه ، لأن أقاربه عرفوا حقيقتها هي وأبيها ، ولكن الشاب يخبرها أنه لفق السرقة لأحد الخدم !

وهنا تشكره الفتاة ، وتبدأ تحبه حبًّا خالصاً !

* * *

ويذهب الشاب الى حفلة أخرى فيأخذهما معه .

وينشل الرجل عقداً آخر من زوجة الداعي . ولم يكن بين المدعوين من يثير الريبة غير المستر پاركر الأميركي — أو المستر بندركوم — كما أطلق على نفسه أخيراً . . !

ولكن الشاب يدافع عنهما دفاعاً حارًّا . . .

ويذهب اليهما حيث يقيمان ، فيجدها يتساران ، ولما انتهت جولته معهما عاد الى بيته ،

وذهب في صباح اليوم التالي اليهما فلم يجدهما في مقرهما الأول .

لقد رحلا !

وسأل عنهما الخادم فلم يظفر بعنوانهما الجديد ، لأنهما لم يتركاه .

ويسقط في يد الشاب ، ويخرج آسفاً مغموماً ، ولكن الخادم يسرع خلفه ويناوله برقية لاسلكية آتية من أميركا تحمل لغزاً ، فقد كانت تقول — ان ه . . . أبحر إلى انكلترا —

وقال الخادم انهما عند ما قرآ هذه البرقية ارتعبا وأخذا في حزم متاعهما !

وعرف الشاب انهما يخشيان شخصاً يطاردهما من أميركا .

وبعد قليل يدق التليفون في بيت النبيل الانجليزي ، واذا بالمتكلمة هي حواء ، حبيبته وقد طلبته اليها ، وأنبأته أنهما نزلا فندقاً من فنادق الدرجة الأولى . فلما ذهب اليها وسألها السبب قالت انهما أصبحا مشبوهين هنالك ، في الفندق القديم ، وليس هنالك أحسن من الفنادق الكبيرة لنفي الشبهات ! .

وجلس الثلاثة يتحدثون قليلاً .

وأقبل ابن عمة وولزلي ، الشاب الذي كان في أميركا وعرف رجلاً وابنته يحملان إسم بندركوم ، وما كاد يرى حواء حتى أسرع نحوها وتناول يدها الجميلة بين يديه وهو يصيح — لقد رأيتك أخيراً . . .

* * *

وكاد (وولزلي) أن يصعق عند ما رأى هذا المنظر العجيب ! .

وكادت الغيرة تفترسه !

إذن هذا اللص الخطر ، وابنته الحسناء ، اللذان يتسميان في انجلترا باسم باركر ، ليس إلاّ بندركوم ، المليونير الاميركي وإبنته ، صاحب المصانع العظيمة التي تنتج الآلات الزراعية الشهيرة التي تحمل اسمه !

ويالها من حقيقة مفزعة

ويالها من أسرار محيرة عجيبة !

***

وما كاد وولمزلي يفكر في هذا كله ، وهو أشبه بالتائه المخمور ، حتى تقف سيدة أميركية في باب الحجرة الكبيرة ، توجه الخطاب الى الموجودين في داخلها...

كانت هذه السيدة ترتدي ملابس بسيطة محتشمة ، هي الى ملابس الفقراء المتدينين أقرب ، وتضع على عينيها نظارتين ، وتكلمت بصوت مرتفع :

«وأخيراً أعثر عليك ، يا سيد يوسف بندر كوم ، أنت وابنتك الجميلة حواء ، وأتحمل في سبيل اللحاق بكما كل مشاق السفر الطويل والتعب الذي أورثتنيه بشذوذك الغريب ! هل تعرف كيف أتيت من أميركا الى هنا ، سعياً وراءك ، وقد تركت مصالحي هناك ، واعتذرت عن حضور المؤتمر النسائي الكبير ، لألحق بك ، وأنت تهرب من بلد الى بلد ، حتى عثرت عليك أخيراً ...

« يا سيد بندركوم أيها الرجل الذي يمتلك ثمانية ملايين من الدولارات ، ويتركها وراءه . ويصحب ابنته الوحيدة حبًّا في المغامرات ، وسعياً وراءها ، ولم يكفه الفضائح التي تركها وراءه في أميركا .. انني تعبت ، تعبت !

« من هذا السيد ؟ هل أستطيع أن اتكلم في حضرته أكثر من ذلك ؟ انني أعرف السيد الآخر الذي كان معنا في أميركا »

وهنا يخبرنا وولمزلي انه خطيب حواء ، فتثور العجوز وتقول — هذا خطيب حواء ! من يدري من يكون ؟ لعله أحد اللصوص الذين تعرف اليهم السيد بندركوم في مقهى من مقاهي اللصوص . . . لعله مجرم وضيع من هؤلاء الذين يسعى السيد بندركوم وراءهم دائماً . . . لماذا لا تتزوج السيد الآخر ، هذا الشاب الصغير النبيل . الذي يحمل والده لقب إيرل ، إذا كان لا بد أن تتزوجي أحد الانجليز ؟.

وهنا يقاطعها النبيل الصغير قائلاً — إن السيد وولمزلي من أسرتنا ، إنه ابن خالي ! .

وتصمت العجوز الثرثارة .!

ويأتي بعد ذلك ضابط البوليس السري الذي اعتاد أن يطارد السيد پاركر — أي بندركوم — فتقول زوجته إن هذا السيد الضابط ، هو الذي أخبرها عن زوجها عند ما اعطاه أوصافه وذكرت له هويته !

وتعود العجوز إلى الثرثرة ، وإلى ذكر التعب الذي صادفته في سبيل سفرها ، فتقول الفتاة حواء :

— ولماذا جئت ؟ إننا لم نطلب إليك المجيء !

— ولكني يا إبنتي أسعى وراء صالحك ...

— لست إبنتك ، بل إبنة زوجك !

— نعم يا إبنة زوجي ، ولكنك في منزلة إبنتي !

وتعود الى الثرثرة والغلط ، ويهرب الأميركي من زوجته ويجلس للشراب مع الضابط ، ومع النبيل الانجليزي ، الذي أحبه حباً جماً !

* * *

واختلى وولمزلي وحواء .

وسألها عن السبب في سلوك والدها . وسلوكها معه . هذه الحياة العجيبة ، فقالت :

— لقد أغرم والدي بحب المخاطرات . ودراسة الحياة الوضيعة ، التي يحياها اللصوص والنشالون ، وقد قرأ كل الروايات البوليسية ، ومثلها ، وبزها في الكثير ، وكل أمله من ذلك لم يعدُ الدراسة ، فالاصلاح ، فالتهذيب !

— ماذا تقصدين الاصلاح والتهذيب ؟

— أقصد ما أقول ! ان والدي ينغمر بين اللصوص والمجرمين والنشالين ، ويتظاهر بأنه أحدهم ، وهو يتقن النشل والسرقة اتقاناً عجيباً ، ولكنه إذا وجد من أحد اللصوص ميلا الى الحياة الشريفة ، ساعده عليها !

— هذا عجيب ومحيّر !

— هو الواقع ، فكم أصلح والدي من أمور الكثيرين ، وساعدهم على الحياة الشريفة من جديد ، وسترى بعض ذلك !

— وماذا صنع بعقد زوجة المضيف الذي دعاني فدعوتكما معي اليه ؟

— رددناه اليها من (لص شريف) !

— وماذا صنع بالألفين من الجنيهات التي نشلها من منتدى القمار ؟

— لم ير أن يردها الى صاحبيهما ، لأنه مال مسروق كذلك ، ولكنه ضم اليهما ألفاً ثالثة وأرسلها الى أحد المستشفيات للمساعدة على علاج الفقراء !

وجلس النبيل مع خطيبته حواء ، وزوجة أبيها ، يتناولون العشاء في المطعم القديم .

وتطلعت حواء فرأت والدها جالساً مع فتاة جميلة على مائدة قريبة .

ورآها وولمزلي ، وحاول هو وخطيبته أن يصرفا زوجة السيد بندركوم عن هذا المكان كيلا ترى زوجها ومعه تلك الحسناء ، ولكنها رأتهما !

وطلبت من السيد وولمزلي أن يذهب إليه ويدعوه ، فاعتذر ، ولكنها هددته بالذهاب بنفسها وعمل فضيحة في هذا المطعم المحترم ، فقام الشاب متألماً . واتجه الى صهره ، وابتسم ، وحياه ، وانحنى للفتاة بصحبته ، وأسرَّ إليه أن زوجته جالسة معه هي وحواء ، ولكن السيد بندركوم تجاهل وقال له :

— أنت مخطيء أيها السيد ! ليس إسمي بندركوم ! إن إسمي يوسف . ه . باركر !

ولكن ... !

فالتفت الأميركي الى الفتاة الجالسة معه وسألها :

— هل تعرفين هذا السيد ، يا آنسة بلانش ؟

— كلاَّ . . .

— أنت مخطيء إذن أيها السيد ! لست أنا المقصود !

وعاد الشاب فأخبر العجوز ، فثارت وذهبت بنفسها ، ولكن زوجها تجاهلها كما فعل مع صهره ونادى خادم المطعم ليطردها !

* * *

وخرج الشاب وخطيبته ، وجلست العجوز تنتظر زوجها على باب المطعم ، ولكنه خرج من الباب الآخر مع حبيبته الصغيرة !

(لها بقية) حسين المهدي غنام

الشتاء

قالوا : الشِّتاءَ ، فقلت : أثقَلَ حمْلَنا ـ ثقلتْ حُمولُهْ

قد عاث في حُسن الطبيـ ـعة حسْبما اتجهت ميولُه

الشمس ، وهي الشّمس ، جا رَ على رِسالتها رَسُوله

أطفا توهّجها ، وأ ثّر في نَباهتها خُموله

وضبابُه – لا كان – وا راها ، وشجّعه فُضوله

يا للحبيب بدا ولكن صَدّهُ عنّا عَذوله

والجو مالّ ببرده والليل طال فَمُلَّ طوله

والشهب قد كسلت لديـ ـه ولم تنشّطها طبوله

فبدت سماء الله كالـ ـميدان مشكولاً خُيوله

والطير طُيرّ أنسهُ عنه ، وأُنسيَ ما يَقوله

والغصن بين يديه عا رٍ ، كاد يعدوه مُحوله

والروض قد ماتت نضا رته وأبّنها ذبوله

نزل الشتاء به فأصـ ـبح لا يُرى إلاّ طلوله

وكذا المنازل لا يعمّـ ـلها لنا إلاّ مثوله

شاعر البرارى

نتحدّى !

كنت أول من كتب مبيناً عن الأغراض الخفية التي تنطوي عليها شركة « الكاتب المصري » وهي شركة للطبع والنشر وبيع الورق المضغوط وغيره من أدوات الطباعة ، وراعني أن يكون الدكتور طه حسين عميل هؤلاء الذين إن تجردوا من كل شيء فلا يتجردون من أنهم هراري وسيكوريل ، ومن أسطورة أنهم من أبناء شعب الله المختار ، ومن خرافة أن فلسطين أرض الميعاد ، ومن عقيدة أن فلسطين وشرق الأردن وسوريا هي وطنهم الأول ، وأن العراق ومصر والسودان وبلاد العرب هي مجالهم الحيوي ، وأنهم أرقى الأمم وأحق الشعوب بملك الأرض ، وأنهم السلالة النقية ، يحيون بذلك الفكرة السلالية التي قامت عليها الفكرة الخاطئة في المانيا في عهد غليوم ، وتجلت بمظهرها الدموي في عهد هتلر.

وان لي لعقيدة لن تخرج من روعي أو تخرج معها نفسي ، هي عقيدة أن كل صهيوني يهودي أولاً ، وأن كل يهودي صهيوني بعد يهوديته ، وأن الحرب التي يشنونها في فلسطين حرب اعتداء ، وأن أنظارهم تتطلع الى الشرق الأدنى برمته ، وأن يهود العالم أجمعين ، وفي أي ركن من أركان الدنيا ، يتطلعون الى اليوم الذي يسودون فيه الشرق ، ثم من بعد ذلك يسودون الدنيا ، لأن هذا الشرق هو ولا شك مفتاح العالم المتحضر .

وقد نشرنا مع هذه الكلمات كتاباً من الدكتور « طه حسين » نشرته جريدة الدفاع في « يافا » في شهر اكتوبر من سنة ١٩٤٥ ، واحتفظنا به طوال هذه المدة أي حوالي سنة وشهرين لعلّ الدكتور وشيعته يحققون نبوءته التي تنبأ بها فيه إذ قال :

« ومن يدري لعلّ خصوم هذه المجلة يبهتون في يوم من الأيام حين يرون فيها خصومة عنيفة للصهيونية وهجوماً عنيفاً على ظلمها ودفاعاً عن العرب في وطنهم فلسطين » .

وإني أتحدّى طه حسين أن ينقل العبارة الآتية وينشرها في مجلة « الكاتب المصري » ممهورة بامضائه الكريم إن كان من الصادقين :

« أنا طه حسين المصري العربي المسلم ، أعلن على صفحات مجلة « الكاتب المصري » أن الصهيونية إفك وعدوان على العرب ، وأنها تحاول أن تخرج العرب من ديارهم أو تستعبدهم فيها ليكونوا لها خدماً وعبيداً وإني أبرأ الى الله من اليهود والصهيونية ، وأن عقيدتي العربية ، وديني الإسلامي ، يأبيان أن يكون وطن عربي مجالاً لمفاسد هؤلاء الآفاقين الذين هبطوا فلسطين بعد أن لفظتهم أوطانهم ، وإني أومن بما يؤمن به العرب أجمعين أن فلسطين إما أن تظل عربية ، وإما أن يدفن آخر عربي في ثراها » .

هيا سيدي الدكتور ، إن كنت من الصادقين فانقل هذه العبارة في « الكاتب المصري » وأمهرها « بإمضائك الكريم » ، نؤمن بأنك عربي مصري مسلم ، وإلاّ فقد لزمتك الحجة بما قيدت به عنقك من وعد صريح بأن تشن في « الكاتب المصري » خصومة عنيفة على الصهيونية ، وأن تدافع عن العرب في وطنهم فلسطين ، ولكنك سوف لا تفعل ، وغالب الظن أنك لن تفعل ، فانك لست من العروبة بحيث تفعل .

ولا نتحدّاك وحدك بل نتحدّى معك كل شيعتك من الذين أخرجت لهم كتباً بمال اليهود أو تعاقدت معهم على أن تخرج لهم كتاباً لا يزال تحت الطبع أو كاتب أجرته ليسوّد صفحات من « الكاتب المصري » ، فنتحدّى هؤلاء جميعاً إن كانوا عرباً مسلمين أو نصارى أن ينقلوا أو ينقل واحد منهم هذه العبارة وينشرها ممهورة بامضائه الكريم . أما اذا فعلوا فقد آمنّا بعربيتهم وإسلامهم أو نصرانيتهم ، وإلاّ فان الحجة التي تلزمك تلزمهم أيضاً بالتبعية لك ، وأقل ما في ذلك أن يصح رأينا الذي قلناه وهو أن أهون ما في هذه الشركة من مفاسد ، أن تكم أفواه مئات الكتّاب اذا ما ارتبطوا معها بمصالح مادية ، ومن أطعم فه ، استحت عينه .

هيا سيدي الدكتور : تشجع قليلاً ، وتذكر قولة عمر بن الخطاب « ذهب ما أعطيتموه وبقي ما أعطاكم » .

اسماعيل مظهر

كتاب من :

الدكتور طه حسين عن القضية الصهيونية

كان السيد الاديب خليل شطاره قرأ مقالا في مجلة «الصباح» اليهودية الغراء فيه اتهام للدكتور طه حسين بتشيعه للصهيونية. فبعث بكتاب الى الدكتور جاءه عليه الرد التالي :

تلقيت كتابك وانا اشكره لك اجمل الشكر واحب ان تطمئن الى اني وقد انفقت حياتي كلها في خدمة الادب العربي لا يمكن ان انحرف عن حب العرب وخدمتهم في حياتهم القديمة .

فاما الشائعات التي حدثتني عنها فان مصدرها المنافسة التجارية من جهة والضغينة السياسية من جهة اخرى والحسد البغيض من جهة ثالثة والشر لا يثمر الا شرا .

وخلاصة هذه القضية ان سبعة من اليهود المصريين قد اشتركوا في عمل تجاري صرف قوامه نشر الادب العربي قديمه وحديثه ونقل الجيد من الآداب الغربية الى لغة الضاد وطلبوا الي ان اكون مشيرهم في ذلك فقبلت بعد ان استقصيت واحسنت الاستقصاء وتبينت ان الامر لا يتصل ولا يمكن ان يتصل بالصهيونية من قريب او بعيد .

ونحن نصدر مجلة « الكاتب المصري » وهي مجلة مصرية عربية ظهر العدد الاول من اعدادها واني اتحدى من شاء ان يجد في هذا العدد وفي الاعداد التي ستليه اشارة للصهيونية او تاييداً لها .

ومن يدري لعل خصوم هذه المجلة يبهتون في يوم من الايام حين يرون فيها خصومة عنيفة للصهيونية وهجوما عنيفا على ظلمها ودفاعا عن العرب في وطنهم فلسطين .

وما اكتب اليك هذا دفاعا عن نفسي ولا عن المجلة فما شعرت قط بالحاجة للدفاع في هذا الموضوع وانما أثر في نفسي كتابك الكريم فأحببت ان يطمئن قلبك وان تثق باني لن اخلف ظنك ولا ظن أحد من العرب انما مثلي ومثل الذين يشيعون عني وعن المجلة كلمة السوء ما قال الشاعر العربي القديم

هنيئاً مريئاً غير داء مخامر
لعزة من إعراضنا ما استحلت

١٥ اكتوبر — طه حسين



الكنوز النفيسة
في القمامات الخسيسة



كثيراً ما تكون المصادفات وحدها سبباً لتكشف كنز ثمين أو إظهار شيء دفين. وقد جاءت الأنباء حديثاً بأن المنقبين في مدينـة رومية قد عثروا على تماثيل رومانيين أثريين في حالة جيدة، وذلك حينما كانوا يحفرون نفقاً تحت أرضها.

ومما يجدر ذكره في هذا الشأن أنه في سنة ١٩٤٠ اكتشفت في أراضي ليبيا خرائب معبد، زعم علماء الآثار التاريخيـة أنه هيكل كابو بطارة. وهو معبـد قائم في فجوة عميقة أحدثتها قنابل الطائرات القاذفة للقنابل عند ما كانت تنهال على ذلك الميدان.

وبعد ذلك بعامين كان الجنود الأميركيون يحفرون الأرض في ضاحيـة مدينة بايستم Paestum بايطالية، وذلك لاستخراج الحصى منها لحصب الطرق، فعثروا على ضريح من العصر الحجري، غاص بآثار من ذلك العهد، ورجح العلماء أنهـا أقدم التحف التي كشفت من نوعها حتى الآن.

وفي شتاء سنة ١٨٩٩ كان الدكتور جورج ريزنر العالم الأثري المشهور، يدير مجموعة من أعمال التنقيب عن الآثار التاريخية في بلدة تبتونس (تطون) Tebtunis بمصر، وكانت أعماله تسير سيراً وئيداً. وكانت تسود خيامه التي ضربت في الصحراء مظاهر اليأس، حيث كان عمال التنقيب، كلما توغلوا في الحفر، نبشوا تماسيح محنطة لا غير. وكان قليل منها لا أهمية له، وسائرها لا نفع منه يرتجى. وكانت الشروط المعقودة بين الدكتور ريزنر وعماله العرب، تقضي بأن لا يدفع لهم أجراً إلاّ عن الشيء الثمين الذي يستخرجونه من جوف الأرض. ولذلك صدف أخيراً عن مكافأتهم على هاتيك التماسيح العقيمة الملفوفة بلفائف التحنيط. ومن حسن حظ أحـد الأعراب أنه كان ذات يوم يحفر حفرة أثرية وهو محتدم غيظاً فأخرج لقيته وحطمها على سطح الأرض، فتناثرت أعضاؤها شذر مذر، كما كان العامل يتوقع. ولكنه لم يلبث أن انقلب امتعاضه ابتهاجاً إذ تبيّن أن الشظايا التي تطايرت من جوف التمساح، كانت أوراقاً بردية قديمة مصوّرة صوراً رائعة، هي التي كان ينشدها

مخدومه ، على أن يكافىء نابشها أسخى مكافأة . وعند ذلك شرع الدكتور ريزنر في تحطيم جميع هاتيك التماسيح المحتقرة التي كان قد أمر بنبذها قصيًّا ، تحطيماً تامًّا ، إذ تذكر من فوره أن ورق البردي الذي كان القدماء يلقونه في زوايا النسيان كانوا يستعملونه للف الأشياء والطبقات الداخلية لتلك الحيوانات المحنطة جميعها ، فصارت المستندات التي أتيح استردادها بتلك الوسيلة ، ضمن المجموعة النفيسة التي تحتفظ بها حالياً جامعة كاليفورنيا

ثم إن أغلب نماذج الأواني الزنكية الأولية البريطانية الموجودة الآن في المجموعة الأثرية المشهورة عثر عليها مكتشفوها إما في الآبار ، واما في مجاري القاذورات وإما في الخزائن القديمة المغلقة وإما في وسط طبقات المساكن العتيقة . وبيان ذلك أن الشركة القديمة لصناع الزنك كانت حظرت على أعضائها ترميم أي وعاء مكسور من هاتيك الأوعية الزنكية . وكان يحدوها على ذلك مراعاة مصلحتها ، إذ رأت أنه خير لصناعتهم انتاج الأواني الجديدة وبيعها ، من ترميم السابق استعمالها ، فعجز أرباب الصحون والكيزان والشمعدانات الزنكية عن إيجاد الصناع الماهرين الذين يستطيعون إصلاحها ، فألقوها في أماكن خفية وزوايا مهجورة ، وهي تلك المواضع والزوايا التي ما فتئت تستخرج منها بين حين وآخر . وكثيراً ما تكون العوامل الباعثة على فقد الكنز أو اخفائه ، خطيرة الشأن ، مثل الظروف التي تلازم الكشف عنه .

وقد تختفي مأساة قديمة من المآسي التي كاد الناس ينسون تاريخها . وذلك مثل مجموعة أورفيتو الخاصة بالأواني الصينية الجميلة التي ألقيت في بئر بناءً على أمر قسيس محلي أراد بذلك تطبيق القواعد الصحية ، قصد منع انتشار وباء الطاعون ، وذلك بارغام الجمهور على نبذ أطباقهم الجميلة . فحدث بعد انقضاء قرون من الزمان ، أن حلَّ ساكن جديد في ذلك البلد الواقع على التلّ الايطالي القديم ، فأخذ ينظف بئر الدار السابقة الذكر ، فعثر على حطام الأواني الصينية البديعة المشار اليها ، فبذل قصارى جهده في اعادة تركيبها وترميمها حتى عادت كأصلها ، ولما نجح في عمله ، جعلت عائلته تقلد صناعتها فراجت بضاعتها رواجاً عظيماً ، إذ هي تحمل طابعاً غريباً هو رسوم العصور الوسطى التي تؤلف من أرضية بيضاء يغشاها لون أخضر زمردي أو أصفر برتقالي . وفي إثيوبيا كانت مجموعة كتب قبطية خطية

كاملة في دير من ديورتها ملقاة في جب وقايةً للكتب من نهب الأعراب إياها عندما غزوا بلاد الحبشة . ثم تمكن أحد الشيوخ فيما بعد ، من استعادتها فابتاعها منه المستر ج . ب . مورجن [1] وذلك بمبلغ ٤٠٠٠٠٠ دولار . وفي أواخر القرن التاسع عشر دمّرت النيرِان قصر تلينجين القديم في هولندة ثم بيع ما بقي من أثاثه الذي تسنى انقاذه من الحريق ، بالمزاد العلني . فتقدم لشرائه خمسة عشر تاجراً تواطأوا بعضهم مع بعض على ابتياع تلك التحف بأبخس الأثمان ثم بيعها فيما بعد بأبهظ الاسعار ليقتسموا الربح فيما بينهم . وحدث في أثناء انهماكهم في التصرف في هذه الغنيمة أن جاء صبي من أبناء أحدهم ، وجعل يعبث بعلبة رثة من علب الجواهر والحلي ، كانت مطروحة على الأرض نسياً منسيًّا فلمس بغتة نابضاً (زنبركاً) خفيًّا كان مثبتاً فيها : فسمع حينئذٍ طقطقة أعقبها بروز درج خفي فدسّ الغلام يده في محتوياته الوضاءة الألوان وأخذ يلعب بالحشوة اللامعة التي تكشفت له ، غير انه لم يلبث أن اتجهت اليه أنظار أصحاب الشأن وذلك حينما ثار وأفشى سر ذلك الكنز . فأخذ يبادلهم التهانئ فأقصوه توًّا عن موقفه حيث وجدوا في ذلك الدرج مجموعة من الماس والياقوت ، وكانت جميعها من الأحجار الكريمة المشهورة والحلى النفيسة التي كانت مفقودة منذ عهد طويل في قصر تلينجين الذي كانت جاكلين أف باتافيا كونتيسة هولندا وزيلند ، سجينة فيه حتى توفيت سنة ١٤٣٧ وكانت قد نجحت في اخفاء جواهرها تلك عن أبصار ظالميها منذ زمن طويل . ونجم عن تلك اللقية ثراء أولئك التجار وبلوغهم منزلة مالية لم تعلن للملأ قط ، فقيل إنها أربت على نصف مليون من الدولارات . وكان رجل من المكسيك الجديدة ينبث [2] بئراً فعثر على دلو ملأى بالنقد والحلى الاسبانية القديمة بلغت قيمتها وزناً تسعة آلاف دولار ، فقيل إنها من المجموعة الثمينة المشهورة التي جمعها ج . س . كاندلاريو التاجر الهندي الذي كان مستوطناً ذلك المكان . ولكنهم لم يكشفوا سبب اخفائها في تلك البئر . وكذلك عثر بعض فعلة باريس على كنز من عهد لويس الخامس عشر في غضون هدم مبنى قديم في شارع موفيتار .

عوض جندي

---

(١) هو جون بيربونت مورجن ولد سنة ١٨٣٧ وتوفي سنة ١٩١٣ مالي أميركي مشهور وجامع التحف المعروف (٢) نبث البئر — نبشها وأخرج ترابها



تخريج كتاب الملل والنحل

للشهرستاني (١)



بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله ، وسلام على عباده الذين اصطفى . باسمك اللهمّ : أستلهم الصواب ، واستهدي الرشد ، وأتقي مواطن الزلل .

هل هناك فلسفة إسلامية ؟ وهل هناك ثقافة عربية ؟ وهل هنـاك تفكير شرقي ؟ وإن كان ، فما قيمة هاتيك الفلسفة ؟ وما طابع تلـكم الثقافة ؟ وما ينابيع هذا التفكير ؟ وحتى إن لم يكن ، فـلِمَ ؟ وكيف عاش الشرق — أو الشرق الإسلامي — طوال هذه المدة ؟ وكيف وصلت إلينا معارف السابقين — من يونان وغيرهم — وليس بيننا وبينهم إلاّ غرب سادر ، أو شرق قادر ؟؟

هذه أسئلة ضلّ في الإجابة عنها كثير من المتفلسفين ، من مستهل القرن التاسع عشر إلى اليوم ، بل وهاتيك قضايا لم تجد بعدُ القاضيَ العدل المنصف ، على رغم كثرة القضـاة الذين تعرّضوا لإصدار أحكامهم فيها بمختلف اللغات ، وفي شتى الجهات . . .

وعندي أن الجواب عن كل سؤال من هذه الأسئلة . أو الحـكم في كل قضية من هاتيك القضايا — يحتاج إلى : مستندات صريحة واضحة ، ودراسات مستفيضة مفصّلة ، ومدافعين أقوياء وقضاة عدول ، أعني يحتاج إلى تخريج تراث السابقين الفكري تخريجاً علميّـاً .

وفي يقيني أن من الواجب لعدالة مثل هذا الحـكم أن تُـقدّم مستندات القضية بأيدي أصحابهـا وألسنتهم ، أو بأيدي محاميهم والمدافعين عنهم ، أو — على الأقل — بأيدي أصدقائهم ، ليستطيعوا الدفاع عن وجهة نظرهم ، وإبراز مكنون ضمائرهم ونيّـاتهم ، وشرح

---

(١) هذا هو عنوان الرسالة التي ناقشتها اللجنة الخماسية المؤلفة لذلك بدار كلية أصول الدين برئاسة سعادة الدكتور منصور باشا فهمي ، والتي حصلت بها على شهادة العالمية من درجة أستاذ بدرجة ممتاز في التوحيد والفلسفة من الجامعة الازهرية بتاريخ ٢٤ من جمادى الثانية سنة ١٣٦٥ هـ الموافق ٢٦ من مايو سنة ١٩٤٦ م

ظروفهم ومقاصدهم ، فيجيء الحكم أقرب إلى العدالة ، وأجدر بالقبول . كما أن العدالة تقتضينا أن نرفض أي حكم في قضية ما أغفلت مستنداتها ، أو قدمت هاتيك المستندات بيد الخصوم أو الثائرين ، أو الأعداء

وكم كان جميلاً من « ألفرد جيوم » — المستشرق الانجليزي المعاصر أن يقول : « ولم يحن — بعدُ — الوقت الذي نتمكن فيه من أن نكتب تاريخ الفلسفة الإسلامية ، وحتى إذا قُدّر لنا أن ننشر ما يتصل بها من بحوث مودعة في المخطوطات ، ومنبثة في مختلف المكاتب في أوربا والعالم الإسلامي ، وقُدّر للعلماء أن يتداولوا هذه المطبوعات — فإن علينا أن ننتظر حتى تهيء الأبحاثُ الخاصةُ والدراساتُ المسهبةُ السبيلَ إلى الاحاطة بالفلسفة الإسلامية ، احاطة تتناول مداها الواسع » (تراث الإسلام ص ٣٧٢ طبع لجنة التأليف)

أفلا يجب علينا أن نعمل بكل عزم وحزم وقوة وسرعة على تخريج كنوز السابقين تخريجاً علمياً ، ثم نتدارسها دراسة مستفيضة مستقصية، فنهيء بذلك أنفسنا للحكم ، ونجلو الأساس السابق — لنهضاتنا العلمية — لنقيم عليه البناء اللاحق ، ونكمل معلوماتنا ؟؟

وكم نحن مدينون بالشكر لجهابذة المستشرقين الذين أماطوا اللثام عن كنوز تراثنا الاسلامي، وألقوا أضواء مختلفة على كثير من ثقافات الشرق العربي وعلومه، وأفنوا الكثير من وقتهم وشبابهم وحياتهم . . . باحثين منقبين ، باثين الآراء ، مصدرين الأحكام ، بقدر ما تسمح لهم ثقافتهم العربية ، وإخلاصهم للشرق والشرقيين .

وبحسبنا — الآن — أن نستمع الى بعض أعلامهم يحدثنا عن موقفهم من العربية : يقول « نللينو » : « فاعتبروا أننا المستشرقين الباحثين في أوربا عن لغات أهل الشرق واعتقاداتهم وعوائدهم وآدابهم وتاريخهم وجغرافيا بلادهم ... وهلمّ جرًّا ...ما تعلمنا تلك اللغات الا بمطالعة الكتب ... فبالجملة : صار مثلنا كمثل الصم والبكم ، وأصبحنا في كنوز العربية مترددين ، وفي بحورها متحيرين ، مع صرف همتنا اليها ، ومثابرتنا عليها » (علم الفلك ص ٣ طبع روما) .

ومع هذا فانا عاجزون حقًّا عن شكر هؤلاء المستشرقين الأعلام ، الذين أيقظونا من سباتنا ، ودفعونا الى المحافظة على تراث آبائنا وأجدادنا . نقبوا في ديارنا ، فنفضوا الكرى عن عيوننا . نعم نعلن عجزنا من شكر هؤلاء القوم ، حتى نرد اليهم جميلهم ، ولا أقصد أن

نكون مستغربين كما أن فيهم مستشرقين ، بل أريد أن نكون شرقيين ، نعني أولاً بتصفية تراث الشرق وتقديمه : صافياً لمن أراد ، شهيّـا لمن استطعم ، عذباً لمن استشرق ، فنصحح بذلك أحكام الماضي الجائر ، ويصحح المستشرقون معنا - مشكورين — أحكامهم الماضية . ومن يدري ، فلعلّ قبساً من هذا التراث يهدي الانسانية ، ويردها الى مقررات الوحي ، والعقل والضمير .

ولكن ما السبيل الى ذلك ؟ السبيل الى ذلك واضحة جلية ، ينحصر — الآن — في تخريج مؤلفات السابقين بنقدها داخليّـا وخارجيّـا . ونعني بالنقد الداخلي : تحرير الآراء ، وتجريدها مما علق بها من محار النساخ وأصداف المتعالمين ، ويدخل في ذلك دراسة أهواء المؤلف ، وميوله وشخصه . . . ويجب لهذا أن يجرد الباحث نفسه من شخصه وعصره ، ويلقي بنفسه في أعماق من يريد أن يخرج له أو يكتب عنه ، ويتغلغل معه في ثنيات عصره ومصره .. حتى ينطق بلسانه ، ويكتب بقلمه ، ويخطو بقدمه .

ونعني بالنقد الخارجي : الحكم على هذه الآراء من خارج المؤلف - بعد تحريرها - ويجب لهذا أن يجرد الباحث نفسه من ميوله وأهوائه ومعتقداته . . . حتى يكون عدلاً في حكمه ، موفقاً في تقديره ...

لكل ما سبق - ولأ كثر مما سبق - انصرفت همتي الى تخريج كنوز السابقين ، وتقديم المستندات العلمية بين يدي أحكامنا ، على رغم العقبات التي تعترض هاتيك السبيل ، والصعاب التي قد تستصعب إذا فترت الهمة ، تلك الصعاب والعقاب التي يجمع أعلام المستشرقين والشرقيين - من الذين تحملوا مشاق التخريج العلمي - على انه لا يمكن تقديرها الا ممن استهدفوا لها ، ووهبوا أنفسهم ونفيسهم لخدمة الانسانية جنود مجهولين .

فانتدبت نفسي لفتح باب هذا العمل - الجليل في قوته ، اللذيذ في صعوبته - أمام الشباب المصري ، الناهض الفتي ، ذي المضاء العازم ، والعزم الماضي ، والأمل الدافع . وكم أود أن يتقدم طالبو الاجازات العلمية من هذا الشباب بهذا العمل ، الذي انفرد به حيناً من الدهر كبار المستشرقين . حتى وفق الله كبار أساتذتنا الشرقيين لاقتحام ميدانه ، فأسدوا إلى الانسانية عامة ، والى المكتبة العلمية خاصة - خير ما يسدي عالم انتفع بعلمه ، ونفع الله به .

وأخذت أفكر فيما عساه أن يكون باكورة إنتاجي ، لأتقدم به لنيل درجة الأستاذية من الجامعة الأزهرية في التوحيد والفلسفة ، وأكون بذلك أول من قدّم رسالة من هذا الطراز ، لنيل درجة علمية في مصر . . . فأشار عليّ — في توجيه الحكيم ولفتة الكريم — الدكتور محمد البهي ، بتخريج كتاب الملل والنحل للشهرستاني . والشهرستاني حبيب الى نفسي من ابتداء التعليم العالي — من ثلاثة عشر عاماً — أو يزيد ، إذ هو المنهل العذب لمقالات أهل العالم الى يومه ، بيد أنه واسع الآفاق ، رحب الجنبات . وكم ألحّ عليّ كبار الأساتذة . ألاّ أخاطر بتخريج الكتاب كله ، مكتفين بتخريج جزء منه ، والوعد بتخريج الباقي ، ولكن . . . ولكن طبيعة العمل ، وما استطعت الحصول عليه من المراجع والأصول ، وما وقر في نفسي من أن أفتح باب التخريج العلمي على مصاريعه . . . كل هذا ، وأكثر من هذا ألحّ عليّ أن أنجز الكتاب مرة ، فآثرت أن أخرّجه كله .

وأظن أنه يكفي لإيثار تخريج كتاب « الملل والنحل للشهرستاني » أن يشعر الانسان أنه من صاحبه أمام عالَم في عالِم ، وأنه منه أمام كوْن في كتاب ، وأن يعلم أن هذا الكتاب طوّف بالعالم أو كاد . وما ظنّك بكتاب رحبت به معظم الجهات ، وتلقفته شتى اللغات ، فظهرت له كثير من الترجمات ، فضلاً عن مختلف الطبعات ؟ . ثم ما ظنك بكتاب أثنى عليه أقطاب علماء المشرق والمغرب ـ في القديم والمتوسط والحديث ـ بخير ما يُستثنى به على كتاب ؟ فيقول التاج السبكي عنه : « هو عندي خير كتاب صنّف في هذا الباب » ، ويقول « ألفرد جيّوم » فيه : « لا يمكن الاستغناء عنه في أي زمان » .

فإن حقّ لسائل أن يقول : لقد نشر « كيورتن » الانجليزي هذا الكتاب ، وطبع في لندن سنة ١٨٤٢ وسنة ١٨٤٦ م ثم ليبزج سنة ١٩٢٣ باللغة العربية ، كما طبع مراراً في مصر مجرداً وعلى هامش الفصل لابن حزم ... ففيمَ إذاً جهدك ؟ ولم تتعب نفسك ؟ وعلام تخرّج كتاباً قد خُرّج ؟ ؟ . . . إن حقّ لسائل أن يقول هذا ، وجب عليّ أن أقول له : إن « كيورتن » ـ على رغم إجلالي وإكباري لجهوده الجبار ـ لم يتعمق فهم نصوص الكتاب ، بل ولم يختبره كله ، كما أنه لم يفقه كثيراً من فقه لغته ، ولم يروّض نفسه على اكتناه أسلوبه ، ولم يتبع حتى أصول التخريج العلمي التي رسمها لنفسه في نفس الكتاب ،

وفوق هذا ، فقد فرض رأيه على كل قارىء — وقارئة طبعاً — ، إذ لم يثبت قراآته المختلفة للنسخ التي اعتمد عليهـا ، مع أنه مستشرق يسير في العربية بذوقه الخاص ، وفي دائرته الخاصة ، بل لقد احتفظ بملاحظاته ، وتعليقاته ، والقراءات المختلفة ، والفروض الخاطئة ، وثبت الأخطاء الكتابية والمطبعية . . . إلى مقدمة الترجمة الانجليزية — للكتاب كما يقول — تلك الترجمة لم يظهر شيء منها حتى الآن ، وقد مضى عليه أكثر من قرن من الزمان . بل وهذا « كيورتن » نفسه ، يسجل بيده قصوره وتقصيره ، فيصرح بأنه لم يتأمل كل جملة بأقصى انتباه ، ولم يختبر المؤلف كله ، ولم يحقق مخطوطتي « اكسفورد » مع وجود المساعدين المستعدين لكل ما يطلب . وكأن شعوره بتقصيره وخطئه ، وإحساسه بأن القراء قد أمسكوا بخناقه — جعلاه يرتبك في اعتذاره ، ويعتذر في ارتباكه ، فيرتعش القلم في يده ويضطرب . ويسطر كلمات مرتعشة مضطربة ، حيث يعد بترجمة الكتاب إلى اللغة الانجليزية ويرى أن هذا عبء كبير ، ثم يقول : « وهذا العبء سوف يلقي عليّ ضرورة التأمل في كل جملة بأقصى انتباه ، والعودة إلى اختبار المؤلف كله ، وعندي أمل في تحقيق المخطوطتين جميعاً الموجودتين في « اكسفورد » ، اللتان — الى الآن — لم أبحث منهما إلا صفحات مليئة بالصعوبة والغموض ، بمساعدة الأستاذ « ربي » الذي هو على أتم الاستعداد لإجراء كل التحقيقات التي أطلبها منه » . . . وعلى هذا فلا يصح الاعتماد على طبعة « كيورتن » ولا الوثوق بها .

وأما طبعات مصر للكتاب — سواء المجردة منها أو التي على هامش ابن حزم — فيؤسفنا أن نقرر أنها — ككل الطبعات القديمة — ليس فيها غَنَاء علمي الآن لأنها لم تُعن بالنصوص عناية كافية ، وحتى ما عُني منها بالنص فمن مخطوطة واحدة وتصحيح عاجل عابر ، ولأنها خالية من علامات الترقيم التي تعتبر إرشادات هادية في القراءة الحديثة ، ولأنها خالية — أيضاً — من التقسيم والتبويب والتفصيل ، مما يجعل القارىء تائهاً في بيدائها ، ولأنها — مع كل هذا — خالية من الفهارس التي تصل القارىء بسرعة ويسر إلى غايته من الكتاب ، فتوفر عليه وقته وجهده . . . ولأنها . . . ولأنها . . .

وفوق هذا ، فإنا وجدنا كل طبعات الكتاب السابقة وترجماته ، بل وحتى مخطوطاته

يعمها الاضطراب ، ويكثر فيها التشويه ، ويشيع فيها النقص . . .

وبحسبنا أن نعلم أن كل الطبعات ، وكل الترجمات ، وجل المخطوطات لهذا الكتاب ، قد سقط منها « نقل (الجيهاني) عن زرادشت في المبادىء » وهو موضوع خطير وجديد لم نعثر عليه بعدُ في مصدر آخر ، وقد شغل هذا السقط إحدى عشرة صفحة كاملة .

وأن نعلم كذلك أن كل الطبعات ، وكل الترجمات ، والغالبية الغالبة من المخطوطات ، لم تستطع الوصول إلى المقدمة التي قدّم بها الشهرستاني كتابه للوزير نصير الدين ، تلك المقدمة الجليلة التي تنفرد بمباحث قيّمة : منها التّصدّي إلى تحديد زمن تأليف الكتاب وإثبات مذهب الشهرستاني الاعتقادي ، والنص على اسم الكتاب ، وسبب هذه التسمية . . . وهذه حقائق قيمة وضرورية ، ما كان لباحث كائن من كان أن يقطع بها . بل وَلَمَا استطعنا نحن ذلك لولا هاتيك المقدمة التي تفردنا بتخريجها ، بعد أن فتشنا ما وسعنا التفتيش ، وشققنا خضَامّ المظان العلمية ، وقلبنا صحائف المكتبات العامة والخاصّة . . . حتى خلصت لدينا أصول كثيرة للكتاب : ترجمات ، وطبعات ومخطوطات .

ولما كان الإنسان لا يمكن أن يتخصص في كل نواحي العلم ، ولا يستطيع أن يحيط بشتى اللغات . . .

ولما كان لا بدَّ من الالتجاء إلى المتخصصين والاستعانة بهم ، خصوصاً في النواحي العلمية المترامية ، ليجيء الإنتاج العلمي أقرب ما يكون إلى الكمال ، فيصح الاعتماد عليه .

ولما كانت الاستعانة بهؤلاء المتخصصين لا تقف عند حدّ ما كتبوا ، بل الأولى — حتى وإن دَوّنُوا — الاتصالُ بهم في آخر لحظة ـ كلما أمكن ـ ليكون الاعتماد على رأيهم الأخير . . .

لما كان كل هذا ، فقد حرصت ، جهد طاقتي ، على أن أتصل بالأعلام المتخصصين مباشرة وأتلقى عنهم شفاهاً ـ ألفاظاً أو تحريراً خاصًا ما وسعني ذلك ، فان لم أستطع التجأت إلى ما دوّنوا سابقاً وعوّلت على ما كتبوا من قبل ، في القديم ، والمتوسط ، والحديث .

ولذا جاءت مصادرنا على قسمين : قسم سميناه بالمصادر الناطقة ، وقسم سميناه بالمصادر المكتوبة . ونعني بالمصادر الناطقة : العلماء العالميون ، الذين أمدّونا بأفكارهم ، وتوجيهاتهم

وإرشاداتهم ، وعاونونا : بمجهوداتهم ، وأقلامهم وأوقاتهم ... كل في دائرة اختصاصه ، وقد بلغ عدد هؤلاء الجهابذة عشرين عالماً من مختلف الملل والنحل والأصقاع ، فهل يفيهم شكري ؟

وهكذا جُلْنا في الكتاب جولات وجولات ، مع كبار المتخصصين تارةً ، ومستعينين بالله تارات وتارات ، بعد أن ارتمينا في أحضان صاحبه وصاحبنا أربع سنوات كاملة – بل يزيد – ليلاً ونهاراً ، غير حاسبين للزمن والنصب حساباً ، وتغلغلنا معه في ثنيات عصره ومصره : نتسمَّع إلى خلجات نفسه ، ونتحسس مدركات حسه ، ونساير وثبات حدسه ، ونُطوِّف ما طوَّف معه ، ونتصل معه بالحكام والسلاطين ، ونعقد معه المجالس الوعظية والعلمية ، ونتصفح معه مآت الكتب والمراجع . ثم نقف عند كل كلمة من كلمات كتابه ، نستشيره فيشير علينا ، ونستوضحه فيوضح لنا . والحق أنا كنا طوال هذه المدة صاحبين مخلصين : أمر لي وفهمت عنه

ثم أخذنا نتصفح كتابه وندرسه ، مبتكرين فهارسه ، منفردين بتقسيمه وتجزيئه وتبويبه وتفصيله مغربلين منظفين ، مطبقين كل ما رسمناه من قواعد « التخريج العلمي » . حتى خرجناه نقي الإهاب ، حسن الجلباب ، « يؤتي أكله كل حين بإذن ربه » . بعد أن بينا أن أول ما يلفت النظر في أمر « التخريج العلمي » اضطراب أمره لدى القائمين به ، وارتعاش حبله في يد القابضين عليه : فبينا نرى المبالغ في الافراط ، إذ نرى المبالغ في التفريط ، وبين هذا وذاك نرى أفواجاً سلكوا طرائق قدداً . وقد عرضنا عشرين نموذجاً من نماذج التخريج العلمي لكبار المستشرقين والشرقيين ، وتعرضنا لمن أمسكوا بعنان هذا الموضوع في العربية نظريًّا . ثم قررنا قواعد جديدة للتخريج العلمي نظريًّا وعمليًّا ، نرجو أن تكون دستوراً للمشتغلين به ، ونبراساً للمتصدين له ، خصوصاً وقد اجتازت تلكم القواعد ميادين الامتحان ، وفازت – من يد كبار المتخصصين – بالامتياز .

ونحن في كل هذا ندوّن مجمل ما سمعنا ، وما شاهدنا ، وما لمسنا ، وما لاحظنا ، وما درسنا وما استنتجنا ، حول كتاب الملل والنحل هذا ، قبل تخريجه ، وحال تخريجه ، وبعد تخريجه . فجاء عملنا على أربعة أنواع ، في أربعة مجلدات :

نوع اجتمع تحت عنوان « تمهيد لتخريج كتاب الملل والنحل للشهرستاني » ، ونوع ثانٍ اجتمع تحت عنوان « الشهرستاني وكتابه الملل والنحل » . وقد ضمّ هذين النوعين مجلد واحد تحت عنوان « المدخل الى كتاب الملل والنحل » ، وقد اشتمل على ٢٤٥ صفحة من القطع الكبير .

والنوع الثالث نص الكتاب بمفارقاته وعناوينه ، مقسماً مفصلاً . . . وقد تفرقّ في المجلدين الثاني والثالث ، اللذين شغلا ٨٦٦ صفحة .

والنوع الرابع الفهارس الخمس التي ابتكرناها للكتاب ، مع فهرس مخطوط . وفهرس الترجمة الألمانية ، وقد احتوى ذلك كله المجلد الرابع في ١٨٤ صفحة .

وبذا يكون هذا العمل الجليل قد تمَّ بحمد الله في ١٢٩٥ صفحة من القطع الكبير .

* * *

وبحسبنا الآن أن نمرّ سريعاً على كل نوع من أنواع هذا العمل ، موجزين ما وسعنا الإيجاز :

١ — المدخل الى كتاب الملل والنحل : ولعل تحديد الصفحات ، ووقت القارىء ، والحرص على تقديم عمل استغرق حوالي ١٣٠٠ صفحة تقديماً دقيقاً . . . يضطرنا إلى أن ننشر أمام القارىء الآن الفهرس لذلك المدخل ، فتنكشف بذلك الموضوعات التي عالجناها به ، وهاك نصه :

فهرس المدخل

القسم الأول : « التمهيد لتخريج كتاب الملل والنحل للشهرستاني » .

١ — واجباتنا

(١) الفلسفة الإسلامية : (ا) هل هناك فلسفة إسلامية ؟ (ب) وكيف نحكم عليها ؟ (ح) ومتى يكون الحكم عليها صحيحاً ؟ (د) الواجب علينا .

(٢) المستشرقون والتراث العربي : (ا) شكر وتقرير . (ب) المستشرقون واللغة العربية (ح) المستشرقون والفلسفة الإسلامية . (د) كيف نرد إليهم جميلهم . (ه) الكنوز العربية وتأثيرها الخالد . (و) الواجب علينا .

(٣) السبيل إلى أداء هذه الواجبات : (ا) تخريج مؤلفات السابقين تخريجاً علميًّا . (ب) النقد الداخلي والواجب له . (ج) النقد الخارجي والواجب له .

(٤) فتح باب التخريج العلمي على مصاريعه : (ا) صعاب التخريج العلمي ومعقاته (ب) واجب الشباب وطالبي الاجازات العلمية . (ج) التخريج العلمي وكبار المستشرقين والشرقيين . (د) باكورة انتاجي . (ﻫ) توجيه وإلحاح . (و) الواجب لطبيعتي العمل والأمل .

(٥) كتاب الملل والنحل للشهرستاني : (ا) ترجمات الكتاب إلى مختلف اللغات . (ب) طبعاته في مختلف الممالك والبلاد . (ج) الثناء عليه من علماء المشرق والمغرب . (د) الواجب علينا .

(٦) ليس في طبعات الكتاب السابقة غناء علمي : (ا) طبعات أوربا . (ب) طبعات مصر . (ج) واجبنا .

محمد بن فتح الله بدران

حضرة الاستاذ رئيس تحرير مجلة المقتطف الغراء

تحياتي لكم وبعد : فلقد اطلعت في عددكم الاخير من المقتطف على مقال « الاستاذ نقولا الحداد » تحت « آخر كلمة » وهي تختص بالرد على بعض النقاد في موضوع الذرة . وكان مما لفت نظري ما جاء في آخر المقال اذ يرد الاستاذ نقولا على الاستاذ جيمان بأن الكالوري هو كمية الحرارة اللازمة لرفع جرام من الماء درجة ١° م (وأحياناً لرفع كيلو جرام) وذلك حسب القاموس والاستاذ جيمان يعتقد أن الكالوري هو كمية الحرارة اللازمة لرفع كيلو جرام ماء .

وإني أجد أن كلا الاستاذين المحترمين قد وقعا في لبس يقع فيه كثير وقد آثرت أن أرسل هذه الفقرة لتصحيح هذا اللبس العلمي . وأرجو نشرها حتى يطلع عليها كل من أراد وهي :

« الكالوري الصغير Calorie ويكتب بحرف c صغير small : هو كمية الحرارة اللازمة لرفع درجة حرارة جرام واحد من الماء من ١٥° م الى ١٦° م وأما الكالوري الكبير ويكتب بحرف كبير Calorie - C capital letter يساوي ١٠٠٠ كالوري صغير أي ما يلزم لرفع درجة حرارة كيلو جرام واحد من الماء من ١٥° م الى ١٦° م» .

وختاماً تقبلوا احتراماتي لشخصكم العظيم .

عباس مهدي

نهائي طب — القصر العيني

الى النيل

حنانك يا قبلة الشاعر ويا رمز مجدٍ لنا غابر
إلى أين تبغي ؟ ومن أين جئت وحتامَ تنساب كالحائر !
أليس لسعيك من غاية أما لمسيرك من آخر
رويدك ! ما الكدّ سرّ الوصول وما العيش وقفٌ على الساهر
فلو كان في السعي نيل الخلود لما مات ذو قدمٍ سائر
علوت الجبال ، قطعت القفار وجبت ربى العالم الدائر
فماذا جنيت سوى وحشةٍ تلوح على موجك الماكر !؟

* * *

تمر على بلقعٍ موحشٍ قفار من الشجر الناضر
وتنساب بين رياضٍ حسان تزيَّنَّ بالسندس الزاهر
وحيناً تفيض على الظامئين بخير كثير الغنى وافر
وحيناً تغيض فلا نهتدي الى النذر من مائك الغائر
فهل ضايقتك شئون الحياة فضقت بتدبيرها الخاسر !
حياة تذل الأبيَّ الكريم وتسعد كل فتى فاجر
تبيعك إن أنت ناصرتها ولكن إذا بعتها تشتري
وتضحك كالطير بين الرياض وتخدع كالثعلب الماكر !
وتبسم كالزهر عند الشروق وتلدغ كالعقرب الناشر
وتشرق حيناً كنور الضحى وحيناً .. كليل الدجى العاكر
وليس بها غير طيف سراب قليل الغنا للفنا صائر

* * *

أيضنيك هذا الرحيل الطويل وضربك في القفر والعامر
تعالَ فإني بلوت الحياة وقاسيت من حكمها الجائر
رماني الزمان ولكن خضعت لحكم من القدر القاهر
فما غلب الدهر كالمستكين ولا قهر الكون كالصابر
وهيَّا نسيرْ في فيافي الحياة ونسبحُ في بحرها الزاخر
فيقذفنا الدهر حيث يشاء وما من معين ولا ناصر

كلية العلوم
بالعباسية

عفيفي محمود عفيفي

صحافتنا تنحدر

بالأمس خرج الاستاذ فؤاد صرّوف من ميدان العمل العلمي ، ميدان الحق والحقيقة ، وطلق ميدان الأدب والفلسفة، الى ميدان آخر ، هو ميدان صحيفة أمريكية تعمل للناحية التجارية ، وتبعه في ذلك محمود شاكر الأديب المعروف مؤلف كتاب المتنبي ، وهو بحث فذ أكبّ عليه صديقنا الأديب فألبسه من أدبه وفكره حلة قشيبة زادت الى ثروة الأدب زيادة تذكر ، ترك هـذا الميدان الى الميدان الأمريكي ، ميدان الدببة التي تدخل الفنادق، وتربيـة الأسماك في البرك والمستنقعات ، وقصص البحر وما أدراك ما البحر ، والطائرات الساقطة والصواريخ المنقضة . فكان خروج ذاك العالم وهـذا الأديب من ميدان العمل الجدي إنتكاساً لحركة العلم وحركة الأدب في مصر والشرق .

ورأينـا كبار كتّـابنا مثل صديقي احمد أمين بك وصديقي الأستاذ عباس محمود العقاد وغيرهما من كبار الـكتّـاب والمؤلفين ينزلون عن عليائهم وعن السماوات التي تحلّـق فيهـا أفـكارهم ، وقد بلغوا سن النضج العقلي، ودرجوا الى منازل الحـكمة العالية ، بعـد صبر طويل وتجربة مع الزمن واحداث الزمن ، ينفقون من وقتهم الثمين العزيز على العـلم وعلى الأدب ، ليسطروا ما يوافق مزاج الجمهور في صحف لا تمت الى العلم بسبب ولا تتصل بالأدب ولا ترتبط بالفلسفة أو الدين بأوهى رباط . إذن فالصحافة التجارية تنحدر وتحاول أن تجذب إليها عظماء الـكتّـاب والمفكرين ، تتخذ من أسمائهم التي بنوها بأعصابهم وعصارات قلوبهم ودمائهم الزكيـة وأعمارهم الطويلة بإذن الله ، سبيلاً الى كسب مادّي من طريق إرضاء الجماهير الجاهلة السابحة في ظلمات الشهوات الخسيسة والنزوات القذرة ، والانصراف عما هو خيرٌ الى ما هو شرٌ ، وبئس للظالمين بدلاً .

ورأينا أستاذاً عالماً كبيراً هو صديقنا الأستاذ أحمد زكي بك الـكيميائي المعروف يتولى تحرير مجلة الهلال بعد أن انحدرت من عليائها المرحوم جورجي زيدان الى مستوى

الصحافة الأمريكية الرخيصة ، صحافة الجماهير وما الى الجماهير ، وقد نرى الى جانب هذا أن صخور العلم والأدب ، تلك الصخور الصلدة التي مثلتها الصحافة الجدية في ما مضى من الزمن ، وقد دعمها أمثال صرّوف وجورجي زيدان وأحمد لطفي السيد والمنفلوطي وعلي يوسف ومصطفى كامل وفريد وفرح أنطون وسركيس وشميل وغيرهم ، وقد أخذت تتحات وتنفصل جزئياتها لتصير رمالاً تذروها الرياح ، وكان الله على كل شيء مقتدراً .

ظاهرة من الظاهرات التي تقضّ مضاجع الذين يؤملون في الامم خيراً ، ويودون لو أن جماهير هذه الامم تخرج من جهالاتها إلى رحاب العلم وميادين الأدب والفلسفة ، لا ان تخرج من جهلها الى ميادين الروح الامريكية التي غزت أسواق الأدب في مصر . وغزت بقية الشرق من طريق مصر .

أستغفر الله . أقول الروح الامريكية تخصيصاً لا اطلاقاً . وإذا قلت الروح الامريكية فاني أعني بها الروح الهفافة المائعة التي تعمل في تلك البلاد إلى جانب الصناعة والفن والأدب العالي والفلسفة الثابتة وإلى جانب الذرة وقنبلة الذرة ، لا الى جانب الجهل المطبق والأدب الرخيص ، فتزيدنا جهلاً ، وتروج لما رخص من الأدب على ما في أدبنا من رخص وتفاهة. وتصرفنا إلى الهزل دون الجد، وإلى الحكاية دون الأدب ، والى القشور دون العلم بل الى الهاوية التي تحفرها هذه الصحافة تحت أقدام الأمم العربية جميعاً .

يقول المتجرون بالأدب والعلم والفلسفة : إن الجماهير تطلب ذلك . آمنّا معكم وصدّقنا أن الجماهير تطلب هذه الألوان الرخيصة . ولكن أين نفوسكم وأين ثقافتكم وأين رسالتكم التي تؤدونها لهذا الجيل وللأجيال المقبلة ؟ آمنّا وصدقنا أن الجماهير لا ترتفع لأكثر مما تعطونها من مادة، آمنّا وصدقنا أنّ الجماهير قد تطلب ما هو أرخص مما تعطون في صحفكم، ولكن هل بدا لكم أن الجمهور كائن أصم أبكم أعمى مجنون لا ينفع فيه التعليم ولا تفيد فيه اللقانة ، وأنه كسائمة الحيوان ان لم تجد حشيشاً تأكله ، أكلت الروث والجيف . آمنّا وصدقنا أن الجمهور في حاجة الى التعليم والارشاد، فهل نثقفه بمقال في جدال ملك حول طربوش أو قصص في صور، وغير ذلك مما تغثي له النفس وتروح حسرات على الأدب والعلم وعلى الجمهور الذي لا يجد إلاّ ما تأكل السائمة من الحيوان إذا افتقدت غذاءها الطبيعي فلم تجده ؟

ولعلك تنظر في مجلة كالهلال في عهدها الجديد ، وهي المجلة الثقافية التي أنفق فيها

منشؤها الأول المرحوم أستاذنا جرجي زيدان ما أنفق من جهد وقوة وعنفوان وعلم وأدب وقصص ، فترى مقالاً كتبه طبيب من أطبائنا المعروفين تحت عنوان يضحك الثكلى. أتدري ما هو ؟ أنظر صفحة ١٤٣ من العدد الأول « في الثوب الجديد » الذي شعاره الى الامام ، تجد روشماً كبيراً وبالخط العريض « الجسم السليم في الأنف السليم » أليس هذا بمثابة قولك «الفيل الكبير في الخرطوم الصغير» أو قولك «الحية العظيمة في الناب البثيل» أو قولك « العقرب الكبير في الحمة القميئة » . أرأيت في عمرك الطويل أو القصير مثل هذا الاحتقار لعقول الناس، أو على حد قول تجار الادب «غش الجمهور». أرأيت جسماً في أنف أو فيلاً في خرطوم أو حيّة في ناب أو عقرباً في حمة ؟ أرأيت كبيراً يتضمنه صغير ؟ أرأيت كُلاً يتضمنه جزء ؟ إن لم تكن قد رأيت فانظر في العدد الأخير من الهلال ترَ المعجزة التي لم يدّعها نبي من الأنبياء ولا دعيّ من الأدعياء.

كل هذا ينشر للجمهور ، ومن هو هذا الجمهور ؟ هو جملة المتعلمين في جامعة فؤاد وجامعة فاروق والجامعة الأزهرية والمعاهد الثانوية والمدارس الاخرى مضافاً إليهم قلة لا يعتد بها من الذين لا يحسنون القراءة . هذا هو الجمهور الزاهد الأصم الذي يتجر هؤلاء بصحافته العلمية والأدبية ، ويملؤون من ماله جيوبهم ، ثم يرمونه بالغفلة ضاحكين ، وكل هذا ينشر باسم عالم من علمائنا وفذ من أفذاذنا ، ولا حول للأدب ولا العلم ولا للفن الرفيع أمام سلطان المال في زمان طغت فيه المادية على كل شيء حتى على الروح .

لست أدري بأي ضمير يحاول هؤلاء المتجرون بالأدب أن يحملوا الجمهور مسئولية أوزارهم كاملة . يقولون إن الجمهور جاهل منصرف عن الجد إلى اللهو ، متطير من العلم كاره للأدب . كل هذا ليبرّروا أساليبهم الملتوية ويخفوا أغراضهم الكريهة .

تاجروا بالصّحافة ، واتخذوا الاتجار بها مهنة . ولكن لا تتجروا بالأدب . ولا تتداولوا العلم تداول السلع الرخيصة ، ولا تموهوا على الفلسفة واقصروا عن إغراء الكتّاب بالمال ليكونوا لتجارتكم سبباً . بل اجعلوا من أموالكم حقّاً معلوماً لهؤلاء الأفذاذ ليعالجوا الى جانب تجارتكم مستغلق العلم وعميق الفلسفة ورفيع الأدب ، عسى أن تضفوا على ما تتعاطون من تجارة شيئاً من الاعتبار ، وتؤدوا لهذه الجماهير التي تنهبونها

بالغفلة والجهل ، وترمونها بكل نقيصة ، خفية أو ظاهرة ، بعض الواجب جزاء ما تصبر على الـكيد لها والنيل منها ، وافساد عقولها واثارة الشهوات الخسيسة في ميولها .

لقد انحدرت صحافتنا حتى كادت تكون حضيضاً . ولا مخرج لنا من هـذا إلاَّ بأن تحتقر هذه التجارة وتنبذ ويترفع عن المساهمة فيها كبار كتابنا وعلمائنا ، إلاَّ أن يكون لهم من صفحاتها مجال تسبح فيه ملكاتهم الخصبة، ويجد فيها أدبهم الرفيع وثقافتهم الممتازة مرتعاً رحيباً ومطمأنـاً إلى حين.

ا : م

واجعل خيالك واقعاً أو مت عنا ..

يا قلبُ فيمَ الحبُّ أو فيمَ المنى ؟ والحب كالعنقاء، لا هي أو أنا
أما المنى من غير حبٍّ في الفتى هِيَ باطلٌ لاخيرَ فيها أو غَنا
عجباً أتتَّبعُ الخيال وتبتغي فيه دنُوَّ لكَ إذ تصدّ عن الدُّنَى ؟!
متوثبٌ ؟ والساق جدُّ ضعيفةٍ أم طائرٌ ؟ والجنحُ مطويٌّ ثِنَى
فَلأنت كالباني قصوراً في الهوا والغيرُ شيَّدَ في الثرى لما بنى
فدعِ الخيالَ اذا توقف عاجزاً متلفتاً ، فهْو الخرافةُ والضّنى
أو إنْ تكنْ رجلاً تحققْ منيةً واجعلْ خيالكَ واقعاً أومتْ عنا

بغداد أيوب

واجب الشاب العربي

يعيش الشاب العربي اليوم في عالم تتسابق أممه ، وتتنافسُ شعوبُه ، وتتعارك دوله أشد العراك في أكثر الأحيان ، وكل أمة من هذه الأمم تبذل ما في وسعها ، وتقدم كل ما تُطيقه في سبيل تكوين جيل جديد من بنيها وشبابها ، يكون عدة الحاضر وأمل المستقبل والمعتصم عند النوازل ، والملجأ لدى الكوارث ، . . والأمة العربية الكريمة التي حملت أرفع الرسالات ، وأدّت للإنسانية أكبر الأمانات ، وأذاعت بين الناس أجل المبادىء ، ودعت بين العالمين بأحسن الدعوات ، دعوات السماء والنور ، والروح والأخلاق ، وتلتفتُ وراءها فترى لها في ماضيها تاريخاً مجيداً تليداً ، كله المفاخر والمآثر ، وتتطلع الى الغد القريب أو البعيد فيدفعها الأمل ويحدوها الرجاء ؟ هذه الأمة العظيمة الكريمة المجيدة تحتاج في نهضتها الحاضرة التي نشاهد بوادرها وبواكيرها ، جيلاً جديداً ، قويًّا في جسمه ، ناضجاً في عقله ، نبيلاً في خلقه ، فما هو واجب الشاب العربي في هذا الميدان ، حتى يكون شبلاً قويًّا فتيًّا من أشبال ذلك الجيل الجديد ؟! . .

أمام الشاب العربي واجبات كثيرة وتبعات جمّة ، لا بدّ له من أن يعني بها ويلتفت إليها ويحبس نفسه عليها ، ولا نستطيع في مجال محدود كهذا المجال أن نفصل أو نحلل ، أو نحصي ونستقصي ، فحسبنا إذن أن نطوف بعناوين واجبات ورءوس مسائلَ ندع جزئياتها والحديث عن تفاصيلها لألمعية ذلك الشاب العربي الذي تكفيه الإشارة وتغنيه عن العبارة !! .

يحتاج الشاب العربي في هذا العصر الناهض المتنافس أهله وأبناؤه أن يدرس جغرافية وطنه الأصغر ، وهو مسقط رأسه ودولته التي نشأ فيها وتحت حكمها يعيش ، وجغرافية وطنه الأكبر ، وهو سائر الأقطار العربية الشقيقة ، وكذلك تاريخ وطنيه الصغير والكبير ، فإنه من المؤسف المؤلم أن نرى الكثرة الغالبة من شباب العرب هنا وهناك لا يعرفون من تاريخ بلادهم أو جغرافيتها إلا النذر اليسير ، ولعلّ شباب مصر في جهلهم بتاريخ الأقطار

العربية وجغرافيتها أكثر من غيرهم وأسبق ، لأسباب كثيرة ليس هذا موطن عرضها ، وسائلْ إن أردت التأكد من هذا شابًّا مصريًّا عن عواصم الأقطار العربية أو مدنها الكبرى أو تاريخ جغرافيتها أو ماضي تاريخها، فإنه لن يحير جواباً ، ولن يرد بما فيه غناء ولقد تسائله عن أقطار أوربا وأمريكا فيحدثك عنها حديث العارف بدقائقها قبل جلائلها ويسرد لك أسماء الكتب التي قرأها عن تلك الاقطار وأما بلاده ووطنه فليس لها عنده حساب !

والشاب العربي لا بدَّ له من أن يعرف الآلام السياسية والاجتماعية والمادية التي يشكو منها كل عربي أو مسلم ، فان الشعور بالنقص أول درجات الكمال كما يقولون ، ولقد كان لك أيها الشاب العربي في الزمن الماضي وطن عزيز ، وتاريخ كريم ، وآباء وأجداد قادوا وسادوا ثم جرت الأحداث والنكبات على أخلافهم فذلوا وهانوا، وحسبك أن تسمع في ذلك أنة الشاعر العربي إذ يصوّر ذلة الوطن العربي بعد عزته، وضعفه بعد قوته ، ونزوله بعد ارتفاعه فيقول:

مالي وللنجم ؟ يرعاني وأرعاه ! أمسى كلانا يعاف الغمض جفناهُ !
لا تحسبنيِّ محبًّا يشتكي وصباً أهونْ بما في سبيل الحب ألقاه
إني تذكرت ، والذكرى مؤرّقة مجداً تليداً بأيدينا أضعناه
أنَّى اتجهت إلى الإسلام في بلدٍ تجده كالطير مقصوصاً جناحاه
ويح العروبة ! كان الكون مسرحها فأصبحت تتوارى في زواياه !
كم صرّفتنا يدٌ كنَّا نصرّفها ! وبات يملكنا شعبٌ ملكناه ! !

وها هو ذا شاعر العرب والاسلام ، أمير الشعراء المغفور له أحمد شوقي بك ، يهنىء المغفور له الخديوي عباس حلمي الثاني بخروجه الى الحج في قصيد طويل رائع ، يختمه بأبيات هي أنات وزفرات وحسرات على حاضر الشرق العربي الاسلامي ، وفيها دعاء صارخٌ وأملٌ حارٌ ورجاء قوي في أن يدفع الله عن العروبة هذا البلاء ، وأن يحرض أهلها ويوفقهم لكي يعملوا كما عمل سواهم في ميادين العلم والصناعة والحضارة ، فيستردوا مجدهم وماضيهم الزاهر الناضر ، فيقول مخاطباً الخديوي عباس :

إذا زرت يامولاي قبر محمدٍ وقبَّلتَ مثوى الأعظم العطرات
وفاضت من العين الدموع مهابة لأحمد بين الستر والحجرات

وأشرق نورٌ تحت كل ثنيــةٍ وضاع أريجٌ تحت كل حصاة [١]
لمظهر دين الله فوق تنوفة وباني صروح المجد فوق فلاة [٢]
فقل لرسول الله ياخير مرسل أبثكَ ما تدري من الحسرات
شعوبك في شرق البلاد وغربها كأصحاب كهفٍ في عميق سبات
بأيمانهم نوران : ذكرٌ وسنةٌ فما بالهم لا يعمــلون لآتٍ ؟
وهــذا زمانٌ أرضه وسماؤه مجـال لمقـدام كبير حيـاة
مشى فيه قومٌ في السماء وأنشأوا بوارج كالأبراج ممتنعـــات
فقل : رب وفـق للعظائم أمتي وزيّن لها الأفعال والعزمات [٣]

هذه صرخات أوحى بها ما أصاب أقطار العروبة من آلام ونكبات ، ومن المؤلم أن تكون هـذه النكبات بعيدة عن قلوب الشاب العربي ، ولو أنهم أدركوها وأحاطوا بها لدفعتهم الى تغيير ما هم فيه من ذل وخسران ...

وكذلك يجب على الشاب العربي أن يعرف الآمال التي يأملها وطنه ويرجوها في حاضره ومستقبله ، فإن الإنسان الذي لا يحس بألمه لا يمكن أن يبرأ منه ، والشخص الذي لا يدري ما تحتاجه صحته وسلامتـه يكون عرضة للآفات والنوازل ، فاذا أهمل وفرّط ثم ابتلي وأصيب ، فلا يلومنّ إلاّ نفسه ، وما أصدق ذلك الذى قال :

لا تعجبوا للظلم يغشى أمة فتنوء منه بفادح الأثقال
ظلم الرعية كالعقاب لجهلها ألم المريض عقوبة الاهمال !

وهذا الخاطر السابق يسير بنا إلى خاطر آخر يتصل بهذا الموضوع ، هو أنه يجب على الشاب العربي أن يحصل في هذا العصر على أكبر قدر ممكن من العلم والمعرفة والثقافة ، لاننا في عصر لا تتنافس فيه الامم بأجسامها أو سعة أراضيها أو كثرة عددها أو انفساح مداها ، بل نحن في عصر العلم والفكر ، في عصر الكتاب والمعهد ، في عصر المذياع والبرق والبارجة والمدرّعة وحاملة الطائرات والقنبلة الذرية وتحطيم الذرة ، في عصر الوصول الى أدق ما في الكون من أسرار ، في عصر استخدام الهواء والماء والسماء وجوف الأرض ،

---

(١) الثنية : طريق الشعب ، وضاع : فاح . (٢) تنوفة صحراء واسعة . (٣) هذا أحسن ما يهدى الى الذين يهاجون كتاب « هذي هي الاغلال » — المحرر

وهذا كله لم يتيسر إلاّ بالعلم والفكر والثقافة التي أنتجت روائع العقل البشري وعبقريات الفكر الإنساني ، وما من أمة اليوم تستطيع أن تشارك في الأمور الدولية ، أو تساير ركب الحياة العالمي إلاّ إذا كان لها نصيب موفور من الثقافة والعلم ، ونظرة واحدة إلى تاريخ بلادك أيها الشاب العربي تدلك على صحة ما أقول ، فهؤلاء هم أجدادك العرب ، كانوا بالأمس البعيد يعيشون فوق رمال الصحراء عيشة بدوية ساذجة ، لا يدرون بما في العالم من نظم أو حياة ، ولا يخرجون عن دائرة جزيرتهم الجرداء ، ثم انبعث فيهم ذلك النور القوي الساطع الذي حمل مشكاته محمد العظيم نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام ، فأخرجهم بشريعته من الظلمات الى النور ، وفتح بحفنة منهم مشارق الأرض ومغاربها ، وأخذ سلطان العرب ينبسط وينبسط حتى أصبح في الدولة العباسية ملكاً كملك بني التاميز اليوم لا تغيب عنه الشمس ولا يحده الخيال ، وما قامت عظمة هذه الدولة العباسية إلاّ على العلم والفكر والثقافة ، فقد وقف الخلفاء والأمراء من بني العباس جهودهم وأوقاتهم وأموالهم على الترجمة والتأليف والتجديد في علوم العقل والنقل ، وزخرت دور الكتب والحكمة بروائع العقل الإسلامي ، سواء أكانت هذه الروائع من إنتاجه الخالص أم من ترجمته وهضمه وتهذيبه . ولما سكنت ريح هذه النهضة العلمية العظيمة أخذ الضعف يدب في جسم الدولة الاسلامية ، وأخذ المسلمون يتبددون في أنحاء الأرض كما يتبدد الحلم الجميل !! . .

وحينما يبهرنا نور العلم وضياء المدنية ، يجب أن يكون ذلك بمقدار ، وأن يقف عند حد محدود ، فالشرق العربي الاسلامي ، مصدر النبوات ، ومنبع الرسالات ، ومبعث الدعوات الروحية ، لا يستطيع بحال من الأحوال أن يسير مع الغرب في ثقافته المادّية الحسية الى نهاية الشوط ، لأننا نحن العرب نعرف شيئاً آخر له جلاله وجماله ومكانه الرفيع بجوار العلم والمادة ، ذلك الكنز الثمين هو الروح ، فإذا ما نهضت عظمة الغرب على الجسم والمعمل والمصنع والمتجر والآلة فحسب ، قامت نهضة الشرق — أو يجب أن تقوم — على مثل هذا أو بعض هذا بجوار أقباس من هدى الروح ، وأنوار من مشكاة الأخلاق ، ولذلك كان واجباً على كل شاب عربي ألاّ ينخدع طويلاً بهذا التراث الغربي المادّي الضخم الذي قام بالمادة وللمادة وحدها ، بل عليه أن يرعى حق روحه ونفسه ، فيجمل ذاته بما ورثه عن

آبائه وأجداده الغرّ الميامين من الأخلاق العالية والصفات النبيلة فيؤمن بأن الرحمة والسلام والاخاء والصدق والوفاء والاخلاص والعدل والعفو شيمٌ وطباع حثه دينه ووطنه وتاريخه عليها ، فلا مفرّ له من التجمل بها وتطبيقها عمليًّا في جوه الفردي وفي بيئته العامة ما استطاع الى ذلك سبيلاً ! . . . فلنأخذ من مدنية الغرب وحضارته ما استطعنا ، على أن يكون ذلك مدعماً ومطعماً بما لدينا من روحانيات وأخلاقيات بها يكون الانسان إنساناً !! .

والأقطار العربية اليوم تشكو تدابر أفرادها وتقاطعهم ، فلا زيارات ولا رحلات ولا تراسل ، ولولا ما هنالك من أحداث سياسية تضطر ولاة الأمور في أقطار العروبة الى التلاقي وعقد المؤتمرات أو الاجتماعات في بعض المناسبات لكانت الشكوى من هذا التقاطع صارخة بالغة عنان السماء !! ... وهم يقولون فيما يقولون حينما يتحدثون عن نهضة العرب إن العرب لن يستردوا عزّتهم إلاّ بسببين الاتحاد والقوة ، والقوة لا تأتي ولا تتحقق إلاّ إذا سبقها الاتحاد ، والاتحاد لا يتحقق إلاّ إذا تعارف الأفراد المتحدون ، لأنهم لا يستطيعون الوحدة ما داموا متنكرين متجاهلين متقاطعين ، لذلك يحسن بالشاب العربي أن يتعارف مع أكبر عدد ممكن من اخوانه شبيبة العرب في سائر الأقطار الشقيقة ، وأن ينظم معهم المراسلات التي يشرحون فيها حاضر بلادهم وخواطر أنفسهم وخفقات قلوبهم ، وما يتطلعون إليه من مستقبل مشرق سعيد ، ولا زلت أعترف بأن أكثر المعلومات التي حصلتها عن البلاد العربية الشقيقة يرجع الفضل فيه إلى تلك الرسائل الكريمة التي كانت تصلني من إخوان كرام تعرّفت إليهم من أبناء العراق والشام والحجاز !! . .

كذلك لن أنسى أن أذكر بالخير تلك المجلات التي تخصص من صفحاتها جانباً لتأكيد هذا التعارف بين شباب العروبة بذكر أسماء وعناوين الأشخاص الذين يريدون التعارف في كل قطر عربي ، فهذا مجهود وطني مذكور مشكور ، وكم أتمنى أن تظهر في البلاد العربية مجلات أو مجلة على الأقل تقف جهودها على توثيق العلاقات الشخصية والأدبية بين أبناء البلاد العربية ، وذلك بنشر أسماء الراغبين في التعارف وعناوينهم وصناعاتهم ، وتنشر الى جانب ذلك أبحاثاً بأقلام هؤلاء الشباب عن أقطارهم وخواطرهم وآمالهم وآلامهم وغير ذلك !! . .

أنا كفيل بأن هذه المجلة إذا ظهرت تذيع وتشيع ، ويتأمل مركزها حتى تبلغ في

مسافة قليلة من الزمن مرتبة كبريات الصحف والمجلات في الشرق العربي ، وبخاصة إذا توفر لدى القائمين بها عامل الصدق والاخلاص في هذا المجهود ، فهل من متقدم إلى الميدان ؟! . .

والشاب العربي في حاجة إلى أن يدرس ما كان لأسلافه العرب الأوائل من محامد ومفاخر، دانوا بها الزمان وحلوا بجمالها جيد الأيام ، وما ضمنوه صفحات التاريخ الباقي من نواحٍ امتازوا بها عن سواهم وحرصوا عليها ، حتى تكون هذه المفاخر الرائعة من أقوى الحوافز للشاب العربي تحفزه إلى إن يتشبه بالذين سلفوا من آبائه ، ويسير على طريقتهم ، وينهج نهجهم ، وينسج على منوالهم ، وكذلك يجب عليه أن يدرس في الاسلام من تعاليم خلقية واجتماعية واقتصادية ، حتى ولو كان الشاب العربي غير مسلم ، فلسنا نحرضه على ترك عقيدته الدينية بطريق غير شريف، وإنما نحب له أن يطلع على تلك الجوانب المشرقة في دين الاسلام من جهة الأخلاق والاجتماع،والقرآن الكريم بعد هذا أو قبل هذا يقول: «لكم دينكم ولي دين».

والاسلام إنما جاء بلغة العرب وللعرب أولاً ،وإن كان للناس كافة بعد ذلك وانتشر الاسلام بجهود العرب ، وكذلك كسب العرب كثيراً من المفاخر بانتسابهم إلى الاسلام ، واستظلالهم بلوائه ودخولهم في دولته، سواء أكانوا من المسلمين أم من غير المسلمين ، فالصلة على هذا وثيقة جداً بين العروبة والاسلام ، وكما يجب على المسلم أن يعتز بالعرب والعربية ، يجب على العربي إن يعتز بالاسلام وتعاليم الاسلام ، حتى يكون لنا من هذا الترابط قوة ومنعة واتحاد !! . .

ومن اللائق بالشاب العربي في هذا العصر المجاهد المكافح أن يجعل له ناحية في الحياة يبرز فيها ، ويبز أقرانه فيها ، فيعكف على أية هواية شريفة ، أو ناحية مفيدة ، في العلم أو الأدب أو الفن أو الصناعة ، ليقصر عليها جانباً كبيراً من نشاطه، ويستنفد فيها أوقات فراغه ، حتى يتقنها ويجيدها ويمهرها ، ويصبح علماً من الأعلام فيها ، إذ لا يكفي اليوم أن يأخذ الانسان من كل فن بطرف كما كان يقول القدماء ، بل لا بد له فوق هذا من أن « يتخصص » في ناحية من النواحي ليسبق فيها غيره وسواه ، فنحن في نهضتنا الحاضرة نريد أن يكون فينا أدباء ممتازون ، وعلماء متخصصون ، ومخترعون مبتكرون ، وصناع ماهرون ، وأفذاذ في كل ناحية ، وأعلام في كل ميدان ، وهذا لا يتحقق إلاّ إذا وجدت روح «التخصص» عند الشاب العربي ، فأدّى واجبه المعتاد في جميع الجهات الموكولة إليه ،

ثم اختصَّ ناحية من هـذه النواحي بقسط من العناية والرعاية حتى يوفى فيها على النهاية ويُشرف على الغاية ، لأننـا نحن العرب لا نشكو انعدام المجتمع المتوسط في علمه ومادّته ، وقد يكون الجمهور عندنا في الجملة أرقى من جماهير كثيرة في نواحٍ كثيرة ، وإنمـا نشكو قلة العباقرة والممتازين في العلوم والفنون بيننا . وهؤلاء العباقرة هم الذين يصنعون على قلتهم تاريخ الأمم ، ويبنون مجدها ، ويبلغون بها الذروة من الحضارة والمدنية ، فما هو نوع امتيازك أيها الشاب العربي ؟ بل ما هي جهة « اختصاصك » التي برعت فيها ؟ .. هل حاولت أن تكون رساماً بارعاً ، أو أديباً ممتازاً ، أو صانعاً حاذقاً ، أو موسيقيًّا فنَّاناً ، أو خطاطاً مجيداً ، أو رياضيًّا قادراً ، أو شاعراً نابغاً ، أو أية ناحية من نواحي التفرد والنبوغ ؟! . . .

وكم أتمنى أن يعوّد الشاب العربي نفسه على أن يلزمها بتقديم خدمة يومية لبلاده دون أن يحتقر شيئاً في هذا السبيل ، فكم من أشياء يظنها تافهة ، وهي في الحقيقة والواقع تؤدي إلى خير عاجل أو آجل لبلده أو للعرب جميعاً ، فبحثٌ عن تاريخ العرب خدمة ، ودفاعٌ ضد متهجم عليهم خدمة ، وتصحيح خطأ في لغتهم خدمة ، وكتابة مقال عن مفاخرهم خدمة ، وظهورك بمظهر مشرف لهم في خلقك ومعاملاتك وعاداتك خدمة ، وصلوات الله وسلامه على رسول الاسلام الذي فسح ميدان الإحسان والبر ، فجعل الكلمة الطيبة تقولها لصديقك إحساناً ، والأذى تميطه عن الطريق إحساناً ، والابتسامة في وجه ملاقيك إحساناً ، وردّ السائل ردًّا حسناً إحساناً ، وغير ذلك من وجوه الاحسـان ، فلا تحتقر شيئاً أيها الشاب العربي في سبيل بلادك ، فان القليل إلى القليل كثير ، وكل ما نطمع فيه هو أن توجد فيك الرغبة الصادقة الأكيدة في السير إلى الأمام ! ! . .

يا شباب العرب . . أنتم عدّة الوطن وعماده ، وركنه وسناده ، بكمْ يقوى ويعلو ، ويشتد ويسمو ، وأنتم الذين تكتبون تاريخه وتغيرون وجهته ، فإلى الأمام ! . .

إلى الأمام يا شبيبة العرب وكتيبة الغَلَب :.. إلى الأمام يا جند النصر وأهل الصدر !..

إلى الأمام يا حزب الرحمن وقَهَرَة الشيطان !.. إلى الأمام والله معكم، ولن يَتِرَكُمْ أعمالكم. هو وليُّ الصابرين ، ومثيب العاملين ، وناصر المجاهدين ، وهو نعم المولى ونعم النصير ! .

احمد الشرباصي

المدرس بالازهر الشريف

قصة للتاريخ

— ١ —

تنفس الصبح وهي ساهرة تذكر الماضي فيطوف بها الأسى ، وترقب وجه النهار المقبل فيهتف بها الخوف . لقد كان زوجها حبيباً فشربت كأسه مُرَّةً وهو في ربيع دنياه ، وكان ولدها البكر زينةً ورجاء فثكلته بعد أبيه ، ثم كانت مشيئة الله في بصرها الغالي فكَفَّ من مدِّ البكاء ، وكادت نفسها تفيض لولا رحمة من السماء شاءت لها أن تعيش . . .

وأنت لو شهدت هذه المكفوفة في ليلها ذاك ، لحسبتها ظلاًّ لامرأة جلست على حشية فقيرة ، وقُرْبَة من نائم شاب تتحسسه مترفقة ، فتمرّ بيدها الراجفة على رأسه ، وتمرّ بها على دثاره ، وتستاف نسيمه تارةً كالشحيح الخائف على نفيس عنده ، فهو يأخذ نفسه بالتماسه ، ويأخذها بمعاودة هذا الالتماس ، وفي الأحيان المتقاربة .

كان هذا الشاب ولدها الوحيد ، أو طفلها كما تدعوه ، وإن كان قد عدّ عشرين ربيعاً ، وغداً يستأثر بفضاء الباب حين يدخل عليها ، ولعلها أُخذت ، في إرادة هذا الامتداد لطفولة إبنها ، بشعور مشفق حريص ، كأن الشباب يسلبها الملاك عليه ، أو كأنها تجد في الطفولة عوذةً تقي من العين .

ولكن أيّ وجه من الحياة مخوف توشك أن تستقبل إذا كان النهار ؟ ونطلب الجواب فنرتدّ إلى الحرب العالمية الأولى يوم كان السلطان للترك ، ونعرّج على مدينة من تلكم الجاثمات على شاطىء البحر الشامي ، ففي هذه المدينة القديمة الجميلة تقيم الأم وفتاها ، وفيها كما في غيرها من بلادنا الحبيبة كان الشبان وكان الكهول يساقون الى الجندية على عجل ، وفي شيء من العنف إن شئت نبأ الناس يومئذٍ .

وكان الفتى إبن المكفوفة هذه — وندعوه فؤاداً — من بين أولئك ، فاحتجّ بأن ليس لأمه من عائل آخر ، ولكن سجل النفوس شهد أن له أخاً ، فقيل : ليس بُدٌّ من أن يساهم

أحدهما في الذود عن حياض الدولة ، ولا مفرّ من الواجب المقدس .

قال الفتى : (نعم لقد كان لي أخ ، فعجلت به المنون مهاجراً في ديار الغرب منذ أعوام خلت ، وعندي على موته طائفة من البينات إن إردتموها) . ولكن المجلس العسكري الموقر أبى أن يأخذ بقول الشاب فالوفاة في عرف القانون إنما تثبت بنص السجل ، والسجل هنا ليس فيه شيء مما زعم ، ثم هذه خزانة السلطان قد رفقت بأهل الخصاصة من ذوي الجنود ، فجعلت للانسان منهم كفاء ما يحرر من العوز ، عشرين قرشاً في الشهر الواحد !

حمل فؤاد هذا الى أمه ، وحمل إليها إنه من الغد صائر الى الجندية ، يستقبل عهداً لا يعرف لنفسه فيه غاية ، ولا لذات غيبه مصيراً ، ثم أردف يقول : وليس من حيلة يا أماه ! إلاّ أن أستجيب ، ولعلي أرتد إليك سالماً ، إن كُتب عليّ أن أعود .

قالت — وإلى أين هم آخذوك ؟

قال لا علم لي بهذا يا أماه ! وإنما رأيت الناس يتحدثون بأن الحرب قائمة في الشمال وفي الجنوب ، كما هي في الشرق وفي الغرب .

— ومتى تعود إليّ ؟ فاني ما زلت أذكر أخاك .

— لعلّ الله يحدث أمراً ، فلا تطول غيبتي .

— امضِ من غدك على بركة الله ، وسأدعو لك دائماً كما أفكر فيك ، وقد اضطر فأبيع بعض ما في البيت ، فلا يسوءنك هذا إن فعلته .

— كيف يا أماه ! ولعلي أجد ما أبعث به اليكَ ، فلست أعلم إلاّ أن الله رحيم كريم .

على هذا تنفس الصبح ، وهتف المؤذن : حيّ على الصلاة ، الصلاة خيرٌ من النوم ، فاذا الأم تنهض فتبرح مجلسها ذاك في شيء قليل من الحركة ، وشيء كثير من الهدوء ، حذر أن يحس طفلها النائم ، فهي إنما تحب له أن يتزوّد من الراحة ما وسعه أن يتزوّد لغده . ثم أخذت تتلمس طريقها قِبَلَ فتاة يتيمة في البيت لا تعرف إلاّ أنها تعيش على خدمته ، فهي فيه ثالثة اثنين ، تحب الأم وتعبدها ، وتحب الفتى وتعبده على صمت وهي تعلم أنها لا تشغل شيئاً من فراغ قلبه .

ولم تكد تبلغ مرقد الفتاة حتى أحسّت يقظتها ، وسمعتها تقول : (فلندنني نهضت قبلكَ

يا أمّاه !) وكان هـذا النداء محبباً إليهما جميعاً ، يعذب على لسان الفتاة فتتعمده أحياناً ، ويعذب في أذن الأم فهي تجد فيه من الاخلاص المحزون حلاوة ، وتتخيل شيء من العزاء ، لو كان للقلب الثاكل المفجوع من سبيل إليه .

وتسعى الفتاة فتأخذ بيد السيدة ، فتحس هذه دمعاً يسّاقط ، فتنفرج لها ذراعاها وتروح تضمها ما وسعها أن تفعل ، كأنما هي تريد أن تطفىء بين الجوانح لهيباً ، أو أن تخمد ثائرة ، أو أن تترجم عن شيء يهجس به الخاطر فتقول : (أنتِ ما أبقى لي الزمان) ، وتسكن الصغـيرة إلى صدر الأم هنيهةً ، ثم تتخلص مترفقة فتنطلق تهيىء لهـا وضوءها ومصلاّها وللفتى ما أوصى للسفر من متاع .

وتأخذ السيدة في صلاتها ، ثم في الابتهال الى الله تلتمس لقلبها الصبر ، ولولدها العون فيما يستقبلان من همّ هذه الغربة الدانية . وتشهد الفتاة هذا الابتهال . فإذا هي تهتزُّ على سحر الخشوع ، فيقوم في روعها أن تنهض فتصلي ، وتعجل فتأخذ في وضوئها ، ثم تستقبل السماء تدعو للفتى كما تفعل أمه .

وما كاد وجه النهار يشرق حتى كان فؤاد قد استفاق فنهض يتهيأ لما هو مقبل عليه ، وإذ تم له ما أراد سعى الى أمه ، فطال بينهما العناق وطال البكاء ، والفتاة آخذة بنصيبها من الحزن واللوعة جميعاً ، حتى ومن الشوق فهي لا تعرف من قلبهـا إلاّ هذا الحنين الى فؤاد .

وتشفق الأم على ولدها فتتخلى عنه ، فيلتفت فاذا الفتاة تهمّ به ، فيتلقى الحنان البريء الخجول مودعاً ، ثم يمضي وينغلق باب البيت . . .

***

— ٢ —

لو كان الذي طاف بهؤلاء الناس حظّاً من الغنى ، أو كان جاهاً من المجد لأحسه الجيرة بل وأهل البلد ، ولساهموا فيه قليلاً أو كثيراً ، ولكنه كان شقاء فما فطن له واحد من الموسّرين ، ثم مرّ الزمان ينفق من أيامه ولياليـه ، فمضى عامان أو أكثر قليلاً ، وكنا

لا نعرف من نبأ فؤاد شيئاً ، حتى أقبلت رسالة منه ذات يوم على صديق تقول :

عزيزي كمال :

كان من حقك عليّ أن أكتب إليك منذ حين لأصل عهد الشهود بعهد الغياب ، فنعود نحيا على أحلام المجد العربي ، ولكن هذه الجندية ظلت تطوّف بي حتى هذا البلد الذي أكتب منه ،

وبعد فما أريد أن أحدثك حديثي ، ولا أن أسألك ما فعل الزمان بأمي فهذان ما لست استأثر لهما بوقتك كلاً ، ولا أريد أن أقص عليك متاعب الجندي العربي في هذه الحرب ، أو أن أصف لك عبث أعوان هذه الحكومة بالحرمات والحقوق والأرواح جميعاً ، وهذا ما لا ينقصك علم طائفة منه . فقد كثر ما تحدثنا به أيام عهدنا القريب .

وإنما أريد أن أتحدث إليك بحديث تجربة عربية في هذا البلد العربي ، وقد كان يسعدني أن أجمّلها بالعطر والنور ، فلا أشقيك بها ، ولكننا — يا صديقي — في حاجة الى العبرة والعبرة الموجعة ، أكثر منا الى العيش على الأشواق السادرة .

إن حياة العبودية في كنف الاستعمار لشيء سيء حقًّا ، ولكن الأسوأ منه أن تفتح عينيك فاذا أنت عند قومك أمام انحطاط في الروح عن مرتقى الشعب السيد .

وأهدف الى غرض الحديث فأعلمك أني غشوت هذه المدينة تابعاً لضابط تركي ، ولم يطل الوقت كثيراً حتى كنت أخا ودّ لنفر من الشباب وجدتهم قد أخذوا بأخذنا من هذا الحلم بالسلطان العربي ، ورأيت الناس على طرب واستبشار بحاكم جديد، ليس لأنه العربي الفرد بين حكام المقاطعات ، فالحكام من العرب — وأنت تعلم — غير قليلين ، وإنما كان الطرب والاستبشار هذان لأن الرجل من العربية في مُصاصها ، ومن الوعي القومي فوق قمة الجبل . .

وراحت صلاة هذا الحاكم تذيع تقواه ، وإن كانت في مثل صلاة الخائف وحديثه يذيع صلاحه ، وإن كان فيه بقية من روح عبد الحميد ، وراح أهل البلد يرون فيه رمزاً للحُلم الضخم ، وينصتون إليه في إعجاب المفتون ، فهو عبقري في السياسة ، وعبقري في تعبئة الجيش وتحريكه ، وعبقري في الادارة حتى وفي الأدب والتأريخ .

وعاش النـاس يحلمون ، وعاش صاحبهم يحلم معهم ، وانقضى زمن ليست الموعظة فيه انه مرّ طويلاً أو قصـيراً ، وإنما هي فيما استفاق عليه الجمهور ، حين استفاق فاذا الرجل يستخف بالتبعات والقانون والعفة جميعاً ، ويترخص في مهام الحاكم النزيه .

ثم أخذ يحرّك لسانه فيرتجل المتنافسين على بابه ، ويمدّ سلطانه فيدخل بين المرء وزوجه ، ويتصل حتى بالشرطي وبالجلواز ، وتتسع ذمتـه للقروض التي لا ترد، وللهدايا وإن بذلت في سبيل لا تذكر إلاّ همساً ، وللبـدَر من المال يقدمها أغنياء الحرب الأتقياء نفقةً لأسفاره في طلب المجد.

وكان من أثر هذه السيرة الصالحة ، أنْ استخفّ أعوان الحـكومة بالتبعات ، فاجتازوا الحدود حتى لقد صارت الرشوة شيئاً لا يلتمس له الخفاء .

وترعرع على بساط هذه الاباحية الخضراء نفر من التجار الصالحين ، وراحوا يزقون القائمين على الأمر كما يفعل الحمام بفراخه ، فصار الحـكم يستغل لا لصالح الشعب بل للمصالح الذاتية ، وأخذت السلع تختفي ، والأسعار تفحش ، والثروة تنحصر في أيدي طائفة قليلة من الناس ، ودأب هذا العبث ، وطال به شقاء الناس في البلد ، وأنت إن قلت أفسد هؤلاء التجار أخلاق الموظفـين ، قالوا : (إنها لفاسدة منذ يومهـا) أو قلت : غاضت دماء المستهلـكين ، أين الضمير ؟ قالوا : (إنْ هو إلاّ الاسم الاصطلاحي للجبن) ، وإن قلت : ألا صوت في طلب الصلاح يرتفع الى السماء ! سمعت الهمس من حولك ، وليس غير الهمس .

قد تعلم بموت الاصالة عند إنسان من الناس فلا يثيرك أو يشجيك هذا الأمر كثيراً ، ولـكنك لا تملك إلاّ أن تعجب وتحزن كثيراً حين تعلم بأن هـذا الانسان أفسد بلداً ، فصار التفوق فيه ؟ لا للمثل الفاضلة ولا للأخلاق ، أو للنزاهة ، بل للنفاق ولليد الطولى وللنوم على القذى .

حسبك اليوم — أيها الصديق — ما سمعت من نبأ القوم في هذا البلد ، وقد تتهيأ الفرصة فاتصل بك ، لعلك تجد فيما أكتب اليك قصة للتسلية ، أو للتاريخ إن شئت، وسلام عليك من. فؤاد

***

— ٣ —

قال الراوي : —

وانقطعت أنباء هذا الشاب حتى انتهت الحرب وكانت الهدنة ، ورجع الجنود من فتيان بلده الى أهلهم ، فقصّ أحدهم بقية الحكاية فقال :

كان فؤاد موفور النصيب من هذه المعاني الآسرة تجدها عند بعض الناس فلتةً فما تدعك إلاّ وقد أحدثت في نفسك حبًّا أو أحدثت لصاحبها عهداً . ورأته هند يتردد الى بيت رئيسه الضابط ، فوقفت عند نظرها اليه ، وراحت ترقبه في غدوه ورواحه ، وتتحين مرآه وتفكر فيه ، ولم تك بالعابثة تريد أن تلهو بأشواق الشباب زمناً يطول أو يقصر ، ولا بالجاهلة بعد ما بينها وبين الفتى ، بل لقد جاهدت جهاد المحصنات علّ قلبها ينصرف فعصى ، وظلّ على الشوق يجرر به في عناد وإصرار .

***

ومرت الأيام فاذا هي تعتزم أن تبلو الفتى من قريب ، فتمضي فيما اعتزمت وتجري الصلة بينهما على اللقاء يتكرر ، والحب العذري يذكو ويتأصل ، والأحلام ترقى على مدها وتسبح ، والحديث يرق ويصفو ويعذب ، ثم ينساق الى حلم الزواج ، فما كانت تريده ، ولا هو كان يريدها الاّ على الطهر والسنة ، ولكنهما يجدان هذه العقبات يضعها الغنى والجاه والحسب دونهما ، فهي إبنة أولئك جميعاً ، وهو غريب غير معروف ، وأهلوها لا يسلمون بأمر ليس يجمل بهم .

ولا يقف بهما الرأي الا قليلاً ، فاذا هما يؤثران الصبر والريث الى أن تستوفي الحرب أجلها فيختفيان في بلد آخر زوجين حبيبين ، وأمتدّ حديث الأحلام بين هند وفؤاد ، فكان شجيًّا حيناً ،وحلواً شهيًّا حيناً ، بل فوق هذا وذاك كان علويًّا جرى مع الطهر ، وسما بالروح ، ثم انتهى كما تنتهي الآجال في هذا الوجود .

ودّعته على أن يعودا الى نجواهما في لقاء مقبل ضربت له الفتاة الجريئة موعداً ، ثم خرجت قبله من المكان حذر العيون .

ولكن القضاء كان يبتسم ، فلقد كتب على شخص ثالث أن يقف دون ما قدرا للحياة السعيدة ، وكان هذا الشخص من ذوي لُحمتها ، تقدّم من قبل في طلب يدها ، فلم ترضه بعلاً لاختلاف ما بينهما في تناول الحياة ، ولم يكُ بالشيء الغريب أن يجعل من نفسه عليها عيناً . فلقد كان شاباً شريراً ، وصاحب حيلة واقدام أوصلاه إلى سرها ، ثم إلى مكان خلوتها بصاحبها ، ثم إلى أن يستمع حديثهما من حيث لا يشعران ، وما بعدت الفتاة إلاّ قليلاً ، حتى كان قد ولج المكان على فؤاد ، فعاجله بطعنة نجلاء ، ثم أجهز عليه ، ثم جعله قطعاً ، وجاء بحقيبتين ، فوضع فيهما أشلاءه وانتظر حتى أقبل الليل .

***

كان القاتل ومعه شخص آخر يحملان حملهما ذاك ، وكان الليل قد تقدم ، فباغتهما العسس يتلصصان في مشيتهما ، فأمرا بالوقوف ، ثم سئلا عما في الحقيبتين ، فما تلعثم القاتل الشرير وزعم أنهما هدية الى الحاكم ، وانما اختار لها سُدفة الليل حرصاً على سمعة الرجل ، ولم يكُ بالعسس من جرأة على المزيد في السؤال .

ويعمد الرجلان من ساعتهما إلى كهف في ضاحية المدينة ، فيلقيان فيه بأشلاء الذبيح ، ويرجعان كأن لم يكن من الأمر شيء .

وتفقد الجيش فؤاداً فما وجد له أثر ، وتفقدته الفتاة فما علمت شيئاً ، وتفقدته والدته منذ انقطعت أخباره ، فما استطاعت أن تعرف اليقين من أمره .

***

واختتم المحدث كلامه فقال —

لم يكن قد مضى من الزمان غير عهد قريب حين فتح الكهف لغرض التنقيب عن الآثار فعثر فيه على عظام هي عظام صاحبنا الفتى الذبيح ، ولكن الموظف الخبير زعم انها لانسان عاش في العصر الحجري المتأخر .

عمان — شرق الاردن — شكري شعشاعه باشا

كيف نعيش مائة عام

تلك أمانيهم . الناس جميعاً لعمرك كلفون، بالحياة . تمنوا أن تطول ما وسعها أن تطول، ولو شابها النصب والوصب ، وعمهـا الأذى والكدر ، حتى لقد تمنوا الخلود ، فلمـا أعجزهم نيله على الأرض ، راحوا يطلبونه في حياة أخرى .

وقد بحثت الجمعية الطبية البريطانية أمر المعمَّرين . فخرجت من نتائج بحوثها بأن قصار القامة أطول أعماراً من متوسطيها وطوالها ، وان المتوسطين وزناً ، أو دونهم ، هم كذلك أحظى بطول العمر من الزائدين وزناً .

على أنه إذا كانت هـذه الحقائق العلمية لا مطعن فيهـا ، فما هي بالقانون المطلق ، ولا ألسنة العامة ، فان لطبيعة الأشخاص ، وفطرة أمزجتهم ، تأثيراً كبيراً في طول أعمارهم أو قصرها . ذلك انه من المقررات الفسيولوجيـة ، والتحقيقات العلميـة ، ان الذين يعيشون عيش الارهاق ، دأبهم العجلة ، والوثبة ، يحملون أنفسهم على الجهد ، والعنت ، والاسراف في كل عمل ومأتى وحركة ، لا يعمرون . ذلك لأن الحركة العنيفة ، والشعور المتوقد الثائر ، والعاطفة المسرفة ، كل أولئك باعث على افلات كيماويات معلومة في البدن ، تلج الدم فتوقد جذوته ، فتتضاعف دقات القلب ، وتُؤذى جدر الشرايين ، فيشتد ضغط الدم ، فتسوء الحال . وكلما تكرر ذلك العنف والاسراف ، جلّ الخطب ، وضاق بساط العمر ، وقرض الافراط من أطراف الحياة .

كما ان للطعام وزناً كبيراً ، وشأناً خطيراً في جولة الحياة ودولة أطوارها ، وما تنعم به من العافية والسلامة ، أو تبلى به من علة وضمانة ، وغُنمها من امتـداد الاجل ، أو غرمها من قصره ، إذ أن حموضة الدم من جالبـات الأمراض ، ومقصرات الأعمار . وما تستوطن الحموضة مراتع الدم إلاّ من تناولنا أطعمة غير صالحة ، أو يكون من طبيعتها توليد الحموضة والأطعمة القلوية مضادة لهـذه المضرة ، وفي رأسها الليمون . وقد قال طبيب انجليزي مشهور غاب عنا اسمه :

«اذا أكلت كل يوم ليمونة أو ثلاثاً ، عند ما تكون ظمآناً ، عشت طويلاً ، وحظيت بصحة جيدة » .

فليكن غذاؤك سهل الهضم ، قليل المقدار ، كثير الأملاح المعدنية والفيتامين ، وهذا ما يتوفر لك غاية التوفر في فج الخضر والفواكه . ولا تنسَ أن تجمع الى هذا نفساً راضية ، وألا تغمها بالهمّ والكدر .

وقد كنا قرأنا في تلغرافات الصحف عام ١٩٣٠ أن عالماً المانيًّا اكتشف طريقة لاطالة العمر إلى السبعين بعد المائة ، مدارها على أكل الأطعمة النباتية غير المطبوخة .

وذكروا أن أهل باريس في القرون الوسطى لهجوا بمنفعة اكسير كان قد صنعه رجل يدعى فيلار ، رغم أنه أخذ سرّ تركيبه عن عمه الذي مات عن أرذل العمر . فمن تعاطاه ، بلغ سنًّا ، وامتدَّ أجلاً ، حتى يسأم الحياة .

وكان يبيع الزجاجة الواحدة بستة ريالات ، وتوافد عليه الناس من كل حدب ينسلون ، يتلقفون الزجاجات في لهفة الواله المشتاق ، حتى أثرى الرجل وكان من المترفين . قيل وزين لأحد الكيماويين أن يكشف دفين هذا الشراب ، فما زاد ، إذ حلله ، أن علم أنه ماء صرف من نهر السين في فرنسا قد خولط بقليل خل وحبات من ملح البارود ، وكان الناس ، مع هذا ، إذا تناولوا اكسير السيد فيلار ، تطول أعمارهم حقًّا ، لا لأكسيره في ذاته ، ولكن لما نقل عنه ، إنه كان يوصي المتعاطين اكسيره ، بلزوم الاعتدال في المطعم والمشرب .

* * *

وبعد فقد اطلعنا على مقال نفيس في موضوعنا هذا ، طلبة النفوس وعُلالة الأذهان ، بقلم الكاتب الفرنسي المعروف ، أميل هينريو ، في جريدة (الطان) الفرنسية ، فاستملحنا نقله لقراء (المقتطف) الأفاضل ، فان فيه فائدة ، وان فيه تفكهة . قال :

« مما يبعث على السآمة . وكراهة بلوغ المائة ، في من أشرفوا على هذه السن ، هو تشابه السؤال ورغبة الاستطلاع ، من كل من يلقاهم من الناس . فما ترى السائلين إلاّ يسألونهم سؤالاً واحداً لا تبديل فيه ولا تعديل : « كيف يا هذا ، صنعت ، حتى بلغت المائة ؟ » .

تشابه السؤال ، واختلف الجواب : فأخو مائة يجيب : « ما أقلعت يوماً عن التدخين ،

والخمرة ، وأكل اللحوم الحمراء ، مبلغ الجهد . » وأخو مئة غيره يقول : « ما شربت قط غير الماء القراح ، ولا ذقت إلاّ الفاكهة خالصة » . ألا فليهنأ أولئك المسان الذين استطاعوا أن يعزوا ما أصابوا من حظ وتوفيق الى ذات فطنتهم ، وما أوتوا من حكمة ! ولو أنه كان للمعمرين مدرسة ، فما أظنها تكون واحدة ، ما دامت الوسائل متعددة .

وبعد . فهل من المستحب بلوغ المائة ؟ انك لتجد كثيراً من الناس ، إذا خالجتهم هذه الفكرة ، أوجسوا منها خيفة ، ما أراهم ، لعمري ، إلاّ حرموا نعمة الخيال . فهم لا يفقهون إلاّ الحاضر ، ولا يقيمون وزناً إلاّ ليومهم الذي يعيشون فيه ، ولا مهنأ عندهم إلاّ فيما ملاكه الحياة الناشطة الجاهدة الفتية ، الناهضة الجناح ، ولا يستطيعون أن يجدوا أنفسهم قد استحالوا ، وأصارهم كرّ الليالي الى غير ما كانوا عليه . وبخلاف ذلك ترى الذين بلغوا المائة هانئين بما عمروا ، ولا أشهى عندهم من دوام العيش وطول البقاء ، ويستفرغ عجبك ما هم فيه من التفاؤل والاستبشار ، وإن كان هذا ، مع ذلك لا يستغرب ولا يستغلق على العقول ، إذ أنهم لفرط ما عاينوا وشاهدوا ، لا يكترثون إلاّ قليلاً بما يسوؤهم ، أو بما اعوجّ من أمور الدنيا ، وساء من سلوك الناس ، وبما يؤثر في من هم في غضاضة الشباب ، من الذين هم أقل منهم فتوراً وتبلدا .

ليت كان بيدي الآن إحصاء للمنتحرين ، فلتعلمنّ اذاً أن الزاهدين في الدنيا المستثقلين الحياة هم في الفتيان أكثر عدداً منهم في الشيوخ ، ولعلهم إنما تطاولت أعمارهم وتشبثوا بحبال الحياة ، لأنهم ولدتهم أمهاتهم متفائلين .

أما كون التفاؤل والاستبشار شرطاً لازماً لطول العمر ، فما ذاك ببدع . تلك حقيقة أكل الدهر عليها وشرب ، ولكنك ، على كل حال ، تقرّ عينك أن تعلم أن تلك الحقيقة قد تجلت مسندة ، مدعومة بالبراهين العلمية في كتاب صنفه الدكتور جورج لاكوفسكي ، يرد فيه طول العمر الى أربعة شعب : أولها وجوب إرادة ذلك واستشعار اليقين بامكانه ، وجوب عدم الخوف من الموت ، والايمان بالحياة الباقية ، وجوب ألاّ يكون الانسان غيوراً حسوداً ، ولا شريراً خبيثاً ، وذا ، ولا ريب ، أشق هذه الأمور وأعضلها . ويجب ، مع هذا ، أن تكون النفس راضية قانعة ، وذا ما لم يؤت اليوم جميع الناس ، للذي نرجوا

من سبل العيش ، وأخذوا بأسبابه ، وما ذاقوه من جديد الحياة وطريفها . والطبيب النطاسي لا كوفسكي يضرب لنا مثلاً بفونتينل [1] الكيس ذي الحلم ، والنفس الراضية الهادئة ، الذي استطاع أن يعيش قرناً كاملاً ، دون أن يعاني أية مشقة أو صعوبة ، والذي كان يفسر لك ذلك الفتح المبين في باب التعمير بقوله : « أنما كبرت سني ، لأني لم أكن ، في يوم من أيام حياتي ، مهرولاً ولا غاضباً » .

ولئن كان ذلك ، فما أجدأحد منا يستطيع الى هذا بلوغاً . عزّ ذلك وامتنع . انها لخطة لا يمكن العمل بها في يومنا هذا . عبثاً نحاول ألاَّ نجري ، فان هذا الزمن الذي نعيش فيه خليق بأن يدفعنا الى الاسراع والعدو دفعاً شديداً .

أما أن لا نغضب ، فليت شعري ، ما الوسيلة الى بلوغ هذا ؟ هيهات ! ذلك ما لا ينهض به الرجل الشريف ، والعرض الكريم . ان كل ما تقع عليه أبصارنا من أمور هذا العالم بعيدة كانت أم قريبة منافٍ للاخلاق ، مخزٍ للعدل ، مدبر عن الحق ، مستهجن ذميم ، سخيف دنيء لا يقره العقل الرشيد . فكل شيء مما نسمع أو نرى من أنباء العالم ، وشؤون الناس يُسئم ويؤذي ، تثور له النفوس الكريمة ، ويستهجنه ذوو الألباب . فكيف لعمرك ، السبيل الى التزام السكينة . مع هذا ، وأنى لك التجلد وعدم الاكتراث ؟

أما إن استطاع امرؤ احتمال هذا الاضطراب الشامل ، ووسعه أن يكون رابط الجأش مجللاً بالوقار والسكينة ، فقد احتاج اذاً الى مقدار من الجهد العنيف يفت في عضده وينهك قواه . أليست حكمة فونتنل التي مكنته من بلوغ المائة قد صانته عن المضّ والمَمْض ، بأن جعلته بمعزل عن أمور الناس ، وشرور الناس ، وآلام الناس ؟ فما يتأتى ذلك الاّ لمن جنح الى العزلة ، وقرر نفسه على الابتعاد عن معارك الحياة ، والانقطاع عن ملاهي الحياة . فقد دلت الاحصاءات على ان من عمروا كانوا من البابوات والقسيسين ، ورجال العلم . فمن استطاع أن يكون منهم أو مثلهم ، وراض نفسه على ما نهجوا ، فله المهنأ بطول العمر ، ومبلغ المائة كاملة وافرة » .

احمد أبو الخضر منسي

---

(١) أديب فرنسي بارع وعالم متبحر في القرن الثامن عشر . وكان كاتب سر المجمع اللغوي الفرنسي الى يوم وفاته . مات في سنة ١٧٥٧ عن مائة عام وافية وافرة .

دلائل الخيرات

— اسمعي يا حورية .

— نعم .

— أتذكرين قطعة أدبية قرأناها معاً سنة ١٩٣٤ ، اسمها « في النار ولا تحترق » للرافعي ؟

— ماذا ؟ .. في النار ولا تحترق ؟ ... أوه .. أجل أذكرها .. أذكرها بالضبط ، قصة الراقصة المتدينة التي أرغمتها الحياة على التبذل والرقص مثلنا في الليل أمام الناس لقاء أجر تقتات منه هي واخوتها الصغار ، ثم تذهب بعد ذلك فتمضي بقية ليلها — بعد أن تتطهر — في الصلاة والتعبد والاستغفار ..

— بالضبط يا حورية .. بالضبط .. إنك تذكرينها جيداً ..

— وهل ننسى أمثال هذه الروائع التي تتصل بحيواتنا الأسيفة الأليمة ؟ اننا يا زينات مهما نسقط ومهما نهوى ، فينا من ميزات الناس ! .

— لست أقصد الى هذا من تذكيري لك بهذه القطعة .

— اذن الى أي شيء تقصدين ؟

— فريد .. فريد قائد فرقة الجازباند الجديد .. هذا الفنان الذي يحيا بيننا . انه يمثل تماماً حياة هذه الراقصة التي عناها الرافعي وصوّرها لنا في مقطوعته : « في النار ولا تحترق » .

— فريد وراقصة الرافعي ؟ كيف هذا ! انني لا أفهم عنك . حقّا إن المايسترو فريد رجل مستقيم ، ولكن ما صلته براقصة الرافعي ؟

واعتدلت زينات في مجلسها وأشعلت سيجارة هافانا فاخرة وقالت لزميلتها حورية : إن نمرتك ونمرتي أنا أيضاً لن يأتي وقتهما الا بعد الساعة العاشرة والنصف ، ونظرت الى الساعة في معصمها وأردفت تقول : والساعة الآن التاسعة والنصف ، فأمامنا ساعة كاملة احدثك فيها عن المايسترو فريد ، خذي هذه السيجارة .. قالت ذلك وصفقت بيديها

لحضر الساقي فطلبت منه أن يحضر كأسين كبيرتين من شراب البيرة المثلوج . ثم عادت للحديث مع صاحبتها ووجهها للسماء ، قالت :

— إنني أعرف فريداً هذا من عام ١٩٣٢ حين كنت مبتدئة في حياتنا الصاخبة المعربدة هذه ، في ملهى بديعة بالجيزة الذي كان معروفاً باسم «السمرفوليز» وكان رئيس الاوركسترا يأتي في كل ليلة ومعه فريد هذا وسنه إذ ذاك حوالي السادسة عشر فيجلسه الى جواره يعزف على الكمان ، وكنا جميعاً نسأل رئيس الأوركسترا عن هذا الشاب العازف الصغير ذي الصورة الجميلة وعن سبب احتضانه له ، وكانت بعض زميلاتنا الخبيثات يتهمن الرجل بأنه يعشق ذلك الفتى . ولكن الحقيقة أن فريداً هذا كان ابن شقيقة الرجل فكان يحضره معه يدربه على العمل ويقدمه في الأوساط الفنية ، وكان لفريد من نبوغه وحبه لفنه ما جعله يتقدم تقدماً لفت إليه أنظار رواد الملهى . . ولكن حادثاً وقع بين مدير إدارة الملهى المتعجرف وبين الفتى جعل الفتى يثور ولا يحتمل غطرسة هذا المدير . ويرد إليه إهانته بأضخم منها أمامنا جميعاً ، ثم يدع الملهى ويخرج ولا يعود إليه بعدها أبداً . . وكنا نسأل عنه خاله رئيس الأوركسترا فآناً يقول إنه يعمل في الكيت كات . وآناً يقول إنه يعمل في البيروكيه أو غيرها . . إلى أن كنا في عام ١٩٣٨ وكنت مع صديق لي في ملهى الكارلتون باسكندرية ، وما كان أشد سروري حين رأيت الفريد هذا منتصباً بقامته المديدة وشعره الناعم يتهدل على جبهته العريضة الناصعة ، يقود فرقة الجاز . . . وصدقيني ياحورية ، لم أملك نفسي — حين رأيته — من الاندفاع إليه عقب انتهائه من عزف مقطوعته وتحيته بحرارة وشوق أثارتا حقد صديقي الذي كان معي . وبقيت على تقديره والإعجاب به طوال ذلك الصيف . وأشهد ياحورية ، لقد كان هذا الفتى الفنان طاهراً عفاً نقياً ، ولطالما انتظرت كثيراً أن يغازلني أو يدعوني — كغيره من زملائه — الى سهرة خاصة بعد العمل . فأبداً أبداً يا صديقتي ، لقد كان ملاكاً وكان شاذاً في وسطنا هذا الموبوء المليء بالرجس والآثام . . تماماً ياحورية ، لقد كان كما قال الرافعي ، في النار ولا يحترق . .

وقطع حديث زينات قدوم الساقي وطلبها لمقابلة أحد أصدقائها المؤثرين ، فقامت معه

بعد أن اعتذرت لزميلتها ، ولم تلتقيا إلاّ على خشبة المسرح وهما تؤديان نمرتيهما . . وبعد أن فرغتا من عملهما وذهبتا إلى حجرتيهما تخلعان ثياب الرقص وترتديان ثيابهما العادية ، أقبلت حورية على زينات في حجرتها تستحثها للإسراع والخروج لتتم لها حديث فريد . ولكن صديق زينات الثري كان بانتظارها في سيارته . وبالطبع اعتذرت زينات في رقة لزميلتها . .



وممضت الليلة وحورية تفكر في حديث هذا الفريد الذي تهتم به صديقتها ، وماذا عساها تكون حياته تلك المحفوفة بالنار ثم لا تحترق ولا تؤثر فيه النار ؟ . .

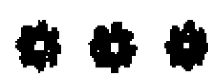
وفي الليلة التالية ، في نفس المكان والزمان ، أقبلت زينات على زميلتها حورية تحدثها عن جولاتها بالنهار بمحلات الأزياء وغيرها مع صديقها الثري الأبله . ولكن حورية كانت في غنى تام عن سماع هذا الحديث المعتاد فقالت لصاحبتها : دعينا من هذا وحدثيني عن بقية حديث صاحبك فريد .

قالت زينات : آه . . إنك على حق . ثم أخرجت سيجارتين . أشعلت واحدة لنفسها والثانية لزميلتها وطلبت من الساقي قدحي قهوة . . وأحضرت القهوة واختلط دخان السجاير ببخار القهوة واعتمدت زينات رأسها بيمينها وراحت تحتسي القهوة وتجذب أنفاساً عميقة من سيجارتها ثم بدأت تقول : — حقاً . لقد عجبت لقفزات هذا الفنان السريعة من عازف صغير على الكمان إلى قائد أوركسترا فخمة في ملهى فخم كملهى كارلتون . . وعدت للقاهرة . . وما عدت أسمع عنه شيئاً قرابة سبعة أعوام إلى أن كان يوم أول مايو الماضي وكنت راكبة ترام الجيزة وكان الترام يسير مندفعاً نحو الجنوب على شاطىء النيل في جهة فم الخليج حيث النيل على يمين الطريق . وعلى يساره مباني تلك الآثار الضخمة الشاهقة التي بناها صلاح الدين الأيوبي لينقل عليها الماء من النيل الى القلعة ، وعلى حافة النيل في تلك الجهة أشجار التين الهندي الضخمة المتشعبة يستظلها الناس وقت الهجيرة ويتراكمون تحتها في كثرة واختلاط يشوهان جمال هذه البقعة اللطيفة ، فهناك الأطفال المشردون والمتسولون

وباعة الفاكهة والأغذية القذرة والحلاقون الذين يفترشون التراب والعمال العاطلون وغيرهم وغيرهم من المتسكعين . . أوه يا حورية . . في هذه الجهة ، والترام يسير سريعاً ، كانت عيني على كل ذلك وفجأة لمحت ، في غمار هؤلاء الناس ، فريداً . . أجل فريد بعينه قائد أوركسترا ملهى الكارلتون الذي لم أره من ثماني سنوات . . هو هو بعينه . . عرفته رغم أنه كان يرتدي ملابس متواضعة جداً — منامة منزلية من قماش هممي رخيص فوقها سترة . . ولست أدري ما الذي حملني على النزول من الترام حين وقف ، والعودة الى هذا الفريد ؟ . إننا يا أختي على الرغم من ميلنا للرجل المرح الفاجر المتلاف وتفضيله على غيره من الرجال المتزنين المستقيمين ، نميل في أعماقنا الى الرجل المستقيم الفاضل حتى ولو لم يكن هناك أمل أو مطمح لنا فيه . ونزلت وعدت الى الوراء نحوه . حتى صرت قبالته . . إنه واقف أمام عربة صغيرة قذرة عليها وريقات صفراء هزيلة هي بقايا كتب قديمة يعرضها للبيع رجل أشيب ، ووقف حولها بضعة من الناس يقلبونها وينتقون منها ما يروقهم ثم يساومونه على ثمنها . . ولما صرت قبالة فريد ، وقفت مبهورة ولم أجرؤ على محادثته حتى رفع هو عيناه ووقعتا عليَّ فما اهتمَّ بي ، وعبرني بنظره إلى ما كان بيده من هذه الكتب القديمة ، ولم أطق صبراً فناديته . أستاذ فريد. فالتفت نحوي ثم جاء إليَّ يحييني بفتور ، ولكنني ضغطت يده بحرارة وشوق وقلت له : أين أنت يا رجل كل هذه السنوات الطويلة ؟ وتمتم بقوله : في الحياة . قلت له ما هذا الذي في يدك ؟ قال ، انتظري حتى أعطي الرجل ثمن الكتاب . وبعد أن عاد سألته عن الكتاب الذي معه وجذبته — أعني الكتاب — من يده وقرأت عنوانه ، « دلائل الخيرات » فقلت له : ما معنى هذا ؟ فابتسم وقال : إسم كتاب . قلت : ماذا فيه قال : كلام يقرأه الناس المتدينون قبل الصلاة وبعدها فيه عبادة وتوسل الى الله واستغفار من الذنوب والآثام ، وعقب ففتح الكتاب وأخذ يقرأ منه كلاماً ضحكت منه كثيراً ومع ذلك لا أنكر يا حورية أنني كنت أحس له وقعاً في أعماق نفسي ! . .

وطال بنا الحديث ونحن وقوف الى حاجز الشاطىء الحديدي . . وقص عليَّ فريد حديثاً عجباً . قص عليَّ كيف نجح في الاسكندرية نجاحاً باهراً وكيف أنشأ ملهى نغماً للموسيقى ملأت الاسكندرية سمعته ونجاحه الكبير . وقص عليَّ كيف كان معارضاً

لنفسه في انشاء هذا الملهى الذي كان يريده للموسيقى فقط ، فانزلق حتى باع فيه الخمور وصار ملهى تقتل فيه الفضائل ويغشاه الجنود والراقصات . . وقال لي فريد : انه كان يعد نفسه بهذا العمل خارجاً على ناموس الفضائل وقواعد الاجتماع النظيفة ، وان أخلاقه واستقامته كانتا تنغصان عليه حياته وتجعلانها جحيماً لا يطاق .. هو الرجل المستقيم الطاهر يدير ملهىً للرقص والخمر والرذيلة ؟ . ويدفع أيضاً الرشا لرجال الأمن وحماة الآداب ؟ . . أجل هو يفعل هذا ، وهو ثائر على نفسه غير راضٍ عنها من أجل هذا . ولكن شيئاً واحداً لم يرضَ أن يفعله ولو قد فعله لارتفع وارتفع . هذا الشيء الذي لم يفعله هو تقديم النساء .. النساء كلون من ألوان الرشوة .. أبداً .. أبداً لا يقدم النساء . وأبداً لا يكون قوّاداً . . واذن فليتعرض الملهى لمعاكسات رسمية واضطهادات سافرة وتحرير مخالفات له وعدم حمايته وحمايةً ملهاه من عبث الجنود المعربدين وإذن فليخسر وليخسر . . وليفشل المشروع الضخم بعد نجاح كبير . وليصفي الفنان حسابه وليحجز أصحاب الديون على أثاث الملهى وليخرج فريد هذا الفنان الكبير من الأسكندرية كلها كما دخلها خاسراً أكبر الخسران في هذه الأيام التي أثرى فيها حتى الحيوان ! . . وليعد الى بيته القديم المتواضع في عطفة السكر والليمون يرعى اخوته وأهله بعد موت أبيه ويرعى مع ذلك عبادته وفنه .. ثم يدعى للعمل قائداً للموسيقى في ملهانا هذا الذي نعمل فيه . هكذا حدّثني وتأثرت يا حورية وسال دمعي وفريد يقص هذا الحديث . كان يومها يتحدث وصوته المتهدّج كأنه لحن سماوي منبعث من قيثارته فيهتز له كياني . وختم حديثه بقوله : وأيقنت أخيراً يا سيدتي ، وبعد كل هذا ، أن ليس للانسان إلاّ عمله الصالح : أما الربح الطائل المحرّم ، وأما العبث الفاجر . وأما الاستهتار بالفضائل . أما كل هذا ، فيذهب جفاء ! . .



ولم تكد زينات تفرغ من حديثها حتى كان طلاء وجهها ، قد أتلفه ذلك الدمع الغزير المنهمل من عينيها السوداوين الجميلتين ! . وحلّ موعد عملهما فقامتا اليه . ولكن زينات ! ما لها الليلة ؟ وماذا أصابها ؟ ما هذا الجمود والثقل في الحركة ؟ ثم ماذا أصاب جمهورها المعجب

بها ؟ إنه لا يصفق لهـا كثيراً على عادته ولا يطلب تكرار نمرتها مراراً كما يفعل كل ليلة قبل الليلة ؟ أوه . . وما لروحها لا تتصل بأرواح جمهورها ولا تؤثر فيهم ؟

* * *

في اليوم التالي وفي وقت الأصيل ، كانت حورية تجلس في شرفة الملهى تنتظر صديقتها زينات وكأنها تنتظر حدثاً ذا بال . . وأقبلت زينات . . فأي إقبال هذا ؟ . . زينات ، الفتاة المرحة اللعوب الطروب الراقصـة الفاتنة ، تمشي على استحياء ! وعليهـا مسحة من جلال ومهابة ! ؟ . . وحورية ؟ حورية هي الأخرى ، ماذا دهاها فألجمها عن استقبال صاحبتهـا بمداعباتها الغزلة الماجنة كعادتها ؟ . . وفوجئت حورية بزينات تحييها تحيـة جافة جادة : السلام عليكِ . ولم تشهق حورية ضاحكة ولا ساخرة من صاحبتهـا وإنما ردت التحية في وقار وجفاف ، أرغمت عليهما إرغاماً . . وجلست زينات وطلبت قهوة وراحت تحتسيها مع صاحبتهـا في سكون وصمت . ثم قطعت زينات الصمت بقولهـا : وبعد ، فياحورية ، لقد أتيت الآن لأودعك أيتها الرفيقة الحبيبة وأتمنى لك ولحياتك ، هذه الصاخبة الماجنة ، نهاية قريبـة سعيدة ، كنهايتي . قالت حورية على الفور : أية نهاية ؟ خبريني يا أختاه . أسيتزوجك صديقك الجـديد الثري ؟ قالت زينات : صديقي الثري ؟ . . كلاَّ يا صديقتي ، إنه صديقي الفقير المستقيم . . لقد انتظرته أمس بعد انتهاء العمل وصحبته الى منزله وأمضيت معه وقتاً طويلاً نقرأ في كتابه « دلائل الخيرات » . . يا صديقتي لقد آمنت معه . . آمنت بقوة أن ليس للانسان غير عمله الطيب وصفاء نفسه .. وآمنت معه بشدة أن الموسيقى والدين ـ كلاهما ـ يسموان بالنفس وينقيانها من الشوائب والأدران ، وأنهما يطهران الروح ويعلوان بها إلى عليين . . سأتزوَّجه يا حورية . . وسأحيا معه للدين والموسيقى . . لقد اتفقنا على ذلك . . وسأبقى معه في منزله المتواضع ، لا أبرحه أبداً ! . .

ثم قامت سريعاً ، وقبلت صديقتها ، وتركت الملهى إلى منزل الزوجية .. الى منزل فريد الموسيقار حيث الطهر والاستقامة و . . كتاب دلائل الخيرات ..

محمد طلبه رزق

٢٠٠ ألف دولار

تبرع لبناني لمكتبة الجامعة الأمريكية ببيروت



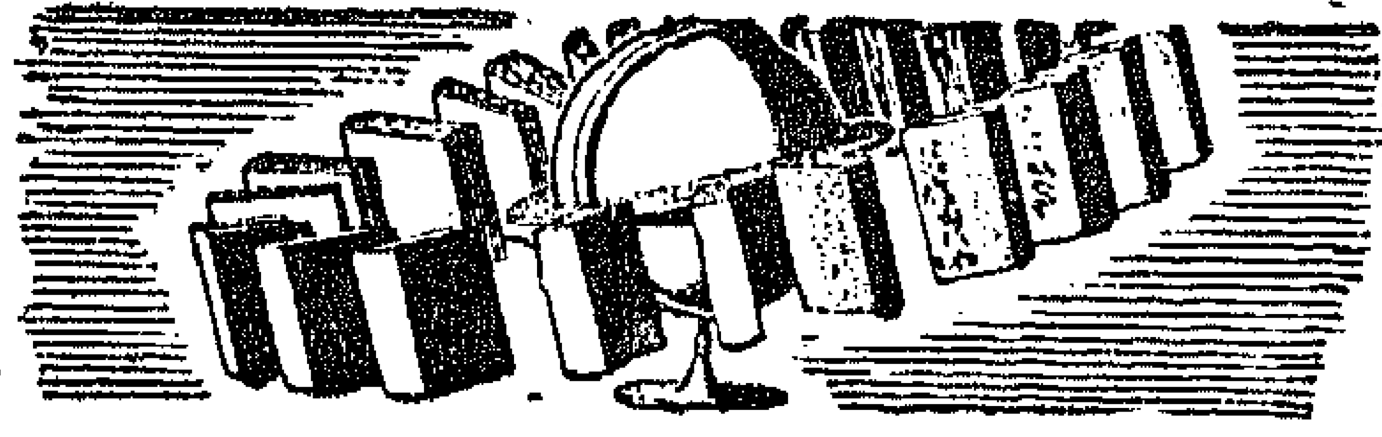
السيد ريكاردو يافت يتقدم الى الدكتور فيليب حتي تحويلا بمبلغ ٢٠٠ ألف دولار لهذه المؤسسة

تردّد نبأ الهبة التي جاد بها ورثة المرحوم نعمة يافت اللبناني لبناء مكتبة في الجامعة الأمريكية ببيروت وهي مائتا ألف دولار . وقد وصفها مكتب جمعية الكليات الأمريكية في الشرق الأدنى بأنها أكبر هبة في سبيل العلم جاد بها مهاجر من أصل عربي .

أما الواهبون فهم أرملة المورث وأولاده السبعة . وكان المرحوم نعمة يافت من أثرياء المهاجرين اللبنانيين الذين توطنوا البرازيل وتعد الشركة التي أسسها باسم شركة يافت وأولاده من أعظم الشركات الصناعية التجارية في البرازيل ولها عدّة فروع ، ومن مؤسساتها وممتلكاتها مصرف ومنجم ومصنع للغزل والنسج لا نظير له في تلك البلاد . وستعرف المكتبة باسم مكتبة « نعمة يافت » وتكون أول منشأة تحمل إسماً عربيًّا

ومما يذكر عن المورث أنه ولد سنة ١٨٦٠ في بلدة الشوير بلبنان ، وتخرَّج في الكلية السورية الانجيلية ببيروت ، وقد أصبحت فيما بعد الجامعة الأمريكية . وكان من رجال العلم ، مولعاً بعلوم الرياضيات وله مؤلف في الحساب وقد أسس الأكاديمية الشرقية ببيروت سنة ١٨٨٠ وهاجر الى البرازيل سنة ١٨٩٣ وتوفي فيها سنة ١٩٢٤ .

ولأسرته شهرة في أعمال البر كشهرتها في أعمال التجارة . فلا يخلو مشروع وطني أو خيري في البرازيل من أثر كرمها . واعترفت بلدية سان باولو بفضلها فدعت شارعاً باسمها .



مكتبة المقتطف

١ — صحائف مطوية

لمعالي احمد لطفي السيد باشا

لهذه الصحائف أكثر من جانب يمهد لها سبيل البقاء، ويخلع عليها هذه الحلة التي تصل بينها وبين القلوب، وتجعلها محط العناية من الأذهان المتعطشة إلى هذا المنهل التاريخي للارتواء منه، لأنها الاطار الذي يضم صورة رائعة من التاريخ المصري. ونموذج من تلك الحوافز التي تستثير الأمم. فتهب صارخة في وجه من يأخذ عليها طريق الحياة الحرة الكريمة، والذي يعطي هذه الصحائف كل هذه الأهمية. أنها سجل دقيق لهذه الحالة النفيسة، والشعورية، والعقلية، التي تلبست هذه الأمة في فجر نهضتها، ولا يرمى الكاتب بالمغالاة عند ما يعلن. أنها سجل صادق لهذه الفترة، لأنها قد كتبت تحت تأثير هذه العوامل والحوافز، وصوّرت بهذه الألوان الشعورية النفسية التي كانت تعمل الظروف على تلوينها من يأس، ورجاء، وتحفز، وإستنهاض، ومقارعة لحجج طاغية، ظالمة، وتفنيد لمزاعم، والمصاولة في ميدان الرأي، ولا شك أن هذا الصراع المخيف، المريب، يأخذ أكثر ما يأخذ دائماً من تلك النفوس التي تمتاز بالاحساس المرهف، والقلوب التي تزخر بالعواطف الوطنية الانسانية، والخواطر التي تجيش بمختلف النوازع الانسانية الرفيعة، وهل تنال هذه الأحداث من شخصيات ما تناله من تلك الشخصيات. ذوات المذاهب الملتهبة، وأصحاب المثل العليا في الحياة، فوقف — لطفي باشا — من تلك الثورة التي أشعلت كل شيء. موقف لسانها الناطق، وقلمها المسطر، ومصوّرها الحاذق، ولا يتهيأ الوجدان الحي،

المبدع ، لنقل هـذا الجو كله ، كما يتهيأ لمن يستوحيه ، وهو تحت تأثيره ، ويستمليه كل ما يمكن أن يمليه ، أو يوحيه ، مما يطبعه بطابع خاص ولون لا يحول ، فجاءت هذه الصحائف مرجعاً ، أميناً لمن تهفو روحه ، ويتطلع ناظره إلى مشاهدة تلك الفترة العصيبة الحافلة ، في تاريخ الأمة المصرية . فكم يعاني المؤرخ من المتاعب ، ويتحمل من الجهود عند ما يحاول التأريخ لفترة ، أو يرسم صورة لحقبة من الحقب . قد باعد بينه وبينها الأمد ، واستطاعت الحوادث المتدفقة ، المتغيرة ، المستمرة . في غير هدوء ، ولا هوادة ، ولا كلال ، أن تطمس كثيراً من الألوان التي كانت براقة في حينها ، ويعفي على معالم كان لها بروزها في ماضيها ، وشخصيتها في ميدانها ، وأن تبرز أخرى بفعل الزمن ، ومخلوقات الظروف والمصادفات ، وما تعمله البيئـة التي هو ثمرتها في عقله وخياله ، وحكمه على الأشياء ، وتصوره للحوادث مع الاختلاف الذي يكثر حيناً ، ويقل أحياناً ، فمهما كانت استمانته بما بقي بين يديه من المواد التي يريد البناء منهـا ، واتخاذها وسيلته ، ومهما يجهد في تخلصه من بيئتـه ، ومحاولة إندماجه في العصر الذي يريد تصويره يشط منه كثير من الأوابد التي تستعصي على القيد ، ويعز عليه أيضاً كثير من الدوافع ، والبواعث التي كان لها سلطانها، ثم دالت دولتها ، وعفى عليها النسيان ، أترى لو أن قلماً من هذه الأقلام التي لم تلابس هذه البيئة ، وتعيش مع هذه الأحداث في ميلادها، وطفولتها وشبابها : يستطيع أن ينقل اليك هذه الصورة التي نقلها الينا قلم لطفي باشا — ليس هذا في مقدوره ، ولا طوع إرادته ، وما هو قلم لطفي ؟ وما ذهن لطفي ؟ وما منطق لطفي ؟ وما اتزان لطفي ؟ وما ثقافة لطفي ؟ إن هذه الخصائص ، والمواهب التي تحملها هذه الشخصية يعز مثلها كثير في كل أمة ، فكل شيء يزكي هذه الصحائف . فليس هو بالقلم الهزيل ، ولا بالذهن الكليل ، ولا بالمنطق المعتل ، ولا بالثقافة الضحلة . بل لا بد استكمال كل هذه الجوانب على أكمل ، وأتم ما تكون هذه المواهب ، هذه بعض الجوانب العامة ، ولهذه الصحائف جوانبها الأخرى من حيث الكشف ، والابانة عن ناحية من نواحي عبقرية — لطفي باشا — هذه العبقرية التي هي خليقة بالدراسة ، والتحليل ، وفاءً بحق التاريخ وأمانة نسلمها للأجيال المقبلة وضناً بهذه الشخصيات التي لها في التراث الانساني ثمرات ناضجة ، وفي توجيه أمتها أعظم الأثر ، بهذه الرسالات القيمة التي أدتها ، وتحملت عبئها ،

وهل يتهيأ للباحث أن يقدم ترجمة صادقة دقيقة ، لشخصية لطفي باشا — إذا ظلت هذه الجوانب محجوبة ؟ أليس المترجم لشخصيات تاريخنا العامي ، أو الأدبي يصطدم دائماً بهذه الصخرة التي توهي قرن كل من يحاول كتابة حياة . ما دامت تقف حياله هذه المعضلة . معضلة اختفاء جانب من جوانب شخصيته الفكرية وضياع أثر من آثاره ، أيستطيع مثلاً مؤرخ أن يزعم بأن في مقدوره اعطاءنا ترجمة وافية بكل جوانب شخصية مثل ـ الجاحظ ـ ما دامت بعض آثاره لا تزال في طيّ الخفاء ، أليس هذا المذهب يحمل كثيراً من الصواب عند ما يعلن ضرورة اتخاذ آثار الرجل مفتاحاً لشخصيته ؟ لأنها هي السبيل الوحيد ، المأمون لمعرفة هذه الشخصيـة ، وللأستـاذ الـكبير — اسماعيل مظهر — جهوده الموفقـة ، المشكورة في سبيل تزويد الجيل بثمرات أستاذ الجيل ، أمدّ الله في بقائه ، وأعانه على تأدية رسالته — الارسطاطاليسية — التي يجاهد في تبليغها ، والتي يقف عليها أنضج أطوار عقله لتمكين جيله من معرفة ـ أرسطو ـ وتذليل الصعوبات للانتفاع به .

٣ — الرسالة الخالدة

لمعالي عبد الرحمن عزام باشا

قوبلت هذه الآراء القيمة في أصول الدعوة الاسلامية التي ضمنها ـ معالي عزام باشا ـ رسالته الخالدة وتناوله لمسائلها بهذا الاسلوب الدقيق الطلي ، واقامة الأدلة على صلاحيتها للأخذ بيد الانسانيـة المتعثرة الحائرة في مهب عواصف المذاهب المتسلطة ، وإعلانه ألاّ ملجأ لها بعـد أن نالت منها الشدائد ، وأهوت قواها الحروب ، واستنفدت مذخورها الأهوال ، إلاّ الاعتصام بهذا المرفأ الأمين المريح ، مرفأ الشريعة الاسلاميـة ، وقد قابلت الأمة هذا النداء بما تقابل به الدعوات الحبيبة . التي تنبعث الحين بعد الحين ، فكأنها تنفس عن كل قلب ، وتهدىء كل خاطر ، وترد عاذب كل أمل ، فالقول بأن الرسالة الاسلاميـة ، رسالة إنسانية عامة تتطلبها كأحوج ما تكون إليها ، أصبح من البدائه التي تنزل من القلوب منزل الايمان الراسخ ، وكل ما يهفو إليه العالم هو رفع هذه الغشاوة ، وإزالة هذا الصدأ عن تلك التعاليم التي طال ثواؤها تحت الأتربة التي كدستها فوق بريقهـا ، وأثارت السحائب على

وضاءتها المحن ، والنكبات التي اصطلحت على المجتمع الاسلامي ، ووكلت به كل شر ، وأنزلت بروحه من الفوادح ما تركه مهيضاً ، واهي القوى ، ينوء تحت عبء الاعياء ، وبات روحه ضاوياً هزيلاً ، من طول معاناته ، ومغالبته ، وصموده ، حتى إذا هتف الصوت الذي يبشرهم باقتراب فكاكهم من إسارهم ، وبالنور من ظلامهم ، تلقفته الآذان في شوق ، وتجاوبت ألحانه الأفئدة في ولع ، وأخذتهم نشوة من يستشعر دبيب القوة يسري في أقطار جسمه ، وإزاء كيانه ، فأثر أمثال هذه الدعوات لا تحده الدائرة الفكرية ، ولا نستطيع أن ننشر الجوانب العقلية كله ، بل هو يفيض ، وينال في أطواء الشعور ، ويتدفق لطيفاً ، هادئاً ، منعشاً في ثنايا الاحساس ، وتنبض به الآمال الذاوية ، الذابلة ، فاذا ما أخذت الأمة تنفعل من هذه النواحي ، وتجيش عواطفها من هذه الطرق ، وتدب الحياة قوية في نوازعها بهذه الأساليب ، فقد شاعت فيها روح الشباب ، وامتلأت بعنفوانه ، وتألقت بهجته فاذا ما استطاعت الدعوات أن تنقل الأمة هذه النقلة ، وتفيض على روحها من هذا الفيض فقد أدت خير ما يمكن أن تؤديه ، وما كان يعوز تلك الرسالة وقد أخذت تنقشع الغمة التي طالت ، وثقلت ، غير هذه العقليات التي زودت بألوان الثقافة ، وأكسبتها التفكير الطويل والتجارب المتعددة والقدرة على النقد ، والتمييز بين الصحيح ، والسقيم ، من الأفكار ، وان تمد بصرها لاستبطان هذه النظم التي تسيطر على العالم ، وتكيف موقفه ، وتتحكم في مصيره ، فاذا ما رزقت الدعوة المحمدية هذه القرائح والاقلام لتقدمها برئة من الشوائب التي تشوبها وتدفع عنها تجني الظلم ، وتقيها اجحاف الطغيان فقد استطاعت أن تسترد موقفها وتتابع رسالتها في مجرى التاريخ ، وبناء الحضارة العالمية ، ومعالي — عزام باشا — شخصية قد أتاحت لها ظروفها أن تساهم في السياسة ، والاجتماع ، وغيرها ، ويفهمها فهماً جيداً ، وإدراك تلك التيارات التي كانت تجري في الخفاء ، ولا تستطيع العين البعيدة أن تأخذها ، وقد فرغ من كل تلك الدراسة : والمشاركة في التوجيه ، والاشراف العقلي ، بنتائج لها خطرها وأثرها في الحياة السياسية ، والاجتماعية ، والروحية وهي أنه لا أمل في نجاة العالم ، ولا مفر له من تلك الأهوال التي يكتوي بلهيبها ما دام يعتنق تلك المبادىء التي لا يمكن في نظره — ونظر العقل السليم — أن نستأصل الداء ، ولا حيلة في تكرر المأساة بين حين وآخر ما ظلّ

العالم تسيطر على روحه تلك المذاهب المادّية الملغمة ، ولا ملجأ له إن أراد أن يحيا حياة هانئة متآخية إلاّ أن يمكن من قلبه تلك المبادىء الخالدة التي حملها الرسول العربي الى العالم ورياضة عقله على تمثلها ، واجتثاث بذور التعصب الأعمى ، والتحامل البغيض حيال تلك الدعوة المهذبة السامية ، وقد جاءت هذه الرسالة التي يقدمها — عزام باشا — دليلاً على مبلغ تمكن ذهن هذا الرجل ، وصفائه ، وإلمامه بدقائق تلك الدعوة ، وخفايا معضلات حياتنا الحاضرة ، ومنطقه البارع في مناقشة ما هو بسبيله ، وتقديم رسالته الجديدة في سبيل رد تلك الاتهام التي تلفقها الأغراض المدخولة ضد الدعوة الاسلامية ، فما أحوج الأمة الاسلامية ، وهي محط ألوان كثيرة من المذاهب ، والدعايات أن ينهض من يملكون هذا المنطق ، المزوّدين بتلك الثقافة أن يبعثوا لهذا الجيل بريئاً من كل شائبة ، كلٌّ في ناحيته يتولى علاجها ، فنقيم الحجة للعالم أجمع على أن هذا الدين أكمل رسالة عرفتها البشرية ، وأن رسوله المثل الكامل للانسانية ، وأنّ أمته خيرُ أمّةٍ أخرجت للناس ، تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر .

٣ — يسألونك

للاستاذ عباس محمود العقاد

ملكات ثلاث . تتساند في سبيل إبراز الإنتاج الأدبي : ملكة التفكير : ومجالها التحليل ، والمنطق ، وملكة الخيال ، ورسالتها التصور والتصوير ، وملكة الأداء وتتجلى في الأسلوب ، وقبيل أن تتآخى ، وتتعاون ، في نتاج كاتب كما نظر في نتاج الأستاذ — العقاد — فسلطان الفكر . الحرّ ، يطالعك في كل ما يقع عليه طرفك : والخيال المصور اللطيف ، تتراءى أطيافه في كل مجال ، وملكة الأداء ، تبرز جليّة ، ناصعة محكمة ، في هذا التسلسل ، المنسجم ، في إحكام ، فلا حشو ، ولا اضطراب ، ولا فضول ، بل هو أسلوب صريح . لا رغوة فيه . وأظهر ما تظهر هذه الملكات الثلاث في هذا الكتاب ، فهو مقالات متفرقة ، وليدة ظروف متباينة ، ولكن هناك فكرة تربط بينها ، وتجمع بين أطرافها ، هي . اسلوب الدفاع ، وقوة التحليل ، إذ هذه المقالات استجابة لأسئلة أثارها بعض القراء

فتصدّى للكتابة عنها ، وقضايا اختلط على كثير من العيون وجه الرأي فيها ، فتولى دراستها ، وفيها تبرز تلك الملكة على أتمها ، عند — العقاد — فهو لم يتصد لتناول في هذه القضايا بملكة الأديب فقط ، فما أقل غناءها . وحدها في هذا المجال ، بل بمواهب القاضي ، وقريحة الفيلسوف ، وبداهة الأديب ، فلا يسعك . إلاّ أن تحمد له تلك اليد التي أزالت ما كان يعتلج في نفسك ، ويبلبل خواطرك ، ويروض ذهنك على هذا الأسلوب الفكري ، المستقيم ، ومعاونته على أن ينفذ إلى الحقائق ، ولا يظل طافياً على السطوح ، وأن يلج الى البواطن فلا تحتجزه الأسوار ، وعندي أن شيوع هذا النوع من الكتابة تكون له آثاره العميقة في الأقلام الناشئة ، والملكات الوليدة ، فيحول بينها ، وبين لوثة الثرثرة الجوفاء ، ويباعدها عن الولع بالبريق الخلاّب ، تتبين كل هذه الخصائص في كل مقال في هذا الكتاب ، أنظر إلى نمط تناوله ، وعلاجه ، لهذه النكسة التي تحمل بعض الناس على الدعوة الى اتخاذ العامية مراعاةً لشعور الفقير لغة نستخدمها في شؤون الفكر ، والأدب . فيرد قائلاً في مقالته العامية والفقر ـ العامية قبل كل شيء هي لغة الجهل وليست بلغة الفاقة ، أو اليسار ، وبين الأغنياء كثيرون لا يحسنون الكلام بغير العامية . التي لا جمال لها ، ولا طلاوة ، وبين الفقراء من يحسنون التعبير بالفصحى ، أو يعبرون بالعامية تعبيراً يزينه جمالها ، وتبدو عليه طلاوتها ، فاذا عطفنا على العامية فإنما نعطف على الجهل ، ونستبقيه ، ونستزيده ، ولا نخفف وطأة الفقر ، ذرّة ، واحدة بتغليب عبارات الجهالة على العبارات التي تصاغ بها آراء المتعلمين ، والمهذبين .. وماذا يفيد الفقراء أن يسكن الأغنياء الأكواخ ، وماذا يفيد الفقراء أن يتكلم المتعلمون لغة الجهلاء ، وماذا يفيد الفقراء أن تساويهم في الحرمان من المال ، والعلم ، ومن الفصاحة ، وقدرة التعبير ، انما يفيد الفقراء أن تصبح أكواخهم قصوراً ، أو كالقصور في الاراحة ، وتصحيح الأبدان ، وإنما يفيدهم أن يكون نصيبهم من اللغة كأحسن نصيب يتعلمه المتعلمون . فان لم يبلغوا هذا المبلغ فالفائدة ألاّ يكون نصيبهم منها أحقر نصيب ، وألاّ نسجل عليهم هذه الحالة المزرية كأنهم لا يصلحون لغيرها ، ولا يطمحون الى ما فوقها .

على هذا المنوال ينسج مقالات ، وبحوث هذا الكتاب ، وقد صدّره بمقدمة قيمة في

أدب المقالة . أدارها حول نشأة هذا الفن في الأدب العربي ، وامتزاجها بأدب الفصول وأدب المقامة ، وفي الآداب الأوربية وعرج على تحليلها ، وكل مقالة من هذه المقالات تستقل بفكرتها ، وتمتاز بتركيزها ، حتى ليجد فيها من يتعهدها وينميها ، كتاباً مستقلاً ، ويكاد يكون هذا طابع — العقاد — في كل ما يحاوله من هذا الضرب من المقالات ، ولم يتعدَّ حدود الواقع في اعلانه أنه ينبغي أن تكون المقالة مشروع كتاب في موضوعها لمن يتسع وقته للاجمال ، ولا يتسع للتفصيل ، فكل مقالة في موضوع فهي كتاب صغير يشتمل على النواة التي نبتت منها الشجرة لمن شاء الانتظار ، وأوجز ما يقوله الناقد في أمثال هذه الأبحاث ، انها من قبيل الفلسفة الأدبية ، أقرب منها الى أي شيء آخر .

محمد عبد الحليم ابو زيد

أعمدة التلغراف

نشر الأستاذ عبدالله المشنوق في مجلة « الأديب » البيروتية قصة بعنوان « البؤس المكتوم » سرق الفكرة الرئيسية فيها من قصة نشرها المقتطف في عدده الصادر في مارس سنة ١٩٢٨ نقلاً عن الروائي المعروف الكسندر غلواكي البولوني بعنوان التلغراف . ونحن ننقل هنا ختام القصتين ليكون ذلك حكماً بين المقتطف وحضرة الأديب المشنوق

قال المشنوق — « لست أدري لماذا انتقل فكري — ساعتئذٍ — الى التلغراف .... لست أدري ، ولكني أعلم حق العلم اني ربطت في ذهني هذا الحادث بما يجري عادةً عند ما يرسل الى أحدنا برقية . فهناك محطة مرسلة ترسل النبأ . وهناك أسلاك مركزة على أعمدة تنقل النبأ ، وهناك محطة لاقطة تتلقى النبأ ، هذا هو التلغراف . المحطة المرسلة هنا هي هذا البائس المصدور وأطفاله الخمسة ، والمحطة اللاقطة هي البائس المعلم ، وأما أنا ، وأما صديقي التاجر المعتبر ، وصديقي الصناعي الكبير ، والطبيب المثري الكبير — أولئك المعتذرون جميعاً — فقد كنا أعمدة التلغراف » .

وقال غلواكي كما نشره المقتطف : « ان وقوع هذه الحادثة في أثناء وجودي معك — وأنت أستاذ لفلسفة الطبيعيات — أخطر ببالي فكر المخاطبة التلغرافية بطريقة جديدة . فالمكتب الرئيسي لهذا التلغراف كان ملجأ اليتامى والمكتب الذي تسلمه كان العامل في مصنع القبعات . فلما أشار الأول مسترعياً الانتباه انتبه الثاني من فوره . وعندما صرَّح ذاك بحاجته بادر هذا الى قضائها . أما نحن الباقين فكنا — كلنا — أعمدة التلغراف »

فليعتذر الأستاذ المشنوق ولكن الى غلواكي فالمقتطف متنازل عن حقه .

مكتبة المقتطف

نَنوه بهذه الآثار الفكرية في هذه العجالة وموعدنا بنقدها قريب

١ * اوديب — تيسيوس : ترجمة طه حسين عن اندريه جيد : ٣١٠ صفحة من القطع الأوسط : دار الكاتب المصري .

٢ * الناطقون بالضاد في امريكا : نشره بالانكليزية معهد الشئون العربية الأمريكية في نيويورك سنة ١٩٤٦ وترجمه وعلق عليه « البدوي الملثم » : ١٠٠ صفحة من القطع الكبير : المطبعة التجارية بالقدس .

٣ * الاقطاع والديوان في العراق : تأليف عبد الرزاق الظاهر : ١٦٨ صفحة من القطع الكبير : مطبعة السعادة بالقاهرة : ١٩٤٦ .

٤ * ترجمة الامام احمد بن حنبل ١٦٤ – ٢٤١ هـ . نقل عن تاريخ الاسلام للحافظ الذهبي (٧٧٣ – ٧٤٨ هـ) حققه الأستاذ الثبت احمد محمد شاكر : دار المعارف للطباعة والنشر : ٨٤ صفحة من القطع الكبير : ١٩٤٦ .

٥ * السلام الاجتماعي : تأليف الأستاذ الحر عبد المجيد نافع المحامي : ٢٦٦ صفحة من القطع الكبير ، نشرته دار الفكر العربي ، ١٩٤٦ : وسننشر عنه نقداً في العدد التالي من المقتطف .

٦ * تاريخ الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط : تأليف الأستاذ يوسف كرم المدرس بكلية الآداب بجامعة فاروق الأول : ٢٦٦ صفحة من القطع الكبير : نشرته دار الكاتب المصري : ١٩٤٦

٧ * أؤمن بالانسان : تأليف الأستاذ عبد المنعم خلاف : ٢٥٦ صفحة من القطع الأوسط نشرته مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة : ١٩٤٦ .

٨ * تاريخ مصر في عصر البطالمة : جزآن صفحاتهما ٩٣٠ من القطع الأكبر : تأليف الدكتور ابراهيم نصحى أستاذ مساعد التاريخ القديم بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول : نشرته مكتبة النهضة المصرية ، وطبع في مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر : القاهرة ١٩٤٦

٩ * مدونة جوستنيان في الفقه الروماني : ترجمها عبد العزيز فهمي باشا : ٤١٠ صفحة من القطع الكبير ، دار الكاتب المصري : ١٩٤٦ ، ويلي متن المدونة نظام للمواريث وضعه جوستنيان ويليهما بعض قواعد وتقريرات فقهية رومانية وبعض تقديرات أخلاقية .

١٠ * نبي الاسلام : The Prophet of Islam تأليف السيد محمد علي ، وهي مكتوبة بالانجليزية واقعة في ٤٦ صحيفة من القطع الصغير ، وقد طبعت أربع طبعات متوالية بين ١٩٢٨ و ١٩٣٨ ، وحبذا لو أقدم أحد ابناء العروبة على ترجمتها الى العربية .

فهرس الجزء الاول

من المجلد العاشر بعد المئة

١ النساطرة في أسيا : اسماعيل مظهر
١١ الفكر العربي لا يزال في الأغلال : مسلم حر
١٧ المحاكم المختلطة في تاريخ مصر القديم : دكتور باهور لبيب
١٩ ألعوبة الحرية : حسين المهدي غنام
٢٨ الشتاء (قصيدة) : شاعر البراري
٢٩ نتحدّى ! : اسماعيل مظهر
٣١ كتاب من الدكتور طه حسين عن القضية العربية
٣٢ الكنوز النفيسة في القمامات الخسيسة : عوض جندي
٣٥ تخريج كتاب الملل والنحل للشهرستاني : محمد بن فتح الله بدران
٤٣ الكلووي والحرارة : عباس مهدي
٤٤ الى النيل (قصيدة) : عفيفي محمود عفيفي
٤٥ صحافتنا تنحدر : ا . م .
٤٨ واجعل خيالك واقعاً أو مت عنا (قصيدة) : أيوب
٤٩ واجب الشاب العربي : أحمد الشرباصي
٥٦ قصة للتاريخ : شكري شعشاعة باشا
٦٣ كيف نعيش مئة عام : أحمد أبو الخضر منسي
٦٧ دلائل الخيرات : محمد طلبة رزق
٧٣ ٢٠٠ ألف دولار — تبرع لبناني لمكتبة الجامعة الاميركية ببيروت
٧٤ مكتبة المقتطف * ١ — صحائف مطوية : لمعالي أحمد لطفي السيد باشا . ٢ — الرسالة الخالدة : لسعادة عبد الرحمن عزام باشا . ٣ — يسألونك : للاستاذ عباس محمود العقاد : محمد عبد الحليم أبو زيد . أعمدة التلغراف . لمكتبة المقتطف

الحق

القسم الثاني من الحق والقوة

لواحق المقتطف الشهرية

الحق والقوة

— ٢ —

دراسة اجتماعية

بقلم

ادمان دهناف

ترجمة : سليم سعده

«اذن يجب ادماج العدل بالقوة . . . إذ أنهم لما لم يستطيعوا
«أن يجعلوا مما هو عادل قويًّا فانهم جعلوا مما هو قوي عادلاً »
« بسكال »

طبع بمطبعة المقتطف والمقطم

١٩٤٧

الفصل الخامس

العادة والقانون

لقد رأينا كيف أن قانون العلاقات الخارجية يؤدّي إلى وجود عادات يتبعها — ولو بعض الوقت — أغلب الأفراد والجماعات. ولكن نظراً لأن تلك العادات وليدة عقوداً ومعاهدات عرفية أو خاصة، متفق عليها أو مفروضة، فإنها لا تعمر طويلاً وتزول سريعاً وقلّ أن تنال إجماع الآراء والموافقة التامة إذ ينشأ عن تطبيقها اختلافات تجعل من الصعب إدراك ما ترمي إليه واستعمالها. وإلى جانب هذا العيب في الوحدة والموضوع توجد موانع عدم الاستقرار. فاذا تغيرت الحال وشاء أحد الأطراف مخالفة العادات المقبولة فليس هناك ما يحول دون تعديلهـا أو تغيير طريقـة الاستعمال إن لم يحل دون ذلك اتحاد أنصار القديم والمحافظين على العـادات إذا كانت لهم القوة والسلطة الكافية في الدفاع عن مصالحهم والمحافظة عليها.

ولكن عند ما تندمج الفرديات — التي كانت فيما مضى مستقلة — في نظام قوي فإنها تضحي باستقلالها في سبيل الانتفاع بفوائد الاتحاد. وهنا يتخذ من الاستعمال سلطة العادة. إن الأساس واحـد وطرق التصرف تتكرر كثيراً فهي إتفاقات بين الأطراف المتعاقدة وهؤلاء يفضلون عادةً توفيق مصالحهم على أساس ما يتمتع به كل منهم من السلطة والنفوذ بدلاً من إستنفادها في حروب يتلافون مشقتها وخسائرها. هذه القواعد تستخلص من تقارب الأعداء وتداني الأفراد واتحاد المعاهد القائمـة بأعمال مختلفة أو متشابهـة. إن علاقاتهم الضرورية لا تتوطد بدون مشادة. فقبل أن يوحّدوا جهودهم ونشاطهم يحاول كل منهم أن يحظى من مكانته بأكبر قسط وافر، وأن ينال أقصى ما يمكن نيله ويعطي أدنى ما تسمح به نفسه. على أن هـذه الخلافات لا يمكن أن تمتد وتتمادى لأن ضرورة التعاون تحتم إتفاقاً يحول دون معاملتهم لبعضهم معاملة الأنداد وتنظيم جهودهم. وهذه العلاقات

تتخذ — بعد ردح من الزمن — صفة الدوام في ظروف ثابتة في الحياة الإجتماعية. إن حركة الأعضاء وتفاعلها تولد سلسلة أعمال تتكرر وتتجلى بسلسلة علاقات تحددها قواعد لا تلبث أن تصبح إلزامية. ولما كانت الحالة باقية بدون تغيير أو أنها تتطور تطوراً بطيئاً، فان المستقبل يحتفظ في ثنايا مشروعاته الكبرى بصورة الماضي وهكذا تكون قاعدة العلاقات المستقبلة في التقاليد القائمة على السوابق المتجمدة.

وهكذا فليست القاعدة هي التي تحدد الوظائف، ولكن الوظائف المتجمعة من تلقاء نفسها هي التي تعبر عن نفسها عن طريق القاعدة حيث تجد فيها كل واحدة منها ماهيتها وصورتها. ويتملك الحركات، في أدنى تقلباتها، شعور قوي وينظمها بمجموعة من الإجراءات الدقيقة المبنى. فتهب على المتعاملين ريح جذابة وتستميلهم وتستهويهم إلى التعامل والبدل. وتتحد دائرة علاقاتهم وتتخلل ثناياها وتملأ خصاصها وتحاول أن تنفذ منها إلى مجال أوسع في التعامل ولن تجد أنسب من البدل.

تلك العملية المنظمة المشتركة التي تمت باتفاق الجميع غير خاضعة لطريقة محدودة ولكنها تلاحظ عند الاستعمال إن السلطة المركزية لا تصدر هذا النوع من القواعد ولكنها تحترمها وتقدسها بأن تضع القوة في خدمتها لتنفيذ أحكام المحاكم التي تطبقها، إذ أنه من الضروري أن توجد سلطة فوق الخصوم المتعنتين لتفصل في النزاع القائم بينهم وتملي أمرها عليهم وتنفذ قرارها باستعمال القوة التي تتمتع بها. تلك السلطة التي تسود على الأفراد والجماعات لا تقتصر على قياس القوات المتنازعة ووزنها فهي أيضاً تستلهم وحي تصرفها من مجموع المصالح المشتركة في المجتمع لأنها تتولد عنه وتشتق منه. وأولى هذه المصالح هي المحافظة على السلم. وتلك السلطة تعطي لكل نزاع الحل الذي ترى أنه أنجع لمصلحة المجموع. وتستخلص من كل حالة نوعية المصلحة العامة وتفضلها على غيرها بقدر ما تستطيع ضمان احترام قرارها.

وهكذا فان السلطة العليا ذات الشكل القضائي تؤدي عملاً تشريعياً. ومن أحكامها النوعية تتألف مجموعة من القواعد التي تتجلى ضمناً ويعطيها الشراح شكلاً قياسياً. وبطريق الاستدلال تبين العلاقات الضرورية الثابتة التي تشتق من طبيعة الأشياء والأسباب الطبيعية المستترة. إن القاضي يغتصب دور المشرع لأن المحكمة هي التي تكتشف الحق وتؤيده.

وما يُبرز دور المحاكم في تطبيق العادة هو التشابه المدهش الذي يوجد بين الاختصاصات القضائية والمناطق الخاضعة لنفس العادات .

* * *

وهكذا ليس قدم العادة ، كما يزعمون ، هو الذي يعطيها صفتها الإجبارية . فاذا سلمنا بهذا التفسير فيجب الإستنتاج بأن العادة المقررة لا يمكن أن تتغير . ولكننا نلاحظ أنها تتطور ، ومع ذلك كيف نفسر ذلك القدم ؟ إذا نحن استبعدنا الصعوبة فاننا لا نحلها . فعند نشأتها كانت العادة ، بلا شك ، حديثة العهد وكان لا يمكنها أن تتذرع بقدم العهد لتحمل الناس على احترامها . هناك من يقول أنه يكفي وجود سابقة لإيجاد القاعدة ؟ ولكن في هذه الحالة يكون أول عمل للرجل الأول قد وضع قانوناً حاسماً لخلفه من بعده !

إن التقليد ، مهما كان قديماً ، لا يمكن أن يحول إلى حق ما لم يكن فيما مضى حقاً . ولذلك فان الأساس يوجد في الاتفاق المعقود بين المطالب المتناقضة التي يبديها المتعاقدون المتضامنون الذين يضطرون إلى التفاهم والاتفاق بدافع ضروريات الحياة المشتركة . فاذا كانت العادة ، عند نشأتها ، غير ثابتة ، وإذا كان وقت تكوينها لا يمكن تحديده بالضبط ، فذلك يرجع الى وجود عهد غامض لمنازعات تمّ حلها بأساليب منوعة مختلفة ، قبل وجود عهد التعاون الوثيق الذي يتقرر بمرور الوقت عند ما ظهرت بالخبرة نتيجة الوسيلة المثلى للتوفيق بين المصالح المتعارضة مع كونها متضامنة في حدود القوات التي تسندها وتحت الضغط العام الذي يدفعها الى الاتفاق بل وعند الحاجة يضطرها إليه بتحكيم النزاع . إن تقليداً بعيد المدى يخولها سلطة ، ليست جوهرية ولكنها زائدة . فهي ، قبل كل شيء ، تبرز القاعدة وتحددها بقرارات متكررة . ثم تحمل على قبولها والعقود عليها بفعل الوقت الذي يوفق بين مطالب جميع المتعاقدين والمتعاونين . ثم توجد الرغبة في السلم . فإن لتلك الرغبة مكانة خاصّة . فقد دلّ الاختبار على أنها خير الوسائل لإحلال الهدنة محل الحرب . ففي العصور الوسطى كانت كلمتا السلم والعدالة مترادفتين . ومع ذلك عندما تتغير الظروف يشعر أعداء الأمس وشركاء اليوم ، بثورة حفيظتهم القديمة فيختبرون من جديد قوة خصومهم ومقاومة الوسط قبل الخضوع للقاعدة أو تعديلها . ولكن استقرار الحالات

من جهة ، والعادة الطويلة من جهة أخرى ، ثم الحاجة الى الثبات ، كل هذه العوامل لا تساعد على احداث انقلابات فجائية أو تعديلات كلية في الاتجاهات . وهكذا فان تطور العادة يكون غير محسوس ويتم بوسائل رقيقة .

إن أفضلية العادة على الاستعمال يرجع إلى استقرارها النسبي ، ووحدتها في مكان واحد من الدولة ، وإمكان التدليل على وجودها ان لم يكن تسهيل ذلك ، وموافقة سلطة اجتماعية عليها ، وفي النهاية معنى المصلحة العامة الذي يتجلى ولو بصفة غامضة ، ولكنها لا تخلو من المعائب : فهي متقلبة تبعاً للأماكن ، وكثيراً ما ينقصها الوضوح ، والتضامن الاجتماعي لا يجد فيها إلا معنى مضطرباً ذلك لأن العادة من عمل النشاط المحلي الذي تعترف به وتقدسه سلطة قضائية غير مركزة .

* * *

عند ما يتطور الجسم الاجتماعي يزداد تنسيق الأحزاب وتنظيمها، وتجد المصلحة العامة معناها في عضو يقوم على المعلومات والبيانات فيؤدي وظيفته الرئيسية ويشرف على جميع الحركات . ويدرك بحدة ثاقبة ما يتطلبه تضامن جميع الأجزاء وينظم نشاطها . إن الدماغ لا يؤلف وحدة الجسم ولكنه يعبر عنها . والسلطة المركزية تعبر كذلك عن الارادة العامة وتعطي شكل القانون للقواعد التي تمليها .

فليست السلطة عملاً مجهولاً مؤلفاً من سوابق جمعت ببطء ويتجه من المحسوس الى المجرد المعنوي ثم يتجلى بطبيعته لأنه نتيجة لعدة ارادات متجمعة إن القانون يتبع نظاماً عكسياً . فهو يظهر في شكل قواعد معنوية وضعت لادارة الوقائع المحسوسة الكامنة في معناها . انه مجموع اجراءات ثابتة متشابهة ونصوص واضحة جعل اصدارها في ميعاد محدد واقرارها واعتمادها من خصائص الهيئة المنظمة في الدولة . فنشأه واقراره كامن في السلطة العمومية ومدته غير محدودة مبدئياً . ان القانون هو المعنى الواضح لارادة الدولة الموحدة والمركزة . فهو يمتاز إذن عن العادة بوضوحه ، وصفة الفردية ، وتعميم عباراته، وفي النهاية لأنه قائم على أساس تفكير طويل واختبارات ماضية ويحاول أن يتناول المستقبل . فهذه الصفات الثلاث المميزة للقانون تبين عمل السلطة المركزيه التي تسيطر على أعضاء المجموع .

إن مقاومة القواعد الناشئة عن العادات لبعض التجديدات التشريعية هي — بالعكس — الدليل على قوة معارضة الأفراد أو الهيئات المحلية . إن ميدان الحق المترتب عن العادة فسيح قبل أن يستقيم المجموع وينظم . إلاّ أنه يلاحظ ، أولاً بأول ، عند تنظيم المجموع إن حصة التشريع تزداد وتطغى على الحق الناشىء عن العادة . فعندما يؤلف مجتمع فانه يختار رئيساً مهما كان هذا المجتمع خشناً . ثم انه يضع نظاماً . وقد ظلت القواعد القائمة على العادات عهداً طويلاً نافذة المفعول بفضل كثرتها وأهميتها وطغت على النظم الصادرة عن السلطة العليا . ولكن حتى في عصور الاقطاعية — وهي العصور التي ازدهرت فيها العادة — كان الملك يصدر القوانين الرهبانية والمراسيم والقرارات . وقد رؤي في عصور الانحطاط والتخاذل مجموعة من التشريعات بذّت بكثرتها وعدم اتباعها في حين أن العادة والاستعمال قد تولدتا في أشكال خلابة خادعة تحت ستار نظام هيئة متلاشية .

إذ أنه لا محل للخطأ : فالقانون يتسلط أو يمتص العرف والعادة ولكنه لا يمحوها : فاذا ضعف بانحلال المجموع الاجتماعي ، أو سقط تحت ضغط المطامع القوية فان العادة والعرف يستعيدان حريتهما ويسيطران على الانسانية وهي انسانية في حالة تقهقر ورجعية . وبالعكس عندما يمد القانون نفوذه ، فاذا هو لم يطرد العادة باحتلال محلها ، فانه لا يتوانى في اخضاعها لنفوذه سواء باعطاء الشكل التشريعي لعادات قائمة نافذة أو بضمها للآلة التشريعية بالاعتراف بها رسمياً .

ذلك أن القانون ليس في الواقع إلاّ شكلاً راقياً من العادة أو العرف المصطلح عليه ويقتبس من العادات مبدأ توازن القوات ويستعمله في تأييد سلطته . ومن العرف المصطلح عليه أصول التضامن يبرزها في وضع أوضح وأمتن لتوحيد النشاط الفردي وتوجيهه . ان المشرع لا يوجد القانون ولكنه يشرحه . فالقانون أيضاً ليس إلاّ احد أشكال الاعمال الفردية . ولكن بينما تنشأ العادة والعرف المصطلح طوعاً ، فان القانون ينفذ عن طريق هيئة منظمة : جمعية وطنية ، أو مجلس نواب أو سلطة ملك مطلقة . وهو يطاع لتلك الصفات الأساسية وليس للنصوص الحتمية التي صيغ بها . وان سلطته تفرض مؤقتاً لان المفروض أن تلك السلطة تضم في ذاتها جميع السلطات . إلاّ أن القانون لا يستطيع أن يقاوم الاخطاء

المتكررة . فهو يفقد مزية هذه القرينة الملائمة . ولذلك فانه يعمل بحرص بضم هذا الشكل في النظام الاختياري الذي لا يخرج عن كونه عادة مقبولة طوعاً وبغير ما اكراه .

وخير من ذلك . فان القانون لا يكتفي بضم العادة اليه بل كان يستتر ظاهراً بطبقة من العادات بما تقدمه الشريعة التي تكمل غالباً وأحياناً تعدل نص القانون مع احترام عباراته . ولكن النص الأصلي يحتفظ بمظهره واعتباره الخاص . فقبل إصداره كان موضع مناقشات ومداولات ، كثيراً ما تكون طويلة ، وأحياناً موضع مفاوضات جدية مضطردة، وامتيازات لم يمكن التوفيق بينها ، والتوازن بين أجزائها، إلاّ بعد جهد وعناء . بحيث أصبح كل تعديل فيها يتطلب تطبيقاً جديداً دقيقاً للمطالب المتناقضة التي يحسن إرجاء النظر فيها لأن الاعتراف بعدم كفايتها يثير أزمة لا يمكن معرفة مداها وأمدها ولا تقدير تأثيرها سلفاً . وقد استطاعت تلك العادات ، بفضل المثابرة الدقيقة ، إحتلال مكانة في القانون والتطبيق .

على أن حوادث الحياة ، التي لا ينضب معينها ، تحول ببطء وضع هذه المسألة . فالتفسير القديم كان يعمد الى تطبيق الوصف الخشن المجرد ذي المعاني المستترة الملتبسة لما هو حقيقي حتى ليعد من السذاجة ، محاولة التغلب عليها بواسطة القرارات البشرية . إن تطوّر الوقائع يؤدي حتماً إلى تطبيق جديد يحيد عن إرادة المشرع الأصلية . كما أن القانون لا يمكن أن يتبع هذه الحركة المستمرة إلاّ بتدخله تدخلاً متقطعاً وأحياناً مع كثير من التردد والرهبة . ويستحسن كثيراً تفادي تغيير صيغة القانون التي يقوم عليها تشريع بأ كمله ، إذ أن ذلك يؤدي الى زوالها معه بإيجاد الشك في التفسير الجديد وهكذا يحتفظ الحرف بفضيلته المتزايدة مع الزمن . إن الزي التشريعي الذي استند في البدء هي الدعامة الشرعية ، ينصرها بدوره ويحميها . وسوف نلاحظ مع ذلك أن الشريعة تخصص ، مع إيضاحها وتنقيحها ، عادة تقدمته وقامت تحت ضغط ضرورة التطبيق الملحة . وليس في ذلك ما يدهشنا لأن النزاع يتقدم الحكم . وفي النظام التاريخي يتقدم الحكمُ القانونَ . إن القانون يكون دائماً متأخراً على الحياة التي تأبى أن تكون سجينة الصيغ ، بعكس الرأي العامي الدارج الذي يدهش من أن تطبيق الحق يمكن أن يؤدي إلى مثل تلك المناقشات الطويلة . لقد طالما أخطأ كثيرون من العباقرة، بل ونابليون نفسه الذي أدهشه أن قانونه المدني لم يحل

دون نمو الشريعة وانتشارها ، فحكم على عمله بالنقص .

لقد أخطأ : أن للقانون مكانة أسمى من جميع اشكال الحق فهي تتمتع بفضيلة قانونية . إن الإرادة الوجدانيـة التي تشيده تكتشف بالدراسة والتفكير ، الروابط التي تربط الأمثلة ببعضها . أنها تشعر بتبعيته ، وبعد أن تجمع في عملها الوحدة والوضوح اللذين ميزتهما في الوقائع ، تجمع بين الاستعمال والعادات ، بل والقوانين الجزئية القائمة داخل إطار منظم الأجزاء والتقاطيع وتوفق بينها .

* * *

ولكن على الرغم من المظاهر فانه لا توجد معارضة كلية بين العـادة والقانون . لأن القانون مجرد ومطابق للعقل بغير شك ، ولـكنه يتولد في وسط الظروف التاريخية . وسقوط الحق الشرعي يتولد من الوقائع المحسوسة والاختيارية التي تنفذ أطرافها من ثنايا الصيغة العامة التي تغطيها . ان جميع القوانين وليدة الظروف .

إن العادة تلخص الوقائع الكاملة ، ولـكن إذا أراد القانون أن يسيطر على المستقبل ، فانه لايستطيع الوصول إلى غايته إلا بالاستعانة بالماضي الذي يضمه .

إن القانون عامل مساواة . ولـكنه لا يستطيع ، بدون إنكار الحقيقة ومعارضته الواقع ، إهمال الإختلافات وعدم المساواة الطبيعية . فهو يشتمل على شواذ ونصوص خاصة .

إن مدة القانون غير محدودة مبدئيًا ولا يبطل إلا بإجراء خاص ومعارض ، ولـكن هل يوجد في قانون مرت عليه السنين وأهمل ، من التأثير أكثر مما في عادة نسخت وتلاشت ؟

إن العادة تتكون ببطء وتسير بخطى متثاقلة مترددة ، أما القانون الذي يسير مباشرة نحو غايته فانه يخضع لتطورات التقهقر والتقدم التي تتلافاها العادة .

إن القانون غير مستقر إلا في الظاهر : وهو كالعادة يتطور تحت تأثير الأخلاق المحيطة به .

إن العادة لا تصبح ضرورية إلا بموافقة وتسليم الذين يخضعون لها . ولـكن القانون لا يستطيع ، بدون أن يكون موضع إزدراء واحتقار ، أن يحتك بالشعور العام ورأي الأغلبية ، والاكراه لا يمكن أن يقع إلا بصفة استثنائية .

إن العادة عبارة عن صك تحكيم عملي وعرفي للأنانيات المتعارضة ، والقانون صك تحكيم مقصود للمصالح المتعارضة ولكنها مشتركة .

إن الحق من عمل السلطة في شكل الاستعمال أو العرف أو القانون . والسلطات المنقسمة والمتعارضة هي التي تولد الاستعمال : إن العادة تنشأ عن سلطة غير مركزة ، والسلطة الوجدانية المركزة هي التي تضع القانون وتنشره .

ولكن الحق لا يستمد فضيلته بأكملها من القوة ، فهو يستمدها أيضاً من العقل . إن السلطة لاتستطيع أن تقرر قواعد هوائية أو جنونيـة دون أن تعرض نفسها للتحطيم . فكيف يتعاون العقل والسلطة على ذلك ؟ ذلك أن نقطة ارتكاز القوات هي كذلك نقطة التقاء جميع البيانات . في المكان الذي تلتحم فيه جميع القوات وتتضافر تتجلى حتماً جميع التغييرات التي تلحق بهـا ، وبالتالي جميع الحوادث التي تؤثر عليها . وهكذا تقيد الوقائع بالتعـديلات التي تدخل على التوازن الذي يعبر عن علاقة القوات والمقاومات التي يثيرها تدخلها . عند ما تكف القوات — التي يتولد الحق من التقائها — من الاصطدام ببعضها وتوافق على تحقيق اتفاق دائم بينها ، وعند ما يوجد إحتكاكها السامي ببعضها ويجعل من إشتراك مصالحها اشـتراكاً في الشعور والتفكير فلا يقتصر تأثيرها على تعميم الحوادث الداخلية والخارجية بين المجموع ، ولكنه يتجلى بتركيز جميع المدارك والمقارنات التي تستخلص ، والاختبارات التي تتجمع ، والفكرة التي تضيء وترشد الارادة التي تخلصت من الغريزة . ان جميع الوقائع المتعددة غير المنتظمة الغامضة ، وجميع المقاومات المحلية التي يتألف منها الإستعمال والعادة تصبح واضحة جلية وتستولي عليها السلطة وتنظمها . فلولا الذكاء لأمكن تقييد القوة الغاشمة المختلطة بسرعة وشل حركتها . إن النفوذ والمعرفة والارادة تكون السلطة وليس أحد هذه العناصر أقل منفعة من الأثنين الآخرين .

ان الكفاءة والاستعداد في استخلاص القانون وفي نفس الوقت القوة في حمل الناس على احترامه لم تكن في المجتمعات القديمة، معلومة لرجال منعزلين أو مجتمعين بهيئة مدرسة، بل ولا لجمعية الشعب الوطنية . ولكنها كانت من اختصاص الألوهية وحدها إذ أن الحق كان ، في المجتمعات الأولى ، من أصل ومن طبيعة دينيـة . فهي منقولة عن الخطة الدينيـة الملائمة

لمقتضيات الحياة في كل مجتمع بشري ومستلزماته التي نشأت عفواً عن الاختبار . إن للعادة أو القانون صفة مقدسة ومن يخرقهما يكون عرضة للغضب الالهي . ثم ظهرت الملكية المطلقة التي اندمجت فيها جميع السلطات . ولكن الملك ليس ، كما يقولونه ، عدو الشعب الذي يحكمه بالارهاب . إذا كان قد ارتضى به فلأن وجوده وعمله يعودان بالخير على المجموع ، ولأن ادارة زعيم تبدو أفضل وأنسب من الفوضى التي تلقي الضعيف بين أحضان القوي . والزعيم اذ يتبوأ مكانه على رأسهم ، يمتاز عن جموع أتباعه بسلسلة من النظم متعددة الحلقات ولكنه يجمع أطرافها بين يديه ولذلك فانه أول من يتبين العقبات التي تعترض سيرهم كما إنه يشعر بضغطهم عليه وجذبهم له نحو الاتجاه الذي يندفعون اليه . فهو المحور الذي تلتقي عنده جميع البيانات التي ترد من جميع الجهات . ولذلك فهو خير من يستطيع أن يهدي القطيع الذي يحرسه إلى السبيل القويم ، وأفضل من يوقع العقاب على من يخرجون عليه . على أن تلك الطريقة التي تتبع في جمع الاستعلامات لا تخلو من العيب لأن جميع هذه الاستعلامات ترد عليه من موظفيه وأتباعه الذين يستمدون سلطتهم من الزعيم . وهذا ما يحمل الاتباع أحياناً على الحذر منهم وخشيتهم ، وأحياناً لا يحمل هؤلاء الموظفين العظام إلاّ الحقائق المنمقة والرياء والأخبار السارة إذا كانوا مسالمين إما إذا كانوا متمردين فانهم يندفعون مع تيار شعورهم ويرتكزون على مرؤوسيهم لمقاومة السلطة الرئيسية ويعاملونها معاملة الند للند في كثير من الاستقلال .

وانه لا يمكن تقدير حاجات الأهالي وميولهم وإرضائها إلاّ إذا انتخب نوابهم منهم وتولى هؤلاء مهمة القيام بالوظائف التشريعية . فانهم يعملون بمساعدة الشعب وقوته التي لا تقوم الحكومات ولا تدوم إلاّ بفضلها مع تعضيد جميع المندوبين المنتمين إلى مختلف فئات المجتمع . وهكذا يستنير الرأي العام بأكمله ويقف على ما هو عليه من وحدة الرأي وما ينتابه من منازعات حزبية وما يعتز به من قوة يستمدها من تضافر عناصره واعتداله الذي يعاون على اتحاد المصالح المختلفة .

ان القانون لا يجد في سبيله العادة والعرف فقط ، ولكنه يصطدم كذلك بالتعاقد .

فالارادات المتفرقة الخاصّة تواجه الارادات المشتركة . فكيف يحل هذا الشكل ؟ فهل ينبغي أن يتنازل الأفراد عن حقهم في عقد اتفاقات خاصّة اذا ما اندمجوا ضمن المجتمع ؟ ان مثل هذا التنازل غير مفروض في المجتمعات المرنة الفردية التي لا تتطلب إلاّ ناحية واحدة من جهود الرجل : كالمجتمعات الأدبية والعلمية والرياضية والتجارية . أما المجتمعات الكلية الثابتة كالقبيلة والمدينة أو الدولة فهل تترك للأشخاص حق التعاقد باتفاقات خاصّة ؟

إن المجتمعات الأولى التي يمكننا الرجوع اليها هي — كما أسلفنا — شديدة الضغط والغيرة . وهي تعيش أبداً على أهبة الحرب . وهي أشبه بمعسكرات منظمة تنظيماً تامًّا والحرية الفردية تكاد تكون معدومة فيها . فالأفراد متسلسلون من أرومة واحدة ومرتبطون برابطة الدم بقدر ارتباطهم بروابط المصلحة ، وامتزاجهم ببعضهم قد بلغ أقصى حدّ حتى لكأنهم لا يتمتعون بحياة فردية ذاتية . لأن الرابطة الطبيعية التي تجمع بين أعضاء المجموع تتخذ صبغة عائلية : وهي في نفس الوقت سياسية واقتصادية . فبين أفراد الأسرة القديمة كان تبادل الأشياء والأسلحة أو جلود الماشية لا يتخذ صبغة أكثر من صبغة التعاقد الذي يتجلى في عهدنا عند تبادل اللعب بين أطفال أسرة واحدة . والمنازعات التي تنشأ عن ذلك كانت تسوى ، لا على أساس اعتبار الحقوق الفردية لكل واحد ، ولكن بروح المودة والتضامن العائلي .

على ان نظام الحكم المستقر الدائم لا بدّ أن يطغى على نظام الأسرة فيزيله رويداً رويداً ويحدث تفككاً في نظام الأحزاب والمدينة فيضعف من شوكته . أما الأخطار الخارجية فانها أقل تهديداً . والقيود التي تربط الفرد بوطنه والملكية الفردية التي أصبحت من ضروريات الحياة بفضل تطور أساليب الزراعة وتقدمها ، لا بدَّ أيضاً أن تخلق مصالح متباينة . وروابط قانون الأحوال الشخصية الذي يحدد المكان الذي يشغله الفرد في دائرة قبيلته ، لا بدَّ أن تلين تحت تأثير نمو الحياة الاجتماعية المركبة وتخصيص الوظائف . وهكذا يمكن أن تنشأ العلاقات في المعاملات . ولما كانت شخصية أعضاء الاتحاد تختلف عن شخصية الجماعة فانها تسمح بالتعاقد والارتباط فيما بينهم الى حدٍ ما . ويخلق نظام التعاقد نظام الأحوال الشخصية .

فحركة عتق الانسان البشري وتحريره من ربق العبودية الذي ينيله حق الارتباط والتعاقد لا تتم إلاّ رويداً رويداً . فالعقد عند ظهوره في مجتمع لا يحمل إلاّ أثراً ضئيلاً من استقلال المتعاقدين . وهو لا يسمح بادىء ذي بدء إلاّ بتنفيذ أعمال مركبة تجر خلفها سلسلة لا تتجزأ من التعهدات التي لا يمكن التفضيل بينها ويجب قبولها أو رفضها كتلة واحدة : فالاتحاد بالدم حفلة رمزية توجد نوعاً من التبني في الأسرة أو التجنس في القبيلة . والزواج الذي ينقل المرأة من أسرة الى أخرى ، هي أولى أنواع العقود . وهي عقود كثيرة التكلف خلاقة لتعهدات عامة محدودة بواسطة قانون العادات ، ولا يتعين على الأطراف المتعاقدين أن يعدوها أو يضيقوها وهي توجد تغييراً كلياً للحالة . والمنتمي ينزع عنه كل قديم ويقطع جميع الروابط السابقة ليرضى بغيرها تختلف عنها اختلافاً بيناً . هذا شكل خشن للاتفاقات التي يمكن بفضلها إجراء تعاقدات بين القبائل أو اجراء مبادلات . عند ما يعطي رئيس القبيلة إبنه زوجاً لابنة خصمه الذي قتل له إبنه فانه يصلح الضرر الذي أحدثه . وفي نفس الوقت يوقع معاهدة صلح وتحالف . وفي أيامنا أيضاً نرى أن الاتحاد بين الأمراء والأميرات من الأسر المالكة لا يقوم في الغالب إلاّ على أسباب دولية . وتدخل المجتمع في مثل هذا النوع من التعاقد قد يكون أجدى له وأنفع من تدخل المشتركين المباشرين . وهذا التدخل — بادخاله العقد الحر في شعبة الروابط العائلية والتابعية — هو الذي يحلّيه بتأثيره وفاعليته .

ومع ذلك فان العقد لا يلبث أن يتفرد ويتخصص ويتحرر . والأشخاص المرتبطون بهذا العقد وحدهم هم الذين يتعاقدون ، والتزاماتهم تنحصر في الأغراض التي أبدوا رغبتهم في أن يتضمنها اتفاقهم . ثم أن المتعاقدين يتحررون رويداً رويداً من النظام الاضطهادي الذي كان يقيد إرادتهم ويحول بينهم وبين كل تصرف ذاتي وكل حرية في تقرير رغباتهم وتنفيذ إرادتهم .

ومع ذلك فتلك العقود ظلت حافظة لمظهر العقود الاجتماعية عهداً طويلاً . فهي قطع منتزعة من كتلة المعاملات القانونية . والإرادة الفردية تنساب إليها خلسة لتنتفع من الصفة الإجبارية المعترف بها فقط في القواعد الاجتماعية . إن العقود العلنية والعقود

الفعلية تستمد قوتها من الصفة الدينية أو الحالة الراهنة أكثر منها من إرادة المتعاقدين . إن التشريع الرمزي والتكاليف القاسي اللذين يعقبان العقود الأصلية لها من مخلفات أو من آثار تدخل المجتمع في وضع صيغة العقد . إن القوة الإجبارية كامنة ، لا في إرادة المتعاقدين ، ولكن في فضيلة الصيغة الحرفية أو المظهر الرمزي للأصل الاجتماعي والديني الذي يتحتم عدم تحريف أية كلمة أو استبدال أية إشارة لئلا يعتبر العقد لاغياً . إن اتفاق الارادة ظل لعهد بعيد في القانون الروماني غير كاف لإيجاد التزام . وقد اكتشفوا في المعاهد القديمة ، للقبائل المقيمة في شمال غرب أمريكا ، أطوار انحلال قانون العادات وتكوين حالة التعاقد الشرطي الذي إذا قيد ضمن الاحتفالات الدينية ، يستسلم للمستقبل ويضع الرابطة التي عقدت بحرية تحت رعاية السلطة الدينية والاجتماعية . وإنا لنجد في تلك الحفلات الدينية آثار معارضة وخصومة سابقة يخال أنها تكشف عن أصل منشأ التعاقد .

إذ لو أن التعاقد ، في المجتمعات البسيطة العادية ، لم يمكن أن ينشأ إلا عن انحلال الرابطة القانونية انحلالاً تدريجياً ، فان تعاقد الارادات قد اندمج بحركة عكسية بقانون المجتمعات المركبة الداخلي ، وربما أيضاً في أشد المجتمعات خشونة في عهد وجودها . يقول سبنسر : كان يوجد في البدء مجتمع رجال ونساء بغير أوضاع محدودة . ولما كانت أوضاع هذا المجتمع تقررت وقامت على القوة فانها كذلك كانت تتغير بمشيئة الأقوى ورغبته . كان التعاقد في البدء حرًّا ولكنه خالٍ من كل عقوبة رادعة . ففي تلك المجتمعات كان يتم ، متى شاء الفريقان ، ولكنه لا ينفذ عادةً الا في الحال . ففي حالة التعاقد الخاص يكون التنفيذ بطريق البدل ، وفي حالة التعاقد العام فان المعاهدة هي التي تسوّي أوجه الخصومة بين الأعداء سواء بتوجيه اليمين أو بتعاقد طويل الأمد يراعي فيه التغييرات السابقة لعلاقة القوات المتخاصمة . وهذه التعاقدات ، التي لا ترتكز الا على المصالح الحالية المحدودة لمن يعقدونها ، شفافة خيالية . وضعفها هو نتيجة استقلال المتعاقدين ولا يمكن مداواته الا بضمها الى نظام واحد تهيمن السلطة الرئيسية فيه على جميع المنتمين اليه ، وتفض مشاكلهم ومنازعاتهم وتخلع على اتفاقاتهم معاونة المجتمع وما له من سلطة التنفيذ والاكراه . فاذا كان للتعاقد سلطة ربط المتعاقدين فان المجتمع هو الذي يمده بتلك السلطة . فاذا فرضنا أن المجتمع

لا يقرر عقوبة على الالتزامات المتعاقد عليهـا فتلك الالتزامات تظل مجرد وعود بسيطة عادية .

***

ان الحرّية الفردية ، سواء نشأت من تراخي الرباط الاجتماعي أو تخلفت عن حركة تحالف الوحدات التي كانت عند نشأتها مستقلة ، تتجلى أولاً وخصوصاً في النظام الاقتصادي . وتتجلى المادة فيها بالاعتراف بالملكية الفردية . اذ أنه يستحيل في الواقع ، مع انتشار المجتمع المطرد ، الجمع بين الانتاج وتوزيع الثروات . والاستغلال الاجتماعي يصبح عقيماً عندما يتناول مساحة كبيرة من الأرض ومجموعة من الموارد المختلفة . ان تنظيم الجهود يتطلب كثيراً من بعد النظر والاحتراس ومعرفة تامة للضروريات والوسائل وفنّـا دقيقاً في تطبيق كل منهـا على الأخرى ، وبالاجمال يستدعي ذكاء وقاداً في خدمة ارادة حديدية لا تتزعزع وجميع الفضائل التي يندر توافرها عند المتمدينين ، فكيف بها عند من هم على الفطرة . ان الحاجة اذن تستلزم من كل جماعة تتكوّن وتنمو أن تترك لكل فرد منها عناية السعي وراء ما يتطلبه كيانه وكيان ذويه . وزيادة على ذلك فان انتشار المجتمع يضعف روابط المودة والمحبة التي قلّ أن تكون بعيدة المدى أو تتجاوز دائرة القرابة . فاذا كان أولاد أسرة واحدة لا يثيرون الصعاب في وقف عنايتهم وجهودهم على المجموع المشترك ويسمحون لجميع الأفراد في الانتفاع بها بمقدار حاجتهم فان الأمر يتغير عندما تنتشر الأسرة وتندمج في العشيرة ، وبسبب أقوى عندما يتألف المجموع من اندماج أسر من دم غريب ببعضها لأن الانتاج يصير فسيحاً ومركباً ليكون اجتماعيًّا ويصبح فرديًّا . ويصير هامًّا جدًّا ليمكن توزيعه بالاخاء بين عدد كبير من المشتركين الذين يتنافرون ولا يهتم بعضهم ببعض لأن الكتلة المشتركة لا يمكن المحافظة عليها بالقسمة والتوزيع .

وفي النهاية فان تقسيم العمل يسمح بتمييز حصة كل واحد في العمل الذي تمّ وفصّل انتاج الجهود المختلفة ، وتحديد ربح العمل لكل من قام به . وبالعكس فان الملكية الفردية تساعد على تخصيص الوظائف عندما يثق الرجل بأنه سينال ثمرة عمله بأكمله وانه سيتصرف فيها بملء حريته فانه لا يقاوم التيار الذي يدفعه نحو تقسيم العمل لأن البدل يسمح له بالحصول

على الترضيات التي يطمح اليها . وأكثر من ذلك فان التناسب يمتد الى ما وراء الأشياء المادية والارشادات التي تدل عليها . إنه يوجد تقارب وثيق بين تقسيم العمل والملكية إلى حدّ أن الوظيفة تصبح ملكيـة فردية . ويصبح المعلم مالـكاً للكرسي الذي يدرس فيـه ، والضابط مالـكاً لرتبته ، والكاتب مالـكاً لمؤلفه والمخترع مالـكاً لاكتشافه . إن حماية المجتمع تسمح للرجل بأن يجني ثمار نشاطه بأكمله . وهي بذلك تخلق – مع استثناء المنفعـة الاقتصادية للعمل الفني والاداري – ممتلكات من نوع جديد لا توجد إلاّ في مجتمع منظم .

فالملـكية تصبح نوعاً من امتداد الشخصية وسيطرة الفرد على الأشياء . وبذلك يصبح تنفيذ التعاقد أكثر ضماناً إذ يضاف إلى الاكراه البدني ، الذي يمكن التأثير به على الشخص ، العمل المادي ، وهو أنسب وأنجع ، على الأشياء المملوكة . ان المال الموروث يكفل تنفيـذ التعهدات المتعاقد عليها . وهكذا فان العقوبات المفروضة في حالات الاغتصاب لرد الأشياء المغتصبة تحل محل العقوبات المفروضة في حالات القمع ، وفي حالات الاضرار المادي تُوجد تعويضاً أكثر ملاءمة وأنسب عن الضرر الواقع .

أما في النظام السياسي فان الأمر على نقيض ذلك فان الحرية تظل مقيـدة نوعاً ما . ان حالة الأشخاص ونظام الأسرة ، والمدنية ، والدولة تظل محدودة بدقة متناهية وادارة المصالح العامة خاضعة للقانون الذي لا يمكن التجاوز عنه أو التخلص منه . فاذا تجاوزت الدولة عن حقها في ملـكية الأشياء فانها لن تتنازل عن سلطتها وسلطانها على الأشخاص . إن التركيز — وإن كان ضرورياً لمقاومة العدو الخارجي أو لضمان حفظ النظام الداخلي — فانه يتطلب الطاعة لقواعد معينة متشابهة . لقد أبدى هربرت سبنسر — في مقارنة مشهورة له بين الشركات القديمة من النوع العسكري والشركات الحديثـة من الطراز الصناعي — إن العقد سوف يحل تدريجيّاً محل القانون لتحقيق نظام ذاتي في المجتمعات البشرية لأن الأولى تمتاز بالرابطة القانونية أو الشرعية ، والثانية تمتاز برباط التعاقد . على أنه يُخشى ألاّ يستمر التطور في سيره المنتظم في هذا الاتجاه ، إذ أنه اذا أمكن لأي امرىء أن يتصور امكان وجود حالة سلم عامة مستديمة تضع حدّاً للمنازعات الحربية فانه لا يستطيع أن يتصور عدم وجود سلطة مركزية ولو لمجرد المحافظة على احترام العقود .

وزيادة على ذلك فانه لا يوجد تفريق مطلق بين النظام السياسي والنظام الاقتصادي . فإذا كانت الحرية الفردية — على الأساس الاقتصادي — تجد مجالاً أفسح ، فليس أصح من أنه يوجد نوع من تبادل المصالح المادية في كل مجتمع، ونظام جباية الضرائب خير دليل على ذلك . ولا بدّ لنا من الاعتراف — بغير ما حاجة إلى الوقوع في مغالات المذهب الماركسي أو مذهب الماديين التاريخي — بشدة تأثير الشروط المادية للوجود على اختصاصات السياسة : إن تبعيتها تلاحظ بوضوح وجلاء في النظام الاقطاعي الذي يمتاز باندماج الملكية والسلطة وتقسيمهما في وقت واحد، في حين أن هذه الملكية وتلك السلطة منفصلتان وان كانتا كاملتين في الدولة الرومانيــة وفي الدولة الحديثة . على أنه يتبين من ذلك المثل أن كتلة العلاقات السياسية والعلاقات الاقتصادية يمكن تقسيمها بحسب خطوط القسمة ، وان اتخذت تلك الخطوط اتجاهات متباينة . ولا يجب أن نتغاضى عن أن الدولة — بالحالة التي نفهمهــا اليوم — ليست سوى مظهراً خاصًّا من مختلف الأوضاع السياسية .

إن الحرية الاقتصــادية ليست غير محدودة حتى في أيامنا . فانها — بادىء ذي بدء — تصاب بصدمات عند ما تدعو حالة الحرب ضد الغريب الى الاستيلاء ، لا على الاشخاص فحسب ، بل على الموارد بجميع أنواعها . وعند ما تندمج جميع الهيئــات المدنية فلا تؤلف إلاّ مصلحة واحدة قصرت مهمتها ومواردها على تغذية القتال . على أن حرية العقود خاضعة بوجه خاص لقيود وتحفظات عديدة حتى في الأوقات العادية . فاذا كان الرجل في الواقع حرًّا في اختيار هذا النوع من العقود أو ذلك ، فانه ليس حرًّا في عدم التعاقد . إذ أنه لا يوجد في أيامنا من يستطيع أن يستغنى عن غيره ويقوم بأود نفسه ويجب عليه أن يتشبه بالنائم الذي يستيقظ خلال حلم مزعج وان يتغنى بقول الشاعر سولي بريدوم :

« لقــد عرفت سعــادتي وفي الحيــاة التي نحن فيهــا »

« لا يوجد من يفخر بأنه يستطيع أن يتجاوز عن الرجال »

ان علاقاتنا بأمثالنا تكاد تكون عقوداً بوجه الاجمال ، وأقل حركة من حركاتنا تتمم عقداً قانونيًّا غير منظور . فشراء صحيفة يعتبر عقد شراء ، وتذكرة الترام تدل على تنفيذ عقد نقل ، وماسح الأحذية ينفذ صفقته على طريقته . فهل يمكن أن يسبق المعاهدات المتعددة

— التي يُصادَق عليها في أغلب الأحيان بغير تفكير — محادثات وافية تفصيلية للاشتراطات التي تطبق في جميع الفروض ؟ وهل لا يخضع المسافر الذي يتبوأ مقعده في الترام لعدة التزامات متمشية مع الالتزامات التي تتحملها الشركة نحوه ؟ ففي حالة وقوع حادث يلجأ الخصوم الى التشريع المدني لتحديد المسؤوليات وليس الى الاتفاق الصامت الذي عقد فيما بينهم . فهناك مجموعة من القواعد المدونة في القوانين ـ وان كانت تفسيرية ـ إلاّ أنه لا يمكن تعديلها أو اقصاؤها في عقد دعت الظروف أن يكون موجزاً أو أن يتم في أغلب الأحيان بوجه السرعة . ان مواد القانون — عند تفسيرها رغبة المتعاقدين — تستمد وحي هذا التفسير من المبادىء الملائمة للمصلحة العامة . ان العقد محدود وتحت سيطرة القانون وهناك نظام عامة تحرمه — في بعض الحالات — باعتبار أنه مخل بالأخلاق أو محرَّم . ولذلك تتخذ الاحتياطات اللازمة لمنع كل اسراف وحماية الضعفاء والعجزة .

ان التدخل الاجتماعي يظهر من الاهتمام في إيجاد المساواة بين العهود المتبادلة ، والتوازن بين قيمتها . فالمجتمع هو الذي يعطي لكل ما له قيمة صفة موضوعية ونوعاً من التحديد . ان تعادل شيئين بالنسبة للرجل الأعزل أمرٌ وقتي غير مستقر . لأن تغيير رغبته وتبدل الظروف تجعل هذا التعادل يتحول بسرعة ، فنقطة الماء التي لا تقدر بثمن في الصحراء لا قيمة لها اطلاقاً اذا هي امتزجت بأمواج نهر عظيم . أما في المجتمع فان قيمة الشيء تتخذ معنىً خارجيًّا وتتعلق بالأشياء : فعدد المستهلكين الكبير وانتظام الانتاج يسمحان بوضع نظام يحدد سعر البضائع . تلك الملاحظة لا تنطبق فقط على المحاصيل الزراعية أو المنتجات الصناعية . إذ قلّ أن توجد ممتلكات عينية أو غير عينية لا يحدد لها المتنافسون درجة في ميزان الأثمان . إن جاذبية الرغبة وصعوبة ارضائها لا يعتبران العاملين الوحيدين المميزين لقيمة الشيء ، فوجود بني جنسنا يخلع على تلك القيمة نوعاً من الوجود مستقلاً عن مشاعرنا الشخصية ، ويجعل منها مبدءاً مشتركاً يتجاوز الوقت والمكان ويمتد بسرعة ويطغى على المستقبل وهكذا تصبح القيمة قابلة للقسمة والتشبيه ، والمعادلة في المبادلات لن تعتبر تقديراً تعسفيًّا وشخصيًّا . ان مجرد الانتماء الى جماعة من الرجال تحدد فيما بينهم قيمة الأشياء بالمساواة بين الجميع ، ويسمح للضعفاء أو من هم من أمرهم على عجل أن يقاوموا أشد الناس

قوة وبطشاً ، وأوسعهم ثراءً وينتفعوا بالسعر المفروض .

ولـكن اذا أعطي جماعة من الرجال ، يسود بينهم التنافس ، صفة الاستقرار الدائمة ، فان نظام هـذه الشركة يغير المبدأ الأساسي . وفي هذه الحالة لا يكون تسابق المتنافسين أو معارضة مصالح المتبادلين هو الذي يحدد وحده سعر الأشياء ، فالفائدة الاجتماعية التي تنجم عن أداء الواجب تشترك أيضاً في هذا العمل . وانه ليجدر بنا ألاّ ننسى في الواقع أن المنافسة تؤدي الى نوع من توزيع العمل لا يخفف من حدة النزاع فقط ولكنه يخلق تبعية مشـتركة لمختلف الطبقات الاجتماعية أو لمختلف طبقات المهن . إن قيمة الأشياء الناتجة أو الخدمات المؤداة تقاس بما يحتاج إليه المجموع من كل فرد من أعضائه . وأهمية دور هؤلاء الأعضاء هو الذي يحدد قيمة نشاطهم وبفضل التضامن الذي يقرر بين المتعاملين ، فيشترك هؤلاء جميعاً ، وبدرجات مختلفة ، في القيمة القصوى التي ينسبها المجموع الى كيانه الذاتي ونموه . وبناءً على ذلك بماذا تقاس قيمة الخدمات التي يؤديها الموظفون — وهي تـكاد تـكون بعيدة كل البعد عن المنافسة بقدر ما هي بعيدة عن قانون العرض والطلب — إن لم يكن بفائدة الدور الذي يمثلونه في المجتمع ؟ وزيادة على ذلك كيف يتسنى للاخصائيين من أرباب المهن — الذين يقدرون أنهم مغبونون — أن يُشعروا غيرهم بقيمة نشاطهم ان لم يكن عن طريق الاعتصاب ، فهو الوسيلة التي يتخذونها للدلالة — بطريق الامتناع — على فائدة عملهم أو ضرورته ؟ ان الاعتصاب شكل خاص من الحرب الأهلية وهو لا يمتاز بتجنيد قوة للتخريب ولـكنه يمتاز بتعطيل قوة تستطيع أن تؤدي خدمات معينة . فهو الدليل اذن على التضامن .

فهذان المظهران لمبدأ القيمة يطابقان مبدأ التمييز البين الذي وضع في العصور الاولى بين « السعر للأخ والسعر للغريب » . فالأول حددته العادات والثاني وضعته المنافسة .

ان المجتمع لا يقتصر بفضل وجوده على اقامة المساواة بين المتعاقدين . فانه يتدخل مباشرةً في الاتفاقات ليضمن تنفيذها بالعدل . اذ أنه من مصلحته ألاّ يختل نظام ادارة أعضائه مما يتطلب تدخل الوسطاء تدخلاً يتعارض ولا يتفق مع توزيع المنتجات والخدمات

توزيعاً طبيعيًّا . فاذا استعانت شخصيات بارزة بقوتها الطبيعية أو العملية أو الاقتصادية وسلبت من بعض الطبقات جزءًا من ربح عملها ، فان نشاط هـذه الطبقات يتحول عن الاستمرار في ذلك العمل ويضحون به ، في حين أن سلامة مجموع الأعضاء يستلزم وجود العدد الكافي من الكفاءات للقيام بذلك العمل وتنفيذه . ان تلك المساعدة توجد في العادة من تلقاء نفسها ولكن عند ما يتعقد المجتمع ويتخصص فانه يسهر باحتراس على كل نوع من أنواع العمل ويبعد عنه كل سبب من أسباب الاضطراب والقلق . ان كثرة العلاقات والتعاقدات ، وضيق الشبكة التي تحيكها حول الأفراد تدل على أنها احدى الأوضاع المفضلة للتعاون على العمل . وازدياد أهميتها لا يسمح بالتخلي عنها ، فاذا كانت المجتمعات الأولى — كتلك التي جاءها موسى بشريعته — لا تملك أي تحديد مشروع للتعاقد فان المجتمعات المتمدينة لا تألو جهداً في اصلاح ما فيها من اسراف وافراط .

ان العنف والتدليس والغش والتزوير تفسد الاتفاق بأن تضع أحد المتعاقدين في شركة في مكانة محتقرة فيؤثر ذلك على مجموع الأعضاء وادارته ادارة منتظمة ولا يلبث أن يتجلى الاضطراب في توزيع الموارد والأعمال . فاذا قلت قيمة الأشياء عن قيمة الخدمات التي أنتجتها فان التعاون يفقد تآلفه وتتعرض صحة الجسم الاجتماعي بسرعة لعناصر الداء . ولذلك يصبح تدخل المجتمع أمراً ضروريًّا حتى لا يكون هناك غير اعتبار واحد وهو القيمة الاجتماعية للخدمات المتبادلة . واذن لا يجب أن تؤثر صفة المتعاقدين ومكانتهم على عقد الاتفاق كما لا يجب أي يتدخل أي عامل خارجي ويضغط على الارادات . ان التشريع يحول دون استعمال القوة استعمالاً سيئاً كما يحول دون استعمال الغش والتدليس . وهو يعاقب عليها على الأقل في العهود الأخيرة من المدنية . لاشك في أن الأساليب التي كانت تستعمل في العصور القديمة كانت تشمل في ذاتها فضيلة اجبارية مستقلة عن الرغبات التي تعبر عنها . بل أن القانون الروماني القديم كان يعترف بصحة العقود القضائية المعقودة تحت ضغط الاكراه والتهديد . ولم يحكم التشريع الروماني ببطلان العقود التي يشوبها العنف أو التحايل الاّ بعد ذلك العهد بزمن طويل .

ان مجرد عدم المساواة في الوضع يزيل أحياناً كل حرية في التقرير . فحامل الامتياز بما

لديه من الاشتراطات التي يتحتم الخضوع لهـا ، والمنقذ الذي يستغل ظرفاً لم يُسبب في وجوده ويفرض أتعاباً باهظة ثمناً لخدماته ، وعامل المنجم الذي لا يحسن الدفاع على مصالحه بالنسبة لسنه ، جميع أولئك يحتلون مكانة لا تتساوى فيها الاشتراطات وتدخل تحت اشراف القانون الذي يتدخل لإصلاح الغبن وتقويم ما في العقد من قسوة وظلم . بل ان مجرد الإيذاء البسيط قد يتطور في بعض الظروف ويصبح سبباً لالغاء العقد . وعدم تساوي النتائج يساعد على الأخذ بعدم تساوي المتعاقدين : وموافقة أحدهم تعتبر باطلة .

فالمجتمع — كلما تقدم — يرمي إلى أن يزيل من العقـد كل عامل غير ملائم للمصـلحة المشتركة المنصوص عنها في الاشتراطات المتبـادلة . وكل قوة تستطيع أن تؤثر على موافقة الطرف الآخر — غير القوات التي تعطي للشيء الذي يتفق عليـه قيمة جديدة — تقمع وتستبعد . فتلك الحركة تنفذ ضد مصلحة الاستقلال الذاتي الفردي إن البحث عن الغـاية المشتركة لم يعد يصلح لأن يكون مبدءًا وحيداً لتفسير العقد . فالتعاقد — بمجرد الموافقة عليه — يخرج من حيز الضمير الفردي ويدخل ضمن سلسلة العقود الاجتماعيـة التي تحيط به وتؤثر عليه . ان الحق الموضوعي الواقعي من أصل اجتماعي يضغط على حق الفرد الظاهري .

لقد طالما تغنوا بأن العقد أشبه بالآلة التي استعملها الرجل للحصول على حريتـه . على أن هذا التأكيد لا يخلو من بعض التحفظات . فإذا كان العقد يعرض على الرجل الاختيـار بين مختلف الحلول ، فالقـانون هو الذي يحمي تلك الحرية ضد تعسف الأقوى وتطرفه . وإذا كان القانون — في شكله الأصلي القديم لا يعرف غير الاكراه والعسف ، فإن العقد عند منشأه لم يكن يعترف للحرية إلاً بقسط ضئيل . ولـكن عند ما حدد أحدهما الآخر وهذّبه أصبح اتحاد العقد باعتباره — عملاً فرديّـا ـ والقانون باعتباره عملاً اجتماعيّـا ـ خير ضمان للحرية . فإن هذا الاتحاد يوفق بين الحق الداخلي الذي يرتكز على سلسلة المراتب والوظائف وبين الحق الخارجي القائم على التوازن .

وإذن فالعقد هو عبارة عن نقطة التقاء حركتين متضادتين إحـداها ناتجة عن انحلال قانون الأحوال الشخصية ، والأخرى ناتجة عن اشتراك وحدات مستقلة . فالأولى تولد الحرية والثانية تحدّها . وهكذا فان العقد يلعب دور المفـصل الذي يصل بين الاجزاء الصابـة في

المعاملات القانونية . لاشك في أن العقد الخاضع لشروط حرة، ولكنه يخضع أيضاً لقواعد دقيقة معينة ، انه يقرب بين المجموعات الكثيفة التي لا يفرض تطبيقها والتي تحتفظ الروابط التي تجمع بينها ، بمرونتها . فمهمته كعامل على إيجاد العلاقات الاختيارية البحتة أقل بكثير من مهمته كعامل على إيجاد نوع من التنوع في تطبيق القواعد العمومية تطبيقاً خاصاً .

ان الالتزام الشرطي يعد حجراً في أساس قانون الدول المستقلة : فالالتزام الشرعي من مميزات الحق العضوي : وليس معنى ذلك أن مجال العقد يضيق في مجتمع منظم، بل الأمر على نقيض ذلك . ولكن القانون الذي يحبذه ويحميه هو الذي يكتنفه ويستكشف خفاياه ، إنه يخضع له كما خضع للحق الناشيء عن العادات . فينتفع هو بالوحدة التي يحققها وينشر على المجموع فضائله : صفته المنطقية ، وثباته ومرونته في الاندماج بالظروف الجديدة بفضل النشاط المستمر الذي يمتاز به العضو المشرع حيث تلتقي جميع القوات وتحتك ببعضها .

***

ان الحق العضوي يمتاز امتيازاً بيناً على الحق الآلي . إذ أنه ليس وليد احتكاك القوات المهملة المتروكة للصدفة التي لا تكفل بحيادها إلا طمأنينة غير مستقرة كما أنه ليس وليد فعل التضامن وتأثيره ولكنه نتيجة لازمة للمحافظة على النظام بالشكل الذي وضع عليه في المجتمع بفعل توازن القوات الفردية والقوات الاجتماعية وكذلك بتوازن القوات الداخلية والقوات الخارجية . إنه يضع مصلحة المجموع العامة التي تباشرها سلطة مركزية تسعى وراء الغاية المرجوة ويختار الوسائل ويفرض قراراته فوق مصالح المجتمعات الغريبة وفوق اشتباك المصالح الفردية وامتزاجها . إن القانون العضوي هو عبارة عن جسم مؤلف من قواعد منظمة حول مبدأ نظامي يحركه عقل يتمتع بذكاء وارادة .

فهو إذن لا يتعرض للاهتزازات العنيفة الوحشية لأنه يحكم بداخل جهاز تراكمت عناصره ولكنها ترتبط ببعضها بعدة وظائف تخصيصية وتقسيم دقيق للعمل . فبقاء الشركة مضمون أولاً بعدم مقدرة الاعضاء على العيش منفردين ثم بظهور ارادة مفكرة تسهر على تماسك المجموع وتحوله عن الاخطار التي يمكن أن تؤثر على كيانه. وزيادة على ذلك فان التوازن بين مختلف الأجزاء يستقيم أو يستقر بسهولة بفضل تركيز السلطة التي تتدخل في أية لحظة

وبين جميع أجزاء الجسم الاجتماعي لتوفق بين الجهود وتمنع مخالفات البعض وتساعد الآخرين وتنظم الاسعافات وتوجهها نحو الجهات المهددة . إنه ينجو من الاختلاجات الثورية التي تلقي الاضطراب وتخلق الفتنة . ان التطور التدريجي يوجد ذلك الاستقرار النسبي وهو أشد ما تحتاج اليه المجتمعات البشرية . إن النظام يحول دون اضمحلال القوات التي تتلاشى أو تستقل لولا وجود هـذا النظام . وبعكس ذلك فان النظام إذا وفق بين القوات وجمعها فانه يستطيع أن يستخدمها كلها . ومجمل القول فان الحق العضوي يتجلى في قواعد واضحة جلية وفي نصوص تصدرها سلطة عليا تستطيع أن تقيدها بعقوبة رادعة يستند احترامها إلى الاكراه الذي ينفذ باسم جميع أعضاء المجموع وبالوسائل التي يقررها .

إن هذا العهد — عهد النظام والأمن — يرمي الى استخلاص أحسن ما يمكن الحصول عليه من الكفاءات الفردية بتوجيهها نحو أنسب الغايات لمصلحة الجميع . يقيناً أن الأفراد يمكن أن يقفوا أزاء بعضهم في منازعات مختلفة إلاّ أن السلطة الاجتماعية لا بدّ أن تتدخل إما من تلقاء نفسها أو بناءً على طلب أحـد الخصوم أو على الأقل في الحالات الهامّة لفض النزاع بما فيه المصلحة العامة ، وتمنع الضرر عن بقية أعضاء الهيأة . وإذ ذاك لا يبقى أمام كل فرد أية وسيلة غـير استعمال نشاطه لفائدة أمثاله لينـال منهم — في مقابل ذلك — خدمات تعادلها .

ان حق العلاقات الخارجيـة نشأ عن الكفاءة في إيقاع الضرر ، إن القانون الداخلي للمجتمعات المنظمة يقوم على أساس الكفاءة في التعاون والمنفعة . وهو يرمي الى التوفيق بين العدالة القائمة على البدل والتي تحتم وجود المساواة في عمليات البدل ، وبين العدالة القائمة على التوزيع التي تضمن في حالات القسمة توزيعاً متناسباً مع الخدمات المؤداة والحقوق المكتسبة : إذ أنه في الواقع اذا ضمت قواعد العقد الى التشريع فإنه يخلع عليه ثوباً قشيباً من الأفكار الاجتماعية . إنه يلاحظ مكانة المتعاقدين ويشرف عليهـا مترقباً من وراءها مصالح عامة ، ويضع مكيال نفوذه في كفة الميزان لترجيح من تكون نتائج عمله في مصلحة الأغلبية . إن المهن الصناعية أو التجارية ،وأخص أنواع النشاط هي ، على حد قول ايهرنج « مراكز خدمة المجتمع » بقدر ما هي عليه الوظائف العموميـة بمعنى الكلمة . إن مثل

هذا الالمام بمبدأ العدالة القائمة على التوزيع يزيد من مبدأ العدالة القائمة على البدل قيمة ولباقة .

* * *

ولنلاحظ أيضاً أن الحق العضوي يحمي الحرية الفردية المضطهدة سواء من الأقوياء في عهد الحق القديم المستبد أو من المجتمع نفسه عندما يكون هذا المجتمع مؤلفاً من وحدات كلها متشابهة ومعادية للشخصيات البارزة . ان قوة المشاعر الاجتماعية — في المجموعات المتناسقة المنسجمة — تبلغ حدًّا لا تقبل معه وجود أي اختلاف أو تباين ولكن تخصيص الوظائف الذي يزداد باطراد يولد أفراداً مختلفين يكون شذوذهم ضروريًّا لحياة مجموع الأعضاء . إن البحث عن اصلاح الفرد اصلاحاً تامًّا بواسطة استعمال الفضائل الشخصية يعد عاملاً للرقي الاجتماعي . كما ان سلطة المجموع المركزية تزيل العقبات التي تحول دون نمو النشاط الخاص وتساعد على الحرية الفردية بشرط عدم تحويل تلك الحرية الفردية وتوجيهها ضد المجموع .

وهكذا الحال فيما يتعلق بالمساواة . لقد لاحظوا أن التركيز والمساواة ينموان على خطين متوازيين . وعدم المساواة الاجتماعي يكون دائماً بنسبة معكوسة لقوة السلطة . فالسلطة المركزية اذا كانت شديدة القوة فانها تكون عادةً ممهدة متساوية ، فهي تستند على الصغار والضعفاء — وهم يؤلفون الأغلبية — للايقاع بأرفع الرؤوس الذين يضايقونها . إن المساواة أمام القانون تكاد تكون دائماً الشرط الأساسي الذي ينص عليه القانون . ولكنها لا تكاد تحكم بغير نزاع حتى تتلاشى القواعد الخاصَّة وتزول أمامها . إن التعميم وعدم التخصيص الذي يضمن للجميع معاملة متساوية لمن الصفات الجوهرية للقانون . كما أن تعميم القانون هو الذي كان يميز ادراك القدماء لمعنى القانون . ان المدن اليونانية والرومانية لم تدرك أبداً أنه يمكن وجود حقوق فردية محترمة بقدر حقوق الدولة . فالمدينة — في نظرها — تتمتع بالحرية اذا كانت الدولة لا تحكم إلاّ باصدار نصوص عامة منصوص عنها سلفاً ، وتطبق على الجميع . ان القدماء كانوا يعارضون في القانون المجرد الذي يحكم بالأساليب الشخصية ويميز الظلم والاستبداد .

الفصل السادس

الحق الكمالي للضمير الاجتماعي

الحقيقة إن مجرد توازن القوات بين الخصوم ، وفي أي عهد كان ، لا يمكن أن يكفي لتقويم الحق ، ولا بد — للوصول الى ذلك — أن يتمتع هؤلاء الخصوم ببعض الآراء المشتركة . فلا يعقل مثلاً أن تستطيع طغمة من الرجال المستوحشين الاتفاق مع قطيع من النمرة على تقسيم حق الصيد فيما بينهم في ناحية من نواحي الغابات الآبدة . ففي العالم قد يكون « توازن تلك القوات العديدة الكامنة في الأفراد والجماعات والشعوب والتي تعمل من جنس الى جنس ومن عهد الى عهد » هو ما كانت عليه حال العالم في وقت ما . على أن تلك الحال ليست قانونية . وإنه لمن الضروري أن يشترك الخصوم مع بعضهم في مفاوضات ويتفاهمون بكل دقة ، كما انه يجب أن يتمتعوا ببعض الأفكار المشتركة ، وأن تكون لهم طريقة واحدة في ربط آرائهم ببعضها والادلاء بها . ومما لاشك فيه إنه كلما ازداد التشابه بين الرجال واستطاعوا في بعض الظروف الانقياد لبعضهم ، سهل إيجاد اتفاقات ومعاهدات يمكن المحافظة عليها فيما بينهم . وانه ليسهل عقد اتفاقات دقيقة مشتركة لأجل بعيد بين رجلين من مدينة واحدة على عقد اتفاق بين رجل غير متمدين من وسط أفريقا ، وممثل دولة من دول أوروبا الغربية . ان وجود نوع من التجانس الطبيعي يعد شرطاً أساسيًّا لإيجاد الحق ، والدليل على ذلك ما نراه من السهولة التي يمتاز بها البعض في التخلص من التزاماتهم نحو أشخاص من جنس آخر .

ولا بد للقوات المتباينة — لكي تتحد وتنسجم — أن تتجمع على الأقل في رؤوس متشابهة .

***

ولا ينتج عن ذلك أن الأفراد وحدهم هم الذين يمكن أن يتمتعوا بالقانون ويكونوا

من أتباعه، إذ أن في مكنة الهيئات أن تؤلف شخصيات معنوية تتقيد بالالتزامات القانونية وتخضع لها . يالها من ظاهرة عجيبة ! يخال أن شخصية الجماعات تنقص أحياناً عندما تنمو الشخصية البشرية الى حد أنه لايرى وراء المجموع الكلي المؤلف من الدولة إلا أشباح الأفراد . بل يذهب البعض الى حد إنكار حقيقة الأشخاص المعنويين ومنازعة حق الجماعات . ولكن عبثاً تحاول التشريعات القائمة على الفردية أن تمتنع عن الاعتراف بجماعة الهيئات. فالهيئة تبدو أرفع من الأعضاء الذين يؤلفونها . والكل لايساوي مجموع أجزائها ، ومن تقاربهما يتولد شخص جديد أهل لأن يكون تابعاً للقانون . ويكفي ، ليصبح الأمر كذلك ، أن يتمتع هذا الشخص بالصفات التي يحتاج اليها الانسان ليفرض نفسه على أمثاله . ولذلك يجب أن يمثل مركزاً لمصالح مختلفة وأن يتمتع بارادة تخدمها قوة عاملة فعّالة تستطيع أن تنفذ تلك الإرادة. إن هذه العناصر الثلاثة ضرورية أيضاً . فالمصلحة ، أو المصالح ، التي تقوم حولها الهيأة يمكن أن تكون من طبيعة مادية أو أدبية ، فتارةً تتجلى في السعي وراء المصلحة المادية وتارةً تسعى وراء عمل يتطلب الفطنة والذكاء أو كلاهما معاً . وفي سبيل الوصول الى تلك الغاية وجب على المجتمعين المقيدين بفكرة واحدة أو شعور واحد ، أن ينظموا أنفسهم ، أي أن يعطوا لشركتهم شكلاً تستطيع به أن تريد وتعمل .

إن الإرادة توجد عندما تلتقي المشاعر الخارجية والاختلاجات الداخلية — بفعل ظاهرة التركيز — عند نقطة واحدة حيث تتخذ القرارات الخاضعة للإرادة الخاصة بالغاية المشتركة وتنفذ بمعرفة جميع المشتركين . « الاحساس ، والادراك الأولي ، والفكرة ، والرغبة ، والارادة ، والعمل الادراكي ثم المنعكس ، تلك هي الدورة لهذه الظاهرة النفسانية » . ان الهيئة تعمل وتتصرف كشخص — إذ تتمتع بالذاكرة بفضل التقاليد ، والحرص بفضل التفكير — عندما تشعر بوحدتها ومدتها ، وعندما تكون ارادتها متسلطة على الاختلاجات المحلية والاقتراحات الوقتية ، فتستعين بمصالح المجموع العامة المستديمة ، أن حياة الحرية ، بما تتضمنه من مجازفات وما يتخللها من اختبارات وتجارب هي التي تساعد بوجه خاص على تكوين الفردية لجميع أعمالها منظمة متناسقة وتظل متشابهة حتى ليمكن ، في بعض الحالات ، تقدير الاتجاه الذي ستتخذه في أغلب الظروف .

ومع ذلك فتلك الارادة لا تستطيع أن تعبر عما يخالجها فحسب ، بل يجب عليها أن تتحقق وتنجز ، وان تتمتع بقوة في خدمتها الوصول الى الغاية التي وضعتها نصب عينيها لتزيل العقبات التي تحول بينها وبين تلك الغاية . وفي النهاية ، لكي تقاوم القوات الارغامية ، أو الداعية الى الانحلال والتفكك التي تهددها ، تارةً بفعل مجموعة أعضائها الذين تجمعوا وألفوا كتلة كثيفة ، وطوراً بعمل محكم ومنظم يقوم به أعضاء اخصائيون وقفوا أنفسهم على بذل جهودهم في اتجاه واحد . ان الهيئة — وهي بمثابة جيش الهجوم والدفاع — تتجلى كحقيقة لا يمكن اهمالها . أما قواتها فبعضها مادية وتعمل في الكيان البشري . والأخرى أدبية وتعمل في عالم الأفكار والمشاعر . وليس أثمن لهـا من قوتها الاجماعيـة وارتباط المنتسبين اليها وقدرتهم على احتمال الألم بل وعلى التضحية في سبيل المجتمع الذي ينتمون إليه .

عند ما تجتمع كل هذه المزايا في مجموعة اجتماعية ، وتمتاز هكذا على أقرانها ، وتتدخل بين الرجال بجميع قواتها التي تحركها إرادة ثابتة ، فانها لا تكون فقط — كما زعموا — مرشحة للشخصية القانونية ، بل هي في الواقع شخصية أدبية ومعنوية . إن الاعتراف بدولة كعضو في المجتمع الدولي من ناحية النظام السياسي ، والتصريح أو الاعتراف بما لهيئة خاصة من منفعة عمومية في التشريع الداخلي ، لايعتبر امتيازاً وديًّا ممنوحاً بحرية اذ أنه مجرد تقرير واقعة . ان الاعتراف بحق الأشراف ، لحكومة أو لدولة جديدة ، يتحوّل سريعاً الى الاعتراف لها بحق التقنين عند ما تتجلى حيويتهما واستعدادها للقيـام بعلاقات ثابتة مع جيرانهما .

* * *

وهكذا فاننا نستطيع أن نحاول التوفيق بين الحق العرضي والحق الموضوعي اللذين انشقّ بسببهما حديثاً أتباع المدرستين . فهل الحقوق العرضيـة للأفراد تشتق من الحق الموضوعي ، أي من مجموع القواعد الواقعية : أم هلاّ يكون الفرد — وهو الأصل — هو مبدأ الحق وأساسه ؟ ان الرسالة التي وضعها ديجوي بعد أوجست كونت معروفة . فحق الفرد ، في نظره ، يشتق بوجه خاص ، من الوظيفة الاجتماعية التي يؤديها ، ومن واجباته نحو المجتمع ، ومن التضامن الذي يتجلى في قاعدة الحق . ليست للرجل حقوق بنفسه — كما

يقول — ولكن جميع أعماله التي ترمي الى غاية مطابقة للتضامن الاجتماعي — وإذن مطابقة للحق الموضوعي — معترف بها ومصانة قانوناً. وقد لخص المسيو هوريو هذا المذهب بعبارات غريبة شيقة: « هذا المذهب القانوني يتجلى في شكل توزيع اجتماعي للنشاط. إن النشاط القانوني يسيل في شرايين قاعدة الحق ثم يستمد الأفراد التيار كما يريدون بواسطة المفاتيح وهي الأعمال الشرطية ». ان هذه النظرية تقصي احدى العناصر التي تشترك في إيجاد الحق، لأن الحق يبدأ أولاً من التحديد المتبادل للقوات الفردية، ثم يتوطد بتعاون تلك القوات. أما كيف تتعارض عند توازنها وكيف تتجمع وهي تتنوّع، فهذا هو الحق كله في مظهريه. وعند ما تتحدد معنى الحق الواقعي ووضح، بعد أن تأسس وتوطد، بقيت الحقوق الفردية المنتظمة تحت حماية فعّالة — إننا لا نقول مع ايهرنج ان الحق مصلحة يحميها القانون لأن المصلحة جماد والحق لا يتولد إلاّ عن العمل، وإنما نذهب الى أبعد من هذا ونقول خيراً منه. إن الحق سلطة يعترف بها القانون هو عمل قوة فردية أو اجتماعية ينفذ بحرية في الاتجاه وفي الحدود التي تلائم مجموع القوات المتعارضة. وان كانت متضامنة، والتي يتم اندماجها ببعضها في الحق الواقعي.

* * *

لا يوجد اختلاف جوهري في الطبيعة بين السلطة والحرية. فالحرية ليست الاّ سلطة للعمل والمقاومة. ولكنهم يطلقون اسم السلطة على الحريات القوية التي — سواءً أكانت منفردة أو منعزلة — تسيطر على الحريات الأخرى، ويُحتفظ باسم الحرية للسلطات التي، وان كانت لا تستطيع الفوز لشدة ضعفها، إلاّ أنها تستطيع الحصول على ما يكفي لتحترم فعلاً. اما في المجتمع المنظم، فان كل فرد يشترك، بفضل حركة التضامن التي تُقرب اوتستعمل الاكراه، في السلطة التي تصدر الحق الواقعي، كما انه — بفضل لعبة الحرية التي تُقسّم وتعارض — يحافظ على حريته ويدافع عن حقوقه العرضية. وهكذا فان الأفراد — باعتبارهم تارة من واضعي القانون وطوراً من أتباعه، بل بهاتين الصفتين معاً — يخضعون للقواعد التي وضعوها ويتم فيها تآلف الحق الواقعي الذي ينشأ عن الوظيفة والحق العرضي الذي يرتكز على القوة. أن الوظيفة تُنفذ بفضل القوة والقوة تجد ما يشغلها في

الوظيفة ولكن ليس إلى حد أنها تتلاشى فيها . وهكذا نفسر كيف يربط الفرد الجماعة بأكملها عند ما يعمل كعضو في تأدية وظيفة تعود بالفائدة على الجميع وكيف أيضاً يتصدى للجماعة بحقوقه الخاصة عند ما يطالب بفوائد عمله . لقد دفعوا أحياناً بأن النظرية التي تجعل من الممثلين والموظفين أعضاء في الدولة تفضل النظرية التي ترى فيهم وكلاء عنها اذا روعيت العلاقات التي تقوم بين المجموع والخارج ، ولكنها تخطىء من حيث أنها لا تفسر العلاقات بين الموظفين والمجموع الذي ينتمون اليه إذ أنهم لا يقولون أن مجموع الأعضاء لا يمتاز عن أعضائه ، ولا يوجد بين هؤلاء الأعضاء وذلك المجموع علاقات قانونية ، إن هذا النقد لا يقوم على أساس صحيح . فالأعضاء متضامنون مع المجموع عند ما يؤدون وظائفهم : أنهم يتميزون عنه عند ما يتذرعون بقوتهم الخاصة ليطالبوا بحصتهم في النشاط المشترك .

وهكذا تتجلى الميزتان ــ مع تعارضهما في الظاهر ــ للحق الذي يعتبر مجموع العلاقات الاجبارية بين رجال أحرار أو مجتمعات مستقلة . ان غايته ترمي إلى تنظيم صلاتهم على أساس الاستقلال الذاتي . عند ما يفقد فرد أو مجموع أفراد حريته ، سواء باندماج مصالحه بمصالح الغير أو بزوال ارادته ، أو بانعدام قواته وتلاشيها ، فانه يفقد تبعيته للقانون ، ان الشركة التجارية التي تندمج مع شركة أخرى منافسة لها ، والهيئة المنقسمة إلى شطرين متساويين متعارضين ،والرجل المستعبد أوالبلد الذي يغزى ، جميع أولاء يفقدون شخصيتهم القانونية في نفس الوقت الذي يفقدون فيه صفتهم كأشخاص بشرية أو أشخاص معنوية ، ويصبحون في مصاف الأشياء التي يمكن اعتبارها من الماديات أو الجماد لا من أتباع القانون . إن الصلة التي تربطهم بالعالم تصبح صلة مادية لا صلة أدبية أو أخلاقية . ولكن إذا كان استعباد رجل أو جماعة لرجل آخر أو جماعة أخرى تقصيه عن القانون ، فان الأمر يكون على نقيض ذلك فيما يتعلق بتبعية الأفراد أو الشركات الأولية في وسط هيئة أكثر مجالاً واتساعاً ، وخضوعهم لنظام عام غير شخصي يوفق فيما بينهم ولكنه لا يقيد جهودهم وأعمالهم .

ان اتحاد الاستقلال والاكراه هو عقدة موضوع الحق . فهذان اللفظان المتناقضان

يلتقيان عند القاعدة الالزامية المفروضة على الجميع والتي يسعى الجميع الى تأليفها كما أنها تحمي حرية كل فرد بفضل تعميمها .

إن الفرد مستقل أيضاً بمعنى انه حر ماديًّا في ارتكاب الأعمال المحرمة وعدم تنفيذ الأعمال المفروضة شرعاً . ان الاكراه لا يطبق عليه بصفة احتياطية الاَّ في ظروف استثنائية في سبيل المحافظة على النظام في الطريق العام . ان المَرَجَ والحظر يتجه الى ذكائه ، ويشرك مسئوليته ، والعقوبة التي يستحقها تتبين لعقله وانه ليتقبل طوعاً عواقب أعماله الخاضعة لقواعد يشترك في وضعها .

***

ان توازن القوات الآلي ، والتضامن الذي يربط أجزاء مجموعة الأعضاء ، لا يؤدي في المجتمعات البشرية عملاً ماديًّا كما هي الحال في المولد المعنوي أو المولد الحيواني . وتأثيرها يدرك الرجال عن طريق الأفكار . ان العقل يدرك الوقائع بشكل أعراض تحدد سيرها ، واكراه القوي يظهر على جسم من هو أضعف منه أقل مما يتجلى على ارادته . ان التضامن لا يختبر كما تختبر الملهاة التي يتجمع أمامها الأفراد ولكنه يقابل باعتبار انه شرط أساسي للحياة المشتركة التي تفضل على الوحدة . فالعلاقات التي تنشأ بين الرجال تقوم على أفكار وآراء وعقائد متبادلة .

لا شك في أن حالة العقل لا بد أن تلائم — مع مرور الزمن — حالة الأشياء . فالتوازن يؤدي الى التسامح والتساهل . ولما كانت القوات المتعارضة لا تستطيع أن تقرر بعضها فانها حتماً ستحترم بعضها لأنها تعودت أن تستقل بنفسها . ان التضامن الموضوعي — الذي لا يخرج عن حد كونه تعاوناً متبادلاً ناشئاً عن تقسيم الوظائف — يؤدي الى التضامن العرضي الذي يؤثر على الضمائر . فليست المصالح وحدها هي التي تتقارب وتتدانى ، بل هي المشاعر التي تتجاذب ، واندماج المصالح الذي اعتاد التقريب بين النفوس . ان العيش المشترك جنباً الى جنب ، وتبادل الخدمات ، وتعاون الجهود والاتفاق القائم على تبادل الآراء ، هو الذي يحمل الرجال على الشعور — في كل آونة — بأنهم يكملون بعضهم ، وانهم جزء من كل لا يتجزأ ، وان سعادة كل منهم رهينة برفاهية المجموع . ان الرجال لا يدركون

الخدمات المشتركة التي يؤدونها لبعضهم بمناسبة كل عمل من أعمالهم ، فتكرار هذه الأعمال يولد شعوراً عميقاً مستديماً بنسبة حاجتهم الى بعضهم ، وينتهي بهم الحال الى أن يتمثلوا دائماً شخص غيرهم ماثلاً أمامهم . إن الميل الطبيعي يتولد عن الاحتكاك المتكرر وعن الانفعالات المتبادلة . وتبادل الخدمات يحدث امتزاجاً في العواطف وانسجاماً في المشاعر ، والانتماء الى نفس المجموع يوجد ـ ما يسمونه ـ عقل الجسم .

ولكن الأفكار التي تلهمها الاشياء والأشخاص الى عقل الرجل لا تظل سجينة في دماغه . فالكلام ، والكتابة عند اختراعها ، والتربية العائلية ، والتعليم عند انشائه ، والخطابة العامة ، والصحافة عند انتشارها ، كل هذه العوامل قد ساعدت الأفراد على انشاء العلاقات المستترة فيما بينهم وأخذت آراؤهم وعقائدهم تتناقل وتنادي بعضها أو تتضارب وتتأثر ببعضها . انها تتأثر بالاندماج وتصاب بنوع من التحريف يجعلها مختلفة عن الأفكار الفردية . انها تكتسب صفات جديدة . وكما ان التركيب الكيمائي يولد مشتقات تختلف صفاتها اختلافاً كلياً عن صفات الأصول التي اشتقت منها، كالماء مثلاً فانه يتميز ـ بصفات جديدة عن الهيدروجين والأوكسجين اللذين يشتق من امتزاجهما، كذلك الأفكار فان عملها المتبادل يحول من طبيعتها . لم تعد تلك الأفكار من صنع الأفراد مباشرة ولكنها تنشأ عن تعاونهم . والأفكار الاجتماعية ليست كلاً ولا حاصلاً ، ومن ذلك تتبين غرابتها بل ، ويمكن القول ، يتبين كيانها المستقل ذاتياً . لا شك في أن مركز هذه الأفكار هي الضمائر الفردية على انها مع ذلك تتجاوزها ، فبصفتها الاجتماعية تعتبر غريبة عنها نوعاً ما : فهي في بعضها تأتي من الخارج ما دامت قد تأثرت بما يحيط بها . فاذا قسمت المجتمع الى أجزاء فانك لن تجد ، بضم أفكار الجميع ، نفس الأفكار التي كانت تشغل الأدمغة مجتمعة . واذا غيرت تركيب ذلك المجتمع ومداه أو كثافته فانك تغير في نفس الوقت أفكار أعضائه . وعلى ذلك يكون تكوين الأفكار الاجتماعية من عمل المجموع الاجتماعي . وهذه الأفكار ـ بمجرد ظهورها ـ تحيا حياة خاصة مستقلة عن شرائع النفسية الفردية . إن التأثير الذي يحدثه بعضها على البعض الآخر ، اذا تكرر وتضاعف بعدد الأفراد الكبير ، يحدد عملاً هو في عنفه وشدته ، أشبه بكثير من عمل الوحدات الأولية اذا تجمع .

ما هو فحوى ذلك الضمير الاجماعي ؟ انه مؤلف من نوعي مبادىء : الاقتضاءات العملية والاعتقادات النظرية . ان الرجال يلاحظون أن الاحتفاظ بكيانهم مشتركاً يستلزم جمع بعض الاشتراطات . إنهم يدركون – على الأقل في شيء من الارتباك وبواسطة الاختبار – أن توازن القوات يجب احترامه وان التضامن يجب المحافظة عليه في المجموع تلك القواعد لا تهمل بغير عقاب : فكل مخالفة تجد رادعها في عواقبها .

على أن عقل الرجل يضطرب، لا من علاقاته بأمثاله فحسب ، ولكن أيضاً من صلاته بالعالم المحيط به : كالأمور الطبيعية التي يلاحظ وجودها ، والأمور الخارقة للطبيعة التي يتوقع حدوثها غير المنظور . انه يحاول أن يدرك عمل القوات الطبيعية باعتباره منتفعاً بها أو باعتباره ضحية لها ، إنه يرتبك من سر كيانه الأصلي ومسألة نهايته . ففي العصور الأولية كان الرجل لا يميز بين هذين العالمين ، بين المنظور وغير المنظور ، بين الروحاني والزماني . ان العقليـة القديمة كانت تقوم على « الـكل يشترك في الـكل » . وهكذا ليس هنـاك ما يدهش ، في أن سلسلتي المبادىء العملية . والمبادىء النظرية لم تؤلفا ، منذ البدء ، إلاّ قياساً واحداً لأفكار متضافرة لا يمكن التفريق بينهـا . وكما أن الأفكار تتأثر من دماغ الى آخر ، فانها كذلك تتحد وترتبط في عقل واحد . فهي غير مرتبة على انفصال ولـكنها متجمعة في بناء أدبي تجمعاً دقيقاً . وكل فكرة جديدة لا تستطيع أن تجد لها مكاناً في هذا البناء الا اذا أزاحت قليلاً ، وأحياناً اذا اصطدمت بمجموع العقائد والمعارف المـكتسبة مع احتمال الضغط عليها أيضاً . ان العقائد ، وخصوصاً من كانت ذات صبغة دينية في البدء ، قد ربطت بين مجموعة المعارف الاختيارية والنتائج العملية قد هذبت من جانبها الاعوجاجات التي كانت تؤدي اليها نتائج الاعتقادات وعواقبها . ان معنى الحياة – حسب تفسير المذاهب والفلسفة – وضروريات الحياة المستخلصة من الاحتـكاك اليومي بالحقائق ، قد اندمجت بجسم من الأفكار التي تلهم الأعمال البشرية . ان سقوط الحق طبقاً للطقوس الدينيـة أو الحظر ، تتخذ أسساً للقواعد التي يستلزم وجودها كل تعاون وكل حيـاة مشتركة . أولم يفسروا الأوهـة بأنها ليست سوى المجتمع الذي تجلى وبلغ حد الـكمال ، والـكائن الاجتماعي الذي سما على الـكائن الفردي ، والحقيقة السامية التي لا تأمر بالاحترام فحسب بل تتطلب الحب

والعبادة . إن نفوذ مبادىء هذين النظامين كان عامًّا . فالعقائد الدينية والحقائق العلمية ، وسقوط الحق قضائيًّا أو أدبيًّا ، والطرائق الفنية أو الاصطلاحية كانت كلها خاضعة لقياس فكري واحد .

هكذا يتضح لنا ما كان عليه — في الأصل — المظهر الديني لقواعد الحق ، والصفة المقدسة للاجراءات التعسفية والاضطهادات التي كانت تتخذها السلطة الاجتماعية التي تمثل الارادة السماوية . فاذا كانت طقوس المراسيم الدينية قد ساعدت على منح القوة الاجبارية للارادات الخاصة ، فذلك يرجع الى أنه — عند اندماج المبادىء الأولية — كان كل شيء متماسكاً ، وكان الدين يسيطر على ما هو غير ديني ويساعده .

على أن مدى العلم قد اتسع . وقد وقف جهوده على تنويع وجهات النظر ، لا على التفريق بين الأفكار وتفكيكها ، بل على النظر إليها من جميع نواحيها وتمييز مظاهرها . فالعلم قد ساعد إذن على فصل المبادىء التي كانت في البدء مبهمة . ثم وجه عنايته الخاصة نحو المعارف الاختيارية ونجح في استخلاص الحقائق غير الذاتية والموضوعية .

يقيناً أن حصة جميع هذه العوامل تختلف مع الزمن والتطور . فقد فقد الدين ، في كثير من البلاد ، صفته الرسمية ولجأ الى أعماق الضمائر ، وسقوط الحق شرعاً قد انفصل عن القواعد الدينية ، وأضحت الشريعة علمانية ، وتحررت الأخلاق من العقائد . وكذلك نشاط المهنة فانه قد تحرر عن نظام القواعد الضيقة . وفقد عمل المجتمع على الفرد صفته الالزامية بتشعب العلاقات وامتزاجها المضطرد . وقد شادت الفلسفة بهذا التطور فاعترفت للافراد بالمكانة السامية بعد أن انتزعت تلك الصفة من نوع المجتمع الذي يطلق عليه اسم الدولة . ان الدور الذي يمثله الفرد ، بعد أن وضح بتمييز الوظائف وتنويعها ، يرفع من شأنه ويزيده استقلالاً في رأيه . فهو لم يعد ذلك الرجل المتواضع النحيل المرهق بسطوة المجتمع الذي يُعد فيه عضواً ضئيلاً مشابهاً لجميع الاعضاء الآخرين ، بل أصبح ذلك الرجل المطلق ذلك الرجل الذاتي الذي تحمي حقوقه اعترافات علنية صريحة تقرر بأن هذه الحقوق محترمة مقدسة لا تباح ولا تنتهك لها حرمة .

ومع ذلك فالمجتمع ، على الرغم من وصوله الى تلك الدرجة من التطور ، لا يزال يحتفظ

بتأثير عظيم على اعضائه . فاذا كان الاكراه المادي الذي يثقل عليهم قد قلّ وضعف ، فان تأثير العقول على بعضها يظل راجحاً : الافكار تتبادل وترتبط وتمتزج ، وأعمال الأفراد ومقاومتهم المستمرة للمجموع وأعمال المجموع ومقاومته للأفراد — أو العلة والمعلول للموافقة الاجتماعية — لا تترك الا مجالاً محدوداً للتدخل الفردي . فما هو نصيب المخترع ونصيب المجتمع من كل اختراع ؟ ليس أصعب من تحديد ذلك ، على أنه لا شك في أن نصيب المجتمع هو الأوفر .

على أن المعاصرين لا يتأثرون وحدهم من بعضهم فهناك أيضاً السلالات المتعاقبة فانها تؤثر على بعضها بأن تخلف لها الكنوز التي انتزعت من الطبيعة وتراكمت شيئاً فشيئاً . لقد ارتفع الرجل وسما على الحيوان بفضل التقاليد التي حافظ عليها ، ثم أضاف اليها وأورثها خلفه ، إن حصة كل سلالة في تكوين العلم البشري ضئيلة بالنسبة للعلم الذي خلفته السلالات السابقة . فاذا كان مجموع المعارف التي يحصل عليها كل فرد بمجرد اختياره الذاتي يفنى معه ، فلا شك في أن الرجل يظل راكداً يتخبط في أشد دياجير الظلمة والشقاء . ولكن اللغة التي ينطق بها واللغة التي يكتب بها ونمو الذاكرة الفردية بالمران ، وتكوين الذاكرة الاجتماعية بالتقليد ، وايجاد محفوظات علمية بفضل المخطوطات ثم بفضل الطباعة ، كل ذلك قد ساعد على نشر المبادىء المكتسبة بين الرجال في جميع العصور ونقلها من الماضي الى المستقبل . ان العمل المشترك قد تعاقب بغير توقف خلال الزمن والفضاء بفضل التعاون . إنهم يلاحظون أحياناً الاختلاف البيّن في الآراء عند كثير من الاتباع . ولكن اجماع العقائد على أغلب النقط يظل مستتراً لأن المسائل التي تحدث الانقسام تثير المناقضات الحادة المتشعبة : إن الاجماع على الموافقة لا يحتاج — بالعكس — إلاّ للصمت . من لا يقول كلمة يوافق . ان المعلومات العلمية الثابتة ثبوتاً تامًّا ، والاختبار العملي المتراكم ، يؤلفان مجموعة مبادىء واسعة تمتد الى ما لا نهاية له . فتتألف هكذا طائفة من المشاعر والأفكار لا تعتبر أطوارها المتعاقبة إلاّ لحظات من حياة اجماعية مستمرة ، « إن الانسانية تتألف من أصوات أكثر من الاحياء » ، وأفكارهم وعقائدهم تخلد في عقول خلفهم ، إن إرادتهم الميتة تتسلط على الأرادات الحية وتتحكم فيها .

وهكذا يدرك المجتمع حالته والحالة الخارجية كما يدرك تركيبه الذاتي والوسط الذي يتطور فيه . ويلاحظ بواسطة تقلبات أعضائه ومعاملاتهم لبعضهم ، مقدار توازنهم وتضامنهم . كما أنه يشعر بواسطة تقلبات مجموعة الأعضاء ، بتأثير العوامل الخارجية إلى أي حد يخضع للوسط . ان أعضاءه يتآلفون مع بعضهم والمجموع يتآلف مع الجو المحيط به وهكذا يتحقق التوازن بشروط وجوده أي بين القوات الداخليـة والقوات الخارجية التي تعمل فيه وتؤثر عليـه . إن النظام الخارجي مرتبط بالنظام الداخلي برباط متين هو إدراك المجتمع لحالته وحالة العالم إدراكاً يزداد تحسناً آناً بعد آن . إن شروط وجوده التي تتخذ صفة التضامن تؤدي الى وضع القواعد الثابتـة المستديمة ، أما القواعد العرضية الطارئة فانها تكون عرضة للظلم والاستبداد ولكن مع تقرير النتائج . أما المنشقون الذين يرغبون في التجاوز عن العقد والخروج على سيطرة المعاهـد المؤسسة على العقائد الاجتماعية فانهم يعودون الى حظيرتهم بتأثير الاستنكار الذي تثيره محاولاتهم وعند الحاجة بفعل القوة المادية التي تتمتع بها الجماعة .

ولكن جميع هـذه الأفكار . المحصورة في العقول ، تقارم بعضها بعضاً وتحدث في الرجال تأثيراً قاطعاً بواسطة الشعب الذي يثيره الرأي العام أو بواسطة نداء النفوس الصامت ، وتتخذ صفة إجبارية . إن هذه العقائد خارجة عن الفرد لأنها إجماعية . وهي سابقة له لأنها كانت موجودة قبله في عقول الرجال . وهي لاحقة له لأنها ستظل بعد موته وتخلده في المجتمع الذي يدوم أكثر منـه . وإذن فتلك العقـائد ، وتلك القواعد هي أسمى من الفرد الذي تُفرض عليه . ولما كان هـذا الفرد لا يستطيع أن يغيرها أو يبدّلها فانه مكره على إطاعتها . والى جانب ذلك فانها تتمتع بسلطة مزدوجة : سلطة القوة وسلطة الكمال ، لأنها ترغم الفرد وتخضعه وتتجاوزه ولأن لها صفة إجبارية كما أن لها قيمة لا يمكن قياسها بغيرها .

لقد طالما لاحظوا أن عدداً من الأفراد اذا اجتمعوا عفواً فان اجتماعهم يمتاز بالهياج والحماس . انهم يفقدون الشك ويرتابون بروح النقد وقل أن يشعروا بالمصلحة أو يستسلموا للعقل . إن البخيل يصبح مبذراً بتحريض جيرانه وتعضيدهم له ، والمتشكك يتأثر بجاذبية

الايمان ، والجبان يشعر بالشجاعة . إن الفرد في وسط المجموع يتنازل عن مصالحه بأبخس ثمن بل ويقبل أن يضحي بحياته مسروراً في سبيل المثل الأعلى الذي كانت فرائصه ترتعد فرقاً أمامه لو قدر له أن يكون وحيداً . وزيادة على ذلك فانه يسمو بنفسه إلى أعلا مكانة تحت تأثير الحمية والحماس .

وهكذا يمكن ادراك تأثير الجماعة على الأفكار البشرية بفضل مقاومة الأفراد لبعضهم وبفضل تأثير الجماعة على الفردية . فمن تجمع الرجال تتولد قوة خاصة . فاذا كان كل واحد يشعر بأنه تحت سلطة المثل الأعلى « فذلك لأنه لايوجد شخص واحد يستطيع أن يخلقه بمفرده . فلا بد لذلك من مولـد الحرارة الذي يتألف من تقريب الضمائر » .

هنا يتضح تأثير الإحساس على الفكرة . فالفكرة قبل أن تنتشر في انحاء العقل تكون قد مرت بالشعور الوجداني واحتفظت باختلاجاته التي تنمو وتتكاثر باحتكاك الرجال ببعضهم .

فاذا كانت مجموعة مضطربة غير منتظمة قد التقت عفواً وتبددت سريعاً تشعر نحو مؤلفيها بتلك الفضيلة السامية فلا شك في أن الجماعات الثابتة المنظمة تؤثر تأثيراً عظيماً على أعضائها الذين يستطيعون بدورهم العمل والتأثير على بعضهم طويلاً وتعديل حالتهم مدفوعين بنفس العوامل النفسية . إن الشرف والمجد هما ثمن أعمال البطولة السامية عن الأغراض التي ينتفع بهـا المجتمع بأسره . إنهما يشيدان بشعور حب الغير ويزجران الأنانية الطبيعية ، ويبدلان الطاعة المعقولة المنتظمة بالزهد والتضحية التامة في سبيل المجتمعات . وتتجاوز تلك المشاعر كل ذلك الى حد النشوة بالتضحية والظمأ الى الاستشهاد . ويتلاشى كل اعتبار للمصلحة والمجد . ويكفي الشعور بالواجب وحده لإثارة أنبل العواطف وأسمى الأعمال وكذلك لاحترام الأوامر الثابتة التي تدعو الجماعة الى المحافظة عليهـا والعمل بها : تمالك النفس ، وحب النظام ، والنشاط في العمل والشجاعة العسكرية .

ليست الغاية التي يحددها المثل الأعلى الاجتماعي قاصرة على المصلحة المادية وبنوع ما اقتصادية . ان الحياة المشتركة تخلف آثاراً نفسية تعتبر إرثاً مشاعاً بين جميع المشتركين فيها : اللغـة والآداب والفنون والفتوحات العلمية وقياس الأفكار ، وجميع أوضاع الفـكرة

والاحساس وكلها تعتبر من وسائل مواصلات العقول والأرواح في الفضاء وفي الزمن، وكذلك كل ما يربطنا بالسلالات السالفة التي ندين لها بها، وكل ما يقيدنا بأمثالنا الذين نقتسمها معهم، وكل ما يسمح لنا بالاتصال بأعقابنا الذين نورثها لهم. وهذا الميراث الأدبي يضاف الى الميراث الذي وضعت حراسته في ذمة الوطنية فكانت أول مهمة عهد بها إليها. كانت الوطنية في بادىء الأمر قاصرة على الدفاع عن الزراعة والأغنام، ثم انتقلت مهمتها الى الدفاع عن الأرض المشاعة بين أعضاء العشيرة والأشخاص وآلهة القبيلة أو المدينة، فهي إذن عبادة الذكريات المشتركة والآمال المشتركة، والأفكار التي تشترك فيها الأمة بأسرها. هذه الكفاءات التي لا تتجزأ لا يمكن أن تحتفظ بنفسها وتنمو إلا في المجتمع. فوضعت لنفسها نظام المناصب والدرجات. فهذا النظام الذي يمنحه المجتمع — بمداه ومدته — صفة غير شخصية يتجاوز الأفراد ويُعد أساساً للنظام الاجتماعي وأساساً للنظام الخلاق للسلم.

بل خير من ذلك. ان تلك الكفاءات الروحية ترمي الى تجاوز الحدود. فكما أن المبادلات المادية تتكاثر بواسطة الوسائل التجارية الخارجية التي تزداد نمواً، هكذا تفعل الأفكار، فانها تنتشر وتمر من الحواجز الجمركية بغير رسوم وتجتاز المراكز العسكرية بغير جواز مرور، ثم بفضل التجرد الكلي والتخلي عن الصفات الذاتية لا تقف المدارك إلا عند ما هو إنساني وقابل للانتشار والتعميم، وبطريق التشبه تبدي استعدادها الى نشر الوسائل الخاصة بالعلاقات الداخلية والى وضع قانون دولي تبدأ فكرته المبهمة بالتغلغل في الضمير الاجتماعي للشعوب المتمدينة ولا تزال تؤثر فيه بواسطة الرأي العالمي.

قد يكون هذا « السبق » هو ما كان يتوقعه فلاسفة العصور السالفة عند ما شادوا الحق على أساس العقل. كان سقراط يدلل بالشرائع غير المكتوبة الأزلية العامة التي تمتاز على الشرائع المتقلبة في المدن والدول. أما أفلاطون وقيقرون فان القانون لم يكن في نظرهما إلا الأمر الآدمي الذي لا ينتهك الصادر عن العقل وليس عمل الرجال التعسفي المستبد. وهذا هو أيضاً رأي مونتسكيو عند ما وضع القاعدة المشهورة: إن الشرائع هي العلاقات اللازمة الناتجة عن طبيعة الأشياء. أما في نظر جروسيوس فالحق هو كل ما يلائم الطبيعة

المعقولة. وفي نظر « كانت » كل عمل يكون عادلاً إذا أمكن تعميم المبدأ وجعله قاعدة عامة.

أما في نظر «أوجست كونت» فان ضغط النظام الخارجي المستمر الذي يدركه الفهم ويفسره، يولد النظام في عقولنا ثم في مشاعرنا وفي النهاية في أعمالنا. إنه يفرض، لضروريات الحياة، نظاماً عرضياً لا يلبث أن يصبح واقعياً بالاندماج المعقول والاتفاق الضروري بين مداركنا وملاحظاتنا. ان القواعد التي تنشأ عن حاجات العمل لا تحتمل فقط ولكنها تشتهى وتطلب، فتنال موافقة المدارك والارادات. إن الشرائع الطبيعية عند ما تتغلغل في الضمير الاجماعي فانها تتدخل في الشرائع البشرية.

* * *

كيف تدخل هذه الأفكار الاجماعية في الحق؟ إنها في بادىء الأمر ترشد القبائل والدول في قيادة الحروب وتوقيع المعاهدات، إن السعي وراء الحصول على مساعدة القوات المظلمة التي تؤثر على مصير الأشياء البشرية ليس غريباً على الطريقة التي يعامل بها المقاتلون أعداءهم. إننا نقرأ في التوراة ان الشعب اليهودي قد عقد اتفاقاً مع يهوا، إله الجيوش الذي ضمن له الغلبة على أعدائه مقابل عبادته بأمانة وإخلاص. إن المحارب الاسرائيلي الذي يحمل السلاح يخضع لمراسيم حفلات طائفية خاصة بتلك المهمة الدينية التي تنتهي بحفلة مشابهة في نهاية الحرب. أما معاهدات الصلح فان احترامها مكفول بيمين يضعهم تحت الحماية الالهية التي كانت لا تُستمدى عبثاً. ان تدخل الكهنة في العصور الأولى لروما يُدخل، في استعمال الحروب، أولى مبادىء القانون الدولي.

على أن تأثير الأفكار الاجماعية ضعيف في العلاقات الخارجية لأن العدو غريب عن القياس الأخلاقي والأدبي الذي يستوحيه من يحاربه أو من يفاوضه. وإذن فالتأثير يظل من ناحية واحدة. على أن الأمر على نقيض ذلك في جماعة منظمة، إن اندماج الأفكار والمشاعر يوجد انسجاماً معيناً. فأصحاب العلاقات على استعداد سابق للتوفيق بين أغراضهم المتناقضة وتحديد حقوقهم طبقاً لمبادىء معروفة من الطرفين. وهكذا تقرر العادة بسهولة وتقل المعارضة. إن فض النزاع يقبل عن طيبة خاطر من الطرفين المتنازعين عند ما يشعران حولها أن فضّ النزاع ينال موافقة الشعور العام الذي يشتركان فيه أيضاً. ان الضغط الذي يقع

من الرأي المنتشر يحدث عند الأفراد تأثيراً كتأثير الاكراه الذي يصعب عليهم التحرر منه . إن تكرار القرارات المتشابهة ، وهو من عمل الضمير الاجتماعي ، يعززه بدوره مع ايضاحه كما أنه يؤيده . من ذلك نشأت سلطة العادة ونفوذها وما هي إلاّ تجلي الضمير الاجتماعي الذي تعبر عنه الكتلة الاجتماعية بجميع أجزائها ومن أعماقها .

إن تخصيص الأعمال من نتائج النظام الاجتماعي . ثم لا تلبث الوظيفة القضائية أن تباشر عملها بواسطة قضاة منتخبين أو معينين ، وقتيين محترفين أو وارثين . فالقاضي عند نظر القضية ينطق بالقانون وهكذا يضعه. فهو العنصر العامل للعادة وما العادة الا القاعدة التي تطبقها الأحكام . ولكن تلك القاعدة غير المدونة توجد في مخيلة القاضي : ان مقارنة أحكامه ببعضها تبرزها وتوضحها . فالعادة هي التشريع قبل القانون . ولكن أين يجد القاضي القاعدة التي يطبقها ؟ انه يجدها في الضمير الاجتماعي وفي الجو الذي يستنشقه . انه يعبر عن أفكار ومشاعر الوسط الذي يعيش بين ظهرانيه وناحيته وبلده . فهو ككل معاصريه ومواطنيه يشعر بها بشدة وعنف فما ان أختير لأداء المهمة القضائية حتى أبداها بكل وضوح وحدد دائرتها وقرر قوتها واتجاهها . إنه أكثر استعداداً وخبرة من غيره ، ولذلك فهو أجدر من المتقاضين على النص — من فوق منصته — عن الحق المستتر والحق الذي يُقرر في كل يوم ويُوطد بازدياد العلاقات البشرية ونموها .

والى جانب القاضي ، ثم فوقه ، تعمل سلطة أخرى على إيجاد القانون . فهناك رئيس الدولة . ثم ـ فيما بعد ـ الجمعيات البرلمانية ، فهم يضعون القواعد العامّة المعدة لادارة نشاط الأفراد واستغلاله . فاذا كان القضاة مكلفين بضمان التطبيقات الفردية فليست لهم السلطة لتغيير النص . وهنا تظهر المهمة التشريعية : يجلس القانون الى جانب العادة ثم لا يلبث أن يطالب بالحلول محلها قطعاً . ان المشرعين الذين أجلستهم وظائفهم على رأس الدولة يقفون في وسط البحث وعند نقطة التقاء جميع الأفكار الاجتماعية . فلا يوجد خيرٌ منهم من يستطيع في وقت واحد أن يرى ضروريات الحكومة العملية ويميز الصوت الذي يصدر من اعماق الضمير الاجتماعي . ان مهمتهم هي في التوفيق بين ميولهم ، وأحياناً تكون تلك الميول متشعبة ، وحصر القاعدة في صيغة واضحة أكيدة . وحيث أن مصدر القانون

واحد فانه ـ بفضل صفاء مادته وجرأتها ـ يتعارض مع جدل الشريعة ، واعوجاج العادة واتجاه التطبيق المتردد . إن القضاة يعطون للحق أسمى مظاهره إذ انهم أنسب وأفضل الأعضاء وأكثرهم خبرة وتخصصاً وأقدرهم على ملء وظائفهم .

ولكن هل يمكنهم أن يفرضوا عليه وضعه النهائي أو يدعوا ذلك ؟ وهل نيتهم ـ التي تتجلى في القانون ـ تأمر باحترام هذا القانون ما دام لم ينسخ تماماً حتى اذا كانت الظروف قد تغيرت منذ نشره ؟ شيء من ذلك لن يكون . إن القاعدة التي يقررها المشرعون تفقد تبعيتها لهم بمجرد صدورها وتدخل في دائرة القياس القانوني الفسيحة وهي في حد ذاتها إحدى أصوله . إنها تندمج بالقوانين القديمة التي تقوم مع التشريع الذي يفسرها . عند احتكاك هذه الوقائع يتطور كل هذا المجموع ليتناسب مع الظروف الجديدة ، فيتحول المجتمع ، وتتعدل الهيئات ، وتجدد طرق الانتاج والبدل ، ويقرر التعاون بين رأس المال والعمل بشكل لم يسبق له مثيل . فكيف يظل القانون ثابتاً لا يتغير ؟ بل كيف يستطيع أن يتبع هذه الحركة المستديمة ؟

* * *

إن مسألة العلاقات بين الرجال تتخذ في كل لحظة مظاهر غير منتظرة . فجهاز القانون العظيم وبطء تكوينه ، يحتمان عليه البقاء في حالة جمود نسبية في وسط يتغير كل ما فيه بلا انقطاع . ومن حسن الحظ أن الضمير الاجتماعي يحافظ على وسائل تعبيره الأولى : العادات التجارية أو المتعلقة بالحِرَف ، وتشريع المحاكم ، تساعد عند الحاجة على مواجهة الحاجات الجديدة الناشئة عن الممارسة والمدارك الجديدة التي تسيطر في المجتمع . فهي تتمم القانون أو تكسبه ليونة إذ تتظاهر بتفسيره ، متخفية بقدر المستطاع وراء نية المشرع وغرضه ثم تنفذ أغراضها التجديدية بجرأة عند ما يحتك القانون المتلاشي بالشعور العام مباشرة . ولا يستطيع القانون إلاّ أن يؤيد تلك الرواسب القضائية بضمها الى حظيرته .

فهنالك إذن وحدة في الأصل ونوع من التآلف الطبيعي بين التطبيق والعادة والتشريع والقانون وتلك هي الوسائل المنوعة التي يتجلى فيها الضمير الاجتماعي ، وهي لا تتميز إلاّ

بطرق انشائها . فالأولى من وضع مجموعة الأعضاء التي حافظت على كفاءتهـا التامة في أداء جميع نواحي نشاط المجموع . والآخر من وضع الأعضاء المتخصصين .

***

وهكذا فاننا نشاهد حركة تدعيم داخلي للقانون . ففي البدء كان لا يتألف إلاّ من حركة القوات الخارجيـة ضد بعضها فقد كانت هـذه القوات — في تنافسها المستمر السريع — تلتقي ببعضها وجهـاً لوجه وتتطاحن وبذلك تحدد بعضها بعضاً وتعترف ببعضهـا ما دامت لا تستطيع القضاء عليها ..

ولـكن تلك القوات التي توازنت هكذا وألفت مقاييس ثابتة ، لا تلبث أن تستجمع قواها بفعل المناوشات المحيطة التي تقع في ظروف خاصـّة للحد من المنافسة بفضل تقسيم العمل ، وتصبح مع الوقت متضامنة وتعترف لبعضها بمصالح متشابهة وتدمج شخصيتها في وحدة عضوية تنظم نشاطها وتديره قواعد داخلية . مثل هذه الظاهرة تتجلى في المجموعات البشرية التي تبدأ بأن تكون منسجمة كثيفة ثم تتفرق وإذ ذاك تضطر بواسطة مجموعة من الاجراءات إلى تحديد اتفاق الحركات الفردية ثم انسجامها .!

وفي النهاية ينتهي الأمر بتلك القاعدة ـ الخارجية بالنظر إلى القـانون الآلي والداخلية بالنظر إلى القانون العضوي ـ إلى التغلغل في اعماق الضمائر الفردية التي تتوق الى التحسن والـكمال وتقبل بأنفة وشمم ان تحافظ على القانون الأخـلاقي والـكمالي محافظة تامة . ليست العدالة فـكرة أولية بل هي نهاية تطور وهي تهذيب القوات المستوحشة تهذيباً مضطرداً .

فالقوات التي تتوازن ، والمصلحة المشتركة التي تربطها ، والعقل الذي ينيرها ، والمثل الأعلى الذي يسيطر عليهـا ، تلك هي العناصر التي يتألف منها الحق ولن يكون هذا الحق كاملاً إذا جمـعها كلهـا . ومع ذلك فالمثـل الأعلى الزائل يترك وراءه نوعاً من الحق الخشن في وسط جو رطب صقيع . والعـقل المحجوب ينزع عن الحق دقتـه وليونته ولـكنه لا ينزع عنه قوته وصولته ، وزوال كل مصلحة مشتركة يخلف قوات متوازنة تقف وجهاً لوجه فتصطلح من شئون بعضها وتستقل . وفيما عدا ذلك كله تتحكم القوة الغاشمة الهوائية .

لـكل بحسب قواته ، تلك هي صيحة الحرب التي تصدر عن الحق الخارجي ، ولـكل

بحسب أعماله ، تلك هي كلمة النظام التي ينادي بها الحق العضوي ، ولكل بحسب حاجاته ، ذلك هو المثل الأعلى للحق الذي يستمد وحيه من الادراك العقلي للرجل . إن التشريع الواقعي ، وإن لم يقتصر على التسليم باحدى هذه المدارك فانه لا يقصي أي واحد منها ويفسح لكل واحد منها مجالاً : فأقوى هذه المدارك وأصلحها وأفضلها يمكنه أن يطمع في مساعدته وتعضيده . ولكن عند ما يزداد المجتمع مساحة وكثافة واندماجاً ، فانه يزداد سيطرة على الأفراد وهكذا تتلاشى قوة الرجال المنعزلين أو الجماعات الجزئيـة ، أمام قوة الحق الاجتماعيـة التي تحمي حرية الجميع وتحافظ عليها متساوية . إن تطور الحق في نظام اجتماعي راقٍ يرمي الى هذه النتيجة . وإذا نحن لاحظنا أن مثل هذا الأمر بعيد الحدوث في العلاقات الدولية فذلك لأن دول جميع القارات لم تدخل في شكل نظام محدود ، ولا يكفي حضها على الاتحاد والاتفاق لاهدائها الى هذا السبيل القويم . فلا بدّ لها أيضاً أن تدرك قيمة روابط التضامن التي تربطها . إن التاريخ عبارة عن نظام اندماج يحشد في دائرته ، وبحركة واسعة النطاق ، أكبر عدد ممكن من الأفراد . فالحاجة الملحة تدفع الدائرة الاجتماعية ، أيّـا كانت ، إلى التوسع حتماً وجمعية الأمم تعتبر شيئاً أسمى من الأمل .

ولكن لا فائدة في تعجيل هذا التطور في غير أوانه . فتلك مهمة دقيقة للغاية تتطلب من رجال الحكومة ادراكاً دقيقاً لأساليب السياسة أكثر من قيادة الشعوب نحو هذا المثل الأعلى بدون تعريض توازن القوات إذ لو اختلّ هذا التوازن فإنه قد يؤدي الى كارثة يحسن حتماً تلافي وقوعها . إن في المطالبة بالسلام قبل كل شيء دعوة الى الحرب في أغلب الأحيان . فأيدي دعاة السلم كثيراً ما تكون مخضبة بالدم أكثر من قبضة المحاربين .

ففي القانون يمتزج التضامن الاجتماعي والقوات الفردية بكميات مختلفة . ولكي يترك للأول مكان يزداد اتساعاً مع مضي الزمن فانه يجدر بنا ألاّ نسند مهمة حل القوات وجمعها إلاّ إلى أيدٍ حريصة تعرف كيف تدرأ عنا النتائج الفتاكة .



وكلاء المقتطف ومحلات الاشتراك

في العاصمة والقطر المصري ادارة المقتطف بشارع القاصد — باب اللوق

في بيروت — سوريا — جورج افندي عبود الاشقر ص. ب رقم ٩٢٩

في طرابلس الشام الاستاذ عبدالله الياس حصني

في دمشق — شعلان — الشهداء الاستاذ السيد حمدي القواص

في شرقي الاردن — عمان الاستاذ يعقوب عودات

في فلسطين الأستاذ مصطفى الطاهر

مدير مكتبة الطاهر اخوان — يافا — شارع الملك جورج

في حمص — سوريا الخوري عيسى اسعد

في حلب شارع السويقة السيد عبدالودود الكيالي وأولاده أصحاب المكتبة العصرية

في صيدا نقولا افندي حريصي داغر — صيدلية الهلال

في حماه السيد طاهر افندي النعساني

في الارجنتين Mr. N. J. Nazer
Avenida de Mayo 1370
Buenos Aires, Rep. Argentina

في الولايات المتحدة والمكسيك وكندا وكوبا Mr. Naguib Shehadi
8012 Narrows Avenue
Brooklyn N. Y—U. S. A.

قيمة الاشتراك في المقتطف تدفع مقدما

عن سنة

١٢٠ في القطر المصري والسودان

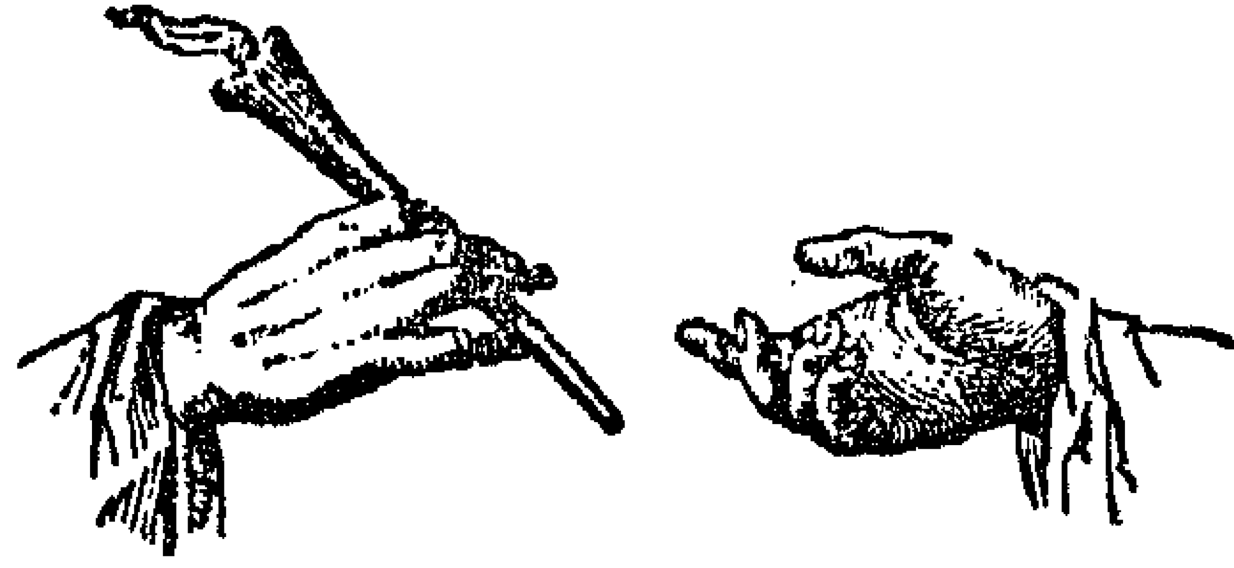
١٤٠ في سوريا ولبنان وفلسطين وشرقي الاردن والعراق «بريد عادة»

٧ دولارات لاميركا الشمالية

٦ دولارات لاميركا الجنوبية وجمهورية الأرجنتين

وفي سائر الجهات ٣٠ شلناً

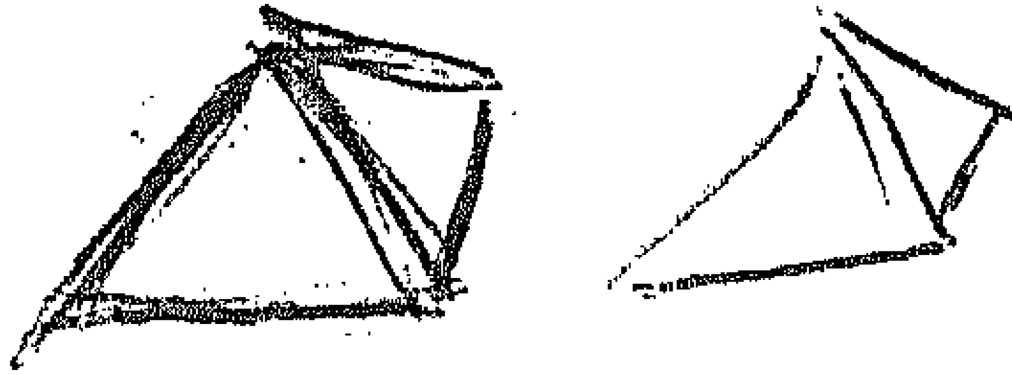
ملاحظة [يخصم ٢٠٪ من قيمة الاشتراك للاساتذة والطلبة الذين يرفقون طلبهم بشهادة من مدير المدرسة تشجيعاً لهم]



المقتطف

الجزء الثاني من المجلد العاشر بعد المئة

١٠ فبراير ١٩٤٧ — ١٩ ربيع أول ١٣٦٦



إعلم أن لسانك أداة مغَلَّبة ، يتغالب عليه عقلك ، وغضبك ، وهواك وجهلك. فكل غالب عليه مستمتع به ، وصارفه في محبته . فاذا غلب عليه عقلك فهو لك . وإذا غلب عليه شيء من أشباه ما سميت لك ، فهو لعدوّك . فان استطعت أن تحتفظ به ، فلا يكون إلاّ لك ولا يستولى عليه أو يشاركك عدوك فيه ، فافعل.

(ابن المقفع)

المقتطف

مجلة علمية صناعية زراعية

لمنشئيها

الدكتور يعقوب صروف و الدكتور فارس نمر

رئيس تحريرها اسماعيل مظهر

قيمة الاشتراك — في القطر المصري ١٢٠ قرشاً مصرياً وفي سورية ولبنان وفلسطين وشرقي الاردن والعراق ١٤٠ قرشاً مصرياً وفي الولايات المتحدة ٧ دولارات اميريكية وفي عدن وأفغانستان وايطاليا والمانيا وبلاد الانجليز ٣٠ شلناً

اشتراك الطلبة والمدرسين — قيمة الاشتراك للاساتذة والطلبة الذين يرفقون طلبهم بقيمة الاشتراك وبشهادة من رئيس المدرسة تكون ١٠٠ قرش مصري في مصر و ١١٠ قروش مصرية في الخارج بالبريد العادة

الاعداد الضائعة — الادارة لا تعد بتعويض المشتركين ما يضيع من اعدادهم في الطريق ولكن تجتهد ان تفعل ذلك

المقالات — لا تقبل المقالات للنشر في المقتطف الا اذا كانت لهُ خاصة ولا يعد قلم التحرير بارجاع المقالات التي لا تنشر فنرجو من حضرات الكتّاب ان يحتفظوا بنسخة من المقالات التي يرسلونها

العنوان — ادارة المقتطف بالقاهرة — مصر

AL-MUKTATAF

An Arabic Monthly Review of Current Science and Literature.

Published in Cairo Egypt

Founded 1876 by Drs. Y. Sarruf & F. Nimr

Edited by I. Mazhar

٧

المقتطف

الجزء الثاني من المجلد العاشر بعد المئة

١٠ فبراير سنة ١٩٤٧ — ١٩ ربيع أول سنة ١٣٦٦

مدرسة الاسكندرية

برنامج تدريس الطب بها إلى أواسط القرن السابع الميلادي وانتقال حركة العلم إلى أنطاكية

إذا قلنا إنه كان لمدرسة الإسكندرية في العصر القديم برنامج للطب دُرّس فيها واتخذ وسيلة إلى تخريج الأطباء ، فليس معنى ذلك أن نقول إنّ هذا البرنامج قد وضع في أول العهد لتأسيس هذه المدرسة . ذلك بأن أساس هذه المدرسة قد تطوّر مع الزمن ، فكانت في أول أمرها مكتبة وضع نواتها بطلميوس الأول (بن لاغوس) ونمّاها وأوسع من أرجائها وأمدّها بمؤلفات العالم الأغريقي إبنه بطلميوس فيلادلفوس ، ومن حول هذه النواة تخرّج علماء وفلاسفة ورياضيون وغراماطيقيون وشعراء نابهون ، كانوا البزرة التي فرخت منها تلك المدرسة العظيمة . ومن أعظم الذين نموا هذه البزرة الطيبة رجال ونساء من أشهر من انحدرت إلينا أسماؤهم من العالم القديم . ولنذكر بعضاً منهم على سبيل المثل لا على سبيل الحصر .

(١) اقليدس Euclid الرياضي وهو الذي جمع الحقائق الهندسية التي كانت مشتتة في حلقات الدرس الأغريقية ورتبها على أسلوب نظيم ، فجاء كتابه في مقالات لا تزال الى الآن موضع الاعجاب الجم .

ومن طرائف حياة هذا الرجل العظيم أن بطلميوس فيلادلفوس أراد أن يتعلم الرياضة ، فأخذ يحضر على إقليدس، ولكنه أنس في هذا العلم من الغموض والإستغلاق ما جعله يسأل أستاذه يوماً : ألا يوجد طريق أسهل لتلقي هذا العلم ، فقال له إقليدس بلا تلعثم : الطريق الممهود ليس طريق العلم .

(٢) ارسطارخوس : Aristarchus وهو الذي نقل التعاليم الفيثاغورية الى مدرسة الاسكندرية، وبخاصة القول بدوران الأرض من حول الشمس ، واشتغل بتعيين بُعد الشمس عن الأرض ، فوقع كذلك على طريقة رياضية كانت موضع الدرس والبحث قرون عديدة .

(٣) إراطوسثانس Eratosthenes وهو رياضي وفلكي ، وهو أول واضع للطريقة المعروفة في كتب الحساب لإيجاد الأعداد الأولية ، وحل المسألة الرياضية المعروفة بتضعيف المكعّب ، واخترع الكرة الصناعية التي تمثل دورة الأفلاك ، وعين ميل دائرة البروج على خط الاستواء ، وعين بالتقريب حجم الأرض بواسطة الشمس في بئر بأصوان بصعيد مصر .

(٤) أفولُّونيوس Apollonius ولو لم يكتب هذا الرجل غير ما كتب في القطوع المخروطية لكفى بذلك شاهداً على نبوغه وعبقريته . وقد ترجم هذا الكتاب في عصر المأمون. ثم علقت عليه الشروح والحواشي الكثيرة . ومما يتضمنه هذا الكتاب بحوث في الخطوط الأهليلجية والهذلولية أي المخروطية الناقصة والزائدة ، وبعض مسائل في النهايات الكبرى والصغرى ، وكلامه فيما يسمى الآن المنتحيات المنتشرة حتى في مراكز الاتصال .

(٥) ابّرْخُوس : Hipparchus وكان من آثاره تقدم علم الهيئة ، إذ عين السنة الشمسية الحقيقية ، وحسب جداول لاختلاف الشمس ، واكتشف الاعتدالين : الربيعي والخريفي ، وطريقة تعيين مواقع البلدان والأماكن بخطوط الطول وخطوط العرض ، وقاس بعد القمر عن الأرض، وعمل الزيج المشهور للثوابت، ومنذ ظهور ابّرْخُوس حتى ظهور المسيح ، لم يظهر في الشرق من عالم إلاّ وكان من خريجي جامعة الاسكندرية .

(٦) جامِنْيوس : Gaminius وهو الذي أرّخ لعلم الفلك.

(٧) سوسيغانس : Sosigenes الذي أصلح حساب الوقت اليوليوسي

(٨) تيودوروس : Theodorus مؤسس علم الهيئة الكروية .

(٩) بطليموس الفلكي مؤلف كتاب « المجسطي » المعروف عند العرب ، وكان كثير من القدماء يعتقدون أنه آله . وكان كتابه هذا أساس علم الأمة العربية والأمم الأوربية بعلم الهيئة أربعة عشر قرناً طوالاً . وهو الذي وضع النظام المعروف باسمه أي النظام البطليموسي ، وأول من صنع الخرائط الجغرافية بواسطة الاسقاطات ، وألف في الضوء وتكلم بإسهاب عن انكساره ، كما ألف في الموسيقى والميخانيقا وغيرها من الفنون .

(١٠) ديوفانتوس : Diophantus : وهو واضع علم الجبر ، وعنه أخذ العرب .

(١١) تاون : Theon ، وكان فلكياً حسب خسوفاً للقمر في سنة ٣٦٥ ق. م. ولكن لم تعرف الطريقة التي اتبعها في ذلك ، وكان من شرّاح مقالات اقليدس والمجسطي بطريقة بذّ بها غيره من الشرّاح والمعلقين .

(١٢) هيپاشيا : Hypatia وهي أشهر النساء اللواتي يذكرهن التاريخ القديم ، نبغت في الرياضيات والفلسفة ، وقد درّست في مدرسة الاسكندرية ، فخلبت ببلاغتها السامعين . ولها مؤلفات كثيرة منها كتاب في علم الهيئة ، وشرح على كتاب ديوفانتوس ، وآخر على كتاب ابولّونيوس في القطوع المخروطية .

هذا ولم نذكر سلسلة طويلة من الغراماطيقيين والفلاسفة أمثال كلّياخوس وسجسياس وطائفة من نوابغ مدينة « قورينة » هبطوا الاسكندرية وتعلموا وعلموا بها . ولا يفوتنا أن نقول في ختام هذا التمهيد إن جالينوس أبا الطب قد درس في أثينا أولاً ثم في الاسكندرية من بعد ذلك ، ثم ذهب الى فرغامون ، ثم الى رومية ، ومات سنة ٢٠٠ بعد الميلاد .

إذن نعرف من هذا أن الاسكندرية قد شهدت في مدى قرون عديدة سلسلة من العظماء في مختلف الفنون والعلوم أسسوا بها عظمة مدرستها الخالدة .

وقد يتضح لنا من بحث كتب الطبقات ان مدرسة الاسكندرية قد بلغت من النظام مبلغ الجامعات الحديثة ، سواء أمن ناحية وضع برامج الدرس العلمي والفلسفي ، أم من ناحية أسلوب البحث والدرس الأكاديمي الصحيح . فقد قام نظام الدرس في تلك الجامعة الفذة على أساس التعاون الكامل في التقصي العلمي بين جماعة من الأساتذة المبرزين تذمّروا

أسلوب البحث العقلي ، وطلبة يعاونونهم على الاستمساك فيه . ولا ريبة في أن هذه الروح العلمية هي وراثة عن مدارس أثينا القديمة نقلها الأغارقة إلى عاصمة الدنيا الجديدة في العالم الإليني Hellenic منذ بداءة عصر الاسكندر المقدوني .

قال أبو الحسن علي بن رضوان في كتاب « المنافع » في كيفية تعليم صناعة الطب :

« وانما اقتصر الاسكندرانيون على الكتب الستة عشر من سائر كتب جالينوس ، في التعليم ليكون المشتغل بها إن كانت له قريحة جيدة وهمة حسنة وحرص على التعليم ، فانه إذا نظر في هذه الكتب اشتاقت نفسه بما يرى فيها من عجيب حكمة جالينوس في الطب الى أن ينظر في باقي ما يجده منها . وكان ترتيبهم لهذه الكتب في سبع مراتب » (١) .

***

ولم أقف في خلال بحوثي على برنامج كامل درس في عصر بعينه من عصور مدرسة الاسكندرية . غير أن برنامج صناعة الطب في هذه المدرسة يدلنا دلالة واضحة على ما بلغ نظام الدرس فيها من الرتابة والكمال وتنظيم المعلومات وتسلسل التلقي في درجات تسلم كل درجة منها الى الدرجة التي تليها . وقد نقول قياساً على هذا إن شأنهم في درس بقية العلوم لم تكن تنزل عن صناعة الطب نظاماً ورتابة ، فالفلسفة والرياضيات والآداب والميخانيقا ، من العلوم التي ازدهرت في مدرسة الاسكندرية ونشرت في جوانب العالم القديم نور المعرفة الصحيحة . بل اني لا أبالغ إذا قلت إن الفلسفة والرياضيات على الأخص علمان قد نشآ في أثينا، ونظما وازدهرا في الإسكندرية . وما بقية المدارس التي نشأت في حوض البحر المتوسط غير فروع وشعب نشأت من الدوحتين العظيمتين : أثينا أولاً ، والاسكندرية ثانياً .

ولا يسعني أن أدلك على صحة ما أذهب اليه الاّ بشرح برنامج صناعة الطب في الاسكندرية ، لتعلم قياساً عليه ، انه كان لكل من العلوم الأخرى برامج مشابهة له ، وان حرية البحث كانت رائد الأساتذة وطلبة المتعلمين معاً ، وبرهاننا على ذلك حياة الفيلسوفة العظيمة هوباشيا ابنة تاوُن الاسكندري ، وقد قتلت في الاسكندرية في ثورة من ثورات الدهماء في عهد انتشار النصرانية .

(١) طبقات الاطباء ص ١٠٥ ج ١

أسس صناعة الطب في الاسكندرية الحكيم جالينوس ، ولو لم يكن من أبنائها . هبط جالينوس الاسكندرية ، وظلّ بها زماناً لا ندري على التحقيق مداه . ولكن رجال المدرسة اتخذوا مؤلفاته أساساً لدرس صناعة الطب فهو أبو الطب في هذه المدرسة ، حيث كانت مؤلفاته أساس التعليم بها ، فقد أختيرت ستة عشر مقالة من مقالاته في هذه الصناعة قام عليها برنامج الدراسة ، وقسم البرنامج سبع مراحل يدرس في كل مرتبة منها كتبٌ معلومة من كتب جالينوس المختارة [1] ولا شك عندي في أن العرب نهلوا صناعة الطب عن الاسكندرية ، فقد كانت في العصر القديم مستقر هذه الصناعة ومنبعها الأول ومستقاها الخصب .

المرتبة الاولى

هي المدخل الى صناعة الطب . ومن يدرسها يمكنه أن يتعاطى أعمال الطب الجزئية ، ومنها يتدرَّج من يريد التوسع الى المراتب التي تليها ، فاذا اقتصر عليها ، لم تخف عليه منافع علاج الأمراض . ويدرس في هذه المرتبة أربعة كتب :

(١) كتاب الفِرَق : وهو مقالة واحدة ، ويستفاد منه قوانين العلاج على رأي أصحاب التجربة ، وعلى رأي أصحاب القياس . « إذ كان بالتجربة والقياس ، يستخرج الناس جميع ما في الصنائع . وما اتفقا عليه هو الحق ، وما اختلفا فيه نُظِرَ ، فان كان طريقه القياس عمل على قوانين القياس فيه ، وان كان طريقه التجربة ، عمل على قوانين التجربة فيه »

(٢) كتاب الصناعة الصغيرة : يستفاد منها جملة صناعة الطب كلها نظريًّا وعمليًّا .

(٣) كتاب النبض الصغير : وهو مقالة واحدة ، يستفاد منه جميع ما يحتاج اليه المتعلم من الاستدلال بالنبض على ما ينتفع به في الأمراض .

الكتاب المسمى باَغلُوقَن : وهو مقالتان ، يستفاد منه كيفية التأتي في شفاء الأمراض ، ولأن من يتعاطى الأعمال الجزئية من الطب ، يضطر إلى معرفة قوى ما يحتاج إليه من الأغذية والأدوية ، والى أن يباشر بنفسه أعمال اليد من صناعة الطب ، ولزمه أن

(١) اعتمدنا في شرح هذا البرنامج على كتاب طبقات الاطباء ج ١ ص١٠٦ الى ١٠٩ وربما استعملنا الفاظه وعباراته بنصها في بعض المواضع ، مع تحوير في الوضع يجعل المقصود أبين وأجلى

ينظر فيما تدعو إليه الحاجة من الكتب التي سماها جالينوس في آخر الصناعة الصغيرة ، أو يتعلم ما يحتاج إليه من ذلك تلقيناً ومشاهدة .

ويستدل من هذا على أن هذه المرتبة تتناول قوانين العلاج والصناعة نظريًّا وعمليًّا والاستدلال بالنبض على ما ينتفع به في الامراض والتشخيص والتمريض والاقرباذين العَمَلي إلى تركيب الأدوية والعقاقير . والكتب التي تدرس في هذه المرحلة « مقنعة المتعلم في تعليم صناعة الطب . فأما الكامل ، فإنه يتذكر بها جميع ما فهمه من الصناعة » .

المرتبة الثانية

تدرس في أربع كتب :

(١) كتاب الأسطُقُسّات : مقالة واحدة ، ويبحث في أن بدن الانسان وما يحتاج إليه سريع التغيير قابل للاستحالة. وهذه الاسطقسّات ضروب : منها أسطقسات البدن القريبة منه ، وهي الأعضاء المتشابهة الاجزاء ، كالعظام والأعصاب والشرايين والعروق والأغشية واللحم والشحم وغير ذلك . وهذه الاعضاء تتألف من أسطقسات هي الأخلاط الأربعة : الدم والصفراء والسوداء والبلغم . وهذه الأخلاط تتألف من أسطقسّات هي النار والهواء والماء والأرض . ومبدأ التكوين من هذه الأربعة ، والانحلال يقع عليها ، أو يصير إليها. وهذه الأسطقسات قابلة للتغير والاستحالة .

« وهذا الكتاب هو أول كتاب يصلح أن يبدأ به من أراد استكمال تعليم صناعة الطب » .

(٢) كتاب المِزَاج : ثلاث مقالات ، يدرس أصناف الأمزجة ، وما يتقدم به كل واحد منها وبما قد يستدل عليه إذا حدث .

(٣) كتاب القوى الطبيعية : ثلاث مقالات ، يدرس أصناف القوى التي تدبّر البدن وأسبابها ، والعلامات التي يستدل بها عليها .

(٤) كتاب التشريح الصغير : خمس مقالات . وكان جالينوس قد وضعها متفرقة ، ولكن أهل مدرسة الاسكندرية جمعوها وجعلوها كتاباً واحداً . ويستفاد منه معرفة

أعضاء البدن المتشابهة وعددها وجميع ما يحتاج إليه فيها ، ويتضمن فيما يتضمنه درس منافع الأعضاء .

المرتبة الثالثة

تدرس في كتاب واحد ، يتضمن ست مقالات كتبها جالينوس متفرقة ، وجمعها الاسكندريون في كتاب واحد ، ويدرس فيها علم معرفة الأمراض وأسبابها والأعراض الحادثة عن الأمراض . « وهذا باب عظيم الغناء في صناعة الطب على رأي أصحاب القياس » .

المرتبة الرابعة

تدرس في كتابين :

(١) كتاب تعرف علل الأعضاء الباطنة : ست مقالات ، يدرس فيها تعريف كل علة من العلل التي تحدث في الأعضاء الباطنة . « فان هذه الأعضاء لا تدرك أمراضها بالعيان لأنها خفية عن الحس ، فيحتاج الى ان يستدل عليها بعلامات تقوّم كل واحد منها ، فاذا ظهرت العلامات المقومة تيقن أن في العضو الفلاني علة كذا » .

(٢) كتاب النبض الكبير : أربعة أجزاء كل جزء أربع مقالات .

الجزء الأول : يستفاد منه : أصناف النبض وجزئيات كل صنف منها .

الجزء الثاني : يستفاد منه : تعريف إدراك كل واحد من أصناف النبض .

الجزء الثالث : يستفاد منه : تعريف أسباب النبض .

الجزء الرابع : يستفاد منه : تعريف منافع أصناف النبض .

« وهذا باب عظيم النفع في الاستدلال على الأمراض ومعرفة قواها ونسبتها الى البدن »

المرتبة الخامسة

تدرس في ثلاث كتب :

(١) كتاب الحُمّيات : مقالتان ، يدرس فيه طبائع أصناف الحميات

(٢) كتاب البَحَرَان : ثلاث مقالات ، يدرس فيها معرفة أوقات المرض ، ليعطى في كل وقت منها ما يوافق فيه ، ومعرفة ما يؤول إليه الحال في كل واحد من الأمراض ، هل يؤول أمره إلى السلامة منه ، وكيف يكون ، وبماذا يكون ؟

(٣) كتاب أيام البَحران : ثلاث مقالات ، يدرس فيها معرفة أوقات البَحران ومعرفة الأيام التي يكون فيها ، وأسباب ذلك وعلاماته .

المرتبة السادسة

كتاب واحد ، هو كتاب حيلة البُرء : أربع عشرة مقالة ، يدرس فيه قوانين العلاج على رأي أصحاب القياس في كل واحد من الامراض . وهذا الكتاب إذا نظر فيه الانسان اضطره الى النظر في كتاب الأدوية المفردة ، وفي كتب جالينوس في الأدوية المركبة ، أعني « قاطا جانس » و « الميامر » وكتاب « المعجونات » ، ونحو هذه الكتب .

المرتبة السابعة

كتاب واحد : في تدبير الأصحَّاء : ست مقالات يدرس فيها صحة كل واحد من الأبدان .

* * *

مما يدلنا دلالة قاطعة على أن علماء الطب بالاسكندرية قد أدركوا أسلوب البحث الأكاديمي ادراكاً كاملاً ، وانهم تشرَّبوا الروح الجامعية في البحوث العلمية ، أقوال ننقلها عن القدماء ، وكلها تدل على ان هؤلاء العلماء قد بلغوا من الأسلوب العلمي أرقى مبالغه في عصرهم :

قال ابن أبي أصيبعة في كتاب طبقات الاطباء .

« وهذا الكتاب (أي كتاب تدبير الاصحاء الذي يكون في المرتبة السابعة من مراتب دراسة الطب في الاسكندرية) إذا نظر فيه الانسان ، اضطره إلى أن ينظر في كتاب الأغذية في كتابه في جودة الكيموس ورداءته ، وفي كتابه في التدبير الملطِّف وفي شرائط الرياضة » . . . . .

وفي هذا برهان كامل على أن هؤلاء العلماء قد أقاموا برنامج الدراسة على أساس تركيبي نظيم بحيث يجرك درس كتاب الى الآخر ، فاذا تدرَّجت من واحد الى ما بعده وما يترتب عليه ، انتهيت الى حيث انتهى جالينوس .

على أن الذين نقلوا الطب عن الاسكندرية من العرب ، قد وجهوا الى تدرج الدرس في هذه الصناعة على الصورة التي أسلفناها ، نقوداً قيمة رشيدة ، وعقبوا على الاسكندريين بآراء في درس الطب لا ينقصها المنطق ولا تعوزها رجاحة النظر .

قال أبو الفرج بن هندو : في « كتاب مفتاح الطب » ما يلي :

« هذه هي الكتب التي اتخذها الاسكندرانيون من كتب جالينوس ، وعملوا لها الجوامع ، وزعموا أنها تغني عن متون كتب جالينوس ، وتكفي كافة ما فيها من التوابع والفصول » .

وقال أبو الخير الخمّار ، وهو أستاذ أبو الفرج بن هندو :

« أنا أظن أنهم قد قصّروا فيما جمعوه من ذلك لأنهم يعوزهم الكلام في الأغذية والأهوية والأدوية ، قال — « والترتيب أيضاً قصّروا فيه ، لأن جالينوس بدأ من التشريح ثم صار الى القوى والأفعال ، ثم إلى الأسْطُقُسَّات » .

وقال أبو الفرج بن هندو معقباً على جميع ذلك بنقد هو غاية في الجودة وادراك الحقائق من علوم تلك الصناعة .

« أنا أرى أن الاسكندرانيين إنما اقتصروا على الكتب الستة عشر ، لا من حيث هي كافية في الطب ، وحاوية للغرض ، بل من حيث افتقرت الى المعلم ، واحتاجت الى المفسِّر . ولا يمكن أن يقف المتعلم على أسرارها ، والمعاني الغامضة فيها ، من غير مذاكرة ومصارحة ، ومن دون مراجعة ومفاوضة . فأما الكتب الذي ذكرها الاستاذ أبو الخير بن الخمّار ، فالطبيب مضطر الى معرفتها وإضافتها الى الكتب التي عدّدناها . غير انه يمكنه من نفسه الوقوف على معانيها ، واستنباط الأغراض فيها ، بالقوة المستفادة من الستة عشر التي هي القوانين لما سواها ، والمراقي إلى ما عداها . فإن قُلْتَ : فما حجة الاسكندرانيين في ترتيبهم لهذه الكتب ، قلنا إنهم رتبوا بعضها بحسب استحقاقه في نفسه بمنزلة كتاب « الفِرَق » فإنه وجب تقديمه لتنتفي به نفس المتعلم من شكوك أصحاب التجربة والمحتالين ومغالطاتهم ، ويتحقق رأي أصحاب القياس فيقتدي بهم وبمنزلة الصناعة الصغيرة . فانه لما كانت فيها ثمرارة من صناعة الطب ، كان الأولى أن يتبع بها كتاب « الفِرَق » ويجعل

مدخلاً الى الطب ، ورتبوا بعضها بحسب ما توحيه إضافته الى غيره بمنزلة الكتاب الصغير في النبض ، فانه جعل تابعاً لصناعة الصغيرة ، لأن جالينوس ذكر فيها النبض عند ذكره لمزاج القلب ، ووجب أيضاً تقديمه على كتاب جالينوس الى أغلوقن ، لأنه تكلم في هذا الكتاب في الحميات . والنبض هو أول شيء يعرف منه أمر الحميات . على أن الترتيب الذي ذكر الأستاذ أبو الخير ، إن جالينوس أساء إليه ، هو لعمري الترتيب الصناعي . وذلك إنه يجب على كل ذي صناعة أن يتدرَّج في تعليمها من الأظهر الى الأخفى ، ومن الأخير إلى المبدأ . والتشريح هو علم البدن وأعضائه . وهذه هي أول ما يظهر لنا في الانسان ، وإن كانت آخر ما تفعله الطبيعة . فان الطبيعة تأخذ أولاً الاسطقسات [1]، ثم تمزجها فيحصل منها الأخلاط ، ثم تفعل القوى والأعضاء » .

«فيجب ان يكون طريقنا الى التعليم بالعكس من طريق الطبيعة في التكوين . ولكنا ندع هذا الاضطرار ، ونرضي ترتيب الاسكندرانيين ، لأن العلم حاصل على كل حال ، وخرق اجماع الحكماء معدود من الخرق » . اه .

ونحن نقول من ناحيتنا إن قدماءنا لو لم يخضعوا لهذه القاعدة ، قاعدة أن «خرق اجماع الحكماء معدودٌ من الخُرق» لبلغوا من العلم مبالغ عليا . ذلك بأن خرق اجماع الحكماء كان في جميع الأزمان وفي كل الملابسات ، السبيل الى العلم والى المعرفة .

قال ابن أبي أصيبعة ص ١٠٩ ج ١ :

« للاسكندرانيين جوامع كثيرة في العلوم الحكمية والطب ولا سيما لكتب جالينوس وشروحاتها لكتب أبقراط » . وذكر من أولئك الذين نبغوا في الاسكندرية : شمعون الراهب المعروف بطيبويه . أهرون صاحب الكناش ، ألف كناشة بالسريانية ، ونقله ماسرجيس الى العربي ، وهو ثلاثون مقالة ، وزاد عليها ماسرجيس مقالتين . يوحنا ابن سرابيون ، وجميع ما ألف سرياني ، وكان والده سرابيون طبيباً من أهل باجرمي ، وخرج ولداه طبيبين فاضلين ، وهما يوحنا وداود ؟ وليوحنا بن سرابيون من الكتب كناشه

(١) اذا قرنا ما عناه الاقدمون بالاسطقسات بالخلايا والاعضاء في الطب الحديث ، بان لنا طرف من حقائق الطب عند الاسلاف .

الصغير ، اثنتا عشرة مقالة ، وكناشه الصغير ، وهو المشهور : سبع مقالات . ونقله الحديثي الكاتب لأبي الحسن بن نفيس المتطبب في سنة ثمانية عشرة وثلاثمائة ، وهو أحسن عبارة من نقل الحسن بن البهلول الأواني الطبرهاني، ونقله أيضاً أبوالبشر متّى ، ومنهم :

أنطيلس ، برطلاومس ، سندهشار ، القهلمان ، أبو جريج الراهب ، أوراس ، بونيوس البيروتي ، سيورخنا ، فلاغوسوس .

ومن هذه الأسماء ما هو اغريقي ، وفيها ما هو سرياني .

ثم عيسى بن قسطنطين ، ويكنى أبا موسى ، « من جملة أفاضل الأطباء » . وله من الكتب كتاب الأدوية المفردة ، وكتاب البواسير وعللها وعلاجها .

ومنهم أرس ، وسرجيس الراس عيني ، وهو أول من نقل كتب اليونانيين على ما قيل الى السريانية ، « وكان فاضلاً وله مصنفات كثيرة في الطب والفلسفة » .

ومنهم أطنوس الآمدي صاحب الكناش المعروف « ببقوقويا » . وغريغريوس صاحب الكناش ، قال ابن أبي أصيبعة — « وأكثر كتب هؤلاء موجودة ، وقد نقل الرازي كثيراً من كلامهم من كناشه الكبير الجامع المعروف بالحاوي » .

جاء في كتاب طبقات الأطباء : مترجماً لطبيب عربي من كنانة :

« عبد الملك بن أبجر الكناني : كان طبيباً عالماً ماهراً وكان في أول أمره من الاسكندرية . لأنه كان المتولي التدريس فيها من بعد الاسكندرانيين[1] الذين تقدم ذكرهم. ذلك عند ما كانت البلاد في ذلك الوقت لملوك النصارى . ثم أن المسلمين لما استولوا على البلاد وملكوا الاسكندرية أسلم ابن أبجر على يد عمر بن عبد العزيز ، وكان حينئذٍ أميراً قبل أن تصل إليه الخلافة وصحبه ، فلما أفضت الخلافة إلى عمر في صفر سنة تسع وتسعين للهجرة ، نقل التدريس الى إنطاكية وحرّان وتفرّق في البلاد » .

وغالب الظن أنه منذ ذلك الوقت أخذ نجم مدرسة الاسكندرية يأفل ، وذلك في أواخر القرن السابع الميلادي كما أفل نجم مدارس أثينا عند ما أغلقها في القرن السادس الميلادي الامبراطور يوستنيانوس البوزنطي.

اسماعيل مظهر

---

(١) يعني الاغارقة والسريان .

عانس

وقفت تطالع في كتا ب الكون أسرار الوجود
وتدير مقبلة وامق في صفحة الأفق البعيد
وعلى محيّاها الذهول ولوعة الأسف الشديد
يا ليت شعري ما يجنّ الصدر من وجد جديد ؟
بحرٌ من اللذات يعصف عاتياً ملء الكبود
والشهوة الحمراء في الشفتين تبرق عن وعيد
في كل ربع وقفة الـ ـشكلى لها عند اللحود
والذكريات بصدرها نارٌ تلظت بالوقود
... فلقد شجاها أن شمس العمر تجنح للركود
وطلائع الشيب الذميم تنم عن خطب أكيد
يا خيبة الحلم السعيد وضلة الرأي الرشيد
ولّى الشباب ونفسها لم ترو من كأس الوعود

* * *

قامت تجمجم من أسى أحشاء ذي شجن عميد
وخلال أضلعها سجين ناء من عبء القيود
يهتز من مضض الجوى أسفاً لهاتيك العهود
وتثيره ذكرى الشباب وضاحك العمر الرغيد
فتخاله ناقوس دير راح يقصف يوم عيد
يا خيبة الحلم السعيد وضلة الرأي الرشيد
ولّى الشباب ونفسها لم ترو من كأس الوعود

دمشق — عدنان مردم بك

الاطفال

عشراء الوحوش (١)

قرأت نبأ ذلك الغزال الآدمي فعادت بي الذاكرة إلى أكثر من نصف قرن حين كنت طالباً صغيراً بمدرسة الأمريكان بحي الأزبكية بالقاهرة حيث منحت وقتئذٍ جائزة هي كتاب (قلادة النحر في غرائب البر والبحر) وذلك لفوزي على الأقران في الدراسة في ذلك الزمان.



صورة الغزال الآدمي

ومما أذكره حتى الآن وقد فقدت هذا السفر النفيس وأسفاه منذ جيل أنه من مطبوعات بيروت. وما برحت أذكر كذلك البحث الذي تضمنه بشأن عشراء الوحوش في القرن الماضي. ودار الزمن دورته فوقع نظري ذات يوم على كتاب مدرسي كان يدرسه نجلي الأصغر إذ كان طالباً بمدرسة حكومية — بالقسم الثانوي، وأعني به (الجزء الأول من كتاب المطالعة للمدارس الثانوية، المطبوع بالقاهرة سنة ١٩٣٠ فتصفحته فعثرت فيه على النبذة التالية في الموضوع نفسه: —

على أن لبعض الذئاب ببلاد الهند فضيلة لا يحسن أن نسكت عنها، فقد ثبت أن بعض صيادي الهند عثروا في أثناء صيدهم على ذئاب تتبعها أطفال من بني الانسان كما يتبع الأليف أليفه، والولد أمه وأباه، ولكنهم يمشون على أربع ويلجئون معهم الى الكهوف والمغارات وإذا حزبهم الأمر وأحاط

(١) بمناسبة ما روته الصحف بشأن الغزال الآدمي، رأيت أن أشرح هذا الموضوع فيما يلي : —

بهم الصائدون عووا كما تعوى الذئاب ، ينفرون من الإنسان متى وجدوه ، ويستأنسون الذئب إذا سمعوه . وفي ذلك المعنى قال الشاعر : —

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى وصوّت إنسان فكدت أطير

فقد هؤلاء الأطفال أهلهم بنكبة من نكبات الهند فحنّت عليهم الذئاب وعطفت عليهم عطفها على أجرائها حتى صاروا لا يعرفون سواها ، واعتادوا المعيشة معها وفقدوا كثيراً من مميزات الإنسانية والمدنية . تمّ بحروفه .

وإليك ما جاء في المراجع الانكليزية : —

إن أحدث الحوادث التي من هذا القبيل حكاية الولدين الهنديين المتوحشين وهما آمالا وكمالا اللذان وجدهما الروّاد سنة ١٩٢١ عائشين مع الذئاب في كهف من كهوف تلك البلاد ثم قصة « لوكاس » وهو صبي من أهالي جنوب أفريقية ، ربّته القرود وعاش معها حتى أتيح إنقاذه من وسطها، ذلك أنه وجد حوالي سنة ١٩٠٣ وهو يناهز الرابعة عشرة من عمره ، فصارت حادثته أولى الحوادث الحقيقية للاطفال الذين تبنتهم الحيوانات الثديية وربتهم .

ومما ينبغي ذكره في هذا الصدد أن صحف جنوب أفريقية وأوروبا وأمريكا ، ظلت أكثر من عشر سنوات تروي لقرائها من حين الى آخر . روايات رائعة على ذلك الغلام العجيب . وكان أول حديث بشأنه ، الخبر الذي أرسل من مدينة يوهانسبرج إلى أمريكا ، عن طريق شركة التيمز النيويوركية ، فأذاعته على قرائها في عددها الذي صدر يوم الاحد ٢١ أغسطس سنة ١٩٢٧ . وإليك ما جاء فيه برمته : —

« كان جنديان من الفرسان القدماء في بوليس مدينة الكاب ، يرتادان أحد مجاهل الأصقاع النائية في الجنوب الشرقي من مدينة الكاب ، فصادفتهما شرذمة من القرود ، يلعب بعضها مع بعض ، في حوض كانت أرضه قد مهدت وأعدّت للزراعة ، وكانت القرود تعيث فيها فساداً كأنها أطفال تلهو وتمرح ، فلم يرق عبثها أحد ذينك الفارسين . فما لبث أن طاردها وأطلق عليها عياراً ناريًّا من غدّارته . فولت الأدبار على الفور ، بيد أن مطارديها لحا قرداً منها، وقد تخلف عن قافلته من فرط إعيائه، على حين كان زملاؤه يجدون في الهرب فخيل للفارسين أول وهلة أن ذلك القرد قد أصابه الطلق الناري فجرح فسارعا إليه ليقبضا عليه ، فدهشا دهشاً عظيماً إذ تبينا أنه صبي وطني لا قرد وحشي لا ينقصه شيء إلاّ موهبة الكلام كما يفهمها بنو البشر ، إذ كان يهمهم (١) كالنسناس ، كلما دنا منه الفارسان ليأسراه ،

(١) الهمهمة ترديد الصوت في الصدر

ثم يقفز حولها على الاربع ، حتى تغلبا عليه . وما إن وقع في أسرهما ، حتى سُقِط في أيديهما ، إذ لم يدركا ما ينبغي عمله نحوه .

فعمدا إلى الكفور القريبة منهما قصد الاستعلام عن أهله فأخفقا إذ عرضاه على أبناء وطنه جميعاً فلم يعرفه أحد منهم ، ومن ثمة نقلاه الى معهد من معاهد الأمراض العقلية حيث أقام زهاء سنة ، لم تبدر منه في خلالهـا أية بادرة تنم على ميله إلى الرذيلة ، مع إنه كان عربيداً مشغوفاً بالمراوغة ، وهما من الصفات التي اكتسبها من معاشرته للقرود . ولم يكن في وسعه أن ينبس ببنت شفة . وكان يقدم له ألذ أغذية المستشفى فلم يستطيبها ، بل كان يؤثر عليهـا الذرة الخضراء والتين الشوكي ، فيتناول منهما ثلاث وجبات يوميًّا . وما برح حتى كتابة هذه السطور في أواخر سنة ١٩٢٧ ملازماً عادته القديمة في غذائه ولا سيا شراهته في أكل التين الشوكي ، فقد شوهد في جلسة واحدة يلتهم ٨٩ تينة منه .

ومع حقيقة أنه كان يبدو عليه شدة الميل إلى السير على الاربع ، بدلاً من الوقوف على ساقيه والاعتماد عليهما وحدهما في المشي ، فقـد استدل المشرفون على ادارة المستشفى العقلي ، إنه لا يصلح للاقامة فيه ، لأن كل ما كان يفتقر إليه هو التدريب فحسب . وحينئذ سمع أحد أرباب الأطيان ، من أخيـه الموظف بذلك المستشفى قصة الغلام العجيب . فعرض على ولاة الامور ، أن يتسلمه ويجعله في كنفه ، فلبوا طلبه وسلموه إياه . وكان جسم لوكاس حينئذٍ مشوهاً بآثار جروح يخيـل لناظرها أنها نتيجة عضات أليمة ، لم يعرف لهـا سبب . غير أنه لما تعلم الـكلام فيما بعد ، أخبر سيده صاحب الضيعة أن الندبة (١) الكبرى الباقية في قمة رأسه كانت نتيجة رفسة نعامة .

وظلت نزعاته القردية مبعثاً لاستياء المحيطين به ردحاً من الدهر ، وكان أحب شيء اليه مناوأة القطاط التي تعيش في الضيعـة . بيد أنه كان من بدء أمره يلزم الأدب والطاعـة مع الناس ،والحب للاطفال ، فأصبحوا يعولون عليه كحاضن لهم . وناهيك به حاضناً

أما في الآونة الحالية فقـد أصبح لوكاس بلا شك أنفع خادم في المزرعة المشار اليهـا ، ولا غرو فهو لا يكترث للوقت ، ولا يعوقه الفجر أو المساء عن الاضطلاع بأعباء أعماله . ولذلك يعهد اليه دائماً في أداء أي عمل في أي وقت ، فيلبي الأمر ، ويثابر على المطلوب منه القيام به مثابرة خليقة بالاعجاب ، جـديرة بالثقة المعهودة فيه ، فيفوق أي عامل من العمال

---

(١) الندبة ـ أثر الجرح الباقي على الجلد والجمع ندب وأنداب وندوب

الوطنيين الذين في دائرة اقليمه . وأضحى في وسعه التكلم باللغة الانكليزية كلاماً جيداً إلى حدٍّ ما . ولكنه لا يفهم شيئاً من لغات بني جلدته ، مع أن أعماله تجعله مرتبطاً ببني وطنه ارتباطاً دائماً . وفي هذا الصدد كتب المستر ميكبيس المحرر بجريدة ستار ، التي تصدر في مدينة يوهانسبرج التقرير الآتي نصه بشأن هذا الصبي الغريب ، ثم بعث بما كتبه الى الدكتور دارت عميد جامعة Witwatersrand (وصحة نطق هذا الاسم هي ڤيتڤاترزرانت ، في جنوب أفريقية . واليك فحواه فيما يلي : —

إن القصة التي قصها عليَّ المستر جورج هـ . سميث ، صاحب مزرعة (ثورنهيل) ، وهي مقر لوكاس منذ ٢٨ سنة كانت آخرها سنة ١٩٣١ مطابقة كل المطابقة لما روته عليه الصحف الأمريكية .

وتحرير الخبر أنه في سنة ١٩٣١ صار لوكاس يناهز الأربعين من عمره وأن سيده يعترف بحسن سلوكه ، وجده في عمله وأنه خير معوان له . وهذا الى جانب طاعتـه التامة ، وذكائه المفرط ، مع العلم بأن ذلك الذكاء لم يظهر عليـه إلاَّ من بلوغه الثانية عشرة من العمر ، ثم سرد المستر سميث تاريخ حياة لوكاس فقال : —

قضى لوكاس طفولته بين القرود ، وهذا امرٌ نحن على يقين منه ، ليس بالأدلة التي تحويها هذه القصة وحدها ، بل بالمشاهدات التي شاهدتها بنفسي فيه ، والتي عرفها غيري في خلال الحقبة المديدة التي قضاها لوكاس في ضيعتي . ودليلنـا على صدق أقوالنا ، الصورة الجانبية لوجهه ومراوغته ، وطول ذراعيه ، ونمو ردفيه نموًّا شاذًّا ، وتنكيس رأسه ، واهتزازه دائماً ، والخدوش التي في أعضـاء جسمه وسبابته ، ثم الذعر الغريب الذي يعتريه ، وتكشيره عن أنيابه ، وهذه صفات كلها براهين دامغة تثبت يقيناً أنه كان في حداثته معاشراً للقرود . ثم أن وجهه لا يشبهه في القرود لأنه ولد ميلاداً طبيعيًّـا لاغبار عليـه . وإنما عاداته التي اقتبسها من معاشرته للقرود هي التي جعلته يختلف اختلافاً بيناً عن بني جنسـه . وتكلم المستر سميث في مسألة أصل لوكاس ، فنقل القصـة الشائعة الخاصة به موقناً بصدقها فذكر مضمونها وهو أن لوكاس حينما كان طفلاً صغيراً تركته أمه نائماً ذات يوم وقصدت الى أحد الحقول لتعزق أرض الذرة . ولما أتمت عملها هناك ، عادت إلى كوخها فلم تجد طفلها ، فاعتقدت حينئذٍ أن القرود قد سرقتـه ، وشرح المستر سميث كيف تمكن من ترويض لوكاس قائلاً : —

لقد قضيت أشهراً دون استطاعتي إصلاح حاله ، إذ كان همجيًّـا ميالاً للأذى فوجدت

نفسي مضطراً إلى ضربه بالسوط ولا سيما عند تحذيره من العادات الحيوانية القذرة ومنعه من ارتكابه إياها في الدار وحولها . وكانت هاتيك العادات تشبهها في القطة ، ومنها بغضه للماء وإحجامه عن الاغتسال به ، وما كان في وسعي التفاهم معه لأنه لم يكن يعرف أية لغة بشرية ، فجعلت ألقنه بضع كلمات إنكليزية فلم تلبث ذاكرته وذكاؤه أن تنبها فطرأ عليهما انقلاب عظيم . وبلغ من حسن استعداده للتعلم أن أخذ بعد مضي سنوات ، يسرد لي كيف كان يشترك مع القرود وهو عشيرها ، في سرقة بيض النعام من أداحيه [1] فرفسته نعامة هندية منها فجرحته جرحاً دامياً في رأسه وهو الجرح الذي ما زال أثره باقياً فيه الى اليوم.

***

ولم يكن ذلك الفتى يعرف أي لسان من لغات بلاده ، وانما كانت معلوماته جميعها محصورة فيما تلقاه عني من الكلمات الانكليزية القليلة طيلة إقامته في كنفي » .

أما لوكاس فقد بسط تاريخ حياته كما هو مثبت في السطور الآتية : —

« أصرّح أنا لوكاس الصبي القردي المستخدم لدى المسترج . سميث صاحب ضيعة ثورنهيل بدائرة باذرست (بمركز الكاب) بأني غدوت أستطيع ذكر بعض حوادث مما وقعت لي طوال معاشرتي للقرود ، حيث كان غذائي يؤلف غالباً من الصراصير وبيض النعام ، والتين الشوكي والذرة الخضراء وعسل النحل البري. وقد رفستني في رأسي نعامة بينما كنت أهجم على أدحيها وكثيراً ما لسعني النحل عندما كنت أسطو على خلاياه . وقد تسلقت مرة صخرة شاهقة وعرة منقباً عن اي شيء أتغذى به ، فزلت ساقي اليسرى فهويت الى الحضيض ، فكسرت تلك الساق . ولبثت طيلة معاشرتي للقرود أسير على الأربع وأنام في الأدغال عاري الجسم كل العري . وكنت ذات يوم أبحث عن القوت مع زملائي القرود فأطلق علينا فارسان ، عيارات نارية من مسدساتهم ، فحاولت الهرب بكل ما في طاقتي ، ففشلت ، فقبضا عليّ ، ثم حملني أحدهما على جواده . ويؤسفني الآن أني أجهل المكان أو المركز الذي وجدني فيه ذلك الفارس » . X التوقيع هكذا وهو يقوم مقام لوكاس .

عوض جندي

---

(١) الادحى — بضم الهمزة وسكون الدال — الموضع الذي تبيض فيه النعام وهو على وزن أفعول من دحوت لانها تدحوه برجلها ثم تبيض فيه وليس للنعامة عش .

برلمان الطبيعة

لقد رشّحت يا أفقُ السحابا وقد أجريت رياحك الانتخابا
فأحجم فاقدُ العبرات عنه وأقدمَ مَن له دمعٌ فنابا
فأصبحنا نشاهد « برلمانًا » يردّ الشمس لابسةً نقابا
وينظر للبسيطة وهي ظمأى فيسقيها مدامعه العذابا
ولولا أن أدمعه عِذابٌ لكانت عيشة الدنيا عَذابا
فألق بنظرتيك عليه تعجبْ له ، وكفى به عجبًا عجابا
أرائكُ من رياح الله تحنو على النواب ، حاسبةً حسابا
ودارٌ قد بناها الله سقفًا ولم يجعل لها جدُرًا وبابا
ونوابٌ شحاحٌ في رضاهم كرامٌ إن همُ انقلبوا غضابا
تحاماهم مشيبهمو فشبنا وظلوا في معاليهم شبابا
ويا عجبًا أراهم ، مع صباهم ورفعة قدرهم ، لبسوا اكتئابا
هل اقتربوا فلوا القرب منا أم اغتربوا فملوا الاغترابا ؟
تعالى الله ، هذا برلمانٌ أطاب لنا معيشتنا ، وطابا
رسالةُ غيره كلمٌ ، ولكن رسالته يؤديها « انتحابا »

شاعر البرادى

الصراع

في العالم العربي

يقولون : إنّ العالم العربي قد جنى عليه موقعه الجغرافي شرّ جناية . فلو لم تكن بقاعه مفترق طرق ، لما وطئته قدم أجنبية، وعاش بمنجاة من الحرب والفتح . لكن هذه البقعة من المعمور — العالم العربي — لم تكن ميداناً للصراع العسكري فقط ، بل كانت ولما تزل ميداناً تتصارع فيه الحضارات . والقوى العسكرية التي تتصادم وتتطاحن قد تدول وتتوارى ، لكن أثر الحضارات يترسب في أعماق النفوس وتتوارثه الأجيال ولن يمّحي . ويستطيع الجيل الجديد الواعي المثقف في العالم العربي أن يماجد غيره من شعوب الأرض قاطبةً ، لأن بلدانه كانت بمثابة سراج صبت فيه الحضارات القديمة ، التي رأت النور على شاطىء المتوسط ، زيوت اختباراتها وتجاربها ، وثمرة تفكيرها ، وحتى خيالها وآلامها . ولئن اشتهر الشرق بالجمود ، والمحافظة على قدسية الأرث الذي خلفته الأجيال الغابرة ، فالعالم العربي ، وهو جزء من هذا الشرق ، يتميز بالقلق والتلوّن وقابلية التكيف والقدرة على التمثل . ولئن احتدم الصراع بين فئاته ، وتباينت آراؤها . واختلفت مذاهبها الفكرية ، فذلك دليل على الحيوية ، وغنى التراث المتراكم — من قديم وحديث — والإرادة المتحفزة المتوثبة التي تبغي الأحاطة بكل شيء . ولا بدّ في السياق الطويل من أن يعقب هذا الصراع سلامٌ تنصرف فيه النفوس للإستمتاع بثمرة الحضارات.

إن الحضارة الغربية الراهنة ليست إلاّ درجة في السلم المؤدي إلى الحضارة الانسانية الشاملة . ويستحيل على أي كان أن ينسبها لشعب من الشعوب ، أو أمة من الأمم . ذلك لأن هذه الحضارة قد نمت وعمقت وتفرعت حتى تعذرت علينا الاحاطة بها وفهمها وتمثلها ، فهي قد امتصت مادية جميع الحضارات التي غبرت ونشأت عن مساهمة أمم شتى ، وغمرت أمواجها بدون نزاع مشارق الأرض ومغاربها . وتأتي للحضارة العصرية من الظروف الملائمة

لسعة الانتشار ، ما لم يتأتَّ لحضارة سلفت . ولا يعود الفضل في انتشارها إلى سرعة المواصلات فقط ، وأساليب الإذاعة الحديثة التي انبثقت عنها ، كالطباعة على أنواعها والسينما والراديو ، بل إلى الطابع البشري الذي اتسمت به ، أما الحضارات القديمة فيمكننا ، إذا ما استعرضناها أن نردها الى الشعوب التي تمخّضت بها ، ونتبين طابع الأمة التي ربَّبتها ، ولم تكن تلك الحضارات الشهيرة ، سواء منها التي ظهرت في سوريا ، أو في مصر ، أو في العراق ، خاصة بهاتيك الأمم فقط ، بل كانت ثمارها وقفاً على فئة خاصة من الأمة ، ولذلك بات النصيب الانساني فيها ضئيلاً هزيلاً لا يؤبه له . والى هذا ، لا إلى غيره ، نعزي سبب أقليمية تلك الحضارات ، وركود نشاطها عند تخوم البلاد التي ظهرت ونشأت فيها ، ولا بدّ من أن يكون قد رشح منها شيء الى الأقاليم المتاخمة ، المستعدة لتقبل ألوان تلك الحضارة ، المتشابهة الى حدّ ما في الصفات العرقية المستسرة ، وطبيعة الأقليم ، وتكوين الأرض ، ونظم الحياة الاجتماعية والعقائد الدينية . أما الأصقاع البعيدة فقد استحال عليها أن تتأثر بها وتغمرها أمواجها . وللسبب عينه نرى شعوباً قديمة بلغت درجة عظيمة من الحضارة البشرية ، بينما ظلّ غيرها يتسكع في ظلام الجهل والغباوة . ومن السخرية المؤلمة أن يتخذ البعض هذا السبق سبباً للتمجد والمباهاة . ولو عقلوا لفقهوا أن الأمم كالأفراد لا تولد جميعها في عام واحد أو في قرن واحد ، بل لا بدّ لها من أن تمر في أطوار الحياة الرئيسية الثلاثة من ولادة فشباب فهرم . وأن هناك أمماً قد شبّت باكراً وأخرى قد شبت متأخرة . وإننا لا نستطيع أن نتبين العلل التي أدّت الى النهوض الباكر ، أو التي أخرت الظهور وعاقت النمو . وأكثر الحضارات القديمة لم تبرح موطنها الأصلي وتنتشر إلاّ عند ما كانت تكفلها قوة عسكرية يكتب لها الفوز في الحرب . فالاسكندر حمل إلى سوريا ومصر الحضارة الأغريقية ، وطلع العرب على العالم من جزيرتهم بدين جديد تدعمه قوة عسكرية لا يستهان بها .

أما الحضارة الغربية الحديثة فانها استطاعت أن تنتشر في الأمصار القريبة والبعيدة ، وتغزو العقول والقلوب ، وتطور المجتمعات التي تتسرب إليها ، معتمدة في ذلك على أساليب الاذاعة التي ابتكرتها الصناعة الحديثة من صحافة ومؤلفات ومواصلات لاسلكية وسينما .

ومن أبرز خصائص السينما أنها عملت على نشر ألوان المعيشة ومظاهر الحياة وتنوّع الأزياء واختلاف الألسنة وفنون الأعمال والعمران . وعمدت الى الماضي فبعثت أهليه بسحنتهم وأساليب حياتهم وطرق معيشتهم وشكل منازلهم وغربت وشرقت بهم .

ولقد قدّر للشرق العربي أن يتصل بالغرب منذ أوائل القرن التاسع عشر . لكن هذا الإتصال كان قصير الأجل ، محدود الأثر ، وسبب ذلك يعوّد الى البيئة المتأخرة التي كانت تحيا فيها أمم العالم العربي إبان حملة نابوليون الى الشرق ، والى الذهنية التي كانت تسيّر تلك الأمم في مضمار الحياة ، والعين التي كانت تنظر بها الى الحياة والكون ، والقيم التي كانت تعتبرها وتجلها . ولم يثمر هذا الإتصال في إبانه في مصر ، ولم يكن له صدًى بعيداً في أرجاء العالم العربي ، لندرة الرءوس المفكرة التي تدرك ما تريد ، وتعرف ما لا تريد ، وعدم وجود زعماء حقيقيين يرون الزعامة وسيلة لإجراء الاصلاح الشامل لا واسطة للاستبداد والتعسف وابتزاز الاموال . فهؤلاء لا غيرهم ، يمكنهم أن يسوقوا الشعب سوقاً إلى مناهل العلم وحياض المعرفة ويطلقوا في الوطن تيارات جديدة . وهل هذا القول أكثر ما ينطبق على محمد علي ، ذلك الرجل الواعي المصلح .

ومن شأن الحضارات عندما تتلاقى أنها تتفاعل وتتناحر وتتصارع وتختلف حدة الصراع باختلاف الأمم ومقدار تفتحها وقابليتها للتكيف والاقتباس ، أو انكماشها وانطوائها على ذاتها ، والشبه بين الحضارات . ومما يزيد في الصراع أن الأكثرية الساحقة في كل أمة تعيش بمعزل عن نور العصر الذي تحيا فيه ، محافظة على نظرات فاسدة إلى الكون والحياة لا تتخلى عنها ، ولا تفقه معنى التطور وضرورته بغية الاستمرار في الوجود وكرامة الوجود . وإن هذا الصراع ما زال ناشياً على أشده في العالم العربي منذ مطلع هذا القرن . ومرد هذا الصراع إلى صفة العالمية والشمول التي تتصفّ بها الحضارة الغربية العصرية . فبتنا لا مفر لنا من الانصياع للواقع والاقبال على خير ما في هذه الحضارة من خير يرتجى . إذ يستحيل علينا أن نضع أنفسنا في قماقم ، ونغمض العين ، ونصم الآذان ، كل ذلك كي نتجاهل عمداً التيارات الحضارية التي انطلقت فعمت الأرض بأسرها . ولا بدَّ لنا من أن نمضي جادين في الاقتباس عن الغرب الأوربي والغرب الاميركي ، ومن الخطل القول أن الاقتباس يفقدنا

مميزاتنا الذاتيـة وخصائصنا القومية ويذيبنا في بوتقة الحضـارة الغربية . إذ ما من قوة ، مطلقاً ، تستطيع أن تجعل من الانسان كائناً جديداً غريباً عن خصائصه الأصلية العريقة ، الذاتية منهـا والعِـرْقيَّـة ، لأن المرء لا يقوى أن ينجو من مؤثرات المجتمع الذي هو في أحضانه ، والبيئة التي يقطنها .

ومن مميزات الشعوب المتأخرة ، المتخلفة في مضمار الحضارة ، أن لا تكترث بالحضارة ولا تعيرها اهتماماً ، ولا تعلـق آمالاً كباراً على الغد ، بل تسمر أنظارها في الماضي ، مؤمنة بصلاحه وفساد الحـاضر . وتعتقد أن ما من فكر حديث إلا راود أذهان الأجداد ، وما من مخترع في العصر الحاضر إلا علقت به جذور تمتد الى المـاضي السحيق الذي نجهله . فما لهجت الألسن مرة بالغرب وحضـارته والخصائص الانسانية التي تتميز بها ، والفوائد الجمة التي نجمت عنها واستفادت البشرية منها في شؤون عيشها وحياتها ، إلا سمعنا من يتصدى قائلاً : إن الغرب مدين للشرق ، ولولا الشرق لمـا كان الغرب ، ونراه في العصر الحـاضر يسدد الديون التي اقترضها عند ما كان لا يزال في أول الشوط . وان هذه المدنية الغربيـة ، التي لا تنسب الى شعب معين أو الى سلالة معينة ، لم تنبت في أوربا وأميركا على نحو ما تنبت الـكمأة والفطر ، بل ان بذورها جيء بهـا من الشرق ، سواء كانت روحانيـة أو مادية . ولئن يكن الشرق مهداً لحضـارات قديمة متعددة ، فليس من المقرر الثابت أن الحضـارة الغربية ابنة صحيحة لهاتيك الحضارات أو امتداد لها . فكما أننا نجهل جهـلاً تامـًّا جميع الطبقات الأرضية التي تجتازها قطرة الماء حتى تخرج من النبع ، فكذلك يستحيل علينا أن نعين كافة العوامل ، التي ساهمت وساعدت على نمو الحضارة الغربية وازدهارها .

وها هي ذي الحضارة الاسلامية — العربية بين يدينا ، فهل نقدر أن نعين كمـًّا مبلغ ما أخذت وما أعطت ؟ وهل حدث لأمة أن نهضت دون أن تتوكأ على تراث غيرها من الأمم ، وتستغله أعظم استغلال ، وتتخذه أساساً تشيد عليه صرح حضارتها ؟ ومن الغريب أن يعمد الغرب إلى جميع الحضارات القـديمة ، ويقتبسها وينميها ويتمثلها وينشرها ، خالعاً عنهـا رداءها الأصلي ، ساكباً فيها من روحه وتقاليده وعاداته ، بينما أظهر الشرق عجزه عن الاستفادة مما يوجد بين يديه . ولعل مرد ذلك إلى طبيعة الشعوب الشرقية القديمة التي اعتادت أن تحيط

العلم بهالة من الاجلال والقداسة والاعتبار، وطبيعة الغربيين الذين يعتبرون العلم مجرد وسيلة وأنه وجد لخدمة الانسان واسعاده ولذته. إنهم أنزلوه من برجه العاجي الذي سجنه فيه الشرقيون

ولغيري أن يصوب سهام النقد العنيف إلى الغرب لامعانه في المادية. هذه المادية التي تتجلى في الحروب والنزعات الاستعمارية، والكدح في سبيل المال، والايمان المطلق للعلم وقدرته على تفهم أسرار الحياة والكون. مع العلم أن ينابيع الحضارة الغربية ثرّة صافية عذبة. ويستحيل على المياه أن تظل صالحة نقية من منبعها حتى مصبها. فإنها لا تقوى على دفع الأجسام الغريبة التي تلقى فيها وتعكر صفاءها وتفسدها وتجعلها غير صالحة. أما أنا فانني أومن إيماناً لا يعتوره شك في ان العالم العربي ما اتصل مرة بالغرب إلاّ ونشأ عن هذا الاتصال والاحتكاك والاقتباس عصر ذهبي ونهضة جبارة في جميع نواحي الحياة وأبواب المعارف. وشاهدي على ذلك المساهمة الحقيقية من قبل سوريا ومصر في الثقافتين العظيمتين الخالدتين الأغريقية والرومانية. فقد عرفت كل من سوريا ومصر تينك الثقافتين وأثرت فيهما وتأثرت بهما، وأخذت منهما وأعطتهما. ولا يزال العصر العباسي قريب العهد منا، وان كان الاتصال تمّ يومئذٍ عن طريق غير مباشرة. فلا يجوز أن نقول عن العصر العباسي إنه امتداد طبيعي للعصر الأموي. وليس مرد ذلك الى النظم السياسية وألوان الترف التي سادت المجتمع يومئذٍ، بل الى غزارة المعارف ولونها ونوعها التي صبت في المجتمع العباسي. لقد كان العصر الأموي يتسم بالعنصرية الشديدة المغالية. ولم تكن العنصرية في يوم من الأيام إلاّ ضيقة منكمشة، تؤثر العزلة، بدافع من الأنفة، على الاتصال وما ينشأ عنه من أخذ وعطاء. لقد كان للعصر العباسي نوافذ تطل على الجهات الاربع، فيتنشق النسمات التي تهب من الفرس والهند وبلاد الأغريق. ولعلّ أقوى النسمات وأكثرها شذًى تلك التي هبت عليه من الديار الغربية، تلك التي تفاعلت مع الحضارة الأغريقية. ولهذا جاء نتاجه غزيراً منوعاً ملوناً. ويقيني أن الشعوب الاسلامية والعربية لو لم تستنكف بدافع ديني وعنصري في آن واحد عن اقتباس اللغة اليونانية، لكان لتراثنا القديم شأن يختلف كل الاختلاف عن شأنه الراهن. وانهم أخطأوا وأظهروا كسلاً منبثقاً عن العقيدة الدينية عند ما اقتنعوا بالترجمات — ويغلب عليها السقم والايجاز والهوى — التي كانت تقوم بها الأقليات الدينية التي

ظلت تعيش في البيئة الاسلامية . ومن المؤكد والمعقول أن أولئك المصريين لم يسبروا غور الثقافة الأغريقيـة ، وأن تلك الترجمات لم تتناول إلاّ الامور التي كانت تشتد إليها رغبة الجمهرة من علماء الـكلام ، للذب عن عقيدتهم في بيئة صاخبـة زاخرة بالمذاهب والعقائد والآراء التي اعتمدت البحث والجدل .

ولقـد تنوّعت الأسباب التي حدت بأبناء العالم العربي كي يقفوا من الحضارة الغربية موقف الحذر المتردد المتجفجف . فطفق الـكثيرون يندّدون بهذه الحضارة ، ويلصقون بها التهمة تلو التهمة ، ويعتبرونها مفسدة للأخلاق ، هدّامة للتقاليد المتوارثة ، نزّاعة إلى الالحاد والاباحيـة ، عاملة على الانحلال الإجتماعي . ويجمل بنا ، حسب رأيهم ، أن نبني حول أقطارنا أسواراً نتقي بها الشرور التي تحاول أن تتدفق علينا من الغرب . ففي تراثنا القديم عنها غنى ، وفيه زاد وكفاية . وكما صلح هذا التراث في الماضي ، فـلِمَ لا يعود يصلح في العصر الحاضر ؟

وسبب هـذه الحملة التي يشنها الجامدون الذين آلوا على أنفسهم أن لا يتقدموا قيد شعرة منذ نصف قرن في مضمار الفـكر والرأي ، والذين لا يرون ضرورة في التطور ، ولا يفقهون ناموسه الفاعل فينا رغماً عنا ، هي الفروق العقيدية الـكائنة بين أبنائه والغربيين أولاً ، وإلى الظروف والملابسات التي أدت الى الاتصال بالغرب .

إن تعرفنا إلى الحضارة الغربية لم يحصل بواسطة التطور البطيء في العلاقات والاحتـكاك والتفاعل ، بل إن هـذه الحضارة بكامل جهازها وتقادم عهدها ، وعظيم أسرارها . وغنى تراثها ، قد جاءتنا في إثر الحملات العسكرية الاستعمارية التي كانت تستهدف الشرق العربي . وهـذه المفاجأة أحدثت في أممه بلبلة وتشويشاً ، لأن هذه الأمم لم تكن على استعداد تام لتحتضن وتتمثل حضارة ساهمت فيها أمم شتى طيلة عصور . ولم يدعنا الغربيون وشأننا ، ولم يعترفوا أن لنـا خياراً في الأمر ، بل أطلقوا في مجتمعاتنا تيارات حضاراتهم وأذاعوا مبادىء مدنياتهم،ونسفوا ما لدينا من نظم وتقاليد ، وأحلّـوا مكانها نظماً حديثة لم نستنبط حرفاً واحداً منها ، ولم نفصل تماماً للبيئة التي نقطنها ، وللروحية التي نعتنقها . ومن ميزات الشعوب المغلوبة على أمرها ، أن تنقلب أداة طيّـعة في يد الغالب ، لينة كالعجينة . ينشىء

منها الصورة التي يشاء . وهـذا السلوك لا ينافي حقيقة الجماعات البشرية لدن اختلاطها بعد حروب . فالغالب يسعى ليوطد ويتمتع بالسيطرة التي ينبثق عنها البناء أو الخراب ، التقدم أو الانحطاط ، تبعاً للرسالة التي ينوي أن يؤديها ،وتبعاً لاخلاص الأفراد الذين توكل إليهم تأدية هـذه الرسالة ، ونصيبهم من المثل العليا والانسانيـة . ومما أثار حفيظة المحافظين هو انتشار الحضارة في أرجاء العـالم العربي وتغلغلها في جميع نواحي حياتنا . فظهرت آثارها بارزة في العمران، وأساليب المعيشة ، والأزياء والمشارب ، ومرافق الحياة ، وفنون التفـكير والاجتماع والاقتصاد والسياسة . وما معركة الأدب الجديد والأدب القديم إلا نتيجة متوقعة طبيعية نشأت عن تصادم الثقافتين. وإن اندحار تراثنا أمام الحضارة الغربية ولّـد في القلوب شكوكاً وسوء ظن في صلاح هـذا التراث لمقتضيات الحياة العظيمة . وسوف لا أعني فيما يأتي إلاّ ببحث التطور الذي انتاب حياتنا الفكرية ، والتبديل الذي طرأ على مفاهيمنا في تقدير القيم والمثل ، وأحدث تغييراً كبيراً في نظرتنا الى الحياة والـكون .

ما هي الأسباب التي أدّت إلى انقلاب في مفاهيمنا للقيم والمثل، ونظرتنا للكون والحياة ؟ إن السبب الوحيد الذي أحدث هذا الإنقلاب هو الثقافة الغربية . فقد انصبت علينا هذه الثقافة في أعقاب الحرب العالمية الاولى ، ولما تزل تتدفق . فأتيح لنا أن نتصل بهذه الثقافة مباشرةً، ونَـردُها من مناهلها ، ونتعرّف إلى أسرار تلك الحضارة، والينابيع التي اشتقت منها ، وفقهنا علة النهضات في الغرب على اختلافها ، والانقلابات التي حدثت في سائر ميادين الحياة . لقد علمنا أن الغربي بدأ أولاً يتحرر من القوى الخارجية التي كانت تهيمن على شؤون حياته ، كالـكنيسة ، والدولة الأوتوقراطية ، ومن النظريات الاعتباطية التي يكون الجهل سداها والخوف لحمتها . والفضل في هذه اليقظة التي راودت أجفانه ، يعود إلى احياء الثقافة الأغريقية واقتباسها وتمثلها . وتمكننا من الاطلاع على مرامي المبادىء الديموقراطية ونشوئها في أوروبا الغربية خلال القرنين السابع عشر ، والثامن عشر ، التي أحدثت الثورة الانجليزية عام ١٦٦٨ ، وتمت الغلبة فيها للنظم الدستورية على الإمتيازات الملـكية ، وتكشفت لنا الثورة الأميركانية التي نشبت عام ١٧٧٦ .ولم تكن تستهدف الاستقلال السياسي فقط ، بل كانت تتوخى اقرار المساواة في الحقوق والواجبات . وفي عام ١٧٨٩ أضرمت

نيران الثورة الفرنسية ، ولعلها أعظم الأحداث طرًّا ، التي تمخضت عن حقوق الانسان والأقانيم الثلاثة « المساواة، والحرية، والإخاء » . وما من انقلاب سياسي أو اجتماعي أو علمي حدث عفواً ، بل مهد له أشخاص وقرنا بأسمائهم . فلا تذكر الثورات السياسية حتى يتبادر إلى الذهن إسم كرومويل، وواشنطن، وفولتير، وروسو ... والأحداث الاجتماعية والاقتصادية مدينة لسان سيمون ، وپرودون ، وماركس . . . والثورة على الكنيسة تذكرنا بلوثيروس وكالفن . . . والانقلاب في النظرية العلمية تمّ بفضل چاليكو وكوبرنكوس ونيوتن وداروين وپاستور . . .

ظللنا قروناً تلو قرون ، ونحن نردد مع يسوع « لتكن مشيئتك » ونؤمن مع محمد أن « لا غالب إلاّ الله ». إن هذا الاسراف في الإيمان بالقضاء والقدر، انتزع من نفوسنا مبدأ المسؤولية وحرية المصير ، وقادنا إلى الاعتقاد إن الانسان لاتترتب عليه مسئولية ماضي هذه الدنيا . بل انه مجرد أداة تتلاعب بها يد جبارة تدعى القدر ، هذا الحصن الحصين من العقيدة التي تمخضت عنها الكتب المنزلة ، وقدست أجيالاً ، انهارت انهياراً يكاد يكون تامًّا لدى أول اصطدام بالثقافة الغربية . وأخذ العالم العربي يعيد النظر في كل ما توارثه مجتمعه من أنظمة زمنية وعقائد روحانية . لقد آمن أن الله علة كل شيء في الكون . وبما أن الله علة كل أمر، فباتت جميع قضايا الحياة موسومة بمشيئته ، ولا حول للانسان في تبديلها أو تعديلها . أما اليوم فقد بدأ يعتقد أن الجمعية البشرية ، لا الله ، وما سنته من نظم جائرة ، وأورثت من تقاليد وعادات ومساوىء ومفاسد ، مسؤولة عن نتائج هذا الميراث . فليس الفقر الذي يجعل الحياة جحيماً لا يطاق آفة ربانية، بل هو خلل أخلاقي واجتماعي واقتصادي وسياسي . وليست الطبقات نظاماً أزليًّا ، ثابتاً كالطود ، مقدساً كالناموس ، وليست الأوثان الاجتماعية أرباباً . فالطبقات غير مستقرة ، وهي كالموج لا تنفك تعلو وتهبط تبعاً للعوامل والأحداث والانقلابات التي تنتاب الأمم والشعوب . فنشأ من هذا الاعتقاد ان من حق الانسان أن لا يقف مكتوف اليدين أزاء المساوىء العالقة بالمجتمع البشري . فكما أنه استطاع أن يحرر الطب من الكهانة ، وينزع غشاء الخرافة عن الامراض ، كذلك طفق يفصل ويميز بين المشيئة الربانية والمساوىء الاجتماعية التي سببها الانسان . إن هذا المبدأ الذي تسرّب الى

العالم العربي وغزا عقول أبنائه ، وبات عقيـدة راسخة ، هو أعظم حادث في تاريخ هـذه البلدان منذ أن أقلعت عن عبـادة الأصنام ، وخصت الله وحده بالايمان والعبادة . ولهـذا لا نعدم من يقول إن الغرب زعزع معتقدنا الديني وزرع الـكفر في قلوب شبابنا ، ونسق التقاليد الجميلة التي سار عليها آباؤنا وأجدادنا . والحقيقة أن هذه الحرية الفكرية التي يمتاز بها الجيل الناهض ليست ثمرة الألحاد والـكفر بالله والمثل العليا ، بل هي وليدة الثقافة الحرة الشاملة العميقة التي تنمي في الفرد شخصيته الانسانيـة ، وتجعله يتحلل ويتحرر من العقلية الرجعيـة المسيطرة على مجتمعه ، ويخضع الـكثير من حوادث الـكون ومظاهر الحياة إلى العقل والمنطق .

خضعنا طويلاً وبكل طيبـة خاطر للنظام الأوتوقراطي الأجنبي الذي اعتمد الأساليب الأوليغاركية كي تضمن له البقاء والقوة . ولم نثر يوماً لنقلب نظام الحـكم ونصلحه ونزيل مساوئه ومفاسده ، بل ثرنا مراراً عديدة على الأشخاص في سبيل أشخاص لا ينشدون سوى المنصب والجاه . وظللنا نؤمن ، إلى أن اتصلنـا بالغرب ، ان السلطة تهبط من السماء ولا ترقى من الأرض . ولهذا لما تبرح ألسنتنا تلوك تعابير الذل والهوان والجهل التي خلقها العهد العثماني : الطريق للسلطان والماء للسلطان والأرض للسلطان لهـذا الضرب من الحـكم خضع الشرق العربي أجيالاً ، لا جهلاً منه بمبدأ الدولة ، بل لأن قروناً طويلة من الجهل والظلم والفوضى ، ثلاثة أقانيم تذكر ما ذكرت السلطنة العثمانية تلك الدولة « العليـة » ، قد أرهقته وأماتت مواهبه وخنقت نشاطه

وكما استطاعت الثقافة الغربية أن تنمي الشخصيـة الانسانية في الفرد ، وتنبهه وترشده الى الحقوق التي خصته بها الحياة وتدفعه دفعاً لنيلهـا ، فانها قد أيقظت في النفوس الروح القومية ونشرت النزعة الوطنية . فهل أتيح لشعوب العـالم العربي ، فيما خلا من العصور ، أن تشعر هـذا الشعور وتفكر هذا التفكير ؟ . لقـد خاض ألوف من السوريين غمار الحرب العالمية الأولى الى جانب الترك العثمانيين ، وهم يعتقدون انهم لا يحاربون إلاّ في سبيل قضية مشتركة وهدف واحد : مصلحة السلطنة العثمانية وتثبيت دعائمهـا . ولم تمض إلاّ سنوات قلائل على انتهاء الحرب حتى اجتاحت سوريا الشمالية ثورة ترمي الى طرد الأجنبي واجلائه

عن البلاد ، ولئن كان نصيب تلك الثورة الفشل من الناحية العسكرية الصرفة ، لكنها عملت على إنماء الشعور القومي .

إننا بلغنا المرحلة التي بلغها الشعب الفرنسي قبيل عام ١٧٨٩ . ويساورنا الآن ما كان يساوره يومئذٍ من رغبة في الاصلاح يشمل شؤون الاجتماع والاقتصاد والسياسة ، ونقمة على النظام الأوليغاركي المستفحل في أقطارنا على أراخين السياسة الذين جعلوها عملاً متوازناً خاصّاً بهم محتكراً في أسرهم . إن الطبقة الشعبية في العالم العربي بدأت تستيقظ من سبات طال أمده وتتعرّف الى حقوقها في الحياة . ويتساءل أولئك الذين يرومون انهاض الشعب ويرغبون في الاصلاح الاجتماعي كما تساءل « سييّس » : «ما هو الشعب ؟ — إنه كل شيء — وأي شأن كان له في النظام السياسي ؟ — لا شيء ؟ — ماذا يبتغي ؟ — أن يصبح شيئاً ذا قيمة » هذه الفكرة التي نشرت شراعها في العالم العربي هي بادرة التحرر من جميع الكوابيس وألوان الطغيان والظلم التي اتصفت بها القرون المنصرمة .

وربّ قائل يقول : وهل النظم الاجتماعية الحديثة التي انبثقت عن الحزبية خيرٌ من الأوتوقراطية التي ودعناها منذ أمد قصير ؟ لقد كان الملك يعد نفسه مسؤولاً أمام الله عن أعماله ، وليس للشعب أن يتطاول لمحاسبته ، أما الزعيم الحديث الذي تمخض عنه الحزب الذي يمثل إرادة الجماعة ، فمن ذا الذي تحدثه نفسه في محاسبته أو خلعه ؟

مما لا مشاحة فيه ان الاحزاب السياسية ظاهرة جديدة في مجتمعنا الحديث . وهي من جملة الأساليب التي تسربت إلينا من الغرب . فهي تقوم على تكتلات من سائر طبقات الأمة وتستند على مبادىء تستهدف خير المجموع وترمي الى اصلاح حياة الأمة من جميع نواحيها وهي ما أنشئت إلاّ لتقضي على تلك التكتلات التي يزخر بها العالم العربي ، والتي تتغذى وتستمرىء من اعتبارات طبقية اقطاعية بالية ، ونظرات طائفية متحدرة من الحذر والذعر والمقت والتكتلات الطائفية هي بمثابة دائرة مغلقة لا يتفاعل فيها تفاعلاً مطلقاً حرّاً إلاّ أفراد تلك الطائفة . وسوف تكون هذه الظاهرة حادثة فذّة في تاريخنا الحديث وسبباً من أعظم الأسباب التي تساعد على تطورّ الحياة في أرجاء العالم العربي . لقد يتم ذلك إذا أطلقنا في أقطارنا تيارات المبادىء الصالحة السامية التي تتيح للإنسانية الكامنة في كل بشري أن

تتفتح وتتآلف وتنمو وفق ميولها ونزعاتها ، لا التي تحارب النزعات الانسانية الصميمة كحرية العبادة ، وحرية العمل ، وحرية الوجود ، وتضحي بهذه المثل ، التي لا يسمو الانسان إلاّ بها ، لقاء هدف اقتصادي أو سياسي . والحزب بمعناه البعيد العميق مناوأة لأحكام القدر . هو سلم ليرقى عليه من لم يقدر له أن يولد في مهد النعيم ويرث الأمجاد والإمتيازات . وإننا لا نزال ننظر بامتعاض الى التكتلات الحزبية الحديثة ، ذلك لأنها أكثر مما تتآلف ممن ينشدون العدل الاجتماعي وإزالة المساوىء والغبن ، ولا نزال متأثرين بإرث الأجيال الغابرة التي حفلت بالتكتلات التي لم تستهدف سوى اغتيال القائم على شؤون الحكم واستلام المقاليد من يده وممارسة الأعمال التي يمارسها دون إحداث أي تغيير في الجوهر .

وليست الغرابة أن تتأثر المرأة بموجة التطور ، بل الغرابة أن تبقى بمنجاة من هذا التأثر والاتصال والاحتكاك . فلقد أتاح لها الاطلاع على الحركات النسائية في العالم ، ولكنها العلم الذي انتشر على درجاته ، ونشوء الصناعة الحديثة وازدهار التجارة وتنوعها ، أن تعمل وتكسب وتستقل اقتصاديًّا . كل هذه العوامل حدت بالمرأة أن تطالب بالإعتاق من ربقة التقاليد لتعيش في مساواة تامة مع الرجل . ولكي تبلغ هذه الأهداف لم تجد بدًّا من التكتل والتعاون وإنشاء المنظمات النسائية بغية نقل حقوق طبيعية قد سلبها إياها المجتمع البشري ، وبلوغ إمتيازات خص بها الرجل من دونها وما فتىء يتمتع بها منذ أزمنة طويلة متغلغلة في القدم . فهل تستطيع المرأة أن تتغلب على سلطان التقاليد التي اعتبرت الرجل متفوقاً عليها في كل شيء ؟ وهل تستطيع أن تتملص من وطأة النصوص الدينية التي حرمتها المساواة الحقوقية ، والإقتصادية ، والإجتماعية ، التي قضت عليها باعتزال المجتمعات والتحجب ؟ إنّ العامل الاجتماعي المتوارث والوازع الديني ، قد ولدا في قلب المرأة التي تعيش في بيئتنا شعوراً دفيناً إنها دون الرجل : وثبطا همّتها كي لا تطمح الى ما يطمح ، وإنها لن تبلغ من الكمال ما يبلغ لأنها لم تؤت من المواهب ما أوتي . فوقر في ذهنها أنها خلقت لتسير في ركابه ، لا لتكون له ندًّا ، وأن تقوم على خدمته لا ليتعاونا في مضمار الحياة . فقنعت بهذا الحظ ولم تخطر الثورة يوماً ببالها . وإذ التاريخ الجلي وغير الجلي لم يسجل

ثورة للنساء على الاطلاق . وليست العبرة في الحوادث الفردية المتقطعة الفورية التي تحمل طابع التمرد والغضب أكثر مما تتسم بميسم الثورة على أوضاع لا ترضي ونشدان أهداف تخلق الحياة خلقاً جديداً .

لا يزال الكثيرون يعتقدون أن المرأة الصالحة الفاضلة هي التي تلوذ ببيتها ولا تبرحه مطلقاً ، وتتحجب عن الرجل كي لا تثلم عفتها ونقاوتها ، وتجهل كل شيء . وقديماً وجد على قبر امرأة رومانية : « غزلت الصوف ولزمت بيتها » . لئن كان هذا الضرب من الحياة هدف المجتمعات القديمة أو المتأخرة ، فلم تعد هذه المبادىء السلوكية تصلح أن تكون أساساً نقيم عليه صرح حياتنا العائلية . فالمرأة المثلى في الوقت الحاضر ليست تلك التي تطغى فيها عناصر الأنوثة على عناصر المرأة ، وليس الفخر أن تجهل ما جلّ ودقّ من شؤون الحياة وأسرار الكون ، وليست تلك التي تعش عبئاً على ذويها وزوجها ، بل تلك التي لا تفيدها الأنوثة إلاّ لتؤكد خصائصها وتبقيها متميزة عن الرجل في كثير من الأمور ، والتي تسعى لكسب المعرفة وتحصيل العلوم وتذوق الفنون على اختلاف أنواعها . وسوف تشتد الحاجة الى المرأة بمقدار ما تتطور امكانياتنا الاقتصادية وأحوالنا السياسية والاجتماعية . ثم ان الآلة قد عدت على المرأة وزاحمتها وبزّتها فيما اختص بها من الأعمال من كساء ومأكل ومشرب . فأصبح لا مفر للمرأة من أن تخرج الى الحياة لتقضي على السأم الذي ينتابها ، وتتعرّف العالم الذي عرفته في الكتب .

هذا هو الصراع العنيف الذي شرعت به المرأة في العالم العربي منذ مطلع هذا القرن . ويقيني أن المصلحين في بلادنا سوف يتساءلون عما اذا كانت المحافظة على وضع متوارث وعقائد متوارثة ، قضت بالتفاوت الاجتماعي بين الجنسين ، لا تؤخر نشوء المجتمع الأمثل . فهل يكتب النصر للرجل تعضده تقاليد وشرائع مقدسة وتفوّق جثماني ، أم يكتب الفوز للمرأة ولا سلاح لديها سوى فتنة خالدة ، وإيمان مطلق بالحق ، وكفاءة مغمورة لو انطلقت من عقالها لقلبت أسس الحياة كلها وغيرت وجه التاريخ ؟ ! !

صافيتا (سوريا) الياس يعقوب

تلمس في الظلام

روعة في الظلام تقري فؤادي ذكريات تسمو لأعصر عاد
خاطرات فاض الجلال بجنبيها وصوت مجلجـــل الأرعاد
أشأم الركب واثقاً بهداه ما لقلبي يجد في أنجاد؟
أيها الكوكب البعيد أفض لي بسناً خاض شاسع الأبعـاد
كم ملايين عالم قد تلاشى وهو في سيره لهذي العباد
يا ترى هل درى بأني سآتي حين شقّ الأثير شطر بلادي؟
أم درى انني أضيع أهدافي فقد جاء آخذاً بقيـادي
تهت واضيعتي فذي السحب قد وافت لتغتاله على ميعاد
أشرقي يا نجوم فالقلب حيران وقد غشه غنـــاء الحادي
خلص الحي تحت موج غطيط وغزتني الأحلام دون رقاد
أأنا النائم المجد بأحلامي أم الحي...؟ قد أضعت رشادي
أنزفت خمرةَ الحمى ثورة الحق فهل نافعي الغداة حيادي؟
أنا في باطلي استرحت فلا لاح ليوم الرشاد فجر هادي
واذا كنت في نعيم من الأحلام فليذك محـــرقي ايقادي
أنا في جنة بوحي خمار الروح فليمس في الجحيم مهادي
شيدتها خواطـــر باسمات ورست من تفاؤلي بعماد
ركبت سفرتي مهامه يهماء وأضنى المطي طول السهاد
ويل قلبي تبددت بسمات الروح إذ ريع صبرها بنفاد
أتعب القلب باجتراء المآسي وزماني يأبى نفـاد الزاد
ربّ موج قد خضته بادي الأهوال إذ هاج مرعب الأزباد
فتعاليت عاصفاً يملأ البحر اضطراباً ولا يضام بعادي
ثم إذ عدت صارخاً بالشواطي ردَّد الصخر رهبـة ارعادي
ألفت روحي الظلام أنيساً إذ أتى النور بالمساوئ بادي
واحتست بالسكون سلوى بأرواح تغنت سحرية الأنشاد

وإذا الوحش قد أخاف فلم يمسِ كبغي الانسان للفتك صادي
وألفت القبور إذ ميتة الأرواح شرٌّ من ميتة الاجساد
أيها الراحلون خلفكم العمران ما انفكَّ منقناً بالفساد
ولقد طفت والظلام بأكوام تراب زانت قرار الوادي
ته جلالاً فما أجلك وادي فيه دكت حواضر وبوادي..!
كم قبيل زاحمته بقبيل وبلاد طحنتها ببلاد ...!
(ربَّ لحدٍ قد صار لحداً مراراً ضاحكاً من تزاحم الاضداد)
أيها الراقدون هبوا لعصر النور ما يومنا بيوم رقاد
أوَما آن للقبور انبعاث في عصور أنطقنَ صلد الجماد
غير ان الحياة عالم نقص ووجود مصيره لفساد
أترعت كأسها زعافاً وشهداً أرأيت الأشواك في الأوراد ؟
لا تخالوا ابتسامها غير هزء ما حنى العطف منجل الحصَّاد
عبراً للوعاة يتلو فم الدهر سطور الابراق والأرعاد
غير أن الحجيج من ضجة العيس أضاع المرمى وضلَّ الحادي
هو ذا الله في الوجود تجلى ببديع الآثار للروَّاد
في حياة النبات ، في عش الطير وفي نغمة الهزار الشادي
قال قوم أنى تعود جسوم أعقبت نارها خمود رماد ؟
وهبوط النفوس للعالم السفلي فيضٌ فلم ترد الأيادي ؟
غير ان الزهور تفنى ولكن مودعات البذور سرٌّ من السرّ (المعاد)
وكذاك الأرواح تهبط للأرض ليكسى الكمال (ذو استعداد)[1]
انما الصعب أن تسيرك الروح بعيداً عن غائل (الاتحاد)
ربما راعه الوجود فهلاَّ رحموا منه صرخة الميلاد
والذي حير العقول (وجود جوهري مجرد) غير بادي

(بغداد) ضياء الزهيلي

(١) كما يرى فلاسفة الاسلام وابن سينا في عينيته

قصة مترجمة

أم من الجحيم

مرسيليا ، ذلك الميناء العظيم الذي يؤمه آلاف السياح والبحارة كل يوم ، ذلك الميناء الذي يجمع بين الفضيلة والرذيلة ، فبجانب كنائسه الأثرية ، ورجال الكهنوت الأتقياء ، تقع الأزقة المظلمة حيث تمرح الرذيلة في واد خصيب مفعم بالغانيات اللواتي يبعن ذلوبهن واجسادهن ، حيث يشرى الهوى الرخيص ، وتباع الأفئدة والأجسام . ومن هذه الأزقة المظلمة ، زقاق النساء ، مُقبض كئيب فيه زمرة الساقطات ، وقد جذب اليه رواد اللذة البهيمية ، فتراه بحاناته الصاخبة ، ودور اللهو المتناثرة على جانبيه ، كأنه مربع الشيطان ، أو قطعة من الجحيم . وفي منتصف ذلك الشارع يقوم منزل سكنته أسقط النساء أخلاقاً ، وأرذلهن طباعاً ، وأبعدهن عن الانسانية صفات ، كما أنه أردأ المنازل بناءً ، وأوحشها مكاناً فكأنهما صنوان ، هي من ناحية الأخلاق ، وهو من ناحية البناء . إسمها « جورجيت » دنت على الأربعين ، ممتلئة الجسم متوسطة القامة ، تحمل في وجهها طابع جمال قديم أفسدته الخمور وحياة اللهو والمجون . ولتلك المرأة عشيق يدعى « جون » وهو بحار قديم ضخم الجثة ، فاسد النزعات ، ذري الهيئة ، ذا وجه متغضن قبيح ، طبعت فيه ندبة طويلة هي بقية معركة أصيب فيها بطعنة سكين ، وهو فوق ذلك من الرجال الذين اتخذوا من قوتهم وشراستهم سبيلاً للتسلط على النساء الساقطات وابتزاز المال منهن .

وفي الغرفة الوحيدة بذلك المنزل التي يمكن أن تكون سكناً لآدمي ، أو مأوى لحي يرزق أو لا يرزق ، جلست جورجيت الى جانب عشيقها جون يتناجيان الغرام مع كؤوس من خمر النبيذ ، وتجول في ذهنى كل منهما أفكار عتيقة ، طالما منى كل منهما نفسه بتحقيقها ، يحدوها اليأس لحظة ويدفع بهما الأمل أخرى . أمّا تلك الأحلام والخيالات فكانت لكل منهما خاصّة بنفسه .

— لمَ هذا السكوت يا جورجيت .

— أفكر . . . لا . . . لا ياجون . . . ليس ببالي شيء .

— إذن ، فاذا ? أجئت لأراك كتمثال صامت ، أم هناك رجل آخر ! ! !

— كلاً ياجون ـ أقسم لك إني لم أفكر في رجل سواك ولم يخطر بفكري إنسان غيرك
وهنا يميل جون الى الوراء في مقعده بارتياح ويتناول كأسه فيشرب به حتى الثمالة ، ويمسح شاربه السكث بطرف كمه القذر .
— اليك مفاجأة سارة ، سوف نتزوج ياجورجيت .
— نتزوج ! أتهزل أم لعبت برأسك الخمر ؟ .
— فضحك جون وانطلق يقول بصوته الأجش ، كلاّ لا تلعب برأسي الخمر ، ولكن جمالك الذي لعب بقلبي . قلبي الذي لم تتمكن مخلوقة سواك من الدنو منه ، فحسنك قد ملك عليّ مشاعري وطار بلبي ، لست هازلاً ياجورجيت — أتقبلينني زوجاً .
— بالطبع ياجون . فان نفسي لا تتوق إلى أكثر من هذا . . . ولكن . . .
— ولكن ماذا .
— لا بدّ لي من الذهاب إلى أمريكا .
— أمريكا ، وما علاقتك بأمريكا ، وقد ولدتِ وعشتِ في مرسيليا فلم تغادريها قط ؟
— إنك لا تعلم ياجون ، فهناك دافع قوي يرغمني على الرحيل في أقرب فرصة .
وعلى بعد خمسة آلاف ميل من مرسيليا ، جلست فتاة في هايد بارك بأمريكا تردد تلك الكلمات « لا بدّ لي من الذهاب إلى مرسيليا » . وهي فتاة طويلة القامة ، ممشوقة القد هيفاء ، ذات عينين زرقاوين فيهما سحرٌ ودلال ، ولها شعرٌ أصفر جميل مسترسل فوق كتفيها كأنه خيوط من الذهب ، وفم كالياقوت إذا أفتر فمن أسنان كأنها اللؤلؤ ، ووجه باسم ضحوك مليء بحرارة الشباب ، وبجانبها جلس « ديك موريس » وهو فتى وسيم الطلعة ، مهذب الأخلاق ، مثقف راقي التعليم ، بسم له الحظ فجمع الى الشباب والمال سعادة الحب وراحة البال فهو « وتيريز » متحابان .
— أريد أن أرى مرسيليا يا ديك .
— لا مانع عندي يا عزيزتي تيريز ، فلنمض شهر العسل هناك .
— لا ياديك ، لقد أسأت الفهم ، إني أريد أن أذهب الى مرسيليا بمفردي قبل الزواج ، لأن هناك أمراً هامًّا يدعوني إلى ذلك .
— ولكني ما سمعتك يوماً تذكرين مرسيليا ، ولم أعهدك أبداً تتوقين للذهاب إليها .
— لقد علمت أشياء كثيرة بعد وفاة المرحوم والدي ، فإن والدتي يا ديك ما زالت حية ترزق .
— ما زالت حية ، وتقيم بمرسيليا ؟ كلنا يعلم أنك يتيمة الأم منذ فجر حياتك .

— هكذا كنت أعتقد ، ولكن ظهر لي من خطابات لوالدي إطلعت عليها بعد وفاته أن لي أمًّا ! أمًّا لا تزال على قيد الحياة ، وتعيش في مرسيليا ، فصممت على أن أرى تلك المخلوقة التي أوجدتني في الحياة . أراها يا ديك فأنعم بعطفها وحنانها وقد حرمت منهما منذ طفولتي .

— ولكن ما السبب الذي دفع والدك إلى إخفاء تلك الحقيقة عنك .

— لست أدري ، وظني أن كان هناك خلاف شديد بين أبي وأمي دفعه إلى إخفاء أمرها عني وإبعادي عنها، وقد ظهر لي ذلك من خطاباتها وتوسلاتها إلى والدي ، واسترحامها إياه ورجائها الحار الشديد أن تراني . أليس من واجبي بعد كل هذا يا ديك أن أراها ؟

— أتعلمين أين تسكن .

— نعم ، إنها تسكن المنزل رقم ١٦ بزقاق النساء بمرسيليا .



وفي المنزل رقم ١٦ جلست جورجيت بجانب عشيقها يتبادلان الحديث .

— أما زلت مصرّة على السفر لأمريكا .

— بكل تأكيد يا جون.

— إذن فلنتزوج أولاً ونرحل سويًّا لتمضية شهر في ربوعها .

إرتسمت على وجه جورجيت أمارات الفرح والانشراح ، وارتمت بين يديه تقبله في حرارة وحنان.

— أحقًّا ياجون سنصبح زوجين شرعيين، ونقف أمام القسيس، أنت بثوبك الأسود، وانا بثياب الزواج البيض ؟ . . . ثم تنحدر على خديها دمعة كبيرة .

— كفى هذراً ، إذهبي فأتنا بالخمر والنبيذ لنشرب نخب زواجنا .

تقبله جورجيت وتهرع الى الخارج لتشتري خمراً ونبيذاً بينما ، ينتظرها جون مشعلاً سيجارته لاعقاً شفتيه انتظاراً للخمر في لهفة ظاهرة .

— إنك تضحكينني . ما بالك تطرقين الباب ، أذلك من عادتك . . . ادخلي

تدخل تيريز فيهولها منظر المنزل القذر وبشاعة الرجل الذي فزع من مكانه حال رؤيتها كأنه ذئب جائع أنقضّ على فريسته . فتراجعت تيريز الى الوراء بخطى مرتبكة ، وقاب ملؤه الشجون ، وأخذ صدرها يعلو ويهبط كأنه كير الحداد ينفخ بشدة ، وقالت لي في انزعاج :

— أهذا منزل مدام جورجيت ؟

— «هاها ، وماذا تريدين من جورجيت ، تَـعَـالَـيْ يافاتنتي» . واندفع نحوها مسرعاً قبل أن تولي منه وضمها بين ساعديه القويتين ، فمضت تصرخ وتستنجد ، ولكن حملها ذلك الوحش الآدمي وألقى بها على السرير وارتمى الى جانبها محاولاً اسكاتها .

— « اتركها يا وغد » _ فإلتفت جون فرأى جورجيت على عتبة الباب وبيدها زجاجة الخمر تهدد بها وتتوعد وعيناها تشتعلان غضباً وغيرة وقلبها يخفق بالندم والحسرة .



ترك جون تيريز وتحرك نحوها في هدوء وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة ساخرة .

— أتحدثينني بهذه اللهجة يا عاهرة . ويرفع يده ويهم بلطمها فتهوي على رأسه بالزجاجة فتتحطم ويسيل منها الخمر مختلطاً بدمه . فيفقد الوعي وتجره جورجيت الى الخارج وتوصد الباب ، ثم تعود الى الفتاة تريد افتراسها وتتمنى لو تمزقها إرباً إرباً ، فقد خيل اليها أنها عشيقة أخرى لجون ، وهالها أن تجرأ على زيارته في منزلها .

— وأنت أيتها الفاسقة . . ماذا تريدين ؟

— لا أريد شيئاً يا سيدتي ، لا تسيئي ظنَّا ، فقد أخطأت منزل مدام جورجيت .

— لم تخطئي ، فأنا مدام جورجيت وماذا تريدين من مدام جورجيت ؟

وتنطلق في قهقهة عالية فتدوي تلك الكلمات في أذني تيريز فنظرت الى المرأة بعينين يخال إليك أنهما تصلبتا ، وظلت كذلك برهة كأنها الدهر ، وارتمت على السرير ودفنت وجهها في الوسادة . وجسدها البض يرتجف من الانفعال ، وتمتمت بكلمات كالمخبول . . . أ أمي هذه الما . . . يا لتعاستي ويا لشقائي . . .

— سمعتك تقولين أمي . . فما بال والدتك .

— ويلاه . . . أنت أمي .

— « أنا أمك ! أأنت تيريز ، حبيبتي تيريز ، تعالي يا بنيتي لأضمك وأقبلك ألف قبلة فأروي ظمئي ولوعتي من وجهك الفتان وعينيك الجميلتين . يا لها من حلاوة اللقاء بعد طول الحرمان » وتندفع نحوها فاتحة يديها لترتمي في حضنها فتدفعها تيريز باشمئزاز واحتقار فتدرك جورجيت الحقيقة المرّة المؤلمة ، وتتذكر أنها عاهر من بنات الشيطان وان تلك الفتاة البريئة الجالسة اليها تأنف من الانتساب اليها وتحمر خجلاً حتى من التفكير في أمومتها .

— يطرق الباب ، ويدخل ديك موريس ، ويتقدم الى تيريز ، مدهوشاً صائحاً . « تيريز ،

هل أصابك مكروه ، يا إلهي : ما هذه الغرفة ، ومن تكون المرأة » .

— هي أمي يا ديك . ويلاه لقد تحطم مستقبلي واسودت أيامي ، فلن أستطيع بعد أن علمت تلك الحقيقة أن أقرن اسمي باسمك .

— دعينا من كل هذا يا تيريز ، ولا تكوني عنيدة ، حبي لك لا يقوم في سبيله شيء

— كلاَّ يا ديك فلن أرضى لك بهذا ، لقد كان المرحوم والدي محقًّا في ابعادي عنها ليتني ما رأيتها وما علمت بمكانها .

— « أمات أبوكِ يا تيريز ؟ وتنظر الى ابنتها نظرة تنطوي عن أمر خطير .

— نعم ، رحمه الله .

— أما وقد مات فلا داعي لاستمراري في تمثيل هذا الدور ، وتحطيم حياتك، فاطمئني يا صغيرتي ، فاني لم أكن لكِ أمًّا ولم يكن غرضي الاَّ ابتزاز المال من والدكِ .

— أحقًّا ما تقولين ؟

— نعم ، أيتها الصغيرة ، كنت أعمل خادمة عند والدتك وألممت بالشقاق الذي كان بينها وبين أبوكِ ، وبعد موتها اعتزمت الاستفادة من هذا الموقف ماليًّا . أما الآن فقد انتهى دوري فاذهبي يا صغيرتي ، فان والدتكِ كانت امرأة من أشرف العائلات وأرفع من أن تحيا هذه الحياة التي أحياها .

انحدرت على خدي تيريز دموع الفرح وصاحت مهللة : أسمعت يا ديك ؟ انها القصة .

ابتسم ديك وقبلها ولكن لم يخدعه هذا التمثيل من جورجيت ، فان الشبه بين الأم والابنة كان أقوى من أن يحتمل الشك . تقدم الخطيبان الى جورجيت لمصافحتها وفي عين تيريز نظرات الفرح والانشراح ، وأما ديك فقد حدجها بنظرة كلها إعجاب وتقدير لتلك التضحية النبيلة .

* * *

وفي الصباح ذهب ديك الى منزل جورجيت ليشكرها ويقدم لها مساعدة أو ليبحث لها عن عمل ، فوجد بالباب جمعاً يتصايحون ، فتقدم من أحدهم سائلاً ، فيعلم أن جورجيت الفاتنة قد انتحرت لأسباب لا يعلمها أحد . فيعود ديك متثاقلاً مطرقاً برأسه ويذكر أن هذه المرأة الساقطة ، إنما كانت تحمل بين جنبيها قلباً من ذهب .

محمد هلال مظهر

عالم العين

شعر علمي

هي العين أعجوبة الخالقِ تفنّد سفسطة المارقِ
تجمّع شمل العوالم في مركز بؤرتها الدائق[1]
تلاقت بكوّة انسانها رؤوس الأشعة من شارق
بها تتصيّد أقصى النجوم وتختطف اللمع من بارق
فلا تتصاعد الى شاهقٍ لك السر ينقضُّ من شاهق
فتتلوه في صفحات الضيا يذبذب مع موجه الصافق

* * *

هي العين باب الخيال الذي يرحّب بالشبح الطارق
فزاحم فيه الخيالُ الخيال ولاحقه انقاد للسابق[2]
خلايا الدماغ تمثلنها تماثيل للخاطر الرائق
فعانقها الفكر يشتاقها عناق المشوّق للشائق
وشاد بها العقل عرشاً يُنصّ لدولة منطقه الناطق
أذلّ الشعور لسلطانه وأعلى الضمير على العاتق
ولم يتمرّد سوى شهوة تعيثُ بطائعها الفاسق

* * *

ألا كم فُتنتِ بسحر الجمال وكم كنت مفتتن العاشق
وليس الجمال سوى ما رسمت ، رسومُ تخيلك السارق
سرقتِ الطبيعة شكلاً ولوناً ولفقتِ رسمك كالـلافق
وزورت حق الحقيقة حتى تماديت في فنك الماذق[3]
حسبت المجاز أتم وأسمى وفنك أفوق من فائق
يقوم الحقيق لدى ناقدٍ ويهوي مجازك من حالق
خلقت من الوهم حسناً خلبتِ به الظن كالخلّب البارق
وما الحسن في قسمات الحبيب بل الحسن في مقلة الوامق[4]
ويختلف الذوق بين الأنام فما في الذوق بل الذائق

---

(١) الدائق الفائر يقال دنقت العين اذا غارت (٢) اشارة الى تسلسل الافكار وائتلافها . فكل فكر أو خيال ينبه الى غيره (٣) الماذق الكاذب (٤) الوامق المحب

مليحاتٍ مج لغيرك والحب يملي البديع على النامق[1]

* * *

وما الشعر الاَّ الذي كنته من السحر للشاعر الحاذق
ففيك المباني ومنك المعاني ولستِ بيان الحجى الصادق
وكم كنتِ للقلب أدواءه وحملتِ وزرك للخافق
وبرئتِ في الروض عيائة وجرَّم في سجنه الساحق[2]
أفي العدل أن تنعمي بالجمال ويلتاع في وجده الماحق[3]

* * *

عجيبٌ : تراشقنا بالسهام وتبقى السهام مع الراتق
ويحرق قلب الشجي لحظها وينجذب القلب للحارق
كأنَّ القلوب فراشٌ ترامت على وهج ناظرها الحاذق
وما الكهرباء كهاروتها به رعدة الوامض الصاعق
اذا فاض شعشعُ ألحاظها يفيض غرام الفتى الرامق
أتعرض تبغي مداراته ؟ فحسبك ذكراه من راهق

* * *

قبلت الغرام وأعطيته كذوبٌ يمنُّ على صادق
وكسر الجفون وسكر العيون هما شيمة الفاتن المالق
خفوق الفؤاد وطول السهاد هما لذة الهائم الغارق
لكم خاب فيك شهيُّ المنى وغررتِ بالآمل الواثق
إذا عشقوا كحلاً فيك تهت وأسرفتِ في كحلكِ الماذق

* * *

وما أنتِ الاَّ حليفة ضوءٍ يريك سنى مجدك السامق[4]
فلولا الضياء لما كنت الاَّ سجينة سجن الدجى الغاسق
إذا غاب عنكِ يغيب الوجودُ وتشقين في وهمكِ الزاهق
فلا تتجني على القلب وهو المغذيك من دمه الدافق
ولا تطمعي النفس بالشاهيات فتهفو اليها بلا فارق
وعطفاً عليها ورفقاً بها كعطف الرفيق على الرافق
فيا كوكب الله في أرضه جلوتِ لنا عِظم الخالق

نقولا الحداد

(١) النامق الكاتب (٢) الساحق العميق ، البعيد (٣) الماحق المحرق (٤) السامق العالي

تخريج كتاب الملل والنحل

للشهرستاني (1)

— ٢ —

ا — التخريج العلمى

(١) قيمة التخريج العلمي : (ا) من أقوى الأسس لبناء نهضتنا العلمية . (ب) يجب علينا أن نقرر قواعده نظريًّا وعمليًّا . (ج) كما يجب ـ أولاً ـ أن نعرض نماذج مختلفة منه . (د) أول ما يلفت النظر في أمر التخريج العلمي .

(٢) نماذج مختلفة للتخريج العلمي : (ا) مثال للإفراط : (١) تخريج عزيز سوريال كتاب قوانين الدواوين لابن مماتي . (ب) مثال للتفريط : (٢) تخريج فيليب حتي كتاب مختصر الفرق بين الفرق للرسعني . (ج) مثال للجمع بين الإفراط والتفريط : (٣) تخريج انستاس الكرملي كتاب النقود العربية وعلم النُّمِّيات . (د) أمثلة للتخريج المضطرب الحائر بين طرفي الغلو والتقصير : (٤) تخريج أرثر أربري كتاب التوهم في التصوف للمحاسبي (٥) تخريج يوشع فنكل كتاب ثلاث رسائل للجاحظ (٦) تخريج ألفرد جيوم كتاب نهاية الأقدام في علم الكلام للشهرستاني . (٧) تخريج باول كراوس كتاب مختار رسائل جابر ابن حيان . (٨) تخريج كراوس والحاجري مجموع رسائل الجاحظ . (٩) تخريج نيبرج كتاب الانتصار للخياط . (١٠) تخريج أحمد زكي باشا كتاب الأصنام للكلبي . (١١)

---

(١) هذا هو عنوان الرسالة التي ناقشتها اللجنة الخماسية المؤلفة لذلك بدار كلية أصول الدين برئاسة سعادة الدكتور منصور باشا فهمي ، والتي حصلت بها على شهادة العالمية من درجة أستاذ بدرجة ممتاز في التوحيد والفلسفة من الجامعة الازهرية بتاريخ ٢٤ من جمادى الثانية سنة ١٣٦٥ هـ الموافق ٢٦ من مايو سنة ١٩٤٦ م

تخريج احمد نسيم (دار الكتب) ديوان مهيار . (١٢) تخريج زيادة والشيال كتاب اغاثة الأمة للمقريزي . (١٣) تخريج زيادة كتاب السلوك للمقريزي . (١٤) تخريج احمد أمين والزين والإبياري كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه . (١٥) تخريج احمد أمين والزين كتاب الامتاع والمؤانسة لأبي حيان . (١٦) تخريج احمد شاكر كتاب المعرب من الكلام الأعجمي للجواليقي . (١٧) تخريج الميمني كتاب سمط اللآلي للأونبي — (١٨) تخريج ريتر كتاب مقالات الاسلاميين للأشعري — (١٩) تخريج ريتر كتاب الوافي بالوفيات للصفدي — (٢٠) تخريج ماضي كتاب ابناء الزمن في أخبار اليمن ليحيى بن حسين .

ه — ما تدل عليه هاتيك النماذج جملة

و — وجوب تقريرنا لقواعد التخريج العلمي وتثبيت مصطلحاته .

(٣) تقريرنا لقواعد التخريج العلمي نظريًّا : (ا) رغبات وحرص (ب) صبر وحذر (ج) ما يجب أن يكون عليه المخرج (د) الواجب على المخرج (ه) ما لا بد منه للمخرج (و) متى نطمئن الى التخريج العلمي ونعتمد عليه .

(٤) تمهيدنا لقواعد التخريج العلمي عمليًّا : (ا) اجمال المراحل العملية (ب) جمع المصادر وترتيبها .

(ج) نقد النصوص داخليًّا (١) حال وصولها . عن طريق المؤلف ـ (٢) حال وصولها عن طريق النساخ (٣) حال وصولها عن طريق الناقلين عن المؤلف . (د) نقد النصوص خارجيًّا : (١) الواجب على المخرّج (٢) التعليقات المقدمات . ه ـ ثم لا بدَّ من : (١) تقسيم الكتاب . (٢) وعمل فهارس له .

٣ — تخريج كتاب الملل والنحل للشهرستاني

(١) تخرّج وليم كيورتن للكتاب : (ا) هل خرّج كيورتن الكتاب تخريجاً علميًّا ؟ (ب) الأصول التي اعتمد عليها كيورتن (ج) منهج كيورتن في تخريج الكتاب نظريًّا (د) تلخيص نظرية كيورتن (ه) مخالفة كيورتن عمليًّا لكل ما رسمه لنفسه نظريًّا من : (١) فحص الأصول جميعاً (٢) تخريج نص خاص يوافق عليه المؤلف (٣) نقل القراآت المختلفة بكل أمانة (٤) التصحيحات والملاحظات الخاصة . (و) إحساس كيورتن

بضعفه ومحاولته الإعتذار . (ز) كيورتن يفضح نفسه بنفسه (ح) رفضنا لطبعة كيورتن مشكوراً .

(٢) منهاجي العملي في تخريج الكتاب : (ا) وصل القارىء بقواعد التخريج السابقة (ب) سبيلي العملية : (١) نسخ الكتاب بخطي مراراً (٢) البحث والتنقيب في المكتبات العامة والخاصة (٣) جمع الأصول (٤) اصطفاء المتن وتصفيته (٥) إعراض عن لغو النساخ بعد عميق البحث (٦) أمثلة لهذا اللغو الذي أعرضت عنه (ج) ثم تقسيم الكتاب (د) ثم التاريخ لعصر المؤلف (هـ) ثم التاريخ للمؤلف .

(٣) الاستعانة بذوي الخبرة والمتخصصين (ا) مراجعة فضيلة الشيخ عيسى منون (ب) مراجعة الدكتور أحمد زكي بك (ج) مراجعة الأب يوسف العضم اليسوعي (د) مراجعة الأستاذ عبد العزيز إسحاق (هـ) مراجعة الأستاذ عبد العزيز عبد الحق (و) جولاتي في الكتاب ، (ز) تقديم الكتاب إلى الناس جميعاً .

(٤) الأصول التي اعتمدنا عليها في تخريج الكتاب : (ا) التراجم (ب) المجموعات التي بلغت إثنتى عشرة مجموعة وهي : (١) ص : مطبوعات مصر على الهامش (٢) ع : مطبوعات مصر مجردة ــ (٣) ل : مطبوعات أوروبا (لندن وليبزج) ــ (٤) س مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ١٩٧٧ (٥) ني مخطوطة بدار الكتب أيضاً رقم ٦٩٤ (٦) لث : مخطوطة ثالثة بدار الكتب رقم ١٣٩٠ (٧) مر : مخطوطة محمود بك السبع (٨) سث : مخطوطة ثانية له وأخرى بالمكتبة الأزهرية رقم ١٤٧٣ توحيد (٩) سع : مخطوطة ثالثة ملكه أيضاً (١٠) بـ : مخطوطتنا (بدران) ١١(ا) : مخطوطة بالمكتبة الأزهرية رقم ٤٣١ توحيد (١٢) وثالثة بها رقم ٤٧٤ أباظة .

٤ — تقسيم كتاب الملل والنحل للشهرستاني

(١) هل قسم الشهرستاني كتابه : ا — يصمم الشهرستاني على كونه رياضيًّا أيضاً . ب — قوله إنه قسم كتابه على مناهج الحساب (المقدمة الخامسة) . ج — الحق إنه لم يقسمه ، أو لم يصل إلينا تقسيمه د — مراتب الحساب والاختلاف في الواحد والعدد .

(٢) المقدمة الخامسة وكبار المتخصصين : ا — عجزي عن فهم تقسيم الكتاب من

هذه المقدمة . ب ـ عجز هاربركر الألماني عن فهمها وإسقاطه إياها . ج ـ عجز كيورتن أيضاً عن فهمها . د ـ رأي الدكتور أحمد زكي بك فيها . هـ ـ رأيي بإزاء هذه المقدمة . و ـ هل هناك صلة بينها وبين الرياضيات الفيثاغورية .

(٣) هل قسم أحد الكتاب تقسيماً صحيحاً : ا ـ ما ذكر في صدر المخطوطة « ص » ب ـ تقسيم هاربركر .

(٤) تقسيمنا للكتاب : ا ـ التودد الى أبي الفتح والرجوع إليه دائماً . ب ـ إسراره لي بالتقسيم (ج) تقسيمنا يوافق روح المؤلف ومراميه . د ـ تقسيمنا للكتاب جملة . (هـ) تفصيل موجز لهذا التقسيم و ـ إجمال ما فصّلنا .

(٥) شكر وعرفان (وبعد) : « ا » شكر الدكتور ماضي . (ب) شكر الأستاذ كونس (ج) شكر الأستاذ ماسينيون

***

القسم الثاني ـ الشهرستاني وكتابه الملل والنحل

١ ـ عصر الشهرستاني

(١) وجوب دراسة العصر .

(٢) التحديد الزمني لعصر الشهرستاني .

(٣) مصادرنا عن عصر الشهرستاني : ـ ا ـ المجموعة الأولى : المصادر المعاصرة له . ب ـ المجموعة الثانية : المصادر المتوسطة . ج ـ المجموعة الثالثة : المصادر الحديثة .

(٤) الرقعة الاسلامية في عصره .

(٥) الحال السياسية في عصر صاحبنا : ا ـ في العراق : ب ـ وفي خراسان أيضاً ج ـ وفي مصر د ـ وفي المغرب. هـ ـ ثم الفرنج ، و ـ والباطنية .

(٦) الحال الاجتماعية وتشمل فيما تشمل : ا ـ الحياة العقلية . ب ـ الحياة العلمية . ج ـ الحياة الدينية . و ـ الحياة الأخلاقية هـ ـ الحياة الاقتصادية .

(٧) وبعد : إجمال حال العصر وما يتطلبه .

٢ — الشهرستاني

(١) مصادرنا عن الشهرستاني : ا — المجموعة الأولى : المصادر المعاصرة له . ب — المجموعة الثانية : المصادر المتوسطة ج — المجموعة الثالثة : المصادر الحديثة . د — دراسته من شيوخه هـ — دراسته في كتابه الملل والنحل .

(٢) نسبة الشهرستاني .

(٣) مولده ووفاته : ا — الاختلاف في مولده . ب — الاختلاف في وفاته . ج — تحقيقنا تاريخ مولده . د — تحقيقنا تاريخ موته .

(٤) اسمه وكنيته .

(٥) مذهبه وشيوخه : ا — احمد الخوافي . ب — أبو القاسم الانصاري . ج — أبو الحسن المدائني . د — أبو نصر القشيري . هـ — أشعرية صاحبنا وشافعيته .

(٦) ألقابه العلمية .

(٧) اشتهاره بالفلسفة في زمنه .

(٨) اتهامه بالميل إلى الباطنية والغلو في التشيع . ا — تحقيق ابن السبكي . ب — تحقيقنا .

(٩) رأي أعلام العصر الحديث فيه : ا — رأي هاربركر الألماني ب — رأي كرادي فو الفرنسي . ج — رأي ألفرد جيوم الانجليزي . د — رأي مصطفى عبد الرازق المصري .

(١٠) آفاقه العلمية : ا — وهو رياضي أيضاً . ب — وهو محدث : ج — وهو مفسر . د — جملة آفاقه العلمية .

(١١) رحلاته : ا — بين خوارزم وخراسان . ب — بين مكة وبغداد . ج — رجوعه إلى خوارزم وخراسان . د ـ مجالسه . هـ تقريرنا .

(١٢) لغاته : ا ـ اللغة العربية . ب ـ اللغة الفارسية . ج ـ اللغة اليونانية : رأي هاربركر ، رأينا . د ـ خلاصة رأينا في لغاته .

(١٣) وعظه وتصوفه : ا ـ وعظه . ب ـ وتصوفه . ج ـ حكمنا .

(١٤) اتصاله بالحكام : ا ب اتصاله بالوزير نصير الدين . ب ـ اتصاله بالسلطان

الأعظم سنجر . ج ـ هل أثر ذلك عليه ؟ .

(١٥) كتبه : (ا) كتبه التي وصلت الينا : (ا) الملل والنحل (٢) نهاية الاقدام في علم الكلام .

(ب) كتبه التي لم تصل الينا بعد: (١) الارشاد الى عقائد العباد (٢) الاقطار في الأصول . (٣) تاريخ الحكماء (٤) تلخيص الأقسام لمذاهب الانام (٥) دقائق الأوهام (٦) شرح سورة يوسف . (٧) العيون والأنهار (٨) غاية المرام في علم الكلام (٩) قصة موسى والخضر (١٠) المبدأ والمعاد (١١) مجالس مكتوبة (١٢) مصارعة الفلاسفة (١٣) مفاتيح الأسرار ومصابيح الأبرار (١٤) المناهج والآيات (١٥) شبهات أرسطاليس وبرقلي وابن سينا ونقضها (١٦) نهاية الأوهام

(١٦) نهاية الأوهام (١٦) وبعد : رأينا في أبي الفتح

٣ ـ كتاب الملل والنحل للشهرستاني

(١) تقديم الكتاب : (ا) تقديم هاربركر (ب) ذيوع صيته والثناء عليه .(ج) تقديم الشهرستاني نفسه .

(٢) زمن تأليف الكتاب : (ا) تحديده بوزارة نصير الدين . (ب) تحديده من نفس الكتاب . (ج) تقريرنا .

(٣) إجمال محتوياته : (ا) مشتملات الكتاب جملة . (ب) مقدمات الكتاب الخمس : الأولى . الثانية . الثالثة الرابعة . الخامسة (ج) تمهيد عام للقسم الأول . (د) المسلمون . (ه) أهل الكتاب (و) من له شبهة كتاب . (ز) تمهيد عام للقسم الثاني . (ح) الصابئة (ط) الفلاسفة . (ي) . آراء العرب في الجاهلية . (يا) . آراء الهند . يب . الختام .

(٤) اهتمام المؤلف بالمقدمات والخواتيم . (ا) المقدمات (ب) والخواتيم أيضاً.

(٥) عنايته بالمصطلحات : (ا) مصطلحات القسم الأول . (ب) مصطلحات القسم الثاني .

(٦) أسلوبه : (ا) طعن كيورتن عليه . (ب) متابعة جيوم لكيورتن . (ج) تحقيقنا من نفس الكتاب (د) رأي هاربركر (ه) خلاصة تحقيقنا .

(٧) منهاجه : (ا) ضابط الاختلافات عنده . (ب) طريقته في ترتيب الفرق . (ج) شرطه على نفسه (طريقته في النقل) (د) تصريحه بالمخالفة : (أين خالف) (هـ) تأكيده أخيراً بأنه سار على منهاجه . (و) مناقشتنا لأبي الفتح في سيره على منهاجه . (ز) . طرقه على حسب تحقيقنا . (ح) سعة اطلاعه تفتق شرطه (ط) مقارناته تخرجه عن منهاجه . (ي) سيره على منهاجه .

(٨) مصادره وكيف استخدمها : (ا) ما هي مصادره (ب) مصادره المباشرة (ج) مصادره غير المباشرة (د) وثوقه بمصادره وتحقيقه لها . (هـ) فهمه لها وتفهمه إياها .

(٩) حكمنا له أو عليه : (ا) حكمنا عليه : (١) إغفاله بعض المقالات (٢) اعتماده على خبر الافتراق (٣) اضطرابه في عد كبار الفرق (٤) فرضه أن الفروع ثلاث وسبعون بجهد (٥) بعض الألفاظ النابية في الكتاب (٦) مجمل هناته . (ب) حكمنا له : (ا) موقفه من الشافعي والشافعية مذهبه في الفروع (٢) موقفه من الأشعري والأشعرية مذهبه في الأصول (٣) موقفه من النصارى (٤) موقفه من ابن سينا (الفلاسفة) (٥) استعانتنا بحكم المتخصصين (٦) خلاصة الحكم .

(١٠) تقدير ودعاء .

* * *

ثم : المصادر جملة : (ا) المصادر الناطقة (ب) المصادر المكتوبة . (ج) أهم الكتب . وقد بسطنا الكلام على هذا كله في ٢٤٥ صفحة من القطع الكبير ضمها جميعاً مجلد واحد .

كتاب الملل والنحل : ولما كانت ترجمات الكتاب عن أصول عربية ، لم نرجع اليها الا للكشف والهداية ، ثم قسمنا أصول الكتاب المطبوعة والمخطوطة — التي استطعنا الوصول اليها — الى مجموعات بلغت اثنتا عشرة مجموعة كاملة ، ورمزنا لكل مجموعة برمز خاص يدل عليها ، فجاءت كما يلي :

١ ـ ص. مطبوعات مصر على هامش الفصل لابن حزم (اشارة الى طبع مصر)

٢ ـ ع : مطبوعات مصر مجردة (اشارة الى المطبعة العنانية)

٣ ـ ل. مطبوعات : أوربا (اشارة الى لندن وليبزج)
٤ ـ س : مخطوطة بدار الكتب المصرية (اشارة الى زمن نسخها وهو القرن السابع الهجري)
٥ ـ ني : مخطوطة ثانية بدار الكتب أيضاً (اشارة الى منتصف القرن الثاني عشر الهجري) .
٦ ـ لث : مخطوطة ثالثة بدار الكتب كذلك (إشارة الى منتصف القرن الثالث عشر الهجري) .
٧ ـ سر : مخطوطة ملك محمود بك السبع المستشار بمصر (السّين إشارة الى إسمه والرّاء الى القرن العاشر الهجري) .
٨ ـ سث : مخطوطتان : إحداها بمكتبة الأزهر ، والثانية للسبع بك (السين إشارة له والثاء للقرن الثالث عشر الهجري) .
٩ ـ سع : مخطوطة ثالثة ملكه كذلك (السين لاسمه والعين للقرن السابع)
١٠ ـ (ب) مخطوطة ملك مخرّج الكتاب محمد بن فتح الله بدران إشارة إلى إسمه بدران.
١١ ـ (ا) مخطوطة ثانية بمكتبة الأزهر إشارة الى أنها نقلت عن أقدم نص الكتاب .
١٢ ـ (هـ) مخطوطة ثالثة بمكتبة الأزهر أيضاً (إشارة الى المكتبة الأزهرية) .

ولقد وصل إلينا هذا الكتاب — في مختلف طبعاته ومخطوطاته وترجماته — متخاذل البناء مهلهل الرداء . ويعلم من بيده مفاتيح السر وما يخفى . كم واصلت الليل بالنهار ، والنهار بالليل ، باحثاً مفتشاً ، منقباً . . . حول نص أرجّح ، أو علم أضبط ، أو اصطلاح أتكنّه ، أو معنى أتفهّم ، أو كلمة أتعقب . وكم واجهت نصوص الكتاب جميعاً بعضها ببعض . جملة جملة ، وكلمة كلمة ، وحرفاً حرفاً . مستلهماً المؤلف نفسه ، متسمّعاً جرسه وهمسه ، مثبتاً في المتن ما يدعو إليه أو يطمئن له ، ذاكراً في الحواشي كل القراآت المختلفة ، المخالفة لما اخترت مما يؤدي الى معنى آخر ، أو مما قد يُفهم معه فهم ثانٍ . أو مما قد يمكن أن يُقرأ قراءة أخرى . ليختار القارىء ما يشاء . . . إن شاء معرضاً عن غير ذلك ، من اختلافات تُثْقِل الكتاب ، وتَشْغَل على القارىء ، ماراً بلغو النساخ والمتعالمين مرّ الكرام ، بعد أن أقف على هذا اللغو طويلاً ، وبعد أن أقلب فيه أوجه النظر ، وأدير عليه وجوه البحث ، فلا أجد

فيه غناء ، ولا أعرف له وجهاً ، فلم أذكر في الحواشي : ما لا معنى له لغةً أو اصطلاحاً ، وما لا يستقيم المعنى معه ، وما يقطع البحث التاريخي بخطئه ، مما ظن النساخ والمتعالمون أنهم يُصلحون به متن المؤلف ، كما أبعدت منها ما لا فائدة ترجى منه . ومع كل هذا ، فقد بلغت المفارقات التي دونتها في حواشي الكتاب ٦٢٧٥ مفارقة ، وقد تصل المفارقة الواحدة الى ٢٤ سطراً .

وبهذا استطعنا أن نُخَرِّج هذا الكتاب ـ لا نسخة منه ـ للناس جميعاً : نعم نستطيع أن نقدمه ـ دون أن ندّخر وسعاً في التحقيق العلمي والأمانة العلمية ـ لخواص المتخصصين ، إذ نقدم لهم كل نسخة نسخة ـ عثرنا عليها ـ من نسخ الكتاب مخطوطة أو مطبوعة ، وما على الباحث إلاّ أن يعرف رمز النسخة التي يريد الاطلاع عليها ، ويتابع ذلك الرمز في الحواشي مع قراءة المتن ، فيحصل بذلك على النسخة التي يريد ، وحسبنا أن نشبع رغبة هؤلاء الباحثين المنقبين ، ونقدم إليهم عشرات النسخ في كتاب ، ونستطيع أن نقدم ذلك الكتاب نفسه — دون أن نفرض رأينا فرضاً — لجمهور المثقفين من القراء ، بعد أن بذلنا فيه طويل وقتنا لنحفظ عليهم وقتهم ، هؤلاء إنما نقدم لهم المتن نقيًّا خالصاً . . . وحسبنا أن نتعب ونتعب ونتعب ، لنريح هؤلاء وهؤلاء ،

* * *

وفوق هذا ، فإنا انفردنا بابتكار عناوين مفصلة للكتاب كله بلغت ٢٨٣٠ عنواناً ، نثرناها على الهامش الأيمن للكتاب ، وجمعناها في الفهرس الثاني من فهارسه .

كما أثبتنا على الهامش الأيسر أرقاماً تدل على عدد السطور لتكون همزة الوصل بين القارىء والفهارس والكتاب .

بعد أن بذلنا غاية الجهد حتى تفرّدنا بتقسيم الكتاب وتجزيئه وتبويبه وتفصيله ، بما يوافق روح المؤلف ، ويوفّق بينه وبين العصر الحديث ، وقد نثرنا كل هذا في كل الكتاب وجمعناه في الفهرس الأول من فهارسه .

وقد استغرق متن الكتاب مجلدين : مجلد خاص بأرباب الديانات والملل ، وآخر خاص بأهل الأهواء والنحل ، واشتمل هذان المجلدان على ٨٦٦ صفحة من القطع الكبير .

فهارس كتاب الملل والنحل : ولما كانت فائدة الفهارس أن تقود القارىء في سهولة ودقة ويسر وسرعة إلى حيث يريد من الكتاب ، وهي بهذا تعتبر روح الكتاب ومفتاحه كان هدفنا الأول والأخير أن تكون فهارسنا هذي هي القائد الحكيم للقارىء الكريم ، مهما كلفنا ذلك من جهد ومشقة ، فجاءت بحمد الله وفق ما نرجو . وهل يستطيع باحث الآن أن ينتفع انتفاعاً كاملاً ودقيقاً بكتاب مّا إلاّ إذا قادته إلى حيث يريد منه فهارسه خصوصاً إذا كان الكتاب مترامي الأطراف متسع الآفاق ككتاب الملل والنحل ، لهذا وقفت عنايتي حيناً من الدهر لابتكار هاتيك الفهارس المتنوعة لذلك الكتاب ، وكلي أمل أن يستفيد منها الباحث فتفيده ، وأن تجذب القارىء إلى الكتاب فينجذب إليه .

* * *

ولقد ابتدأت بالفهرس الاجمالي لمحتويات الكتاب وانتزعته من التقسيم الذي تفردت به ، وعانيت فيه ما عانيت ... حتى جاء الكتاب في قسمين في سبعة أجزاء في خمسة وعشرين باباً في ١٣٣ فصلاً ،

القسم الأول يشمل ثلاثة أجزاء : المسلمون — أهل الكتاب — من له شبه كتاب ، وهم أرباب الديانات والملل .

والقسم الثاني يشمل أربعة أجزاء : الصابئة ـ الفلاسفة ـ العرب ـ الهند ، وهم أهل الأهواء والنحل .

وثنيت بالفهرس التفصيلي لمحتويات الكتاب ، وانتزعته من العناوين الجانبية التي ابتكرتها ، ونثرتها على الهامش الأيمن للكتاب والتي بلغت ٢٨٣٠ عنواناً .

وثلثت بفهرس الترجمة الألمانية لهاربركر — وقد ناقشته في كتابنا المدخل — وجعلته كملحق للفهرس الأول المنتزع من تقسيمنا للكتاب ، للمقارنة بينهما من ناحية ، ولاستكمال المنهج العلمي من ناحية أخرى .

وربّعت بفهرس المخطوطة « س » كملحق للفهرس الثاني ابتكارنا ، للمقارنة بينهما من ناحية ، ولاستكمال المنهج العلمي من ناحية ثانية ، وللمحافظة على الأمانة العلمية من ناحية ثالثة

ثم خمّست بفهرس البلاد والأماكن التي انتزعتها من نجاد الكتاب ووهاده ، بعد أن

رتبتها ترتيباً هجائياً على حسب النطق بها وكتابتها ، مثبتاً أمام البلد أو المكان رقم الصفحة فالسطر الوارد فيه .

ثم سدّمت بفهرس الفرق والقبائل المنثورة في مطاوي الكتاب وثنياته ، ذاكراً أمام كل فرقة أو قبيلة أرقام الصفحات التي خصصت لها بعد علامة = من . . . إلى . . . ثم مثبتاً رقم الصفحة فالسطر الواردة فيهما الفرقة أو القبيلة في غيرها خصص ما .. وقد رتبتها على حروف الهجاء .

* * *

وأخيراً — وليس آخراً ان شاء الله — ختمت هاتيك الفهارس — الآن — بفهرس الاعلام للأفراد ، مرتباً كسابقيه على حسب النطق والكتابة وأحرف الهجاء ، ذاكراً الصفحة فالسطر الوارد فيهما ذلك العلم أولاً ثم مثبتاً أمام ذلك ما انفرد به هذا العلم من رأي أو ما سيق هذا العلم من أجله إن كان في ذلك غناء أو نفع علمي . وقد شملت هذه الفهارس جميعاً ١٨٤ صفحة من القطع الكبير .

وبعد : فانه لمن حسن حظ هذا النوع الجديد من البحث — الذي نهيب بالمخلصين والمتصوفين من العلماء والباحثين وبخاصة طالبي الإجازات العلمية أن يسلكوا سبيله — أن يخرج من الأزهر ، وفي الأزهر ، وللأزهر ، ليشعّه على العالم كله ، وقد استوى على الأزهر الألفي عالم عالميّ ، نرجو أن يدفع بسرعةٍ وقوةٍ الأزهر ورجاله وأبناءه بكلتا يديه — كما يقول — ذلكم هو فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق قواه الله وأعانه .

* * *

والله نسأل : أن يجعل عملنا خالصاً لوجهه ، وأن يهدينا الصراط المستقيم ، وأن يوفقنا لخدمة العلم والدين

محمد بن فتح الله بدران

الرياضيات

في العلوم الطبيعية

الكون عالم طبيعي (فُسوزيقي) فلماذا نرى عنصر الرياضة قد أصبح حقيقة لاغنى عنها في علم الطبيعة ؟

هذا سؤال ألقاه السير جيمز جينز ، ولكنه أجاب على سؤاله بقوله : « لأن خالق الكون رياضي بحت » . لكن السير ارثر ادنجتن أراد أن يخفف من وطأة الجواب فقال : « إننا نحن الذين وضعنا عنصر الرياضة في الطبيعة » . ولست أدري هل جرّد الخالق من صفة الرياضة ، أم جرد الكون من تكوينه الهندسي ، عند هذا قامت الأستاذة سوزانا ستبنغ [1] وهاجمت العالمين بشدة وأنكرت قولها وأرادت أن يكون الجواب على هذا السؤال ما يلي : « لقد خلق الله الكون في صورة رياضية » .

وعلى كل حال فقد اتفق العالم والفيلسوف على أن الرياضيات أساس في طبيعة الكون وخلقه ، وإنه يتعذر علينا تحليل ظواهر الطبيعة وتفسيرها دون الالتجاء الى الرياضيات .

ولقد اتفق العالم والفيلسوف — كما قلت — في فهم هذا الكون وتركيبه ولكنهما اختلفا في صيغة التعريف ، فالعالم يعتمد على التجربة وعلى الحساب الدقيق عند القياسات أثناء التجربة ، فعنده ، أن الظواهر الطبيعية لا تفسر إلاّ بالتجربة والقياس . أما الفيلسوف فيعتمد على العقل المجرد فيعلل ظواهر الطبيعة على أساس المنطق ،وكثيراً ما يخطىء المنطق في هذه التعليلات ، ولعله يخطيء دائماً في هذه الناحية لأن القوانين المنطقية لا تساعدنا في فهم العالم التجريبي ، فجميع معارفنا عن الحقيقة تأتينا عن طريق التجربة ، فالمنطق لا سبيل له في تعليل الظواهر الطبيعية دون التجربة . وفي هذا الصدد يقول إنشتين « إن أقوال المنطقيين البحت كلها فارغة بالنسبة للحقيقة » .

ولما كانت التجربة تعتمد على القياس إذن فعنصر الرياضة حقيقة لازمة في تفهم أسرار الكون وتعليل ظواهره . لنأخذ مثلاً بسيطاً : نلاحظ عند مرور تيار كهربي في أنبوب يحتوي على غاز مخفف منظراً جميلاً . فالظاهرة تبين ما يحدث عند مرور التيار الكهربي في

(١) أستاذة المنطق في جامعة لندن ، توفيت عام ١٩٤٣ .

الأنبوب وتنقطع بقطعه ، هـذه ظاهرة فريقية . أما التجربة فتعلمنا مقدار كثافة الغاز ونوعه وان اللون المرئي هو خاص لذلك النوع من الغاز ، وتعلمنا أيضاً مقـدار قوة التيار وجريانه . . . الخ . هذه الايضاحات تكفينا من التجربة . ولعلّ هذا كل ما يقال في تعليل هذه الظاهرة قبل خمسين سنة. ولـكننا اليوم لا نكتفي بهذه الايضاحات بل نسأل عن أسباب أخرى فندخل حدود العلم النظري فنتطرق الى التركيب الذري والشحنات الـكهربيـة التي تحملها الجسيمات عنـد خروجها في السلك الـكهربأبي ، وتصادمها مع ذرات الغاز ، وتفاعلها معها تفاعلاً آليـاً ، عندئذٍ نصل بعد جهد الى تعليل الظاهرة وهكذا فالتجربة التي كانت قبلاً بسيطة قد أصبحت معقدة تجبرنا على أن نتطرق حقولاً جديدة في العلوم تحتاج في تفسيرها الى معرفة العلوم الذرية والرياضيات العالية .

على هذه الطريقة تقدم العلم الفوزيقي وبواسطة الرياضيات حقق سيادته على غيره من العلوم فنشأ من تقدم الرياضة وملازمتها له نوعان من العلوم الفوزيقية ، العلم التجريبي الذي يعتمد على التجربة والحسابات ، والعلم النظري الذي يعتمد على الحلول الرياضية في الوصول الى النتائج الفوزيقية بغير التجربة اليدوية . فنيوتن الذي يعـد أبو الفوزيقا النظرية كان يعتقد أنه من الممكن استخلاص جميع الأسس والقوانين التي وضعهـا عن طريق التجربة وهذا ما كان يعني بقوله المأثور hypotheses non fingo

علمنا أن التجربة تحتاج الى القياسات أو قل هي القياسات بعينها ، إذن يطابق هذا القول تعريف هايزنبرغ للعلوم الفوزيقية حيث يقول « الفوزيقا هي علم القياسات » .

وعند ما كان يعتقد نيوتن إنه من الممكن الحصول على جميع أسس وقوانين الطبيعة عن طريق التجربة،هكذا كان يعتقد مكسول عند ما أراد أن يحصل على جميع نتائج (فراداي) في علمي المغنطيس والـكهرباء عن طريق الحلول الرياضية وهكذا كان، فقد نجح في الوصول الى تلك النتائج بواسطة الرياضيات وقد زاد عليها قوانينه المشهورة وبحوثه التي من جرائها سهلت اكتشافات عديدة كاللاسلـكي والراديو والردار وغيرها .

برز في حقول الرياضيات الطبيعية علماء أفذاذ قدموا العلم خطىً واسعة ورقوا به الى أسمى الدرجات فأصبح سلم السعادة ، وآلة الفتك والدمار . كان لبلانك ودي برولي وهايزنبرغ وشرودنجر وديراك وبور وغيرهم أثر بعيد في تقدم علم الطبيعيات الحديثة أخصها الفوزيقا الذرية. وكان لفتزجرالد ولورنتز ومنكوفسكي وانشتين في تقدم النسبية.

فالفئة الأولى كان جل اهتمامها بالناحية الرياضية في الحقول الذرية فتقدم هذا الفرع شوطاً بعيداً ووصلوا الى الشاطىء المجهول قبل أن يصل اليه علماء التجربة . فبهم تقدم علم

الميكانيكا المقدارية quantum mechanics وعند ما توصل علماء التجربة الى وجود دقائق جديدة في عالم الذرّة كالنيوترون والميزون والبوزترون التي مهدت الطريق الى استخراج الطاقة الذرية الكامنة، تقدم هؤلاء النظريون بواسطة علومهم الرياضية في علوم الميكانيكا الجبرية Matrix Mechanics وتبعتها الميكانيكا الموجية Wave Mechancis. فلهذه الأخيرة كانت اليد الطولى في تعيين خصائص الذرة وتركيبها وتفاعلها والتي مهدت السبيل الى اكتشاف القنبلة الذرية، تلك القنبلة التي أهلكت ودمرت وفرضت السلام على العالم فرضاً [١]

فالخطى التي أحرزها العلم الفوزيقي بواسطة الرياضيات يعد من عجائب هذا العصر فقوانين نيوتن في الميكانيكا لم تعد تصح على دقائق الضوء فاقتصر فعلها على الكتل الكبيرة والقذائف المرئية. وأما الفئة الثانية فقد جاءتنا بأبحاث في تنظيم الكون وتفسير مسالك الأجرام والظواهر الكونية. فبحثوا في الزمان والمكان وصحتهما المطلقة، وارتقوا بنا الى أعالي الأجواء لنعرف مدى الكون، أهو امتداد لا نهائي، أم هو كون مكور محدود، فقدموا لنا تقريراً وافياً عن هندسة الكون وهكذا أرجعتنا إلى بداية هذا الحديث، وأعلمتنا أن خالق الكون رياضي مبدع، أو قل إنّ هذا الكون قد خلق على نظام هندسي مدهش. فكانت النسبية الخاصة تقول: ان القوانين الطبيعية العامة ليست متباينة بالنسبة لمعادلات لورنتز.

وكانت النسبة العامة تقول: ان تساوي جميع نظم الاحداثيات الجوسية [٢] أساس في تكوين القوانين الطبيعية العامة [٣]. بهذه اللغة نفسر الكون، هذه اللغة الرياضية التي جعلت الإنسان يؤمن بالعقل ومبتكراته، وحيث يقف أمام هيكل هذه الآلة قائلاً:

أيتها الرياضيات يامن لك الفضل الأكبر في تنمية العلوم وتوسيع مدارك الإنسان لك تدين المكتشفات، وبك عرف الشاطىء المجهول، أنت القابضة على أحداث الموسيقى واهتزازاتها، بك تقدمت الفوزيقا وإليك ترجع الكيمياء، بقدرتك حمل الإنسان الكون على كفه، يقلبه ليستقصي مسالكه ويعرف مادته.

لا مجال للاستغراب في هذا الحديث، فالرياضة إحدى الطرق التي بها ننظر الى الأشياء والذي لا يعرفها فهو خاسر، وخسرانه كبير في فهم العلوم وأسرار الكون، ولو أنه لا يشعر بهذه الخسارة مثله كمثل المصاب بعمى اللون الذي لا يقوى على رؤيته [٤]

فؤاد جميعان

---

(١) مجلة اندفر سبتمبر سنة ١٩٤٦ (٢) نسبة الى الرياضي الشهير جاوس Gauss (٣) تلخيص انشتين.
(٤) Mc Kay, The World of Number

الاثر الدنيوي

في الفن القبطي

من الأمور المتفق عليها حتى العصر الحاضر بين علماء الآثار والمؤرخين أن الفن القبطي إنما هو فن ديني مسيحي محض يعبر عن فن الأديرة والكنائس، مؤثراته دينية كما أن أغراضه دينية أيضاً، بمعنى أنه لم يتأثر بمؤثرات دنيوية وإنه لم يرم الى أغراض دنيوية (مدنية).

ويبدأ هذا الفن القبطي أو الفن البيزنطي في نظر هؤلاء العلماء منذ سنة ٣٩٥ ميلادية وقت أن أصبحت الديانة المسيحية ديناً رسميًّا لمصر، ويستمر حتى سنة ٦٤٠ ميلادية، وهو وقت دخول العرب مصر.

ولكن إذا رجعنا إلى أصل كلمة قبطي وجدنا أنها في معناها ترادف كلمة مصري سواء بسواء، بمعنى أن جميع سكان وادي النيل كان يطلق عليهم قبل غزو الاسكندر الأكبر لمصر بمدة طويلة اللفظ اليوناني «ايجبتيوس» الذي حُرِّف بعد ذلك الى لفظ قبطي.

وهذا يقطع بأن كلمة قبطي لا علاقة لها إطلاقاً بالنزعة الدينية، بل كان لفظها يستعمل قبل دخول المسيحية مصر وفي عهد المسيحية وبعدها.

نخرج من هذا بنتيجة هامة وهي أن الفن القبطي كان فنًّا مصريًّا قبل أن يكون فنًّا دينيًّا كما هو الرأي الشائع حتى الآن.

ومجرد إعادة النظر في الآثار القبطية الموجودة بالمتحف القبطي، وفي باقي المتاحف المصرية، وكذلك في مختلف متاحف أوروبا وأمريكا، وفي الأسباب التي استند عليها العلماء في رأيهم السابق، وفي ما قام به العلماء من حفريات — يدلنا على إنهم مخطئون فيما يذهبون إليه، فقد خضع الفن القبطي كغيره من سائر الفنون لمؤثرات البيئة التي نشأ فيها وهذه المؤثرات منها ما هو ديني ومنها ما هو دنيوي، وهو ترجمان صادق للحياة المصرية في تلك الفترة من الزمن وما قبلها وما بعدها.

فمثلاً وجد في كثير من المقابر والمباني المدنية آثار بغيضة الى الدين المسيحي والمتدينين به ، فالمتحف القبطي زاخر بصور العراة وبأدوات الزينة من مكاحل وأمشاط وحلى السيدات ، من ذلك الخلاخيل والأساور المحلاة برأس الثعبان (وهي العادة الفرعونية القديمة والمنتشرة حتى الآن) وما الى الخلاخيل من العقود والخواتم التي على شكل زهرة اللوتس أو المحلاة بعلامة إيب الفرعونية (أي القلب) والحلقان الذهبية التي على شكل عنقود العنب ، والثياب المدنية المزركشة والمزخرفة بزخرفة فرعونية كالجعل المجنح أو علامة عنخ الفرعونية (أي الحياة) وهي بلا شك من آثار الحضارة المصرية الفرعونية .

كذلك ترك لنا الفن القبطي آثاراً منزلية كثيرة عليها بعض مناظر لأشخاص عراة أو لراقصين أو راقصات ، كما أن بعضها يشبه ما وجد في مقابر الفراعنة كالأواني الفخارية ، أو بعض الأواني المعدنية ، كالإناء الذي يشابه العلامة الفرعونية (حسى) أي ممدوح ، أو الملعقة الصدفية التي لها يد من حديد وتنتهي بشوكة وتشبه في شكلها تلك التي وجدت أخيراً في حفائر حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق المعظم بجهة حلوان وهي مصنوعة من العاج ويرجع تاريخها إلى أوائل عصر وحدة مصر الأولى تحت عرش ملك واحد .

كما أن البعض الآخر من الآثار القبطية عليه مناظر نيل مصر ، من طيور ، وأسماك أو نبات البردي ، أو التمساح أو المراكب والنيل بلا شك قوام حياة مصر في كل عصورها ، ولا علاقة لكل هذا بالدين المسيحي لا من قريب أو بعيد .

كما أن هناك آثاراً عديدة من العصر القبطي لمصريين لم تكن المسيحية ديانتهم . وقد استوحى هذا الفريق من المصريين الذين لم يكونوا قد اعتنقوا المسيحية بعد في فنهم مؤثرات غير مسيحية ، وهذا يدل على ان الفن القبطي كان فنّاً مشتركاً بين المسيحيين وغير المسيحيين من المصريين .

زد على ذلك أن على كثير من المباني رسوماً حيوانية كصيد الأسد أو الغزال أو الطيور أو مناظر لبعض نباتات مصر كالنخيل واللوتس والبردي والرمان . وان أصل الكثير من هذه الرسوم يرجع إلى مصر الفرعونية ، ويبين استمرار وحدة الفن المصري في عصوره المختلفة .

وفوق هذا عثر المنقبون على آثار قبطية هي عبارة عن أدوات زراعية كالفأس والشرشرة — ومصر بلاد زراعية — أو أدوات طبية ، كالمرود والسكين والمقبض ، أو أدوات الكيل ، والوزن، أو أدوات الكتابة ، أو أدوات الطهي ، أو أدوات النسيج، والكثير منها يرجع في أصله إلى مصر الفرعونية .

ولا داعي للقول بأن كل هذه الأشياء لا تمت الى الدين المسيحي بأي صلة مما يؤيد الرأي الذي نقول به ، وهو أن الفن القبطي تأثر بمؤثرات دنيوية (مدنية) فوق تأثره بالمؤثرات الدينية المعروفة ، فالفن في كل عصر وفي كل بلد إنما هو ترجمان للحياة في شتى نواحيها .

ويرجع كثير من الرسوم الجصية التي كانت تزين بها بعض المباني القبطية في أصلها الى نقوش فرعونية ، أو زينة فرعونية، بل انها كانت تصنع بنفس الطريقة الفرعونية . وكذلك كان التصوير بالألوان على لوحات المومياء يرجع الى تطور العادات المصرية الفرعونية .

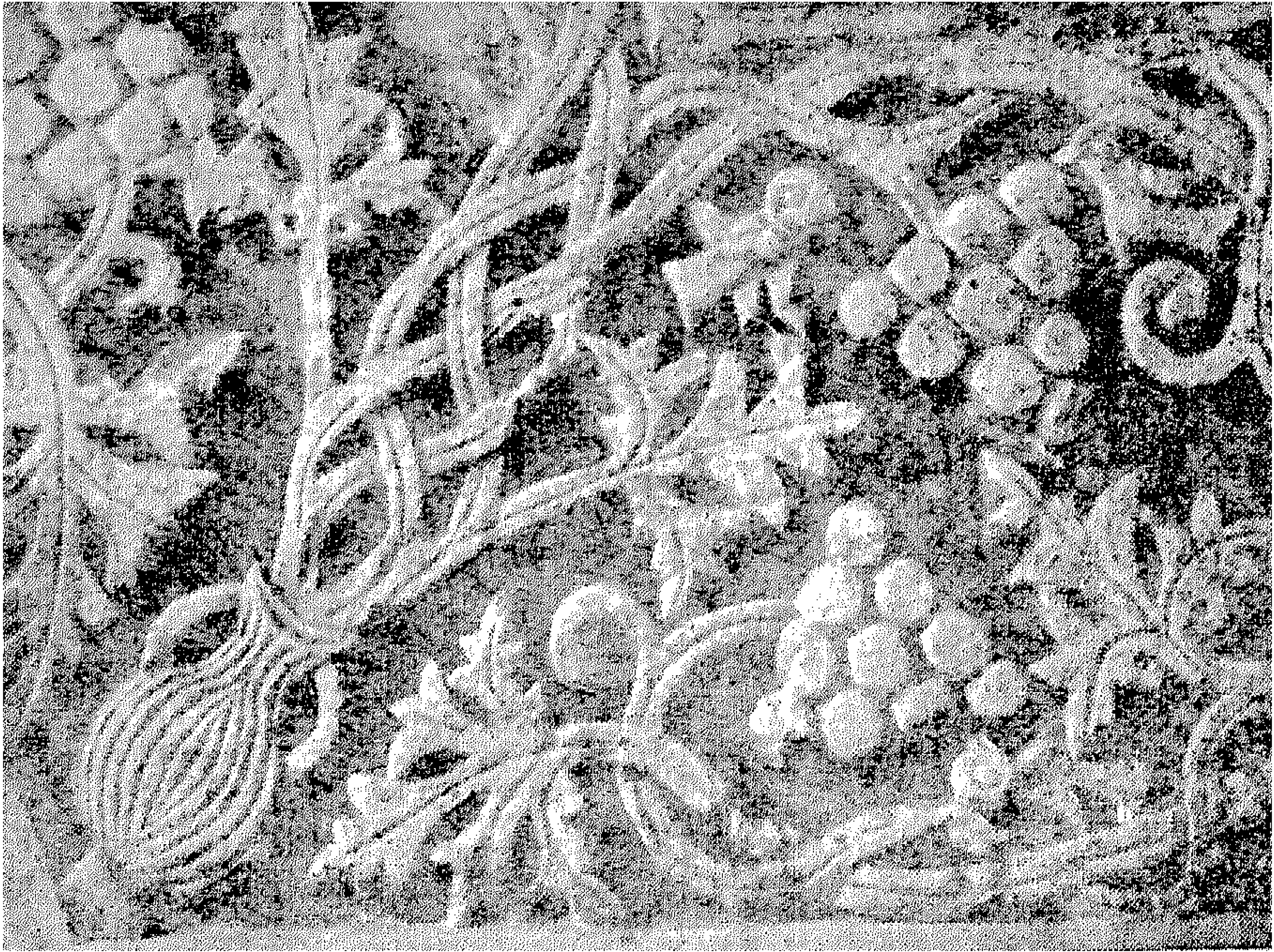
وهناك كثير من الرسوم التي وجدها العلماء مرسومة على قطع من القماش تعبر في مرماها عن أشياء لا تمت للدين بصلة ما رغم أنها رسمت بعد أن أصبحت المسيحية ديناً رسميًّا للدولة الامبراطورية الرومانية التي كانت مصر في القرن الرابع الميلادي إحدى أجزائها .

ومما يقطع بصحة رأينا تلك الرسوم الكثيرة التي وجدها العلماء على جدران بعض الكنائس والأديرة التي لا علاقة لها بالدين اطلاقاً، وإنما هي ترمز إلى صور من الحياة المادية، فمثلاً: ما علاقة عصفور يأكل عنباً (صورة رقم ٦) أو صور أشجار وفواكه وأزهار أو صور هندسية بالدين ؟

بل من الطريف أن القبطي لم تفته روح الدعابة والمرح التي ورثها عن أجداده قدماء المصريين، إذ ضمن رسومه حكماً وأمثالاً كانت متداولة في مصر الفرعونية ولا زال بعضها مضرب الأمثال حتى وقتنا الحاضر. مثال ذلك لعبة القط والفار المرسومة على جدران أحد مباني باويط

واذا ذهبنا مع هؤلاء العلماء مذهباً بعيداً لوجب القول بأن الفن القبطي (الفن البيزنطي

في نظرهم) وجد معاصراً للعصر المسيحي بمعنى انه لم يوجد قبل هذا العصر ما يسمى فنًّا قبطيًّا .



صورة رقم ٦ (تصوير المتحف القبطي).

ولكن اذا عرفنا أن الفنون التي نمت وازدهرت في أنحاء مصر أثناء الحكم اليوناني الروماني ، أثرت في الفن اليوناني الروماني نفسه ، وقد قلد اليونان والرومان في عمائرهم الكثير من أساليب العمارة الفرعونية وزخرفتها ، وجب أن نخرج بنتيجة وهي أن الفن القبطي وجد قبل ظهور المسيحية بزمن طويل نستطيع تحديده نوعاً بدخول الاسكندر الأكبر مصر حوالي سنة ٣٣٢ قبل الميلاد ، حتى لا نخلط بين الفن القبطي المصري ، والفن القبطي الفرعوني كما يجب أن نسميهما .

فقد ثبت انه كان للمصريين في العصر السابق للمسيحية فن مجيد ونهضة فنية رائعة رنَّ صداها في كافة الأرجاء ، وتأثرت بها سائر البلدان المجاورة .

ولا يمكننا بحال من الأحوال أن نوافق على رأي العلماء من أن الفن الذي ظهر في مصر في هذا العصر كان فنًّا يونانيًّا رومانيًّا فحسب ، أو نوافق على رأي الفريق الآخر

من أن الفن الهيلينستي وهو المزيج من اليوناني المتأخر ، وفن بعض الشعوب الشرقية كفارس وسوريا وبابل هو الذي ساد في هذا العصر في مصر

والآن وقد سقنا هذه الأمثلة العديدة والأدلة التي بيناها نستطيع أن نؤكد بأن الفن القبطي ليس كما يقول العلماء فنًّا دينيًّا مسيحيًّا محضاً ، وانما هو فنٌّ مصريٌّ له مؤثراته وأغراضه الدنيوية ، كما أن له أغراضاً ومؤثرات دينية .



صيد الأسد (تصوير المتحف القبطي)

ومما يعزز قولنا هو تفرع اللغة القبطية الى لهجات منها : اللهجة البحيرية ، والصعيدية ، والأخميمية ، والفيومية ، التي تدل دلالة واضحة على التطور الاقليمي للغة المصرية القديمة .

ولم تؤثر اللغة اليونانيـة على القبطية الا من حيث بعض حروف الهجـاء وبعض المفردات الدخيلة .

دكتور باهور لبيب
الامين بالمتحف القبطي

الاستحمام

وفوائده الصحية والطبية

يراد بالاستحمام تعريض كل الجسد للماء والرياضة العضلية وليس دخول الحمام للإغتسال بالماء الحار فقط بقصد النظافة ، والغرض منهُ كما لا يخفى إزالة الافرازات الجلدية كالعرق والمواد الدهنية التي تمتزج بالغبار وتلتصق بالجلد . فاذا لم تُزَل تلك الافرازات رسخت حينئذٍ بالجلد وكوّنت قشوراً تمنع تنفس الجلد وإفراز العرق ، وهذا ما يؤدي الى أمراض خطيرة. وقد يموت الانسان إذا حُجز عنه التنفس الجلدي مثلما يموت إذا حُجز عنه الهواء .

فلا بدّ للانسان إذاً من غسل جسمه دائماً مهما كان سنهُ ومنزلتهُ ، غنيّاً كان أم فقيراً ، سليماً أم عليلاً ، طفلاً أم شيخاً . كيف لا وهو واسطة النظافة والصحة الجيدة ، وعامل حيوي لدرء كثير من العلل والأمراض التي تأتي عن طريق الجلد بما يلصق على سطحه كما قلنا من الأوساخ والأدران والأملاح والقشور التي يفرزها العرق والغدد الدهنية . وبالرغم من وجود المنشآت الكثيرة المخصصة للاستحمام في أيامنا هذه لا نزال بعيدين جدّاً عن اهتمام الشعوب القديمة من حيث النظافة ومضاهاتنا لها من هذه الناحية .

فالحمامات عند اليونان والرومان كما يؤكد بعض المؤرخين كانت لا تماثل حسناً وكبراً ، وقد بلغت درجة من الأهمية بحيث أفسحوا للناس مجالاً واسعاً لارتيادها سواء أكانوا من العامة أم الخاصة . فكانوا يقدّرون إذ ذاك قوة الجسم وجماله ورشاقته ويعملون على المحافظة عليه ، ولا تزال ماثلة الى اليوم في أوروبا بقايا تلك الأماكن الجميلة المخصصة للاستحمام . ففي روما مثلاً كان يوجد لدى جميع الأشراف والأغنياء ، حتى الطبقة المتوسطة من الشعب ، حمّامات خاصة في بيوتهم — هذا عدا الحمامات العمومية لطبقات الشعب . أما في أيامنا هذه فلا نرى ما يذكرنا بتلك التماثيل الكبيرة الرائعة التي لا تزال آثارها باقية في أراضي المملكة القديمة كتماثيل الحمامات العامة لاوغسطس ، ونيرون ، وكراكلاّ في رومة ، وتماثيل قيصر في باريس . وقد كان الاستحمام للأهلين مجاناً تقريباً أي بسنتيمين فقط ، ولا يخفى

ما لوجود مثل هذه المنشآت وأماكن الاستحمام من المنافع الجزيلة للصحة العامة .

ويمكن القول أن النظافة لم تبتدىء بالتقدم جديًا بعد ذلك إلاّ في أيام الصليبيين خصوصاً عند الطبقة الميسورة ، وقد امتدّ ذوق استعمال الحمامات من الشرق الى فرنسا . ويكفي أن نطوف الآن شوارع باريس القديمة وتشاهد معالمها ورسومها و تقرأ أسماء شوارعها كي تتأكد من وجود أماكن عديدة عامة للاستحمام في ذلك الزمن .

وقد كتب أحد المؤرخين الغربيين فصلاً ممتعاً عن عادات أهل البلاد وأخلاقهم في ذلك الزمن أي من القرن الثالث عشر حتى القرن التاسع عشر جاء فيه ما يلي : — «لكي يكون الاستقبال حارًّا ويبدو وديًّا فخماً إذا دُعي أحدهم إلى تناول الطعام عند أسرة ما ، فعلى أصحاب الدعوة أن يهيئوا للمدعو أولاً حمَّاماً حارًّا فور وصوله الى بيت هذه الأسرة ، وبعد الانتهاء من الحمام يأتي الضيف توًّا الى غرفة الأكل لتناول الطعام » .

ولعمري ليست النظافة وحدها ما يكسبه الجسم بالاستحمام، بل هنالك أيضاً إنعاش الجسد وتسكين أعصاب الجلد ، والبهجة والنشاط والرشاقة وخفة الحركة والصحة وبالتالي طول الحياة . وإذا أمعنا الفكر قليلاً ألفينا أيضاً أنّ النظافة هي أساس الوقاية من الأمراض المعدية ، ولنأخذ مثلاً على ذلك الحمَّى التيفية التي تنتقل من المريض الى السليم بوساطة المواد البرازية . فاذا روعيت النظافة في هذه الحالة أمكننا التخلص من هذا المرض بدون أن نتعرض للتلوث به ونبقى سالمين منهُ . وهكذا قل عن الزحار والهيضة (الكوليرا) وغيرها .

زد على ذلك أنّ النظافة هي أساس الجمال . فالزينة والتبرج مهما بلغا حد الكمال والاتقان يبعثان في النفس النفور والاشمئزاز أكثر من الإعجاب والاطراء — إذا لم يكونا مقرونين أولاً بالنظافة ومراعاة الطهارة الجسدية ، ومهما تكن المرأة جميلة مليحة فإن قذارة ملابسها أو اتساخ جسمها يسلبها الملاحة والفتنة والجاذبية التي تنشدها . وهذا كله لا يتم إلاّ بالاستحمام .

وفي أيامنا هذه نرى أن أفخم الحمامات هي عند الاميركيين ويشبهون من هذه الناحية اليونان القدماء . أما اليابانيون الذين يُعدُّون أنظف أمم الارض كما يؤكد الكثير من الباحثين ، وأعظمهم إقبالاً على الاستحمام ، فانهم يستعملون المرشّ (دوش) وليس الأحواض

(بانيو) كما يفعل الغربيون، وهم يسخرون من هؤلاء لأنهم يستحمون في ماء قد تلوّث بأقذار الجسم وذاب به الصابون، فالنظافة لا تُعدّ تامة في هذه الحالة ما لم يُنظف الجسم بعدئذ بالماء الساخن النظيف أو بالمرش.

ومما يذكر في هذا الصدد أن النرويجيين قد اتخذوا عادة الاستحمام في العراء في فصل الشتاء، وغالباً ما يستعملون الجليد بدل الماء فيحك المستحم جسمه بقطع منه. صحيح أن هذا ينشط الدورة الدموية ويفيد الجلد فائدة كبرى، غير أن هذه الطريقة لا تأتي بالفائدة المبتغاة من جهة تنظيف الجسم وإزالة ما يكون قد علق به من الأدران والأوساخ والأملاح وغيرها.

(فائدة الاستحمام للجسم): وتأثير الحمّام على جسمنا له فوائد من نواحٍ ثلاث: طبيعية، وأدبية، وعقلية.

١ — الحمّام الساخن: (٣٤ — ٣٨ درجة مئوية): يفتح مسام الجلد فيجري منها العرق حاملاً معه السموم الكثيرة والأقذار المتروكة، كما أنه يرفع حرارة الجسم ويزيد النبض بحيث يبلغ ١٢٠ الى ١٣٠ درجة في الدقيقة الواحدة، ويستدعي الدم في الوقت نفسه الى نواحي الجسم السطحية فينعشها ويريح من عبئه الأعضاء الداخلية، وعلى الخصوص المعدة والكليتين. وهذه الراحة التي تنالها الأعضاء الداخلية ضرورة لتجديد حياتها وتقويتها على متابعة أعمالها.

طبيّاً يمكننا استعمال الحمامات الساخنة في حالات الرئية، وفي أمراض المسالك التنفسية الحادّة. ولا سيما عند الاولاد في الالتهاب الشعبي الرئوي (٣٨ درجة مئوية)، فيُترك الولد في الماء مدة عشر الى عشرين دقيقة، وتوضع كمّادات ماء بارد على رأسه طيلة مدة الاستحمام منعاً لاحتقان الدماغ، وذات الحمامات الساخنة تستعمل أيضاً في حالات التهاب الكلى الحادة وفي تهدئة الأعصاب أيضاً.

غير أنه يجب الاحتراس بعد أخذ الحمام الساخن من التعرض لاضرار البرد والمجاري الهوائية لأن الجلد المتمدد الحار يصاب أحياناً بالنسمات الباردة فتعتري الإنسان القشعريرة وهي تمهد السبيل الى بعض الامراض بل قد تفضي أحياناً إلى الموت اذا لم يحسب لها حساباً.

ولاجتناب هـذا الأذى يقتضي بعد الانتهاء من الاستحمام ، التمدُّد في فراش مدة نصف ساعة تحت غطاء خفيف في غرفة محفوظة من مجاري الهواء ، وأنسب وقت لذلك هو في المساء قبل النوم . وينبغي على كل حال عدم الاستحمام بتاتاً قبل مرور ساعتين على تناول آخر وجبة من الطعام . ويجب على الذين بلغوا السن ٤٥ فما فوق اجتناب أخذ الحمامات الساخنة جدًّا (٣٨ — ٤١ درجة مئوية) لانهم غالباً ما يكونون مشتبهين بأمراض غير ظاهرة ولا يُشعر بها من ناحية القلب والأوعية الدموية .

٢ — الحمام الفاتر : (٢٨ الى ٣٤ درجة مئوية) : هو من أفضل أنواع الحمامات ، لا سيما في الصباح ، لانه ينظف جيداً ، وينعش ويحمي من البرد ومن التهاب الشعب وذات الرئة التي تفتك بالكثيرين سنويًّا . وهو يفيد على الخصوص ذوي الأمزجة العصبية والأشغال العقلية والمصابين بأمراض القلب ، والمسلولين ، ونحاف الأجسام ، والناقهين من الأمراض وخصوصاً في الصيف حيث يلطف حرارة البدن ويزيل التعب والكسل الناجمين من الحر . كما أنه يفيد أيضاً في حالات الأرق العصبي والنوراستنيا (ضعف الأعصاب) والهستريا ، وفي الأوجاع الداخلية لالتهاب الأعصاب المتعدد المنتشر (Polynévrite) ، والسُّهام Tabes . زد إلى ذلك أنَّ استعمال الحمامات الفاترة أو الساخنة تساعد على تفريغ المثانة وتسهل ادخال القثطرة في الاحليل Cathétérisme في حالة تضييق القناة البولية ، هذا فضلاً عن فائدتها أيضاً في بعض الأمراض الجلدية كالحكاك وغيره .

وبوجهٍ عام يكون الحمام الفاتر مفيداً لمَّا تكون قوى الجسد منحطة أو عندما يكون الشخص امرأة نحيفة أو ولداً ضعيف البنية أو حينما يكون الطقس بارداً جدًّا .

٣ — الحمام البارد (١٠ الى ٢٨ درجة مئوية) : تختلف درجة برودة الماء الذي يستحم به الانسان كما ترى بحسب حرارة الفصل أو برودته . وأما تأثيره الأول في الجسد فانه يعكس الدم والقوة الحيوية من الظاهر الى الباطن. ثم يردها الى الجلد والمجموع العضلي . وهـذا ما يسمى ردّ العمل . وباندفاع الدم من الظاهر الى الباطن يتهيج القلب ويشتد عمله وتقوى انقباضاته فيندفع الدم منه بسرعة الى جميع أعضاء الجسم فتزداد تغذيتها من توارد الدم اليها ويزول منها الاحتقان المزمن وتغدو أحسن حالاً للقيام بعملها . غير انه يجب

الانتباه جيداً عند استعمال الحمام البارد الى بعض النقاط : أولاً — ان الغطس الفجائي هو أفضل الطرق لأقوياء البنيـة خلافاً للضعفاء الذين يجب عليهم أولاً أن يمسحوا أجسادهم بنشفة أو أسفنجة مبلولة ثم يغطسون في الماء . ثانياً — لا يجوز أن يقف الانسان في الماء وجسمه غير مغمور به لئلاّ يتسبب عن ذلك احتقان القلب والأعضاء الداخليـة ولا يحصل من ذلك حينئذٍ رد فعل تام . ثالثاً — لما كانت المرشة المعروفة بالدوش لا يحتملها إلاّ بعض الناس ، وبخاصة الضعفاء والنساء والأولاد ، فيُستحسن إذ ذاك سكب الماء سكباً على جسدهم. أما أقوياء البنية فالمرشة تكون بالعكس مفيدة جـداً لهم ولا يخشى عليهم من صدمة الماء الشديدة الباردة . رابعاً — من الناس مَن يتعوّد الاستحمام بالماء البارد صيفاً شتاءً ، فهذا لا ضرر منه البتة للشبان وأشداء البنية . أما الضعفاء فعليهم أن ينقطعوا عنه في فصل الشتاء وأيام البرد الشديد ، ويستعيضوا عنـه بالغسل البسيط أو بمسح الجسم بأسفنجة مبتلة بالماء خوفاً من صدمة الماء البارد في بدء الاستحمام . خامساً—إذا أريد من الاستحمام تنشيط القوى وانعاشها فقط مع تجنب صدمة الماء فيستحسن إذ ذاك أن تكون درجـة حرارة الماء أقل من درجة الهواء الجوي في الصيف بعشرة درجات ، ومساوية لها أو أعلى منها بعشر درجات في الشتاء ، فيغطس المستحم بها فجأة مدة ٥ — ١٠ دقائق ، ثم يفرك جسمه حالاً . وأخيراً لا يرتدي ملابسه إلاّ بعد أن يدفأ جسمه تماماً . وهـذا الاستحمام في فصل الصيف لذيذ ومفيد جداً للجسم ويكسب المرء صحة ونشاطاً وارتياحاً .

* * *

ويمكن القول بوجهٍ عام ان الاستحمام بالماء البارد يقوي العضلات وينبه القوى المنحطة ويلطف أو يخفف حرارة البدن ، كما انه يخفف من سرعة الدم فيفرج القلب والرئتين ويجعل سطح الجسم منيعاً ضد البرد ، خصوصاً بعد فركه وتجفيفه جيـداً فيتجدد نشاطه ، ولذا يكتسب الجسم بالحمام البارد القوةَ والمناعة ضد النزلات والرشوحات والالتهابات المختلفة .أما من حيث مساوئه واضراره فالشخص الضعيف الجسم قد يرتعش من جراء ملامسة جسمه للماء البارد . واذا كانت الأعصاب ضعيفة خيف من الاستحمام بالماء البارد أن يشل المخ وان يبلد قوة التفكير خصوصاً في فصل الشتاء. كذلك قد يكون له أثر سيء في القلب اذا بلغ الانسان

أواسط العمر (فوق الاربعين) ، وخصوصاً الذين عندهم استعداد للغشي Syncope ، أو عند المصابين بالنزوف المعوية والتهاب البريطون .

أما فائدة الحمامات الباردة في الأمراض المعدية والحموية ، والتي منها في الدرجة الأولى الحُمّى التيفية ، فغير منكورة . وطريقة براند Brandt في معالجة هذه الحُمّى كما يلي : يعطى حماماً للمصاب درجته ٢٠ مئوية لمدة ١٥ دقيقة وذلك كل ثلاث ساعات مرة واحدة عند ما تبلغ أو تتعدى درجة الحرارة في الشرج ٣٩ مئوية . ويستحسن ، قبل أخذ الحمام ، رش وجه المريض وصدره بماء أبرد من ماء الحمام المراد استعماله له تخفيفاً لتأثير صدمة الماء البارد . وينبّه جيداً في الوقت نفسه لحالة المريض فيما اذا تحدث لهُ قشعريرة عند دخوله الحمام البارد ، أو اذا تلون وجنتاه أو شفتاه بلون أزرق بنفسجي . ففي هذه الحالة يجب اخراجه حالاً من الماء البارد وتدليكه بالكحول او الكولونية الى أن تعود للجسم حرارته الطبيعية ثم ينشف جيداً بفوطة نظيفة ويلبس ملابسه ، أو يلف في ملاية السرير أو البطانية ، ويعطى فنجاناً من أي منقوع دافىء مثل الزيزفون أو الشاي أو القهوة أو ليمونادة أوقدح من الخمر .

غير أن استعمال الحمامات الباردة حسب طريقة براند غير مقبولة من أغلب المرضى بالنظر لبرودة الماء التي تفاجىء الجسم . ولذلك يستحسن اللجوء الى حمام مبرد تدريجاً ، فيحضَّر أولاً حمام درجة ٢٨ مئوية ، وبعد دقيقتين أو أربع دقائق يبرد ماؤه تدريجيًّا الى أن يصير بدرجة ٢٣ ، ثم ٢٢ ثم ٢٠ مئوية .

٤ — الاستحمام بماء البحر والبحيرات : هو أفضل أنواع الحمامات للأقوياء وأشداء البنية لأنه يجري في الهواء الطلق المشبع أوزوناً منشطاً من البحر ، ثم ان المستحم يكون مطلق الحرية في السباحة بمياه البحر ويستفيد جدًّا من هذه الرياضة البدنية . عدا ذلك فالأملاح التي في ماء البحر تكسب البدن قوة ونشاطاً وانتعاشاً بامتصاص الجلد لها ، هذا فضلاً عن لمس الأمواج التي تعمل على تنبيه الحواس والأعصاب . وهو من صنف الاستحمام بالماء البارد من حيث أن درجة حرارة الماء فيه بفصل الصيف تتراوح بين ١٧ و ٢٥ مئوية ، وكلما ازدادت برودة الماء يكون مفعول الاستحمام مقويًّا .

زد على ذلك حمام ماء البحر من شأنه أن يساعد على الهضم ، ويفتح شهية الطعام ويقوي أعضاء الهضم والامتصاص فيساعد الجسم بذلك على التخلص من المواد غير الصالحة التي هي أولى أسباب الضعف والمرض ، وهكذا قل عن فائدته في تحسين الدورة الدموية . فالجلد يحتوي على شبكة مهمة جداً من الأوعية الدموية التي تحتوي بدورها أحياناً على $\frac{2}{3}$ من مجموع الدم ، وهذا المقدار يطرأ عليه زيادة أو نقصان بحسب درجة حرارة الماء . فاذا كان هـذا الماء بارداً فأوعية الجلد تفرغ قسماً من الدم الموجود فيها . واذا كان حاراً فالأوعية نفسها تمتلىء بالدم — ومن هذا نستدل ما لتأثير درجة حرارة الماء في الدورة الدموية العامة وفي التبادلات العضوية أيضاً بسبب هـذا الانقباض والارتخاء ، ولذلك سمي الجلد بحق « القلب المساعد » .

وهنالك أيضاً فائدة من الاستحمام بماء البحر بصفته مهيج لافراز الغدد الجلدية ، فهذه الغدد تفرز ، عدا الحوامض الدهنية والماء ، كثير من المواد السامة المتولدة من وظائف الجسم فبقدر ما يتقوى الجلد بصفته عضواً للافراز يكون تنظيف الجسم أحسن ، ومتى عرفنا أن تأثير الماء في الجسم يهيج الافراز ويطرد نفايات البدن ، أدركنا حينئذٍ ما للاستحمام في هذه الحالة من الأهمية والفائدة الكبرى .

أما مدة السبح بماء البحر فتختلف من دقيقتين أو ثلاث دقائق عند الضعفاء الى عشر دقائق أو أكثر عند الأقوياء وأشداء البنية ، وهذا منوط بحالة المستحم الصحية فيما اذا كان ضعيف البنيـة أو قويها ، معتاداً قبلاً على الاستحمام أو بالعكس . وبقدر ما يكون المستحم قويـاً نشيطـاً ومعتاداً على الاستحمام بماء البحر يمكنه البقاء مدة أطول في الماء والعكس بالعكس . ومهما يكن من الأمر فلا يجوز للضعفاء السبح في ماء البحر للمرة الأولى تجنباً للرعشة أو الصدمة التي تحدث أحياناً عند الغطس ، بل الأنسب أن يُبدأ بالاغتسال بماء البحر في البيت فاتراً أو بارداً . فاذا زادت قوة المستحم سار الى البحر واغتسل واستحم فيه . هذا من جهة . ومن جهة أخرى لا يُسمح للاطفال السبح بماء البحر إلاّ إذا بلغوا السابعة من عمرهم ، كما أنه لا يسمح أيضاً للذين بلغوا الخامسة والخمسين من العمر فما فوق السبح بماء البحر الاّ اذا كانوا معتادين عليه وبنيتهم قوية . وأحسن انهول للاستحمام

بماء البحر هو من آخر الربيع إلى أواسط الخريف أو آخره . أما الزمان الموافق لهذا الاستحمام فهو الصباح قبل الفطور (للأقوياء) ، وبعده للضعفاء ، ويكون ذلك قبل الطعام وليس بعده مباشرةً ، أي أن يكون قد مضى على تناول الطعام ساعتين ونصف حتى يبدأ بالاستحمام ، ثم ينشف الجسم جيداً بعد ذلك بمنشفة خشنة الى أن يحمر الجلد ويدفأ كل الجسد .

ومن القواعد الصحية الأخرى للاستحمام بماء البحر (أو البحيرات) هو تأثيره الفعال عند ذوي الأمزجة اللمفاوية ، والمصابين بفقر الدم وسوء الهضم والاضطرابات المعدية على أنواعها ، فيكون لهم والحالة هذه مقوياً منشطاً ومصلحاً بشرط ألاَّ يكون مكثهم طويلاً في الماء ، وأن يعملوا كثيراً من الحركة والرياضة العضلية .

أما الحالات الصحية التي يحظر فيها الاستحمام بماء البحر فهي :

١ — عند المصابين بالسل الرئوي مع وجود حمى أو عدمها مهما كانت درجة المرض عند المصاب .

٢ — عند المصابين بضعف القلب أو أمراضه أي كان نوعها .

٣ — في أمراض الكلى والرثية (الروماتزم) والنقرس .

٤ — عند ضعيفي البنية والمصابين بتصلب الشرايين وأمراض الجهاز التنفسي .

٥ — عند الشيوخ والأطفال الصغار قبل السن الثالثة .

٦ — في الأمراض الجلدية الحادة والمزمنة ، وفي أمراض العيون والآذان .

٧ — خلال مدة الطمث عند النساء ، كذا في أوقات الحمل اذا كنَّ غير معتادات عليه سابقاً .

٨ — عند بعض المصابين بأمراض الاعصاب أو بضعفها كالنوراستنيا مثلاً ، أما عند البعض الآخر فيكون بالعكس مفيداً لهم ، ولذا تجب مشورة الطبيب في هذا الأمر والاسترشاد برأيه .

بيروت الدكتور عبده رزق



الأب أنستاس ماري الكرملي



لقد غمر الأسى تلك القلوب التي تحنو على اللغة العربية بانطفاء مصباح ذلك الروح الذي ظلّ يرسل عليها من ضيائه ما ينير زواياها ، ويكشف عن معالمها ، وأشعل في الجوانح ذلك اللهيب من الحزن لانطواء هذه الحياة التي جادت بمذخور قواها وأنفقت ممحة زهرة حياتها في القيام على خدمتهـا ، والذود عنها ، والعمل على حفظهـا ، ودراسة كثير من أصولهـا وبحث مشتقاتها ، حتى غدت مرجعاً موثوقاً بإطلاعه ، وإلمامه في أصول اللغة ، ومشتقاتها ، وبيان تلك الوشائج التي تربط بعض الكلمات العربية بنظائرها في اللغات القديمة ، وبعث كثير من دفائنها ، ونشر ما استتر من جواهرها ، ثم أخذ يمدها بأقوى الأسباب فوق ما يخرجه من كتب بتلك الأبحاث المتنوعة ، الناضجة ، التي كانت تتجاوب بها المجلات الأدبية في أنحاء العالم العربي حاملة اليه ثمرات جهد متواصل ، وعبقرية فذة ، ثم أخذ يصدر مجلته كأنما ضاقت بجهوده وناءت بمحصوله الصحافة والكتب ، فأراد أن يخفف من عبئهما بهذه المجلة .

* * *

والواقع أن هذا الرجل قد قدم للعربية من المنن ما تعجز عنه الجماعات ، فقد احتلّ حبه لهذه اللغة ، وشغفه بها ، كل مشاعر نفسه ، وعواطف قلبه ، فهي مجال نشاطه ، ونجوى ضميره ، وموضع عنايته .

وحسب هـذه اللغة أن تظفر بهذه الجهود التي تتجلى مظاهرها في هـذا الولع في البحث ، والتنقيب ، كما تتجلى في الدأب ، والكد ، وراء المخطوطات النادرة ، فإذا ما أسعده الحظ ببعض هـذه التحف ، إنثنى بها وهو لا يكاد يقف سروره عنـد حدّ ، فيسعى به حفيـًا ، ليطالعه في شوق ، ويستوعبـه في لذة ، وقد كان له عناية خاصّـة بوضع

الفهارس المنظمة لكتبه ، وبراعة فيها ، وهذه إحدى حسنات الغرب التي عادت على اللغة باليمن ، ولعله كان الوحيد فيما أعلم في العالم العربي في تفرده ونبوغه في هذه الناحية ، وقد سمعت منه أنه وضع معجماً كبيراً ! ولا يزال عنده مخطوطاً ، فهل ينشط المجمع اللغوي بالإستيلاء على هذه البحوث ، ونشرها تعميماً للفائدة بها . وضنًّا بهذا الجهد ، وتلك الأعوام التي بذلت في سبيلها ، وتنظيمها من الضياع ، والنسيان . ومن أولى وأحق من المجمع وكان — الآب — أحد أركانه الاقوياء ، ودعائمه المتينة ، ولست أريد بهذه الكلمة دراسة هذا النابغة ، وتحليل آثاره القيمة ، فلكل هذا وقته ، وأقلامه ، وإنما أريد أن أهدف من وراء هذه الحياة إلى عبرة نستخلصها منها ! وهي الإخلاص فيما يعالجه المرء من شؤون علمية كانت ، أو أدبية ، أو لغوية أو غيرها والتخصص في الناحية التي تبرز مزاياه فيها .

وقد توافرت هاتان الخصلتان في — الآب أنستاس — فقد أرادت بيئته أن تتخذ منه قسيساً مبشراً ، فلم يستجب لهذا إلاّ بمقدار حتى لا يتجنى على مواهبه ، ولا يتحيف عبقريته . ثم عرف موطن قوته ، ومبعث خلوده ، فأخذ يمده بكل ما يقويه ، وينشطه ، ويمده بالحياة . وحسبه هذا الترهب في محرابه العلمي ، وإنقطاعه في ديره للبحث ، ولتأدية ما يمكن أن يؤديه الانسان المخلص من ضروب التعبد العلمي ، وإخلاصه هذا الإخلاص الذي لم يدع فرصة يمكن الاستفادة منها ، واستغلالها لمواهبه وتركها ، فلم يلهو عن مواهبه حتى يلحقها الصدأ ، ويجني عليها الاهمال ، أو يجعل رسالته تحت مشيئة الظروف إن أتاحت لها العمل عمل وإلاّ جارت عليها الحوادث ، بل قد فرغ من كل شيء ، وإتخذها شغله ، وراحته ، ويقظته ، ونومه ، وهذا اخلاص يعز كثيراً في هذه الأوقات ، وكأنما المقادير شاءت بهذه اللغة ألاّ تحرم من أمثال تلك الجهود ، فوكلت بها هؤلاء الرهبان ، ما رأيت الآب أنستاس مرة إلاّ طافت بذهني هذه الخواطر ، وبرزت لعيني هذه الحقيقة التي لا بدّ منها لكل جهد علمي مثمر ، جزاه الله عن خدمته للغة — القرآن — خير ما يجزى العاملون المخلصون على عملهم وإخلاصهم .

محمد عبد الحليم ابو زيد

هذي هي الاغلال

هل الاغلال في أعناقنا ؟

ثورة جامحة ، تلك التي عصفت من حول كتاب « هـذي هي الأغلال » الذي نشره الأستاذ القصيمي ، فاتهم الرجل في دينه واتهم في نواياه واتهم في أخلاقه . جماعات وأفراد ، هبوا جميعاً يقاومون الفكرة التي بشَّر بها ذلك الكتاب القيم ، فكرة أن العقلية الدينية الجامدة هي المصنع الذي تُعَدُّ فيه أصفاد العقل ، وتفتل فيه أغلال النفس . نزع الكتاب نزعة دينية رشيدة ، نزعة المسلمين الذين قال لهم نبيُّهم « وأعدُّوا لهم ما استطعتم من قوة » ، لم يقل القوة المادية ولا القوة المعنوية ، ولا عين نوعاً بنفسه من أنواع القوى ، بل ترك معنى القوة يتحيز في فهم كل جيل من أجيال المسلمين بمقتضى الملابسات التي تقوم من حوله . ومؤلف هذا الكتاب رجل حر الرأي واسع الفهم نيِّر البصيرة ، إذ قضى بأن القوَّة التي يجب أن يعدها المسلمون في هذا الزمن هي « العلم » بالصورة التي فهمها الغرب ، صاحب المدنية السائدة في زماننا هذا . ولا أظنُّ أن مسلماً من المسلمين يجادل في هذا مهما قعدت به الهمة عن تَفَهُّم روح العصر الذي يعيش فيه .

إلى جانب هؤلاء الذين أصابهم جمود العقلية الدينية ، رجال استطاعوا أن يتحرروا مما أصيب به غيرهم من مرض الرُّجعَى إلى أساطير الأوَّلين ، ونزعة الخوف من كل ما ألبسه الزمن ثوبا القداسة ، ولقد اطلعنا على كلمة لفضيلة الأستاذ الشيخ حسن القاياتي أبدى فيها رأيه في كتاب « هذي هي الأغلال » تدمغ بعبارات منها ، باطل أولئك الذين حملوا فؤوس الهدم وراحوا يضربون بها الهواء ظانين أنهم يضربون بها في أصول الحق : قال فضيلته :

«معسكر الاصلاح في الشرق ، طليعته ابن خلدون ، باكورة الاجتماعيين ، وجناحاه « السيد الأفغاني » ، وتلميذاه « محمد عبده » و « السيد الكواكبي » ، أما قلبه فهو

« السيد القصيمي » نزيل القاهرة اليوم ، نجدي في جبته وقبائه ، وصمادته وعقاله ، ذلك هو السيد القصيمي ، إذا اكتحلت به عيناك لأول التماحته ، قلتَ : زعيم من زعماء العشائر النجدية ، تخلف عن عشيرته ، لبعض طيته ، حتى اذا جلست اليه فأصغيت الى حديثه الطيب أصغيت الى عالم بحر يفهق بعلم ديني واجتماعي .

« تعرّفت الى العالم النجدي القصيمي ، فجلست اليه مرة ومرة ، ثم شهدته كرة ، فناهيك منه داعية اصلاح ، أكثر ما يلهج به الشرق وأدواؤه ، وجهله ودواؤه .

« لم أقض العجب حين شهدت السيد القصيمي من عربي في شمائله ، ملتف في شملته ، يروعك منه عالم في مدرسته، كاد يحيلني شرقيًّا بغيرته الشرقية ، وقد بُنيت مصريًّا. أتحفني هذا السيد لعهد متطاول بكتابه « هذي هي الأغلال » ، وأنا ملول مكسال ، فثقلت عليّ الاحاطة به ، ثقل الهداية على القلوب ، والجد على لعوب ، ثم عدت فألقيت عليه نظرة جعلتني أمنحه إقبالة المحب المجمل ، على الحبيب المقبل ، فاذا الكتاب منهج اصلاح وخطة إفلاح .

« لقد احتوى كتاب السيد القصيمي برنامجاً للتكوين القومي ، قوامه الانحاء على أكثر من هذا الذي أصفه ، فأعدده من عيوب شائنة للشرق ، هي تلك الشاجية الآتية : فَتْـرَةُ الشرق عن العلم ، تنويهه بالجهالة ، الزهد المتصنع ، تكرهه للحياة النبيلة ، صور التوكل المكذوب ، سوء التفهم لأسباب العمل ، الى مشابه لهذه النقائص الشرقيات ، بل المخزيات

«حيّا الله السيد القصيمي ، ما أصدق نظرتَه الى الحياة ، وأبعد مرماه في الهداية . لقد أذكرني حديثه — وما أكثر ما أذكره — عن فترة الشرق ، بل عن كيده للعلم ، أن إحدى دول الأندلس أو المغرب لعهد قصي ، حظرت تعليم الفلسفة ، وان دولة أخرى هناك حرّقت كتب مالك بن أنس ، رحمه الله .

أما بغداد حاضرة العلم الاسلامي والمدنية الاسلامية فقد سقيت أرضها الري ، من دم أهل الفقه يقتتلون ، عصبية على العلم ، هذا من شيعة المذهب الفلاني ، وهذا من عدوه !!!

« أجل : لقد أذكرني السيد القصيمي أن مصلح العصر ، مجدد الأزهر ، أستاذنا « محمد عبده » لم يملك إدخال العلوم الاجتماعية الحيوية الى الأزهر ، الا عن رشوة ضخمة من الجوائز

المالية ، دفعها الى اهليه ، فاذا تلك العلوم تدرس فيه وإذا الأزهر يخطر في الحياة العلمية بخطى ضيقة مرة ، فسيحة كرة ، إلى نهضته المؤذنة اليوم بالنجح « ومايوم حليمة بسر »

« بي الآن أن أصل القراء الكرماء بفقرة اقتطفها من أية ناحية لهذا الكتاب لا أعتمدها ولا أتخيرها بل أفتح الكتاب عنها ، كما يفتح المصحف للتفاؤل ، ليشهد القراء : أي لسان مبين ، وفكر يزين ؟؟؟ ، قال الأستاذ القصيمي :

« شعبان هبطا هذا الكوكب الأرضي الواسع الأرجاء ، فسار شعب تحت ضمان معرفته في قوة لا تكبو ولا تضل ، فاستغلّ واستقلّ . . . . ، وشعب آخر هبط غريباً في هذا الكوكب ، جاهلاً نواميسه وقوانينه ، فلم يدر كيف يأخذ ولا كيف يدع . . . ، هذان شعبان ، فماذا عسى أن تكون النتيجة لاجتماعهما ، ليس هنالك أدنى ريب في أن الغلبة ستكون للعلم والعرفان » .

هذا طراز موجز مما يفيض به الكتاب ، وتلك روح ملائكية السداد والتهدي ، وطراز أعلى من مذاهب العصمة الشعبية والجلال ، بيد أن لي لمحتين رفيقتين ، إلى بعض ما احتواه الكتاب في روحه الصالحة ودعاوته الرابحة ، أولى اللمحتين : أن الأستاذ القصيمي حين استشهد على بعض قضاياه الاجتماعية ، ذهب ينشد أبياتاً من الشعر مضوغة ، لشعراء العلماء ، أو العلماء الشعراء ، فيقيمها بيّناتٍ على قضاياه تلك ، وإنما الشعر قضايا خطابية شعرية لقائل فرد ، لا تصف شأناً اجتماعيّـا ، ولا خلقيّـا ، أنشد الكتاب قول الزمخشري ، وهو عالم في تهوين العلم ، وتزين الجهالة ، على مذهب صوفي .

العلم للرحمن جلَّ جلاله   وسواه في غمراته يتقمم
ما للتراب وللعلوم وإنما   يسعى ليعلم أنه لا يعلم

وقول ابن أبي الحديد المفسر :

فيك يا أغلوطة الفكر   حار أمري وانقضى عمري
سافرت فيك العقول فما   ربحت إلا أذى السفر
فلحى الله الاولى زعموا   أنك المعروف بالنظر
كذبوا إن الذي ذكروا   خارجٌ عن طاقة البشر

أجل يا مولاي ، أليس الله كما وصف الشاعر « أغلوطة الفكر » ، « خارج عن طاقة البشر » فما يستنكر من هذا ؟؟؟

على أن هذه المقالة ، وأشباهاً لها ، مقالات شاعر متخيل ، وقائل متأوِّل ، لا تقيم المذاهب الاجتماعية ، ولا تنهض قضيَّة

أما ثانية المحنتين ، فتلك أن السيد القصيمي حين شهد تخلف الشرقيين ، بل المسلمين ، عن ركب الحياة ، وموكب السُّراة ، تملكه إياسٌ من انتهاضهم الاجتماعي ثانية ، ومن دبيب دم الأحياء في الأشلاء ، وحقّ له ذلك فإن حلية الفاتر المهين ، كحلية الدفين !!!

وقعدة الواهن في بيته كرقدة الميت في لحده

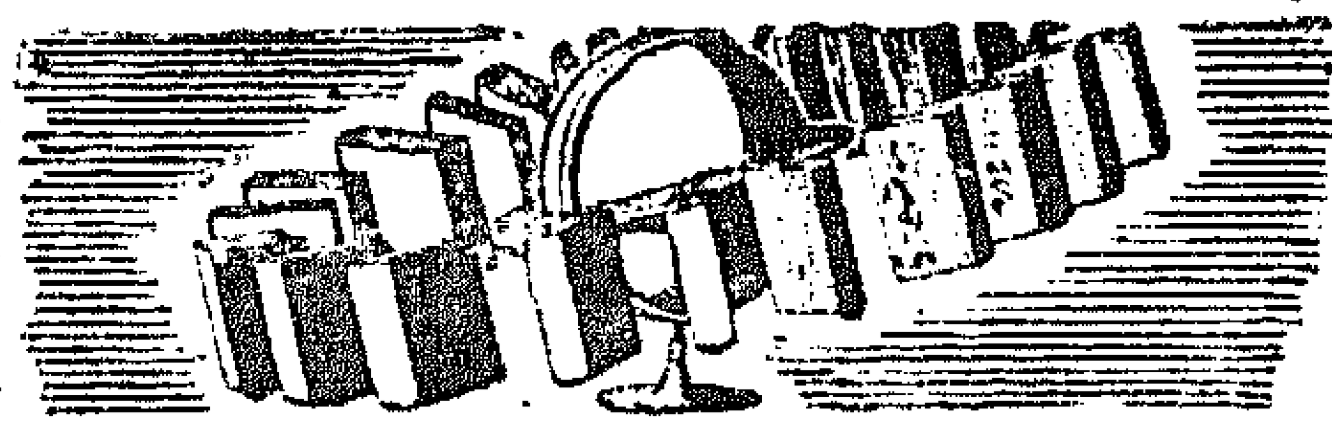
لست من رأي الأستاذ في طول إياسه من أن تدب الحياة في تجاليد الشرق ، ويعتق من الرِّق ، ولا من رجعى الإباء والثبات ، إلى الأباة ، فان الرُّقيَّ إذا نبت ، ثبت ، وإذا قام ، استدام .

إن النهضة الاجتماعية إذا بدتْ ، سرتْ ، وإن نمتْ ، تأصّلت . كنهضة الفجر في الليل يبدو خيطه بُـدُوَّ الشعرة البيضاء في اللـمّة السوداء ، حتى إذا استمرّت حيناً ، طغى الصبح ، على الجُـنْـح !!!

حسن القاياتي

***

وان المقتطف لعلى استعداد ، اتباعاً لما توحي به حرية الرأي ، أن ينشر كل ما يصله من بحوث الأدباء والفقهاء في هذا الكتاب على شرط واحد هو : أن يدور البحث من حول مسائل محددة المبادىء ونظريات علمية او فقهية توجّـه فيها المناقشة توجيهاً سديداً ابتغاء الوصول الى الحق . أما الأقوال المائعة والعبارات التي تتناول وجهات غير محددة من البحث كالقول بأن الكتاب مريب أو انه صنيعة للمبشرين او انه دخيلة من دخائل المستعمرين بلا أية بينة من واقع او منطق ، فهذا ولا شك سلاح واهن يزيد الضعفاء ضعفاً ، وينم عن سخيمة يكرهها العلم وينبذها الدين وتأباها الحرية ويمقتها الخلق السوي الذي هو من خلائق الرجال .



مكتبة المقتطف

كيف نسوس حياتنا بعد الخمسين

للاستاذ سلامه موسى — المطبعة العصرية بمصر

الأستاذ الكبير سلامه موسى — إذا جاز لي أن أصفه بتعبير من تعبيراته — « هجوميّ » التفكير استفزازيُّه . فهو يتبنَّى كل رأي يحسبه صواباً ولو أجمع العالم على أنه خطأ وهو يجهر بمعتقداته دون أن يحبسها عن الناس كما يعمد سواه .

وكتابه الأخير « كيف نسوس حياتنا بعد الخمسين » دعوة جريئة إلى التأنق في الحياة وإلى زيادتها عرضاً لا طولاً . فهو يقول : لا تفرط في المأكل والمشرب ، بل تأنَّق فيهما واجعل طعامك لذيذاً مزيزاً . ويقول كذلك : تأنَّق في ملبسك أيها الشيخ وعاشر الشبان واداب في ممارساتك الجنسية ودخِّن إن كنت قد قضيت شبابك مدخناً ، واحتس الخمر باعتدال إن كنت قد ألفتها في ريِّق شبابك ، وسلِّ نفسك بالمطالعة واشغل وقتك بالهوايات والاهتمامات ، وروِّض جسمك دون أن تحمّله شططاً ، وتجنب النوم وقت القيلولة لأن النوم مظهر من مظاهر الموت ، واتخذ لنفسك ديناً (١) ، وحاذر البدانة والاستكراش ، واعرض نفسك على الطبيب لماماً ، وعوِّد ذاكرتك على اليقظة الدائمة ، وتابع الأنباء والأحداث .

ثم يذكر لك الكاتب الكبير طرفاً من حياة شيوخ تقدم بهم العمر ولكنهم احتفظوا بفتوتهم الذهنية ، ونشاطهم البدني وزاد نتاجهم في وقت كان المألوف أن ينضب . فأصبحنا نري سعد زغلول الشائخ يقود مصر كفتى مشتعل الشباب ، وأصبحنا نقرأ مدونة

(١) الواقع أن تفسير كلة دين الذي أورده الاستاذ سلامة موسى لا ينطبق على « الدين » قدر انطباقه على « الفلسفة » .

جستينيان لعبد العزيز فهمي باشا يترجمها دون أن يقعده تقدم السن ، بل رأيناه — على حد قول الأستاذ سلامه — يلقي قنبلة يكون لها دوي في ربوع الشرق بدعوته الى هجرة الحروف العربية وإحلال حروف لاتينية محلها . وأضحينا نقرأ عن جورج برنارد شو وله وهو في التسعين من عمره يسوّد ويؤلف ويسرف في الكتابة كالبحر الزاخر الفياض . وأمامنا ويلز الذي ختم حياته قبل مطلع العام الجديد وكان ثوري التفكير سابقاً لعصره في آرائه ومعتنقاته . وهاك لطفي السيد باشا يتسع وقته وتحتمل صحته لتصريف شؤون السياسة العليا وللعكوف على درس فلسفة أرسطو وبحثها . وماذا نقول في غاندي ذلك الزعيم الهندي الضامر الجسم المترهب في معيشته القانع بالكفاف من الملبس والمطعم ومع ذلك استطاع بسياسة اللين السلبية ، وبصومه الأيام والليالي أن يقلق امبراطورية ماردة ويقض مضجعها.

هذه أمثلة لبعض المعمرين الذين تحدّث عنهم الأستاذ سلامة موسى في كتابه حديثاً طليًّا يجمع بين الايجاز واصابة الهدف المقصود . وليته أضاف الى القائمة اسم الدكتور فارس نمر باشا الذي خلّف وراءه سن التسعين ولا يزال حاد الذاكرة ، حاضر الذهن ، يعي التحولات الفكرية الحديثة في ربوع العالم ويتابع نهضة التفكير في المجتمع الدولي . وليته لم يغفل اسم الأستاذ الكبير خليل ثابت بك وهو وإن كان قد تجاوز السبعين لا يزال فتي البدن والذهن نشيطاً لا يقعده العمل ولا تضنيه الكتابة ، يخط بقلمه كل يوم أكثر من صحيفة كاملة من صحف مصر يعالج فيها شؤون السياسة الدولية كخبير اكتسب من تجربة الحياة ودروسها قدراً وفيراً . بل ليته حدّثنا عن نفسه وكيف استطاع وهو مشرف على الستين أن يحتمل مرارة السجن من بضعة أشهر ويجالد عوامل « التعرية » التي يتعرض لها نزلاء سجون مصر .

وأعتقد أن هذا الكتاب جدير بالقراءة والاستيعاب لا من جانب الشيوخ والمكتهلين ، بل منهم ومن جانب الشباب الفائر المتسربل بالحيوية المتشح بالنضارة لأن شبان اليوم هم شيوخ الغد ، ولأن المصريين بصفة خاصة ما فتئوا يعدون الشيخوخة فترة همود وقعود وتنح عن العمل وما برحوا يغفلون عن وسائل استغلال الحياة الاستغلال النافع المجدي الذي يزيد سنينا حياة ولا يزيد حياتنا سنين .

وديع فلسطين

١ — تراجم إسلامية

للأستاذ محمد عبد الله عنان

يتمتع هؤلاء الذين يخطون بالإنسانية في سبيل التقدم ، ويتركون في حياتها آثاراً باقية ، بحظ وافر ، من عنايتها ، فهي تقف حيالهم موقف الدهش ، والإكبار ، لما استطاعوا أن يقدموه في مجال الحياة ، فيسوقهم ذلك الى التشوف إلى استبطان دخائلهم ، ومحاولة اكتشاف ما استسرَّ من حياتهم ، وعرض العوامل التي يعتقدون أن لها أثراً في حياتهم ، عساهم ينتفعون باحتذاء سلوكهم ، والنسج على منوالهم ، وارضاء ذلك الهيام المشبوب في الجوانح للوقوف على كل ما احتجب ،وإظهار ما خفي ، كل هذه الدوافع قد مكنت لهؤلاء أن يحتلوا مكانهم في صدر التاريخ العام ويفوزوا بالحفاوة ، والاقبال في التراجم الخاصة ، والتاريخ الاسلامي حافل ، فاص بهذه الألوان من الشخصيات التي تجد فيها الدراسات التاريخية ، والأدبية ، والنقدية ، والنفسية أوسع ميدان ، فلو ظفرت هذه الشخصيات بمن يجلوها ويعرضها عرضاً علميًّا ، قويًّا ، وفنيًّا موفقاً ، لكانت من أمتع ، وأنفع الدراسات في مجال التاريخ ، والأدب ، وقد قام الأستاذ — عبدالله عنان — بتقديم هذه الشخصيات التي تعد من ألمع الشخصيات في التاريخ الإسلامي ، وأروع الشخصيات في التاريخ العام ، كأجمل ما يوفق المؤرخ المحقق ، والأديب الموهوب ، إلى إبراز هذه السمات ، وتلوين هذه الملامح.

ولا غرو فالأستاذ — عنان — يعد في الطليعة في هذا الضرب في الشرق ، فهو واسع الإطلاع ، عميق النظر ، قوي الحجة ، رصين الأسلوب ، جذّاب العرض ، وهو يترجم في هذا السفر لثماني عشرة من أعلام التاريخ الإسلامي ، دون تقيد بالعصور أو الدول ، وقد حرص على أن تكون نماذج متباينة لشخصيات لها ميزاتها الخاصة ، ولا ريب أن شخصيات مثل . هرون الرشيدي ، وست الملك الفاطمية . وشجرة الدر ، والحسن الصباح ، وتيمورلنك ، وموسى بن نصير ، وعبد الرحمن الناصر ، وتبدو بميزاتها الخاصة نموذج فريدة في التاريخ الاسلامي ، تستحق قبل غيرها أن تعرض في أثواب حية ، محدثة ، وقد

خصّ البعض بالافاضة كتراجم — هرون الرشيد ، وشجرة الدر ، وعبد الرحمن الناصر ، واقتصر بالنسبة للبعض الآخر على تقديم صور موجزة ، ولكن شاملة ، مركزة ، وقد اتبع فيها جميعاً منهج التحقيق التاريخي المدعم بأسانيده ، وقد قصد منها جميعاً الى تبيان الخصائص البارزة للشخصيات التي تناولها ، وقد قسمها المؤلف الى كتابين : الأول يضم شخصيات الشرق الاسلامي ، والثاني يضم تراجم المغرب والاندلس . وقد اتبع الترتيب التاريخي في تبويب الكتابين . فجاء مثال الدراسة القوية ، الدقيقة ، فهل يفتح لنا هذا الكتاب السبيل الى الاكثار من معالجة هذا النوع القيم من الكتابة ؟ وان يمهد الطريق لنتولى بالعناية والدرس ما في تاريخنا من روائع ، فيكون فاتحة خير في هذا المجال .

* * *

٢ — دفاع عن العلم

ترجمة الدكتور عثمان أمين

لقد بات العلم وهو في أمس الحاجة إلى مثل هذا الدفاع الذي يرد عنه عادية المغرضين ، ويحثو عن شخصيته ذلك الغبار الذي أثاره التعصب الذميم ، وروّجه الجهل ، حتى غدا وهو محط النقمة ، ومبعث البغض ، والعلم براء من هذه الصورة البغيضة والمنظر الشائن .

وقد استطاع هذا الدفاع أن يمزق ذلك القناع عن حقيقته ويزيل من الأنفس ذلك الشنآن الذي لا يهدأ ، وأن يرينا صورته غير مشوبة ، فاذا هي رائعة ، حبيبة ، وهل هناك من هو جدير بالتبجيل من العلم الذي لا يثير حفيظته شيء مهما كان شأنه ، بل هو يتجرد من كل داعية من الدواعي ، ويتخلص من كل هوى من الأهواء غير إقباله على تأدية رسالته في إخلاص ، وعناية ، يستقرىء ، ويراقب ، ويسجل ، ثم يعلن ما هداه اليه مجهوده ، ثم لا يحاول أن يفرض نتائجه على أحد ، وهو داعية اخوة وعطف بين بني الانسان ، بل هو يحاول أن يجمع الكل على مائدة واحدة ، متآخية . وقد وفق في تقديم خير ما يمكن أن

يقدم للانسانية في كل ناحية من نواحيها ، ولا يعد هو مسؤول عن هؤلاء الذين استغلوا نشاطه ، وسطوا على مجهوده ، وصيروه مصدر دمار ، ومنبع خراب ، بل المأخوذ بهذه الجريرة ليس هو العلم ذلك الراهب في صومعته بعيداً عن كل مأرب غير مأرب الخدمة الانسانية بل هم الذين أخذوه هذا المأخذ ، فاذا ما تسلل إلى محرابه أناس مدخولي الضمائر ، فلا يجب أن ينوء بذنبهم ، ولا يرجع بأوزارهم ، وهو يستقل بطابعه الخاص عن الفلسفة والدين ، إذ كل منهما يعطي الصورة الأخيرة للعالم ، ويحجر العقل داخل دائرتها ، ولكن العلم لا يتصدى لذلك ، بل هو يترك الباب مفتوحاً لمن يحاول أن يجول جولته في ميدانه وإن كان هناك من الآفاق ما لم يصل فيها الى رأي فلا يطامن ذلك من عزته ، ما دام يقر بأن باب البحث لم يقفل بعد ، فلعلّ المستقبل يحقق ما لم يحققه الماضي ولا الحاضر ، هذا هو المحور الذي يدور حوله هذا الدفاع . ولكن الابداع كل الابداع في بناء هذا الدفاع ، وتسلسله ، وعمقه ، ونضجه ، فهو محكم المقدمات جيد النتائج ، عميق النظرة ينفذ الى الالباب يغريك بالتمهل لتأخذ أقصى ما يتهيأ لك أخذه بل بالبطء والوقوف في كثير من المواضع ، لأنك لا تكاد تمسك نفسك من الاعجاب ، ولا عقلك من الروعة ، كل شيء في هذا الدفاع يفتح أمام ذهنك عوالم من التفكير ، ويمحو من نفسك تلك الغشاوة التي ألقاها أعداؤه فيها ، ويقرّبه الى قلبك ، بل يعليه في نفسك . وليس هذا الدفاع يخلب نفسك من طريق التأثير العاطفي ، بل هو ينزل من نفسك هذه المنزلة بالحقائق التي يعرضها عليك في هدوء ، واتزان ، ولا تجد في نفسك ما يرفضها ، ولا في عقلك ما يزيفها ، وأنا لم أقرأ هذا الدفاع في لغته الأصلية ، بل قرأت الترجمة فشعرت بأنني مغمور بجوّ المؤلف ، وشخصيته ، حية ، قوية ، مؤثرة ، ومعانيه واضحة ، وآراؤه جلية ، مما لا يدع ريباً في أن الدكتور — عثمان أمين — قد وفق توفيقاً حسناً في هذه الترجمة

والدكتور عثمان أمين — من شباب النهضة الفكرية المعاصرة المثاليين الذين تأمل النهضة على أيديهم الخير الكثير في هذا الجانب الخصب من الحياة العقلية .

محمد عبد الحليم أبو زيد

روضة الطفل

سلسلة من القصص المشوقة للاطفال — دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

في مصر هيئتان تشرفان على الثقافة إشرافاً فعليًّا في كل مرحلة من مراحل التثقيف. الأولى منهما رسمية تقوم على دعائم من السلطة الحكومية ومن خزانة الدولة والمجندين لها من رجالها وهي وزارة المعارف. أما الثانية فهي شعبية تقوم على دعائم من عزيمة القائمين بها ومن تضحياتهم العظيمة في سبيل النهوض بالحركة الثقافية، ليس في مصر وحدها، وإنما قد تخطت جهودها وأهدافها حدود مكانها إلى ربوع الشرق العربي، وأعني بها «دار المعارف للطباعة والنشر».

فلقد نهضت هذه الدار بالطباعة العربية نهضة مباركة، فأخرجت خلال مدة زادت عن نصف قرن مؤلفات نفيسة أغنت المكتبة العربية بثروة طائلة. ثم اتجهت منذ عدة أعوام إلى تثقيف النشء، فأصدرت كتباً في هذه الناحية سدّت نقصاً كان محسوساً، وفراغاً كان ملموساً. وقد أفاد من هذه الكتب جيل من الأطفال.

وإلى جانب هذا وذاك عنيت بالثقافة العامة فأخرجت السلسلة الثقافية التي قدمت لقرائها في جميع الأقطار العربية، في سهولة ويسر، ألواناً شتى من العلوم والفنون بأقلام خيرة الكتّاب ونعني بها سلسلة «إقرأ» فان كل منصف يقدر لها جميل صنعها في إبراز هذه المجموعة، ويحس مدى أثرها الكبير من ذلك الاقبال العظيم عليها إقبالاً طغى على ما كان يملأ السوق من فارغ القول.

وقد عادت هذه الدار أخيراً الى الاضطلاع بالمهمة التي كانت قد أخذت نفسها بها، وهي تقديم ألوان من القصص المشوّقة للاطفال موضوعة على احدث الأساليب الفنية في التربية وهي تهدف في ذلك الى تقوية ملكة التخيل في الطفل وترغيبه في الاطلاع، وقد عاونها في ذلك طائفة من الأساتذة الاخصائيين. وهي مهمة جليلة ليس هناك من هو أجدر بالقيام بها من تلك الدار التي عرفت بجودة اختيارها واتقان مطبوعاتها.

وقد أخرجت من هذه المجموعة الجديدة كتيّبين مطبوعين بالألوان طبعاً متقناً، أولها باسم «الكتكت المدهش» والثاني باسم «أرنبو والكنز».

وهي آخذة بسبيل اصدار مجموعة أخرى في هذا المضمار بعنوان «أولادنا» تتفق في الغاية التي تهدف اليها هذه الدار مما يسجل لها بالاعجاب والتقدير.

الناطقون بالضاد في أمريكا

١٠١ صفحة من القطع الكبير — المطبعة التجارية بالقدس — الثمن ثلاثون قرشاً

الأستاذ يعقوب العودات المعروف في عالم القلم بالبدوي الملثم من الأدباء الذين غمست ريشتهم بألوان شاعرية ، فهو رقراق اللفظ موسيقي العبارة ، مرهف الحسّ ، دقيق الملاحظة.

وهو إلى جانب ذلك مخلص لعروبته كل الإخلاص ، يحفل بالأدب العربي في كل صقع من أصقاع العربية — ويعني بدراسته عناية فائقة ، وآية إخلاصه أن أضاف الى المكتبة العربية إلى ما أضاف إليها من مؤلفاته السابقة كالقافلة المنسية ، وإسلام نابوليون ، وأطلال جرشَ ، وما هو آخذ في إخراجه من مؤلفات ككتابه عن فوزي المعلوف ، والشاعر الثائر ولي الدين يكن ، وديك الجن الحمصي . . . أضاف الى كل ذلك كتاباً ممتعاً توفر على نقله من الإنجليزية الى العربية هو كتاب « الناطقون بالضاد في أمريكا » .

ونقله لهذا الكتاب خدمة جليلة قام بها البدوي الملثم إلى أبناء العربية الضاربين في المهجر الأمريكي الشمالي ، والذين بهروا العالم بقوة عزيمتهم ، فقد نقلوا معهم الى هناك نهضة حيوية عجيبة في بابها في كل ناحية من نواحي الحياة : إجتماعية واقتصادية ، وأدبية ، وفنية ،

وكان معهد الشؤون العربية الاميركية في نيويورك قد قام بنشر هذا الكتاب بالانجليزية عام ١٩٤٦ ، فاستهوى المترجم فكرة وأسلوباً، فعكف على ترجمته رغبةً منه في أن يقف أبناء العربية في بقاعها على أنباء إخوان لهم هجروا أوطانهم — لا عن قلى — ولكن لينشروا أمجادها فكانوا رسل خير وبركة لم تقف بهم الغربة عن بلوغ مطمح ما .

وقد علق البدوي الملثم تعليقات ممتعة على هذا الكتاب فجاءت هذه التعليقات متممة للفائدة من هذا الكتاب .

وإنا إذ نعجب بمجهوده في إخراج هذا الأثر نرجو منه أن تتاح له الفرصة فيكمل هذا الكتاب ببحث عن الناطقين بالضاد في المهجر الاميركي الجنوبي فانهم لا يقلون قوة أثر وعظم مجهود عن إخوانهم في الشمال .

حسن كامل الصيرفي

فهرس الجزء الثاني

من المجلد العاشر بعد المئة

٨٣ مدرسة الاسكندرية وانتقال حركة العلم الى أنطاكية : اسماعيل مظهر
٩٤ عانس (قصيدة) : عدنان مردم بك
٩٥ الأطفال عشراء الوحوش : عوض جندي
١٠٠ برلمان الطبيعة (قصيدة) : شاعر البراري
١٠١ الصراع في العالم العربي : الياس يعقوب
١١٣ تلمس في الظلام : ضياء الدخيلي
١١٥ أم من الجحيم (قصة مترجمة) محمد جلال مظهر
١٢٠ عالم العين — شعر علمي : نقولا الحداد
١٢٢ تخريج كتاب الملل والنحل للشهرستاني : محمد بن فتح بدران
١٣٣ الرياضيات في العلوم الطبيعية : فؤاد جميعان
١٣٦ الأثر الدنيوي في الفن القبطي : الدكتور باهور لبيب
١٤١ الاستحمام وفوائده الصحية والطبية : الدكتور عبده رزق
١٤٩ الأب أنستاس ماري الكرملي : محمد عبد الحليم أبو زيد
١٥١ هذي هي الأغلال : حسن القاياتي

١٥٥ مكتبة المقتطف * كيف نسوس حياتنا بعد الخمسين : وديع فلسطين . تراجم إسلامية . دفاع عن العلم . محمد عبد الحليم أبو زيد . روضة الطفل . الناطقون بالضاد في أمريكا : حسن كامل الصيرفي .

ملحق

من ١ — ٥٢ — لورد كليف : تأليف ماكولي : تعريب عبد المنعم صادق

سجل الخالدين

لواحق المقتطف الشهرية

لورد كليف

مؤسس الامبراطورية البريطانية في الهند

تأليف

ماكولي

نقله بتصرُّف الى العربية

عبد المنعم صادق

طبع بمطبعة المقتطف والمقطم

١٩٤٧

نشأة كليف

في القرن الثاني عشر هبطت أسرة كليف مقاطعة شروبشير واقتنت مزرعة قريبة من «ماركيت درايتون». وظلت تعيش على ما تغله من إيراد . . . وفي خلال حكم الملك جورج الأول آلت هذه المزرعة الى مستر ريتشارد كليف الذي لم يكن يتميز عن أي رجل عادي بأية موهبة أو كفاءة ، ولكنه أصبح من رجال القانون. وكان وقته موزعاً بين واجباته كقانوني والتزاماته كزارع يشرف على مزرعته . وتزوّج في مانشستر من سيدة من أسرة هاسكيل . أنجبت له عدة أبناء كان أكبرهم روبرت كليف مؤسس الامبراطورية البريطانية في الهند ، وكان مولده في التاسع والعشرين من شهر سبتمبر عام ١٧٢٥ .

ودرج الطفل من مهده وبدأت تتجلى فيه تلك الصفات التي صحبته في صباه وشبابه ولازمته في رجولته وكان أبلغها ظهوراً قوة إرادته وحدة عاطفته وشجاعته التي لا حدّ لها والتي كان يصحبها أحياناً تهوّر واندفاع مما دعا الناس الى اتهامه بالجنون . ولقد حكي عنه بيلي كليف إنه كان مولعاً أشد الولع بالمقاتلة فكان يغضب ويتشاجر لأتفه الأسباب . ولقد كان أهل القرية يذكرون تلك العصابات التي كان يكوّنها في صغره من زملائه في الطفولة ويفرض على أرباب الحوانيت إتاوة ليضمن لهم سلامة واجهات محالهم . وسببت هذه الصفات لأهله كثيراً من المتاعب فأخذوا ينقلونه من مدرسة الى أخرى دون أن يحصل على أي قدر من العلوم بل يزداد شهرة في الاعتداء على الناس باليد واللسان . ومع هذا فقد تنبأ له أحد أساتذته وهو الدكتور ايتون بأنه « لو عاش هذا التلميذ حتى صار رجلاً وتهيأت له الظروف المساعدة، فانه سيكون رجلاً عظيماً » . ولكن الاعتقاد العام في روبرت كان . « أنه غبي شرّير » وكانت عائلته لا ترجو منه خيراً ، فلم يكن غريباً منها حين بلغ الثامنة عشرة من عمره أن توافق على تعيينه كاتباً في خدمة شركة الهند الشرقية . وودعه ذووه على ظهر السفينة

التي حملته الى فرع الشركة في مدراس وكانوا يرجون له الثراء أو الموت .

وكانت شركة الهند الشرقية شركة تجارية محضاً وتشغل بضعة أميال مربعة في بلاد الهند تدفع عنها إيجاراً سنويـاً للحكومات الوطنية . وكان لها فصائل من الجند قليلة العدد لا تكاد تكفي للاشراف على ثلاث أو أربع قلاع متتابعة مقامة لحماية مستودعات الشركة . ولم يكن هؤلاء الجنود ومعظمهم من الوطنيين الهنود قد تدربوا على النظم العسكرية الاوربية وكان سلاحهم السـيف والدرع أو القوس والنشاب . وكانت مهمة موظف الشركة تنحصر في جرد البضـائع أو دفع عرابين لعملاء الشركة من التجار أو الاشراف على شحن السفن . هذا الى مراقبة حركات التجار الذين يجرؤون على مزاحمة الشركة .وكان صغار الموظفـين مضطرين الى الإستدانة لضآلة مرتباتهم ، أما كبارهم فـكانوا يشتغلون لحسابهم الخاص فأصبحوا على شيء من الثراء . أما أولئك الذين كانوا في الوظائف الرئيسية فقد تيسر لهم جمع ثروات طيبة .

أما فرع الشركة في مدراس حيث عين روبرت كليف ، فـكان أهم فروعهـا حيث قلعة سان جورج التي أنشئت في سـنة ١٦٤٠ في مكان قاحل تغير عليه دائمـاً أمواج المحيط الصاخبة . وكان على مقربة منهـا ثلاث قرى كل منها في شمال الأخرى وتكوّن في مجموعها مدينة مدراس، فأولاها المدينـة البيضاء حيث يقيم ثلثمائة انجليزي وبضعة أوربيين آخرين و « المدينة السوداء » حيث تجار الأرمن والهنود وثالثتها قرية يقيم بها الوطنيون الفقراء . وكان عددهم آخذاً في الازدياد .

وفي داخل القلعة وما جاورها كان للانجليز من الحقوق ما كان لأي مالك هندي آخر في ممتلـكاته ولـكنهم لم يطمعوا يوماً في الاستقلال بهـذه البقعة من الأرض التي كانت تابعة لأقليم الـكرنات الذي كان عليه « نواب » ينوب في حكمه عن « نظام » الدكن الذي كان يستمد سلطانه من المغل العظيم سليل جانكيز خان والمتربع على عرش دلهي .

الى الهند

وكانت رحلة كليف مجهدة له ولاسيما في تلك السن المبكرة . وقد رست السفينة خلال تلك الرحلة على ميناء ريو دي جانيرو حيث ظلّت تسعة أشهر واستطاع المغامر الشاب أن يعلم

الكثير عن البرتغاليين في إقليم البرازيل . وكان طول اقامته فيها سبباً في أن يأتي على ما كان معه من نقود وان يقترض من ربان السفينة . وبلغت السفينة مدراس بعد أكثر من عام . وكان كليف مفلساً ومرتبه ضئيلاً إذ لم يكن يتعدى خمسة جنيهات في الشهر . واضطرّ الى الاستدانة . وكان مقامه في سكن لا يصلح لسكن أوروبي في ذلك الجو الحار وكان حين وصوله يحمل خطاب توصية لرجل كان من المحتمل أن يجد فيه عوناً له ، ولكنه لم يجد الرجل إذ كان قد سافر الى انجلترا قبل مقدمه . ومنع كليف حياؤه ثم كبرياؤه من أن يتقدم الى من لا يعرفهم وهكذا قضى في بلاد الهند بضعة أشهر قبل أن يتعرّف الى غيره أو الى أسرة واحدة . وأثر المناخ وسوء الاقامة في صحة الفتى ونفسه إذ لم يكن ما يؤديه من عمل يتفق مع نشاطه وجرأته فأحسّ بحنين الى وطنه واشتد حنينه اليه فكتب الى صديق له في انجلترا يقول « لم أشعر يوماً منذ غادرت أرض الوطن أني سعيد وان الحزن والأسى ليعترياني حين أفكر في انجلترا وكم أكون سعيداً عند ما تتاح لي فرصة زيارتها لا سيما مانشستر محط آمالي » .

ووجد شيئاً من الراحة حينما كان يسمح له وكيل الشركة بزيارة مكتبته وصار يقضي بين جدرانها أوقات فراغه وأقبل على الاطلاع على ما حوته الكتب التي وصلت الى يده .

ولكن لا المناخ السيء ولا الفقر القاسي ولا الدرس والاطلاع ولا مرارة النفي ، قد هذبت من نفسه المتمردة فكان موقفه من رؤسائه دائماً هو موقفه من أساتذته في المدرسة حتى كاد يفصل من عمله يوماً ما واشتد به اليأس مرتين فحاول الانتحار في كليهما ولكن الرصاص لم ينطلق من مسدسه في واحدة منهما ، فانقلب يأسه أملاً واعتقد أن الأيام تدخره لعمل عظيم .

الضابط كليف

وكانت انجلترا في حالة حرب مع فرنسا في أوربا وكان طبيعيًّا أن تكون الحال كذلك في بلاد الهند ، فقد هاجم لابوردونيه حاكم موريشيوس الانجليز في مدراس واستولى على قلعة سان جورج وعلى المدينة ورفرفت الأعلام الفرنسية على اقامة واتفق مع الانجليز

على أن يعتبروا أنفسهم أسرى حرب وتعهد بأن تبقى المدينة في يد الفرنسيين حتى تدفع لهم التعويضات اللازمة فيرحلوا عنها .

ولكن انتصار لابوردونيه أثار غيرة مواطنه دوبليه حاكم بندتشيري فأعلن أن لابوردونيه قد تجاوز حدود سلطته في عقد هذه المعاهدة وان جميع المقترحات التي تتم في بلاد الهند تحت الراية الفرنسية انما تكون خاضعة لحاكم بندتشيري وحده . وبهذه النظرية ضم مدراس اليه وساق كبار موظفي الشركة الى بندتشيري وسيرهم في شوارعها باحتفال كبير شهده خمسون ألفاً من المشاهدين . واستطاع كليف أن يهرب من الأسر ليلاً فآوى الى قلعة سان دافيد وكانت احدى القلاع التابعة لمدراس ولم تسقط بعد في يد الفرنسيين .

وهكذا تهيأت لكليف الظروف التي تتناسب مع صفاته ومميزاته وطلب من أولي الأمر في سان دافيد أن يعينوه ضابطاً في القوات البريطانية وأجيب الى طلبه . وكانت سنه وقتذاك احدى وعشرين عاماً . وحدث أن اشتبك في عراك مع أحد جنود الفرقة التي كان بها وكان هذا الجندي مشهوراً بالقوة البدنية الهائلة وكان مصدر فزع الفرقة كلها وانتصر عليه فزاد قدره عند زملائه والتفوا حوله وبدأت الأنظار تتجه اليه لما امتاز به من الشجاعة والعدل والحكمة والاخلاص في طاعة الأوامر، وبدأ نجمه في الصعود في أثناء المعارك المحلية التي كانت تدور بين الانجليز والفرنسيين حتى استرعى بأعماله نظر قائده الميجور لورنس.

وعقد الصلح بين انجلترا وفرنسا فعادت مدراس الى الانجليز وبهذا عاد الضابط الشاب الى الحياة المدنية ثم تركها الى الزي العسكري ولم يمكث به غير قليل حتى عاد الى وظيفته الكتابية . وبينما كان في تنقلاته هذه بين الحياتين العسكرية والمدنية حدث ما حدد مصيره واتجاهه. ذلك ان الحرب وإن وضعت أوزارها في أوربا إلاّ أنها قد شبّ أوارها في الهند بين الشركتين الانجليزية والفرنسية اللتين كانتا تتنازعان للحصول على أملاك تيمورلنك في الهند.

ولقد كانت الامبراطورية التي أسسها المغول في القرن السادس عشر من أوسع وأعظم الامبراطوريات التي نشأت في التاريخ حتى ذلك الحين ، من حيث عدد السكان أو مقدار الثراء أو مظاهر الترف والنعيم . إلاّ أن سياسة الحكم في تلك الامبراطورية حتى في أوج مجدها كانت سيئة جداً وذلك لأن نظام الحكم المطلق هو الذي كان سائداً فيها وما نشأ عن

حكم التتار وهم أقلية لشعب كبير العدد من أجناس متباينة ومن وجود خلافات قامت بها قبائل الهندوس . ولكن هذه الأحداث لم تؤثر في مظهر الدولة الخارجي فبدت عظيمة متماسكة وان كانت قد هدت من كيانها الداخلي . وظلت على هذا الوضع حتى أواخر حكم أورو نجزيب في سنة ١٧٠٧ وبموته إنهارت الدولة كأنها بيت من الورق.

فقد تولى الحكم بعد هذا الامبراطور في خلال أربعين عاماً، ملوك قنعوا بأن يكون لهم الملك بالاسم والاقامة في قصور تهيأت لهم فيها كل وسائل النعيم والترف والخمول والدعة والخمر والحشيش والنساء وأهازيج الأوتار ، وذلك في وقت كان المغيرون فيه ينتقصون الدولة من أطرافها ويلتهمون ثرواتها، فهبط نادر شاه ملك فارس في ١٧٣٩ سهول الأندوس في الشمال الغربي من بلاد الهند واقتحم أبواب دلهي وحمل منها كنوزها إلى بلاده وأعقبته قبائل الأفغان وراجبوتانا ثم قبائل المهراتا . وكانت أشد القبائل المغيرة وحشية وقسوة وأصبحت مصدر رعب دائم للهنود . فما كان يسمع الفلاح صوت قرع طبولهم حتى يحمل ما يتيسر له حمله من متاع ويهرب الى الجبال أو الغابات حيث يجد في مجاورة السباع أمناً لا يجده في مجاورة الذين كانوا يفرضون الجزية على الولايات والتجار الأوربيين ، بل إن الامبراطور نفسه كان يدفع لهم مايفرضونه عليه صاغراً وهو يرى من نوافذ قصره في دلهي ، نيرانهم فوق قمم الجبال الغربية .

***

وتقاسمت القبائل المغيرة أملاك الامبراطور ونشأت فيها دويلات صغيرة في طول البلاد وعرضها ، كانت لا تلبث أن تضعف وأن يسترد السلطان فيها نواب ينصبون أنفسهم حكاماً تابعين إسمًا للامبراطور الضعيف يرسلون له الهدايا الفاخرة دليلاً على تلك التبعية التي تكسبهم صفة شرعية لحكم البلاد التي يحكمونها وكانوا فيها اصحاب السلطة الحقيقية لا يمكن عزلهم أو نقلهم إلى جهات أخرى وكان هؤلاء النواب مسلمين، فكونوا أسراً اسلامية تولت الحكم في اقليمي البنغال والكرنات .

دوبليه

ورأى دوبليه وكيل شركة الهند الفرنسية هذه الفوضى الضاربة أطنابها في بلاد الهند، ورأى بثاقب فكره المتوقد وقوة ذهنه الجبار، انه يمكنه أن يستفيد من هذه الفوضى الشاملة فيؤسس على أنقاضها امبراطورية فرنسية تضم تحت لوائها المسلمين والهندوس على السواء والهنود الوطنيين وقبائل المغيرين معاً وان يؤلف من تلك الشعوب المتباينة في الجنس واللغة والدين والعادات شعباً واحداً يدين بالولاء لفرنسا . ولم يقنع دوبليه بتحديد الغاية بل رسم الخطة التي توصله الى تحقيق هذه الغاية، وذلك في وقت كان فيه أقدر موظفي الشركة الانجليزية لا يشتغلون إلاَّ بأعداد الفواتير وجرد المخازن والاشراف على الشحن ومراقبة التجار المحليين .

وكان دوبليه يرى أن ما يمكن لأي أمير هندي جمعه من جند لا يستطيع أن يقف — مهما كان عدد جنوده من الكثرة — في مواجهة قوة صغيرة من الجنود النظاميين والمدربين على النظم الأوربية ، وانه من الميسور تدريب الجنود الوطنيين على النظم الغربية الحديثة فيصبحون قوة عظيمة، وان الطريقة المثلى المغامر الأوربي هي مراقبة الحوادث والاستفادة من تطوراتها وان يتخذ من الخلافات التي تنشأ بين الأمراء سبيلاً للتدخل بينهم واتخاذ بعضهم ستاراً يعمل من ورائه على تحقيق غايته — هذه هي السبل التي رسمها دوبليه وسار فيها الانجليز فيما بعد.

ولقد حدث أن توفي « نظام » الدكن في عام ١٧٤٨ وورث ملكه إبنه ناصر جنج وكانت « الكرنات » أغنى المقاطعات التابعة له يتولى الحكم فيها « نواب » أنوار الدين منذ عام ١٧٤٠ وكان طبيعيًّا في تلك الفوضى الشاملة أن يظهر أمراء طموحون يطالبون بالعرش، وأن يجدوا العون في أولئك الوصوليين الذين يهبون مع كل ريح طمعاً في المغانم والأسلاب، فظهر مطالب بعرش الكرنات وكان إسمه هندا صاحب، ومطالب آخر بعرش الدكن وإسمه ميرزا فاجنج الذي كان حفيداً للنظام الراحل . واتحد هذان المطالبان وانضم تحت لوائهما الكثيرون ولم يكتفيا بذلك ، بل طلبا من الفرنسيين شد أزرهم في هذه المطالبة . ووجد

الفرنسيون الفرصة سانحة لتحقيق أغراضهم ونيل مآربهم فأمدوهما بقواتهم واطمأن المطالبان الى هذا المدد كل الاطمئنان ، لا سيما وقد رأيا الفرنسيين ينتصرون على الانجليز في ساحل « كروماندل » .

وتقرر أن يبدأ بغزو مقاطعة الكرنات فسارت الحملة وقد زاد في قوتها ما أمدها به الفرنسيون من قوات بلغ عدد أفرادها أربعمائة جندي فرنسي وألفي جندي هندي مدرب على النظم الاوربية . وكان طبيعياً أن ينتصر الحلفاء على قوات « نواب » الكرنات وأن يظفروا به ويقتلوه وأن يهرب إبنه محمد علي الذي لجأ الى « تريشنوبولي » وأن تتم بهذا سيادة الغزاة على مقاطعة الكرنات . فنصب شندا صاحب نواباً عليها . وكان دوبليه المساهم الأول في هذا التنصيب فأصبح صاحب النفوذ الأول فيها والحاكم الحقيقي لتلك المقاطعة .

وبعد بضعة أشهر قضاها الحلفاء في حروب ومفاوضات ومؤامرات برزت فيها كفاءة دوبليه وساعده حسن حظه فأصبح صاحب الأمر والنهي في إقليم الدكن كله، ذلك أن ناصر جُنْج قتله أتباعه وتولى مكانه ميرزافا جُنْج، وبهذا انتصرت السياسة الفرنسية في ذلك الجزء من بلاد الهند وأقيمت حفلات التتويج الرائعة في مدينة بوندتشيري حيث أطلقت المدافع ودقت أجراس الكنائس وبعد أن تم تتويج ميرزافا « نظاماً » لأقاليم الدكن أعلن هذا تعيين شندا صاحب « نواباً » لمقاطعة الكرنات و« دوبليه » حاكماً على ذلك الجزء من بلاد الهند الذي يقع بين راس كومورين ونهر كريستنا والذي يبلغ عدد سكانه ثلاثين مليون نفساً ومنحه من الامتيازات ما فاقت به امتيازات شندا صاحب ، فقد عين رئيساً لسبعة آلاف فارس وجعل صك النقود قاصراً على بوندتشيري ، واستولى على جميع خزائن المال والنفائس التي كان أمراء الدكن قد جمعوها طيلة حياتهم . وقد تواترت الأنباء عن قدر ذلك المال الذي انساب الى خزائن دوبليه ومنها ما يحدد قدره بمائتي الف جنيه . وفي الواقع لا يمكن تحديد ما جناه الحاكم الفرنسي من وراء تلك الحملة فضلاً عن انه أصبح الحاكم المطلق على ثلاثين مليون نفس إلى نفوذه الكبير في الاقليم كله فان أمراً ما كان يبت فيه قبل استشارته .

ولم يبق ميرزافا جُنْج في مركزه العظيم سوى أشهر قلائل . ثم تولى مكانه أمير آخر من نفس الأسرة مستنداً الى نفوذ الفرنسيين فوافق على جميع الامتيازات التي منحها لهم سلفه

وأصبح اسم دوبليه يلقي الرعب في النفوس حتى في نفس الامبراطور في دلهي . وكان الأهالي يعجبون كيف أتيح لذلك المغامر الأوروبي أن يحرز كل هذا التوفيق في مدة لا تزيد على أربعة أعوام . ولم يكتف دوبليه بهذا النصر ، بل استولى عليه الغرور فشاء أن يرسخ في أذهان الهنود والانجليز على السواء ما ظنه بعيداً عن تلك الأذهان من قوة مركزه واتساع سلطانه، فأمر بإقامة مسلة في نفس المكان الذي سقط على مقربة منه ناصر جنج وعين ميرزافا جنج وأن يكتب على هذه المسلة أنبـاء انتصاراته وأن يكتب كل وجه من وجوه المسـلة الأربعة بلغـة غير التي يكتب بها الوجه الآخر حتى يعلم الشرق كله من هو دوبليه وما هي فرنسا . وحول هذه المسلة أنشئت مدينة دوبليه الفاتح .

وقام الانجليز بمحاولات ضعيفة لوقف تفوق الشركة المنافسة وظلت تعترف بمحمد علي كنواب لمقاطعـة الـكرنات رغم أن هذا الأمير لم يكن له سوى قرية تريشنوبولي ، وحتى هذه القرية أصبحت الآن محاصرة يقف على أسوارها شندا صاحب وأعوانه الفرنسيون . وكان لا بدّ من رفع هذا الحصار ولـكن هذا الأمر بدا مستحيلاً ، فقيادة الانجليز في مدراس كانت بدون قائد لأن الميجور لورانس عاد الى انجلترا ولم يكن هنـاك ضابط واحد يمكن الاعتماد عليه . وكان الهنود يرون أن الفرنسيين هم سادة المستقبل فقد رأوهم يوم استولوا على قلعـة سان جورج وشهدوا الأعلام الفرنسية ترفرف عليهـا ورأوا كبار موظفي الشركة الانجـليزية مسوقين في ركاب المنتصرين في شـوارع بونديشيري ، ولمسوا انتصار جيوش دوبليـه في كل مكان حلت به ورأوه صاحب الأمر في الأقليم كله بينما لم يروا من الانجليز إلا الضعف . في تلك اللحظة ظهر شاب انجليزي مغمور تجلت فيه الشجاعة والقدرة ، فتغير مجرى الأمور .

أركوت

كان كليف في تلك الأثناء قد بلغ الخامسة والعشرين من عمره ، وبعد أن قضى فترة طويلة في تلك الأثناء بين حياتيه العسكرية والمدنية ، عين بصفة دائمة في وظيفة تجمع بين الناحيتين وهي وظيفة ضابط تموين فصائل الجند برتبة كابتن . واستطاع هذا الضابط الشاب أن يقنع

ولاة الأمر في مدراس بأنه من الواجب أن يبذل مجهود لانقاذ تريشنوبولي ، وإلاّ فان تلك القرية ستسقط في أيدي الفرنسيين وتقتل محمد علي وتفني أسرة أنوار الدين وتتم بهذا سيطرة الفرنسيين على شبه جزيرة الهند كلها . وأنه لا بدّ من القيام بغزوة كبيرة . فمثلاً اذا وجهت هذه الغزوة الى اركوت عاصمة الكرنات التي يفضل المقام فيها حكام الكرنات ، فليس من المستبعد في هذه الحالة أن يرفع الحصار عن تريشنوبولي . ورأى رؤساء كليف أن فكرته وجيهة تستحق التنفيذ ، لأنهم كانوا يخشون أن يجيء يوم تعلن فيه الحرب بين فرنسا وانجلترا في أوروبا وتصل الى الهند فتهجم قوات فرنسا الموجودة ببلاد الهند على أملاك الشركة الانجليزية في مدراس وتدمر المدينة نهائيًا ، وتبعاً لذلك وافقوا كلية على ما ذهب إليه ، وفوضوه في أمر تنفيذ الفكرة ، وجعلوا تحت إدرته مائتي جندي انجليزي وثلثمائة جندي هندي مدربين تدريباً أوروبيًا . ولم يكن بين ضباط هذه الحملة سوى إثنين شهدا الحرب وعرفا ما هي . وسارت الحملة في جوّ عاصف مطير حتى بلغت أبواب أركوت فذعرت الحامية وأخلت القلعة وولت الادبار فاحتلها كليف دون أن يطلق رصاصة واحدة .

وكان كليف يعلم أنه لن يترك آمناً في اركوت وإنه سيهاجم حالاً فأقبل على جمع الأقوات والذخائر وتقوية الاستحكامات إستعداداً للحصار ومواجهة الهجوم المتوقع . وكانت الحامية التي هربت عند مقدمه الى ضواحي المدينة قد جاءها مدد أصبحت به عدتها ثلاثة آلاف رجل عسكرت بظاهر المدينة حتى أقبل المساء ، فخرج عليهم كليف فجأة ، وأعمل فيهم القتل ، فمات كثيرون وهرب الباقون . وأخيراً عاد الى قلعتـه دون أن يخسر رجلاً واحداً من رجاله .

وبلغت أنباء هذه الأحداث الى شندا صاحب ، حيث كان يحاصر هو وحلفاؤه الفرنسيون مدينة تريشنوبولي ، فجرّد أربعة آلاف رجل من جنوده وأمرهم بالسير الى اركوت . وهناك انضمت إليهم فلول حامية المدينة التي بقيت من المعركة السابقة كما جاءهم مدد آخر ، إن يكن أقل عدداً ، إلاّ أنه كان أكثر أهمية من الوجهة الحربية . وكان هذا المدد مكوناً من مائة وخمسين جنديًا فرنسيًا أرسل إليهم من بوندتشيري . وبهذا أصبح عدد القوات المتحالفة عشرة آلاف مقاتل يتولى قيادتهم راجا صاحب ابن شندا صاحب .

وتقدم بهذه الحملة نحو قلعة اركوت مصمماً على حصارها ، وكان يرى أن هذا الحصار كافٍ للإستيلاء عليها لأنها فى رأيه لم تكن لتحتمل الحصار الطويل لتهدم جدرانها وجفاف الخنادق المحيطة بها وضيق العيون المخصصة لتصويب المدافع في أعالي الأسوار.

ودام الحصـار خمسين يوماً تناقص خلالها عدد الحامية فأصبح ١٢٠ أوروبيًّا و٢٠٠ وطني ، ولم يكن بين هذا العدد من الضباط سوى أربعة . أما القوة فأوشكت على الفناء وكان الذي يتولى قيادة الحامية شاب في الخامسة والعشرين من عمره كان عمله أصـلاً كاتباً في أحد مكاتب الشركة .

ولـكن هذا الشاب « كليف » أبدى في قيادته الحزم والقدرة واليقظة ما لو أبداه أي قائد عظيم في أوروبا لنال من أجله أعظم الأوسمة وأفخر النياشين . ولـكن الانحلال بدأ بعد هذه المدة الطويلة يدب في قوى الحامية إذ بدأت تحس وطأة الجوع القاسي . ولـكن رغماً من قلة عدد الضباط ورغماً من اختلاف العناصر التي كانت تتألف منها تلك الحامية لم تظهر روح التمرد والعصيان بين الجنود ، وهي الروح التي كان من المحتمل أن تظهر بين أمثالهم في ظروف مشابهة . ذلك لأن حب كليف الذي كان قد تمكن من قلوب جنوده وإعجاب هؤلاء به ، قرّب بينهم وأزال الفوارق الدينية والعنصرية وزاد روح التضحية عندهم قوة . ويمكننا أن نعلم قوة هـذه الروح بين أولئك الجنود من تقدم الوطنيين الى كليف وهو في إبان أزمته ، لا ليشكوا قلة الجراية المخصصة لهم ، ولـكن ليقترحوا عليه أن يخصص الحبوب كلها للاوربيين من زملائهم لأنهم على حد قولهم أكثر حاجة الى التغذية منهم لأنهم لم يتعوّدوا الصبر على الجوع كما تعودوه ، ولأنهم غرباء أحق بالرعاية . وعرض أولئك الفدائيون على قائدهم أن يطعمهم بنشاء الأرز الذي كانوا قد تعودوه غذاءً لهم ولم يرو التاريخ أروع من هذا المثل في التضحية والوفاء العسكري ، ولا أبلغ منه دلالة على محبة الجنود لقائدهم .

* * *

ولقد حاولت حكومة مدراس أن ترفع الحصار عن أركوت ، ولـكن هذه المحاولة فشلت ، وظلت الحامية تقاسي متاعب هذا الحصار حتى لاح بريق الأمل من ناحية أخرى . ذلك أن جيشاً قوامه ستة آلاف من جنود (المهراتا) الذين اتخذوا الجندية مهنة وقطع الطرق

وسيلة للعيش بقودهم موراري راو كانوا قد استؤجروا انجدة محمد علي في تريشنوبولي، الا أنهم أحجموا وقتاً طويلاً عن هذه النجدة .

فقد كانوا يظنون أن قوة فرنسا لا تقاوم ، وأن النصر محالف لشندا صاحب الذي تشد أزره هذه القوة ، فظلوا لا يحركون ساكناً مقيمين على حدود الكرنات . حتى إذا علموا نبأ حصار أركوت وتلك القوة العجيبة التي أبداها الانجليز في مقاومة هذا الحصار، أيقظهم ذلك من سباتهم وأعلن موراري راو أنه لم يظن أبداً أن الانجليز يستطيعون الحرب الى هذا الحد . أمّا وقد رأى منهم ما رأى، فانه سيساعدهم ما وسعته المساعدة . وعلم راجا صاحب أن المهراتا في طريقهم اليه، وانه لا بد من الاقدام على عمل سريع يتفادى به الالتحام مع تلك القوة الخطرة ، فحاول بادىء ذي بدء مفاوضة كليف وعرض عليه رشوة كبيرة لعله يقبل شروط الصلح التي عرضها عليه، ولكن هذا رفضها بامتهان وصلف، فاضطرّ راجا صاحب إلى أن يثور ويعلن أنه اذا لم تقبل شروطه فانه سيقوم بهجوم عام على القلعة وانه سيقتل جميع من فيها بلا استثناء . فردّ عليه كليف في ازدراء وتهكم بهذا الوعيد .

وأخذ كليف يعد عدته لمقاومة الهجوم المنتظر ويقوي من استحكامات القلعة ويرتب مواقف الجنود ويجهز الذخائر ويصلح من أدوات القتال . حتى بدأ الهجوم المظيم — فتقدمت الفيلة التي تغطي رؤوسها صفائح الحديد .

كان قائد المهاجمين مطمئنـًا الى أن أسوار القلعة ستتداعى تحت أقدام هذه الفيلة وأن الأمر لن يكلفه أكثر من ذلك . ولكن هذه الفيلة ما اصطلت بنار الانجليز حتى ولت الأدبار وداست بأقدامها في تقهقرها أولئك الذين كانوا يسوقونها . الاّ أن بعض جنود راجا صاحب استطاعوا عبور الخندق المحيط بالقلعة ولكن رصاص المدافعين ردهم عنها أكثر من مرتين . ودام القتال ساعة سقط فيهـا أربعمائة رجل ولم يفقد المدافعون غير خمسة أو ستة رجال . وقضى كليف ليلة عصيبة كان يتوقع خلالها أن يقوم راجا صاحب بهجمات جديدة ، ولكن ما انبثق ضوء الفجر حتى لم يعد للمهاجمين أثر ، فلقد فروا تاركين وراءهم سبعة مدافع وكمية كبيرة من الذخائر . وهكذا رفع الحصار عن أركوت .

النصر

ووصلت هذه البشرى الى قلعة سان جورج فعمَّ السرور والابتهاج ، وأصبح كليف في أعين مواطنيه وجنوده قائداً موفقاً ، فأرسلت اليه حكومة مدراس مائتي جندي انجليزي وسبعمائة جندي هندي لتعزيز قواته . فلما وصلت كليف هذه الامدادات تحول بها من الدفاع الى الهجوم فزحف بقواته على قلعة تيمري واستولى عليها ، وهناك اتصل بجزء من قوات موراري راو فضمها تحت لوائه وسار بهذه الجيوش لمهاجمة راجا صاحب الذي كان على رأس خمسة آلاف رجل بينهم ثلثمائة فرنسي فدارت بين الفريقين معركة حامية نال فيها كليف نصراً حاسماً استولى به على خزانة راجا صاحب، وانضم اليه على أثره ستمائة هندي من جنود الراجا واستسلمت له كونجفرام دون أن يطلق رصاصة واحدة،وكذلك انضم اليه حاكم «أرنيه» بعد أن ترك جانب شندا صاحب وأقرَّ بولاية محمد علي.

ولو كان الأمر بيد كليف وحده لسار به الى نهاية طيبة وسريعة ولكن الحذر والضعف اللذين كانت حكومة مدراس تبديهما في قراراتها وأوامرها، كل هذا أطال أجل الصراع دون أن تكون هناك ضرورة لذلك ، فاستطاع راجا صاحب خلال فترة التردد هذه أن يجمع شمله وان يسير على رأس جيش قوي بينه أربعمائة جندي فرنسي الى قلعة سان جورج، فلما صار في ضواحيها اعتدى على مساكن موظفي الشركة الانجليز وخربها ولكن كليف سارع اليه واستطاع أن يحيط بجنده ويهزمهم هزيمة منكرة قتل فيها فيمن قتل مائة جندي فرنسي وكان هذا خسارة كبرى . تعادل خسارة بضعة آلاف من الوطنيين . وحينئذٍ اتجه كليف ببصره نحو قلعة سان دافيد .

سار كليف وقد قويت روحه المعنوية كثيراً الى قلعة سان دافيد ومرَّ وهو في طريقه اليها بمدينة دوبليه الفاتح والنصب التذكاري المقام بها وأمر بتدمير المدينة والنصب تدميراً شاملاً . ولم يصدر في ذلك الأمر عن غيرة شخصية ، ولكنه صدر عن رغبة ملحة لازالة العقيدة التي تتركها في نفوس الأهالي اقامتها . وليبدد ذلك المظهر الرائع الذي كانت تلك الآثار تضفيه على الفرنسيين حتى تسرَّب الى نفوسهم الاعتقاد بأن فرنسا لا تقهر ،وأنها هي الدولة الأوربية الأولى التي لا يمكن للانجليز مقاومة سياستها .

وقررت حكومة مدراس أن تمد كليف ، وقد تهيأ له كل هذا النصر، بفرق قوية لانقاذ حامية قلعة تريشنوبولي . وما تمّ اعداد الحملة حتى كان الميجور لورانس قد وصل من انجلترا وتقرر أن يتولى القيادة العامة . وكان المتوقع في مثل هذه الظروف أن يتحكم الغرور في نفس كليف بعد كل ما تهيأ له من نصر رائع في العمليات الحربية التي قام بها أو تثور فيه نزعاته القديمة التي ظهرت فيه طفلاً وصبياً من العناد والمكابرة والمشاكسة فيرفض العمل تحت قيادة الميجور لورنس. ولكن المدهش حقاً والذي يدل على علوّ نفس كليف، أنه خضع لقيادته . فلم يبد أي تراخٍ في أداء واجباته بل كان مخلصاً كل الإخلاص مطيعاً نشطاً .

ولم يكن لدى الفرنسيين قائد يستطيع أن يقف أمام الصديقين، إذ أن شهرة دوبليه كانت قائمة على أساس أنه سياسي داهية ساهم بنصيب كبير في تلك المؤامرات والمفاوضات التي تمت حينذاك في بلاد الهند . أما دوبليه المحارب فلم يكن ليستطيع أن يقود جيشاً أو يخوض معركة فلم يكن جندياً يوماً ما ولم تكن به رغبة ليصبح كذلك حتى لقد اتهمه أعداؤه بالجبن . ولكي يدحض هذا الاتهام حكي عنه أنه في خلال إحدى المعارك سارع الى قنبلة ملقاة على الأرض عقب إشعالها ولكنه بلغها متأخراً. فلما انفجرت كسته بطبقة من التراب فالتفت الى جنوده قائلاً (ها أنتم ترون يا أبنائي أنها لاتضر) . ويرى النقاد الحربيون أنه لم يكن قائداً بل كان كل ما يصلح له إنما هو وضع الخطط الحربية . ولقد دفع دوبليه عن نفسه تهمة الجبن بقوله إنه يفضل الابتعاد عن مواطن الضرب، لأن الهدوء والسكينة تخلقان الجو المناسب له ، والذي يستطيع فيه أن يضع خططاً محكمة تجيء متى نفذت بدقة ، بنتائج طيبة . ولكنه كان دائم الشكوى من أنه لم يكن لديه ضباط يحسنون تنفيذ خططه بإحكام . ذلك بعد أن تركه «باسي» ولحق ببلاط النظام وبقي في خدمته يرعى مصالحه الشخصية ويخدم وطنه عن طريق السياسة، وان من بقي لديه من ضباط إنما كانوا شباناً يجهلون شئون الحرب ولم يكن بينهم من كان متصفاً بأية مهارة أو حذق .

وانتصر الانجليز في كل مكان فبعد أن كانوا محاصرين في قلعة تريشنوبولي أصبحوا هم يحاصرون أعداءهم ويكرهونهم على الاستسلام . ووقع شندا صاحب أسيراً في أيدي المهراتا وأعدم . ويقال إن هذا الإعدام تمّ بناءً على طلب محمد علي . وبهذا تمّ انهيار سياسة دوبليه

وغضبت عليه ادارة الشركة الفرنسية في باريس فكفت عن مده بالعون والتشجيع . ورغم هذه الصعوبات ، فان دوبليه لم يتطرق اليأس الى نفسه، ولم تثبط همته ، ولا نضبت موارده . فواصل مقاومة الانجليز بالطريقة التي يتقنها ، طريقة الدس والمؤامرات وبذل المال بالرشوة والاسراف في الوعود الخلابة، حتى نفذت ثروته بل اضطر الى الاستدانة . كل ذلك في سبيل إثارة أعداء جدد على حكومة مدراس . واستطاع أن يجد أعواناً له ولكنه رغم هذا كله قد ذهبت جهوده أدراج الرياح لأن قوة بريطانيا في الهند كانت قد أخذت في النماء على عكس ما حدث لقوة فرنسا التي بدأت تنهار وكان انهيارها سريعاً .

ولم تكن صحة كليف منذ أن نزل أرض الهند طيبة يوماً ما ، ولكنها بلغت من السوء ما حمله على أن يصمم على العودة الى انجلترا . وساقت إليه الظروف عملاً وحتمت عليه أن يؤديه قبل رحيله وكان هذا العمل الذي وكل إليه به ، هو حملة مجهدة زادت متاعبه وآلامه . ولكنه قام بها بكل نشاط ومهارة . ذلك أن قلعتي كوفلونج وشنجلبت كانتا في أيدي الفرنسيين ورأي الانجليز أن يقوموا باحتلالها ووضعت الخطة لإتمام هذا الاحتلال. ورأى ولاة الأمور أن خير ضابط يمكن اسناد رئاسة الحملة إليه هو كليف ، وكان قوامها خمسمائة هندي حديثي عهد بالتدريب العسكري ومائتي إنجليزي جدد استطاعت الشركة أن تجمعهم من سكان أحط أحياء مدينة لندن، وكانوا يتصفون بسوء السلوك وفساد الأخلاق . ولم يكونوا على شيء من الروح المعنوية . ورغم هذه الظروف جميعاً تولى كليف قيادة هذه الحملة وهو مريض وضعيف وسار بالحملة الى كوفلونج الى أن صار تحت أسوارها . وما أن أطلقت منها رصاصة على جنوده وصادفت مقتلاً من أحد هؤلاء الجنود وهوى صريعاً بين زملائه حتى راعهم الأمر وولوا الأدبار. وقاسى كليف الأمرّين في سبيل إعادة الطمأنينة الى نفوس الجند وحملهم على الثبات في القتال ومجابهة الخطر ، وكان يضرب لهم المثل الطيب بوقوفه بينهم وفي الصف الأول من صفوفهم حتى استطاع أن يجعل من تلك القوى المنحلة قوة واحدة متماسكة وقوية، استطاعت أن تفتح كوفلونج . وعلم كليف إذ ذاك أن حملة قوية قد أرسلت من شنجلبت لإنقاذ كوفلونج . فأعدّ لها كميناً في الطريق وقع فيه الفرنسيون القادمون ومات منهم مائة رجل وأسر ثلثمائة وفرّ الباقون، وأخذ يتعقب كليف هؤلاء الفارين حتى أبواب

شنجلبت وكانت من كبريات المدن المحصنة بالهند وحاصرها حتى استسلم له قائدها .

وعاد كليف الى مدراس منتصراً ولكن حالته الصحية كانت قد ساءت الى حدٍّ كبير وزاد في ضعف صحته ذلك الإجهاد الكبير الذي عاناه في حملته الأخيرة فكان لا بدّ له لا سيما وقد تزوّج ، من أن يعود الى انجلترا بصحبة عروسه التي كانت من عائلة كبيرة وكانت هذه العروس فتاة رشيقة ومتعلمة ومخلصة وهبته كل قلبها .

العودة الى الوطن

وأبحر كليف عقب الزواج مباشرةً ومعه عروسه ووصل انجلترا فاستقبلته البلاد رغم أنه كان في السابعة والعشرين من عمره إستقبال الغزاة الفاتحين ، لأنها كانت ترى فيه أحد قوادها المبرزين . ذلك لأن أوربا كانت في تلك الآونة تتمتع بالسلام فلم تكن هناك حرب إلاّ في أقليم الكرنات في الهند بين الانجليز والفرنسيين ، وكانت أعمال دوبليه تثير قلقاً كبيراً في لندن وكان لكليف الفضل الأكبر في إزالة هذا القلق بشجاعته وكفاءته اللتين أبداهما في الانتصار على الحاكم الفرنسي . وأطلقت عليه الشركة لقب الجنرال كليف . وبهذا اللقب نودي في جميع الإحتفالات التي أقيمت له . وقدمت له هدايا ثمينة كان بينها سيف مرصع بالجواهر ، ولكنه رفض قبوله ما لم يمنح الميجور لورنس مثيلا له . وكان هذا اعترافاً منه بفضل صديقه ورئيسه ووفاء منه له ، ولم يقتصر تكريم كليف على الشركة ، بل كان تكريمه عامًّا ساهمت فيه الهيئات والأفراد .

وكذلك أحسنت أسرة كليف استقباله والترحيب به بعد إذ أبهجها نجاحه وسرها ما نال من توفيق وعجبت كيف أصبح روبرت الخامل في صباه ، رجلاً عظيماً في شبابه بل إن والده كان لا يؤمل قطعاً في أن يبلغ روبرت أي نجاح أو يصل الى أي نبوغ حتى علم أنباء دفاع كليف عن أركوت، حينئذٍ قال إن أمله في ولده بدء يبعث من جديد . وما زال تقدير مستر ريتشارد لولده يزداد عقب كل نجاح يحرزه ، حتى تمكن من فؤاده حبه وتقديره، بل وأصبح يفخر بذلك الابن .

وأصاب روبرت كليف بعض المال قبل عودته الى أرض الوطن وزاد نصيبه مما منحته اياه ادارة الشركة في لندن ولم يكن أنانيًّا ولا جشعاً كما انه لم يكن ابناً عاقًّا فسدد ديون

أبيه كلها وعمل على اصلاح مركزه المالي اصلاحاً شاملاً وشمل مزرعته بعنايته فتولاها بالاصلاح والرعاية والتجديد حتى عاد لها بهاؤها ورونقها وشبابها وزاد انتاجها وتضاعفت خيراتها . وحتى أمكن الى أن يطمئن الأب أن يعيش مما تغله من خير كثير في أمان . وكما كان باراً بأبيه كان باراً بنفسه فأخذ يصرف عن سعة وعاش مدى عامين في انجلترا عيشة بذخ وترف أتت على ما كان قد بقي لديه .

وحينئذ فكر في العودة الى بلاد الهند وكما كانت الحكومة تفكر في اعادته الى تلك البلاد كذلك كانت الشركة ترى ضرورة ارساله اليها حيث كانت الحال تستدعي وجوده هناك واستغلال مواهبه وكفاءته وخدماته، إذ انه رغماً من وقوف الحرب بين الانجليز والفرنسيين في مقاطعة الكرنات بعقد معاهدة كانت في صالح الانجليز أعقبها عزل دوبليه وعودته الى فرنسا — بعد اذ فقد ثروته التي كان قد قضى زمناً طويلاً في جمعها وفقد أمله في تكوين إمبراطورية فرنسية في الهند — حيث مات حزيناً . فان الدلائل كلها كانت تنذر بوقوع حرب طويلة بين الفرنسيين والبريطانيين وكان لا بد من ارسال قائد ماهر الى ممتلكات الشركة الانجليزية بالهند فتقرر تعيين روبرت كليف حاكماً لقلعة سان دافيد ومنحه الملك رتبة لفتننت كولونيل في الجيش البريطاني . وهكذا اجتمعت في هذا التعيين رغبات ثلاث . رغبة الحكومة ورغبة الشركة ورغبته الشخصية . فأبحر الى اقليم الكرنات في عام ١٧٥٥ .

في اقليم البنغال

وكان أول عمل حربي قام به كليف بعد عودته الى الشرق هو الاستيلاء على معقل القرصان (انجيريا) في (غريا) الحصينة والمقامة على شبه جزيرة صخرية يحيط بها الماء من معظم جهاتها . وتعاون معه في هذا العمل الاميرال وطسن بأسطوله واستطاع بهذا التعاون الاستيلاء على الحصن وعلى جميع ما كان به من مال بلغت قيمته مئة وخمسون الفاً من الجنيهات تقاسمها الغزاة .

وعاد كليف الى مقر عمله في قلعة سان دافيد ولم يمض على مقامه بها أكثر من شهرين حتى بلغه نبأ أثار حيويته ونشاطه الذهني .

وكان هذا النبأ يتعلق باقليم البنغال الذي كان يمتاز بوفرة حاصلاته وجمال مناظره وخصب

أراضيه ، فضلاً عن وداعة أهله ورقتهم ، وحبهم الدائم للسلم، ولباقتهم في الحديث . وكانت الشركات التجارية الأوربية قد انشأت لها فروعاً بين ظهراني أهل الاقليم. فالفرنسيون استقروا في شندر ناجور، والهولنديون في شينصوراء، والانجليز في منطقة قريبة من البحر أنشأوا فيها قلعة وليام لتحمي كنيستهم ومخازنهم ومنازل كبار موظفيهم القريبة منها والممتدة على شاطىء نهر الكنج . وعلى كثب منها قامت قرية وطنية كثيرة السكان كبيرة الحركة كان يقيم بها بعض كبار التجار الوطنيين . وكان هذا الجزء من الاقليم الذي اختاره الانجليز لمقامهم أهم أجزاء اقليم البنغال لقربه من البحر ولوفرة حاصلاته ما كان منها ينمو على سطح الأرض وما يعيش منها تحت سطح الماء .

وكان اقليم البنغال وأوريسا وبيهار خاضعاً لحكم علي واردي خان الذي كان يتبع امبراطور المغول اسمياً ، ولكنه كان يتمتع في حدود مملكته بكل سلطات النفوذ الواسع وكان منشأ علي وردي خان هذا انه كان خادماً في اقليم بيهار واستطاع أن يستغل الظروف الواحد تلو الآخر ، حتى أصبح نواباً لتلك المقاطعة ثم استغل أيضاً فرصة اكتساح نادر شاه لبلاد المغول في عام ١٧٣٩ فقام بثورة على الأسرة التي كانت تحكم اقليم البنغال كله باسم ملك المغول وقَتَلَ في معركة غريا في يناير سنة ١٧٤١ـ رأس هذه العائلة وحلّ محله على العرش. وفي العام التالي استطاع أن يقدم الى الامبراطور كثيراً من الهدايا فوافق جلالته على تعيينه نائباً له في اقليم البنغال وأوريسا وبيهار ولم يكن علي وردي خان في حاجة الى هذه الموافقة إلاّ ليكتسب صفة شرعية في حكم البلاد .

ومات في عام ١٧٥٦ وورث عنه ملكه حفيده الشاب سراج الدولة الذي يحكى عنه أنه ولد بغير عاطفة ، فقد كان في طفولته يتلهى بتعذيب الحيوانات الصغيرة لا سيما الطيور وكان كلما تقدمت به السن نحو الشباب ازداد قسوة ووحشية نحو الحيوان بل ونحو اخوانه في الانسانية وأصبح يحلو له أن يشهد الناس يتألمون ويبهجه عذابهم . وكان سكيراً مدمناً أتت الخمر على ما كان قد بقي من عقله الذي ولد به . ولي الحكم في العشرين من عمره وكان مستبداً بطيء الفهم يرضيه ما تبذله له حاشيته من ألفاظ منمقة ، وما تتملقه به من مديح وإطراء .

ولقد كان سراج الدولة يمقت الانجليز منذ طفولته ويكرههم بغير ما سبب ويستحل سلب أموالهم ، والآن وقد آل اليه الأمر فقد تلمس سبباً لاعلان الحرب عليهم ووجد هذا السبب في قيامهم بتحصين قلعة وليم وكان سر هذا التحصين هو ان الانجليز كانوا يتوقعون نشوب حرب مع الفرنسيين وساء سراج الدولة أن يلجأ الانجليز الى هذا التحصين دون أن يحصلوا على اذن منه بذلك . وثمة سبب آخر تذرع به سراج الدولة لحربه مع الانجليز، ذلك أنهم آووا في كلكتا ثريًا من أثرياء الهند كان قد بلغ من الثراء مبلغاً يستبيح فيه أمير الاقليم عادةً قتل أمثاله وسلبهم أموالهم وكان هذا الثري قد عين حاكماً على دكا في الوظيفة التي خلت بقتل حاكم تلك المدينة والاستيلاء على أمواله . فلما رأى ذلك الثري المصير الذي ينتظره تظاهر باعتزام الحج . وجمع أمواله كلها وأرسلها الى ولده في كلكتا ، ثم لحق به الى هنالك . فلم يقبل الانجليز تسليم اللاجيء الى طالبه . ورأى سراج الدولة في هذين السببين مبرراً كافياً للقيام بحملة ضد الانجليز فسار إليهم على رأس جيش كبير .

وكان الانجليز في أقليم البنغال غير إخوانهم في منطقة مدراس فهؤلاء أصبحوا رجال سياسة وحرب بفضل احتكاكهم بدوبليه ، أما أولئك فلم يعدوا كونهم رجال تجارة فحسب ، فان وكيل الشركة نفسه لما علم بمقدم سراج الدولة إليه ، وكان يعلم قبلاً مبلغ قسوته . إنتابته الحيرة والارتباك ، فلم يدر ما هو صانع حيال ذلك الخطر الداهم ، وأخيراً إهتدى إلى وجوب الإلتجاء إلى إحدى السفن الانجليزية الراسية في الميناء . وكذلك حذا حذوه قائد حامية قلعة وليم . وقنع الاثنان بالأمان في مخبئهما ، ولم يقوما بأية محاولة لإنقاذ باقي رفقائهما الذين كان من الممكن جدًّا إيواؤهم في تلك القوارب التي كانت تملأ مجرى النهر ولقد سجل التاريخ عليهما هذه المعرّة إذ لم يروا شبيهاً لها في تاريخ الامبراطورية البريطانية على وجهٍ خاص .

وبعد مقاومة هزيلة استولى سراج الدولة على القلعة وأسر من وجدهم فيها من الانجليز، حتى إذا استتبّ له الأمر جلس في قاعة الشركة الكبرى . وأمر فأحضر بين يديه مستر هولويل الذي كان أهم رجل بين الأسرى ، وتحدّث إليه عن مبلغ إساءة الانجليز إليه واعتدائهم عليه . وأبدى له استياءه من قلة ما وجد من المال . إلاّ أنه وعد بإطلاق سراح أسراه من الانجليز . ثم أمر رؤساء جنوده بالمحافظة على هؤلاء الأسرى وآوى إلى مضجعه .

غرفة الموت

وفي تلك الليلة حدثت الجريمة التاريخية الكبرى التي امتازت بالوحشية والأعمال الانتقامية التي قام بها الانجليز عقب ذلك ، فان الأسرى الانجليز حشروا حشراً في غرفة ضيقة سيئة التهوية لا تزيد مساحتها عن ٢٠ قدماً مربعة . أما الذين سجنوا فيها فقد كان عددهم مائة وستة وأربعين رجلاً . فلم يستطع أحدهم أن ينحني أو يجلس ، وقد كان منهم المسن والضعيف . وكان الجو في تلك الليلة خانقاً خارج الغرفة الجهنمية فما بالك به في داخلها. وذهبت محاولات أولئك الأسرى للافراج عنهم سدًى وتوسلاتهم أدراج الرياح ، وأغلق الباب عليهم ، وظلوا فيها طول ليلهم ، فاستبدّ بهم العطش والتعب ، يطلبون الرحمة فيقابلهم الحراس المطلون عليهم من كوى بأعلا الجدار بضحكات السخرية والاستهزاء وحاولوا بعامل اليأس تحطيم الباب ولكن الباب كان متيناً . وحاول هولويل رشوة الحراس ولكنهم قالوا إنّ الأمر كله بيد سراج الدولة ، وعظمته نائم لا يمكن إيقاظه بل إنه من الخطورة بمكان أن يحاول أحد إيقاظه . وأخذ الأسرى وقد ذهب برشادهم اليأس يتزاحمون في محبسهم ويدوس بعضهم بعضاً في تدافعهم نحو منافذ الهواء الضيقة ليطلبوا شربة ماء ، فلا يقابلوا إلاّ بالاستخفاف والامتهان . وأخيراً لجأوا إلى أن يطلبوا من الموكلين بهم إطلاق النار عليهم لإراحتهم من عذابهم الذي كانوا يقاسونه ولكن كان نصيب طلبهم هذا الإهمال . وتقدم الليل وتقدموا هم إلى الفناء فقلت المحاولات ، وضعفت القوى ، وخفضت التنهدات وانعدم البكاء ، حتى إذا انبلج الصبح واستيقظ صاحب العظمة وأمر باطلاق سراح السجناء لم يبقَ منْ يطلق سراحه إلاّ عشرون هيكلاً بشريًّا . وأخذ الحراس يزيحون أجسام القتلى يميناً ويساراً ليفسحوا ممرًّا بين الجثث لتلك الهيا كل المتمايلة تخرج منه الى الهواء متساندة من الضعف والخور مغادرة غرفة الموت . وحفرت حفرة واحدة جمعت فيها بقايا الهالكين وهيل عليهم التراب .

ولم تأخذ سراج الدولة رحمة بمن ماتوا ، ولا رأفة بمن بقوا ، بل أمر فأوتي بهم إليه وهدّدهم بشتى أنواع التنكيل إذا هم لم يبوحوا له بسر مكان خزائن الشركة . ثم سيرهم في شوارع المدينة زيادة في التشهير بهم، ولكن ذلك كله لم يفده شيئاً. وأخيراً عفى عنهم لأنه

رأى أن العفو أصلح ، ولـكن لأن بعض قريباته توسطت لديه في شأنهم بعد ما سمعته من الانجليزية الوحيدة التي قدّر لها أن تعيش بعد ما شاهدته في تلك الليلة الليلاء في غرفة الموت ثم ضمت الى حريم عظمته .

تجربة كليف

وأرسل سراج الدولة الى جلالة الامبراطور في دلهي ينبئه بما فعل بالانجليز وغادر كلـكتا بعد أن غير إسمها الى «ميناء الله» وبعد أن أبقى بقلعة وليم حامية هندية. وفي ١٦ أغسطس من ذلك العام وصلت الى مدراس أنباء سقوط كلـكتا ، فأثارت حقد الانجليز وأخذوا ينادون بوجوب الأخذ بالثأر والانتقـام . واجتمع الرأي على تجريد حملة إلى أقليم الهوجلي تحت قيادة كليف وأن تصحب الحملة قوات بحرية تساهم معها في العمليات الحربية المنتظرة . وأن يتولى أمرها الأميرال وطسن ، وفي ١٦ اكتوبر أبحرت الحملة وكان قوامها تسعمائة جندي انجليزي من خيرة الجنود، وألف وخمسمائة جندي من الهنود المدربين تدريباً عصريـّـاً. ولم تصل هذه القوات إلى أقليم البنغال إلاّ في شهر ديسمبر من نفس السنة ذلك، لأن الرياح لم تكن مواتية . وحينما نزل الجنود إلى البر في أقليم الهوجلي وبلغت أنباؤها مسامع الأمير وهو في مرشد آباد استهان بأمرهم إذ لم تكن لديه أية فكرة عن الجيوش الاوروبية ونظامها ورغم هذه الاستهانة فقد أمر بجمع قواته كلهـا في مرشد آباد حتى إذا تمّ له ذلك زحف بهذه القوات صوب كلـكتا . واستولى كليف على بدجبدج وطرد أتباع سراج الدولة من قلعة وليم واستعاد كلـكتا وفتح أقليم الهوجلي جميعه، وراع الأمير ما بلغه عن قوة الانجليز وما رآه من سرعتهم في الفتح والاستعمار ، فعرض الصلح على الغزاة على أساس أن يستردوا ما كان قد أخذه منهم وأن يدفع لهم تعويضاً عما لحق بهم من خسائر .

وداخل كليف الشـك في عروض الأمير سراج الدولة ولـكنه كرجل حرب رأى أن قواته محدودة فعقد مجلساً حربيـّـاً كان بين أعضائه موظفو الشركة الذين كانوا قد هربوا من كلـكتا . وكان كل همهم أن يعودوا إلى وظائفهم وأن يظفروا بتعويض عن الخسـائر التي لحقتهم . وفي ذلك الوقت كانت الحرب قد نشبت في أوربا وخشيت حكومة مدراس احتمال قيام الفرنسيين بهجوم عام عليهم ، وأصابهم من أجل هذا الخاطر قلق عظيم وصارت تنتظر

عودة كليف اليها بفارغ الصبر . ورأى روبرت أن عروض الأمير سخية، وان نتيجة النضال معه غير مأمونة، وانه من الخير أن يصطلح معه مبدئياً أسفه، لأن الظروف لم تتح له نصراً مؤزراً كما يبغي ويشتهي .

بدأ كليف حياته عسكريًّا من الطراز الأول، ولـكنه أضاف الى هذه الصفة منذ تلك المفاوضات التي دارت بينه والأمير صفة السياسي ، بل غلبت هذه الصفة على صفته الأولى، ونال في ميدان السياسة من النجاح ما فاق كل نصر أحرزه بصفاته العسكرية قبلاً . الا أن هذا الميدان كان شؤماً عليه، وكان العامل الأول في سبيل هدمه .

ويرى ماكولي أن كليف لم يكن رجلاً سيئاً بطبعه ، بل كان شجاعاً الى حد التهور مخلصاً الى حد الانخداع بالظواهر، مندفعاً في صداقته صريحاً في عداوته . لم يحاول مرةسواء في تلك البلاد النائية عن وطنه ، أو بين مواطنيه أن يخدع أحداً من بني جلدته . وقد كان يرى أن السياسة في بلاد الهند تستدعي منه أن يكون على الصفات التي اتصف بها فيما بعد . فكان يعلم انه سيعامل رجالاً ما يأبهون كثيراً بالمحافظة على الوعود أو العهود ، ولا يحجمون في سبيل تحقيق أغراضهم عن الالتجاء الى الغش والتزوير. ورأى انه من الخرق في الرأي أن يتمسك بالمثل الأخلاقية العليا في محيط من الناس لا يؤمن بها . ولهذا خلع كليف رداء الجندية ، وماكانت تمليه عليه من مبادىء وصفات عادية ، واكتسى ثوباً يتناسب مع عقيدته الجديدة التي زادها تمكناً من نفسه أول تجربة شهدها مع الأمير سراج الدولة.

إذ بينما كانت المفاوضات دائرة بين كليف من جهة وسراج الدولة من جهة أخرى ، وكان يمثل كليف فيها وكيلان أحدهما مستر وطسن الموظف بفرع الشركة في اقليم البنغال، وثانيهما أحد البنغاليين واسمـه أوميشند ، وكان أوميشند هذا تاجراً ثريًّا من أثرياء كلكتا ، وضاعت ثروته كلها خلال حملة سراج الدولة على كلـكتا وكان يؤمل الحصول على تعويض طيب من وراء هذه المفاوضات الدائرة، وكان ذا تأثير كبير في مواطنيه، كما كان على قدر كبير من صفات الهندوس، ومنها قوة الملاحظة، وسرعة البديهة والذكاء ، وحسن التصرف، وكان يجمع إلى هذه الصفات رذائل الهندوس ، ومنها ضعة النفس والجشع والخيانة ، بينما هذه المفاوضات سائرة في طريقها الطبيعي، اذا بسراج الدولة يحاول القيام بعمل حربي طمعاً في

أن يؤثر ما يسفر عنه في سير المفاوضات، ولكنه رأى في صمود الانجليز وقوة بأسهم ماجعله يكف عن الحرب، ويرضى بشروط كليف للصلح . وما انتهت المعاهدة حتى غير سراج الدولة اتجاهه ، وعوّل على مناهضة الانكليز بكل الوسائل، فتآمر مع السلطات الفرنسية في شندر ناجور، وطلب الى باسي أن يسير من الدكن الى الموجلي ليطرد الانجليز من ذلك الاقليم . وعلم كليف وو طسن بسر هذه المؤامرة، فعول الرجلان على أن يقوما بضربة قاضية، وان يغزوا شندر ناجور نفسها قبل أن تصل اليها امدادات جديدة سواء من بوندتشيري أو من فرنسا. وترأس وطسن القوات البحرية وتولى كليف قيادة الحملة البرية وكان نجاحهما سريعاً ورائعاً فان القلعة ، وحاميتها وقوات المشاة والمدفعية كل هذه استسلمت سريعاً للانجليز وكان بينها عدد من الفرنسيين يقرب من خمسمائة .

مؤامرات

وهكذا ضاعت على سراج الدولة فرصة ضرب الانجليز للفرنسيين وازداد خوفه منهم وكراهيته لهم معاً ، وأخذ يتردد بين مسالمة الانجليز ومظاهرتهم بالعداء ، فبينما كان يرسل بعض المال كجزء من التعويض المفروض عليه الى كلكتا، إذا به في اليوم التالي يبعث الى باسي هدية سنية طالباً اليه أن يسرع لانقاذ البنغال من أيدي كليف ، ويصدر أمره للجيش بالزحف على الانجليز، ثم يعود ثانية الى الغاء هذا الأمر فاذا جاءته رسالة من كليف مزقها وألقى بها في وجه الرسول . وأخيراً يكتب الرد على هذه الرسالة ويتحرى الأدب واللياقة في هذا الرد . ولقد حدث أن طرد مستر وطسن من حضرته، ثم عاد فأمر بادخاله عليه ، واعتذر له عما بدر منه في حقه . وكان سوء أخلاق الأمير وجنونه وسوء سياسته ، وايثاره الدهماء على أوساط الناس وكبارهم ، سبباً في أن ينفر منه هؤلاء سواء كانوا من المسلمين ذوي النخوة والصراحة، أم من الهندوس الماكرين الخنوعين، وأن تجتمع كلمة هؤلاء النافرين على الائتمار به وفي هذا يقول كليف في رسالة له الى مستر بيجوت حاكم مدراس (كانت صفاته سبباً في أن تمقته فئة من الرجال الممتازين في الاقليم. ويمكن أن أقول لك أن مؤامرة واسعة النطاق تحاك خيوطها الآن بمهارة بأيدي عظماء المملكة وعلى رأسهم جاجت سيت بنفسه، ولقد طلبت

مني المعاونة واني لمقتنع كل الاقتناع بأنه لن يكون هناك سلام أو أمان حيث يحكم مثل هذا الشيطان، وستسمع قريباً عن ثورة تضع حداً لآمال الفرنسيين في البقاء في هذه البلاد).

وكانت المؤامرة التي أشار اليها كليف في رسالته تشمل راجا دولاب رام وزير المالية ومير جافير القائد العام للجيش وجاجت سيت أغنى ممول في الهند. وكان الانجليز على علم بها كما جاء في رسالة كليف وكان الاتصال مستمراً بين المتآمرين في مرشد اباد والمجلس الانجليزي في كلكتا.

وفي هذا المجلس الذي كان بطيئاً في قراراته، وقف كليف الى جانب المؤتمرين واستطاع أن يتغلب على الآراء المعارضة، وان يحصل على موافقة المجلس على مساعدة أولئك المؤتمرين لخلع سراج الدولة عن عرشه واجلاس ميرجافير مكانه وحصل المجلس من ميرجافير هذا في نظير العرش المرتقب على وعد بدفع تعويضات مجزية للشركة الانجليزية وموظفيها ولجنود الجيش والبحرية وأعضاء المجلس.

قد يبدو ما لقيه الانجليز على يد سراج الدولة في غزوته الأولى، وما كان محتملاً أن تلقاه تجارتهم من بوار إذا هو ظلَّ على العرش مبرراً لمشاركتهم في التآمر عليه.

ولكن لم يكن هناك ما يبرر اتباع كليف سياسة ذات وجهين مع الرجل؟ كان يكتب لسراج الدولة بعبارات معسولة كانت تنزل السكينة والطمأنينة في قلبه. وفي نفس البريد الذي يحمل تلك الرسالة كان يبعث إلى مستر وطس برسالة يجيء فيها « قل لمير جافير لا تخش شيئاً وإني سأمده بخمسة آلاف مقاتل لا يعرفون التقهقر، وأكد له أني سأسير إليه ليل نهار وسأقف بجانبه حتى آخر رجل لديَّ ».

وكان من المستحيل أن مؤامرة واسعة النطاق كهذه تبقى سراً دفيناً. فقد وصل إلى سراج الدولة ما أثار شكوكه، ولكن أوميشند استطاع بلباقته وكياسته، وسرعة بديهته، أن يهدىء من روع الأمير بما كان يخترعه من حكايات وأقاصيص حتى زالت شكوك سراج الدولة، وأوشكت المؤامرة وقد أجيد حبك أطرافها أن تؤتي أكلها حين علم كليف بأن أوميشند يستطيع أن يبقي على أرواح الكثيرين، أو يقضي عليها لا سيما أرواح واطس ومير جافير وسائر المؤتمرين، ولقد شاء أوميشند أن يستفيد من مركزه القوي، وأن يملي إرادته،

فأفصح عن طلباته وحددها بثلثمائة ألف جنيهاً ثمناً لسكوته وعدم إفشاء سر المؤامرة فضلاً عن مساهمته فيها ، وغضب المجلس لهذا الطلب واعتبر اقدام أوميشند عليه خيانة منه لا تغتفر ، وخشي ما قد يؤدي إليه من نتائج وسرت الحيرة في جو المجلس .

ذلك أن أوميشند الذي استطاع أن يكبت عاطفة الكراهية الشديدة التي يكنها لسراج الدولة مغتصب ماله، الذي جعله لا يملك شيئاً البتة بعد أن كان من سراة كلكتا ، وأن يندس في حاشية الأمير حتى أصبح أقرب المقربين اليه بل صار بمثابة الناصح الأمين له ، يؤخذ برأيه ويعمل به ، ووصل إلى ما وصل إليه بدهائه ولباقته وكياسته .

وكان في مركزه الجديد عين المتآمرين الساهرة ، وأذنهم السميعة ، ينقل إلى مركز قيادة القوة المتآمرة في كلكتا كل ما يهمها الوقوف عليه . وكان ينفذ كل ما يصدر إليه من هذه القيادة مستغلاً في ذلك حظوته عند الأمير ، وتقربه منه .

دار في رأس كليف كل هذا في سرعة وأدرك خطورة الموقف ،وشاء أن يخرج من تفكيره السريع بحل يحفظ سرية المؤامرة حتى يتم نجاحها .

وكما كان كليف يفكر كذلك كان أعضاء المجلس يفكرون كلٌ على طريقته الخاصة،فالكل كان يقدر خطورة ذلك الداهية البنغالي . ولهذا استولت على الجميع الحيرة . ولكن كليف تابع أوميشند في تفكيره وشاء أن يخدعه ورأى أن إخداع مثل هذا الرجل جائز . فلا بأس في أن تبذل له الوعود بسخاء ليؤمن جانبه في تلك الآونة الحرجة، حتى إذا تمَّ الأمر، وتحققت المؤامرة يهمل أمره ، ويكون نصيبه الازدراء ، والتنكر له جزاء استغلاله لحلفائه في مثل ذلك الموقف .

وشرح كليف ذلك للمجلس فاقتنع بوجاهة الفكرة ، ولكنه لم يجد وسيلة لخداع أوميشند الذي كان يصر على أن تضاف مادة الى المعاهدة المعقودة بين مير جافير والانجليز، وأن يرى بعيني رأسه تلك المادة التي يجب أن تنص على طلباته التي لم تكن تنحصر في الرشوة . بل شاء أن يعطى تعويضاً كبيراً عما لحقه من خسائر من جراء حملة سراج الدولة على كلكتا ، إلاّ أن كليف لجأ الى طريقة التزوير فأعدَّ وثيقتين إحداها حقيقية ولونها أبيض. وثانيتهما مزيفة ولونها أحمر.وذكر إسم أوميشند والبند الذي طلب إضافته في الوثيقة الحمراء ثم وجدت

صعوبة أخرى فان الأميرال واطسون لم يشأ أن يوقع الوثيقة الحمراء ، ورأى كليف أن خلو الوثيقة من توقيع الأميرال قد يثير شكاً أوميشند . وبالتالي قد يؤدي الى إنهيار المؤامرة فلم يتأخر عن تقليد توقيع الأميرال على الورقة الحمراء . ويقول جنج في كتابه عن كليف أن الأميرال وإن امتنع عن التوقيع إلا أنه أباح للمجلس استغلال إسمه بالطريقة التي يراها.

وهكذا تهيأت الظروف للقيام بالعمل الحاسم ، وهرب المستر وطس من مرشد أباد سراً وبدأت قوات كليف تتحرك فكتب الى الأمير بلهجة تختلف كثيراً عما كان يكتب له به قبلاً ، فذكره بأخطائه السابقة مع الانجليز ، ودعاه الى التحكيم فيما بينهما من اختلاف في قسيم بازار على أن يكون مير جافير حكماً ، وأعلمه أنه نظراً لقرب سقوط الأمطار. ولما كان انتظاره ردًّا منه قد يحتاج عدة أيام فانه رأى أن ينتظر هو ورجاله ردّ عظمته على مقربة من مرشد أباد .

معركة بلاسي

فجمع سراج الدولة حالاً جميع قواته ، وسار لملاقاة الانجليز . وكان من خطط المؤامرة أنه عندما تواجه جيوش سراج الدولة جيوش الانجليز ينفصل مير جافير برجاله عنها وينضم بهم الى قوات كليف . فلما جاءت اللحظة الحاسمة تغلب على مير جافير خوفه ، ونسي أطماعه والوثيقة التي وقع عليها مع حلفائه ، فتردد وطال تردده الى أن استبدت بكليف مخاوفه من النتيجة لغموض الردود التي كان مير جافير يرسلها إليه على استفساراته عن سبب تأخيره .

وكتب كليف من كاتوة الى المجلس في كلكتا بتاريخ ١٩ يونيه يقول : (يعتريني قلق من جراء قلة الأنباء وغموضها ، فاذا لم يكن مير جافير خائناً ، فان بروده أو ضعف قوته قد يكون سبباً في فشل الحملة ، وإنما أحاول الآن محاولة أخيرة للتأثير على ميرجافير بوساطة أحد البراهمة لينضم إلينا . ولقد اخترت بلاسي لتكون ميداناً للمعركة القادمة ، وذكرت له أنه إذا لم يفعل ما طلبت منه أو لم يقدم دليلاً على حسن نيته في الوفاء بوعده ، فاني لن أعبر النهر) .

وهكذا كان كليف في موقف دقيق ، اذ أنه لم يكن لديه ما يحمله على الاطمئنان الى اخلاص حليفه. ومهما يكن من شأن كفاءته العسكرية. أو قدرة ونظام من كانوا تحت إمرته ،

فانه مما لا شك فيه أن انضمام قوات مير جافير التي كانت تبلغ في مجموعها عشرين ضعفاً لعدد قواته لم يكن بالأمر الهين . وزاد في حرج مركز كليف أنه كان لا بد له من عبور النهر ليلاقي أعداءه، فاذا قدر له أن ينهزم فقد كان لا بد له من العودة عبر النهر، وفي ذلك كارثة مؤكدة إذ لا يحتمل أن ينجو من رجاله في هذه الحالة أحد . وهكذا حدث لكليف ما لم يحدث له من قبل، إذ فارقته سرعة بديهته، وخانته شجاعته، ازاء المسئولية المخيفة التي قد تترتب على اتخاذ قرار ما . فعقد مجلساً حربيًّا وفي هذا المجلس رأت الأغلبية العدول عن الحرب ونزل كليف على رأي الأغلبية . ثم استدرك قائلاً انه لم يسبق له عقد مثل هذا المجلس. وانه إذا أخذ بهذا الرأي فانه لن يقدر للبريطانيين أن يسودوا اقليم البنغال يوماً ما . وانفض المجلس، وانفرد كليف بنفسه في ظل شجرة، وقضى ساعة يفكر وأخيراً تنبهت حواسه القديمة وبرزت صفاته التي لازمته طوال حياته، فقرر ترك كل شيء لظروفه، وأصدر أوامره بالاستعداد في الحال لعبور النهر في الغد .

وعبر الانجليز النهر وآووا الى خميلة من أشجار المنجو قرب بلاسي، ولم يكن بينهم وبين أعدائهم سوى مسافة ميل واحد . وقضى كليف ليله ساهراً لا يغمض له جفن يستمع الى قرع طبول جيش سراج الدولة فاستولى عليه الفزع اذ كان يتوقف على تلك المعركة سواء في حالة النصر، أم في حالة الهزيمة، نتائج على غاية الخطورة، هذه النتائج التي ستقرر بعد بضع ساعات من بدء المعركة.

ولم يكن سراج الدولة أحسن حالاً من كليف إذ كانت أعصابه مهتاجة، واستبدت به المخاوف وتمكن منه القلق، وأخذت تتراقص أمام عينيه أشباح ضحاياه ممن قتلوا في الغرفة السوداء . فانعدمت ثقته في قواده وحاشيته، حتى أصبح يستشعر الخوف من كل من يتقدم اليه، أو يقترب منه، كما كان يخشى الوحدة في نفس الوقت، ولكنه اضطر الى أن يفضل الوحدة فانفرد بنفسه في خيمته تنتابه الهواجس والأفكار .

وطلع نهار ذلك اليوم الذي تقرر فيه مصير بلاد الهند فبعد شروق الشمس بدأت جنود الأمير تنساب من المعسكر متجهة صوب الانجليز وكان عددهم أربعين الفاً من المشاة مسلحين بالكرات النارية والحراب والسيوف والقوس والنشاب . فانتشرت هذه القوات

في السهل فلا تلة على سعته ، يحميهم خمسون مدفعاً ضخماً يجر كلاً منها بضعة ثيران بيضاء ويدفعه من الخلف فيل هائل . ومدافع أخرى صغيرة ، يشرف عليها جنود فرنسيون كانوا من الوجهة الحربية أكثر أهمية من أولئك المشاة على كثرتهم . أما الفرسان ، وقد بلغ عددهم خمسة عشر الفاً من الرجال الأشداء الذين جيء بهم من المقاطعات الشمالية ، كانوا كما لاحظ كليف يختلفون كثيراً عن أهالي اقليم الكرنات . ولم يكن لديه لصد تلك الجموع والتغلب عليها سوى ثلاثة آلاف رجل منهم ألف جندي انجليزي والألفان الباقيان هنود ، دربوا تدريباً انجليزياً ، ويقودهم ضباط من الانجليز .

وبدأت المعركة . كما يقول كليف « في الساعة السادسة صباحاً بدأوا بهجومهم علينا بقذائف مدافعهم الثقيلة ، يصحبها هجوم الجيش برمته . وضغطوا علينا ضغطاً شديداً بضعة ساعات ، وصار موقفنا سيئاً جداً ، إذ كنا محصورين بين الأشجار ، ووراءنا شاطيء طيني . وكان الرد على طلقات مدافعهم بمثلها مستحيلاً لصعوبة حركة مدافعنا ، ولأنهم كانوا يحيطون بنا على شكل نصف دائرة ، فرأينا أن ننتظر قدوم الليل لنقوم بهجوم عام ينقذنا مما كنا فيه ، وبقينا في مراكزنا صامتين . ولكن حدث عند الظهيرة أن انسحب العدو من الميدان ، وآوى الى معسكراته » . واكتفى سراج الدولة بأن أمر المدفعية باطلاق النار على الانجليز ، ولم يكن الاطلاق محكماً فكانت القذائف تسقط بعيداً عن أهدافها وأجابت مدفعية الانجليز بالمثل ، ولكن قذائفهم سقطت وسط معسكر الأمير فقتلت كثيراً من ضباطه ، وعمت الفوضى وانتشر الذعر . وكان الأمير أكثر من سواه ذعراً ورعباً ، لاسيما بعد أن سقط المطر وأصاب ذخائره بالتلف . وبعد أن مات مير مادان أشد قواد الأمير اخلاصاً له . فلما تقدم راجا دولاب رام وأسرّ اليه بالتقهقر . وكانت هذه النصيحة لحليفه جزءاً من المؤامرة المتفق عليها ، كان سراج الدولة كأنما ينتظر من يدلي اليه بمثل هذه النصيحة فأمر بتنفيذها فوراً . وكان هذا التنفيذ سبباً فيما حلّ به بعد ذلك من كوارث متعاقبة . فان كليف انتهز الفرصة وأمر جنوده بالتقدم في الحال ، وساعد على نجاح هذا التقدم ان جنود سراج الدولة لم تكن عندهم رغبة في القتال ، ولا كان النظام سائداً بينهم . وهكذا انتصر جيش كليف على قلة عدده على جيوش الأمير . وكانت الساعة الثانية من بعد ظهر ذلك اليوم ، ولم

يصمد في الميدان سوى الجنود الفرنسيون الذين ظلوا يقاومون حتى الساعة الخامسة مساء . وأخيراً هربوا فيمن هرب . وهكذا لم يجد الانجليز أمامهم سوى العتاد الحربي من المؤن والذخائر التي تركتها قوات الأمير في هربها . فلم يخسر كليف غير اثنين وعشرين قتيلاً وخمسين جريحاً دفعها ثمناً لامبراطورية غنمها لبلاده في تلك المعركة .

لم يقدم ميرجافير أية مساعدة للانجليز خلال المعركة ، ولما رأى أن النصر حليفهم وأن الواقعة تنتهي سريعاً على هذا النحو انسحب بالجيش الذي كان تحت امرته من الميدان . وأرسل تهانئه الى حليفه . وفي الصباح ذهب الى معسكر الانجليز على ظهر فيل وهو يتوقع استقبالاً رائعاً . ولكن الذي حدث أن الحرّاس حين رأوه ورفعوا أسلحتهم لتحيته ، ظن أنهم يريدون به شرّاً وشاء أن ينسحب . ولكنه رأى كليف نفسه يتقدم لمصافحته فترجل عن فيله ، وعانق كلا الرجلين الآخر ، وحيّاه كليف بقوله « يشرفني أن أستقبل في معسكري حضرة صاحب العظمة أمير البنغال وبهار وأوريسا » . فارتاحت نفسه واطمأن وأثلج صدره ، لا سيا بعد ان طلب منه كليف أن يسير توّاً الى مرشد أباد ويباشر سلطته هناك » .

وكان سراج الدولة بعد أن هرب من ميدان القتال قد أسرع في العودة الى مرشد أباد على ظهر جمل سريع ، فوصلها بعد أربع وعشرين ساعة ، وجمع حوله مستشاريه يتدبر معهم الأمر ، فأشار عليه أكثرهم حكمة بأن يسلم نفسه للانجليز الذين ان يفعلوا به أكثر من أن يخلعوه من عرشه ، أو يسجنوه ، فثار لهذه المشورة واتهم المشيرين بالخيانة ، وأشار عليه غيرهم بمواصلة الحرب مع الانجليز ، ورأى هو وجاهة هذا الرأي ، فأصدر أوامره بالاستعداد للحرب ، ولكن قواه المعنوية كانت قد انهارت ، وقضى على ما بقي منها سماعه نبأ وصول ميرجافير على رأس جيشه ، فزاد ذعره ، ولم يعد يحتمل تلك الانفعالات النفسية التي أخذت تنتابه ، فارتدى ثياباً رثة ، وحمل معه كيساً مملوءاً بالجواهر ، واتخذ من الليل ستاراً ، وتسلل من نوافذ قصره ، وصحبه تابعان ونزل ثلاثتهم الى قارب كان ينتظرهم في النهر وركبوه الى مدينة باتنا .

وفي يوم ٢٩ يونيه وصل كليف إلى مرشد أباد على رأس مئتي جندي انجليزي وثلثمائة

هندي، ونزل في قصر كان قد أعدّه له ميرجافير من قبل، وعسكر جنوده في حدائق القصر .

وأعدّ الاحتفال بتولية ميرجافير على عرش البنغال على عجل ، وقاد كليف الأمير الجديد الى (المسند) وأجلسه عليه وأهداه هدية ذهبية ، كانت العادة في الهند قد جرت على أن يقدمها الى الأمير يوم توليته ذوو الحيثية في الأقليم . ثم التفت الى الجماهير التي ملأت جوانب القاعة ، وهنأهم بتلك الفرصة الطيبة التي مكنتهم من التخلص من الحاكم الظالم سراج الدولة

والآن وقد تمّ لكليف وحلفائه ، تنفيذ خطتهم ، وقد بقيت خطوة لا تقل أهمية عما سبقها من خطوات ، وهي خطوة اقتسام الغنائم ، وتدبير أمر المملكة الجديدة ، وعقد المؤتمر الذي كان عليه أن يبت في هذه الأمور في منزل جاجيت سيت المول العظيم ، وحضر هذا الاجتماع كل من دعوا اليه . وكان كل منهم مطمئناً الى تحقيق رغائبه ، لا سيما وقد سبق أن اتفق على قرارات هذا المجلس مقدماً . وكان أكثر هؤلاء الأعضاء ثقة واطمئناناً هو أوميشند . وذلك لما كان يلقاه من كليف من مجاملة وعطف . فقد كان هذا يسرف في احتفائه به خداعاً ومداراة ، حتى تمّ له الفوز والانتصار . وكان أول عمل يجب اجراؤه هو قراءة الوثيقة التي كانت قد أبرمت في كلكتا ، فأخرج مستر سيكرفتون الموظف بالشركة الانجليزية الوثيقة البيضاء لتلاوتها، وحينئذٍ مال كليف على أذن مستر سيكرفتون قائلاً بالانجليزية « جابه أوميشند بالحقيقة » فتحول سكرفتون الى أوميشند وقال له باللغة الهندستانية (ان الوثيقة الحمراء كانت خدعة يا أوميشند . وليس لك أن تؤمل شيئاً) . فهوى أوميشند بين أتباعه فاقد الحس والشعور . ثم أفاق فيما بعد ، وقد اضمحلت قواه العقلية الى حدٍّ كبير وما زالت تضمحل حتى جنّ الرجل . وقابله كليف يوماً ما في طريقه فتأثر بما رآه منه ، وأشار عليه بأن يحج الى الأماكن المقدسة في الهند لعله يسترد صحته وقواه ووعده اذا ما تمّ له ذلك بتعيينه في أحد مناصب الدولة الكبرى . ولكن أوميشند لم يعش غير بضعة أشهر كان خلالها يأتي أفعالاً مضحكة تثير الشفقة في أقسى القلوب وبعد ذلك مات .

ولم يكن أوميشند الضحية الوحيدة ، للثورة فان سراج الدولة كان الضحية الثانية . فقد حدث أنه وقع أسيراً في يد ميرجافير عقب هربه بأيام قلائل ، فألقى بنفسه على الأرض

مذعوراً بين قدمي ميرجافير مسترحماً ، مستغيثاً ، وهو الذي ماكان للرحمة في قلبه مكان وكاد مير جافير يرحم أسيره ، لولا تدخل ابنه ميران الذي كان شاباً في السابعة عشرة من عمره ، وكان قد نشأ على غرار سراج الدولة . وكان يتصف بكثير من صفاته ، فطلب من أبيه أن يكل اليه أمر الأسير ، وأجابه الأمير الجديد الى طلبه ، فقيد سراج الدولة الى غرفة سرية ، حيث وافاه اليها زبانية الموت والعذاب وعلى رأسهم ميران .

الثروة

ومن ثمّ بدأت الثروة تنهال على الشركة وموظفيها وكانت أول رسالة أرسلت إلى قلعة وليم عبارة عن مبلغ ثمانمائة ألف جنيه كلها من العملة الفضية وكان الأسطول الذي حمل هذه الرسالة مكوناً من مائة مركب ترفرف عليها الأعلام ، وتصدح فوق ظهورها الموسيقى ، كأنما هي موكب النصر ، وكان هذا المال سبباً في بعث الحركة والنشاط في مدينة كلكتا بعد أن كانت مهجورة قبل انتصار كليف ، وانتعشت التجارة في تلك المستعمرة الانجليزية من اقليم البنغال . وظهرت آثار النعيم والترف على كل بيت انجليزي . أما كليف نفسه فقد خصه من هذا المال مبلغ يتراوح بين مئتي وثلثمائة ألف جنيه ، ولو شاء زيادة عن ذلك لنال فلم يكن هناك ما يحول بينه وبين تحقيق أية رغبة يبديها في هذا الشأن . وتوالت الهدايا والهبات من حكومة ميرجافير على الانجليز الذين كانوا كأنما عثروا على كنوز كانت مخبوءة من قبل .

ولقد أصبحت تلك العلاقات التي قامت بين ميرجافير وكليف موضوع اتهامات أثيرت في مجلس العموم البريطاني . ووجهت فيها الى كليف تهمة الرشوة واستغلال المركز الذي صار فيه ، والسرقة باكراه من حليف ضعيف ، على أنه من انصاف الرجل أن نقول إنه لم يكن موظفاً رسمياً يفرض مشيئته على الناس ، بل كان موظفاً في شركة تجارية ، وان الهدايا التي قدمت اليه كانت تجيزها العوائد المتبعة في بلاد الهند في ذلك الحين ، وان لم تكن معروفة في انجلترا . ولو كان أحد الذين اتهموه بتلك التهم ، في مثل مركزه ورأى كنوز بلاد البنغال تنفتح تحت قدميه في مرشد أباد ، لعلم كيف كان كليف قنوعاً حين ارتضى لنفسه ما وصل اليه . فضلاً عن ان الرجل كان صريحاً فلم يخف عن الناس ما وصل اليه بل جاهر دائماً بأنه قد أصاب من

ثروة الأمير المنهزم ما جعله ثرياً . وهذا يدل على أنه كان يعتقد أنه لم يأت سوءاً لأنه لم يمس مصالح الشركة، بل زاد من الأرباح التي كانت تجنيها . ولا هو فرط في حقوق وطنه، بل كسب له أقاليم جديدة واسعة وغنية وآهلة بالسكان . وإنما قبل هدايا في أقطار تبيح تبادل الهدايا كما وإنه لم يكن هناك نص في دستور انجلترا يحرم عليه ذلك . ولكن ما كولي يرى أن كليف كان مخطئاً على كل حال لأنه كان قائداً ، والقائد خادم لحكومته وليس لسواها . وتبعاً لذلك فكل هدية تقدم إليه يجب أن تكون عن طريق حكومته، أو على الأقل تكون هذه الحكومة على علم بها وتوافق عليها ، وتنطبق هذه القاعدة حتى على الهدايا التي لا تعدو أن تكون نيشاناً أو وساماً . وأن قبول الضباط لمثل تلك الهدايا المغرية إذا تمّ بغير علم ولا موافقة الحكومة التي يتبعونها إذا صار ذلك قاعدة معمولاً بها ، فان الأمر كان يفسد والفوضى تعم . حقاً لم يكن هناك قانون يحول دون قبول الهدايا من الحلفاء والاصدقاء . ولكن المنطق وسلامة الذوق كانا يقضيان على كليف بعدم قبول هدايا ميرجافير .

واطمأنّ ميرجافير الى عرشه والى انه لن تستطيع يد أن تمتد اليه بسوء الا اذا تخلت عن حمايته تلك اليد التي رفعته .

وكان ميرجافير رجلا حسن الأخلاق حميد السيرة لكنه لم يكن على شيء من الصفات التي تكسبه محبة الشعب واحترام الأمراء ، لا سيما وقد أصبح انتقاد أولي الأمر ميسوراً وخلعهم جائزاً بعد تلك الثورة الماضية ، فلقد كان ميرجافير نفسه وليد الثورة . ولهذا لم يكن عجيباً أن تثور النفوس من جديد تبعاً لخلاف وجهات النظر والعقائد ، وان يتولى نواب مقاطعة أود زمام هذه الثورة ، وان يتحرج الموقف ويصبح جو السياسة في اقليم البنغال ملبداً بالغيوم . ولم تكن هناك قوة تستطيع أن تحمي ميرجافير من هذه الأعاصير ، وتعيد الأمور الى نصابها سوى قوة كليف وكفاءته . ولكن الذي حدث انه في هذه الظروف العصيبة وصلت سفينة الى كلكتا تحمل بريداً من مقر الشركة في انجلترا يبدو انه كتب قبل أن تصلهم أنباء معركة بلاسي وفيه قرار مديري الشركة أن يتولى السيطرة على ممتلكات الشركة في اقليم البنغال حكومة مكونة من أشخاص لم يكن كليف واحداً منهم . وكان أعضاء الحكومة الجديدة الذين وقع عليهم الاختيار لا يتصف واحد منهم بأية قدرة أو كفاءة

لحمل أعباء تلك المسؤولية الكبيرة ، وأظهروا شعوراً طيباً نحو كليف فتضامنوا في التنحي عن قبول هذا التعيين متحملين مسئولية مخالفة أوامر الشركة، وسلموا كليف مقاليد الامور يتصرف فيها كيف يشاء .

ولما وصلت الى مقر الشركة في لندن أنباء انتصار كليف الباهر في بلاسي عدّل المديرون قرارهم في الحال وأصدروا أمرهم بتعيين كليف حاكماً عامـًّا لممتلكات الشركة بالبنغال مع تقديم تقديرهم وثنائهم لما قام به من جلائل الأعمال . وبهذا أصبحت سلطة كليف مطلقة وفاقت في قوتها كل ما كان دوبليه يتمتع به في الجنوب . وكان مير جافير يعتبره سيده ومنقذه فقد حدث إنه عنف مرة أحد كبار الاشراف لان أتباعه كانوا قد اشتبكوا في عراك مع بعض جنود الشركة من الهنود وقال له خلال حديثه « هل أنت في حاجة لان أقول لك من هو الكولونيل، وبأي قدر قد حباه الله من التكريم والتعظيم ؟ » . فنفى الشريف عن أتباعه تهمة اعتدائهم على أتباع كليف . ويقول ماكولي إن كليف كان ينظر الى الهنود والاوربيين بمنظار واحد، فالانجليز كانوا يرون فيه القوة التي تستطيع أن تكره ميرجافير على تنفيذ تعهداته له وميرجافير كان يرى فيه حامي ملكه من شعبه المتمرد ، وجيرانه من الأمراء الطامحين والذين كانوا يتحينون له الفرص .

وأرسل كليف فورد أحد قواده الى شمالي اقليم الكرنات حيث كان للفرنسيين نفوذ كبير، وكان لابد من اجلائهم عنه . وأثبت نجاح حملة فورد أن كليف كان موفقاً في اختياره لقيادتها .

وبينما كان جزء كبير من قوات الانجليز في البنغال منهمكاً في الحملة سالفة الذكر ، إذ هدد الحدود الغربيــة لذلك الأقليم خطر جديد عظيم الشأن . وتفصيل ذلك أن المغول العظيم كان سجين قصره في دلهي . وكان أكبر أبنائه شــاه علاَّم ألعوبة في يد كل من يريد تسخيره لاغراضه، فكان مرة أداة في أيدي المهراتا، ثم أصبح فيما بعد صنيعة للانجليز . وكان الذين يسخرونه في تحقيق أغراضهم إنما يفعلون ذلك لما يتمتع به الأمير من احترام الشعب الهندي كله له. ولهذا السبب نفسه إستماله أمير أود إليه ، فتجمع له تحت لوائه جموع كبيرة من

المغامرين الحربيين من جميع أنحاء البلاد ، وبهذا تألف تحت إمرته جيش كبير قوامه أربعون ألف رجل يختلفون بعضهم عن بعض في الجنس والدين واللغة والعادات، ووضع الأمير الخطة التي يستطيع بها خلع ذلك الرجل الذي استند الى حراب الانجليز في تولي عرش البنغال ليتولى مكانه أميراً على أقاليم البنغال ، وأوريسا وبهار .

وعلم مير جافير النبأ ففزع واستبدّ به الخوف لما سمع،ورأى أن الحل الوحيد لتلافي ذلك الخطر الداهم هو عقد محالفة مع شاه علاّم ولو اضطره الأمر الى دفع مبلغ جسيم . وكان ذلك الخاطر هو نفس الخاطر الذي كان دائماً يخطر على بال من جلسوا قبله على عرش البنغال إذا ما هدّدهم خطر على الحدود ، ذلك لأنّ سكان هذا الأقليم كانوا دائماً محبين السلم، ويخشون الحرب، ويدرؤون خطرها بأي ثمن ما دام هـذا الثمن لا يتعدى أن يكون مالاً . ولـكن كليف سخر من هـذا الخاطر وكتب لميرجافير «إذا أنت فعلت ذلك اجتمع عليك جيرانك جميعاً وهدّدوك نفس التهـديد ليحصلوا منك على جميع ما لديك من مال حتى لا يبقى لديك شيء في خزائنك، وأنا أرجو يا صاحب العظمة أن تثق في حلفائك الانجليز وفيما لديك من جنود » .

وبمثل هـذا الأسلوب كتب كليف الى حاكم باتنا بأن يقاوم الى آخر رجل لديه ، وأن يطمئن الى أن الانجليز قوم أوفياء وأقوياء، وأنهم لن يتأخروا عن مد يد العون الى أصدقائهم في الشـدائد وأنهم لا يتوانون عن خوض غمار الحرب في سبيل ما سبق لهم أن حاربوا من أجله .

ونفذ كليف وعده، ذلك أن شاه علاّم حاصر باتنا وكان على وشك اكتساحها حينما بلغته أنباء زحف كليف صوب المدينـة . ومع أن القوات الانجليزية لم يتجاوز عددها أربعمائة وخمسين أوروبيـا، وألفين وخمسمائة وطني ، إلاّ أن ما كان قد اكتسبه من صيت في الحروب جعل اسمه مصدر رعبٍ وفزع ، فما لاحت طلائع الجند حتى ولى المحاصرون الأدبار وحاول الفرنسيون المتطوعون في جيش الأمير شاه علام إقناع سموه بالثبات ، ولـكن محاولاتهم هذه ذهبت أدراج الرياح . وبمثل هذه السهولة تبدّد ذلك الجيش الضخم الذي كان يهدّد مرشد أباد ويسبب لأميرها كثيراً من القلق والفزع .

وعاد القائد المنتصر الى قلعة وليم وبهذا تبددت مخاوف مير جافير ثقة وفرحاً وأهدى منقذه هدية سنيـة . ذلك أن الشركة الإنجليزية كانت تدفع إيجاراً لأمير البنغال عن تلك المساحات الشاسعة التي كانت تشغلها جنوبي كلـكتا . وكان هـذا الإيجار لا يقل عن ثلاثين ألف جنيه سنويـًا . فلما هدأ بال مير جافير من ناحية شاه علام ، ورأى أن يقدم لكايف هدية مناسبة لم يجد خيراً من أن يوقف ذلك الإيجار على كايف مدى حياته .

وقبل كايف هذه الهدية ووافقت ادارة الشركة على هذا القبول ، ولـكن صداقة مير جافير لم تدم طويلاً ، فلقد كان يساوره شعور قوي بأن الحليف القوي الذي أعانه على بلوغ الأمارة قد يهدمه في أية لحظة ، وإنه بهذا الوضع كان تحت رحمة كايف ، وساءه أن يكون مهدداً هكذا باستمرار ، فأخذ يبحث عن حليف جديد يدرأ به خطر الإنجليز إذا هدده منهم خطرٌ ما في يوم من الأيام ، ولم يفـكر أبداً في أن يكون حليفه من الهنود لأنه كان يعتقد كل الاعتقاد أن الهنود ما كانوا ليجرؤون يوماً على الوقوف أمام كايف ، إذ كانوا يرهبونه ، وكذا لم يفكر في الإستعانة بالفرنسيين ، لأن قواتهم في أقليم البنغال كانت قد تلاشت فاتجه ببصره الى الهولنديين الذين كانوا يتمتعون بصيت ذائع لم تخدشه بعـد الوقائع . فهم كانوا قد استولوا على مستعمرات الأسبان والبرتغال أثناء حروب الاستقلال واحتـكروا تجارة الشرق الأقصى وجزر الهند الشرقية التي احتلوها ، وكانوا قد استقروا في امبوينا في سنة ١٦٢٣ ، وفي سلبيز في سنة ١٦٦٣ ، وفي ملقه سنة ١٦٤١ ، وفي جزيرة سيلان في سـنة ١٦٥٨ ، وكانت عاصمة الامبراطورية الهولاندية في الشرق الأقصى في باتافيا حاضرة جزيرة جاوة . ولم تكن أنباء هزيمة هولندة في أوروبا قد بلغت الهند بعد ، فاتصل مير جافير بمقر الشركة الهولاندية في شينسورا واتصلت هذه الشركة بولاة الأمور في باتافيا بارسال حملة لا تقل في قوتها عن القوة الانجليزية الموجودة في اقليم البنغـال . وسرَّ ولاة الأمور في باتافيا بهذا العرض فقد كانوا يشكون من انفرادالانجليز بتجارة الملح وقصر استخدام من يقومون ببعض الأعمال الملاحية في الهوجلي على الانجليز ، وقيام هؤلاء بتفتيش جميع المراكب القادمة الى الهوجلي ، ورأوا فيه فرصة لخدمة وطنهم وأشخاصهم على السواء . فقد كانوا يطمعون في مثل الثراء الذي أصابه الانجليز في تلك البلاد ، ولهذا جهزوا حملة قوية حملتها سبع سفن كبيرة سارت بها من جاوه حتى بلغت

الموجلي فجأة في اكتوبر سنة ١٧٥٩. وكان عدتها خمسة آلاف مقاتل نصفهم من الأوربيين. وكانت الظروف ملائمة للهولنديين ، إذ كان جزء كبير من قوات كليف في اقليم الكرنات لمحاربة الفرنسيين وكان ما لديه من قوات لاتستطيع مكافحة هؤلاء الغزاة. وبلغه أن مير جافير رحب سراً بالهولانديين. وكانت هناك صعوبة أخرى تواجه كليف هي أن هولانده كانت صديقة لانجلترا في أوربا ، وذلك في وقت كانت بريطانيا فيه في حرب مع فرنسا ، وكانت تحرص كل الحرص على ألا تحارب هولانده في نفس الوقت . وكان كليف يخشى أن يشتبك مع هذه القوات الهولندية فيغضب ولاة الأمر في لندن فلا يوافقون على عمله ، بل قد يتعرض من جراء مثل هذا العمل للحساب والعقاب ، إلا أنه كان مقتنعاً بأنه لو سمح لهؤلاء الهولنديين بالمرور في النهر فبلغوا مقر الشركة التي يتزعمونها في شنسورا فان ميرجافير سيلقي بنفسه حتماً بين أحضانهم ويصبح الموقف خطراً على السيادة الانجليزية في اقليم البنغال كله . ولهذا رأى أن يتخذ قراراً سريعاً وحاسماً على ضوء هذه المعلومات دون أي اعتبار خارجي ووافقه ضباطه على ما ذهب اليه .

***

وحاول الهولنديون أن يمروا بالقوة وكانت كل سفينة من السفن التي تحملهم مجهزة بستة وثلاثين مدفعاً. وكانت بينها سفينتان مجهزة كلاهما بستة وعشرين مدفعاً. ولكن الانجليز كانوا يحيطون بهم براً وبحراً ، إلا أن العدو كان متفوقاً في القوة عدداً وعدة . ومع هذا التفوق استطاع الانجليز أن ينتصروا على الهولنديين وأن يستولوا على سفنهم بعد أن قتلوا وأسروا معظم رجالهم من الأوربيين . وعقب هذا الانتصار تقدم الانجليز نحو شنسورا فاستسلمت بسرعة . وأملى كليف شروط الصلح في شنسورا . ومن هذه الشروط أن يتعهد الهولنديون بألا يقيموا استحكامات دفاعية في تلك المدينة ، وألا يجندوا أكثر من القوة اللازمة لحفظ النظام في مؤسسات الشركة ، وانهم في حالة مخالفة أحد هذه الشروط يكونون قابلين للعقاب الذي ينزله بهم الانجليز .

العودة الى انجلترا

بعد هذا النصر الذي توّج اسم كليف في انجلترا بإكليل الغار قبل أن يذهب هو اليهـا حتى قال الوزير العظيم بت عنـه في مجلس العموم (لقد فقدنا المجد والشرف والصيت الطيب في كل مكان ما عدا الهند لأن العناية الالهيـة قد وهبت الوطن هناك قائداً عبقريـاً فذاً لم يسبق له أن درس فنون الحرب . ومع ذلك فقـد هاجم بحفنة من الرجال جيشاً هائلاً دون خوف أو وجل هذا الرجل الذي حافظ على سمعة وطنـه وزاد في مجده وكانت قوة عزمه مما يندهش له أعظم القواد الحربيين وحضور بديهته مثار اعجاب الهنود) . مما بلغ كليف وهو في الهند فملأه بالرضى عن نفسه ، ولـكن هذا الرضا لم يبلغ مبلغ الغرور .

وفي ٢٥ فبراير سنة ١٧٦٠ غادر كليف أرض الهند في طريقه الى انجلترا وعند وصوله الى لندن لقي من الترحيب الشيء الـكثير . وتوالت عليه الهدايا والهبات إلاّ أنه كان يطمع في أكثر مما رأى، فاذا أخذنا في الاعتبار سن كليف عند وصوله إذ كان لا يتجاوز الخامسة والثلاثين ورتبته في الجيش وقتذاك ومنبته المتوسط الذي منه درج لوجدنا ان ما قوبل به من حفاوة وترحيب كان شيئاً عظيماً، فأرلندا منحته لقباً أصبح به من أشرافها، وفتح هذا أمامه أبواب الآمل في أن يصبح من أشراف انجلترا نفسها ، لا سيما بعـد أن أحسن الملك جورج الثالث — الذي اعتلى عرش انجلترا حديثاً — استقباله ، وأحاطه الوزراء بالتكريم والتقدير .

وكان كليف قبل وصوله الى انجلترا قد أرسل اليهـا ثمانين ومائة الف من الجنيهـات عن طريق الشركة الهولندية ، وأكثر من أربعين الفاً من الجنيهات عن طريق الشركة الانجليزية، ومبالغ أخرى لا تقل أهمية عن هذه عن طريق مؤسسات أخرى . وفضلاً عن كل هذا المال فقد حمل معه من الماس والجواهر قدراً لا يستهان به، وما كان يملـكه في بلاد الهند من أراض قدّر بنفسه ثمنها بمبلغ سبعة وعشرين الف جنيه، كل هذه الثروة التي لم تتح فعلاً لرجل بدأ معدماً كما بدأ كليف، ساعدته ومكنته من أن يصرف المال عن سعة وبذخ حتى بذّ أشراف انجلترا في هذا الباب .

وكان كليف باراً بأهله فقد أرسل عقب معركة بلاسي — التي كان انتصاره فيها مفتاح كنوز ثروته — الى أخواته عشرة آلاف جنيه، وأعان كثيراً من الأصدقاء والأقرباء الفقراء، وأمر وكيله بأن يدفع ثمانمائة جنيه سنوياً لأبويه ، وأن يشتري لهما عربة تجرها الجياد ، كما رتب خمسمائة جنيه سنوياً لرئيسه السابق لورنس ، الذي كانت أحواله المالية على درجة كبيرة من السوء . وبلغ ما أنفقه كليف في هذا السبيل خمسين ألفاً من الجنيهات .

وأكثر كليف من شراء الأراضي واستطاع أن يصبح عضواً في مجلس العموم البريطاني عن شيروزبري، ورغم ذلك فلم يلعب دوراً هاماً في سياسة بلاده . ففي أول عهده بالسياسة اتصل بالمستر فوكس، ثم أعجب بعبقرية ونبوغ المستر بت . وأخيراً انضم الى جورج جرنفيل في عام ١٧٦٤ . وهكذا تنقل في أهوائه السياسية .

ولم يصب كليف أي نجاح في السياسة البريطانية رغم أنه كان محبوباً من جميع مواطنيه من الملك ومن الوزراء وممن دونهم من أفراد الشعب ، ذلك لأن ما كان ينعم به من ذيوع صيت ومجد وتقدير انما كان أساسه ما ناله من نجاح في بلاد الهند، سواء في ميدان السياسة أم في ميدان الحرب . ولو كان رجل غير كليف لقنع بما أحرز من ألقاب، وما نال من ثراء، وما نعم به من ترف وسعادة من أهله وأحبائه ، ولكنه كان رجلاً تعوّد الكفاح والحركة، فأخذ يرقب عن كثب ما يرد من أنباء اقليم البنغال كأنما كان يتنبأ بأن الحال هناك ستدعوه حتماً يوماً من الأيام الى تولي قيادة الأمور في تلك البلاد النائية .

الحال في الهند

وكانت الأخبار تترى عن فساد الحكم والادارة في اقليم البنغال واضطراب الأمور فيه . ولعلّ ذلك كان راجعاً الى أن مركز ادارة شركة الهند الشرقية في لندن كان بعيداً عن ميدان أعمالها بعد أن حال بينها وبين مراقبة موظفيها في كلكتا . فجهلت كل شيء عنهم وعن تصرفاتهم لأنه لم يكن يهمها الا ضمان الأرباح التي تعود على المساهمين

واستفاد هؤلاء الموظفون من جهل رؤسائهم بأحوالهم . فاستغلوا التجار الوطنيين والأهالي استغلالاً عجيباً، ناسين كل اعتبار، الا أن يجمعوا الأموال الطائلة في أقصر مدة ممكنة حتى اذا عادوا الى وطنهم عادوا أثرياء . ولم يقفوا عند هذا الحد ، بل بلغ بهم الأمر أن تدخلوا في

سياسة الحكم باعانة بعض الأمراء على بعض، بل خلعوا ميرجافير ذلك الأمير الذي اجلسه كليف على عرش البنغال وأحلوا ميرقسيم محله لقاء جعل معين ومزايا وعدوا بها، ولكن هذا الأمير كان ذا شخصية قوية وارادة حازمة وروح تميل الى الاستقلال فلم يشأ أن يذيب أفراد شعبه في بوتقة الظلم ليكون منه سبيكة خالصة من الذهب يقدمها الى أولئك السادة، لأنه رأى أن هذا الشعب قد استبد به البؤس، واشتدت به الفاقة، ولم يعد في ضرعه قطرة من اللبن، ذلك الشعب الذي بدأ أفراده يهربون الى الجبال خشية الاضطهاد، وهرباً من الاستعباد.

وأسف حضرات الموظفين لتولية مير قسيم لأنه لم يعطهم ما طلبوا ولا حقق لهم ما رغبوا فيه، فسرعان ما خلعوه عن عرشه، وأعادوا ميرجافير مكانه، ولم يكتف موظفو الشركة في أقليم البنغال بفرض سلطانهم على الأمراء ومن في حكمهم، بل عمدوا الى بث وكلائهم ومندوبيهم في القرى لإكراه الناس على أن يبيعوا لهم بضائعهم وحاصلاتهم بثمن بخس، وعلى أن يشتروا ما يؤمروا بشرائه منهم بثمن عال. وكان أولئك المندوبون والوكلاء يستندون في عملهم هذا الى السلطان المخول لهم من ادارة الشركة المحلية والتي كانت تعتمد في إظهار قوتها وجبروتها على قواتها المسلحة، ولو لقي الهنود هذا العنت والاضطهاد من أمرائهم لثاروا عليهم وخلعوهم من عروشهم كما كانوا يفعلون قبلا. أما والذين كانوا يفعلون بهم هذا من الانجليز فقد كان الأهالي يؤمنون بأنهم قوم لا يمكن أن ينالوا بسوء، أو يسدى إليهم نصح حتى قوي هذا الاعتقاد عند الهنود فأصبحوا يرون أن الانجليز ليسوا من البشر إنما هم فئة من الجن. وكثرت حوادث الهرب. فلقد كان الهندي يهرب من الانجليز كما كان يهرب من المهراتا الى الجبال الموحشة، والغابات المسبعة، لعله يجد في جوار سباع الفلاة أمناً لا يجده في جوار أولئك المستعمرين، فما كانت تصل إحدى القرى أنباء وصول سائح انجليزي حتى يبادر اهلوها الى اخلائها فوراً، فاذا دخل الرجل القرية وجدها بلقعاً يباباً.

وتسرب الفساد من ادارة الحكم الى الجيش نفسه فالضباط أصبحوا هم الآخرون يرفلون في ثياب الترف والنعيم، ويتمتعون بكل ما يستطيعون الحصول عليه من لذائذ وطرائف وتفشى بينهم روح التمرد والعصيان. وانتقلت هذه العدوى الى الجنود الأوربيين منهم والهنود وكثرت المؤامرات وعمت الفوضى والاضطراب بلاد الهند وقل إيراد الشركة فقلقت

الخواطر في لندن لهذه الحال وزاد في قلقها توارد الأنباء عن الاخطار التي كانت تهدد حدود تلك البلاد .

وأخذت الأنظار تتجه الى كايف الذي كان غيابه عن اقاليم البنغال خمس سنوات سبباً في كل ما حلّ به من سوء، ودارت على الألسنة عبارة أن كايف وحده دون سواه هو القادر على اعادة الأمور الى نصابها في الامبراطورية التي أوجدها .

وظهر هذا الرأي واضحاً وصريحاً في الجمعية العمومية التي عقدها مساهمو شركة الهند الشرقية وأجمع الكل عليه ، ونادى المنادون بأنه يجب تناسي ما نسب الى الرجل ، وان يتفق معه على القيام بهذا العمل .

وقبل كايف في ذلك الاجتماع أن يذهب الى اقليم البنغال ، وان يصلح من شأنه ، وان يعمل على زيادة أرباح الشركة ، ولكن على شرط أن يتخلى مدير الشركة (سوليفان) عن منصبه ، وكان هذا منه تحدياً ظاهراً لغريمه القديم ذي السلطان القوي والنفوذ الكبير . ولكن الحاجة الى كايف حدت بالمساهمين الى إجابة طلبه ، وذلك بإعادة انتخاب مجلس ادارة الشركة وجاءت نتيجة هذا الانتخاب مرضية لكايف . فعين وكيلاً للشركة وقائداً عامّاً للممتلكات البريطانية في أقليم البنغال .

تطهير

في هذه الظروف سافر كايف الى الهند للمرة الثالثة والأخيرة ، فبلغ كلكتا في مايو من عام ١٧٦٥ حيث وجد أن ادارة الحكم كانت في واقعها أكثر فساداً مما سمع عنها ، فان مير جافير كان قد مات عقب وفاة ولده ، واستهتر موظفو الشركة بأوامر رؤسائهم البعيدين عنهم كل البعد ، والجاهلين بشؤونهم كل الجهل ، تلك الأوامر التي كانت تحظر عليهم قبول هدايا من الأمراء الوطنيين ، وشجعهم على هذا الاستهتار ، جشعهم للمال والربح . فأقدموا على عرض عرش البنغال للمزايدة ، وتقدم إليهم من دفع لهم أربعين ألف جنيه ثمناً لذلك العرش فتقاسمها تسعة من ذوي النفوذ في الشركة ، وارتقى العرش ثمناً لهذه الصفقة طفلٌ من سلالة الأمير الراحل . وكان كايف قد بلغته أنباء هذه المساومة وهو في طريقه الى مقر عمله فاستاء لما سمع ، وزاد استياؤه حينما رأى وعلم ، فكتب الى صديق له في إنجلترا يقول (وأسفاه لما

أصاب سمعة الانجليز ، فإني أخشى أن لا أستطيع اصلاح ما حلّ بشرف الشعب البريطاني واني أشهدك وأشهد الله الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور : أني جئت هذه البلاد ، وضميري نقي لا ترقى اليه شائبة ، وأني عزمت على أن أبيد هذه المساوىء التي نخرت في كيان البلاد أو أهلك دونها) .

واجتمع مجلس ادارة فرع الشركة في كلكتا بناءً على دعوة كليف الذي أعلن الأعضاء خلال ذلك الاجتماع بعزمه على أن يقوم بعملية تطهير واسعة ، وأنه سيستعمل في هذه السبيل كل سلطة مخولة له ، سواء أكانت هذه السلطة مدنية أم عسكرية . وثار أشد الأعضاء جرأة ، وأبلغهم قحة ، وأسودهم صفحة ، لهذا القرار ، ولكن كليف أسكته بقوله (أتريد أن تعترض على الحكومة الجديدة وسلطانها ؟) . ولكن الثائر المحتد اعتذر وجلس متخاذلاً واسودّت وجوه إخوانه وشملهم حزن عميق ولم يستطع أحد منهم أن ينطق حرفاً .

ونفذ كليف وعده ، ففي خلال الثمانية عشر شهراً التي أقامها حاكماً بأقاليم البنغال أحرز نجاحاً أي نجاح في تنفيذ مهمته التي جاء الهند من أجلها ، وكانت تلك الفترة من حياته أسعد أيامها ، ظلّ يذكرها بالفخار حتى أخريات أيامه .

وموضع الفخار أنه كان يستطيع أن يضاعف ثروته خلال تلك الفترة بأن يغمض عينيه عما كان يأتيه موظفو الشركة مع شعب وديع مسالم لا حول له ولا قوة من استغلال ، بل واستنزاف موارده ، فذلك الشعب الذي كان يجهل أين تقع تلك البلاد التي نكبته بارسالها إليه أولئك المضطهدين القساة . ولكنه لم يشأ أن يبيح لنفسه ما جاء لتحريمه على سواه . وكان يعلم أنه في هذا التحريم سيصطدم برغبات بني جلدته من المغامرين الجشعين ، وأنه سيتعرّض لثورة هائلة يثورونها عليه إذ فوّت عليهم جمع أكبر ثروة مستطاعة في أقل مدة من الزمن . كان الرجل يعلم كل هذا فأعدّ للأمر عدته ، رغم أن النجاح كان يبدو في أول الأمر مستحيلاً ، ولكن العوائق أخذت تنهار الواحدة بعد الأخرى أمام شجاعته ، وقوة إرادته ، فمنع قبول هدايا الهنود ، وحرّم على الموظفين الاتجار . وأحسّ كليف استياء هؤلاء وغضبهم لهذا فأعلن في حزم ما يتطرق اليه شك في أنه إذا لم يجد في حامية قلعة وليم القوة التي تكفيه لتنفيذ أمره فإنه سيأتي بتلك القوة من جهة ما ، وأتبع القول العمل فطرد الذين

أصرّوا على مقاومته ، واستبدل بهم غيرهم ، فلما رأى الباقون ما حلّ بالثائرين استسلموا لأمره ، ورضخوا لمشيئته ، وبهذا استتبّ له الأمر في أقليم البنغال .

ولكن كليف كان يعلم أن قوته الشخصية هي التي بدّدت تلك المساوىء التي كانت البلاد تئن منها وترزح تحت أثقالها . وأنه من المحتمل أن تعود الى سابق قوتها إذا ما هو ترك مركزه هذا لسبب من الأسباب ، ورأى من الخير استئصال أسباب العلة .

العلاج

فان الشركة كانت قد جرت على منح موظفيها مرتبات ضئيلة لا تكفل لهم الحياة الهانئة أو تضمن لهم الراحة والرفاهية ، وهم الذين تركوا بلادهم وارتضوا العمل في ذلك الجو الخانق الذي لم يتعوّدوه في أوطانهم . وكان طبيعيًّا أن أي رجل متوسط الكفاءة أو المواهب لا يرضى مثل هذه الظروف إلاّ إذا كان قد رسم لنفسه خطة ينتهجها إنتجاعاً للرزق وطلباً للمال .

وعوّل كليف على أن يفتح لأولئك الموظفين باباً للرزق يدر عليهم ربحاً طيباً حلالاً يغنيهم عن قبول هدايا الأمراء ، وفرض إرادتهم على التجار والوسطاء، سواء أكان ذلك في البيع أم الشراء ، ولا يدعهم ينتظرون عبثاً من أولي الأمر في لندن زيادة مرتباتهم ، وهو أبغض الحلول عند أولئك المديرين . وفكر الرجل طويلاً في أمر (الملح) وكوّن (شركة الملح) التي كان لها احتكار تجارة الملح في الأقليم كله ، وساهم فيها كبار الموظفين بمبالغ تتناسب مع درجاتهم وكانت الأرباح التي تعود عليهم من أسهمهم تتفق وما اكتتبوا به . وقال كليف في هذا الصدد (ان المزايا التي تعود على المساهمين من تأسيس هذه الشركة والتي لها مطلق الحرية في احتكار هذه المادة هي أكبر حائل يمكن أن يحول دون قبول هدايا الوطنيين من الهنود، ثم هي لا تضير شركة الهند الشرقية بشيء ما .)

ومهما برر كليف انشاء شركته هذه فإنها كانت تتعارض مع الأمر الاداري الذي صدر من مركز الشركة الرئيسي في لندن في ٨ فبراير سنة ١٧٦٤ خاصًّا بتحريم الاتجار في بعض المواد ومنها الملح على الموظفين . فأتهمه أعداؤه ثم أتهمه التاريخ بأنه خالف أوامر الشركة ونكث عهده الذي عاهد ادارة الشركة عليه ، وانه بدلاً من أن يقضي على دابر التجار ، وفي

الشركة لحسابهم الخاص كما كان مفروضاً فيه عند مجيئه الى كلكتا نظم هذا الاتجار ووسع في أركانه . ويرى ماكولي ان احتكار تجارة الملح كان مقصوراً على الحكومات المختلفة في بلاد الهند قبل أن يولد كليف وانه بقي كذلك أمداً طويلاً بعد مماته، وان كل ما فعله الرجل لا يعدو أن يكون فتحاً لباب من الرزق لموظفيه يزيد من ثرائهم قليلاً قليلاً . ولكن هذه الزيادة منتظمة وثابتة ، لأنها تجعلهم مطمئنين الى مستقبلهم ، فيسيرون في عملهم باخلاص ويكرّسون له جهودهم ووقتهم فيزداد نجاحاً وتعود فائدة ذلك كله على الشركة ومساهميها .

بهذا قضى على مناوأة الموظفين المدنيين بمشروعاته الاصلاحية فاتجه ببصره الى العسكريين وكانت الشركة قد خفضت مرتباتهم تحقيقاً للاقتصاد الذي يرضي مساهميها ، وتخفيفاً لضغط المصروفات . ولولا أن كليف كان في كلكتا في ذلك الحين لصار الأمر على أكبر جانب من الخطورة ، فهؤلاء كانوا أرباب السيف في بلاد لا يمكن أن تحكم بغير السيف . ودبر مئتا ضابط من الانجليز مؤامرة ضد الحكومة وصمم المتآمرون على الاستقالة من خدمة الجيش وضربوا لذلك موعداً يستقيلون فيه دفعة واحدة عالمين أن كليف وهو خير من يقدر أهميتهم لا يقبل أن يترك الجيش بغير ضباط . ولكن كليف لم يأبه بهذه الاستقالة فاعتمد على اخلاص من لم يشترك في تلك المؤامرة وأرسل الى قلعة سان جورج في طلب مدد جديد من الضباط، وعين في الوظائف التي خلت باستقالة أولئك الضباط مدنيين ممن يثق بهم . أما الجنود الانجليز منهم والهنود فقد ظلوا على اخلاصهم ووفائهم لقائدهم الذي كان موضع اعجابهم وتقديرهم ، وأمر بجمع الرؤوس المفكرة لتلك المؤامرة في الحال وشكل محكمة لمحاكمتهم وقررت المحكمة فصلهم من خدمة الجيش . أما الباقون فقد راعهم ما حلّ بزعمائهم فالتمسوا سحب استقالاتهم ، وأعلنوا توبتهم، فعفى كليف عن صغار الضباط . أما كبارهم فقد كان معهم صارماً ، لا عن حقد ولا كراهية شخصية ، ولكن لأنهم ارتكبوا جريمة العصيان .

السياسة الخارجية

الآن وقد تمّ له تطهير الادارة الحكومية مدنية كانت أم عسكرية، اتجه كليف ببصره الى السياسة الخارجية ، فكان وصوله الى اقليم البنغال بشيراً بالسلام . فان نواب أود كان قد جمع جيشاً على حدود مقاطعة بهار، وكان هذا الجيش يضم بين صفوفه كثيراً من قبائل الأفغان

والمهراتا . وكان المحتمل أن تنضم اليه عناصر أخرى كبيرة من الهنود ضد الانجليز . فما ان بلغ الأمير المهاجم نبأ وصول كليف الى كلكتا حتى عدل عن فكرة مهاجمة مقاطعة بيهار وطلب الصلح من الانجليز فقبل طلبه وكان كليف هو الذي أملى شروط هذا الصلح .

وكانت العلاقات بين الانجليز والحكام الوطنيين غامضة غير واضحة الأسس والمعالم ، وان كان الأولون أصحاب السلطان الحقيقي في اقليم البنغال . ولقد شاء كليف أن يكسب للانجليز صفة شرعية في حكم ذلك الاقليم فحصل من ذلك الامبراطور الضعيف والذي لم يكن له حول ولا قوة مقابل قليل من المال على تصريح يفوض فيه الانجليز في حكم وتحصيل ضرائب أقاليم البنغال وأوريسا والبهار . تلك السلطات التي كان الانجليز يمارسونها فعلاً قبل صدور ذلك التصريح ولكن بقي هناك أمير أو على الأصح شبه أمير كان الانجليز يتخذونه تكأة في حكم اقليم البنغال ، وأراد كليف أن يمحو ذلك الشبح ولكنه عاد فأبقى عليه لانه رأى في بقاء تلك الصورة الهندية ما يفيده في سياسته مع تلك السلطات الأوربية الأخرى التي لا ترى غضاضة في النزول على رأي أمير وطني اعتادت احترامه من قبل مما يساعده هو على تحقيق أغراضه ، ولكنه عاد فخشي أن يصبح ذلك الأمير في يوم من الأيام ألعوبة في يد الآخرين فعدل عن الابقاء عليه .

العودة الاخيرة

وبعد أن قضى كليف في بلاد الهند ثمانية عشرة شهراً اضمحلت صحته وتبدد فيها جزء كبير من قوته أبحر عائداً الى وطنه المرة الأخيرة في يناير سنة ١٧٦٧ .

ولم يجد كليف من مواطنيه في أوبته هذه ما لقيه منهم في المرة الأولى من ترحيب وحفاوة ، بل لقي كل اهمال وانتقاد مر مما آلم نفسه ، وحز في قلبه ، وحطم أعصابه ، حتى عجل به الى قبره . وكان أول من ناصبه العداء أولئك الذين كانوا يحقدون عليه في ادارة الشركة ، وكانوا ذوي نفوذ قوي وسلطان متين ، وتطوع للانضمام اليهم في حملتهم على الرجل فئة من الموتورين الذين طالما عاثوا في اقليم البنغال فساداً ، فاقتلعهم من أرضها اقتلاعاً ، وطهر البلاد منهم تطهيراً . وزاد في قوة هذه الجبهة التي اتحدت للقضاء عليه استعانتهم بالصحف في التشهير به وإثارة الرأي العام عليه .

وكانت قد تكونت في انجلترا طبقة جديدة من أولئك الذين عادوا من الهند أثرياء ، بلغ بهم ثراؤهم مبلغ الأشراف في الترف والنعيم ، وإن لم يرفعهم الى مصافهم في الخلق والعادات ، فكانوا مثار بغض الناس وانتقادهم ، وحقدهم ، لأن هؤلاء الناس كانوا يعلمون أن هذا المال لم يأت إليهم حلالاً طيباً ، ولا كان ثمرة كدٍّ أو عمل ، ولكنه كان مالاً مغتصباً من قوم سذّج بسطاء سليمي الطوية مسالمين استغلوا استغلالاً قبيحاً واستنزفت أموالهم بل وأقواتهم، وجاء أولئك المغتصبون يبذرونه في غير أوجه التبذير ، ويبعثرونه حيثما اتفق ، لا يعنيهم إلاّ أن يبدو وجهاء ، وإلاّ أن يقول عنهم الناس إنهم عظماء ، ولكنهم لم يصلوا الى غاية من الغايتين بل أصبحوا موضع السخرية والانتقاد المر والتحقير في كل مكان حلوا به ، حتى لقد بلغ بهم الأمر أن الناس كانوا يخلون لهم نواديهم إذا هبطوا عليهم بها .

***

وكان الشعب يريد أن يفرج عما كان يشعر به من ضيق إزاء أولئك المغتصبين بعد إذ رأى القصور يشيدونها في وقت قصير ، وما كانت تلك القصور تحويه من وسائل الترف ، وما كانت تضمه من الخدم والاتباع ، فسرعان ما صدق ما جاء بتلك الصحف المأجورة عن كليف، بل واعتبره المثل الحي لأولئك المغتصبين فصبّ عليه غضبه ونقمته .

ولو نجحت مشروعات كليف في اقليم البنغال لكان ذلك شفيعاً عند الرأي العام ، ولكن كان من سوء حظه أن أثر تلك النظم التي وضعها لحكم ذلك الاقليم أخذ يضعف شيئاً فشيئاً، وسياسته التي رسمها لإدارته تركت ظهريّـا ، وبعثت المساوىء التي أماتها من مرقدها وزاد في سوء الحال أنه حدث في صيف عام ١٧٧٠ أن كفت الأمطار عن الهطول ، وقلّ ماء نهر الجنجز وضحل ، ومات الزرع ، وجفّ الضرع ، وعمت المجاعة وادي ذلك النهر ، وانتشرت الأوبئة والأمراض ، ونشر الموت جناحيه على سكانه ، بل أدّى الأمر الى أن برزت السيدات المحجبات الناعمات من خدورهنّ وخرجنَ الى الطرقات حاملات أطفالهنّ كالزهور الذابلة ، يتسولنَ طالبات حفنة من الأرز لسد رمق أولئك الأطفال . وازدحمت شوارع كلكتا بالجثث حتى تعذر المرور فيها . ولم يكن ميسوراً للأحياء أن يحملوا تلك الجثث الى المقابر أو الى النهر الذي أصبح مليئاً بأمثالها لضعفهم ، وخورهم ، فتولت

الوحوش الضارية مهمة التهامها نهاراً ، وراح ضحية تلك المجاعة ملايين من الهنود . وبلغت الأنباء لنـدن فضاعفت اهتمام الناس بأخبار الهند ، وكان أشد الانجليز اهتماماً بها أولئك المساهمون الذين قلقوا على مصير أرباحهم ، وبدأت النفوس تحس الأسف والأسى والعطف على ذلك الشعب البائس المنكود ، وتولد عن هذا الاحساس شعور بالغضب على أولئك الذين كانوا سبباً فيه . وأخذ الرأي العام يتهم موظفي الشركة الانجليزية الهندية بأنهم كانوا سبب تلك الـكارثة لما كانوا يقترفونه من إكراه الهنود على بيع محصول الأرز رخيصاً لهم ، ثم شرائه منهم بثمن غال فوق طاقتهم، في وقت كانت الطبيعة قاسية عليهم فحرمتهم المطر الذي عليه تتوقف حياتهم ، وان أولئك الموظفين في إتيانهم ذلك المنكر إنما استندوا الى حق أباحه لهم كليف فاستقرّ سخط الشعب على هذا الرجل

ويدفع ماكولي عن كليف هـذه التهمة بقوله إنه كان وقت حدوث المجاعة قد غادر بلاد الهند منذ سنين ، وإنه ليس بين أسباب هذه المجاعة سبب واحد يتعلق بالقوانين التي سنها وقت أن كان متوليا منصبه في تلك البلاد ، وان موظفي الشركة باشتغالهم بتجارة الأرز انما خالفوا تلك القاعـدة التي سنها لهم والتي عمل على توطيدها بكل ما أوتي من قوة وان كل ما أباحه له ، انما هو تجارة الملح ، ولـكن الناس كانوا قد اقتنعوا بأن كليف هو المسئول عن كل تلك المساوىء وانه من الواجب أن يؤدي عنها حساباً .

الحساب

والى ذلك الحين لم يكن البرلمان قد أعار المسألة الهندية أي اهتمام ، فمنذ وفاة الملك جورج الثاني تعاقب على حكم بريطانيا حكومات ضعيفة قصيرة الأجل كانت كل منها تذهب ضحية رجال البلاط ، ووجدت في المصاعب الناشئة عن المؤامرات في قصر الملك والشغب في العاصمة والثورات في المستعمرات الأميركية ما شغلهـا عن العناية بمشكلة الهند فاذا ما تهيأ لها من الفراغ ما تستطيع أن تـكرسه لدرس تلك المشكلة كان أثرها فيها ضعيفاً .

وأخيراً عمّ الشعور في سنة ١٧٧٢ بأنه أصبح على البرلمان واجب الاهتمام بسياسة الهند . وكانت الحـكومة اذ ذاك أقوى حـكومة اضطلعت بأعباء الحـكم منذ استقالة

الوزير بت في سنة ١٧٦١ ، إذ لم يعد يشغل الأذهان من السياسة الأوربية ولا من المشاكل الداخلية شاغل . وكانت أزمة الشركة الانجليزية الهندية قد بلغت ذروتها ، وكان الرأي العام قد ركز المسئوالية كلها في كليف .

وكان مركز الرجل دقيقاً وحرجاً إذ أصبح مكروهاً من الشعب كله ، ومكروهاً في ادارة الشركة . ومكروهاً من أولئك الموظفين الأثرياء الذين كسر شوكتهم ولم يكن كليف ضالعاً مع أي حزب من الأحزاب السياسية في بريطانيا حتى كان ذلك الحزب يتولى الدفاع عنه في البرلمان . وكان أعداؤه أقوياء قوتهم في كثرتهم وفي نفوذهم وكانوا لا يريدون أقل من أن يفقدوه سمعته وثروته ، وان يصلوا الى طرده من البرلمان ومصادرة أملاكه . ولم يبد على أولئك الناقمين أن تحقيق هذه الغايات يشبع رغبتهم في الانتقام منه .

وكان دفاع كليف في البرلمان يشبه كثيراً خططه الحربية فقد كان وحيداً محاصراً يفوقه أعداؤه في كثرة عددهم ونفوذهم ، ورغم كل هذه الأخطار المحدقة به لم يشأ أن يقف موقف المدافع عن نفسه بل آثر الهجوم . ففي بدء المسائل الهندية في ٣٠ مارس سنة ١٧٧٢ وقف كليف وألقى خطاباً مطولاً منمقاً دفع فيه عن نفسه معظم التهم المنسوبة اليه . وكان بليغاً في خطابه هذا حتى أثر في مستمعيه أثراً طيباً ، إلا أنه لم يدافع إلا عن أعماله في تلك الفترة الأخيرة من ادارته فرع الشركة في البنغال التي بدأت من عام ١٧٦٤ . ونجح في هذا الدفاع حتى ان أعداءه وقد سقطت حجتهم في اتهامه عن هذه الفترة وجهوا جهودهم ونجحوا في استجوابه عن الفترة السابقة لها .

وكانت هذه الفترة مليئة بنقط ضعيفة يمكن مهاجمته منها ، واختيرت لجنة من أعضاء المجلس بالانتخاب لبحث قضية الهند ، وتولت هذه اللجنة فحص تاريخ تلك الثورة الكبرى التي أدت إلى اسقاط سراج الدولة وتولي ميرجافير مكانه . واستجوبت تلك اللجنة كليف استجواباً دقيقاً خالياً من أية مجاملة . وكان الرجل شجاعاً وصريحاً في اجاباته ، فاعترف بأنه خادع أوميشند وان ضميره لا يؤنبه لهذا الخداع ، بل وصرح بأنه إذا أتيحت له في المستقبل ظروف مشابهة فسيلجأ إلى نفس الطرق التي اتبعها مع ذلك الرجل كما أقر باستلامه مبالغ طائلة من ميرجافير ، ولكنه أنكر استعماله في سبيل ذلك ما يخل بالشرف أو يتنافى مع

الأخلاق . وقال انه في ذلك لم يكن أنانيًّا ولا جشعاً ووصف في أسلوب رائع مركزه الذي صار اليه عقب انتصاراته الـكبيرة يتملقه الأمراء العظام ، وتنفتح تحت قدميه كنوز الذهب واللآلىء ويتنافس المموّلون الـكبار في سبيل ارضائه، وأبدى عجبه قائلاً (ياسيدي الرئيس . إني لأعجب في لحظتي هذه من قناعتي وقتذاك) .

ـ وطالت مناقشة الاستجواب حتى انتهت اللجنة من عملها وكان من السهل معرفة نتيجة هذا العمل ، فاعتبر كليف مذنباً ومقترفاً لآثام لا يمكن تبريرها ، إلاّ بخرق النظم المشروعة والقوانين الموضوعة . ولـكن المجلس لم ينكر على كليف ما كان يتصف به من صفات عالية ويتحلى به من فضـائل جمة ، وما كان قد أداه من خدمات خالدة لـكل من وطنه والشعب الهندي .

وما كان واجبـاً أن تجري محاكمة النابغين من الرجال لأخطاء ارتـكبوها ، أو هفوات أتوها تحت مؤثرات قوية لم يستطيعوا احتمالها كما تجري محاكمة المجرمين العـادين ، بل كان يجب أن يقدرهم معاصروهم التقدير الذي ينالونه فيما بعد من الأجيال التالية . حقّـا ان الأعمال السيئة سيئة على كل حال ، لا يجوز الباسها ثوب الحسن . ولـكن يجب الموازنة بين ما قاموا به من أعمـال ، وما أتوه من جرائم . فإذا رجحت كفة حسناتهم وجب أن يقتصر الجزاء على لومهم . فـكم من حاكم عظيم في التاريخ لم يسلم من ارتـكاب غلطة أو اثنتين فأي من أولئـك جميعهم كان يسلم من مثل تلك المحاكمة لو أن لمواطنيهم من القوة التي تدينهم كالتي أدانت كليف ، إن أفضل محكمة لمثل هؤلاء دائماً هي محكمة التاريخ .

كانت هذه الآراء نصب أعين العقـلاء والمعتدلين من جميع رجال الأحزاب ، ولـكنهم لم يستطيعوا أن يبرئوه من اللوم كما أنهم لم يشاءوا أن يتركوه تحت رحمة تلك الذئاب الآدمية من ذوي العقول الضعيفة والتفكير السقيم . الذين قدموه لهـذه المحاكمة وكانوا متعطشين للقضاء عليه .

وفي خلال المحاكمة أنعم الملك على كليف بلقب (سير) ودعاه إلى التشرف بالمثول بين يديه . وفي تلك المقابلة أنعم عليـه بلقب لورد . ولما قبل يدي الملك جورج الثـالث أبدى جلالته عطفه العظيم عليه وأذن له بمقابلة خاصّـة تحدّث اليه خلالهـا مدى نصف ساعة عن

السياسة الهندية . وكان تأثر جلالته عظيماً حينما حدثه القائد المتهم عن خدماته وعن الجزاء الذي ناله نظيرها .

ثم عرضت القضية على مجلس العموم البريطاني ووقف موقف الاتهام بورجوين رئيس اللجنة التي تولت التحقيق ، وتورلو النائب العام . أما وودربرن مساعد النائب العام فقد وقف الى جانب كليف ودافع عنه دفاعاً بليغاً ومنطقيًّا ، ودافع كليف عن نفسه دفاعاً وان كان أقصر وأقل مهارة من دفاعه في بدء محاكمته إلاَّ أنه كان أكثر حرارة ونشاطاً ، ورجا سامعيه أن يذكروا أن حكمهم ان ينصب عليه وحده ، ولكنه سيشملهم أيضاً . وبهذا ختم دفاعه — وانسحب من المجلس .

الحكم

وقرَّر أعضاء مجلس العموم

« إن ما تحرزه قوات الدولة ملك لهذه الدولة وحدها وان احراز موظفي الدولة لتلك الممتلكات عمل غير قانوني ، وان الموظفين الانجليز في اقليم البنغال قد تعوَّدوا مخالفة هذه القاعدة » .

وفي يوم تالٍ قرر أعضاء المجلس .

«أن كليف نال مبالغ طائلة من ميرجافير بحكم وظيفته كقائد عام القوات البريطانية في الهند » .

وهنا وقف الأعضاء عن اتمام النص الى النتيجة المنطقية .

ولما أثيرت مسألة اساءة استعمال كليف سلطة وظيفته وضربه مثلاً سيئاً للموظفين ، دارت مناقشة حامية حول هذه النقطة ، ووقف وودربرن واقترح (ان اللورد كليف قد أدى في نفس الوقت لوطنه خدمات عظيمة وجليلة) . وبهذا انتهت المناقشة .

وهكذا اجتاز كليف تلك المحنة القاسية والأزمة القاتلة وساعده على هذا انه لم يكن رجلاً حزبيًّا تتحامل عليه الأحزاب الأخرى ، بل كان بطلاً وطنيًّا فساهم المجلس كله في انقاذه مما كان مسوقاً اليه .

وأصبح كليف آمناً على ثروته وشرفه ، يحيط به أصدقاؤه وأقاربه ، إلاّ أنه كان يقاسي كثيراً من المتاعب الجسمية والعقلية . وخيمت على عقله سحب من الآلام والأحزان ولقد كان منذ شبابه المبكر فريسة الأفكار السود التي كانت تحبب اليه الموت، حتى لقد حاول الانتحار مرتين حينما كان كاتباً في خدمة الشركة في مدراس . ثم حالت كثرة ما قام به من أعمال وما نال من نجاح دون استمرار تلك الأفكار السود. ففي الهند شغلته الأعمال العظيمة التي كان مضطلعاً بها، وفي انجلترا صرفه عنها ثراؤه وما ناله من رتب وتقدير فبدأ يرضى عن نفسه ويعد نفسه سعيداً . أما الآن فقد خلا من كل خاطر يشغله، أو أمل يرجيه، أصبح كالريشة في مهب الريح ، لا سيما بعد أن نال ما نال من عنت أصدقائه وإهانة اللجنة التي تولت التحقيق معه ، وذلك الاتهام الذي وجهه إليه مجلس العموم وإن كان في ثوب مقبول ، وما كان يشعر به من أن مواطنيه يعدونه قاسياً وخائناً وظالماً . كل هذه الاعتبارات تجمعت في ذهن كليف ، وسببت له القلق والآلام وضيق الخلق.

وحينما كان في المناطق الحارة أصابته عدة أمراض مضنية والتمس شفاءها فيما أشار عليه به المشيرون بتعاطي الأفيون ، حتى أصبح لهذا التعاطي عادة وأصبح هو أسيراً لها . وقد كان يظل ساكناً ساعات طويلة تحت تأثير المخدر . ثم يصحو فتصحو معه مميزاته العسكرية والسياسية فيناقش أية مسألة تعرض عليه بجلاء وحكمة ثم يعود الى إغفاءته واطراقه الحزين .

وزادت حدة المناقشات بين انجلترا ومستعمراتها الأمريكية حتى دعى الأمر الى امتشاق السيف ، وفكرت الحكومة في الانتفاع بمواهب كليف لو كان قد ظلّ على ما كان عليه يوم رفع حصار « باتنا » . وعندما قضى على الجيش والبحرية الهولندية عند مصب نهر الجنجز . ولكن كليف لم يكن عند ظن أولئك الوزراء به ، فان عقله الجبار كان قد أجهدته المتاعب والآلام، حتى اذا جاء اليوم الثامن والعشرون من شهر نوفمبر سنة ١٧٧٤ انتحر كليف وكان قد بلغ التاسعة والاربعين من عمره .

وهكذا انتهت حياة مؤسس الامبراطورية البريطانية في الهند بعد ان ترك صفحة رائعة في سجل الخالدين .

وللمعرب

١ — فتاة الجيشا : صورة جميلة ناعمة للحياة الداخلية في بلاد اليابان محلاة بالصور .
٢ — زينيدا وقصص أخرى : من ألطف ما كتب أنطون تشيكوف .
٣ — غرام الأميرال : صورة حية لأروع الوقائع الغرامية في التاريخ محلاة بالصور .
٤ — الجلد المسحور : قصة رائعة تحليلية لأونوريه دي بلزاك محلاة بالصور .
٥ — بائع الخضر وقصص أخرى : مجموعة من خير ما كتب أناتول فرانس .
٦ — دون جوان وقصص أخرى : « « « « أونوريه دي بلزاك .
٧ — روائع الأدب الألماني : لأشهر كتاب ألمانيا
٨ — مجد امرأة وقصص أخرى : مؤلفة
٩ — باقة البنفسج : مختارات من أشهر المآسي

وكلاء المقتطف ومحلات الاشتراك

في العاصمة والقطر المصري ادارة المقتطف بشارع القاصد — باب اللوق

في بيروت — سوريا — جورج افندي عبود الاشقر ص. ب رقم ٩٢٩

في طرابلس الشام الاستاذ عبدالله الياس حصني

في دمشق — شملان — الشهداء الاستاذ السيد حمدي القواص

في شرقي الاردن — عمان } الاستاذ يعقوب عودات

وفي فلسطين } القدس الشريف باب الساهرة

في حمص — سوريا الخوري عيسى اسعد

في حلب شارع السويقة السيد عبد الودود الكيالي وأولاده أصحاب المكتبة المصرية

في صيدا نقولا افندي حريصي داغر — صيدلية الهلال

في حماه السيد طاهر افندي النعساني

في الارجنتين Mr. N. J. Nazer
Avenida de Mayo 1370
Buenos Aires, Rep. Argentina

في الولايات المتحدة والمكسيك وكندا وكوبا Mr. Naguib Shehadi
8012 Narrows Avenue
Brooklyn N. Y—U. S. A.

قيمة الاشتراك في المقتطف تدفع مقدماً

ثمن سنة
ص

١٢٠ في القطر المصري والسودان

١٤٠ في سوريا ولبنان وفلسطين وشرقي الاردن والعراق «بريد عادة»

٧ دولارات لاميركا الشمالية

٦ دولارات لاميركا الجنوبية وجمهورية الأرجنتين

وفي سائر الجهات ٣٠ شلناً

ملاحظة { يخصم ٢٠٪ من قيمة الاشتراك للاساتذة والطلبة الذين يرفقون طلبهم بشهادة من مدير المدرسة تشجيعاً لهم]

مطبوعات المقتطف

في ادارة المقتطف طائفة من أفيد الكتب العصرية والعلمية والروايات الادبية

م	
٤٠	الفتح مستمر للاستاذ فؤاد صروف
٥٠	معجم الحيوان : للفريق الدكتور امين باشا المعلوف
٣٥	فصول في التاريخ الطبيعي : للمقتطف
٣٥	مختارات المقتطف
٤٠	الرواد : للمقتطف
٣٠	مصر الاسلامية : لجماعة من الاساتذة
٤٠	رواد الشرق العربي
٣٠	الناطقون بالضاد في أمريكا
٢٠	خيوط الغمام : ديوان شعر
٣٠	تراث مصر القديمة
٢٠	رجال المال والاعمال : للمقتطف
١٥	رواية اميرة انكلترا
٣٥	نواح مجيدة من الثقافة الاسلامية
٣٠	علم الاجتماع الديني ليوسف شلحت
٢٠	صقر قريش : للاستاذ علي أدهم
٢٠	معجم الاحلام : جزء اول
٢٥	القضايا الاجتماعية : للدكتور شهبندر
٤٠	موكب الحياة ٣٨ قصة عالمية
٤٠	المنتخبات الجزء الثاني : للطفي السيد باشا

هذه الاسعار يضاف اليها ٢٠ ٪ اجرة البريد في داخل القطر المصري وخارجه

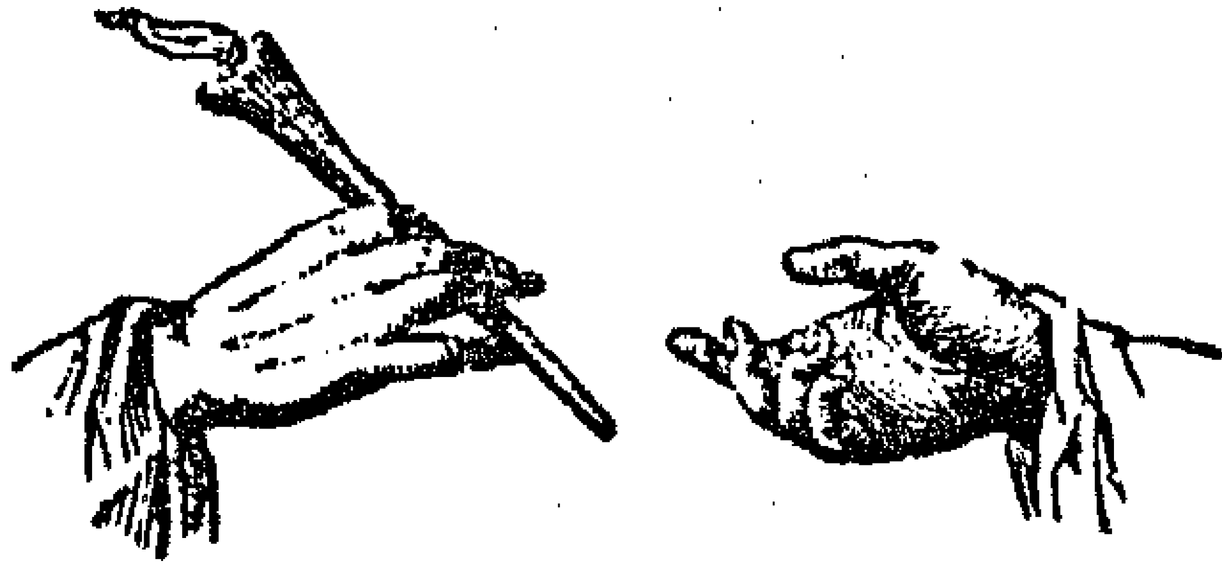
المقتطف

يوزعه

في فلسطين : شركة فرج الله

في لبنان والشام : شركة فرج الله وحتي اخوان

في العراق : محمود حلمي



المقتطف

الجزء الثالث من المجلد العاشر بعد المئة

١٠ مارس ١٩٤٧ ١٧ ربيع الثاني ١٣٦٦

« قالوا ادع لنا ربك يبيّن لنا ما هي ، إن البقر تشابه علينا »

قرآن كريم

المقتطف

مجلة علمية صناعية زراعية

لمنشئيها

الدكتور يعقوب صروف و الدكتور فارس نمر

رئيس تحريرها اسماعيل مظهر

قيمة الاشتراك — في القطر المصري ١٢٠ قرشاً مصرياً وفي سورية ولبنان وفلسطين وشرقي الاردن والعراق ١٤٠ قرشاً مصرياً وفي الولايات المتحدة ٧ دولارات اميركية وفي عدن وافغانستان وايطاليا والمانيا وبلاد الانجليز ٣٠ شلناً

اشتراك الطلبة والمدرسين — قيمة الاشتراك للاساتذة والطلبة الذين يرفقون طلبهم بقيمة الاشتراك وبشهادة من رئيس المدرسة تكون ١٠٠ قرش مصري في مصر و ١١٠ قروش مصرية في الخارج بالبريد العادة

الاعداد الضائعة — الادارة لا تعد بتعويض المشتركين ما يضيع من اعدادهم في الطريق ولكن تجتهد ان تفعل ذلك

المقالات — لا تقبل المقالات للنشر في المقتطف الا اذا كانت لهُ خاصة ولا يعد قلم التحرير بارجاع المقالات التي لا تنشر فنرجو من حضرات الكتّاب ان يحتفظوا بنسخة من المقالات التي يرسلونها

العنوان — ادارة المقتطف بالقاهرة — مصر

AL-MUKTATAF

An Arabic Monthly Review of Current Science and Literature.

Published in Cairo Egypt

Founded 1876 by Drs. Y. Sarruf & F. Nimr

Edited by I. Mazhar

المقتطف

الجزء الثالث من المجلد العاشر بعد المئة

١٠ مارس سنة ١٩٤٧ — ١٧ ربيع الثاني سنة ١٣٦٦

التعليم والتربية

منزلة الأمم من الحضارة هي في الأكثر التي تحدد معاني الألفاظ في اللغة التي تتكلمها. وانه مما لا ريبة فيه أن معنى بعض الألفاظ، وبخاصة الألفاظ التي تدل على أشياء أو معانٍ أو مفهومات تتطوَّر بتطور العقلية والفكر، يتكيف دائماً بمقتضى المثاليات التي تقوم في رؤوس الطبقة المنتقاة من الجمعية.

لا ننكر مثلاً أن الانسان البدائي كان يتخير «للتعليم» معنى يتكيف في ذهنه. وتحدّده دائماً قواسر القدرة الطبيعية على الفهم، كما تحدده نوازع الوسط الاجتماعي والعادة والعرف اللذين تجري عليهما الجمعية التي يعيش فيها، ومنها تستمد مواد القانون القبلي. ولا نكران أيضاً أن هذا المعنى قد تحوَّر وتكيَّف مرات كثيرة في خلال التاريخ منذ العصور القديمة الى الآن. فالمعنى المدرك من التعليم في مصر القديمة مثلاً غيره في بلاد الكلدان أو أشور أو الهند. ذلك بأن هذا المعنى يلابس دائماً صورة تتفق وحاجات كل جمعية، ويخضع كل الخضوع لأغراض الحياة المكيفة بالبيئة والوسط وشكل الحكم. وقس على ذلك ما أدرك اليونان من التعليم وما أدرك الرومان، ثم قارن بين ما أدرك منه في العصور الوسطى، وما يدرك منه في العصر الحديث، فانك ولا ريب تستبين الفارق البعيد بين جملة التصورات التي قامت في كل عصر لهذا المعنى، مقدرة بمقتضى حاجات كل عصر تقديراً.

أما معنى التربية ، وإن كان من المعاني التي تشرف عندي معنى التعليم ، فقد ظل في جميع العصور تابعاً للمعنى المدرك من التعليم . وإذا صحّ ما أذهب اليه من أن التربية هي في جوهرها « ترويض النفس على تطبيق العلم » ، استطعنا أن ندرك كيف يتبع المعنى المدرك من التربية المعنى المدرك من التعليم ، وكيف أن التعليم يفقد جماع الفائدة منه ، اذا هو لم يطبق على قواعد مثالية من التربية .

ولم يمر عصر من العصور كانت الجمعيات البشرية فيه أحوج منها الى إدراك الرابطة بين التعليم والتربية من زماننا هذا . فقد تعقدت أوجه الحياة بنشوء هذه الحضارة المادية الاقتصادية ، تعقداً لمسنا معه ضرورة أن يكون لكل جمعية من الجمعيات مرامي مثالية توجه حياتها وتقود خطواتها في الحياة ، بحيث تصبح في طريق الجمعية بمثابة المصابيح المنيرة في ليل أليل ، وعندي أننا لم نقصّر في التعليم ، بل أقول أننا تطرّفنا في شحن براجه بالموادّ حتى أصبحنا نشكو مرّ الشكوى من ضخامة المعلومات ، ومن عدم القدرة على خلق نفسيات مروّضة على تطبيق العلم . وإذا فقدت النفوس القدرة على تطبيق العلم ، تطبيقاً مثالياً من ناحية الأخلاق ، أصبح أداة : إمّا متعطلة ، وإمّا فاسدة .

لا ينبغي لنا أن نغفل مع هذا عن أننا نجتاز عصر انتقال . غير أني لا أميل إلى القول بأن « عصور الانتقال » من الظواهر التي تتخذ سبيلاً الى الاعتذار عن سوء حالة التربية ، كما يجمع على ذلك كل المفكرين في هذه الناحية . حقيقةً إن عصور الانتقال تختلف في جميع مظاهرها عن عصور الاستقرار ، ولكن الى جانب هذا هي عصور تقدم وارتقاء ، تدور فيها عجلة التطوّر بأسرع مما كانت تدور ، بل لا نبالغ إذا قلنا إنها قد تدور خلال عصور الانتقال بأسرع مما تدور في بعض عصور الاستقرار . ومن هذه الناحية تكون أهميتها ، بما يكون لها من سلطان ثابت قد يدمغ بطابعه عصوراً برمتها من المستقبل . وإني لأقول ، وأستطيع أن أثبت قولي ببراهين منطقية وتاريخية عديدة ، أنك إذا أردت أن تدرس حالات أمة ضربت في المدنية ، ونشأت نظامات حكومية ثابتة ، وكوّنت حياة مؤتلفة ومعاهد مستقرة ، وأن تدرك شيئاً من سر ذلك كله ، فَعُد إلى عصر انتقالها ، تجد أن جذور ذلك كله إنما تعود الى ذلك العصر ، ففيه تغرس البزرة وفيه تفرخ ، وترى أن كل

الثمار التي تحملها تلك الدوحة فيها طعوم مختلفة من أثر التربة التي نبتت فيها وطبيعة الماء والهواء، وبالجملة من طبيعة «الوراثة الاجتماعية» التي تحملها تلك البزرة الأولى، وتسلم بها الى مستقبل الأجيال.

هذا كلّه يحملني على القول بأن الذين يعتذرون عما نأس في مجتمعنا من مظاهر القلق والحيرة، بأننا نجتاز «عصر انتقال» غير آبهين لما تحمل عصور الانتقال في تضاعيفها من بزور المستقبل، إنما يرتكبون أفحش الخطأ في أسلوب تفكيرهم تلقاء العصر الذي نعيش فيه، ذلك بأن عصر الانتقال هذا، هو أجدر العصور بأن تعالج فيه مشكلاتنا الاجتماعية التي سيتمخض عنها المستقبل. هو العجينة التي منها سوف يتكوّن المجتمع المقبل، ومنها سوف يأخذ صورته، وبكل عناصرها سوف يتأثر ويعمل، وبما فيها من جراثيم السوء سوف يمرض، وبما تحوي من جواهر القوة سوف يتسلّح.

ولكن هل من قوة نستطيع بها أن نحتكم في عصر الانتقال؟ وهو عصر تثور فيه النزعات، وتكثر المخاوف، وتقل المحامد، وتزيد المتاعب، وتنقص فيه الثمرة عن مقدار الجهد المبذول، وتطير فيه الآمال كأنها الأشعة الخاطفة، وتظهر فيه قوى الانبعاث هياجة متطرفة، وثابة لا تؤدة فيها ولا هوادة، وتنطوي فيه القوة المثالية على نفسها، وتقبع قبوع السلحفاة في صدفتها، بينما تحلق في سماء المجتمع المطامع والمكروهات والمادية الجامحة؟

* * *

غالب ظني ان هذه الظواهر يتعذر الاحتكام فيها بحيث يمكن محوها محواً تامّاً، أو حتى الاقلال من قوتها بما يذهب ببعض مفاسدها. هي أشياء من خلق عصر الانتقال ومن طبعه. هي سر من أسراره، وخلة من خلاله. على أن غاية ما في مستطاع مصلح أن يطلب من المفكرين في مجتمع يجتاز عصر انتقال، هو أن يلجأ الى الممكن ويترك المستحيل. والممكن هو أن يوجه القوى المنبعثة، لا الى الحاضر لأنّ الحاضر مفروغ منه، ولكن الى المستقبل. فان مثل الأمة في عصر الانتقال كمثل حامل أخذها المخاض. إنها ستلد قطعاً. أمّا جنينها فهو الثمرة التي سوف يتلقاها المستقبل. وبحسب تربيته قبل تعليمه، سيتكوّن ذلك المستقبل. لهذا أعتقد أن عصر الانتقال هو العصر الذي تكمن فيه كل عناصر

المستقبل . ومن هنا تكون أهميته وشأنه ، وبهذا ينبغي أن يوزن وأن يقيّم تقييماً فلسفيًّا مثاليًّا . وعلى مقتضى هذا التقييم يمكننا أن نزن مستقبل الأمة .

كل هذا يؤيد تعريفنا الذي وضعناه « لمعنى التربية » ، إذ قلنا أنها « ترويض النفس على تطبيق العلم » . ولست أقصد « بتطبيق » العلم عمليًّا ، فالطبيب يطبق علمه على المريض ، وكذلك المهندس والمحامي وغيرهما ، فان كل متعلم إنما يطبق العلم على موضوع علمه ، وذلك كله من مقتضيات التعليم . ولكني أقصد تطبيق المثاليات الخلقية على مقتضيات العلم ، أقصد أن يكون لكل علم بشيء حالة نفسية تلابسه ، بحيث تكون من عناصر التطبيق العمليّ . أقصد أن تكون مكارم الأخلاق ، ومعاني السلوك الأمثل ، هي رائد العالم عند تطبيق علمه ، والصانع في صناعته ، والزارع في حقله ؟ وعلى الجملة أن يكون التصوُّر الذي يقود الفرد في الحياة خلْقاً فيه مزيج من ثابت العلم ومثاليات الخلق .

***

إن الطريق الذي نتبعه في التعليم الآن طريق أعوج . نعني بشحن الأذهان ، ونقلع عن ترويض النفوس . نعمل على نقل المعلومات الى الذهن حتى نفعمه ، ونترك الروح في فوضى وفي عماء . نخرج أطباء ومحامين وزرّاعاً ومهندسين تكاد تكتمل معلوماتهم التي تؤهل بهم أن يعالجوا ما اختصّ بكل منهم من مشاكل الحياة ، ولا نغرس فيهم المعاني النفسية السامية التي ينبغي أن تطبق هذه المعلومات على مقتضاها . فنحن نعلّم ولا نهذّب . مثلنا في ذلك كمثل من أخذ بالعرض وترك الجوهر . فكأنما نحن نخرج من أبنائنا متعلمين أشبه بعمي يقودهم مقعدون .

وهل أدلُّ على ذلك من العنوان الذي نصرفه على الوزارة التي تعني بالتعليم فنسميها « وزارة المعارف » وأجدر بها أن تسمى « وزارة التربية » لعل الأذهان تنصرف بوحي العنوان الى تربية النفوس باعتبارها الجوهر ، وجعل « المعارف » هي العرض .

اسماعيل مظهر

النظائر وكيمياء النواة

إن بحث النظائر Isotopes، يرتد الى العقد الثاني من هـذا القرن. وقد كانت تلك الأبحاث الرائعة السبب المباشر في انقاذ العلماء من حيرة عظيمة ظلت تساورهم وقتاً طويلاً في أوزان العناصر الذرية. كان الـكيميائيون لا يدرون كيف يعللون وجود الـكسور في تلك الأوزان، وكانوا يعلمون بأن وحدة الوزن الذري هي وحدة صحيحة الرقم. وعلى هذا الأساس كانوا ينتظرون أن تكون أوزان العناصر صحيحة الأرقام أيضاً ما دامت هي مكررات لوحدة صحيحة الرقم. ولـكن المقاييس الدقيقة كانت تـكذب فرضهم، وتخيب آمالهم عندما تطالعهم بنتائج مشفوعة بالـكسور. وظلّ هذا الأمر مستعصياً على أفهام العلماء إلى أن عرفوا النظائر. فوجدوا وعلى رأسهم صُدي وأستن بأن لمعظم العناصر مثيلاً Isotope، أو أكثر يشابهه في خواصه وإشعاعه، ويختلف عنه في وزنه فقط، وبعبارة أخرى أن النظائر تتفق في فعلها الـكيميائي وعدد الـكتروناتها — الرقم الذري — وتختلف في وحدات أوزانها الذرية. فالـكلور مثلاً له نظيران لهما ذات الفعل الـكيميائي، لذرة النظير الأول (١٧) الـكترون في المحيط — الرقم الذري — ووزنها (٣٥) ولذرة الثاني (١٧) الـكترون أيضاً ولـكن وزنها (٣٧) أي بزيادة وحدتين من وحدات الوزن الذري (ذرة الهيدروجين).
وقد أدرك العلماء أيضاً بسبب ذلك أن أوزان العناصر وما فيها من كسور ليست هي وزنها الحقيقي، وإنما هي متوسط أوزان نظائره. فاذا نظرنا الى جدول الأوزان الذرية ووجدنا بأن وزن الـكلور الذري (٣٥ر٤٥٧) أدركنا أنه متوسط مزيج ذرات نوعية ووزنهما (٣٥) و (٣٧) بنسبة ثلاثة الى واحد أو (٧٧) بالمئة للأول و (٢٣) للثاني. وهكذا القول في كل العناصر التي ظهر لها نظائر وهي أكثر من نصف العناصر المعروفة. والخلاصة أن النظائر مهما تعددت لها رقم واحد في جدول الأرقام الذرية يدل على خواص العنصر التي يتميز بها.

فاذا كان وزن القصدير مثلاً ١١٨٫٧ عنينا أنه متوسط وزن عشرة نظائر مزجت ذراتها بنسب معينة لكل نظير منها وزن خاص صحيح العدد بينما لتلك النظائر كلها رقم ذري واحد وهو (٥٠).

قلنا ان العلماء قالوا أن النظائر تتشابه في فعلها الكيميائي وإشعاعها — أشعة إكس — ولا تختلف إلاَّ في وزنها الذري فقط. فاذا أخذنا ذرتين من الهيدروجين ووزنه (١) ومزجناها مع ذرة أكسجين حصلنا على ماء، واذا أخذنا ذرتين من الهيدروجين الذي وزنه (٢) — ديتوريوم — ومزجناها مع ذرة أوكسجين حصلنا على ماء أيضاً، وهكذا القول في الهيدروجين الذي وزنه (٣) — تريتوريوم — . وهذا ما نقصده عند ما نقول بأن النظائر مهما تعددت تتفق في فعلها الكيميائي. وهي أيضاً تتفق في إشعاعها وطيوفها ونشاطها الاشعاعي، بل لها اشعاع واحد يدل على رقم العنصر الذري ـ عدد الالكترونات ـ فذرة الهيدروجين لها الكترون واحد، والهيدروجين الثقيل ووزنه (٢) لذرته الكترون واحد أيضاً، وكذلك الهيدروجين الأثقل وزنه (٣) لذرته الكترون واحد. أي إن لهذه الأنواع الثلاثة من الهيدروجين إشعاع واحد، أو بمعنى آخر ان الأشعة السينية المنطلقة من كلٍ من هذه النظائر واحدة. وقال العلماء أيضاً بأن تفاعل النوى يعدُّ ضرباً من التفاعل الكيمائي وهذا صحيح لأن ذلك التفاعل يصحبه طاقة ـ حرارة ـ وتغيير في طبيعة الأجسام المتفاعلة. فالتفاعل الذي نعرفه في مختبراتنا هو اتحاد ذرة أو أكثر من عنصر واحد بذرة أو أكثر من عنصر آخر، بل بحسب العلم الحديث هو تفاعل بين الكترونات الذرات الخارجية البعيدة عن مركز النواة. وهذا التفاعل لا يؤثر في نوى الذرات لقوة تماسكها وشدة ارتباطها العظيم. ولكن بالرغم من قوة ذلك التماسك فقد توصل العلماء الى طرق رائعة تمكنوا بها من إحداث التفاعل في النوى، فكما أن الالكترونات تحدث تفاعلاً مع غيرها من الالكترونات، كذلك سلط العلماء وفي طليعتهم راذرفورد العظيم، النوى على بعضها علهم يعرفون بذلك كيفية تفاعلها. فاستعملوا نوى العناصر الخفيفة كنواة الهيدروجين. بروتون، ونواة الهيدروجين الثقيل، دوتون، ونواة الهليوم « ألفا » والجسيمات المتعادلة الكهربائية. النيوترونات، الموجودة في كل نوى العناصر ـ ما عدا الهيدروجين العادي ـ

وسدّدوها الى مختلف النوى ليصلوا الى ما هناك من سرٍّ وتفاعل في قلب الذّرة . فكان لهم ما أرادوا وعرفوا بالتجارب الكثيرة قرابة عشرين نوعاً من تلك الأفعال الكيميائية . وإذا عرفنا أن قنبلة هيروشيما كانت أول ثمرة عملية من ثمار ذلك البحث الخطير ، أدركنا خطورة تلك البحوث والاهتمام الزائد بها . فمن هذا يظهر لنا نوعان من الكيمياء أو الأفعال الكيميائية ، يستأثر كل نوع بأحد قسمي الذّرة ، كيمياء الالكترونات وكيمياء النوى إذا صح هذا التعبير . ولا أدري هل النظريات الكيميائية الحديثة كالنظائر مثلاً يشمل منطوقها كيمياء النواة أم لا . فاذا كان الجواب نفياً وجب أن نعيد النظر في معظم النظريات التي ظهرت وتظهر بعد معرفتنا كيمياء النواة . لأنها لم تخصص نوعاً معيناً فيما ترمي إليه ونقصده . وإذا كان الجواب بالإيجاب ، لزم أن يكون ناموس النظائر عامًّا شاملاً ، أي أنه عند ما نسدد قذيفة ما الى نوى مختلف نظائر العنصر الواحد ، وجب أن تكون النتيجة واحدة ، وهذا غير واقع . ولنأخذ مثلاً على ذلك نظائر الأورانيوم الذي تصنع منه بل من أحد نظائره القنبلة الذرية .

من المعروف أن للأورانيوم ثلاثة نظائر وزن أحدها (٢٣٤) ، ووزن النظير الثاني (٢٣٥) والثالث (٢٣٨) وعند ما جرّب علماء أمريكا تجاربهم الواسعة لشطر نواة الاورانيوم أثناء محاولاتهم صنع تلك القنبلة وقبلها ، ظهر لهم أن النتيجة الحاصلة من تفاعل نواة الأورانيوم رقم (٢٣٥) لا تتفق مع النتائج الحاصلة في النوعين الآخرين ، وهذا هو السبب في صنع القنابل الذرية من الأورانيوم رقم (٢٣٥) دون سواه .

هنا ثلاثة نظائر لها إشعاع واحد يدل عليه رقم العنصر الذرّي — ٩٢ — ولكن الفعل الكيميائي فيها غير متشابه وهو مخالف لناموس النظائر الصريح ، وهذا مما يستدعي الانتباه . فما تقدم يتضح لنا أمران لا ثالث لها .

(الأول) أن يشمل ناموس النظائر الفعل الكيميائي في النوى فيهوي ، لأنّ النواميس العلمية يجب أن تكون أحكامها كلية شاملة لا تقتصر في معناها ومدلولها على نوع دون آخر .

(والأمر الثاني) أن لا يشمل ناموس النظائر كيمياء النواة وتفاعلاتها فيثبت ، وحينئذٍ سنضطر الى التخصيص في قوانين الكيمياء الحديثة ما دام لدينا نوعان من الفعل الكيميائي لأنها

مطلقة وإبدالها بأخرى تخصص فيما ترمي اليه نوعاً معيناً من الفعل، وهذا كما رأينا غير واقع

وربَّ معترض يقول بأن الأفعال الكيميائية في النوى هي من اختصاص علم الطبيعة وليس من اختصاص الكيمياء ، لأن الكيمياء قد خصصت قوانينها بالانطباق على الذرات كوحدات مستقلة ولا علاقة لها بالنوى ، ولأن النظريات الحديثة التي تتعلق بالإشعاع وتركيب النواة وشحنتها وتفككها هي نظريات طبيعية تختص ببحث القوى في النواة ولا علاقة لها بالكيمياء . فنقول له ان هذا لا يمنع بأن تكون التفاعلات في النوى أفعالاً كيميائية ما دام تعريف الفعل الكيميائي ينطبق عليها . ولو اختصَّ علم الطبيعة بمعالجتها . فكما ان بعض البحوث الطبيعية لا تخرج عن دائرة الطبيعيات ولو احتضنتها الرياضة العالية ، كذلك الأفعال الكيميائية وكل ما يتصل بهذا البحث من قريب أو بعيد هو ضمن دائرة الكيمياء وتحت كنفها ولا عبرة للآلات الطبيعية التي تكشف لنا كل يوم عن أسرار جديدة وتذلل ما استعصى علينا فهمه في كثير من الحالات الكيميائية المستغلقة . فهذه الأدوات الطبيعية اياها هي التي يستعملها العلماء الآن في كافة القضايا العلمية تقريباً . وعلى الأخص البحوث الفلكية والبيولوجية . ومع ذلك يظل كل بحث إحدى حلقات علمه الخاص ولو أضيف اليه كلمة طبيعية ، في كثير من الحالات .

أنا أدري بأن التجرء على الشك في إحدى النظريات العلمية ليس بالأمر الهين اليسير ، بل محفوف بالمزالق، شائك المسالك . وأنا أدري أيضاً بأن القضايا العلمية الصرفة وخاصة الطبيعية والكيميائية لا تقبل الجدل السفسطي، ولا يؤثر في جوهرها سحر البيان، ومعسول الكلام . فقد تقلص سلطان الفلسفة على العلم ، حتى أصبح عاجزاً عن أن يضيف أو ينقض مبدأً في إحدى المسائل العلمية . ولكنني برغم كل ما أدريه من ذلك ، أرى نفسي مرغماً بناءً على ما أسلفت من الادلة والبراهين على الشك اما في صحة ناموس النظائر ، أو في سلامة علم الكيمياء من البلبلة ، وإنه في حاجة ماسة الى تنظيم جديد شامل على ضوء البحوث التجريبية الحديثة في نوى الذرات .

السلط

جبرائيل الشمرايحم

الرادار

كيف يشتغل

قلما سمع القرّاء قبل نهاية الحرب الاخيرة باسم الرادار ، في حين أنه كان موجوداً قبلها ولكنه تطوّر في أثنائها تطورات كثيرة . كان مستعملاً عند الألمان كما كان مستعملاً عند الحلفاء . ولعب أدواراً عظيمة في الحرب . وله نصيب غير قليل في انتصار الحلفاء ، ولا سيما في الدور الأخير حين كان الحلفاء ينزلون جنودهم وعتادهم في نورمندي (فرنسا) . وكانوا يشوّشون بمهارة فائقة على رادار الألمان لكي يضللوهم عن الشاطىء الذي كانوا ينزلون فيه . فكانوا يرسلون أشعة تعمي رادار الألمان وينزلون بالهابطات جنوداً من الذي في الشمال لكي يوهموا الألمان أنهم هناك سينزلون فيحولون معظم قواتهم الى تلك الناحية فخلا الجو للحلفاء عند نورمندي . وما شعر الألمان بحيل الحلفاء إلاّ بعد أن سبق السيف العزل .

كلمة رادار مؤلفة من الأحرف الأولى من هذه الجملة Radio Detection and Ranging ولكن الكُتَيِّب الذي نقتطف منه هذا المقال ، وقد طبعته الحكومة الاميركية ثم الحكومة الانكليزية كان يفضّل أن تكون من هذه الجملة Radio Direction and Ranging في كلتا الحالتين يبقى الاسم « رادار » Radar

ولا يخفى أن أسلحة الطيران في الحرب الأخيرة لعبت أهم الادوار كما نعلم . وإذا كانت الحرب خدعة بحسب القول السائر فلاستتار الطائرات بالغيوم والضباب وحلك الليل وثورات الجو مزية عظمى في المخادعة لأنه يقيّض للطائرات خير فرصة المباغتة ، فلا يدري العدو بمفاجآتها إلاّ وهي تمطر قنابلها . ولكن الرادار قد قضى على هذه المزية للطائرات المفاجئة لأنه كان يخترق هذه المعمّيات وهذه الحجُب مهما كانت كثيفة . فهو خير وسيلة للدفاع ضد الطائرات المعادية .

وقد بلغ الطيران من السرعة نحو نصف سرعة الصوت أو مثلها . ولذلك لم يعد هزيم الطائرات نذيراً بهجومها لأنها تصل الى هدفها قبل أن يخرج الخصم لملاقاتها . ولكن الرادار ينذر بقدومها وهي على بعد عدة عشرات الأميال .

ثم إنه يتعذر جدًّا على الباصرة أن تكتشف ارتفاع الطائرات المحلقة في طبقات الجو العليا واتجاهها لكي تقصد إليها الطائرات المدافعة أو تسدّد إليها المدافع الأرضية المقاومة ولكن الرادار كفيل بذلك . ليس هذا فقط بل ان الأهداف التي لا تُرى لمُختلف الأسباب يكتشفها الرادار ويعين مواضعها تعييناً دقيقاً مُحكَماً فتناله بأفضل مما لو أرشد النظر بالمنظار .

منذ أكثر من سنتين كانت طائرة ذات راكبين : السائق ومساعده قادمة من ناحية فلسطين . فلما دخلت في جوّ الصحراء اصطدمت بعاصفة رملية هوجاء تعمي الأبصار . ولما أوغلت لم يعد سائقاها يريان شيئاً حتى ولا عن بعد متر واحد . ولم يعودا يدريان طريقاً للخروج من ذلك الجو المخيف ولا للرجوع منه . وحاولا أن ينزلا الى الأرض فلم يستطيعا خوفاً من كارثة الاصطدام والتحطيم وقررا الرجوع ، فكان أشد خطراً ، الى أن نفذ الوقيد فحاولا الهبوط . فوقعت الكارثة التي كانا يجاهدان في اتقائها وهبطا على غير هدى فتحطمت الطائرة وتحطما معها . فلو كان الرادار في خدمتها فيها واليها لسلما .

لم تقتصر فائدة الرادار على اكتشاف ما في البر والجو من أهداف بل تناولت أهداف البحر أيضاً . ففي وسع السفن ان تستجلي ما دونها من أخطار البحر مهما كان ضباب الجو كثيفاً وكانت الأسلحة البحرية تضرب سفن العدو من غير أن تراها رؤية العين لان الرادار كان يرشدها اليها على الرغم من كثافة الضباب حتى ولو كانت وراء الأفق . والآن تستطيع السفن والبوارج المجهزة بالرادار ان ترى البر وجباله والحضيض وبحيراته وأغواره مهما اعترضت الحُجُب .

انه لجهاز عجيب ذو عِدَد وعدّد من الموظفين تحت نظام أعجب . فكيف يشتغل الرادار ؟

كيف يشتغل الرادار

اختُرع الرادار عن طريق الراديو أو هو تطوُّر منه ، بيد انه يختلف عنه بأن جهاز الارسال وجهاز الاستقبال كليهما في بلدة واحدة ، ويندر أن يكون لهما سلك Antenna واحد للارسال والاستقبال . بل لكل من الفرضين سلك واحد خاص به . ولكنهما كليهما في عدة واحدة .

الجهاز المرسل الأشعة الموجبة يرسل الطاقة القوة في ضوء صغير جدًّا من الوقت ينفث هذه الطاقة نفثة واحدة في لحظة لا يُشعر بها تسمى نبضة . يمكن أن تصدر هذه النبضة في جزء واحد من المليون من الثانية .

لا تستغرب هـذا ! إن معظم حركات الطبيعة سريعة هكذا . تُقضى في حنيهات من الزمن متتابعة لا تقاس بالثواني بل بأجزاء من المليون من الثانية . الثانيـة هي وحدة الزمان في نظرنا . وبها نحسب الدقائق والساعات والأيام والسنين والقرون . ولـكن تأتينا في نظر الطبيعة قرون بل أدهار . ووحدة الزمن عند الطبيعة هي هذه النبضة الخاطفة . وحسبنا أننا فهمنا هـذا . وأمكننا أن نحسب وحدات الحركة ، أي هذه النبضات ، التي سماها بلانك الملاّمة Quantum ونحن نسميها « المقدار » : وسنرى في الطبيعة العجب وأغرب من هذا .

بعد كل نبضة يتوقف الجهـاز المرسل عن الإرسال هنيهة من الزمان أطول من هنيهة النبضة — يتوقف بعض أجزاء الآلف من الثانيـة الى أن ينفث النبضة التالية . وفي أثناء الفترة بين كل نبضة وأخرى يكون الجهـاز المستقبل عاملاً عمله . فالاشارات التي يستقبلها هي شـبه صدى للنبضات القوية التي أرسلت فانعكست عن الأشباح والأجسام القريبـة أو البعيدة . أقرب الأجسام ترد صدى النبضات عاجلاً . والأجسام البعيـدة ترد الصدى متأخراً . وهكذا الأقرب أعجل والأبعد أبطأ كما هو مفهوم بالبديهة . إذن فالفترة بين إرسال النبضة واستقبال الصدى تقرر مقدار بُـعدِ الجسم عن الجهاز — من سفينة أو طائرة أو جبل أو بناية الخ .

هذا ممكن لأنه طبيعي . أي لأن الفترة هي المدة اللازمة بعودة النبضة التي ترحل بسرعة النور وتعود بهـا . والنور كما هو معلوم سريع جدًّا . ولذلك فالفترات المشار إليها قصيرة جدًّا . وقياسها هو من الخصائص الفنية المختصة بعلم موظفي الرادار . وهو ما لا يستطاع شرحه هنا بل له دراسة خاصـة . وهو أحد وسائل نجاح الرادار الحديث في معرفة أبعاد الأجسام والاجرام ، بدقة عجيبة . وقد قرأنا في أخبار الصحف في الصيف الماضي أن أحد العلماء أرسل أشـعة رادار الى القمر فعاد إليه صداها وعرف منه المسافة بينه وبين القمر بأدق وأهمّ مما كان معروفاً عنها .

ولما كان النور يسير بسرعة ١٨٦٠٠٠ ميل أو ٣٠٠ ألف كيلو متر في الثانية أو بعبارة أخرى ٣٠٠ متر في جزء من مليون من الثانية ، وكان عليه أن يرحل رحلتين : ذهاباً وإياباً ، فالمسافة من الرادار الى الهدف — قل انها ١٠٠٠ متر مثلاً — ترد الصدى في ستة أجزاء من الثانية بعد صدورها من الجهاز المرسل . هذا مدى قصير بالنسبة الى الرادار قبل الحرب . وأما الآن فصار في الامكان قياس مسافة ٥ أو ٦ أمتار بالرادار بكل تدقيق ، أي في مدة جزء من ٣٠ من المليون من الثانيـة — أفلا تعجب وتستغرب وتتحير في مقدرة هذا الانسان الذي استطاع أن يحصي هذه المدة التي هي كأنها لا شيء من الثانية .

إن استعمال النبضات المشار إليها يؤدي وظيفة بسيطة في قياس المدى كما رأيت . بقي أن نعلم كيف يرشد الرادار إلى الجهة التي يكون فيها الهدف .

يرشد الرادار الى الهدف بتجهيزه اسلاك التوجيه التي ترسل النبضات في حبال شعاعية كأشعة الأنوار الكشافة التي كنا نراها منطلقة من أجهزة على الأرض الى الجو في مدة الحرب لاستكشاف طائرات العدو .

تمكن ادارة هذا السلك الناتىء Antenna (كسلك الراديو الذي نراه على السطوح) الى جهات مختلفة في أثناء ارسال النبضات الى أن يعود صدى (شعاعي) عن جسم ما فيلفت النظر اليه كطائرة أو سفينة أو بحر أو بحيرة أو جبل الخ. فيكتشف الهدف المراد . وحينئذٍ يمكن الحصول على ومضة أو نبضة راجعة قوية كصدى للنبضة التي صدرت اذا وجهنا طرف السلك المستقبل الى الهدف الذي وقعت عليه الشبهة .

فاتجاه السلك الذي هو نفس اتجاه الهدف يمكن ان يقرأ أو يشبه في لوحة الرادار (التي ذكرت سابقاً) ويدل على السفينة أو الموقع أو اتجاه الطائرة المقبلة أو المدبرة الخ. ثم يوجه بموجبه اطلاق القنبلة على العدو أو قطع الطريق عليه أو قضاء أي غرض من الأغراض المبتغاة

وهناك وسيلة أخرى للاستدلال البصري على موقع الهدف واتجاهه وبعده . وهي استعمال الآلة المسماة « المرشد الى الموقع » Plan Position Indicator بوساطة هذه الأشعة ترسم أصداء الرادار خريطة على صفحة طرف انبوب تمرّ فيه شعاعة الكاثود الواردة عن يد السلك المستقبل المشار اليه آنفاً .

وهنا لا بد من افهام القارىء ماذا يراد بالكاثود هذا . الكاثود هو القطب السلبي من أي مجرى كهربائي (وضده الآنود أي الطرف الايجابي) . والكاثود ينفث فتات الكترونات تعبر من هذه النبضات المذكورة آنفاً بشكل شعاعات ينفثها بقدر حدة التيار الذي يرد اليه . فاذا كان السلك الناتىء من الرادار يلتقط هذه الاصداء (أو هي تصدمه) فهي بطبيعة الحال تنتهي عند الكاثود المتصل بالسلك الملتقط . ولذلك ترسم هذه الأصداء على اللوحة التي في فم أنبوب الكاثود . ولما كانت الأصداء مختلفة القوة و المدة فتظهر على لوحة الكاثود مختلفة الاشكال أيضاً (كما أن الأصوات في الراديو تصدر مختلفة النبرات بسبب اختلاف قوة الصوت وحدته) .

والموظف العامل في الرادار يمكنه أن يتصور نفسه كأنه مقيم فوق الجهاز سواء كان في سفينة او في طائرة او على الارض وناظراً الى المنظر الذي تحته .

ومها كثرت او قلت الاهداف التي يتجه اليها الرادار او يوجه اليها سلك الارسال ،

فـكل هدف يلقي على صفحة أنبوب الـكاثود المذكور نقطة ضوء خاصة به . وشكل هذه النقطة الضوئية واتجاهها وبعدها عن المركز تدل على مدى الهدف أو بعده وحقيقته . فاختلاف النقط الضوئية ومواقعها حول المركز يعطيك خريطة الأهداف جميعاً على اختلاف أبعادها وأشكالها .

ليست هذه الخريطة كما ترى في صفحة التلفيجن Television اي صورة السفينة او صورة الطائرة الخ . وانما هي علامات متباينة يفهمها الذين درسوها ومارسوها والذين اختبروها قبلهم واستقروها من موظفي الرادار كأنها لغة قائمة بذاتها يفهمونها فهماً أكيداً .

أعجب من كل ذلك أن اصداء الرادار تريك وتفسر لك الأشباح عن بُعد أمتار . ففي البارجة حيث يقتضي الأمر معرفة المدى الذي يطلق إليه مدفع ذي ١٦ بوصة مثلاً يمكن اصداء الرادار أن تعلن لموظف الرادار المدى على بُعدٍ قريب حتى على بعد بضعة عشر متراً .

في حالة الدفاع ضد الطائرات تتوجه أطراف أسلاك الارسال والاستقبال من تلقاء نفسها بحيث أنها تظل متجهة الى الهدف الطائر من غير تدخل العامل سوى التوجيه الأول والمدافع تتجه من تلقاء نفسها أيضاً الى الهدف . وذلك بحركة أولية تؤتى في الجهاز . ومتى تحركت الأجهزة فيه اشتغلت من تلقاء نفسها . وأغرب من ذلك أن توجه الطائرة المقاتلة من مكان بعيد من غير راكب فيها يديرها وإنها تدار باللاسلكي من مكان الادارة على الأرض .

وهناك أنواع من الرادار حديثة ذات خصائص عجيبة . فمنها رادار يميز بين صدى وصدى أو بين هدف وهدف . وأصداء كل هدف دون آخر . ومدى كل منها ، وهو أمر يتوقف على حدّة أشعة الرادار الصادرة منه . وهذه تتوقف على ثخانة سلك الارسال أو الاستقبال وحجمه ، لأن الشعاعة تكون أحدّ وأهد كلما قصرت موجة الارسال . ولأن اتساع الشعاعة يناسب طول الموجة .

الرادارات القديمة كانت تشتغل على الموجات الطويلة عدة أمتار فـكانت تتسع الأشعة بنسبتها . أما رادار اليوم فـكالراديو الحديث يتقدم رويداً في استعمال أقصر ما يمكن من الموجات القصيرة وكلما تقدم هذا أمكنه أن يسجّل الاهداف على بُعد بضعة أمتار إذا لزم الامر حتى على بُعد متر ونصف . وكلما نجح في هذا السبيل نجح في تسجيل التفاصيل أو توريتها .

حتى مَ يفطح هذا الانسان في العلم والاختراع ويتراجع في الآداب ومقتضيات الاجتماع ؟

نقولا الحداد

النار

قال إبليس حين أمره الله بالسجود لآدم . « أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ، قال فاخرج منها فانك رجيم .. »

وقال موسى لاهله حين آنس من جانب الطور ناراً . « امكثوا إني آنست ناراً لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى ، فلما أتاها نودي يا موسى إني أنا ربك .. »

لفتتكَ بعدُ ، وإنها بين الورى شيء لفوتْ
تحيا على الظمأ الشديـد ، وحينما تسقى تموت
ولسانها يمتد لكن لا يفارقه السكوت
ترك الكلامَ ، وليس يترك فرصة أبداً تفوت
ولطالما خاب القؤول ، ونال بغيته الصموت
يا نار أضللتِ « الرجيمَ » فحاد عن نهج القنوت
وهديت يا نارُ « الكليمَ » فنال قوتاً أيّ قوت
يا نار فيك بنتْ « أنا » لكن بناءَ العنكبوت
وبنتْ « لعلّي » بيتها فعلاً على كل البيوت
يا نار قد أثّرتِ لكن حسبما اقتضت (البخوت)
هذا أعدّ للامحاء ، وذاك هيّئ للثبوت

شاعر البراري

الادب الرخيص

حضرة رئيس تحرير المقتطف :

أرجو أن تأذنوا لي بكلمة تلحقونها بمقال الأستاذ ا : م بعنوان « صحافتنا تنحدر » . وهو مقال يشفي الغليل فيما بلغت إليه أكثر المجلات العربية من إفراز الزبد الطافي على وجه العلم والأدب .

لقد أنحى هذا الكاتب المتألم باللائمة على الكتّاب لأنهم طلّقوا العلم والأدب الحقيقي وارتموا في أحضان الصحافة التي تتاجر بلهو بسطاء القراء . لعلّ هؤلاء الكتّاب معذورون إذا كان القلم سبب عيشهم ، ولا يرزقون إلاّ من شق القصبة . لأن أصحاب المجلات يرفضون منهم البحوث العلمية والأدبية الراقية . ولا يقبلون منهم إلاّ الغث الفكه بحجة أن سواد القراء لا يفهمون البحوث العلمية .

***

قدّم أحد المثقفين ثقافة « عالية » مقالاً نفيساً في موضوع علمي يمتّ الى إحدى النظريات العلمية الحديثة التي يود العالم والبسيط أن يعلمها أو يعلم شيئاً عنها . فرفضه عبقري الصحافة بدعوى أنّ القراء لا يفهمون هذه البحوث ولا يستلذونها . وإنه لا ينشر في مجلته إلاّ ما يروق لعامة القراء وهم السواد الأعظم .

عجباً من هم القراء غير خريجي الكليات والجامعات والأزهر ، ثم طلبة هذه الجامعات والكليات ، أليسوا هم السواد الأعظم من القراء ؟ بل هم القراء كلهم ، وما هم بالقليلين ، بل هم الذين يموّلون هذه الصحف والمجلاّت .

فقال صاحب المقال لصاحب المجلة : ألا تظن أن بين قرائك عشرة في كل مئة يفهمون هذا المقال ويستمرئون هذا الموضوع ؟ . خصّص في مجلتك عشر صفحاتها لهؤلاء .

فقال : إن هؤلاء الذين تعنيهم لا يقرأون مجلات عربية ، بل يقتصرون على قراءة المجلات الأجنبية فأمرهم لا يهمني .

— طبعاً لا يقرأون مجلات عربية لأنهم لا يجدون إلاّ في النادر منها الغذاء العلمي

لعقولهم . قدّموا لهم كل ما يستجدّ من البحوث العلمية الحديثة تجدوهم يقبلون على مجلاتكم ويجنحون عن المجلات الأجنبية .

أقول بكل أسف أن تجار الصحافة لا يرمون بصحافتهم إلى بنيان الثقافة في الأمم العربية بتاتاً، ولا يبتغون إلاّ تفكهة بسطاء القراء لكي يبتزّوا أقصى ما يستطيعون من المال . ولكنهم مخطئون بهذا الظن ، لأنهم إذا أضافوا الى جانب الفكاهة الصحفية جانب الفائدة العلمية والأدب الراقي ، أضافوا الى قرائهم قراءً آخرين يزيدون مكاسبهم .

ولا بدع فان معظم تجار الصحافة لا يعرفون إلاّ أن الأدب العائم المزخرف هو الثقافة العلمية الراقية عندهم . وقد جهلوا أن مدنية الأمم ليست نتيجة هذا الأدب الطائش ، بل هي ثمرة العلوم الطبيعية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية حتى الفلسفية . فالقنبلة الذرية لم تكن ثمرة شعر شكسبير ، أو « لنغ فلو » ، ولا أدب مارك توين ، وأناطول فرنس وغيرهم . هي ثمرة علم روذرفورد ، واينشطين ، وبلانك ، ومكسويل ، وشادويك ، ولورانس ، وبوانكاره (العالم) وأمثالهم

فكيف نتوقع أن تكون لنا مدنية عربية جديدة اذا استرسلنا في الفكاهات والقصص والأدب العربي القديم ، الذي نلوكه ظانين اننا نمحصه ونهذبه، فلا نلبث أن نرانا قد تقيأناه فاسداً نتناً .

نحن الآن في عصر العلم الناضج ولا نستطيع أن نجاري الأمم المعاصرة الاّ اذا شاركناها في الثقافة العلمية . والاّ فاذا اقتصرنا على الأدب السخيف الفكه الذي لا غذاء منه للعقل العلمي فكأننا نتقهقر الى عصور الجهالة والخرافات .

ويا ليتنا نعود بهذه القهقرى الى عصر العرب العلمي القديم ، فكأننا نعود الى أسس العلم الحديث . فقد عرف العرب أن أساس المدنية هو العلم، فطرقوا كل باب علمي على قدر ما بلغ اليه العلم في زمانهم ، فأخذ الأفرنج عنهم علمهم كأساس وبنوا عليه .

ولكن بكل أسف لم نعد الى الأدب العربي القديم الاّ للتفكه في أمثال الف ليلة وليلة والسندباد .

ان هذا التقصير في خدمة الثقافة العامة التي نبني عليها مدنيتنا هو تقصير صحافتنا أولاً وجهالة تجارها ، ولا ذنب فيه لعلمائنا وأدبائنا وبحّاثنا . فهؤلاء منبوذون من الميدان . والميدان لم يُبَح الاّ لسقط المتاع . فلا حول ولا قوة إلاّ بالله .

(. . . .)

احمل قلمك واتبعني!

سيداتي وسادتي!

الذي أقوله الآن لستُ أوّل مَن نادى به، ولكنني واحد ممّن يؤمنون به أشدّ الإيمان، وممّن يتحمّسون له بكل قوة، وبكلّ إخلاص، لأنهم يرون في الدعوة إليه رسالةً لا بدّ من تأديتها. ولقد سبقني إلى هذه الدعوة، وإلى حمل هذه الرسالة الادبية كثيرون، وعلى رأسهم جبران خليل جبران، ونعيمة — في « غرباله » بنوع خاص — ونعمة قازان في « معلقة الأرز »، ومحمود شريف في « ثورة قازان » وسبقني إليه جماعة التجديد في مصر، غير أنّ دعوة المصريين إلى التجديد لم تنتج كثيراً، وليس من السهل أن تنتج كثيراً، لأسباب من البيئة، ومن الظروف التي تخنق تلك الدعوة. لذلك ظلت — في الغالب — في حدود المهاترات الكلامية — والقليل منها يعمل صامتاً —، وظلّ صوت الرجعية المحافظة أقوى وأعلى من صوت التجديد والانطلاق والإبداع. وتبعاً لذلك قلَّ العمل الحقيقي من جانب دعاة التجديد، ذلك العمل الذي هو وحده يستطيع أن يثبّت أصول دعوتهم ويقيم صروحها شامخة زاهرة، بينما انصرف أدباء المهجر الى العمل المجدي، الذي سرعان ما قلبَ الأوضاع الادبية، وفتح العيون على كل جديد حيّ، فيه متعة للروح وغذاء للقلب، وسموّ بالنفس الى ما فوق مستوى الطين. وهكذا قدر للثورة الأدبية المهجرية أن تكون أوسعَ الخطوات أثراً في تقدّم الأدب العربي الحديث، وفي سعة آفاقه. ولولاها لظلّ أقصى ما يمكننا إنتاجه في حقل الأدب، لا يخرج عن أمثال « مجمع البحرين » و « نجعة الرائد » و « حديث عيسى بن هشام »، وما إلى هذه السفاسف المتهرّئة التي ضاعت فيها جهود، وفنيت أعمار، وهُدرت مواهب ما كان أخصبها وأغناها، وما كان أقدرها على ان تنتج انتاجاً كثيراً قيّماً لو عرفت الطريق. ويا لخيبتنا لو كان هذا كلّ ما يمكننا أن ننتجه في الأدب!

أقول « الأدب » وأنا أرى هناك اختلافاً كبيراً في تحديد معنى « الأدب » وفي فهم

(١) محاضرة أدبية علمية

أهدافه وغاياته . فالأدب ، كما لا يزال السواد الأعظم — للأسف الشديد — يفهمه ويجري عليه ، هو رصف الألفاظ والجُمَل : هو اللغة ، أو اللغة هي أهم ما فيه ، وهي ألفه وياؤه وهي جوهره وغايته .

ألا ترون اننا لا نزال حتى اليوم ، حينما نريد أن ندرس الخصائص الأدبية لعصر من العصور ، أو لجيل من الأجيال الأدبية ، أو لأديب معيّن من الأدباء ، إنما نقف قسماً كبيراً من الدرس على بيان المزايا « اللغوية » لذلك العصر ، أو لذلك الجيل من الأدباء ، أو لذلك الأديب الذي ندرسه ؟

أوَ ما ترون أننا حين نريد أن نتحدّث عن الفرزدق مثلاً لا نجد أبلغ في الدلالة على علوّ كعبه في الأدب من أن نقول : « لولا شعر الفرزدق ، لذهبَ ثلث اللغة العربية » ؟ وحين ندرس أدب المتنبي أو المعرّي أو غيرهما نقول إنهما كانا بصيرين بدقائق اللغة ، عارفين بأحوالها وأوضاعها ؟ . وحين ندرس عصراً من العصور الأدبية ، نذكر مدى ما أصاب « اللغة » فيه من رقيّ وانحطاط ، وما دخلَ عليها من ألفاظ أعجمية ، وما تعرَّب ، وما اشتُقّ ، وما نُحِتَ من ألفاظ ، وما دخلَ من تزاويق لغوية ندعوها بياناً ، أو بديعاً ، أو بلاغة : جناساً ، أو استعاراً ، أو كناية ، أو تورية ، أو ما إليها من سماجات لا نزال نحشو بها عقول القرّاء ، كأنها العلم كله ، والأدب كله ؟

وفي المدارس أيها السيدات والسادة ! في المدارس ، أما ترون أننا لا نزال الى اليوم ، برغم ما نزعم لأنفسنا من انفساح آفاقنا ، وسعة اطلاعنا ، وغزارة علومنا ومداركنا ، لا نزال نفرض على الطلاّب فرضاً أن يكون أوّل ما يدرسونه في « تاريخ الأدب » امرؤ القيس وإخوانه ، ممّن حضنتهم الصحراء قبل نحو خمسة عشر قرناً ، بألفاظهم الخشنة ، وتعابيرهم الصحراوية ، وخشونتهم البدوية ، وبكل ما لديهم من ميزات تباعد بين عصرهم وعصرنا ، بين أذواقهم وأذواقنا ، بين فهمهم للأدب وفهمنا ، وبين حياتهم وحياتنا . ثم نفرض عليهم أن يسيروا في هذه الدراسة العقيمة المملّة قُدُماً ، وعلى هذا النسق العقيم المملّ ، الذي لم يخرج عليه واحد ممن أرّخوا الأدب العربي للمدارس في العصر الحديث ، حتى إذا وصلنا الى عصر جبران ، ونعيمة ، وأبي ماضي ، والريحاني وفوزي المعلوف ، وشوقي ، وحافظ ، ومطران ، وطه حسين ، وبشاره الخوري ، وأبي القاسم الشابي ، وأبي ريشه ، قلنا لهم — لهؤلاء الطلاب المساكين ، الذين يريدون أن يعرفوا شيئاً يناسب عصرهم ، فيُعطون أشياء تُبعدهم عن عصرهم خمسة عشر قرناً ، أو تزيد أو تنقص — قلنا لهم : قفوا أيها الطلاب ، ولا توغلوا بعيداً ! فالأدب كله عند امرىء القيس وطرفة وابن حلزة ، وعند

الحطيئة وجرير والفرزدق ، وعند بشّار وأبي نواس وصريع الغواني ، وأضراب هذا الطراز القديم . وإذا خطر لنا أن نقدّم لهم شيئاً من أدب العصر الحاضر ، قلنا لهم : دونكم البارودي وحفني ناصف ، والرافعي ، ودونكم المنفلوطي والشدياق واليازجيين والبستانيين ، ودونكم ودونكم من إخوان هذا الطراز العتيق الذين عاشوا في عصرنا الحديث بأجسامهم ، وفي أقدم عصور التاريخ بعقولهم ، وليست ثمة ميزة تميز آدابهم عن آداب من سبقوهم في عمر التاريخ ، فهم وإيّاهم كتّاب ألفاظ . . . ألفاظ جافة تسرّبت منها الحياة قبل أن تصل الى رؤوس اقلامهم . . . ألفاظ وتزويقات ألفاظ ، غايتُها أن تحفظ للعربية قواميسها الى الأبد فكأن القواميس — أو على الأصح ، النواويس العفنة ، نواويس العقول ، ومقابر العلوم والآداب — كأنّ هذه هي العلم كله . وهي الأدب كله ، ثم يزعم بعد ذلك ، ولا نستحي أن نفاخر في القرن العشرين ، بأننا نلقّن أبناءنا علماً وأدباً . وصدّقوني ، سيداتي وسادتي إنّ الطالب لا يكاد يصل من دراسته للأدب العربي الى عصر النهضة ، حتى يكون قد ملّ الأدب ، وعاف درس الأدب ، واشمأزّ كل الإشمئزاز من هذه السماجات التي اردنا أن نجعل منها « مشهّيات » تحبّب إليه الأدب ، فإذا بها « منفّرات » منه ، مرغّبات عنه . وهكذا ننشىء من الطالب عدوًّا للغته ، ولآداب لغته ، من حيث أردنا أن نحبّبهما إليه . والسبب في ذلك سوء إدراكنا لما يجب أن نقدّمه اليه أولاً . ولو نحن سرنا في كتابة تاريخ الأدب العربي ابتداءً من عصرنا الحاضر ، راجعين الى الخلف ، وأحسنّا اختيار ما نقدّمه من أدب العصر الحاضر ، لعرفنا كيف ننمي في الطالب حبّ لغته ، وحبّ آدابها وغرسنا في نفسه شوقاً الى الاستزادة من ينابيعها القديمة والحديثة على السواء . ومتى وصلنا الى هذه النتيجة ، نكون قد نجحنا أعظم نجاح في تأدية رسالة الأدب والتربية معاً .

إنّ العلم والأدب غايتهما خدمة الحياة ، وخدمة المجتمع . فهل في ما تدرّسه مدارسنا مما نسميه « تاريخ الأدب العربي » و « علوم العربية » شيء من هذا ؟ هل فيه شيء ؟ ! . . . هل فيه شيء ؟ ! . . .

لو كان إليّ أمر الدروس العربية في كافة المدارس ، لما تردّدت لحظة في حرق القسم الأكبر من الكتب التي ندرسها فيها ، ولما أبقيت على شيء مما نسمّيه « علوم العربية » : العروض — جريمة الفراهيدي على الشعر — ، البيان ، البلاغة ، القواعد ، وأخيراً تاريخ الأدب العربي في حالته الحاضرة ، لأنه ليس في كل هذه ما يصلح للحياة ، ونحن بعدُ نفرضها على طلابنا المساكين فرضاً ، ولا نكتفي بذلك ، بل نمنح المتفوقين فيها الشهادات : الشهادات التي معناها أنهم تعلموا شيئاً ينفعهم للحياة ، ويفتح عيونهم على حقائق الحياة ،

ويوسّع نفوسهم وقلوبهم لممارسة الحيـاة ، ولإصلاح المعوجّ من أمورها ، ويفسح مداركهم ومعارفهم وآفاقهم . ثم نحن نمنع هذه الشهادات نفسها عمّن يعجزون عن التفوّق في هذه الحماقات التي ندعوها علوماً وآداباً ، وكأننا بهذا نسجل على هؤلاء المساكين أنهم غير مزوّدين بسلاح لجهاد الحياة ، وبمعنى آخر نسجّل عليهم أنهم قصّروا في فهم البيـان والبديع ، وفي حفظ شعر امرىء القيس والأعشى ، ومعرفة حياتهما ومميزاتهما ، وقصّروا في حفظ العروض ، بزخارفهـا وعللها ، ولم يحفظوا وصايا الخليل ، وسيبويه ، والدؤلي والأخفش التي تعلمهم أن « دعا » أصلهـا « دعو » ، وأنَّ « ميزان » أصلها « ميوزان » ثم درجت عليهما قواعد الإعلال . . . القواعد التي نريدها أن تظل علة سرمدية خالدة في جسم اللغة العربية وآدابها .

أرأيتم أي سلاح خسر أولئك الطلاّب المساكين الذين لم يعرفوا ذلك كلّـه ؟ !

إن سادتنا القوّامين على شئون اللغـة والأدب ، يقولون إنّ هذا هو سلاح الحياة ومفتاحها ، وإنه عمادها وقوامُها . أما نحن ... أما نحن ، أيها السيدات والسادة ! فنقول : إن هذا عبث وسخف ، ! . . فعلّموا طلاّبنا علوم الحيـاة ، لا علوم اللغـة القديمة ، واتركوا هذا الذي هم الآن مجبرون على درسه للذين يهمهم التخصص ، والبحث عن القديم ؟ وبكلمة أخرى لمن يريدون أن تكون عقولهم « متاحف » ودور آثار . . . على أن لا يكون ذلك قبل انتهاء الدراسة الثانوية كاملة . . .

اطرحوا من الكتب المدرسية ، من القواعد : ما كان مملاً متشعباً ، متناقضاً ، كثير الوجوه والجوازات ، واطرحوا سائر السفسطات اللفظيـة التي تتألف منها علوم البلاغـة والعروض . اطرحوا هـذه كلها جانباً ، وعلموا الطلاّب بدلاً منها أشياء تفيدهم في الحياة . وأما الأدب العربي — ولا محيص لنـا عن تدريس الأدب ، لأنه غذاء القلب والروح — فلنعلّمهم منه آداب العصر الحاضر ، أو الحيَّ وحده من أدب العصر الحاضر . ولنترك القديم البالي ، لأصحاب القـديم البالي ، وإذ ذاك فامنحوا الطلاب المتفوقين الشهادات ، وامنعوها عن المقصرين ، لأن المنح والمنع حينئذ يكونان عن فهم ، وعن حق ، وعن ضمير مخلص أمين .

* * *

هذا شيء — أيها السيدات والسادة ! — ، وشيء آخر لا يقلُّ عن هذا تأخراً وعقماً وزراية ، وهو في غير المدرسـة . . . فحينما نريد أن نعمل على نهضة « الأدب » أتدرون ماذا نعمل ؟ . . اتدرون ماذا ؟ !

إننا ننشىء المجامع اللغوية ! . . . نعم المجامع اللغوية ، ونكدس فيها المعاجم ، وكتب اللغة الصفر من عهد سيبويه ، حتى عهد ابراهيم اليازجي ، ونحبس معها الرجال — ذوي العقول الصفر ، أسوة بالكتب الصفر — ليعيشوا في أزمانها ، ويغذوا عقولهم ، وعقول الناس — ويالها من تغذية قاتلة ! — بما يطاردونه في بطونها من لغو وهراء ، ثم . . . ثم يطلعون علينا بعد سهر الليالي ، وطول الكد والعناء . . . أتدرون بماذا يطلعون علينا ؟ . . إن أقصى ما تصل اليه آداب هؤلاء « المجمعيين المعجميين » هو أن يربطونا — والعياذ بالله — بأذناب الكسائي ، والأخفش ، والدؤلي ، وسيبويه والفيروزابادي ، والجوهري ، وابن منظور ، والأصمعي ، والزمخشري ، يربطوننا بأذنابهم الى أبد الآبدين ويكفي ان يقولوا لنا : « قال فلان » من هذه الشرذمة البائدة ، ليحسبوا انهم قد طلعوا على الدنيا بجديد . جديد يلخص كل أغراض الحياة في كلمة ! . .

أجيبوني ، أيها الناس ! : أإذا قال الأصمعي أو الجوهري ، قالت الحياة ؟ !

أقاس النحاة حدود الزمان ومرمى خيالي وعقليتي ؟

كما يقول نعمة قازان . وهل ماتت حقائق الحياة ، وعبرها ، وحاجاتها كلها معهم ، حتى نعيش أعمارنا على نبش قبورهم لنأخذها عنهم ! ؟

لقد قال أولئك القوم لأزمنتهم ولأجيالهم ، فلماذا لا نقول نحن لأزمنتنا ولأجيالنا ؟ لقد أدّوا في زمانهم ما كانت عقولهم ، التي هي بالنسبة الى زمننا الحاضر قاحلة كالصحراء عقيمة ككتبهم الصفر ، تحسبه رسالة الأدب — وما أبعدهم عن فهم رسالة الأدب — فلماذا لا نؤدي نحن بدورنا في زماننا ما نعرف أنه رسالة الأدب في الحياة ؟ ولكن لا كما كانوا هم يفهمونها ، بل كما يفهمها عصرنا . وشتان ما بين فهمهم وفهم عصرنا !

هم في أزمانهم كانوا يحسبون أنفسهم مبتدعين في أساليبهم الأدبية — استغفر الله ! بل أسلوبهم الواحد الأحد السرمدي ، الذي لم يتغير ولم يتطور ! — فلماذا لا نكون نحن مبتدعين في أساليبنا الأدبية . ننهج لأنفسنا في الأدب والحياة أساليب نؤدي بها رسالة الأدب في الحياة ؟

أما السادة « المجمعيون المعجميون » ، فما أجدرهم بأن يفرض عليهم نظام « الغيتو » يعيشون في نطاقه مدى الحياة ، لئلا يتصلوا بالناس ، فيفسدوا عليهم الحياة بما ينبشون من رمم الموتى : الرمم العفنة البوالي ، ولتبق لهم وحدهم لذة هذا النبش المتواصل المضني ، الذي لا يفيدهم ، ولا يفيد الأدب ، ولا يفيد الناس ، ولا يفيد الحياة في شيء مطلقاً . فهم قوم يمسكون بأيديهم حبالاً من حديد ، يحاولون بكل قواهم أن يهدوا بها كل من يحاول

أن يطلق جناحيه مع الهواء الحر : هواء الحضارة العصرية ، والحياة العصرية ، التي لا تتسع أبداً لتقليب المعاجم الكبار الضخام ، في سبيل البحث عن أصل كلمة واحدة ، ومشتقاتها ومرادفاتها ، وسخافاتها ، يشدونه بها الى أعرق عصور التاريخ في القدم ، ويقولون له : من هنا استمد وحيك وإلهامك ! لا تقل أدباً ، ولا تحاول أن تأتي بفكر جديد ، أو معنىً جديد ، بل خذ ألفاظاً قديمة ، مما اعترف بصحته الزمخشري والأصمعي والكسائي ، ومما ورد في شعر الجاهليين، والمخضرمين ، والأمويين ، والعباسيين . . . وهكذا نعيش معهم جامدين متأخرين ، الى أبد الآبدين !

ولِمَ ذلك ؟ ! انها قصة الكأس والشراب . . فكما انه لا يصح أن تتناول الشراب في كأس وسخة أو مهشمة ، كذلك لا يصح أن تكتب الأدب بلغة غير جميلة ! .

آمنّا وصدّقنا أيها السادة ! ولكن هل حقّاً أن الكأس لا تكون جميلة ، إلاّ إذا أخرجت من قبر امرىء القيس ، أو من قبر الأصمعيّ ؟! ألا تصلح كأسٌ مصنوعة من « النايلون » مثلاً للشراب ، أكثر مما تصلح له كأس من الفخّار ؟ وهل يضير الشراب أن يوضع في قدح من « النايلون » لأن الكسائي والفرّاء وسيبويه لم يعرفوا « النايلون » ؟ سيداتي وسادتي !

إن طول اعتمادنا على الكتب الصفر ، وطول عبادتنا للموتى ، قد صبغا عقولنا بمثل صفرة تلك الكتب : الصفرة المتهرّئة ؟ وختما على آدابنا بمثل موت أصحاب تلك الكتب الصفر . وهكذا لا نزال مرضى في عقولنا ، موتى — أو على الأقل جامدين جمود الموتى — في آدابنا . فاذا عاد سيد منّا من عاصمة بلاد الانكليز على متن « طيارة » ، استقبلناه بشعر أقدم من عصر امرىء القيس ، نستهلّه بقولنا :

« أَنِخْ الركاب فقد أطلت غيابا ! . . »

أي والله ! « أنخ الركاب » لرجل يمتطي الطيارة في الجوّ . . .

وإذا تغزلنا ، لم نجد ألطف « من المهاة » نتغزّل بعينيها ، فنقول :

« المها أهدت إليها المقلتين . . . »

وذلك لأن البدويّ الذي عاش في الصحراء ، رفيقاً المها ، قد سبقنا الى هذا الوصف فهو إذن تعبير جميل . أما أن نعرف نحن ما هي المها ، أو لا نعرفها ، فليس بأمرٍ ذي قيمة !

واذا أردنا أن نرثي ، لم نجد الاّ أساليب القدماء الشديدة المغالاة في كذبها ، وبُعدها عن الإصالة ، وعن تصوير اللوعة الصادقة ، فنقول :

« لو كان في الذكر الحكيم بقيّة لم تأت بعدُ رُثيت في القرآن ! »

وكذلك إذا أردنا أن نمدح ، أو نهجو ، أو نبكي ، أو نصف ، لم نجد الا المعاني القديمة ، والأساليب القديمة ، نمدح ، ونهجو ، ونبكي ، ونصف بها . . .

جمود . . . جمود قاتل . . . ونحن مع ذلك نسير عليه ، ولا نشعر ، أو لا نريد أن نشعر به . . . ولِمَ ذلك ؟ . . . أليست لغتنا هي أمّ اللغات ؟

أو على الأصح هكذا دعوناها ؟ . « أمُّ اللغات غداة الفخر أمهما . . . »

كما يقول حافظ ابراهيم . . ألم يُكتب بها القرآن ؟ . إنها إذاً لغة الله ، ولغة الملائكة . . . ولغة آدم وحواء في الفردوس ، فكيف لا نرضى بها اليوم ؟!

قولوا ما شئتم ، أيها الناس ! وليتمحّل من شاء لتأخره وجموده الأعذار والعلل ، فقد اعتدنا دائماً — حينما نشعر بفشلنا وجمودنا — أن نحاول جذب الله — أو أقرب الأشياء الى الله في رأينا — الى صفوفنا ، لنسجّل عليه الجمود ، تبريراً لجمودنا ! ومن ذا الذي يجرؤ على التمرد على الله ، أو على أقرب الأشياء الى الله ؟! إنه اذن لكافر ! كافر ! فارجموه ! . . وهكذا نكسب تأييد الدهماء لنا ، وذاك حسبنا من النصر !

أما نحن فإننا نهتف بملء أصواتنا مع الشاعر المهجري نعمة قازان ، في « معلّقة الارز » :

إذا كان أمسي ويومي ، غدي فيارب إضرب على مقلتي !

نعم ، ليضرب الله على مُقلنا إن كان أمسنا سيكون هو نفسه يومنا ، وغدنا أيضاً ، بغير تبديل أو تجديد ، فلن نرضى أن تبقى الألفاظ والأساليب اللغوية اللفظية القديمة — التي كانت زاد أمسنا ، ولا تزال عتاد يومنا — هي نفسها زاد غدنا ، وعتاده ، لأننا لا نرضى أن نسجل على أنفسنا مثل هذا الجمود العقيم . فالأدب عندنا ليس بالألفاظ ، وإنما هو بما خلف الألفاظ من معانٍ وفِكَر :

فما الشعر بالكأس برّاقة ولكنه الشعر في الخمرة
كذا فتنة العين بالمرأة هي الشعر بالعين لا المرأة
إذا ما الحبيب تكلم غمزاً فأين الكلام من الغمزة ؟!

كما يقول قازان ! . . وأين كذلك الألفاظ والأساليب القديمة من الأدب الحيّ ، الذي يجب ان ننصرف الى إنتاجه : أدب العقل والقلب والروح ، الأدب الذي هو إنجيل الحياة وقرآنها ، وتوراتها ، والذي يمكنه أن يخلق العالم من جديد ، حين يخلق في العالم نفوساً تحب الخير والجمال ، وتهدف الى سعادة الحياة ، ولا تعوقه عن حب الخير والجمال والسعادة لفظة جامدة :

لئن عاق دربي الى الله لفظٌ همزت جوادي يسيرُ الخبب (١)
وجوّزت في الصرف ما لا يجوز وأوجبتُ في النحو ما لا يجب
إذا قام شعرٌ بألفاظه تكون القواميس خير الكتب !

واللغة التي تقف جامدة دون كل تطوّر ، إنما هي ميتة ، لا تصلح للحياة ، ما دامت لا تستطيع مجاراة الحياة السائرة دائماً الى الأمام في تطورها المستمرّ الذي لا يكلُّ ولا يتوقف مادام دولاب الزمان في دوران ، والليل والنهار في تعاقب ، وما دامت الشمس تغيب كل يوم في المساء ، لتطلع على الناس في الصباح :

فلا طلع الفجر يوماً عليَّ إذا لم يلدني مع الطلعة (٢)

أما القرآن فيا لفداحة خطإنا ، ويا لغباوتنا يوم نحسب أنه يقف عقبةً كؤوداً في سبيل التطوُّر الأدبي ! فلقد كُتِبَ القرآن باللغة التي كان يتكلمها الناس ويفهمونها حين نزوله . وما كان ممكن مطلقاً أن ينزل في غيرها . ولو أنه نزل في أيامنا هذه ، لما رأينا فيه لغة قريش القديمة ، بل لكُتِبَ بلغة العصر الحاضر ، التي نستطيع أن نفهمها بيسر وسهولة . فلقد كان القرآن أحرص ممَّا نتصوّره نحن ، على مراعاة خصائص العصر ، وعلى تأدية رسالة الحياة بأحسن الأساليب الممكنة في أيامه . ونزول القرآن بألفاظه المعروفة لا يعني أن تجمد اللغة عند تلك الألفاظ الى الأبد ، فلم تكن هذه غايته ، ولن تكون ، فليس للقرآن لغةٌ ، ولكنه جوهر ، ولو كان لغة وألفاظاً فحسب ، لما استطاع أن يكون دستوراً للحياة ، صالحاً لكل جيل ، فاللغة تتطوّر وتتبدّل مع الزمن — ككلّ شيء آخر — وأما الجوهر فهو الذي يكمن فيه سرّ الخلود .

ترى ماذا كنّا نكون اليوم ، وأي تاريخ كان يمكن أن يكون لنا ، لو لم يقم الإسلام والقرآن بالثورة الساحقة الماحقة على جمود الصحراء وخمولها ، على عصبيتها القبلية ومنازعاتها على أديانها وأصنامها ، وعلى تقاليدها وعاداتها ؟

ماذا كنّا نكون اليوم ، وأيّ تاريخ كان يمكن أن يكون لنا ، لو لم يَقُم الاسلام والقرآن بفتح أعين القبائل العربية ، الغارقة في جفاف الصحراء بتقاليد الهمجية العمياء ، على حاجات العصر ، وعلى طريق الله والمجد ، وعلى طريق التاريخ الداوي ؟

لقد كان الأسلام والقرآن نفسهما ثورة على الجمود والرجعية ، وتجديداً في الدين ، وفي التشريع ، وفي الحياة . فما بال الكثيرين من الجامدين الرجعيين يحاولون أن يسجلوا عليهما الجمود والرجعية وهما من الجمود والرجعية أبرأ وأنقى من ضمير يوسف من تهمة امرأة العزيز ؟!

(١و٢) لنعمة قازان

صدقوني، سيداتي وسادتي! إننا لو استطعنا أن نثور على الأدب اللفظي القديم البالي كما ثار القرآن على الحياة الجاهلية، وأن نبدع في الجديد الحيّ منه ما أبدع القرآن في حياة الصحراء، حين خلق من شتيت سكانها أمة أخضعت الدنيا لسلطانها، لاستطعنا أن ننتج في الأدب الحيّ أروعَ ما تنتجه الأمم.

إذن فثورتنا اليوم على الأساليب القديمة والأدب القديم واللغة القديمة، لا تعني الثورة على القرآن، ولا يمكن أن تعنيها، فليس من المعقول مطلقاً أن يطالِبَ إنسان بتغيير لغة كتابٍ ما — بله القرآن نفسه — بحجة أن الزمان قد تطوّر، وتطوّرت معه اللغة. لذلك سيبقى القرآن هو القرآن: له قدسيته ومكانته ورسالته، وله لغته التي لن تستطيع أن تمتدّ اليها يدٌ بحذف أو تبديل. أما اللغة نفسها — اللغة التي نتفاهم بها — فقد آن الاوان لان نخرج فيها عن سنن الصحراء، وقواعدها، وتعابيرها، وألفاظها، وأساليبها، واذا كنا نريد أن نؤدي رسالة الأدب الى الحياة والأحياء. فالذي يجب أن نفهمه الآن هو أنّ الادب رسالة، وقيادة ونور.

هو رسالة: لأن الأديب هو نبيّ الحياة ورسولها، والروح الذي يفهمها حق فهمها — أو هو يجب أن يفهمها حقّ فهمها — ويعرف كيف يمهّدها ويفرش طرقها بالورود أمام أبنائها الأحياء، ليعرفوا فيها الجمال والخير وسعادة القلب والروح.

وهو قيادة: لأن الأديب — ابن الحياة البارّ، ورسولها الأكبر — هو الذي يعرف كيف يسير بأبنائها في طرقها العديدة الملتوية الوعرة، ليصل بهم الى الجمال والخير، وسعادة القلب والروح.

وهو نور: لأن الأديب هو المشعل الذي يستطيع أن ينير سُبُل الحياة أمام السالكين لكي يهتدوا فيها الى الجمال والخير، وسعادة القلب والروح.

فالجمال والخير والسعادة، إذاً هي غاية الحياة، ولكنها جميعاً كامنة في مكان واحد... مكان صغير جدًّا! أتعرفون ما هو؟!

إنه قلم الأديب! ففيه وحده — في رأسه الصغير الدقيق — يكمن الجمال، ويكمن الخير وتكمن سعادة الحياة. ومنه يفيض النور الذي يقشع الظلام عن وجه الحياة، ومنه يتسلسل الخير، ويتسلسل الجمال، وتتسلسل السعادة، إذا عرف كيف ينفث نور رسالته المقدسة على وجهٍ صحيح.

هكذا نفهم الأدب، أو هكذا يجب أن نفهمه اليوم. أمّا اللغة التي لا يزال الاكثرون يحسبونها الشرط الأساسي للجودة والقوة في الأدب، فإننا نرى أن بينها وبين الأدب فرقاً

بعيداً جداً ، فالأدب هو رسالة الحياة : الحياة الشاملة المتطورة، أما اللغة : الألفاظ الجوامد، فإنما هي مجرد وسيلة تنقل هذه الرسالة . وكل رسالة هي في حاجة الى « ناقلة » مناسبة للوصول الى كل فهم ، والى كل ذوق ، يغلب عليها البساطة واللطف والجمال ، لا الثقل والبلادة والتعقيد ، ولو كانت « الاشارة » — نعم الاشارة — كافية لتأدية هذه الرسالة ، لكانت هذه الاشارة أدباً في الصميم . ولو كان يمكن تسجيل الفكرة الأدبية ، أو المعنى الأدبي ، أو لو كان يمكن تسجيل العواصف والآمال والآلام على الورق بالاشارة ، لكان من الواجب تسجيلها بهذه الاشارة، إن كان لا يمكن إخضاع اللغة للادب ، وإعطاؤها خصائص العصر الذي نعيش فيه ، لتتمكن من التعبير عن حاجاته ، ومن تصويره بصدق !

إن اللغة ، التي هي « ناقلة » رسالة الحياة يجب أن تكون من البساطة والسهولة والجمال بحيث تصلح لهذه الرسالة المقدسة . ألسنا نرى أن الاواني القديمة التي كان يستخدمها الاقدمون في حاجات عصورهم ، لم تعد تصلح لان نستعملها نحن اليوم ، حتى لنفس الأغراض التي كانت تستخدم فيها ؟ وإنما كل ما تصلح له اليوم هو أن توضع على رفوف المتاحف ليتفرج عليها من يشاء من عشاق القديم والتحف الأثرية — ليتفرج عليها فقط ، لا ليستعملها مع أن بعضها كان يمكن استعماله لو أردنا . فاذا كنا نفعل ذلك بالآنية التي تستخدم لقضاء حاجات الجسد الفاني ، فكم يجدر بنا إذاً أن نفعل مثل ذلك تماماً بالآنية التي نستخدمها لقضاء حاجات العقل والروح الخالدين ؟

أما كان الأجدر بنا ان تبقى ألفاظنا القديمة ، وأساليبنا القديمة ، ولغتنا القديمة وكثير من أدبنا القديم ، كأشياء أثرية ، لها جلال القدم وروعته ، ولكنها لا تصلح للاستعمال في العصر الحديث؟ لأن لكل عصر خصائص يتميز بها ، والعصر الذي لا يظهر أثره في آداب أهله ، هل نتوسم فيه شيئاً من دلائل الحياة ، أو نتوسم في أهله ؟

لقد تخلينا عن ملابس أجدادنا الثقيلة القديمة الخشنة : ملابس الصحراء الجافة الصارمة وارتدينا ملابس العصر الحديث ، ولم نعد نرضى عنها بديلا . وكذلك لا بد لآدابنا من أن تخلع ما لا يلائمها من اللباس الصحراوي القديم ، الذي حشرتها فيه الصحراء الجافة الصارمة قروناً طوالاً ، لينطلق في موكب الحياة حرًّا طليقاً يؤدي رسالة الحياة على أكمل وجه فلا نظل — برغم ما يبهر أعيننا من أضواء الحياة الساطعة ، ويرن في آذاننا من أصواتها الصادحة — أقصى عدتنا أن نلتفت ، في انتاجنا الأدبي ، الى الخلف : الى الأدب اللفظي الذي تهرأ وعفن لكثرة ما تراكم عليه من أنقاض القرون وغبارها ، لكي نغترف منه « أوبئة » جديدة نغرسها في جسم أدبنا الحاضر ، ولا نخجل من أن ندعو هذه الأوبئة

« أدباً » ، أو علاجات لجسم الأدب ، أما الحياة التي نعيش فيها ، فلا نعرف كيف نعترف منها ، وأما حاجات العصر ، فلا نعرف كيف نعبر عنها ، وأما عواطفنا وأفكارنا وخلجات نفوسنا ، فلا نعرف كيف نشرحها ونغنيها ، وأما ان الادب هو رسالة وقيادة ونور ، فلا نفهمه ، ولا نريد أن نفهمه .

ولئن كنت أقول هذا ، فلست أريد أن تفهموا من قولي أنني أطالب بحرق كل ما لدينا من القديم ، وأن يكن أكثره أدب لغة وألفاظ ، لا أدب معان وأفكار ، فمعاذ الله أن أفعل ذلك ، ولو علمتُ أن إنساناً يطالب بمثل هذا ، لرأيت في عمله كثيراً من التهوّر مغالاةً صارخة لامبرّر لها . انما أنا أدعو الى الاحتفاظ بهذا القديم كله — من ألفه إلى يائه ، بغثّه وسمينه ، عفيفه وداعره ، ضعيفه وقويه ، جيده ورديئه — في متاحف ، أو دور كتب خاصة تقوم مقام المتاحف الأثرية ، ليتمكن من الرجوع إليه بسهولة كلّ من يريد التخصص ، أو زيادة الاطلاع ، على أن يُنتخب شيء من الصالح منه ، ليوضع بين ايدي طلاب الجامعات — طلاّب الجامعات فقط — كنماذجَ من آداب القرون الخوالي ، لمجرد الاطلاع فقط ، أو للترف الدراسي على الأصح ، لا لاحتذائه وحسبانه المثل الأعلى في الانتاج الأدبي . فالذي أعتقده إعتقاداً يقيناً مخلصاً ، أنه كما أن الخيل والجمال والحمير — التي كانت كل وسائل المواصلات البرية في عصور ذلك الأدب القديم — قد تخلفت كل التخلف عن قافلة العصر الحديث ومواصلاته ، بحيث لم يعد لها مكان الى جانب القطار والسيارة والطيارة — وربما أصبح الصاروخ أيضاً من وسائل المواصلات بعد حين — ، كذلك تخلّف أدب الصحراء القديم العقيم ، وأساليبه التي لا تزال حية الى اليوم على أقلام أدبائنا وشعرائنا — أو مَن اصطلحنا على تسميتهم أدباء وشعراء — بحيث لم يعد يصلح لعصر الحضارة الذي نعيش فيه : عصر الرادار ، والتلفزيون ، والقنبلة الذرية ، وعصر الكثير المدهش من الاختراعات التي تحير الذهن ، وتشده العقل .

* * *

لست أريد أن أقطع الصلة بين ماضي أدبنا وحاضره ، فالذي لا ماضي له ، لا حاضر يُرجى له . غير أنني لا أريد أن نظلّ عائشين في حدود الماضي البائد ، والقديم الذميم : نشرب من مياه الترع الآسنة ، والناس من حولنا لا يشربون إلاّ الماء المقطر ، ونأكل بأيدينا من قصاع خزفية أو خشبية ، والناس لا يأكلون بغير الشوكة والسكين ، وفي غير آنية من الصيني المزخرف الجميل ، أو من الفضة المجلوّة الزاهية .

نريد أن نجعل من الماضي جسراً نعبر عليه الى الحاضر والى المستقبل ، وأن نستخلص منه العبرة التي تفيدنا ، ونبني عليها أشياء جديدة : أدباً جديداً ، وعلماً جديداً ، وحياةً جديدة .

***

أيها الأدباء والشعراء !

من كان منكم يستهويه بريق الألفاظ ، وتأسره تزاويق الجناس والتورية والاستعارة ، ويهمّه إن يقول عنه الناس : إن في رأسه قاموساً ، أو أن تصفّق له أكف الجماهير في الحفلات العامّة حتى لتكاد تدمى من التصفيق ، ويقنع من الأدب والشعر بهذا وحده ، فليبقَ حيث هو ، وله ما يريد ، وهنيئاً له ما يريد ! فكم من صخرة ناشزة تقوم على ذراع الطريق السالكة، أو على خدّ الحقل الجميل ! وكم من شجرة عقيم ، تتربع في حضن الرياض ، وترشف فروعها من رضاب الغدير ، فلا هي تستفيد ريًّا ، ولا هي تستطيع أن تزهر في الروض ، أو تقدّم لطيور السماء مقيلاً ولا ثمراً .

وأما من كان منكم ، أيها الشعراء والأدباء ! يُهمُّه أن يؤدي رسالة الأدب الى الحياة والأحياء ، معبراً في أدبه عن حاجات عصره ، وخلجات نفسه ، باسطاً جناحيه كالنسر للانطلاق من قيود اللفظ وعبودية القديم ؟

مَن كان يُهمّه أن يقول كلمته ويمشي ، بأسلوبه الخاصّ ، لا بأساليب سواه ، وبغير التفات الى الوراء !

من شاء أن يصدح مع الشحارير ، ويعبق مع الأزاهير ، ويصفق مع الجداول ، ويترنم مع هينمات النسيم !

مَن كان همّه أن يؤدي رسالة الأدب إلى الحياة : الأدب الذي هو صوت السماء في أذن الأرض ، وترنيمة الفردوس في مسمع الزمن الحائر ، وهدهدة الأزل لضمير الحياة !

مَن كان هذا همّه ، فإليه أوجه النداء الذي جعلته عنوان هذه الكلمة .

« إحمل قلمك واتبعني ! »

عيسى ابراهيم الناعوري
كلية تراسانتا — القدس

القدس الشريف

الحضارة

واختلاف الطبائع

ما هي الحضارة ؟ لقد اختلف الكتّاب في تعريفها. فإذا قيل العمران وجدنا أن العمران قد يكون موجوداً من غير ذوق وتمييز ، والحضارة لا تكون إلا بهما . وإذا قيل العلم وجدنا أن العلم قد يكون تحصيلاً من غير تفكير ومن غير فهم كثير . وإذا قيل حسن الأخلاق وجدنا أن حسن الأخلاق قد يكون موجوداً في الأمم التي على الفطرة والتي لا تعرف الحضارة . وإذا قيل الذكاء والفهم والحكمة وجدنا هذه الصفات عند بعض قبائل البدو الذين لا يمتون إلى الحضارة بسبب . وإذا قيل إن الحضارة في الثراء والبذخ وجدنا الثراء مدخراً ومكنوزاً عند من لا يعرف الحضارة . وإذا قيل إن الحضارة في انتهاز فرص اللذات والمسرات وجدنا أن الهمج من الناس قد ينهمكون في اللذات كما تفعل أصناف كثيرة من الناس . ومن أجل ذلك كان تعريف الحضارة من أصعب الأمور . ولو أن اسمها يجري في أفواه الناس كل يوم . فالترف وحده لا يتمم الحضارة ويكونها ، ولا العلم وحده ولا الذكاء والفهم وحدها ولا طيب الخلق وحده ، ولا انتهاز فرص المسرات ولا الابتكار في الفنون فالشعر والنحت والتصوير فنون كانت راقية قبل الحضارة .

***

لقد خلف لنا ثيوكيديدس المؤرخ الأثيني في كتابه المسمى حرب البلوبونيز خطبة بركليز السياسي الأثيني وهو يؤبن قتلى حرب البلوبونيز . وفي هذه الخطبة يصف بركليز صفات العظمة في الحضارة الأثينية ، أو الصفات التي يرى أنها جديرة أن تكون مقياساً للحضارة وأنها أحق بالرعاية والتنمية . وقد اقتبس كثير من المؤرخين جملاً من تلك الخطبة التي يعدها المؤرخون من أعظم الخطب سواء أكان بركليز واضعها بالنص، أم صاغ ثيوكيديدس في كلامه ما علق بذهنه منها . ففيها نرى التسامح بين أبناء الأمة الواحدة والعدل في صيانة الحقوق ، والثقافة المؤسسة على الفهم والعمران المبني على الذوق والتمييز . والاستعداد للدفاع عن الدولة من غير خشونة أو مغالاة تقضي على الجوانب الأخرى من الحياة ، ونرى الحرية

اللازمة لاختلاف الطبائع والأمزجة ، تلك الحرية التي تمنع من صب الناس في قالب واحد وقسرهم على رأي واحد ومسلك واحد ونظرية واحدة ونظر واحد الى الحياة . وقد نظر الكتّاب في الحضارات المختلفة فوجدوا ان الحضارة تكون أعظم ازدهاراً وابتكاراً وأطول عمراً وأكثر تجدداً إذا كان فيها نصيب موفور من تلك الحرية اللازمة لاختلاف الطبائع والأمزجة ، وتكون أقصر عمراً وأقل ثمرة وازدهاراً اذا فقدت تلك الحرية ، وحاولت الدولة صب الناس في قالب واحد وقهرهم على أن تكون طبائعهم وأمزجتهم متشابهة .

وقد غالى بعض الكتّاب فذكر ان حرية الطبائع والأمزجه خصيصاً اختصت بها الحضارة الأوربية دون غيرها من الحضارات ولا سيما الحضارات الشرقية . ومن أجل ذلك بادت الحضارات الشرقية ولم تبد الحضارة الاوربية . وقد نسوا ان بعض الحضارات الشرقية كانت أطول عمراً . وان الحضارة الأوربية القديمة التي وصفها بركليز في خطبته التي أشرنا اليها بادت كما باد غيرها ، وان الحضارة الأوربية الحديثة قريبة العهد لا يصح الحكم فيها وفي أجلها .

* * *

قال فرنسوا جيزو المؤرخ والسياسي الفرنسي ووزير الملك فيليب لويس جيزو هو واضع كتاب تاريخ الحضارة الأوربية . ان الحضارات الشرقية كانت مؤسسة على مبدأ واحد أو نظرية واحدة أي كل حضارة على نظرية ، وان اختلفت مبادىء الحضارات

والقارىء يرى في كلامه بعض ما يشعر إنها كلها على نظام واحد ونظرية واحدة ويقول ان الحضارة الأوربية مؤسسة على اختلاف المبادىء وتباين الأسس ، وتفاوت ، النزعات مما يؤدي الى يقظة العقول والنفوس ، والى الابتكار والتوليد والابتداع . وقال جون ستوارت ميل المفكر والفيلسوف الانجليزي في كتابه المسمى كتاب الحرية . إن الحرية التي تسمح باختلاف الأفكار وحدها لا تكفي لتقويم الحضارة بل لا بدَّ من الحرية التي تسمح باختلاف الطبائع والأمزجة والنزعات النفسية وذكر أن تعاظم الحضارة الأوروبية إنما كان بسبب تلك الحرية التي تشجع الطبائع المختلفة . وان ركود الحضارات الشرقية كان بسبب فقدان تلك الحرية ومحاولة قهر الناس على طبع ومزاج واحد . فركدت النفوس والعقول وانقطع عهد الابتكار والابتداع وركدت الحياة عامة .

وعندي أن هذه الآراء قراءة للحقائق عكساً لا طرداً كمن يقرأ الكتاب من آخره كي يصل الى أوله وذلك للأسباب الآتية : —

(أولاً) إن الحرية اللازمة لاختلاف الطبائع والأمزجة ليست دائماً سبباً للقوى الحيوية في الحضارة، بل قد تكون نتيجتها . فالقوى الحيوية في الطبائع والأمزجة قد تسبب الحرية وتضمنها وتجعلها قضاءً محتوماً بالرغم من قهر وكبت، وبالرغم من محاولة صب الناس في قالب واحد . وأن استبداد العادة الذي يحكي عنه جون ستوارت ميل في كتاب الحرية قد يكون نتيجة لضعف الطبائع والأمزجة مهما اختلفت . وأن الحكومات الاستبدادية وجدت في أوروبا كما وجدت في الشرق . وقد اعترف جون ستوارت ميل في كتابه إن الحرية اللازمة لاختلاف الطبائع والأمزجة ظهرت في أوروبا بسبب القوى الحيوية في النفوس حتى في عصور الرغم والقهر .

(ثانياً) إن شرط الحرية اللازمة لاختلاف الطبائع والأمزجة ليس خاصًّا بالحضارة الأوروبية، فلو درس هؤلاء الكتّاب الأفاضل الحضارات الشرقية أو العالمية في أبانها وجدوا أن حرية الطبائع والأمزجة موفورة حتى في عصور الاستبداد والقهر . فقد كانت موفورة في حضارة الأندلس العربيـة كما كانت موفورة في الحضارة العباسية في أشد عصور خلفاء العباسيين بأساً وقوة . ويكفي أن نقرأ كتب الأدب والعلوم العربية لنعرف الى أي حدٍّ بلغت حرية الطبائع والأمزجة . نقرأ عن باحث خصص حياته لدراسة النمل وعاداته، وانه كان اذا تكلم في النمل قضى ساعات طوال لا يَملُّ ولا يُملُّ سامعه . ونقرأ بجانب ذلك وصف الولائم التي كانت تبلغ غاية المجون فأي اختلاف في الطبائع والأمزجة أكثر من هذا الاختلاف .

(ثالثاً) إن عصر حرية الطبائع والأمزجة اللازمة لازدهار الحضارة . لا بد من أن يسبقه عصر توحيد للقوى وهذا العصر السابق هو عصر قيام الدول ونشأتها، وتأسيس بأسها وسطوتها ولولا هـذا العصر الذي هو عصر الجماعة ويسود فيه مذهب الجماعة لا مذهب الفردية ما أمكن أن يكون بعده عصر الحرية الفردية، لأن العصر السابق عصر توحيد الجهود النفسية والفكرية، وعصر الغلبة الذي يجلب للأمة الاطمئنان إلى عصر الحرية الفردية اللاحق به . والحرية الفردية هي حرية اختلاف الطبائع والأمزجة .

(رابعاً) إن تلك الحرية الفردية كثيراً ما يعقبها عصر اضمحلال إذا بلغت الحرية الفردية غايتها وضعفت الطبائع والأمزجة وعندئذٍ لا يغني اختلاف الطبائع والأمزجة عن ضعفها، ولا يثمر ولا تزدهر الحضارة معه. وقد ينجي من ذلك الاضمحلال خطر خارجي داهم يضطر الشعب الى توحيد الجهود النفسية والفكرية اذا استطاع ولم تكن الطبائع والأمزجة قد ضعفت ضعفاً لا أمل معه . أما إذا كانت الطبائع قد ضعفت واضمحلت وصارت نزعاتها

سطحية فلا أمل في توحيد الجهود النفسية والفكرية بالرغم من كل محاولة وبالرغم من كل خطر خارجي داهم .

(خامساً) إن تعاقب عهود اندماج الفرد في الجماعة، وإطلاق الحرية للفرد الى أقصى حد مستطاع وغير مضر تعاقب يصلح الشعوب الانسانية ، وهو أمرٌ مشاهد في التاريخ لأن اندماج الفرد في الجماعة كما أنه يوحد الجهود النفسية والفكرية، ويمنع زيغ طبع الفرد ومزاجه كذلك قد يضعف طبع الفرد، وإذا ضعفت طباع الأفراد ضعف طبع الجماعة . وإطلاق الحرية لطبع الفرد ومزاجه كما إنه يؤدي الى تقوية طبع الفرد ، والى استيعاب جميع مظاهر الحياة وإلى تشعب مسالك الفكر والمطلب الذي يؤدي الى ازدهار الحضارة، فإنه كذلك قد يؤدي إلى زيغ وضلال وشطط في الطبائع الفردية ، وقد يستهلك قواها . ومن أجل ذلك يتعاقب العهدان لما فيه خير الشعوب ، وقد يتعاقبان لما فيه ضرها ، إذا أتى مثلاً بعد عهد فوضى الطبائع الفردية عهد قهر مرهق من عهود اندماج الفرد في الجماعة فيقضي على البقية الباقية من قواها، فيكون الفساد حيث يراد الاصلاح بالقوة .

(سادساً) ينسى الكتّاب الأفاضل عند تعليل ركود الحضارات الشرقية في عهد ازدهار الحضارة الأوربية أموراً هامة منها : ان الحضارات الشرقية تسلمتها قبائل وشعوب لها طباع فاضلة ولكنها أقل استعداداً لتنمية الحضارة واعلائها من القبائل والشعوب التي تسلمت الحضارات الأوربية القديمة . وليس المراد الحكم على شعب أو قبيلة حكماً أبديًّا ، وإنما هو حكم الماضي من التاريخ . فالقبائل التيوتونية التي تسلمت الحضارة الأوربية القديمة كان عندها استعداد في ماضي تاريخها لتنمية الحضارة اكثر من استعداد قبائل التتر والمغول والأتراك التي تسلمت الحضارة الشرقية . ولا سيما أن الطبائع الفردية في الشرق انتابها عهد بعد عهد أضعف قوتها على اختلاف مصادر هذا الضعف وأسبابه .

ولا ننكر ان نظم الحياة والحكم التي نمت في أوربا قديماً وحديثاً والتي ورثها الشرق الآن بوراثته نظم الحكومات النيابية المنظمة، ربما كانت أدعى الى صيانة حرية الطبائع والأمزجة . التي يقول المفكرون إنها من أهم مقوّمات الحضارة . بل هي الصفة اللاصقة بالحضارة، والتي لا تكون إلاّ بها في نظرهم . وهذه النظم النيابية هي أيضاً نتيجة أكثر منها سبباً، أي إنها نتيجة القوى الحيوية في الطبائع والأمزجة والنفوس على أن هذه النظم في غير البيئة الصالحة لها ، قد تؤدي الى استبداد فئة قليلة من الأسر البيوروقراطية وأعوانها .

ع . شي

العلامة اللغوي
الاب أنستاس ماري الكرملي

بعث الي بهذه المقالة صديقي الكاتب الاستاذ محمد فاتح توفيق المدرس بتطبيقات دار المعلمين ببغداد ، ومعها صورة للغوي الكبير الاب أنستاس بعد موته بساعات ، وطلب الي أن أقدمها الى احدى مجلاتنا المصرية ، فآثرت بها مجلة « المقتطف » لانها شيخة المجلات العربية ، ولانها كانت مسرحاً لابحاث فقيد اللغة الكرملي ...

ولقد كان بيني وبين الاب البحاثة صداقة ومراسلات منذ سنوات ، وسأعود الى الحديث عنه فيما يأتي من أعداد المقتطف ، وفيما يلي نص المقالة : أحمد الشرباصي



الآب أنستاس ماري الكرملي مسجَّى

وعلى حين غفلة طوت يد الأقدار ابن العربية البار، والعلامة اللغوي الآب أنستاس ماري الكرملي . وما هي الا عشية أو ضحاها حتى أصبح أثراً بعد عين ، وميتاً يرثى بعد أن

كان حيًّا يرجى ، فجف ذلك البحر الزاخر ونضبت تلك العين الدفاقة بفيض العلم والعرفان واندك ذلك الطود الأشم وسكت هزيم رعده وصوته الجهوري وانطوت تلك الصحراء الواسعة من الحلم والكمال وسقطت تلك الثمار الدانية من التواضع والجلال وسكنت الريح الصرصر العاتية في الخصومات والنقد ، ولم يهب ذلك النسيم العليل من اللين والحنان . فخسرت العربية أيما خسران .

حقًّا إن القول ليقصر عن ادراك مدى هذا الرجل العظيم بعلمه وعمله . وان المرء ليقف عاجزاً عن اداء حق علاّمتنا المفضال الذي خدم العربية والعلم أكثر من ستين عاماً كان خلالها مثالاً للرجل الكامل العامل المخلص المثابر الذي تزوّد بالعلم الصحيح والخلق الرضي والأدب الجم، فكان سبَّاقاً لا يبلغ شأوه أحد ولا يصل الى مقامه مجدٌّ .

***

ولد رحمه الله في بغداد سنة ١٨٦٦ في اليوم الخامس من آب (أغسطس) . وتوفي في بغداد أيضاً في المستشفى الملكي صباح يوم الثلاثاء في اليوم السابع من شهر كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٤٧ فيكون عمره ثمانين سنة وخمسة أشهر ويومين .

وتعلم من اللغات أكثر من عشر ، فقد أتقن الفرنسية واللاتينية واليونانية والعبرية ، والصابئية ، والكلدانية ، والتركية ، والفارسية ، والانكليزية ، والسريانية ، وقليل من الإيطالية وكان يفهم البرتغالية . وقد تعلم الحبشية والاسبانية ثم نسيهما ولم تسنح له الفرصة لتعلم الألمانية وغيرها ، ذلك لأنه استدعته الكنيسة في بغداد حيث كان يدرس في فرنسة .

وقد حوت خزانة كتبه ستة عشر ألف كتاب منها ألف وخمسمائة كتاب مخطوط . وكان كثير العناية بكتبه يغلفها بقماش متين أبيض ، وإن أكبر نكبة أصابته سرقة خزانته هذه في الحرب العظمى الأولى أيام كان أسيراً في الأناضول — وهناك تعلم اللغة التركية — وعند عودته اضطر الى شراء كثير منها بأغلى الأثمان واشترى أكثرها من سارقيها بوساطة آخرين ، وان لكل كتاب لديه قصة طريفة ، فهو يحدثك عن شرائه وعن تعرفه ببائعه ومساومته له حتى يصل الكتاب الى خزانته :

وقد جاب الآفاق والاقطار لجمع هذه الكتب وللبحث والتنقيب والدرس ، وزار معظم الممالك في القارات الثلاث : آسية وأوربة وأفريقية، ولم يتسنَّ له زيارة أميركة ، وأستراليه ،

وعند ما يحدثك عن كتاب مفقود فكأنه يحدثك عن أعز ولد له قد فقد . وفي الحقيقة،

لا أحسب أنه كان يحزن لفقد ولد — لو كان ذا ولد — مثل حزنه على كتاب مفقود من كتبه النادرة .

وأعظم مؤلفاته معجمه الكبير « المساعد » الذي اشتغل به زهاء ست وستين عاماً ، أي منذ الخامسة عشرة من سنه ، وعند ما سئل : وهل انتهى هذا القاموس ؟ أجاب : « وهل تنتهي اللغة العربية ؟ أنا الذي انتهيت » .

ولقد قضى سنواته الأخيرة يعاني الأوصاب والأوجاع ، ويحتمل الآلام في ظروف قاسية بين أناس لا يرحمون، ولم يجد من يخدمه أو يُعنى به ، إلاّ أهل بيت له صلة قرابة بهم أسكنوه معهم — بعد أن هدم الدير الذي يسكن فيه — فأحسنوا خدمته ورعايته ، وذلك قبل سفره الأخير الى فلسطين .

ولقد أقيمت له حفلات الترحيب في فلسطين في زيارته الأخيرة لها ، وكان يذكرها بالشكر والتقدير للقائمين بها . ولقد عولج هناك وشفي. ولما عاد إلى بغداد أحاطت به نفس الظروف القاسية واحتواه أناس يحقدون عليه ويكرهونه ، إذ هم غرباء عن هذا البلد ، وما له معزّ منهم ، فجرى بينه وبينهم ما أثار أعصابه فنكس وعاوده المرض أشد من قبل . فقررت الحكومة العراقية نقله إلى المستشفى الملكي ومعالجته على حسابها . وبقي هناك حتى وافاه الأجل المحتوم بانفجار في الدماغ .

زرته في المستشفى أسأله عن صحته وحاله مع بعض الاخوان . فقال « إنك تراني كيف أصبحت وبأني أشكو من شلل في كفي اليمنى ورجلي اليمنى وإني لأحسبهما كخرقة لا أحس بهما ولا أستطيع تحريكهما ولا أقوى على السير على رجلي اليمنى أو الكتابة والمسك باليد اليمنى . ومع ذلك فاني لا زلت أردد مخاطباً إلهي العظيم ، كلما زدتني ألماً زدتك حبّاً . فقلت له خيراً ودعوت له بالشفاء .

وكان يسير في طريق الشفاء فقد زرناه مساء الاثنين السادس من كانون الثاني (يناير) أي قبل موته بساعات فكان صحيحاً معافىً ، قوي النبرات لطيف الكلام — كعادته — مرحاً يلقي النكتة إثر الأخرى ويقول الدعابة ويتبعها بغيرها . وهكذا قضينا الوقت ونحن نحسب أنه سيغادر المستشفى بعد أيام قلائل . فكان لنعيه وقع شديد في نفوسنا . وكان موته مفاجأة لنا أذهلتنا وأطارت رشدنا .

وإذا ذكر الاب أنستاس الكرملي فلا بد وأن يذكر معه « مجلس الجمعة » وما مجلس الجمعة هذا ؟

كان من عادة الأب الراحل ان يعقد اجتماعاً صباح كل جمعة من الساعة التاسعة حتى الثانية عشرة يقبل فيه زائريه ، واتخذ إحدى غرف الدير لهذا المجلس وفيما عدا هذا يتفرغ للبحث والعمل ولا يقبل زائراً إلاّ إذا كان معه على وعدٍ سابق وفي وقت معين .

* * *

وكان يختلف الى مجلسه جماعة من المشتغلين بالعلم والأدب ومن مريديه ومحبيه وعارفي فضله فيدور البحث في مواضع شتى من لغة وأدب وعلم وتاريخ وفن — ما عدا السياسة والدين — وفي كل ذلك للأب رأي فيه ونصيب وافر منه . وكثيراً ما كان يحتدم الجدال بين حضرة الأب والأستاذ عباس العزاوي فيثور العزاوي ويقابل الأب هذه الثورة برحابة صدر وطول بال . فما هي إلاّ لحظات حتى يعود الصفاء وتحل الابتسامة محل التجهم وكأن لم يكن شيء ، وما كان الأستاذ العزاوي يثور هذه الثورات العصبية وتبلغ الحدّة به أحياناً مبلغاً كبيراً في حضرة الأب ومجلسه ، لولا الصداقة المتينة التي تربطه به والتقارب النسبي في السن ، أمّا غيره فيلجأ الى الهدوء والأدب والاحترام في مناقشاته مع الأب ويجادل بلطف ، فإما أن ينتصر أو أن ينزل عن رأيه . وفي معظم الأحيان يكون للأب القول الفصل والحكم القاطع .

ومن أظرف ما كان يحدث في هذا المجلس ، المنافسة التي كانت تحدث بين المرحوم الأب والأستاذ العزاوي في الكتب ، فللأخير أيضاً خزانة كتب عامرة ، فهذا يقول عندي الكتاب الفلاني وهو ينقصك وذاك يجيب بأنه خير لديّ منه مما لا تملكه ، وهكذا . ولقد يسأل بعضهم بعضاً عن الجديد في خزانة كتبه أو ما جدّ في عالم التأليف .

ويتلو على مسامع الاب كل ما سطر من مقال أو دبج من موضوع أو نظم من شعر في مختلف المواضيع ، ولا يفوته خطأ إلاّ نبه عليه . وتعرض عليه أسئلة مختلفة فيجيب عنها جواباً شافياً صريحاً لا لبس فيه ولا ابهام مع الدليل والبرهان والحجة .

ولقد كان الجميع موضع اهتمام الاب وعنايته فيسأل عن كل واحد منهم سؤال الأب الحنون والأخ الكبير ، ويعتب على من يغيب عن مجلسه وربما أغلظ في العتاب إن لم يكن الغياب عن عذر مشروع أو مانع معقول .

ولا يقدم في مجلسه شيئاً مما يقدم في المجالس الاخرى كالقهوة أو الشاي والسيكارة أو ما شاكلها . ولقد قال مرة لمعالي الدكتور ابراهيم عاكف الآلوسي — في إحدى زياراته له —

وكان إذ ذاك وزيراً للمعارف : « يا صاحب المعالي ، إن الرَّبع(١) هنا يعرفون أنه ليس في مجلسي شاي ولا قهوة حتى ولا سيكارة خالك خالهم » . فضحك معاليه وقال هذا مجلس علم وأدب ويكفينا ذلك .

وقال لمعاليه أيضاً : إن أكثر الحاضرين في هذا المجلس من رجال المعارف من معلمين وطلاب فهم أتباعك . فسرَّ معاليه وقال : أنا أيضاً طالب علم في مجلسك .

ولقد تخون الذاكرة ، فيطول البحث في موضوع أو عن كلمة فلا يهتدي الى موضعها أو مظنتها ، ثم يقبل الدكتور مصطفى جواد ، وهو من أصفيائه وملازميه فيحل المشكلة بأن يذكر لهم المصدر أو التاريخ حسب المطلوب والحاجة ، وذلك بما وهب من ذاكرة قوية وحافظة عجيبة .

ولئن تماديت في ذكر أفراد مجلسه يطول بي الكلام ويطول . ولكن إن أنسَ فلا أنسى ذلك الفتى الألمعي الذي كان زينة المجلس الأستاذ علي غالب العزاوي المحامي شقيق الأستاذ عباس العزاوي . وقد كُفَّ بصره عند الكبر . فقد كان حلو الحديث والشمائل ، حاضر البديهة ، سريع النكتة ، مرحاً لطيف المعشر ، ذا أخبار وأحاديث طلية ومسرّة . وقد اغتالته يد أثيمة فمات شهيداً .

وكانت طريقته في البحث والدرس علمية صحيحة لا يلقي الكلام على عواهنه ولا يقول القول جزافاً ولا يؤمن إلاّ بما يثبت بالدليل والنص والتجربة .

وكان يحب من يحافظ على مواعيده ويتمسك بها في الوقت المحدد فإن اتفقت وإياه على موعد وجب عليك أن لا تخالفه وإلاّ تعرضت لنقمته ونقده .

ومن عاداته أنه لا يهمل أي رسالة ترد إليه فيرد عليها في الحال بنفسه أو يكلف غيره إن أقعده عن ذلك مرض .

وكانت الروائح القوية تزعجه وتثيره وخاصّة رائحة الخمرة فلا يقوى على شمها .

واحتفظ الى حين وفاته بقواه العقلية كاملة وبحدة بصره وقوة سمعه وبنبرات صوته القوي الجهُوري ، وبيدانته وقوة بنيته ، على الرغم من اصطلاح العلل عليه وخاصّة في السنوات الأخيرة من حياته ، وعلى الرغم من قضائه الوقت بالدراسة والمطالعة والبحث .

ولقد كان دائب المطالعة والمراجعة حتى إنه ليقرأ الكتاب الواحد من المراجع المهمة

---

(١) الربع : بمعنى الاصحاب .

عدة مرات ، فترى مثلاً وقد كتب في نهاية كل جزء من أجزاء « تاج العروس » انتهيت من قراءته للمرة الثالثة أو الرابعة (أو أكثر) بتاريخ كذا . وهكذا الشأن في معظم كتبه وهل تحسب أنه يقرأ هذه الكتب قراءة عابرة ؟ — لا . إنه ليدقق ويحقق ويعلق ويضع الخطوط الزرق تحت ما هو مغلوط فيه والخطوط الحمر تحت ما هو صحيح أو موافق رأيه .

وكان شديداً على خصومه عنيداً معهم — وما خصومه — إلاّ أعداء العربية والذين ليس لهم منها نصيب وهم مع ذلك أدعياء فيها ، فيهزأ بهم ويتهكم وينعتهم بمختلف النعوت التي لا ترضيهم ، فإن كثرت أخطاء أحدهم مثلاً ، نسب كتابته أو قوله الى اللغة الشنقناقية لغة — فريق من الجن — أو لغة واق الواق وهكذا مما لا تعيه الذاكرة .

ومع ذلك كنت تراه يشجع الناشئين ويأخذ بأيديهم ويبث فيهم روح الأمل ويبعث في نفوسهم الهمة ويثني عليهم ويرفع من قيمتهم وشأنهم وإن لم يكونوا أهلاً لذلك .

* * *

وبعد فالحديث عن الآب أنستاس الكرملي كالحديث عن البحر أو الغيث الذي ينهمر ، طويل لا ينتهي ، وواسع لا يُحَد ، فقد كان أمة وحده وشخصية عجيبة غريبة يجب أن تؤلف عنه الكتب وتدرس سيرته . وكم كنت أود أن يزوره في حياته كل متكبر مغرور جبار ، ليأخذ منه دروساً في التواضع وكمال الخلق واللطف والأدب الجم وكرم الأخلاق .

وإن فقده لايعوَّض ، فقد ترك حبيبته اللغة العربية تلطم خدَّها وتشق جيبها على من رعاها عشرات السنين وأنزلها من نفسه أسمى منزلة وأكرم مقام . وهي اليوم مفجوعة لاتجد له بديلاً ولا ترضى عنه عوضاً .

وإن بموته تفرّق ذلك الجمع النظيم من طلاّب العلم والأدب ، ومن روّاد مجلسه ومرتشفي فيض علمه ومعرفته ، وفقد ملجأه الروحي الذي إليه يسكن .

أيها الآب الراحل الكريم ، إن فضلك علينا عظيم ، ونفعك عميم ، وهيهات أن نستطيع رد هذا الفضل وما لا يدرك كله لا يترك جله . ويكفينا أننا سكبنا الدمع السخين على جثمانك وما زلنا نسكبه كلما خطرت على بالنا ، وأنت ممثل في الخاطر دائماً . وإننا سنظل محتفظين بذكراك ، وناهجين على منهجك القويم ، وسائرين على خطتك . فنم هانئاً آمناً مطمئن البال . وعوض الله اللغة العربية خيراً . وعليك رحمة الله .

بغداد محمد فاتح توفيق

عيناك . !

ولئن كان البصر خير حواسنا الخمس ، فاننا لا نعطي أداته حقها من العناية اليومية . . فكم أجزاء من الجسم يعني المرء بها كل يوم ، قبل أن يفكر في العناية بعينيه .

وقد يكون العذر أنك لا تعرف طرق العناية بالعين .. فاليك البعض منها .. اتبعه تحفظ بصرك سليماً قوياً :

١ — اذا أحسست تعباً في عضلات عينيك فاغسلهما بماء بارد . ودلكهما بمنشفة نظيفة تدليكاً دائرياً .. ثم أغلقهما واضعاً راحتيك على أجفانك لمدة خمس دقائق .

٢ — عرض عينيك للشمس وأنت مغمض الاجفان في الصباح الباكر . . وكذلك في وقت المغيب لبضع دقائق .

٣ — لا تقرأ وأنت مستلق في السرير على ظهرك .. واياك أن تقرأ في ضوء خافت .

٤ — يجب أن تكون الاضاءة للقراءة جيدة . وأن تكون من خلف القارىء بحيث لا تصدم عينيه .. كما لا يجب أن يكون هناك أي ظلال على الصفحة التي تقرأها أو تكتب عليها

٥ — يراعى أن يكون الكتاب بعيداً عن عينيك بثلاثين سنتمتراً . واقرأ أو اكتب وأنت معتدلا في جلستك دائماً . وقرب الصفحة اليك ولا تنحني عليها .

٦ — تمارين الرقبة تفيد البصر وتقويه . فحرك رقبتك ذات اليمين وذات اليسار . . عشر مرات .. وكذلك الى الامام والى الخلف .. وتحريكاً دائرياً أيضاً .

٧ — قبل أن تنام اغسل عينيك كل ليلة بمحلول حامض البوريك ٤ ٪ لازالة ما علق بهما من أتربة طوال اليوم .. وفي الصباح ضع فيهما بضع نقط من القطرة الزرقاء التي تصرفها وزارة الصحة لطالبيها

٨ — زر أنت وأفراد عائلتك طبيب العيون مرة في السنة على الاقل . وان لم يك بأحد منكم مرض بعينيه يدعو لضرورة هذه الزيارة .

٩ — عينا طفلك جوهرتان .. رسالة الذباب ان يسلبهما . . فاطرده دائماً عن عيني طفلك . . لانه يسبب له الرمد الصديدي . رسول العمى في مصر .

١٠ — ضع « نظارة » شمس على عينيك كلما سرت في وهج الطريق.

فهمي عطا الله

أنغام باكية

سلوا الأيام هل رقت لحالي ... وهل أصغت لشكواي الليالي !
وهل رنّت بأنغامي كؤوسٌ ... وهل نطقت بأسرار الجمال !
وهزّ الراحُ أعطاف الندامى ... وداعبت النهى بنتُ الدوالي !
وهل بكت الطيور بشدو روحي ... على الأغصان أو فوق التلال
وهل غنى حُداة العيس ليلاً ... بنجوى مهجتي بين الرمال
وأنَّ الريح من شكوى غرامي ... أنيناً هزَّ أركان الجبال
عرفت الحب فذّاً عبقريّاً ... فعلمني الهوى نبل الخصال
وقد يسلو محب عن هواه ... ولست عن الهوى يوماً بسالي ..
وغاية هذه الدنيا فناء ... وحبي لن يصير الى زوال
سيصحبني غرامي في حياتي ... ويبقى ذكره بعد ارتحالي ! !
ولم أرَ كالهوى داءً نبيلاً ... ولا نقصاً يقود الى الكمال
عجبت له يسوم الجسم حيفاً ... ويسمو بالنفوس الى المعالي
وقد ناءت به الدنيا وكانت ... ولم يكن الهوى فوق احتمالي
شقيت به شقاء عبقريّاً ... وجافاني له صبحي وآلي . !
فما بكت العيون بمثل دمعي ... ولا سمع الزمان بمثل حالي
ولا خطَّ اليراع على جبين ... ولا جرت السطور بما جرى لي
وكم بالغت في شكوى زماني ... فما رحم الزمان ولا رثى لي
وان كان الهوى حرّاً نبيلاً ... فأذّن للسعادة بالزوال !
أقضّي الليل أسأل عن حبيبي ... فلا أجد الجواب على سؤالي
ولو أني رُحمت لمتُّ وجداً ... ولكني أعيش على الخيال !
فيا أهل الهوى إن ناح طيرٌ ... سلوا الأيام هل رقّت لحالي !

عفيفي محمود عفيفي
كلية العلوم بالعباسية

مع تولستوي في كتابه

الحرب والسلم

كلمة تمهيدية

كنت أستمع ذات عشية إلى برنامج (الأمنــاء على العقل [1]) الذي تذيعه محطة الإذاعة البريطانيــة فأصغيت إلى محاورة طريفة تجرى بين نخبة من أساطين الفكر في بريطانيــا. ويلوح لي أن هؤلاء السادة المفكرين قد أدركوا ما تعرّض له العقل البشري الحرّ المنتج من حَرَج وعنت وخطر بسبب ما فرضته أحوال الحرب من قيود شديدة ومن خضوع للدعاية واستكانة للعاطفة المغرضة، فرأوا أن يصرفوه إلى معالجة المواضيع العلمية والأدبية البحتة، لعلّ الذهن بهذا الغذاء المفيد الصالح يخرج من غمرة الحرب، وقد نما وازدهر وجلى عن نفســه صدأ الخمول وفزع الأيام القاتمة، فيعود كما كان قبل الحرب بل أروع وأنشط.

أجل، لقــد شُغفت بالاستماع إلى هؤلاء العلماء والأدباء الذين نصبوا أنفسهم أمناء على العقل بل حمــاة له، فجعلوا يعقدون جلسات دورية يتناولون في أثنائها البحث والإجابة على أسئلة مختلفة ترد عليهم من أطراف المسكونة، فيجيب كلٌّ منهم بدوره مرتجلاً، مبيّناً رأيه في كل نقطة، فيحدث بينهم تارة جدل عنيف صاخب، وأخرى يسود الهدوء الشامل المنبيء بالاتفاق. وأعجب ما فيه حقّــا وأكثره لفتاً لنظر المستمع الشرقي ومجلبة لاهتمامه واحترامه اختفاء المنافسة الشخصية الحادة حين مداولة البحث، إذ تحفزهم روح العلم وروعة التهذيب على احترام آراء بعضهم بعضاً والسعي معاً الى بلوغ الحقيقــة المطلقة. فيتناول عريف الجلسة ما يبديه الأعضاء من آراء، وبراعة نادرة يحاول تلخيصها والتوفيق بينها. ولا يكاد يشذّ عن هؤلاء إلاّ الفيلسوف الانجليزي المشهور البروفسور (س. مَ. جود) [2] ذو النبرة الموسيقية الحلوة والعــقل المهيمن والمعرفة الدقيقة الشاملة المؤذية أحياناً بسبب ذلك، والبديهة الحاضرة والمقالة اللطيفة تجري على لسانه فتطرب عقل السامع وقلبه معاً.

(1) Brain's Trust (2) C. M. Joad

والفيلسوف (جود) فلّما يذعن لرأي أحد في أثناء النقاش . وكم من رؤوس صلبة تحطمت على صخرة رأسه !

في تلك العشية سمعتهم يجيبون على هـذا السؤال — : « لو قيل أنك بعد ستة أشهر سوف تبرح هذه الدنيا إلى عالم البقاء ، فما عساك تصنع في خلال هذه المدّة ؟ » .

سمعت الفيلسوف (جود) يصرّح بأنه لن يبدّل طراز عيشه ، بل يمضي في الحياة كأنما هو يجهل ساعة الموت . ويعلل ذلك ويدعمه بقوله إنه لو بدّل شيئاً — في البقية القليلة الباقية له من عمره ، لدلّ هـذا على أنه قضى حياة فاشلة ، وأنه يجهل جهلاً تامّاً كيف يعيش عيشة مثالية مرضية » .

وقال العلاّمة جوليان هكسلي (٣) « يُخيّل إليّ أني سأقضي معظم الوقت في الاجتماع إلى روائع بيتهوفن وشوبرت ومندليف الموسيقية الخالدة ولسوف أظلّ أكرع من ينبوع هذا الفن الرفيع حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً ».

بيد أنه لفت نظري جواب أحدهم إذ قال : « أما أنا فلسوف أطالع قصة (الحرب والسلم) لتولستوي ، وأعيد قراءتها المرّة تلو الأخرى . حتى أستشبع من هذا الأدب الرائع وأتزوّد منه الزاد الكافي قبل تلك الرحلة الطويلة الشاقة » .

وفي جلسة ثانية سمعت غيرهم يجيبون على هذا السؤال : « لو قدّر لك أن تكون مؤلفاً قصصيّاً خطير الشأن ، فما القصة التي تختارها من بين قصص العالم وتتمنى لو كنت ألفتها ؟ :

ومع أن بعضهم ذكر (البؤساء) لهوجو وديفد كپرفيلد لدكنز وغيرهما إلاّ أني كدتُ ألمس إجماعاً على كتاب (الحرب والسلم) لتولستوي ،

وقال الناقد الأديب المشهور فورستر في إذاعـةٍ لهم « أنه لا نزاع ولا إشكال في أنّ قصة (الحرب والسلم) لأعظم ما أنتجه عقل أوروبي في هذا الباب » .

ولا أخال القارىء بعد ما سمع ذلك الاطراء عن هذا الكتاب إلاّ تائقاً لمطالعته . وهذا ما فعلته مدّة شهر ، حُملت في أثنائه على أجنحة الخيال الى أوائل القرن التاسع عشر ، وألفيت نفسي هائماً في أجواء روسية تارة ، وأخرى أوروبية طيلة الأيام التي قضيتهـا في صحبة هـذا الفيلسوف العظيم ، حتى كدت أنسى أني أعيش في منتصف القرن العشرين معاصراً لأعظم أحداث شاهدها التاريخ .

ولقـد خطر لي أن أعرض للقارىء الكريم بعض الفصول التي وقفت عندها في إثناء

(٣) Julian Huxley

مطالعتي لهذه القصة ، عسى أن نجد في عرضها ومراجعتها غذاءً كاملاً لنفوسنا ومتعة وزاداً نتبلّغ به في حياتنا الفكرية والروحية . فما أحوجنا إلى هذا الزاد في هذه الدنيا المقفرة الخالية من أطايب الفكر والروح ! بل ما أحوجنا إلى مطالعة تولستوي والحديث عنه . فإن إسمه بلسم يشفي جراح هذه الانسانية الشاردة المعذبة ، ويلمس قلوب أهل الفكر الكسيرة ليلطّف عليهم الحياة القاسية . ويبعث في نفوسهم القوّة على مواجهة أحداث الزمان بإيمانٍ وثقةٍ وصلابة .

إن إسم تولستوي رمزٌ لقوّة الروح التي لا يطمسها صخب الأيام ومثالٌ للعقيدة الراسخة وعنوان للاصلاح الاجتماعي والمحبة الإنسانية الشاملة .

نظرة شاملة

تعتبر قصة (الحرب والسلم) أعظم ما أنتجه تولستوي لأنها تتناول موضوعاً تاريخيّاً خطيراً هو كفاح روسيا المرير ونضالها الجبّار وعلى رأسها القيصر الكسندر والقائد كوتوزوف ضد جحافل نابليون الغازية الغاشمة . وتبدأ حوادث القصة قبيل واقعة أوسترلتز . وفيها يعالج الكاتب الحرب كرمز للقوى الاجتماعية الكامنة الساعية للظهور بشتى السبل، وليس كحركة « دراماتية » يمثل أدوارها أفراد معدودون . ولهذا فإنها تؤلّف وتجمع بين الواقعية والصوفية ، إذ تصوّر بمهارة وابداع هول المعارك وما يعتلج في نفوس المتحاربين من عواطف وأفكار . والكتاب يترك في نفس القارىء أثراً عميقاً بليغاً لا يخلو من التشويش فيشعر كأنّه قد خرج من معمعة القتال بنفس مفعمة بدخان الحرب ودويّ المدافع ، ممتلئة بالذكريات الرهيبة والأشباح المرعبة . إنما أثر واحدٌ يظلّ بالغ الانطباع في النفس كالأثر الذي يتبقى في نفس الجندي حين يخرج من حرب ضروس وقد عزا نجاته منها إلى عامل الحظّ أو الصدفة أو القضاء الذي يلعب أدواراً كبيرة في حياة المقاتلين بل في مجرى جميع الحوادث التاريخية أيضاً .

تقع قصة (الحرب والسلم) في مفترق السبل التي سلكتها القصة منذ القدم ، وكانت في مقدمة الكتب التي مهّدت السبيل لظهور هذا اللون من الادب القصصي الذي يتجلى فيه الأسلوب الحديث ولو لم يسبقه إلى القصص الانجليزي المشهور ريتشاردسن Richardson لصحّ القول بأن (الحرب والسلم) تعيّن الحدّ الفاصل بين أسلوبي القصة القديم والحديث ، ففيها انتقال من القصة التي تتميّز بالتمثيل في الكلام وعدم تدخل المؤلف بصورة مباشرة فيما يقوله أشخاص القصّة أو يفعلون كما هو ظاهر في بعض قصص دوستويفسكي إلى تلك

التي يعبّر فيها الكاتب عن رأي خاصّ ووجهة نظر معينة في كل ما يعرض له من مواضيع وأحداث ، فيقف بين الفينة والفينة وقفات قصيرة أو طويلة حسب مقتضى الحال ليملل ويحلل ويبسط ويعلق .

●ولقد تسرّب العامل السيكولوجي إلى سرد الحوادث وبحث الأوضاع الاجتماعية والسياسية والروحية ووصف الأشخاص . وبرع تولستوي في الغوص على مكنونات النفس البشرية واستخراج دفائن العقل الباطني إلى حدّ يُخيّل معه إنك أمام عقل وعى أصول السيكولوجيا الحديثة . لقد كانت القصة تمتاز من قبل بوصف الكاتب أفعال الأشخاص وسرد أقوالهم دون تعليق عليها ، أما تولستوي فقد تطرّق الى بسط الأسباب وإيضاح العلل وشرح الدوافع الخفيّة التي تحرّك أشخاص القصة وتحفزهم للعمل ، كما يتجلّى على الخصوص في (الحرب والسلم) و(أنّا كارانينا) ولهذا باستطاعتنا تقسيم مؤلفات تولستوي في باب القصة ومن حيث مراعاة التحليل السيكولوجي إلى قسمين الأول وهو دور مران وتحضير ، والثاني وفيه ألّف (الحرب والسلم) و(أنّا كارانينا) على نسق جديد ، بيد أنه في (الحرب والسلم) أكمل فنّه وحسّنه وجمّله ، وجعله غاية في نفسه .

ولقد اتخذ تولستوي لقصة (الحرب والسلم) جوّاً تاريخيّاً زادها قيمة وروعةً وبهاءً وقرّبها من الحياة الواقعية ، وقدّمها للناس أدباً ممتازاً ، فتكاد لاتدري وأنت ماضٍ في مطالعتها أفي الماضي تعيش مع أولئك الناس الذين امتلأت نفوسهم وأذهانهم باسم نابليون ، أم في الحاضر بمشاكله وشؤونه المختلفة كل الاختلاف ، بل إنك في الواقع تحار في ما تقرأه ، أحقيقة تسميه أم خيالاً ؟ لأن تولستوي كان بارعاً في اكساء الحقيقة ثوباً موشّى زاهياً من الخيال الوثّاب ، وبريشة فنّان ماهر عالج تيار الحوادث التاريخية التي يطرب لها الأدباء ولا يأبه لها صغار المؤرخين ، فيندر أن تعثر عليها في كتب التاريخ . تلك الحوادث الفردية والاجتماعية التي تجمّعت وتكوّنت وصارت فيما بعد تاريخاً قويّاً تدفّق وفاض على المجتمع الروسي ، وغمر العائلة الروسية والأوربية كذلك . ومهما قيل ضدّه من عدم اتقانه إبراز صورة لنابليون برهن عنها التاريخ ، ومهما أثير من جدل واعتراض حول تعليله أسباب الحوادث التاريخية ، فاني أراه سيّداً لا يُدافع وفناناً ذا عين نافذة دقيقة التصوير ، وذهنية جبارة تبصر أكثر وأبعد مما يستطيع المؤرخ أن يفعله . بل إن قصة (الحرب والسلم) تصحّ أن تسمى الحلقة المفقودة بين الحقيقة والخيال ، وبين الأدب والتاريخ ، ذلك أنها مزيج رائع من الحقيقة والخيال وصورة فاتنة خلاّبة يتعانق فيها الأدب والتاريخ .

وفي (الحرب والسلم) ابتدع تولستوي فنّاً جديداً خالداً هو فن القصة المطلقة المكشوفة

التي تعرفك في بدء الأمر على مجتمع غريب عندك ، ثم تدنيك من أفراده وتوثق عرى الألفة والصداقة بينك وبينهم لمدة طويلة . وحين يفرض عليك القدر القاسي مفارقته ، تجد أنه قد ظلّ ماضياً في سبيله دون أن تعرف له نهاية . على الضدّ من ذلك ما تعوّدنا مطالعته من القصص التي ترى لها بداية واضحة وتصل فيها إلى نهاية محدودة تسكن عندها كل حركة ، وتكاد تقف كل نبضة من نبضات الحياة ، كأن لها باباً تلجه في أول الأمر ، ثم ما تلبث ان توصده خلفك حين تفرغ من مطالعتها . من هـذا النوع مثلاً (سوق الغرور) لثاكري ، و (الطاحونة على نهر فلوس) للكاتبة الانجليزية المعروفة بجورج أليوت وغيرهما .

أما (الحرب والسـلم) فتكاد تجيء في صعيد واحـد مع الالياذة والأوديسا ، ذلك أن تيار الحوادث وسيل الحوادث ونهر الزمان لا يقف في أيّ منها إلى حدّ أو يبلغ نهاية رغم انتهاء الكتاب ، بل يظل جارياً جارفاً أبداً ، متدفقاً أبداً . وفي كل مرة يبدو لك فيه أن القصة أوشكت أن تنتهي ، لمحت حوادث جديدة قد تولدت وانبعثت وراحت تسعى الى ما لا نهاية له ... وهذه ميزة تنفرد بها قصة (الحرب والسلم) وحدها ، ولا توجد في كتب تولستوي السابقة أو في قصص غيره من الأدباء . لهذا فان قصة ما لم تحز ما حازته (الحرب والسلم) من شهـرة واسعة في أوربا ولا سيما في بريطانيـا . فقد سماها الـكاتب القصصي المشهور (غالزورذي : أعظم قصة ألفت) . وقال عنها الناقد الأدبي (لبوك) (أنها صورة للحياة لا يعلو عليها شيء ! إن أول واجبات الـكاتب القصصي خلق الحياة ، وهنا نرى كيف تخلق الحياة بحق . إذ أن قصة غيرها لم تتناول عامة الناس على مثل هذا النطاق الواسع الذي تلمحه في الحرب والسلم) . فبيير وأندرو وناتاشا وغيرهم من شخوص القصة جميعهم من أبناء الأمس واليوم والغد ، ولا ينفرد أحدٌ بشيء من كل الناس في كل الأزمان ! '

ويقول الناقد الانجليزي فورستر في كتابه (جوانب من القصة) « لم يتسنّ لكاتب غير تولستوي وضع صورة كاملة لحياة الانسان في المظهرين البيتي والطولي ، المتمثلين في البيت وفي ميدان القتال . والقارىء لن يضيق ذرعاً بهذا الكتاب أو يعتريه ملل وسأم من قراءته لأن حوادث القصـة ترفعـه على أجنحتهـا رفعاً وتجري به فوق الفضـاء وفوق الزمان معقبة في نفسه أثراً كأثر الموسيقى الخالدة . فيشعر حين يقطع شوطاً في قراءتها كأنما أوتاراً عظيمة قد تحركت خلفه باعثة أنغاماً شجية ساحرة . أوتاراً آتية بالنغم العذب من مساحات روسيا الممتدة الشاسعة ، قد انتثرت فوقها بحور وغابات وحقول وأنهار وجسور وجرت عليها أحداث وخطوب وتحركت فوقها أمم وشعوب . فتمتلىء نفسك حين تمر بها

أو تستعرضها معاني عالية ومشاعر سامية وألحاناً مدوية رائعة . كثيرون هم الذين يتحسسون الزمان بالزمان حين يكتبون ، بيد أن الذين يتحسسون بالفضاء قلائل . ومنهم تولستوي فانك تشعر أن كل حادث في القصة بل كل عنصر منها حتى حالة علاقته بالفن العسكري يكاد يجذب وراءه حياة زاخرة بالناس من كل جنس ولون ووجوداً هائلاً تحس به وتدركه فتنطبع في نفسك كل الحياة » اه

ولقد أجاد الأديب الفرنسي دي فوج الثقة في الأدب الروسي حين قال « من اليسير ادراك ما يخامر القارىء من شعور وهو يطالع (الحرب والسلم) أو (أنا كارانينا) . فانه يرى نفسه بادىء ذي بدء حائر العقل ، مبلبل الذهن لا ينساق مع حوادث القصة بسهولة ثم يعتريه سأم وكلال عقلي ما يلبثان أن يزولا بعد أمد قصير ، إذ تحمله حوادث القصة حملاً وتدفعه مع حركتها الدائمة دفعاً وتأسره بما فيها من مشاعر متنوعة وألوان من الحياة مختلفة ، وتجعل له من بين أشخاصها أصدقاء يحب أن يدنو منهم ويعاشرهم ، وأن يسبر أغوارهم ويبحث عن مصائرهم في الحياة . بل أن يشعر حين ينجز قراءتها بما يشعر به كل فرد من لوعة البين وأذى الفراق حين يودع أسرة نشأ في ظلها وتربى مع أبنائها ، وعاشهم أعواماً طويلة . ان قصة (الحرب والسلم) صورة صادقة لحياة مسافر رماه الدهر بصحبة فئة من الناس الغريبين عنه ، فالعيش معهم يبعث في نفسه القلق والضجر والكدر في بدء الأمر ، ثم سرعان ما ينكشف له ما غمض عليه من أمرهم ، ويبدو مألوفاً محبباً لديه ما غرب من طبعهم ، فيجذب إليهم ، ويتعوّد طريقتهم في الحياة ، ويمتزج بهم حتى يرى نفسه واحداً منهم ، فلا يعود يطيق الافتراق عنهم . وهذا شأن القارىء مع هذه القصة العظيمة » .

ولا بد أخيراً من الاشارة الى أن تولستوي كان حاذقاً في تقسيمه أشخاص القصة إلى فريقين عائلي وتاريخي دون الخلط بينهما بما قد يزيد في تعقيد عناصر القصة أو تشويش حوادثها . وقد يفيدك ان تذكر وأنت تطالع (الحرب والسلم) أن تولستوي كشأنه في معظم قصصه قد صوّر بعض جوانب خلقه ومظاهر شخصيته وطرفاً من حياته في البرنس أندرو ، هذا البطل الانساني الطامع الذي لست أشك بأنك سوف ترى فيه همماً عالية وصفات نبيلة سامية تحفزك لاحترامه ، بل تحبب اليك مصادقته ، وتدفعك لأن تذرف الدمع مثل ما فعلت يوم رأيته يفارق الحياة . كما أن جانباً من نفس تولستوي يبرز بوضوح في شخصية بيير الفذّة الذي يعتبره أكثر الناس ، واعتبره كذلك بحق ، بطل هذه القصة العالمية .

تولستوي وتحليل الحوادث التاريخية

لا ريب في أن جانباً من عبقرية تولستوي كما تتمثل في قصة (الحرب والسلم) يتجلى في هذه الوقفات التحليلية العميقة التي يقفها على هامش القصة ليعالج فيها ما يعرض له من مسائل التاريخ ومشاكله الكبرى، ولست بحاجة لتفصيل حوادث هذه الحقبة من التاريخ التي يعيش فيها أشخاص (الحرب والسلم) لأنها أشهر من أن توضح وتعرّف الأديب المثقّف. ولست أشك في أنه لم يمرّ على أوروبا في جميع أدوار تاريخها السياسي برهةٌ لفتت إليها الأنظار، وأعقبت في أذهان الأوروبيين تأثيرات وانطباعات أبلغ وأعمق مما فعلته تلك الحقبة من التاريخ التي عُرف فيها نابليون قائداً عظيماً إسمه على كل لسان، وقنصلاً ثم امبراطوراً خطير الشأن، ولست أدري من أبعد تأثيراً في نفوس الناس وأشدّ وأعمق، ذلك العهد من التاريخ، أم هذه السنوات الست التي ودّعناها بالأمس وعانى العالم في خلالها ويلات أشرس حرب في تاريخ الوجود البشري.

في هذا الفصل من كتاب (الحرب والسلم) يعالج تولستوي الأسباب التي تفضي الى الحوادث التاريخية عامة، والتي بعثت الحرب بين روسيا وفرنسا خاصة. وفيه يحاول دحض عقيدة رسّخها علم التاريخ وطبعها في الأذهان، ودعمَ حقيقة خطيرة تبدو لأول وهلة غريبة، وهي أن الرجال الذين، في أيديهم مقاليد السياسة والادارة والحكم إنما هو في الواقع عبيد التاريخ، يستخدمهم ويستثمرهم كالأدوات الصمّ لبلوغ أهدافه المقرّرة من قبل فلا يستطيع هؤلاء الحكام والقواد مقاومته في ذلك، لأنها أهدافٌ مقضيٌّ بها منذ الأزل فلا مَعدًى لهم عن الاندفاع والجري مع تيّاره الجارف والرضوخ لحركته واتجاهه.

يقف فيلسوفنا من الحملة الفرنسية مندهشاً حائراً مفقود الاسان، لا يدري كيف يعلّل أسباب هذه الظاهرة العظيمة. ألوف بل ملايين من الناس في غربي أوروبا يشرعون في التجمع والاحتشاد منذ سنة ١٨١١ ويأخذون في الزحف صوب الشرق ويمعنون في ذلك فيتخطون الحدود الروسية ويكادون لا يقفون إلاّ في موسكو. لكنهم ما يلبثون أن يعودوا القهقري ويرجعوا من حيث جاءوا حاملين في إيابهم بذور الخيبة والهزيمة المنكرة. يقابل ذلك ملايين أخرى تتأهب في الشرق لمجابهة أولئك، فتندفع من أواسط روسيا ميممة شطر الغرب، وفي ١٢ حزيران ١٨١٢ تلتقي هاتان الموجتان الصاخبتان من بني الإنسان، فيكون ذلك نذير وقوع حرب لم يعرف لها التاريخ من قبل نظيراً. هذا الاضطراب بين الملايين يراه تولستوي في ظاهره منافياً للعقل ومخالفاً لقوانين الطبيعة البشرية. فلا

بجرم إن وقف حائراً يبحث عن العلل الحقيقية التي أدّت إليه .

فيستعرض الآراء التي يبديها النـاس في بواعث تلك الحرب ، فيرى أن المؤرخ يعزو وقوعها إلى الإهانة التي ألحقها نابليون بالدوق أولدنبرج [1] ، وإلى عدم مؤازرة قيصر روسيا في انجاح الحصار الذي فرضه نابليون على بريطانيا ، وإلى طموح نابليون الشخصي أو ثبات قيصر وصلابة عوده ومتانة مركزه ، وإلى أغلاط الرجال الذين يديرون دفة السياسة في أوروبا . ويقول تولستوي إذا كان أحد هـذه الأسباب التي يسردها المؤرخ أم كلـها مجتمعة، هو ما أثار تلك الحرب ، فقـد كان بالإمكان الحيلولة دونها بشكل ما ، كأن يُحسن مثلاً كل من أولئك الساسة النية والتصرُّف ويخلص في جهوده لتوطيـد السلم ، فيسعون جميعاً إلى الإتفاق على نصوص المعاهدات مما قد يؤول إلى حسم أسباب النزاع واجتثاث الشرّ من أصوله . أو أن يخط نابليون الى الـكسندر رسالة تنمّ عن روح المودّة الصادقة والصفاء الخالص ، مُعرباً فيهـا عن رضاه بإعادة دوقية أولدنبرج إلى صاحبها في الأصل ، إلى غير ذلك من السبل التي تـطرق والجهود التي تبذل للحيلولة دون وقوع الشر أو تفاقه .

ذلك ما يذهب إليه المؤرخ . أما نابليون فيرى أنه لم يكن ثمة بدّ من الصدام مع روسيا بسبب نشاط الدبلوماسية البريطانية ودسائسها الشيطانيـة (كما صرّح في جزيرة القديسة هيلانة) . ثم من البديهي أن يرى أعضـاء البرلمان الانجليزي طموح نابليون ونزعته الجشعة للسيطرة وحبـه للسلطان ، سبباً آخر وجيهاً . وأن يعدّ صاحبنا الدوق أولدنبرج في دوره ما لحقه من إهانة ، الباعث الحقيقي والمباشر لهـا . وأن يرى رجال الأعمال في أوروبا سببها في النظام القارّي الصـارم الذي فرضه نابليون على أوروبا وذلك بحظر المتاجرة مع بريطانيـا ، ممّـا سبب ضجراً وكدراً وتدهوراً إقتصاديًّـا خطيراً في أوروبا وكذلك في روسيا . أما القوّاد العسكريون وغيرهم من رجال الجيش فيؤكدون أنه لم يكن مناص من حرب تقع لتشغل ألوف العاطلين منهم ، بينما يرى الساسة في ذلك العصر أنها نجمت عن اخفاقهم في إخفائهم عن نابليون إخفاءً تامًّا بنود تلك المعاهدة السرية المعقودة بين روسيا والنمسا سنة ١٨٠٩ . زدْ إلى ذلك الصيغة الحادّة والأسلوب الجاف الذي به خُـطّ الإنذار رقم ١٧٨ . ومن البديهي أن تبدو هذه الأسباب وعشرات مثلها وجيهة معقولة لدى أهل ذلك العصر حسبما يتراءى لـكل منهم ، ومن الزاوية التي ينظر منهـا إلى حوادث التاريخ المعاصر، أما

---

(١) هي دوقية أولدنبرج في المانيا انتزعها نابليون سنة ١٨١٠ من صاحبها بطرس فردريك أسقف لوباك . وقد أبى أن يبادلها نابليون بمقاطعة ارفرت (Erfurt) فأرغم على الفرار والالتحاق بالحلفاء ضد نابليون بيد أنها عادت إليـه في مؤتمر فينا سنة ١٨١٥ مع مقاطعة بكنفيلد Bukenfild بمؤازرة قيصر روسيا (الموسوعة البريطانية)

نحن أهل هذا الزمان ، فما موقفنا منها ؟ أحرَ بنا أن نراها عقيمة تافهة لا وزن لها ولا خطر ، فلا تقنع الباحث المفكر منا أو تنقع غلته . ذلك لأن المعاصرين لتلك الاحداث التاريخية العظيمة لم يكونوا في الواقع يبصرون من الحرش غير الأشجار على حدّ التعبير الانجليزي في حين أننا ، بسبب البعد الزمني نكاد نبصر الحرش بكامله .

ويعالج تولستوي جميع هذه الأسباب مبيناً صعوبة بل استحالة الأخذ بها رغم زعمه بأنه ليس بالمؤرخ المحقق . ويعتقد أن كل سبب ظاهر للحملة الفرنسية قد يبدو بحدّ ذاته معقولاً مقبولاً ، بيد انه ليس كذلك حين ينقاس بخطورة الحوادث المنبثقة عنه . إذ لا يُعقل أن يبلغ سببٌ واحدٌ حدّاً كبيراً من القوّة والتأثير بحيث يجلب على العالم الأوربي أحداثاً خطيرة كتلك . لهذا يؤكد تولستوي أن تكون هناك أسباب أخرى عديدة عملت جميعها يداً واحدة وتساندت وتآزرت . وربما سلكت في بدء الأمر سبلاً شتى ، إلاّ أنها لم يكن لها مناص من الالتقاء أخيراً في طريق واحد ، والتضافر والسعي نحو تحقيق هدف واحد هو ذلك النزاع والاصطراع الذي أمسى وقوعه محتماً . ويخيّل لتولستوي أن رغبة جندي واحد في القتال أو عنه لسبب يبلغ من الوجاهة والخطورة والتأثير حدّاً لا يقلّ عمّا بلغه رفض نابليون سحب قواته عبر نهر الفستولا ، نزولاً على طلب الكسندر كشرط أساسي لوقف القتال . بل انه لا يقلّ قيمة وخطراً عن رفض نابليون اعادة دوقية أولدنبرج لصاحبها إذ لو أبى جندي واحد الانخراط في سلك الخدمة العسكرية أو عدم المضي في العمل في أحد أدوارها وفعل ذلك ثانٍ وثالثٌ وغيرهم لأدّى ذلك إلى نقص في عدد رجال الجيش وبالتالي إلى عدم اقدام أحد المعسكرين على المجازفة بقبول الحرب ، أو استئنافها في أحد مراحلها بأية حال .

فقد كان من اليسير تجنّب هذه الحرب على هذا الأساس من التعليل الخاطىء لو لم يرَ نابليون تحدّياً واساءة في طلب القيصر سحب قواته وراء الفستولا . فيأمر جنوده بالهجوم لمحو تلك الاساءة . وكان هيّناً أن يُحال دون وقوعها لو رفض الضباط والجنود العمل في إحدى مراحل الخدمة العسكرية . والحرب ما كانت لتقع قطّ لو أحبط نشاط الدبلوماسية البريطانية كما زعم نابليون ، أو لو انه لم يكن في الوجود رجلٌ اسمه الدوق أولدنبرج ، أو لو ان الكسندر لم يغضب لكرامته بسبب امتهان نابليون له كما يدّعي ، أو لولا انه لم يقمْ في روسيا آنئذٍ حكمٌ فرديّ مطلق ، أو لولا اندلاع لهيب الثورة الفرنسية من قبل ، وما تلا ذلك من قيام دكتاتور وامبراطورية ، أو لولا جميع الظروف والأحوال التي أدّت إلى تأزّم الوضع السياسي بسبب الحالة الاقتصادية والاجتماعية مما أفضى الى الثورة

الفرنسية . والواضح ان ليس ثمة سببٌ واحدٌ من هذه الأسباب التي يذكرها . الناس إلاَّ أمكن معالجته بمفرده والحيلولة بواسطته دون وقوع الحرب . ولكن الحقيقة التي لا ريب فيها انه لم يكن له سببٌ واحد أو عشرةٌ ،وإنما هذه الأسباب كلها وألوفٌ غيرها من المنظورة وغير المنظورة الظاهرة والباطنة، جميعها عملت معاً وسلكت سبيلاً واحدة ، فأنتجت تلك الحرب وتلك الحملة الهائلة التي ما يزال يتردد صداها في نفوس الناس وعقولهم في أوربا وفي أسيا كذلك .

وقد يتوهم المرء ان وقوع الحرب الروسية — الفرنسية كان متوقفاً على ارادة القيصر أو الامبراطور وحدها لاغير . والحقيقة انه كان يتوقف على ارادة ملايين البشر الذين في يدهم منفردين ومجتمعين السلطة الحقيقية والتأثير البعيد كالجنود الذين رضوا لأنفسهم ان تقدّم على مذبح المريخ ، والرجال الذين رافقوا الجيش وأمدّوه بالمؤن والمعدّات الكافية ، والعمال الذين صنعوا له كلّ لوازمه وهيأوا حاجاته ، والمدنيين الذين دعموه وعضدوه بمؤازرتهم الأدبية والمادّية ، ومئات الألوف غيرهم بما لكل منهم من تأثير مباشر أو غير مباشر في سير تلك الحرب في روسيا وفي فرنسا بل في جميع أوربا .

وما دام الأمر على هذه الشاكلة ، فلا محيص من الرجوع إلى القدرية كعقيدة أساسية يستند اليها في تعليل أسباب تلك الحرب بل كل حرب في التاريخ لا يستطيع العقل احصاء أسبابها . إذ كلما حاولنا ردّ تلك الحرب إلى بواعثها الحقيقية وقصدنا تحليلها إلى عواملها بشكل منطقي كلما لاحت لنا بعيدة عن العقل خارجة على قواعد المنطق ، أو تبدّت كأن ليس من سبب ظاهر لها نفهمه ونقبله ونبرره .

ويقول تولستوي شارحاً القدرية ان لكل امرىء في الحياة مطلق الارادة وملء الحرية في تعيين أهدافه الشخصية والسعي كيفما أراد إلى بلوغ تلك الأهداف فيأتي من الأفعال ما قد يقرّبه من تحقيقها ، ويعرض عمّا يقصيه عنها . والواقع انه حالما يصدر عنه عملٌ ما خطير أو قولٌ له قيمة ، فانه في تلك اللحظة ذاتها يفلت من يده ويخرج من نطاق سلطته وسيطرته ، بحيث لا يستطيع استرجاعه ، فيدخل في نطاق الماضي أو بعبارة أخرى في نطاق التاريخ ويصبح لذلك القول بعد الافضاء به أو للعمل بعد أتيانه تلك الخطورة الاجتماعية والأهمية المقدّرة المحتومة والمقيّدة المحدودة . من هذا نستنتج ان لحياة الانسان مظهرين مختلفين ، مظهر الفرد وهو ما يتعلق بحياته الفردية المستقلة ، التي كلما انطلقت وتجردت في مهامّها وأمورها وأعمالها تحرّرت وأبت التقيد بقاعدة أو الارتباط بقيد . ثم مظهر العضو ، وهذا يتعلق بالحياة الاجتماعية العنصرية . وفيه يرى المرء نفسه مكرهاً عليها

رضوخاً لقوانين شرعت وقواعد وتقاليد فُرضت ووُضعت ، وليس من سبيل الى التحرّر منها . فالانسان في المظهر الأول يكاد يعيش حياته لنفسه ، وفي سبيل تحقيق أهدافه الفردية واعياً مستقلاً إذا أحب . ولكنه يبدو في المظهر الثاني كأنه ألعوبة في يد غيره، أو كأنه آلة تعمل دون فهم أو وعي في سبيل تحقيق أهداف تاريخية كونية تتعلق بمجتمعه الخاصّ أو بالانسانية جمعاء .

***

وهنا نرى كيف يدخل عامل الصدفة في المظهر الاجتماعي من حياة الانسان ، فقد تقع حوادث وتجيء أعمال ملايين من النـاس في حين واحد ، فتدخل جميعها في نطاق المـاضي الذي هو التاريخ، وتسبب كلها بمجموعها قوة هائلة لها تلك الأهمية والفعّـالية التاريخية وكلما سما المرء منصباً وارتقى في سلّـم الحياة السياسية أو الاجتماعية ، كثر الناس الذين يحيطون به ويلتفون حوله ، وكلما ارتفعت مكانته وتضاعفت سلطته اتضح لنا بجلاء انه خاضع لسلطة القضاء في جميع ما يصدر عنـه من أقوال أو أعمال لها علاقة بالمجتمع أو بغيره من الناس ، ليس له أدنى نصيب من القوة والارادة الحرة المستقلة في ذلك .

إن قلب الملك في يد الله ، والملك هو عبد التاريخ ، والتاريخ الذي هو الحياة الاجتماعية العامة غير المدركة أو الواعية انما يستغل كل لحظة من حياة الملك ويستخدمها في سبيل تحقيق أغراضه التي لا تدرك ولا ترى، فمع أن نابليون يعتقد اعتقاداً جازماً بأن عليه وحده كان يتوقف مصير كل ما يجري حوله من أحداث سياسية وأعمال عسكرية ، وانه وحده مسؤول عن سفك دماء الملايين من الأبرياء (كما عبر ذلك قيصر روسيا في رسالة بعث بها الى نابليون) إلاّ أن تولستوي يعتقد جازماً بأن نابليون لم يكن في حين ما أكثر من ذلك مستعبداً لمشيئة القضاء ، مكرهاً على طاعته ، يسيره القدر ويوجهه أنى شاء ، وكيفما شاء ، ويسوقه رغم أنفه ، مع ظن نابليون بأنه يعمل وفق ارادته الشخصية ، الى السير في سبيل واحد مع مجموعة المظاهر الاجتماعية لحياة الأفراد الذين يمثلون شتى الأدوار على مسرح الحياة .

لقد زحف أهل الغرب نحو الشرق في حركة خطيرة الشأن مستهدفين تقتيل اخوان لهم من بني الانسان . فنقف من هذه الظاهرة مندهشين باهتين ، نبحث عن الأسباب التي أدت الى مثل هذا الشر الاجتماعي . فيجيب تولستوي بأن ألوفاً من الحوادث الدقيقة جاءت صدفة في حين واحد ، ووقعت في الوقت الملائم ، وانتظمت كما في عقد لإحداث تلك الحركة الشريرة الزاخرة . فسخط نابليون على روسيا لخروجها على قواعد النظام القاري ، وما حل

بالدوق اولدنبرج من اهانة وسوء ، وكذلك زحف نابليون على روسيا للحصول على سلم مسلح كما خيل له ، ثم نزعة نابليون الحربية كلها تجيء في وقت يعتلج فيه . في صدور أبناء فرنسا ميل للحرب ورغبة في القتال . وانبهار المدنيين منهم بعظمة الاستعداد الحربي ، وطمع الكثيرين منهم في غنائم وأسلاب تعوض عليهم ما انفقوه في سبيل ذلك الاستعداد. هذا مع ما لاقاه نابليون من تكريم حلفائه ملكي بروسيا وسكسونيا وأمبراطور النمسا له في درسدن واحتفائهم به طيلة شهر ، مما زاد في عجرفته وزهوه وخيلائه وغذى نزعته العسكرية وقواها . وكذلك المفاوضات الدبلوماسية التي عقدها الساسة للوصول الى سلم شامل دائم ، فأعقب وعد كل منهم بالتضحية في سبيل ذلك مسًّا لكرامة الدولة التي يمثلها وجرحاً لكبريائها . هذه وملايين من الأسباب تهيأت واجتمعت حسب قانون المصادفة وتكيفت على غرار أدى الى تلك الحرب الكاسحة .

حين تنضج التفاحة على الشجرة وتسقط ، نسأل عما سبب ذلك السقوط . هل هو جاذبية الأرض ، أم ما أصاب ساقها من يبس وجفاف ، أم الشمس التي ساعدت في انضاجها ، أم الريح ، أم لأنها أضحت ثقيلة لا قبل للغصن بها ولا طاقة له على حملها ، أم لأن هنالك صبيًّا واقفاً ، يرنو اليها عن بعد ، وكل جارحة في نفسه تدعو لها بالسقوط . الواقع أن لا واحد من هذه هو السبب الوحيد بمفرده بل ان تصادف مجيء الظروف ووقوع الحوادث والتفاعلات العضوية والعنصرية في حين واحد هو ما أدى الى ذلك السقوط فكما أن العالم النباتي يعزو سقوط التفاحة إلى تعليله العلمي ، فكذلك يزعم صبينا بأنه انما ناشىء عن دعواته الحارة .

***

ليس الملوك والقواد والساسة العظام الاَّ عناوين لعصورهم وأزمانهم وأسماء لحوادث التاريخ التي تقع في عهودهم . ولا تزيد الصلة بينهم وبين تلك الأحداث والعصور عن تلك التي بين العلاج في القارورة وبين الايضاح الملصق عليها من الخارج . بل لا تتعدى قوتهم وسيطرتهم على الحوادث ، وتوجيه سير التاريخ قوة طفل يعدو به الحصان مسرعاً فلا يملك من القوة ما يمكنه من كبح جماح ذلك الحصان وضبطه واخضاعه .

فالتاريخ جارٍ على الدوام بقوة دافقة نحو الأمام . والفرد بل الملك أو القائد أو السياسي لا يستطيع صد هذه الحركة أو توجيهها . بل انه في كل ما يصدر عنه من أفعال أو أقوال انما يفعل ذلك خاضعاً مندفعاً مع تيار التاريخ الغلاب في سبيل معين نحو هدف مقدر محتوم كما أسلفنا ، ومقضي به منذ الأزل .

سير التاريخ

بسطنا فيما مرّ رأي تولستوي في تعليل الحوادث التاريخية ، وملخصه أن من نحسبهم رجال التاريخ هم في الواقع عبيد التاريخ الأرقاء ، لا يملكون القوة التي بها يضبطون حوادث التاريخ ويخضعونها لارادتهم ويوجهونها وفق مشيئتهم . وفي ما يلي سوف أراجع فصلاً عقده فيلسوفنا في سير التاريخ الدائم وحركته المستمرة .

فتولستوي يرثي للعقل البشري لعجزه عن ادراك هذا الاستمرار الدائم المطلق لحركة التاريخ ، أو معرفة القوانين التي يخضع لها كل عنصر من عناصر الحركة منفصلاً عن الآخر غير حاسب انه من جراء هذه التجزئة المصطنعة سوف يقع في هوّة سحيقة من الحيرة والارتباك والخطأ الكبير . ويستعين تولستوي على توضيح رأيه بالأسطورة اليونانية المعروفة التي شغلت أذهان الأقدمين وبلبلت عقولهم مدة من الزمن أعني بها أسطورة (أخيلا والسلحفاة) . وأخالك تذكر أن أخيلا لم يستطع ادراك السلحفاة رغم محاولته اللحاق بها ، ذلك لأنه كان يسير بمعدل من السرعة يعدل عشرة أمثال تلك . فكلما قطع أخيل المسافة بينه وبين السلحفاة ، وجدها قطعت عشر المسافة أمامه . وحين تقطع ذلك العشر تصبح على بعد واحد من مئة عنه . وهكذا دواليك مما يدل ظاهراً على استحالة ادراكه لها ، وقد غرب عن بال الأقدمين وهم يتدارسون هذه المسألة ويبحثون عن حل لها ، انهم قد ضلوا سبيل الهدى مذ جزأوا المسافة كلها الى أجزاء منفصلة بينما حركة أخيل والسلحفاة معاً استمرار واحد منطلق لا سبيل الى تجزئته . وقد نقرب من حل لهذه المشكلة التي تبدو معضلة بتقسيم الحركة الى عناصر متناهية الدقة والصغر . بيد أننا لن نصل إلى حلّ تام بغير جمع حدود المتواليـة الهندسية اللانّهائية الناجمة عن تجزئة الحركة إلى فترات يرتبط بعضها ببعض بنسبة واحد على عشرة ، التي هي نسبة سرعة السلحفاة الى سرعة أخيل .

وتولستوي لا يقسو في حكمه على الأقدمين لعجزهم عن فهم ما تنطوي عليـه هذه الأسطورة من مغالطة وسفسطة ، ذلك أنهم لم يكونوا يُلمّون بهذا الفرع من الرياضيات العالية الذي يسهل عليهم الوصول إلى حلّ يروي الغليل ويرضي العقل . وإننا حين نبحث عن القوانين التي تسير التاريخ وتوجه حركته ، إنما نقترف مثل ذلك الخطأ الذي فيه وقع

الأقدمون بسبب معالجتهم عناصر عديدة مختلفة للحركة بدلاً من وحدة تامة مستمرة . فحركة التاريخ الناشيء المتكوّن من مجموعة من الإرادات والرغائب البشرية العديدة ليست إلاّ حركة دائمة السير لا انقطاع لها ولا انفصال بين الأجزاء والعناصر التي تتألف منها .

وعلم التاريخ يسعى جاهداً إلى معرفة هذه القوانين التي تضبط حوادث التاريخ وتوجّه سيره . وهي كذلك الهدف الأسمى لعلماء التاريخ في جميع دراساتهم وجهودهم الفكرية العنيفة . بيد أنهم يستسهلون تجزئة الحركة ، حتى يعالجونها ، إلى وحدات منفصلة فيقعون بسبب ذلك في حيرة ويضلّون سبيل الرشاد .

وأول نهج يختاره علم التاريخ ويسلكه لتحقيق هذا الهدف يكون باختيار سلسلة من الحوادث المستمرّة يفحصها علماؤه ويدرسونها ، إحداها منفصلة عن الأخرى . مع العلم أن ليس هنالك نقطة ابتداء واضحة معينة لأيّ حادث تاريخي . ذلك لأنّ كل حادث يتسبّب عن آخر سابق له ، وينبعث منه ، ويتولد عنه . وعملية الانبثاق والتوليد هذه في استمرار دائم مع الزمان في سيره ..

وأما النهج الثاني لعلم التاريخ في سعيه لمعرفة القوانين التي تضبط سير التاريخ فذلك بأن يقع اختيار علمائه على أقوال فرد واحد وأعماله لتتخذ موضوعاً للدرس والبحث والتنقيب ، مفترضين أنّ الافعال والاقوال الصادرة عن فرد واحد تساوي مجموعة إرادات أفراد عديدين أو مشيئة أمة بكاملها . بينما من الواضح أنه لا يمكن لشخصية تاريخية واحدة بالغة ما بلغت من العظمة أن تجمع في ذاتها رغائب ومشيئات كثيرة . وكلا السبيلين لا يفضيان بعلم التاريخ إلى بلوغ هدفه الأسمى ، لأنه في كلا الحالين يختار وحدات صغيرة للفحص والتدقيق . ومهما كانت درجة أهمية الحوادث التاريخية ، فإنّ دراسة كل واحدة منها منفصلة عن الأخرى ، أو الظنّ بوجود نقطة ابتداء معيّنة لكل حادث تاريخي ، أو الزعم بأن إرادة أمة بكاملها يستطيع فردٌ واحد أن يعبر عنها تعبيراً صادقاً لهو خطأ فاضح وخطل في الرأي وضلال ، بل أنه مضيعة للجهد والوقت الذين ينفقهما الباحث في هذا السبيل . فالخمس عشرة سنة الأولى من القرن التاسع عشر شهدت في أوروبا ملايين من الناس يهرعون سُبُل عيشهم ويهربون من طرف أوروبا الغربي الى الآخر الشرقي ، فيتقاتلون

ويتناهبون ، فيفوز أحد الفريقين تارة وينخذل أخرى ، ويمسون جميعاً فرائس الضجر والكدر واليأس والجزع . ولعدة سنين تخال وجه الحياة ونظامها قد تغير بسبب هذه الحركة التي تنشط في بدء الأمر ، ثم تتباطأ وتخمد وتتلاشى كأنها لم تكن . فيسأل العقل عن الباعث لذلك وعن القوانين الضابطة لهذه الحركة العنيفة الهائلة ، فيذكر التاريخ جواباً على ذلك أفعال وأقوال نفر من الناس اجتمعوا في أحد بيوت باريس مسمياً تلك الأقوال والأفعال (الثورة الفرنسية) . ثم يتجاوز ذلك الى سرد ترجمة ضافية لحياة نابليون ولكل من خصومه وأعوانه ، شارحاً مدى تأثير الواحد منهم في الآخر، وفي الأحداث المعاصرة لهم جميعاً ، مؤملاً إنك في ذلك سوف تجد الحافز الأكيد لتلك الحركة الزاخرة ، وان تكتشف القوانين التي تضبطها وتسيرها والعقل لا يرد هذا التعليل ردًّا أو يرفضه بكامله رفضاً فحسب ، وإنما يتعداه إلى التنديد بهذه الطريقة العقيمة من البحث والتعليل الذي ينطوي على كذب وتمحك وخداع ، ذلك لأنها تبرهن على وقوع حادث قوي عنيف من جراء حافز ضئيل ضعيف . فالواقع ان قيام الثورة الفرنسية ، وظهور نابليون قد نجما عن مجموعة من الإرادات الفردية التي أذنت للثورة ولنابليون بالظهور في عالم الوجود التاريخي ، والجري مع الأحداث المندفعة في حركة دائمة ، وتساهلت في قبولها في أول الأمر ، بيد إنها عادت ونبذتهما ، وقضت على الثاني منهما قضاءً مبرماً ، لانهما لم يعودا يصلحان لخدمة التاريخ وتحقيق أهدافه في ظروفه المتبدلة وللتاريخ في ذلك شأن لا نعرفه ، وهدف يسعى لتحقيقه نجهله كل الجهل . وله فوق ذلك ارادةً حديديّة لا تخضع لسلطان الفرد مهما بدا في حين ما عظيماً في أعين الناس . ويزعم التاريخ أنه مع كل فتح لا بدّ من فاتح ، وفي كل ثورة لا بدّ من رجال يضرمون أوارها . فيجيب العقل هازئاً ساخراً ، ولكن ليس ثمة ما يدلّ على أن الفاتح أو الثائر هما سبب الفتح والثورة ، ذلك لأن قواعد الحرب أو الثورة لا يمكن أن تتركز في مجهود فرد واحد ونشاطه. ومثلُ علم التاريخ في تحليله هذا وأسلوب بحثه كمثل من ينظر إلى الساعة فيرى عقاربها تشير إلى العاشرة ، فيسمع عندها أجراس الكنيسة تقرع ، فيظن بل يجزم أن قرع الأجراس سببه وصول العقارب الى العاشرة . كأن هنالك آصرة أو علاقة وثيقة بين حركة العقارب والوضع الذي تتخذه ، وبين قرع الأجراس . أو كمثل القطار تراه

يهم بالسير فتسمع آنئذٍ صفارة الايذان بالسفر تدوي ، والصمّامات تفتح والدواليب تتحرّك ، فتظن أن هذا الصفير وانفتاح الصمامات وتحرّك الدواليب هو علة حركة القاطرة وسببها الحقيقي . ومثلُ هذا أيضاً اعتقاد الفلاّحين في روسيا بأن هبوب الرياح الباردة في أواخر فصل الربيع قد نتج عن ظهور براعم الزهر على شجر البلوط . ومع أننا نجهل السبب الذي حدا إلى مجيء الرياح وظهور البراعم في حين واحد فليس ثمة ما يدل على أن هبوب الرياح ناشئ عن هذه البراعم . إذْ كيف يصح ذلك ما دامت الريح على حظ وافر من القوة والشدة بحيث لا يؤثر فيها ظهور البراعم الصغيرة اللطيفة .

اننا في جميع هذه الأحوال إنما نرى حظ المصادفة في وقوع الحوادث، كالذي يجري في جميع نواحي الحياة ليس أكثر . ومهما أنعمت النظر في عقارب الساعة وتفحصت صمامات القطار ودواليبه وشجر البلوط وبراعم زهره ، وبالغت في الملاحظة والدرس ، فانك لن تعرف السبب الحقيقي لقرع الأجراس وتحرك القطار وهبوب الرياح في أواخر فصل الربيع عن هذا الطريق . وما عليك لكي تتوصل الى معرفة ذلك الاّ أن تبدل وجهة نظرك بالكلية ، وان تنهج نهجاً آخر في الدرس والتمحيص ، فتحاول معالجة القوانين التي تضبط حركة البخار وقرع الأجراس وهبوب الرياح وتقيدها وتسيرها .

ولكي تنكشف لك القوانين التي تضبط التاريخ وتسيطر على حوادثه وتوجه حركته لا بدَّ لك أيضاً من تبديل موضوع الملاحظة وحقل الدرس واتجاهه تبديلاً تامًّا ، وانتهاج سبيل آخر للوصول الى الحقيقة . وذلك بأن تدع الملوك والوزراء والقواد جانباً ، وان تلتفت الى العناصر الدقيقة العامة والعوامل المؤثرة التي تحفز الشعوب وتحرك الجماهير فانها هي التي تصنع التاريخ ان لم تكن التاريخ نفسه .

ومع أن مدى التقدم في الوصول الى فهم قوانين التاريخ عن هذا السبيل لا يزال غامضاً محدوداً لا يبعث على الرضى والارتياح ، الاَّ أن اثنين لا يختلفان في أنه السبيل الأوحد المفضي الى هذه الغاية النبيلة وان جهود المؤرخين في هذا المضمار لمن القلة والضآلة والضعف ، بحيث لا تقاس بجهودهم الجبارة في وصف وتفصيل وتحليل أعمال القواد والوزراء والملوك ، والانتهاء من ذلك كله الى نتائج وهمية خيالية لا يرضى بها العقل .

(السلط — شرق الاردن) عيسى القسوس

ظمآن

أنا ظمآنُ فهاتِ من كؤوسٍ مُترَعاتِ
خمرها للروح بعثٌ من حياةٍ كالممات
لا تلُمني في هواها أنا عبدٌ للسقاة
والمدام الصِّرف دِيني لا أُبالي بالنُّهـــاة
جفَّ كأسي أيها الســـاقي فأسرع بالحياة...!
أنا روحٌ مستطارٌ عذّبتني لهفَـــاتي
مثلما شبَّ ضرام النـــار شبَّت حُرُقاتي
أضرمتْ مِنّي كياني وسَرتْ في خطراتي..
ما أرى؟ هذا شهابٌ هائمٌ في الظلمات
يذرع الأكوان وثباً حائراً في الفَلوَات
أتُرَاه يطلب المســـكين سرًّا لا يواتي؟
أم تُرَاه عاشقاً تلك النجوم الحالمات؟
أم تُرَاه جُنَّ شوقاً بالبدور السافرات؟
إنه روحيَ لا يهدأ أو يرثي شكاتي...

***

أنا ظمآن فهاتِ من كؤوسٍ مُترعاتِ
يانديمي..وَيْك رفقاً بقتيل اللفتاتِ

وصريع الحدقات والجفون الساجيات
والكؤوس الصافيات قاتلاتي مُحْييِاتي
ملهماتي صلواتي !

أنا ظمآن فهات من كؤوس مُترعاتِ
كلما دار يميناً أو شمالاً قلتُ : هاتِ
اسقنيها من سُلافٍ أطلقتني من حياتي
فإذا بي كاهيف البرق ضجت ومضاتي
وإذا بي كخفيّ السحر لاحت معجزاتي
وإذا بي كأنين الهجو بُحَّتْ عبراتي
أو كلحنٍ مُوثق الأنات دامي النبرات ... !
أيها الساقي أما تسمع ما فاضت هتكاتي ؟
ها أراك الآن عنيّ سادراً في غفوات
كلهم باتوا سُكارى ما لكأسي لم تُوات ؟
ويح نفسي ..! ضنّ ساقيّ فجُنّت أمنياتي
وجفاني في فضاء الكون تدوي صرخاتي
تنهش الأشواق روحي تأكل الآلام ذاتي
فاتركوني في لظى الحرمان أشدو أغنياتي
هي كنزي وحياتي هي خمري وسُقاتي...

القاهرة محمد فهمي

القدر

تأليف ج . شلر

كان ألويسيوس ابن رجل من عامة الشعب استطاع بجده أن يرقى الى وظيفة مرموقة في خدمة إحدى الشركات واستطاع أن يعلم ابنه تعليماً طيباً . وأبدى الابن قدرة رشحته لأن يصبح أحد رجال الأمير العسكريين . وكان شابًّا موفور الشباب قوي العاطفة جامحها جريئاً ، وكذلك كان الأمير الذي وجّه نظره الى الشاب مشاركته اياه في ظروفه وطبائعه ، وسرّه منه سرعة بديهته وجاذبيته وخفة روحه وسعة معارفه التي جعلت منه كعبة الأبصار ، وموضع التقدير في كل اجتماع ، وشاء أن يستفيد من خدماته ، وقرّبه اليه وأضفى عليه من رعايته وثقته ، فأوصله إلى درجة لم يكن يحلم بها المحنكون من الساسة والاداريين الذين قضوا حياتهم الا ّ قليلاً في الرقي البطيء خطوة خطوة ، حتى أصبح هؤلاء يحقدون عليه وينفسون عليه مكانته . إذ وكل اليه الأمير أمر تصريف شؤون أمارته متفرغاً هو لملاذه وملاهيه ، وأنعم عليه بلقب الوزارة ، رغم أنه كان شابًّا لم يجاوز الثانية والعشرين من عمره .

ولم يكن الشاب ذا تجارب في الحياة ، وكان رقيه سريعاً ، فما رأى الأمراء وهم أعلا منه منبتاً ، وأشرف منشأ ، يتسابقون الى ارضائه ما وسعهم التسابق ، حتى استيقظت كبرياؤه ، واشتدّ صلفه ، وتعددت مظالمه ، فكثر أعداؤه ، وكانوا أقوياء دهاة محنكين ، يرقبون كل صغيرة وكبيرة يأتيها يحصونها عليه لتكون سلاحاً في أيديهم اذا دعا الأمر يشهرونه في وجهه ويقضون به عليه ، لا سيما وأنه كان يختار معاونيه وأحباءه وأصدقاءه دون تحرّ عما اذا كانوا أهلاً لذلك ، بل كان يختار اساءته حيثما اتفق . فمثلاً اختار الكونت جوزيف مارتنزو الايطالي ليكون في حاشية الأمير ليؤدي عنه واجبه في ارضاء سمو الأمير وتوفير ملاذه وتحقيق ملاهيه . لأن الويسيوس كان قد شغلته مهام الامارة عن أن يقوم بذلك الواجب .

ولم يكن الوزير ليخشى هذا الكونت وهو يعلم انه هو الذي رفعه الى تلك المكانة ، وانه هو الذي أحسن اليه . وأخذ الكونت يتقرب الى الأمير تقرباً أدناه من قلبه ومن نفسه ، وجعله يرى فيه ضرورة لحياته ليس له عنها غنى فزادت أهميته . ولكنه كان دائماً يظهر الخضوع للوزير ، عاملاً على ألا يثير شبهته أو شكوكه في مقدار اخلاصه له ، وتفانيه في تقدير جميله عنده . ولم يترك فرصة تمر دون أن يغتنمها في الفوز بتقدير الامير ولو كان ذلك على حساب كرامته ورجولته ودينه ، إذ كان في سبيل ارضاء مموهيشاركه آثامه وفجوره في سهولة ويسر ، كأنما قد نشأ وهو كونت في مباءة فسق . وكان موفقاً في اخفاء مغامرات سيده وطمس معالمها . وكان هو الرجل الوحيد المطلع على أسرار الأمير . وعندئذٍ بدأ يعمل لنفسه على حساب هذا الأمير الذي أصبح في يده ليصرفه كيف يشاء . كل هذا والوزير لا يدري شيئاً عن مبلغ ما وصل اليه الكونت من مكانة وسلطان .

وقد يبدو عجيباً أن يصل الكونت الى ما وصل اليه دون أن يعلم الوزير ، ولكن هذا كان يستبعد أن يصبح من رفعه بيديه مزاحماً له شديد الخطر عليه . وكان الكونت حريصاً كل الحرص على إخفاء خطواته عنه حتى يظل في أمان من انقلابه عليه . وأخيراً علم الوزير الأمر ، وعلم أن مثل ما حدث هو الذي كان يهوي بمن سبقوه في كرسي الوزارة ، فقلق كل القلق ، لا سيما وأنه كان قد اكتفى بما بلغه من نجاح ، فلم يعمل على ابقاء آصرة الود قوية تشده الى ركاب الأمير ، بل انشغل بالعمل المجدي عن الامارة ، ولم يعبأ بالابقاء على ما قربه في أول أمره الى الأمير .

ولم يكن الكونت ممن يقنعون بأن يكونوا تابعين أو مقودين . ولقد زادت مطامعه بازدياد نفوذه على الأمير ، فثبت من دعائم سلطانه وإثارة كبريائه ، لاسيما عند ما كان الوزير يعمد الى امتهانه ليذكره بماضيه وبمن أسدى اليه هذه اليد ، حتى لم يعد يحتمل ما كان يلقاه من الوزير ، فصمم على أن يضرب ضربته ودبر الأمر سراً ، إذ كانت الشجاعة تنقصه لمجابهة الوزير بالعداء رغم أنه أصبح في مثل قوته ونفوذه .

* * *

ورأى الكونت الايطالي أن تكون ضربته قوية حاسمة ، وإلا راح هو ضحيتها . وساعدته الأقدار على الوقوف على سر مؤامرة كان الوزير يدبرها مع بعض الأمراء المجاورين ضد الأمير الذي أحس أن الوزير أصبح خائناً لا يؤمن جانبه ، وأصبح واجباً عقابه والضرب على يده . واتفق مع الكونت على إجادة تدبير الأمر وجمع القرائن ضد الوزير .

وكان الويسيوس جاهلاً كل الجهل بما كان يدبر له حتى اللحظة المؤلمة التي هوى فيها من حالق مجده الى الحضيض .

* * *

وفي اليوم المعلوم ، وكان يوم عرض عام للقوات العسكرية ، وكان الوزير يشغل مركزاً ممتازاً فيها ، ويعتمد على هذا المركز في تمكين مركزه السياسي ودعم نفوذه الاداري. وكان ذلك المظهر الفخم الذي تبدو فيه كبرياؤه حين يتملقه المتملقون من ذوي الأغراض والحاجات ، وحين يطل من سماء عظمته على أتباعه وأعوانه ممن رفعهم الى المراكز العاليـة وهم ملتفون حوله كالهالة حول القمر . ورآه الأمير على النحو الذي ذكرنا فعلم خطورة هذا الوزير عليه بعد إذ صار كوكباً تدور حوله الكواكب . وبينما كان الوزير الأول ينعم بمظهره ومجده ، جاءه الكونت وقد تغير حاله ، فلم يعد ذلك الوديع الخجول المؤدب مطأطىء الرأس حياء ، بل وقف أمام الوزير وقبعته على رأسه ، وخاطبه في جرأة ، وناداه باسمه المجرد من الالقاب ، وطلب منه أن يسلمه سيفه باسم الأمير ففعل ، وأخذ الكونت السيف وحطمه وألقى حطامه بين قدميه ، وعندئذٍ تقدم بعض الضباط الذين جاءوا مع الكونت من الوزير ونزعوا عنه شاراته وأوسمته . والريشة التي كانت تزين قبعته . ولم يستغرق كل هذا أكثر من لحظة ولم يرتفع صوت معارض واحد ، بل خيم سكون رهيب ، فوقف الأمراء والنبلاء صامتين ، وقد اصفرّت وجوههم ، وزادت ضربات قلوبهم سرعة ، وكانت الدهشة تبدو واضحةً على كل وجه . واحتمل الوزير ما حدث له في شجاعة وجلد .

واقتيد الويسيوس خلال صفوف النظارة حتى آخر الميدان حيث كانت تنتظره عربة مغطاة يحرسها فريق من الفرسان ، وانتشر النبأ في المدينة انتشار النار في الهشيم ، ففتحت النوافذ ، وأطلت الوجوه على العربة التي كانت تحمل رجلاً هوى من سمت مجده .

وسارت به العربة حتى دار المحاكمة مدى سبع ساعات . وكان وحيداً لا مؤنس له ولا مواسي حتى انحطت قواه المعنوية ، وخارت قواه البدنية ، وغاب عن وعيه . ولما أفاق وجد نفسه في غرفة سجن مظلمة لاينيرها إلاّ بضعة أسلاك من نور القمر ، سمحت بمرورها القضبان المتشابكة في النافذة الوحيدة بالغرفة . ووجد الى جواره خبزاً جافـاً ، وأبريق ماء ، وبعض القش لينام عليه إذا ما دعاه داعي النعاس . وقبل الامر على علاته حتى ظهر اليوم التالي عند ما فتحت طاقة في سقف غرفته ، ورأى فيها يدين تدليان له سفطاً به خبز كالذي وجده الى جواره في أمسه ، فأحسّ برغبة في نفسه للتساؤل عما جاء به الى هذا المكان

وأي مصير ينتظره . وسأل ولكنه لم يُجَب، بل انسحبت اليدان، وأغلقت الطاقة، فعاد الى وحدته المريرة القاتلة التي قضى فيها قرابة خمسمائة يوم . واستطاع أن يعلم أن هذا السجن الذي يضمه بين جدرانه إنما هو من صنعه أمر بإنشائه منذ عهد قريب لينزل فيه أحد الضباط لا لذنب إلا أنه كان قد أساء إليه، وأن هذا الضابط قد أفرج عنه، بل وصار حاكم السجن .

ولحسن حظه لم يشأ حاكم السجن أن ينتقم منه ، وقد ألقى به القدر بين يديه ، مهيض الجناح مسلوب القوة، بل وساءه أن يناط به تعذيب الاسير، ولكنه لم يشأ أن يتنحى عن أداء ما كلف به نحوه، لأن النظام العسكري كان يقضي عليه بذلك . إلا أن قلبه كان رحيماً بالرجل فوكل أمره الى أحد مساعديه وهو واعظ السجن . ورأى هذا الواعظ الصالح أن من واجبه أن يخفف آلام السجين ويواسيه ، وقد قدر عليه أن يحرم كل رحمة . ولكن ادارة السجن لم توافقه على ما ذهب إليه من تفكير ، فقصد العاصمة وقابل الامير وسجد بين يديه. وناشده الرحمة والسماح له بأداء رسالته مع السجين على النحو الذي رآه إذ أنه أصبح مسئولاً عن نفسه وروحه، فمن واجبه أن يطهرهما حتى اذا غادر الرجل الدنيا غادرها وقد عرف سبيل الله . وبعد جهد عنيف سمح له الأمير بذلك .

***

وكان وجه الواعظ أول وجه إنسان رآه الويسيوس منذ ستة عشر شهراً وكان بليغاً في التعبير عن مبلغ فرحه وتقديره لجميل ذلك الواعظ صديقه الوحيد بين العالمين . والذي لم تستطع الايام أن تمن عليه بمثله ، وقد كانت الدنيا تحت قدميه . أما الواعظ فقد ارتاع لمرآه لأنه لم ير بشراً كما كان يظن بل رأى هيكلاً لا يكاد يتماسك زاحفاً اليه على قدميه ويديه ، ولولا بريق عينيه لظنه الواعظ بقايا ميت متحركة . لقد ذهب بكل ما كان فيه اليأس والأسى . وطال شعره كما طالت أظافره فأصبح يحكي الاشخاص الخرافين التي يخيفون بها الاطفال .

وكان جو ذلك الجحر الذي كان يعيش فيه فاسداً يقتل الاصحاء . وأسرع الواعظ الى الحاكم والتمس منه يداً أخرى لذلك السجين تخفف آلامه حتى يكون لوعظه وارشاده أثر . ولما كان هذا يتعارض مع التعليمات التي يتلقاها الحاكم في شأن هذا الاسير، فقد رأى الواعظ ألا مندوحة له من الذهاب الى العاصمة ليلتمس من الأمير أن يخفف عن

السجين بعض آلامه ، بعد أن بلغ ما بلغه من انحطاط واضمحلال ، فسمح الامير بذلك ، وهكذا تحسنت ظروف الويسيوس وتحسنت حاله .

وفي الأعوام التالية لم يجد العذاب الذي كان يلقاه في أعوامه الاولى،لاسيما وقد طرحت الايام بالوزير الذي خلفه وأعقبه في ذلك المركز آخرون كانوا أكثر انسانية،واقل رغبة في الانتقام منه . ومرت عشرة اعوام على الرجل في سجنه دون ان يقدم الى المحاكمة وانتهى به الأمر الى أن أنعم عليه الأمير بإطلاق سراحه ، على ان يغادر ارض الامارة،فغادرها الى أمارة أخري ، وانخرط في سلك الجندية وبرزته مواهبه العسكرية فارتقى في سرعة حتى ارتفع نجمه وتألق سعده . أما الأمير فقد كانت نفسه قد تغيرت فأصبح إنساناً لكل الناس،له قلب،وله عاطفة،وودعته كبرياؤه وصلفه ، واتصف بالتواضع والتقى ، وابيض شعره، وأفزعته رهبة القبر ، وذكر صديق شبابه وتنكيله به ، فبعث إليه أن عد إلينا فنعيد عليك ما كنت فيه ، ونداوي جراحك ، ونعوض عليك ما نالك منا . وكانت بالويسيوس رغبة ملحة في العودة الى وطنه فعاد وأحسن الأمير استقباله ، ولكن هذا الاستقبال على روعته كان مؤلماً ، فان الأمير أخذ يمعن النظر فيه كأنما ينكره ، أو يفتش عن ظاهرة في وجهه تذكره به ، وأخذ يعدّ تجاعيد وجهه التي كان له الفضل الاول في وجودها .

كان الاستقبال حاراً ولكنه كان ظاهرياً لا اخلاص فيه فان الثقة كانت قد فقدت وإذا ما فقدت الثقة ، فليس الى استعادتها من سبيل . كان كلاهما يخجل من الآخر ويخافه . وشاء الامير أن يرضي ضميره،فأعاد الى الوزير مكانته ومجده ، ولكنه لم ينجح في اكتساب حبه ، وصدق ولائه ، وقد كانتا أهم صدمتين ربطت بينهما في الماضي.واحس هذا وتمكن منه هذا الاحساس،فظل حزيناً آسفاً الى ان مات .

***

أما الوزير فلم تكن التجارب التي مرت به قد غيرت من صفاته أو أخلاقه ، بل ظل كما كان في أبان قوته ، وعنفوان سطوته ، ووافته منيته ، دون أن يندم على قسوة أبداها او ظلم أتاه ، بل كان كلما ذكر ما حلّ به زاد غلظة وقسوة وظلماً كأنما كانت الذكرى وقوداً لعاطفته المتأججة ، وزاد لانتقامه ممن رماهم تحت رحمته القدر.

[مترجمة] عبد المنعم صادق

سكرة الموت

يا من ستساعدونني في نزْعيَ الأخير . لا تقولوا لي شيئاً
بل اجعلوني أُنصت الى قليل من الإيقاع حتى أموت بسلام !
إن الموسيقى تسكّن ، تبهج . وتفكّ الأشياء من عقالها
إني أتوسل اليكم ! أن تحنوا على ألمي فلا تكلموه
فاني تعِبٌ من الكلام . ومن سماع ما يجوز عليه الكذب
فاني أفضل عليه الألحان التي أحسها دون ما حاجة الى فهمها . .
أنشودة تسبح فيها الروح — وبدون مجهود تنقلني
من الهذيان . الى الحلم . ومنه الى الموت ...

يا من ستساعدونني في نزعي الأخير .. لا تقولوا لي شيئاً
فلإنعاشي بقليل من النغم يهوّن عليّ
ستذهبون لإحضار مربيتي المسكينة التي ترعى قطيعاً
وستخبرونها إذ ذاك اني أتوق وأنا على حافة القبر
أن أسمعها تغني في خفوت أغنية قديمة
دارجة مكررة تلمس الشّغاف بدون كلفة ! . .
انكم لا بدّ واجدوها فأهل الأكواخ يعيشون طويلاً .
وستتركوننا معاً وحيدين
وسيلتحم قلبانا
وستغنّي لي بلكنة مرتعشة ويدها على جبيني
وربما كانت عندئذٍ هي الوحيدة التي تحبني ...
على ألحان هذه الأغنية سوف أتجه الى أيامي الأولى
حتى لا أشعر في ساعتي الأخيرة أن قلبي يذوب
حتى لا أفكّر
وحتى يموت الرجل
كما وُلد الطفل ...

باب الأخبار العلمية

من معجزات العلوم والفنون (١)

(١) تسخير الهواء ومنافعه

إذا ضغط الهواء ضغطاً يفوق كثافته الطبيعيـة ، فلا مندوحة له عن التمدد عند انطلاقه . وهذا بلا شك سرّ القوة التي تتولد من الهواء المضغوط ، والهواء المضغوط يدير المثاقب التي هي من الضروريات لاستخراج الفحم الحجري والحديد . كما يجدّد الهواء في آبار المناجم والانفاق ، ويحول دون تدفق الميـاه على العمال في خلال حفر المناجم ، ويساعـد أيضاً على ادارة دفات السفن التي تنقل الفلزات الى أفران صهرها ، ذات المراوح حيث يحتاج كل فرن منهـا الى زهاء ثلاثة أطنان من الهواء المضغوط ، وذلك لانتـاج طنّ واحد من الفولاذ ، ثم إنّ عوّاقات القطارات (فراملها) التي تنقل ذلك الفولاذ الى مصانع الذخائر الحربيـة ، يسيطر عليها الهواء المضغوط . وهذا الهواء عينه يقوم فى هاتيك المصـانع بتحريك الآلات المتذبذبة التي تساعد على سبك أجزاء الآلات « قطع التغيير » والمفاتيح الانكليزية والشواكيش . وفي البواخر ، والمـدرّعات ، والدبابات ، والطائرات التي تنتهي مراحلهـا في ميادين القتال ، يؤدي الهواء المضغوط أعمالاً كثيرة ومنها تنشيط آلات الهبوط وادارة الونشات والأدوات الرافعة للذخائر الحربية في السفن ثم اطلاق الطوربيد . ولا تتاح وقاية الانفاق الـكبرى التي تجتازها القطارات مارّةً تحت الأنهار وفي بطون الجبـال ، إلاّ بمجرى ثابت من الهواء النقي الذي يُـزَوَّد به عمالها حيث تتنـاول الشّـفاطات الـكبيرة ذات الأغطيـة ، الهواءَ المضغوط ، ثم تبثـه في الشقوق القاصية لتلك الـكهوف التي صنعها الناس ، كما يستعمل فى نفخ اطارات السيارات وفي ترطيب التبغ في مصانع السجاير .

وربما كانت أشهر منافع الهواء المضغوط

---

(١) العلم ينبوع القوة ومبعثها . وهو وحده الذي أفاضها على من نعرف من الاقوياء في العـالم والعلم الصحيح هو كشف أسرار الطبيعة وتسخيرها لمصلحة الانسان ، وما عداه فعلم لفظي لا يقدم الآن كثيراً ولا يؤخر — عبد العزيز فهمي باشا — من خطاب معاليه الذي ألقى فى دار حزب الاحرار الدستوريين لمناسبة حفلة عيد الجهاد في ١٣/ ١١/ ٤٦

استخدامه في آلات الثقب التي تستعملها فرق ترميم أراضي الشوارع أو في المباني التي تقام على الأسس الصخرية . وتستعمل المصانع الهواء المضغوط لأغراض مختلفة فتستخدم مجاري الهواء الساخن في تجفيف الأغذية ، وبذلك تستطيع اعداد ٢٥ مليون رطل منها ونقلها بالسفن الى مواضع استهلاكها مجردة من ٥٠ مليون رطل من المياه ، كانت تحويها قبل تجفيفها ، ويستعمل رشاش الهواء المضغوط ، في صقل الطائرات والسفن والعربات صقلاً متقناً بطبقات الدهان الذي تدهن به بغية تضليل الأعداء الذين يطمحون الى ضربها من الجوّ .

ويقوم الهواء المضغوط بادارة مجرى من الرمل صوب الأجزاء المعدنية ليزيل ما يعتورها من الخشونة وما يغشاها من الصدأ . وفي شركة الكهرباء العامة الأمريكية تربينة هوائية يزعم المطلعون عليها أنها لا مثيل لها في العالم ، اذ تقلد العمل الصحيح الذي تؤديه تربينة بخارية ، وذلك فيما عدا اعتمادها على الهواء المضغوط بدلاً من البخار المألوف ، لتوليد القوة الدافعة لها .

وتوجد تحت كثير من شوارع المدن الأمريكية وغيرها أنابيب هوائية تحرك المراسلات والرسائل البريدية والطرود من مكان إلى آخر (كما هي الحال عندنا في كثير من مكاتب التلغراف المصرية) وفي مدائن لندن وباريس وبرلين ونيويورك وبوسطن ، شبكات أنابيب كهذه ممتدة تحت شوارعها لنقل البريد . ويوجد تحت شوارع نيويورك وحدها ٢٥ ميلاً من هذا النوع . وكذلك تحت شوارع بوسطن ستة أميال منها ، وتبلغ الرسائل البريدية التي تنقلها كل يوم شبكة أنابيب الهواء المضغوط في نيويورك أكثر من سبعة ملايين رسالة . وفي بعض المصانع الكيميائية الأمريكية حيث تحدث التفاعلات الكيميائية في درجات حرارية منخفضة جدًّا ، يضغط الهواء المضغوط المجرد من الرطوبة كل التجريد ، بتحريك الصمامات وغيرها من المفاتيح التي تستهدف للتجمد من الرطوبة ، ويستعمل الهواء المضغوط لتحريك الخضراوات المخللة في محال تعبئتها وفي إبادة الحشرات بالتعفير وفي ادارة أجهزة حلب البقر والجاموس ، وفي إطفاء الحرائق في أمهات الغاز ، وفي تهوية مجاري القاذورات وفيما عدا ذلك من الأغراض

(٢) قثطرة تستخرج الدم

من الأعضاء البدنية الداخلية

نشر حديثاً في أمريكا نبأ طبي طريف هو تمكن بعض أطباء الولايات المتحدة الامريكية من ادخال قثاطر دقيقة جدًّا في العروق البشرية الممتدة من المرفق الى القلب

مباشرةً . ومن ثمة الى الكبد والكليتين أيضاً بغية سبر أغوارها جميعاً . ومنفعة هذه الطريقة ، تسهيل تناول النماذج كالدم مثلاً من أي عضو أو منطقة بدنية معينة ، يتوخى الباحث استكشاف حالتها . فيتبين له عند فحصها كيميائيًّا ، مبلغ قيام العضو المقصود بوظيفته الحيوية واختبار أطواره الصحية ما دام ذلك الدم المستخرج بتلك الوسيلة لا يمتزج بدم آخر مما يجري في غيره من الأعضاء البدنية .

ومما ينبغي اثباته في هذا الصدد أن هذا الابتداع العجيب ، ألماني الأصل ، إذ مارسه في جسمه ، منذ بضع سنين ، طبيب ألماني فحذا حذوه أخيراً ، فريق من أطباء مدينة أطلنطة ، عاصمة اقليم جورجية ، فوصفوا هذا الاختراع ولكنهم لم ينتحلوه لأنفسهم قط . ثم عكف الدكتور أندريه كورنند الطبيب المشهور في مستشفى بلفيو بمدينة نيويورك ، هو وطائفة من مرؤوسيه ، على احياء هذه الطريقة الباهرة وابلاغها مرتبة الكمال . ويعتقد أطباء أطلنطة أنها وسيلة يسيرة ، وإن خيل للناس أنها عسيرة وقد باشرها جميعهم أكثر من ٣٠٠٠ مرة في السنتين الماضيتين ، دون الاستهداف لأية عاقبة وخيمة .

والقثطرة أنبوب دقيق طويل مرن ، يدخله الطبيب في شقٍّ يشقه في وريد من أوردة المريض الممتدة في باطن مرفقه ، على أن يراقب ذلك العمل ويشرف عليه ، مشرّح حاذق ، حيث يلاحظه بفلوروسكوب مما تظهر عليه أشعة رنتجن ، حتى تصل القثطرة الى البطين الأيمن للمرء المزمع اختبار حالته الصحية . ومن القلب يتيسر مد القثطرة الى الأوردة المتصلة بالكبد والكليتين . بيد أنه لم يتيسر الى الآن بلوغ غيرها من الأعضاء .

(٣) التخاطب بأشعة ما دون الاحمر

إذا انتشر الضوء الأبيض انتشاراً تامًّا بمنشور زجاجي ، تمكّن المرء من رؤية طيف النور ، وهو خطّه المؤلف من ألوانه السبعة وهي البنفسجي والنيلي والأزرق والأخضر والأصفر والبرتقالي والأحمر . وهذه الألوان مجتمعة تمثل النور ، وإن اختلفت أطوال أمواجها . وهي تشاهد على تفاوت في قوس قزح . ولكن العين البشرية تعجز عن رؤية الأشعة الخفية التي في طرفي ذلك الطيف ، كما تعجز عن مشاهدتها في طرفي قوس قزح .

وتتولد الأشعة التي تحت الحمراء أو أشعة مادون الاحمر من مداخن البوارج ومحركات الطائرات والفلزات الساخنة مثل مكاوي

الثياب، ومن الغازات التي تنتشر من أنابيب عادم المحركات ، على شكل سحب . وتستعمل هذه الأشعة لاعطاء الاشارات الخفية على أن يكون مبعثها مصباح من المصابيح الكشافة ومستقبلها مرقب من المراقب الخاصّة بها . وعلى ذلك لا يستطيع الرقيب (الذي لا يُزوَّد بذلك المرقب) الشعور بتلك الأشعة وإن مرَّت بجانبه . وتتولد هذه الأشعة الخفية ، ليلاً ونهاراً وتخترق البخار الخفيف والضوء والضباب والدخان بسهولة .

* * *

ومن الأسرار الحربية التي تكشفت للحلفاء المنتصرين ، ولم تذع إلاَّ عقب انتهاء الحرب الأخيرة،أن الألمانيين واليابانيين كانوا يستخدمونها في محادثة جنودهم ، عبر الأنهار والأودية والمواضع التي لا يزيد بعد بعضها عن بعض على عشرة أميال وذلك في المراحل الأخيرة من تلك الحرب الضروس ، إذ اخترع علماء تينك الدولتين أجهزة تليفونية لاسلكية قوامها أشعة ما دون الأحمر ، لمخاطبة بعضهم بعضاً ، فكان الضابط يعمد الى ميكروفون فيتحدث فيه كيف شاء فتتحول كلماته تواً ، نبضات كهربية ، تحرك مرآة ، فتعكس هذه المرآة ما يقع عليها من هاتيك الأشعة الضوئية المتموجة في الأثير ، فتلتقطها آلة مستقبلة حساسة بالضوء حيث توجد مرشحات تجعلها خفية وتصيرها كلمات كأصلها . وكانت الآلات المستعملة لذلك الغرض تشبه مصابيح كهربية كشافة مثبتة على ركائز ثلاثية القوائم تتفاوت أثقالها بين ٣٠ رطلاً و٢١٠ أرطال انكليزية .

***

وقد تيسر لجنود الحلفاء في سنتي ١٩٤٤ و ١٩٤٥ الاستيلاء على أجهزة عدة من هذا الطراز فأرسلوها الى جامعة نورثوسترن حيث تولى فحصها وتحليلها الأستاذان و . س ، هكسفورد ، و أ . ه . ويندركوت الصغير ، المدرسان في شعبة الطبيعيات . فأسفر بحثهما عن تقريرهما بأن الأجهزة الألمانية كانت نموذجاً لدقة الصناعة إذ تحتوي على وحدات بصرية من صنع مصنع كارل زايس المشهور في مدينة « يينا » Jena . وهذا على حين كانت مثيلاتها اليابانية أمتن منها صنعاً ولكن كان ينقصها كثير من التعديلات البسيطة . إذ كانت صماماتها المضخمة للصوت ، تقليداً لأمثالها الأمريكية التي تمَّ صنعها منذ عشرة أعوام . ثم قال الأستاذ هكسفورد إن هذه الوسيلة من وسائل التخاطب اللاسلكي ، يتسنى الانتفاع بها في أزمان السلم وذلك في المسافات القريبة التي تكون في اتجاه النظر وهذا بصفة كونها ملحقة بالراديو . واذا أتيح تحسينها ، أمكن استعمالها في المرافىء البحرية والموانىء الجوية حيث يزخر الجو بموجات الراديو فتحول دون حدوث الالتباس هنالك في الوسائل اللاسلكية .

(٤) جهاز رائد لاسلكي يصلح للارشاد في جميع الأجواء

قلت في مقتطف مارس سنة ١٩٤٦ وذلك في وصف الرادار أي الرائد اللاسلكي « إن استخدام الصمامات الكهربية جميعها يتمّ طبقاً لقاعدة واحدة أو أكثر، من القواعد الآتية: —

« وهي توجيه الموجات القصيرة جدًّا لاظهار المواقع النائية للطائرات المعادية، كما يُصوَّب اليها الضوء لكشفها. وسوف تستعمل هذه الموجات في زمن السلم لأداء أعمال مدهشة في البيوت وفي الطرق العامَّة وفي البحار الهائجة وفي المصانع وذلك كتصريح أحد خبراء شركة وستنهوس الكهربية الصناعية »

* * *

وسرعان ما تحققت هذه الأمنية العلمية إذ وافتنا المجلات الامريكية بالنبأ الآتي: —

لقد أوتي جمهور المتحمسين للطيران بالطائرات الخفيفة، حافزاً جديداً يقوي تفاؤلهم في مستقبل الطيران الشخصي. وأعني به جهازاً اخترع حديثاً يتيح لهم الطيران بطائراتهم الخاصة أثناء الليل وأطراف النهار رغم ما يطرأ على الجو من التقلبات. وهذا الجهاز هو رائد لاسلكي خفيف الوزن، يحبو الطيارين الذين يطيرون طائراتهم الخاصة بعيون كهربية تخترق الأمطار وتتغلغل في الثلوج والظلام والضباب. وهو من مخترعات شعبة رياسة اللوازم العسكرية في الجيش الأمريكي. ويزن ١٢٥ رطلاً انكليزيًّا. ومن ميزاته أنه يفوق قليلاً جهاز الراديو المنزلي من جهة تعقيد تركيبه إذ أنه يدار بخمسة مفاتيح. ومن غريب أمره أنه قد بزَّ الكبير البالغ ثقله ٥٠٠ رطل. وذلك بما أدخل عليه من التحسين العظيم، الذي صيره أنفع من الصنف الثقيل السالف الذكر ذي المفاتيح الأربعة والثلاثين، الذي كان مستعملاً في الجيش الأمريكي في زمن الحرب السابقة. ولا تتطلب ادارته إلاَّ تحريك مفتاح كهربي حركة خفيفة، فيشغل منظاراً لاسلكيًّا من الأشعة الكهربية. فيقوم هذا المنظار بالتفرس في أي بعد من خمسة أبعاد. ويبلغ طول كشفها أربعة أميال حيث تظهر صور متألقة ضخمة للأنهار والمدن والأرياف وبه يتسنى أيضاً رؤية الأشباح على بُعد أقصاه ٩٠ ميلاً. أما المسافات المتوسطة التي تتفاوت أطوالها بين عشرة وعشرين وثلاثين ميلاً فانها تظهر للمشاهد مناظر مصغرة مختلفة المقاييس تزيد معلومات الطيار في أثناء اضطراب الأحوال الجوية. ويمكن استعمال الشعاعة التي تنير الأصقاع التي يهدف اليها الطيار كمقياس صحيح يدل على مبلغ حقيقة ارتفاع طائرته أيضاً. وهذا من شأنه تسهيل التقدير في الأقاليم الجبلية

تسهيلاً عظيماً حيث يضؤل نفع المقيـاس المألوف لذلك الغرض . وبما أن قوام ادارة هذا الرادر الصغير الـكشاف ، هي الذبذبات المتناهيـة في الشدة التي تستخدمها المنائر الجوية القانونية ، وهي كفيلة بالاستدلال على الموانىء المقصورة واتجاهها وبعدها وذلك بعبارات ترسمها موجات صوتية تتجلى على ذلك المنظار ، فعلى هذا النمط يكون جهـاز الرادر الذي وصفنـاه معواناً على الملاحة الجوية ، حيث يمد قائد الطائرة بعيون كهربية ثاقبة ومعلومات ثابتة خاصة بموقفه المضبوط من الجو الذي يكون سابحاً فيه . ويقول مخترعوه إن هذا الجهاز الذي أطلقوا عليه اسم أ. ب. س. A. P. S. رقم ١٠ هو الحلقة الأولى من سلسلة الرادارات الخفيفة الوزن السهلة الاستعمال التي شرعوا في انتاجها وأولها جهاز يزن ٧٥ رطلاً سيكون أبعد مدى من سوابقه .

(٥) سائل سحري يعجل النمو البدني

تيسر للعلماء حديثاً تنقية هرمون لانماء الجسم البشري ، يتاح به إنتـاج جيل من الجبابرة . ومن المحتمل أنه سيلقي ضياء على مشكلة داء السرطان . وقد أسفرت التجارب التي جربت في جامعة كليفورنيا ، عن دليل قاطع ، هو إن مادة واحدة هي مصدر النمو البشري . ونعني بها هرمون النمو الذي تولده الغدة النخمية . وهي غدة صغيرة جـداً في قاعدة المخ . وبلغ من عظم مفعولها ، أنها أيًّا كانت ضؤولة إفرازها ، الذي لا يُرى إلاّ بالمجهر ، فانه يعجل نمو الجسم ، كما ثبت ذلك في الحيوانات التي استعملت للتجربة . ولا عجب فان $\frac{1}{300000}$ من المليجرام منه يحدث نمواً محسوساً في الجرذان، على حين أن ثلاثة أضعاف هـذا المقدار ، تزيد جراماً واحداً يومياً إلى ثقل الجرذ . وكان الدكتور هربرت م . إيفانز الطبيب بجامعة كليفورنيا ، أول من استفرد هذه المادة الـكيميائية الجديدة ثم استعملت بخاصة لاختبـار الحيوانات ، إذ أعدت للتجربة جرذان استؤصلت غددها النخمية فتوقف نموها توقفاً تامًّا . ولـما بلغت (سن الشيخوخة) حقنت بذلك الهرمون فاستأنفت نموها بأقصى قوة الشبـاب . واطرد نموها حتى بلغت جرماً ضخماً جدًّا .

وقد دلت التجـارب التي جربت في العظام الـكسيرة ، أن ذلك الهرمون يساعد الجسم على الاحتفاظ بالنيتروجين ، بغية تركيب البروتينـات تركيباً كيميائيًّا . والبروتينات هي اللبنات الأساسية للنسيج الحي كله . أجل إن تأثير هذا الاكتشاف في علاج الـكسور ، طفيف ، ولـكنه خطير الشأن لأنه يلقي ضوءاً عظيماً على الوسائل الأساسية لنمو الخلايا البدنية . ومن ثمة على معضلة داء السرطان .

(٦) سر اكتشاف قاتل سوس القمح

قلت في مقال نشرته في إحدى المجلات في شهر مارس سنة ١٩٤١ بعنوان اللعنة الفرعونية الجهنمية على لصوص المقابر المصرية ما يأتي : —

قال الدكتور G. O. Kinnaman" كيناماني العالم الأميركي الأثري المشهور وهو أحد الأحياء القلائل الذين كانوا أول من ولج مدفن توت عنخ آمون ، وذلك في خطبة ألقاها في مدينة هوستون بولاية تكساس إن المذهب القائل ان أولئك الرجال ماتوا من لعنة الفراعنة ، لهو من الخرافات المحضة . ومع ذلك فاللعنة وقعت ولكنها ليست روحية كما يتوهمون . واعتقادي أن قبر توت عنخ آمون قد عولج عند اتمام تشييده ، بغبار مسحوق سام . وان كل ركن من أركانه ، وكل شيء من الأشياء التي وجدت فيه ، قد ذُرّ عليه ذلك المسحوق الزعاف ، فلما دخل أعضاء الجمعية التي اكتشفت القبر ، ولجه الهواء النقي أيضاً في الوقت عينه فأثار نقعه السام ، فتنشقه فاتحوه .

ولما انتابهم المرض فيما بعد ظهرت عليهم أعراض تشبهها في الالتهاب الرئوي فعولجوا بعلاجه فلم ينجع فيهم الدواء فاستفحل الداء حتى قضى عليهم . فالاعتقاد بأن مقابر ملوك مصر القدماء ، كانت تحميها من النهب والسلب وسائل خفية وأن نصيب كل من كان يعتدي عليها الاستهداف للكوارث أو الموت العاجل لا محالة — هذا الاعتقاد هو من المذاهب العتيقة الخاطئة الواسعة الانتشار . اهـ .

* * *

هذا ما آثرت الاستشهاد به على اعتقادي بأن قاتل سوس القمح هو ذلك المسحوق عينه كما سيثبت فيما يلي : —

روت جريدة الاجبشن مايل في ١٥ مايو ١٩٤٣ ما يأتي : —

« سر مدفن أحد الفراعنة يساعد على إطعام الجيش » .

أذاعت شركة الصناعات الكيميائية الامبراطورية في أحدث تقرير أصدرته أن الأسرار التي كشفت في أحد مقابر الفراعنة ، تكفل صون اهراء الحنطة من السوس فتضمن تغذية الجيوش البريطانية المرابطة في أرجاء الشرق الأوسط .

* * *

وقد تبين العلماء عند فتح أحد المقابر الفرعونية منذ أعوام ، أن القمح الذي وجد مدخراً فيه كان صالحاً للتغذية الصحية . وحينئذ عمدوا الى تحليل تربة ذلك القبر تحليلاً كيميائياً فتحققوا أنها تحتوي على

مسحوق ناعم جداً يقتل سوس القمح .

وأهم عناصر ذلك المسحوق هما فسفات الجير وكبريت العمود المصريان والطن منهما يساوي الآن عشرة جنيهات انكليزية . وبهذا الطن تتاح وقاية مائة طن من البُر .

* * *

ويُعزى حل اكتشاف سر هذا التركيب الكيميائي الجديد ، القديم ، لعالم مصري من علماء الحشرات في القاهرة هو الأستاذ الدكتور رزق عطية » .

وقالت جريدة المصري في اليوم نفسه ما يلي : —

وجد العلماء بعد تحليل التراب الذي في مقابر الفراعنة أنه يحفظ القمح من التعفن (كذا) و (الأصوب أن نقول التسوس) وبذلك أمكن حفظ مقادير هائلة (كذا) والصواب عظيمة منه في مستودعات لتموين الجيوش البريطانية في الشرق الأوسط. ومنذ سنوات ذهب العلماء الى هذه المقابر للبحث عن السبب في أن القمح الذي دفنه ملوك قدماء المصريين بقي سالماً ولم يتلف الى اليوم . وقد أسفرت أبحاثهم عن اكتشاف مسحوق لقتل السوس . وحضّره الدكتور رزق عطية الأستاذ في علم الحشرات المصرية وقد بدأ تجاربه بمواد أخذها من الأرض المصرية

* * *

وقد أثنت الصحف البريطانية اليوم على الدكتور رزق عطية أجل الثناء لأنه كان واسطة لإطعام الجيوش البريطانية » وأيدت سائر الصحف المصرية هذا النبأ في حينه

* * *

وعقدت جريدة « الديلي ميل » فصلاً لفتت فيه الأنظار الى البحوث التي يقوم بها الدكتور رزق عطية من كبار المتخصصين في علم الحشرات بوزارة الزراعة في القاهرة قائلة أنه هو الذي اخترع (قاتل السوس) لحماية القمح من آفاته المهلكة . ثم أشارت الى ما ذكره أحد رجال (شركة الصناعات الكيميائية الامبراطورية ، من أن (قاتل السوس) مصنوع من مواد موطنها مصر وأن التجارب دلت على أنه ذو أثر فعّال في الأجواء الجافة .

* * *

وتلقت وكالة الأنباء العربية من لندن ، إنه ينتظر أن يصل إلى مصر قريباً الدكتور كوين الخبير العالمي بالحشرات الزراعية للبحث مع وزارة الزراعة والسلطات المتحالفة بشأن خزن القمح في الشرق الأوسط .

ومما جاء في هذا النبأ ، أن اكتشاف الدكتور رزق عطية ، الذي تقدم ذكره يرجع إلى تجارب أجراها في قبور الفراعنة وعثر فيها على قمح يرجع إلى قرون متعددة . فتبين له أن التراب الذي يحيط بالقمح يحتوي على خواص معينة لحمايته .

(٧) الجهاز المسجل للحديث التليفوني

قلت في مقال نشرته في مقتطف مارس سنة ١٩٤٦ تحت عنوان « من معجزات العلوم والفنون » ومن المخترعات التي أسفرت عنهـا الحرب الماضية ، استعمال الصمامات الكهربية ، لتدوين المحادثات التليفونية في أثناء غياب صاحب التليفون ، عن مسكنه ، ريثما يعود إليه في أية ساعة ، فيتلوها ذلك الجهاز عليه بصوت جهوري » .

وقد جاءتنا المجلات العلمية الأمريكية حديثاً ، بوصف الجهاز المشار إليه ، فنزفه إلى قرائنا نقلاً عنها فيما يلي : —

وافقت اللجنة الحكومية الأميركية المتحدة التي استشارتها وزارة المواصلات هناك بشأن ضم الجهاز المسجل للأحاديث التليفونيـة إلى التليفونات مشترطة لذلك شرطاً واحداً إذ نصحت للمتكلم ، بملازمة الحرص في أقواله وذلك إنه عند شروع المخاطب « بكسر الطاء » في حديثـه ، تصدر من الجهاز إشارة أوتوماتيكيـة ، تحذر المستمع بأن هناك أسطوانة تسجل عليهـا كلماته التي يفوه بها وقتئذٍ . وقدرت الشركات الأمريكية الثلاث التي تصنع هاتيك الأجهزة عدد ما تم صنعه منها حتى أواخر سنة ١٩٤٦ بنحو ١٩٠٠٠ جهاز بما فيها المستعملة لدى القوات الحربية .

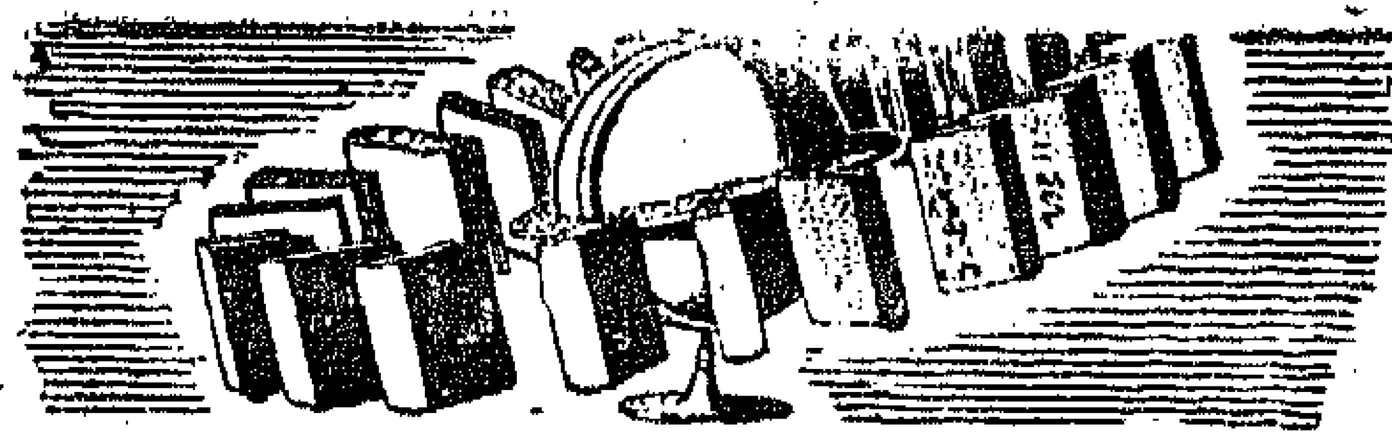
ومما ينبغي ذكره أن شركة أمريكا للتلغراف والتليفون لم تدخر وسعاً في مقاومة هذا الاختراع عند بدء ظهوره ، محتجة بأنه سيعبث بالسرية الواجبة في المحادثات التليفونية . ومع ذلك فإن هذه الشركة عادت فأعلنت أنه ما دامت سرية الحديث ، ستكون مصونة كما يجب ، فلا اعتراض لها على القيام بخدمة ممتازة لمشتركيها الذين يبغون سجلا دائماً لتدوين ما يفضون به لمخاطبيهم . وكذلك لقيد ما يقال لهم تليفونيًّا في حينه . وهي تكفل إتمام هـذا المشروع بثلاث وسائل . وهي أولاً — جهاز أوتوماتيكي ينبه على الصوت إذ يولد إشارة واضحة تتكرر في فترات وجيزة في أثناء المحادثة في حالة قيام المسجل بعمله .

ثانياً — وجوب وضع علامة نجمة أو أية سمة مميزة ، تجـاه اسم المشترك التليفوني الذي يستعمل الجهاز المسجل للكلام

ثالثاً — قيام الشركات التليفونية وصناع الأجهزة المتقدم وصفها ، بالتضافر بعضها مع بعض ، في سبيلٍ نشر هـذه الأجهزة وتعليم الجمهور معنى الإشارات التحذيرية .

ثم أعلنت أيضاً اللجنة التي نحن بصددها ، أنها إنما تؤيد استعمال الأجهزة السالفة الذكر التي توصل بخطوط التليفون ، لا الأجهزة التي تلتقط الأحاديث عن طريق ميكروفون يوضع بقرب سماعة التليفون .

عوض جندي



مكتبة المقتطف

رباعيات عمر الخيام

بقلم توفيق مفرج — ١٢٨ صفحة بالالوان

منذ أكثر من خمس عشرة سنة أخرج الاستاذ توفيق مفرّج كتابه «آلام وأحلام» الذي ضم مجموعة من خواطر المؤلف أرسلها شعراً منثوراً في نغم متساوق وعاطفة جياشة، وكان لي نصيب الاشادة بذلك الكتاب في هذه المجلة وقتذاك، ثم مضت الأعوام والأستاذ توفيق مفرّج في عزلة عن قرّائه حتى طلع عليهم أخيراً بكتاب جديد عن رباعيات عمر الخيّام. طبعه على ورق جميل بالألوان وزينه بواحد وثلاثين رسماً عن حياة عمر الخيام.

وليس الكتاب ترجمة لرباعيات الخيّام، وإنما اتبع المؤلف فيه غير ما اتبع كثير ممن نقلوا إلى العربية هذه الرباعيات سواء عن الانجليزية أو الفارسية ... فقد درس المؤلف فلسفة الخيام دراسة تعمق واستوعب في نفسه هذه الفلسفة والاتجاهات الخيّامية ثم خرج من الجو الخيّامي بروح ونغم جميل.

فهو قد وضع رباعيات الخيّام من خلال فلسفة الخيّام، شرب كأسه فاستطاع أن يؤلف من النشوة التي أخذ بها أناشيد جديدة فيها خمر معتقة قديمة، لها جمال الجديد في تصويره وجلال القديم في تعبيره. ولقد قال في المقدمة النفيسة التي صدّر بها تلك الرباعيات:

«لقد درست الفارسية خصيصاً لأستعين بالأصل الفارسيّ، ثم استعنت بالوضع الانكليزي، الذي وجدته بعيداً كل البعد عن الأصل الفارسي . . . إني لم أترجم عمر الخيّام ترجمة حرفية، ولم أتحرَّ الكلمات والجمل، ولم أحرص على مراعاة الأصل، بل أخذت المعنى ووضعته وضعاً جديداً، حتى إذا شئت أن تعود به للأصل الفارسيّ فقد لا تجد تشابهاً أو تقارباً أو تماسكاً بين الأصل والفرع»

«لقد نزعت عنها الثوب الفارسيّ، وألبستها بالعربية روح الخيّام الشاعر الفيلسوف. لقد سكبت روح عمر الخيّام في روحي، ومزجت نفسه في نفسي، وأطلّت روحي إلى الحياة من ذات النافذة التي أطلّت روحه منها».

هذه هي الطريقة التي انتهجها الأستاذ توفيق مفرّج فأحسن النهج ووفّق في الوصول إلى أفق الخيّام ، وشرب من كأسه فانتشى ، ولم تأخذه النشوة الساحرة دون أن يستطيع التعبير الصادق عن تلك الروح التي فتنت الكثيرين وخلدت في آداب الأمم بفلسفة وشعر خالدين على مرّ الزمان . وإننا لنعتد صدور هذا الكتاب فتح جديد في اللغة العربية .

ويكفي تقريظاً للكتاب الرسالة التي أرسلها رفعة النحاس باشا إلى مؤلفه بعد اطلاعه عليه وهي منشورة على غلافه الخارجي .

حسن كامل الصيرفي

صور من التاريخ العربي

للاستاذ نقولا زياده : ٣٠٤ صفحات « دار المعارف في القاهرة »

تحضرني وأنا ماضٍ في الحديث عن كتاب (صور من التاريخ العربي) كلمة ذكرها فيلسوف الفريكة المرحوم أمين الريحاني يوم جاس ديار نجد باحثاً منقباً ، وعندما حملته الركائب إلى (القاع) في قصيم نجد قال رفيقه (بداح) .

« والله يا هذال ان بلاد نجد عجيبة » فأجابه (هذال) بقوله : وأعجب منها يا بداح نحن الذين نعرف ما فيها ! »

والواقع أننا كأمة ناهضة تتشوف الى الاستقلال ، وتصبو الى تحطيم الأغلال ، وتتطلع إلى فجر يوم جديد مقصرون جدًّا في معرفة أحوال بلادنا والوقوف على الأحداث التاريخية التي مرت بها ، وعلى النقيض منا الغربيون فهم قوم يختلفون عنا بعنايتهم التامّة ببيوتهم ومدارسهم،إذ يوجهون النشء إلى مدارسة البيئة وما يلابسها ويصدر عنها ، ولهذا الغرض عينه تعنى المدرسة والأسرة الغربيتان بتنظيم الرحلات العلمية فيطوف الطلاب الناشئون في البلاد عرضاً وطولاً ، يتنسمون أخبارها ويستروحون آثارها ، ويتدارسون معالمها وعادات سكانها في مختلف نظم الحياة ، بينا نحن معاشر العرب ندعو إلى امبراطورية شاملة ونهتف باسم مصر والسودان ، ولحج وعمان ، ونسعى الى تحرير طرابلس ومراكش من ربقة الاجنبي دون أن يعرف أكثرنا أين تقع طرابلس ! وفي أي الأقاليم تقع تونس !

ولكن الأستاذ نقولا زياده هذا الشاب الفلسطيني الواعي راد بقاع سوريا الطبيعية ساحلاً وداخلاً ، وعقد الفصول الضافية عما شاهده في رحلاته الممتعة من آثار بعلبك وتدمر وجرش والبتراء وأماكن تاريخية لها قيمتها الاستراتيجية في تاريخ العرب وفتوحهم كالسهول التي جرت فيها معارك (مؤته) و (اليرموك) و (حطين) و (عين جالوت) وضمها في كتاب أخرجه للناس تحت عنوان « صور من التاريخ العربي قال في مقدمته :

« أيها القارىء الكريم ! في التاريخ العربي قاعات قلّ داخلوها ، وسبل قلّ طارقوها ، وزوايا قلّ والجوها ، وفي هذه القاعات والسبل والزوايا خير كثير ، لو أنصفها الناس ! وهذه الصور التي أقدّمها لك هي ثمرة جهد بذل في سبيل التعرّف إلى تلك النواحي المهجورة من تاريخنا !

ولقد لقيت في جمعها متعة ولذة ، رأيت ان لا أحرمك منهما ، وآمل إن أوفق إلى إثارة رغبتك في الكشف عن صور مماثلة لها وما أكثرها . . . ! »

وفصول الكتاب رحلة هذية الفوح ، معطرة الجنبات ، نظم عقدها الأستاذ زياده وراح يتنقل بالقارىء من فنن إلى فنن،ومن أيكة إلى أخرى ، فهو يقف بك في مدينة انطاكية ، ويسير بك إلى كنائسها الجميلة المزخرفة بالجص المذهب والزجاج الملوّن والبلاط المجزّع ثم يصطحبك إلى أسواقها المستطيلة ومبانيها الجميلة ويتابع سيره إلى حلب الشهباء عاصمة بني حمدان فيصفها وصفاً مغريًا مستحبًا ! . ويسير إلى دمشق المدينة الخالدة خفيفاً طائراً ، ويحط عصا تسياره في ندوة طبيبها الشهير اليبرودي فيجد الحديث قد دار حول الخصال المفروض توفرها في الشخص الذي يود ان يكون طبيباً ، وبعد أخذ ورد في أصول الموضوع وفروعه يبارح الرحالة الفلسطيني ندوة اليبرودي الى مؤتمر مدرسين عقد في أحد أبهاء دمشق ، وفيه دار حديث هادىء ونقاش مستمر حول الغايات التي يجب أن يضعها المعلم والمتعلم نصب أعينهما ، وما هي الا لمحة عابرة حتى نرى المؤلف قد هبط القاهرة وحضر جلسة عقدت في مسجد السلطان حسن اقتصر فيها البحث حول (كاتب الديوان) والشرائط التي يتحتم توفرها فيه .

وكانت إحدى الصور النفيسة التي طالعنا المؤلف بها عزلة الامام الغزالي في بيت المقدس وحلقات الوعظ التي كان يعقدها في المسجد الأقصى المبارك ، وكان من همة الأستاذ زياده أن شد الرحال الى أبرز الأماكن الأثرية في بلاد العرب ، وراح يحدثنا بلباقة المؤرخ الخبير وأسلوب المحقق المعتدل،عن صلة كل موضع زاره بالفتح الاسلامي الأول ورجاله الغر الميامين الذين كونوا من شتات البدو دولة، وبعثوا من جوف الصحراء حضارة ، ونفخوا في قلوب العرب من روح الله ، فطمحوا الى ملك كسرى وهم جياع، وسموا الى عرش قيصر وهم عراة، وصمدوا لحكم العالم وهم سذج !

وفي آخر فصول الكتاب يطالعك المؤلف بصفحات مطوية من تاريخ العرب تناول فيها عفو معاوية ودهاءه في استقبال نسوة من العرب ناصبنه العداء في سبيل نصرة الامام علي،وحلم المأمون الى آخر هذه اللوحات الزاهية من صور السلف الصالح !

هذه إلمامة عابرة عن كتاب يزيد في شموخ العربي واعتزازه بأمته ومفاخرها عندما يقلّب صوره ، ويتلو فصوله ، ويستعرض لوحاته ، وتوصلاً للهدف القومي الذي يرمي إليه الاستاذ زياده في مؤلفه النفيس أقول لإخواني من الشباب العربي المثقف : تعالوا سيحوا مع المؤلف تبدُ لكم حقائق نقلها الغربي عنا ملتوية مشوّهة ! وسيروا مع هذا الشاب العربي المؤمن إلى بلاد انبثق منها نور النبوءات والمكرمات تروا أنكم أحفاد شعب طيب سار في ركب الحضارة قدماً فكان المجلي الموهوب .

(بيت المقدس — فلسطين) البدوي الملثم

ثلاثة دواوين

١ — ليالي الشاطىء : للاستاذ مصطفى عبد الرحمن — القاهرة
٢ — العرائس : للاستاذ ابراهيم العريض — البحرين
٣ — وابل وطل : للاستاذ يعقوب ابراهيم عبوديا — بغداد

قبل أن نتكلم عن هذه الدواوين الثلاثة نلم في سطور قليلة بمدارس الشعر ومذاهبه منذ فجر نهضته الحديثة مستخلصين من تلاحم هذه المدارس واختلاطها بعضها ببعض خيوطاً تحدد لنا المعالم بوجه التقريب . وقد نكتفي بخيط واحد عن خيوط كثيرة .

كان سامي باشا البارودي هو الفجر الرائع لأحياء الشعر العربي القديم بروعته وجزالته ، ثم تلاه شوقي وحافظ والزهاوي ومطران . . . .

وقد كان شوقي أعلا قمة تمخضت عنها المدرسة القديمة وكأنما وضعت تلك المدرسة كل عبقريتها في شوقي لتتحدى به الاجيال ، بل لقد تحدى شوقي المدرسة الحديثة بتمثيلياته الشعرية وكما اختتمت العصور الوسطى أروع ختام بشكسبير ومؤلف (دون كيشوت) كذلك انتهت المدرسة القديمة بموت شوقي انتهاء رائعاً كما تغرب الشمس وسط أبدع مشاهد الغروب .

أما المدرسة الحديثة فنجد بذورها عند مطران وعبد الرحمن شكري متأثرة أحياناً برواد الشعر في الشام والمهجر . فعلى شعر مطران نشأ ناجي وعلي طه وأبو شادي وللأخير فضل التوجيه أكثر من فضل الانتاج على المدرسة الحديثة ، إذ أنشأ مجلة الشعر المعروفة باسم « أبوللو » التي كانت معرض نتاج هذه المدرسة من الشعراء المحدثين أمثال الهمشري وصالح جودت والصيرفي والشابي (أبو القاسم الشابي) .

اما شكري فقد أنشأ مدرسة قوامها العقاد والمازني — اللذان وضعا بنقدهما الاساس الصحيح لتذوق الشعر الحديث ، وكما كان مطران عماد مدرسة بأكملها تقريباً فقد جاء العقاد

عماد مدرسة على حدة تمتاز بتعمق الفكرة وتتبعها واستقصائها دون العناية الواجبة بالحافز الشعري (Emotion) ما دام المعنى جديراً بالقول موسوماً بالابتكار وتعتبر ملحمة العقاد (ترجمة شيطان) أبدع مبتكرات تلك المدرسة وقد انتظمت هذه المدرسة تقريباً جميع شعراء دار العلوم .

والدواوين الثلاثة التي بين أيدينا هي صدى من قريب أو بعيد لهذه المدارس المتفاعلة في مصر والبلاد العربية، وهي برهان على أن الأقطار العربية تعيش في جوّ ثقافي واحد رغم تقسيمها السياسي .

أما أولها وهو ديوان (ليالي الهاطىء) فهو امتداد لمدرسة المهشري وناجي ولكنه مطبوع بطابع خاص هو الطابع الغنائي . وإذا قلنا أن كتاب الاغاني يحوي طائفة من الاشعار تتميز بطابع خاص عن بقية الشعر العربي فان ديوان ليالي الهاطىء لأقرب إلى الرقة الغنائية من أي ديوان آخر، إسمعه يقول :

آه لو تسمعني أشكو الجوى يا حبيبي آه لو تسمعني
وترى القلب ونيران الهوى ولظاها بات يرعى بدني

ثم يقول : —

أيها الشاطىء قد طال بنا أمدُ البعد ولما نلتقي
أين أيامٌ قضيناها هنا مشرقاتٍ من سناك المشرق !
أتعودين مع الصفو لنا راقصاتٍ يا ليالي الزورقِ !؟

* * *

أما ديوان العرائس للأستاذ ابراهيم العريض فيذكرنا بشاعرين من نبغاء الشباب هما أبو القاسم الشابي والتيجاني يوسف بشير ، وشعر هذا الديوان مع ما تركه هذان الشاعران ثروة ومعين لا ينضب لمدرسة الشعر الحديث . وفي ديوان العرائس نجد الصور الجميلة الفاتنة والمعاني المشرقة النابضة تختال أحياناً وتتراقص أحياناً في أنغام غاية في العذوبة ، وجمال الإيقاع . ولا يمكن أن تسمع أو تقرأ قصيدة من هذا الديوان دون أن تحس بإحساس يرفعك عن مستوى الأرض الى دنيا الجمال السامي، بينما تستروح روحك شجناً دفيناً في الأعماق. اسمعه يناجي إبنته :

طبتِ يا ليلاي نفساً فافهمي ليس كالشاعر في الناس مُعنّى
هو من أحلامه في جنّةٍ فإذا حدّث عنها قيل جُنّا

كلنا طائره في قفصٍ إنما يُطلقه المجدود منّا
لو درى الضاحك في سكرته أنه يشرب دمعاً لتأنّى !!

ومن غزله الرقيق :

أريني ناظريكِ فما صحا قلبي بإدمانه
لأسبرُ فيهما غور المحيط وراء شطآنه
وخلّي خدك الوردي يفتنني بألوانه
لأنثر فوقه قبلاً وأطفىء بعض نيرانه !!

* * *

أما ديوان «وابل وطل» فرغم أنه وصلني من بغداد وان شاعره يعيش في العراق فانك لو جهلت شاعره ومنبته لنسبته الى شاعر في مصر أو الشام ، فرغم أن بغداد كان يجلجل فيها الى عهد قريب شعر الزهاوي والرصافي عليهما رحمة الله . ورغم أن المذاهب الشعرية هناك لا تتصارع بالعنف التي تتصارع به في مصر والشام . الاّ أن ديوان «وابل وطل» قدم لنا برهاناً قاطعاً على أن التطور الشعري ينتظم الاقطار العربية كلها ، وان البراعم المنثورة في هذا الديوان هنا وهناك ، والحنان والانفعال المشبوبين بين الأبيات والمقاطع ، تجعلنا نأمل خيراً في هذا الشاعر ، ولسوف يطلع علينا بديوانه التالي وقد تفتحت أزهاره ووروده عن أريج يعطّر أرجاء الأقطار العربية فضلاً عن العراق .

ومن صوره الشعرية :

ملأت يدي اليمنى بلؤلؤ أدمعي وقلبيَ في يسرى يديَّ ذبيحُ

ومن شعره المفعم بالحنان :

يا زهرات البنفسج العطِرِ بالله لا تسأمنّ من سمري
قد ضقت ذرعاً بليلتي وبذي الـكواكب الزاهرات والقمر
قد ثقلتْ وحدتي عليَّ وقد جدّدتْ الذكريات لي حزَني
ما أروع الذكريات حافلةً تشغلني في اصطخابها الحسَن
تدبُّ فيها الحياة في صور تفرحني تارةً وتحزنني ...

واننا نلاحظ على هذه الدواوين ندرة أشعار المديح والمناسبات وهذا مما يفعم نفوسنا بالأمل والغبطة إذ نرى ما نادينا به منذ سنوات في ديواننا [أغاريد] قد استجابت له أنفس الـكثيرين من الشعراء في الأقطار العربية ، واننا لسعداء اذ نجد اخواناً يشاركوننا نفس الآمال والمشاعر في كل قطر عربي .

محمد فهمي

فهرس الجزء الثالث

من المجلد العاشر بعد المئة

١٦٣ التعليم والتربية : اسماعيل مظهر
١٦٧ النظائر وكيمياء النواة : جريس الشرايحه
١٧١ الرادار كيف يشتغل : نقولا الحداد
١٧٦ الثار (قصيدة) شاعر البراري
١٧٧ الأدب الرخيص
١٧٩ احمل قلمك واتبعني ! : عيسى ابراهيم الناعوري
١٩١ الحضارة واختلاف الطبائع : ع . ش .
١٩٥ العلامة اللغوي الأب انستاس ماري الكرملي : محمد فاتح توفيق
٢٠١ كيف تحفظ صحتك — عيناك : فهمي عطا الله
٢٠٢ أنغام باكية (قصيدة) : عفيفي محمود عفيفي
٢٠٣ الحرب والسلم : جريس القسوس
٢١٩ ظمآن (قصيدة) : محمد فهمي
٢٢١ القدر : تأليف ج شلر : ترجمة عبد المنعم صادق
٢٢٦ سكرة الموت (قصيدة) للشاعر الفرنسي سوللي پرودوم ترجمة ج. توفيق نهرا
٢٢٧ باب الاخبار العلمية * من معجزات العلوم والفنون (١) تسخير الهواء ومنافعه (٢) قنطرة تستخرج الدم . (٣) التخاطب بأشعة مادون الاحمر (٤) جهاز رائد لاسلكي يصلح للارشاد في جميع الاجواء (٥) سائل سحري يعجل النمو البدني (٦) سر اكتشاف قاتل سوس القمح (٧) الجهاز المسجل للحديث التليفوني : عوض جندي
٢٣٦ مكتبة المقتطف * رباعيات عمر الخيام : حسن كامل الصيرفي . صور من التاريخ العربي : البدوي الملثم . ثلاثة دواوين (١) ليالي الشاطيء (٢) العرائس (٣) وابل وطل : محمد فهمي

ملحق

١ — ٤٨ المسرحية عند شوقي : تأليف محمود حامد شوكت

لواحق المقتطف الشهرية

المسرحية

في شعر شوقي

تأليف

محمود حامد شوكت

ليسانس في الادب الانجليزي

ودبلوم معهد التربية العالي وماجستير في الآداب

طبع بمطبعة المقتطف والمقطم

١٩٤٧

تقديم

هذه رسالة في « المسرح عند شوقي » ، اطلع صاحبها على بعض المسرحيات الاوربية وما كتب حولها من نقد أثناء دراسته الجامعية ، وتوسع في هذه الدراسة بعد نهاية هذه المرحلة ، ثم اتجه إلى الأدب العربي يحاول دراسة ظواهره المسرحية واستقر في النهاية على ظاهرة منتظمة في تاريخه ، وهي بضع مسرحيات ألفها أحمد شوقي بك في الأعوام الأخيرة من حياته .

وكان على الباحث استيفاء البحث عن جميع هـذه المسرحيات ، من مطبوعة ومخطوطة وناقصـة ، ودراسة المسرح المعاصر ومدارسه ، ودراسة حياة الشاعر بمقوماتهـا السياسية والاجتماعية والأدبية ، حتى يمهد السبيل لدراسة هذه المسرحيات دراسة ترتكز على أساس سليم ، ودراسة فنه المسرحي كمركب من عناصر تدور حول نواة رئيسية وتتطور في اتجاه خاص ، ثم توضيح تأثير هذه المسرحيات في كتابة الكتاب من بعده .

وبذلك انقسم الموضوع إلى مقدمة عامة عن المسرح الاوربي ، الذي أخذ شوقي فكرة مسرحه عنه ، ويزداد اتصالنا به يوماً بعد يوم . ثم عرض عام للظواهر المسرحية في الأدب العربي وتعليل عدم اكتمالها لصورها الفنية ، وعرض عام للمسرح المصري من أيام الحملة الفرنسية حتى عصر إسماعيـل . ثم لزم عرض أكثر تفصيلاً للمسرح المعـاصر لشوقي ، والذي مهد لظهوره بحيث تفاعل مع المقومات الأدبية للشاعر ، وتبع ذلك عرض لفن شوقي كمركب يدور حول وحدة ، ثم عرض مفصل لكل مسرحية وقيمتها الفنيـة وتأثرها بغيرها ، ثم تأثير مسرح شوقي في المسرح الذي أتى بعده .

وكان من اللازم لاستيفاء البحث من الاطلاع على مخطوطات ومجلات ومسرحيات عفا عليهـا الزمن ، والاتصـال برجال المسرح ، وبمن اتصلوا بشوقي . ومن تحليل دقيق لبعض المسرحيات التي لم تعد تمثل حتى اليوم ليكون البحث على أساس صائب قدر الإمكان .

وقد كان المرجع الرئيسي الدائم حضرات الأساتذة المشرفين ، فلصاحب العزة الأستاذ احمد بك أمين ، ولحضرة الدكتور شوقي ضيف ، ولحضرة الدكتور صبري فهمي شكر عميق على الجهد والعطف والتشجيع والتوجيه القيم الذي شملوا به صاحب هذه الرسالة .

وللشاعر خليل بك مطران ولرجال الفرقة القوميـة فضل يشكر على إدلائهم بآرائهم فيما يتصل بالموضوع ، وللأستاذ حسين شوقي نجل الشاعر الشكر على المساعدة في الاطلاع على المخطوطات والإدلاء بالمعلومات التي تتصل بحياة الشاعر الخاصة .

المؤلف

مقدمة

المسرح الأوروبي

١ — المسرح اليوناني : منشؤه الغنائي . تطور المأساة وأهم كتابها . تطور الملهاة وأهم كتابها . المسرح الإغريقي وشكله . النقد المسرحي وكتاب الشعر لأرسطو . قيمته ومدلوله من الوجهة العامة والوجهة الخاصة .

٢ — المسرح الروماني : تقليده للمسرح اليوناني . انحطاط المأساة . تطور الملهاة . أثر الحياة الاجتماعية وطبيعة الشعب في انحطاط الادب المسرحي . النقد وكتاب الشعر لهوراس .

٣ — المسرح في العصور الوسطى : المسرح الشعبي المتجول . المسرح الكنسي ونشأته . خلط النقاد والمؤلفين بين مذاهب الشعر الغنائي والشعر المسرحي . الكوميديا الإلهية لدانتي .

٤ — المسرح في عصر النهضة : الحماس للتراث الكلاسيكي . مظاهره في إيطاليا وفرنسا وانجلترا . سيطرة الآراء الكلاسيكية والمؤلفات الكلاسيكية . هبوط موجة الحماس وظهور الألوان المحلية في آداب البلاد المختلفة . التراث الكلاسيكي في إيطاليا وفرنسا : كورني وراسين وفولتير . المسرح الرومانتي في انجلترا : مارلو وشكسبير . انتشار المذهبين في أوروبا .

٥ — الدراسة الحديثة : النقد الكلاسيكي وسيطرته على النقاد حتى القرن السابع عشر . أوجييه ودريدن وحركة التحرر ، الدرامة الحديثة وبواعثها الاجتماعية . أهم خصائصها . النقد الحديث .

٦ — النقد المسرحي : الأسلوب العلمي وعلم النفس الحديث . القيمة الخارجية للمسرحية. الممثل والجمهور . القيمة الذاتية للمسرحية : الموضوع . الشخصيات . الحوار. صلة القيمة الخارجية بالقيمة الداخلية . تعاون المخرج والمسرح والممثل على تجسيم ما يصوره الكاتب . اتكاء النقد على المسرحية في تحديد قيمتها الفنية .

الفن المسرحي فن عريق في التاريخ، متسع المدلول، بعيد الأثر في النفوس ، يتخذ جذوره، ويجتذب إليه عقول المؤلفين والنقّاد ، في كل أمة ينتقل إليها . ويرتفع خلال ذلك إلى آفاق إنسانية سامية خالدة .

وترجع صفحات تاريخ المسرح الأوروبي — كما رصدها مؤرخو المسرح — الى القرن الخامس قبل الميلاد ، إذ تطورت الأناشيد في بلاد اليونان ، تلك الأناشيد التي كان ينشدها الشعب الأغريقي في عيد إله الخمر باخوس إلى قصص مستمدة من التاريخ الشعبي ابتدأ بتأليفها اسخيلوس (٥٢٥ — ٤٥٦ ق . م) ووضع فيها حواراً مبسطاً ، ثم اكتسبت شكلاً دينيًّا مسرحيًّا على يد سوفوكليس (٤٩٥ — ٤١٦ ق . م) . ثم بلغت صورتها المسرحية الإنسانية الخالصة في مسرحيات يوريبيد (٤٨٠ — ٤٠٦ ق . م) .

فلنصوّر لأنفسنا صورة مسرحية من هذه المسرحيات تمثل في مسرح صغير يتسع لثلاثة من الممثلين ، يرتدون الأحذية المرتفعة واللباس الثقيل والأقنعة المصبوغة . ويغير الممثل ملابسه وشكله ليمثل شخصيات مسرحية مختلفة . ولنصوّر لأنفسنا جوقة موسيقية تنشد أناشيد دينية ، وتعلق على الحوادث المسرحية من آن لآخر تعليقاً غنائيًّا بين الفصول والمناظر التي لم توجد على المسرح الأغريقي . ولنصور لأنفسنا مدرّجاً يتسع للآلاف من المتفرجين ، ينحني في شكل حذاء الفرس حول المسرح ، ويتسع للآلاف من الناس وهم يشاهدون التمثيل من مدرجهم المنحوت في جانب الجبل .

ولنتأخر في الزمن قليلاً لنشهد نوعاً مسرحيًّا آخر غير المأساة ، انتقل إلى أثينا من صقلية ، وتطور فيها من الأفراح التي أقيمت في عيد إله الخمر ، ولنلاحظ تطورها من صور قصصية واقعية تعرض لنقد أناس وتذكر أسماءهم الواقعية ، إلى الصور النهائية لهذا النوع .

ولنسمه الملهاة ، التي تغفل الوقائع وتستمد صورها العامة من الشذوذ الإنساني ، وتعرضه عرضاً فكاهيًّا ، كما ظهرت على يد مينا ندر (٣٢٠ ق . م).

ولننظر نظرة سريعة إلى صفحات النقد في هذا العصر البعيد ، إذ صاحب التأليف المسرحي نقد كان لبعضه أثر خالد دائم المدلول . وتبرز من بين صفحات هذا النقد ، ما ذكره ارسطو في كتابه عن فنون الشعر ، اذ بحث فيه — بحثاً مجرّداً نظريًّا فلسفيًّا — شعر المأساة وشعر الملحمة ، ويظن بعض النقاد أنه كتب جزءاً عن الملهاة لم يصل إلى أيدينا . وقد فصّل ارسطو في كتابه قيمته المسرحية الفنية من موضوع وشخصيات وحوار ، وقد استمرت آراؤه ذات أثر على عقول النقاد والمؤلفين حتى القرن السابع عشر الميلادي ، ثم انقلب الحماس لها إلى ثورة متطرفة ، وإننا ننظر إليه اليوم على أنه وثيقة تاريخية ، وأنموذج للروح العلمي الدقيق . ورغم عدولنا عن بعض آرائه ، وتحويرنا لبعضها ، فقد بقيت آراؤه الاساسية سليمة في جوهرها .

* * *

ولنطو صفحات القرن الخامس قبل الميلاد من تاريخ المسرح ، ولنطو معها صفحات مجد أثينا وبلاد الاغريق ، ولنتبع دورة الحياة والحضارة إلى رومة حيث وجدت الحضارة اليونانية وطناً ثانياً أشرقت فيه ، إذ احتذى الرومان حذو الإغريق ونحوا نحوهم في مناهج حياتهم وأدبهم . على أن الأدب المسرحي لم يزدهر فيها ، إذ لم تسمح طبيعة الشعب الروماني الاجتماعية ، وميله إلى مشاهدة المناظر الحسية المثيرة كمصارعات الوحوش ، بتطور الجوانب المسرحية الفنية غير المحسوسة ، ولئن كان لذلك أثره في انحطاط المأساة ، فقد كانت الملهاة أسعد حظًّا إذ تقدمت عما وصلت إليه المأساة ، وبرع في التأليف الكوميدي بلوتس وتيرنس . على أن الملهاة الرومانية في أرفع صورها لم تتفوق على الملهاة الاغريقية الرفيعة ، ولم يضف نقاد الرومان كثيراً إلى النقد المسرحي ، بل تطورت أساليب النقد إلى قواعد شكلية، وتقليد مقيد لتعاليم اليونان القدماء، فأتى كتاب النقد لهوراس (٦٥ — ٨ ق . م) تطبيقاً يضع القاعدة دون أن يسبقها التحليل والاستقراء كما نهج ارسطو ، فقسم الشعر في كتابه عن فنونه الى أنواع ، وبين بحوره وأوزانه . ووصف شخصيات المسرحية وفصول

الموضوع بأسلوب جامد حيث لم يصل القاعدة بمثال، واكتفى بالإشارة إلى النماذج الاغريقية وتقليدها تقليداً دقيقاً .

* * *

وانطوت صفحة الحضارة الرومانيـة بسقوط روما ، واستمرّ المسرح في شكل فرق تتجول في أنحاء أوربا دون أن تستقر في مكان واحـد ، وتمثل مخلفات المسرحيـات الـكلاسيكية، وانحطاط الناس الخلقي، مما اضطر رجال الـكنيسة إلى مقاومتها متخذة وسائلها في كل بلد ، وهكذا نشأ مسرح كنسي تمثل فيه مسرحيات دينيـة للوعظ والإرشاد، وبذلك تكوّنت المجموعات الدينية والخلقية . وأتت هـذه المسرحيات ذات أهمية تاريخية أكثر منها أدبية ، إذ اختلطت فيها مذاهب الشعر الغنائي والشعر المسرحي والقصة . فسمى دانتي (١٣١٨م) قصته بالـكوميديا المقدسة ، رغم أنها قصة ، وليست مسرحية، وعلل ذلك بأن بدايتها محزنة ونهايتهـا سعيدة . وتنطوي صفحة تاريخ المسرح بسرعة في أواخر العصور الوسطى، إذ ساد أوربا سبات عميق، وتقلصت مراكز الثقافة بالتدريج من الميدان الاجتماعي، وانحصرت بين جدران الأديرة، واقتصرت على جماعة قليلة من رجال الـكنيسة الذين جمعوا بين الثقافة الدينية واللاتينية .

***

وظهرت معالم الأدب المسرحي من جديد إلى عالم الوجود حين هبت أوربا من سباتها في عصر النهضة ، وتخلصت من أوزار تقاليـد العصور الوسطى وأغلالها ، وانتشر بين النـاس حماس لـكل ما هو كلاسيكي ، وكشفت الآفاق المنسية للحضارة الـكلاسيكيـة . وقد بدأت موجة الحماس في إيطاليا ، وظهرت في النحت والتصوير خاصة ، ثم انتقلت إلى فرنسا، وظهرت في الهندسة والبناء خاصـّة . ثم انتقلت إلى انجلترا حيث ظهرت في الأدب خاصـّة . على أن أحد هذه الصور لم ينعدم في أي من هذه البلاد ، فقد تأثر الـكتاب في إيطاليا بآراء الـكلاسيكيين وحذوا حذوهم في الأدب شكلاً ومادة ، فترجمت كتب النقد لأرسطو، وعلق عليهـا النقاد وشرحوها ، ومن إيطاليا انتقلت إلى بقية أوربا .

ومن الطبيعي أن تهبط موجة الحماس للتراث الـكلاسيكي بالتدريج ، وأن تبدأ الألوان

المحلية ، والمميزات الاجتماعية في الظهور . فنرى حركة التأليف المسرحي الكلاسيكي تنتقل من إيطاليا إلى فرنسا وتبلغ ذروتها في مآسي كورني (١٦٠٦ — ١٦٨٤ م) وراسين (١٦٣٩ — ١٦٩٩ م) وفولتير (١٦٩٤—١٧٧٨ م) وملاهي موليير (١٦٢٢—١٦٧٣ م) بصورها الكلاسيكية التي ورثها الفرنسيون عن اليونان والرومان ، رغم أنهم استمدوا الوحي في التصوير والتحليل الخلقي والاجتماعي من العصر .

ونزع المسرح الإنجليزي نزعة استقلال عن الأنواع الكلاسيكية ، فجنح عن البساطة إلى التعقيد في الموضوع ، وعن تجانس الشخصيات وقلة الحركة ، إلى تنويع متسع فيه حركة وحيوية ، وعن الشعر المقفى كوسيلة للحوار إلى الشعر المرسل عند الإنجليز ، وعن الاقتصار في المسرحية على موضوع يصور مأساة أو ملهاة ، إلى موضوع يجمع بينهما . وقد وصل المسرح الرومانتي إلى غايته في مسرحيات شكسبير (١٦١٦ — ١٦٥٤ م) .

وانتشر المسرح بصورتيه الكلاسيكية والرومانتية بعد ذلك الى أوربا ، على أن المسرح الرومانتي كان أوسع ذيوعاً وانتشاراً عن المسرح الكلاسيكي .

وصاحب هذا التأليف المسرحي نقد اتبع في شكله العام مناهج النقد الكلاسيكي ، سواء في انجلترا أو فرنسا . وفصل النقاد بين صفات الشعر الغنائي والشعر المسرحي. واتضحت لوازم المسرح من جمهور وممثل في لوحة النقد . وشاعت آراء أرسطو بعد أن اكتشفت النسخة العربية لابن رشد ، وترجمها هرمان إلى اللاتينية في القرن الثالث عشر ، واكتشفت النسخة الأصلية في القرن الخامس عشر . واستمر تأثير آرائه حتى القرن السادس عشر ، وأحيطت بهالة من التعظيم والتقديس في ايطاليا وفرنسا وإنجلترا . حتى ظهر في القرن السابع عشر أوجبيه بفرنسا (١٦٧٠ م) ودريدن بانجلترا (١٦٣١ م)، وبينا مزايا المسرح الرومانتي ونجحا في تحرير عقول النقاد من السيطرة الأدبية للآراء الكلاسيكية . وانقلب التشيع لها إلى عداء اتضح في تمثيل أول مسرحية رومانتية مثلت في فرنسا ، وهي كرومويل لهوجو . على أن التطرف في المشايعة أو العداء انقلب إلى روية في الدراسة . ففصلت مزايا كل نوع على حدة وحددت قيمته ، وفصل النقاد بين المقتضيات التي تستدعيها أحوال اجتماعية وتقاليد دينية خاصة وبين ما يقتضيه المثل الأعلى الفني .

ونبلغ نهاية صفحات تاريخ المسرح في هذا النوع الجديد المعروف بالدرامة الحديثة ، فنلحظ معه تطوراً اجتماعيًا أظهر طبقة جديدة هي الطبقة الوسطى ، وانقلاباً في نظام الحياة بعد الثورة الصناعية وما أحدثته من مشاكل . فبدأ الفرد يبرز ويشعر بمكانته ، واتصل المسرح بالانقلاب الاجتماعي ، وسعى إلى تصوير مشاكل الحياة العادية . وما زالت الدرامة ممثلة للنوع المسرحي اليوم ، ومن أعلام كتابها إبسن النرويجي (١٨٢٨ — ١٩٠٦م) الذي ابتدعها ، وشو الإنجليزي وتشيكوف الروسي (١٨٦٠ — ١٩٠٤م).

وساير هذا النوع الجديد حركة نقد متسعة النطاق في أوربا ، كديدرو (١٧١٣ ـ ١٧٨٤م) ولسنج (١٧٢٩ — ١٧٨١ م) وكولردج (١٧٧٢ — ١٨٣٤ م) وهازلت (١٧٧٨ — ١٨٣٤م) وأدخل شليجل (١٧٥٧ — ١٨٤٥ م) المنهج المقارن في ألمانيا بألمانيا ، وبسطت المشاكل المسرحية على ضوء النتائج التي وصل إليها علم النفس ، والمسرح ولوازمه ، وانبعثت روح أرسطو العلمية التحليلية — للوصول الى الحقيقة المجردة — إلى الوجود . وتتشعب سبل النقد المسرحي وتتعدد صور تآليفه وأمكنتها وبواعثها . على أنها تعتمد بشكل عام على اعتبارات خارجية تميزه عن الفنون الأدبية الأخرى ، واعتبارات داخلية تتصل بتركيب المسرحية ، وبين هذه الاعتبارات جميعاً اتصال وثيق .

* * *

فالمسرح فن يحاكي الحياة محاكاة واسعة النطاق ، ولا يقلدها تقليداً مقيداً بالزمان والمكان الواقعين . وإنما يختار الكاتب عناصر ذات مدلول من الحياة ، سواء من شخصيات أو أحداث ، ويؤلف بينها في فكره ويحركها في عالم خيالي إلى نهاية محتومة ، فيقدم لنا صورة تمثل الحياة صافية من شوائبها وتفاصيلها ، ومسيرة إلى غاية قد لا نلمسها في الحياة . على أنه يشاركه في ذلك فنون أخرى من غنائية وقصصية . ولذا لزمت زيادة هذا التعريف بأن المسرح يقدم المسرحية لجمهور مجتمع في ظروف خاصة ، وله صفات نفسية خاصة ، فالكاتب المسرحي يقدم مسرحيته عن طريق وسائط هي المسرح والممثل . والممثل طاقة ، والمتفرج طاقة . ووراء هذه العوامل ، عوامل عملية ، اقتصادية واجتماعية وسياسية ، يحسب لها الكاتب المسرحي حساباً خاصًا.

فقيمة المسرحية متصلة بالتمثيل المسرحي ، وهي مناسبة له ، على أنه لا يجب أن تعتمد المسرحيــة في نجاحها على الممثل والأدوات المسرحية وجمال المناظر . وإنما للمسرحية قيمة ذاتية منفصلة عن التمثيل . فالتمثيل والمنظر معتمدان على المسرحية . ويحدد الجمهور جانباً آخر من الوسيلة التي يرعاها الكاتب المسرحي ، والطريق إلى الجمهور — كما بين علم النفس — هو الإيحاء في اللفظ والعبارة ، والاتصال به عن طريق عاطفته لا عقله ، ومخاطبة خياله ، والسعي إلى اجتذاب اهتمامه بالمفاجآت والتشبع بالحياة دون كلفة . وفي مقدمة العناصر ذات الحيوية في المسرحية، صور الصراع النفسي والحسي في الشخصيات ، وأولها هو خير الأنواع وأرقاها وأسماها .

* * *

وتنقسم المسرحية بعد ذلك إلى فصول ومناظر وشخصيات وحوار. ويستلزم العرض المسرحي تقسيم المسرحية إلى فصول يشغل تمثيلها ساعتين تقريباً. تعرض فيها الحوادث عرضاً تمثيليًّا، وتركز حوادثه في كل فصل . ويجعل أرسطو للموضوع أهمية كبرى ، على أن للشخصيــات صلة قوية بالموضوع . وكلاهما يؤثر في الآخر ويتأثر به . ولا بد من انسجام هذا الموضوع. وقوة تأثيره عن طريق هــذه الوحدة . ولا بد أن تتضح بدايته ووسطه ونهايته . وأن تتضح الأسباب والمسببات،فتعرض الافتتاحية في الفصل الأول ، سواء عن طريق حوار ، كما هي الحال عند شكسبير ، أو مفاجأة كما عند أسخيلوس . على أن الموضوع يتحرك بعد الافتتاحية مباشرة ، ويسير نحو الأزمة. فالانقلاب ، فالاكتشاف أو التعرف . ولا بد من تشبع الحوادث بالحيــاة ، ولا بد من تمثيلها تمثيلاً يصل إلى الجمهور عن طريق عواطفه . ويستعين الكاتب في ذلك بالمفاجأة والشك والصراع والتهكم المسرحي ، ويجب أن تتصل بالتطور الذاتي للموضوع والشخصيات ، لا أن تتوارد عن طريق الصدفة أو الافتعال

وتعبر الشخصيات عن الموضوع وتتحرك في مجاله وتؤثر فيه . ويكسوها الـكاتب بالحياة ويقابل فيما بينها، ويوجز في تحليلها ويركز، مستعيناً بالتلميح والإشارة والإيحاء لا الإطناب . ولا بدّ من أن تكون منسجمة الأقوال والأفعال ، صادقة التصوير .

وتعبر الشخصيات عن نفسها بالحوار، ولغة الحوار لغة فنية ليست كلغة الحياة العادية ، وهي إمّا شعر أو نثر أو شعر مرسل . على أن الشعر يغلب كتعبير للمأساة ، إذ هو أنسب الوسائل للتعبير عن العواطف والأهواء ، وعن موضوع المأساة. ويغلب النثر كأسلوب للملهاة إذ هي تتناول ما هو عقلي . على أنه قد يوجد الشعر في الملهاة والنثر في المأساة تبعاً لمكانته الشخصية أو دواعي الموقف ، وفي الحالين لا بد من أن تكون اللغة نقية صافية مرتفعة عن مستوى الحديث العادي .

وليس الحوار غاية في ذاته ، إذ يخضع لدواعي المسرح وسمات الشخصية ومعنى ذلك أنه لا يوجد لصفات غنائية خالصة . والكاتب المبتدىء يسعى الى إحداث التأثير المسرحي عن طريق الشعر دون التشخيص الجيد والتطور الداخلي للشخصيات والموضوع ، ويعتمد المنظر على المسرحية ، بمعنى أنه يوضح ويجسم ما تستدعيه الحوادث المسرحية . ويتعاون الممثل والمخرج ، وما يصور من مناظر وما يجهزمن أدوات مسرحية، من إضاءة واصوات ، على إكساب المسرحية ثوب الحياة وتجسيم ما سعى الكاتب إلى تصويره في عالمه الخيالي الفكري.

المسرح المصري قبل شوقي

الباب الأول

١ — ظواهر مسرحية في الأدب المصري القديم

إشارة هيرودوت وبلوتارك إليه . اكتشافات كونتز وكورت وسليم بك حسن .
مميزاته الدينية . أهميته التاريخية . أسبقيته للمسرح اليوناني

ظلت صفحة الحضارة المصرية القديمة في طي الخفاء حتى كشفت عن بعض نواحيها الحفائر الحديثة بآثارها في أواخر القرن الماضي وأوائل القرن الحالي . وترجمت أوراق البردى في متاحف برلين ولندن والقاهرة فوضحت لنا نواحي هذا الأدب العامة . على أن الأدب المسرحي خاصة لم يستكمل صورته بعد ، رغم إشارة هيرودوت المؤرخ الأغريقي وبلوتارك إلى وجود طقوس دينية قام بها الكهنة في المعابد ، وأكسبوها شبه عرض تمثيلي يستمد قصصه من قصة إيزيس وبحثها عن أوزيريس . وهذا التلميح كانت تعوزه الشواهد والأدلة . كما كان يقف عند الصورة البدائية للمسرح المصري القديم دون أن يوضح تطوره . واستمرت فكرتنا عن المسرح المصري القديم على هذه الصورة حتى تتالت الاكتشافات والبحوث التي قام بها إرمان وكونتز سنة ١٩٢٢ وكورت عام ١٩٢٨ وسليم بك حسن سنة ١٩٣٧ ودريتون، وتتلخص بحوث إرمان وكونتز وكورت كما ذكرها عبد القادر حمزة باشا [1] في أن إرمان عثر على نصوص تمثيلية تدور حول قصة حوريس وسيت ، واحتكام حوريس إلى جب يشكو إليه قتل سيت لأبيه أوزيريس . وتنتهي القصة ببعث أوزيريس إلى الحياة من جديد بعد أن انتقم حوريس له من سيت . واكتشف كونتز حجراً جنازيًّا في أدفو ، أقيم لذكرى الموتى ، ونقشت عليه العبارة الآتية « إني أتبع أستاذي وسيدي أينما سار

---

(١) على هامش التاريخ المصري القديم ج ٢ ص ١٧ — هامش .

دون أن أنصرف عن التمثيل ، فأنا أقف أمام أستاذي وسيدي وهو يمثل لأبادله الحوار ولأساعده . فاذا كان يمثـل دور الإله مثلت دور الملك ، وإذا أمات فإنني أحيي موتاه » .
واكتشف كورت نقشاً يمثل مشاهد من مسرحية دينية فرعونية مدونة على أوراق البردي في أربعين مشهداً ، تدور حول أوزريس وأيزيس وحوريس وعدوهم ست . وعثر دريتون على حوار صريح لمسرحية مصرية لامجرد مذكرات أو ملاحظات عنها . ويدور موضوعها حول مأساة حوريس ولدغ العقرب له ، وتوسل إيزيس إلى الإله توت لينقذ ولدها من الموت .
على أن أوسع دراسات للمسرح المصري القديم قد ظهرت على يد سليم بك حسن ، الذي عرض لأنواعها وفصلها بشكل واضح . وقد عثر على رسوم تمثل رئيساً لفرقة من الراقصين ينظر إلى ورق بردي بين يديه يراجع فيه حركات الرقص . (١)

* * *

وتدل هذه الشواهد على وجود التمثيل ذي المشاهد المسرحية في مصر القديمة كما تدل على أنه ابتدأ داخل المعبد ثم خرج إلى الشعب ليسليه بمعالجة بعض شئون الدنيا . وكان يقوم بتمثيل المسرحيات ممثلون متجولون في أنحاء البلاد، وكانوا يقومون بأداء بعض الرقص والغناء في الساحات أو في صحون الدور . وتدل هذه الشواهد على وجود أكثر من ممثل في فرقة واحدة ، إذ تحتاج على الأقل إلى شخص يقوم بدور الإلـه ، وآخر بدور التابع وثالث ليقوم بدور القاتل . وبذلك يكون فن التمثيل قد وجد بمصر القديمة قبل أن يوجد في بلاد اليونان . بل لا نستبعد صدق قول هيرودوت بأن المسرح الاغريقي قد استمدَّ مقوماته الأولى من المسرح الديني الفرعوني . سيما أن العبادتين المصرية القديمة والإغريقية الأولى متشابهتان إلى حدٍّ كبير . فأوزيريس الإله المصري القديم وباخوس الإلـه الاغريقي يرمزان للخصب ونضرة الحياة . هذا بالرغم من أن المسرح الإغريقي القديم قد خرج إلى الحياة العامة وانفصل عن الدين ، بينما لم يخرج المسرح المصري القديم عن مجاله الديني، كما تدل على ذلك الآثار التي بين أيدينا . وربما كشف البحث عن آثار أخرى تلقي ضوءاً على صفحات هذا المسرح وتطوره وأنواعه وأشكاله .

---

(١) الادب المصري القديم : ج ١ الباب الاول .

٢ — ظواهر مسرحية في الأدب العربي في العصور الوسطى

طويت صفحة الحضارة المصرية القديمة ودخلت مصر تحت حكم اليونان فالرومان . ثم فتحها العرب في أوائل القرن السابع الميلادي، ونشروا فيها أدبهم كما نشروا دينهم ، ودخلت في زمرة البلاد الإسلامية وصبغت حياتها بصبغة الحضارة الإسلامية .

ويعثر الباحث في تاريخ الأدب العربي في العصور الجاهلية والإسلامية الأولى على ظواهر أدبية تشبه إلى حدٍّ كبير تلك الظواهر الأدبية التي تطوَّر منها المسرح المصري القديم، والمسرح الإغريقي، والمسرح الأوربي في بدايته الثانية في عصر النهضة . فقد وجدت الآلهة ووجدت الأسواق التي تناشد فيها الشعراء والخطباء الشعر والخطب في مواسم معينة من السنة . وقد اجتمع الاغريق في أعياد دينية مشابهة احتفالاً بباخوس إله الخمر . بل عثر الباحثون على ظواهر مسرحية في العصور الاسلامية الأولى ذكرها السيد توفيق البكري (١) .

فوجد عند العجم بعد الإسلام ما يشبه المسرح ، إذ احتفل الشيعة من أنصار علي بن أبي طالب في يوم عاشوراء من كل عام بذكرى مقتله — وألفوا في هذه الذكرى رواية تمثيلية تبدأ بخروج الحسين من المدينة ، وتستمر حتى يصل إلى كربلاء وتنتهي بمقتله فيها . وسمى الأعجام هذا اليوم باسم « روز قتل » أي « يوم القتل » وحضر لمشاهدة الفصل الذي يقتل فيه الحسين رجال الدولة وعلى رأسهم الشاه ، حيث شاهدوا الحسين وعائلته كالعباس وجعفر وزينب وسكينة وكلثوم وأم ليلى ، وعمر بن سعد وغيرهم . ومثلت القصة في ساحة نصبت فيها الخيام ورسمت عليها شارات الحداد ، وبعدها ينشد على القوم مقتل الحسين شيخ بنغم محزن تهيج له عواطف السامعين فيبكون ويندبون وينوحون ، ثم يطوف عليهم الشيخ بقطعة من القطن يلتقط بها دموعهم، ثم يقطرها في قارورة تحفظ للاستشفاء بها عندما يعز الشفاء ، وينتهي التمثيل بإحراق أعشاش في جوانب الساحة التي مثلت فيها القصة على أنها كربلاء ، ويظهر في النهاية قبر الحسين مغشى بالسواد » . وذكر ظاهرة تمثيلية أخرى في القصة التالية : —

قال عبد الرحمن بشر (كان في زمن المهدي رجل صوفي ، وكان عاملاً عالماً لا يترك

(١) صهاريج اللؤلؤ صفحة ٢٥٨ .

أسلوباً ولا سبيلاً للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتهذيب الأخلاق ، وتربية النفوس إلا فعله . وكان يخرج كل يوم اثنين وخميس الى جهة بخارج بغداد ، فتجتمع عليه الخلائق من رجال ونساء وصبيان، فيصعد تلاً وينادى بأعلا صوت : « ما فعل النبيون والمرسلون ، أو ليسوا في أعلى عليين » فيقولون « نعم » فيقول « هاتوا أبا بكر صديق » . فيتقدم رجل فيجلس بين يديه فيقول «جزاك الله خيراً يا أبا بكر عن الرعية» فقد عدلت فقمت بما أرضى الله، وخلفت محمداً صلى الله عليه وسلم فأحسنت الخلافة ، ووصلت حبل الدين بعد حل وتنازع، وفرغت منه إلى أوثق عروة ، وأحسن ثقة ، وفعلت وفعلت » ويذكر ما قام به من جليل الأعمال . ثم يقول « اذهبوا به إلى أعلى عليين » . وينادي « هاتوا عمر » . ويتقدم رجل آخر فيقول: «جزاك الله خيراً». وهكذا يأتي عثمان وعلي ومعاوية ويزيد وعمر بن عبد العزيز ثم العباس ويحاكم كلاً بفعله) . وتشبه هذه الظواهر المسرحيات الأخلاقية التي أقامتها الكنيسة في بداية العصور الحديثة في فرنسا وانجلترا ، حين مثل القسس قصصاً مستمدة من التاريخ الديني لتهذيب النفوس ومحاربة المسرح الشعبي البذيء بوسائله .

ولم يخل الأدب المصري الشعبي في أيام المماليك من مثل هذه الظواهر التمثيلية . وكثر ذلك في روايات خيال الظل إذ نزعت إلى تمثيل قصة عن طريق الحوار . وقد كشف بول كاليه عن قصص كاملة كانت تعرض بطريقة خيال الظل، وتشتمل على محاورات تدور حول حوادث القصص [1]. وذكر أن هذا النوع كان ملهاة الطبقات العليا قبل أن يكون ملهاة الطبقات الدنيا وتتوارد أخبار هذا النوع من الأدب في تاريخ العصر الأيوبي خاصة . فتذكر هذه المراجع أن صلاح الدين الأيوبي ووزيره القاضي الفاضل قد شهدا مشهداً من خيال الظل عام (٥٦٧ هـ) ١١٧١ م . ويذكر ابن إياس أن السلطان جقمق أصدر أوامره في عام (٨٥٥ هـ) ١٤٥١ م بحرق كل الشخصيات التي ظهرت في خيال الظل . كما ذكر أن السلطان محمد أبا السعادات طرب كثيراً لفكاهات خيال الظل لممثلها أبي الخير أثناء المولد النبوي عام (٩٠٤هـ) ١٤٩٨م . وقد اجتذب هذا النوع من التسلية السلطان سليم الأول بعد فتحه لمصر، إذ حضر رواية تمثل إعدام طومان باي، واصطحب معه الممثل إلى اسطنبول. وتعتمد هذه القصص على

---

(١) مجلة الادب والفن — عدد ٣ — ١٩٤٤ ص ٦٠

الحوار، وقد استعملت الزجل أسلوباً لها أحياناً، والشعر أحياناً، والسجع أحياناً. فكتب الشيخ مسعود وعلي النحلة وداوود العطار روايات زجلية. وكتب ابن دانيال روايات بالشعر والسجع. واتخذت هذه الروايات مواضيعاً من الحياة المعاصرة وفي حوادثها وشخصياتها. ففي رواية (غريب وعجيب) تعرض شخصيات مختلفة لثلاثين نوعاً من الرجال الذين عاشوا في أسواق القاهرة، ووصف كل رجل مهنته بطريقة فكاهية تذكرنا بطريقة الشاعر جيوفري تشوسر الإنجليزي في القرن الخامس عشر في (قصص كانتربري) حيث عرض شخصيات متنوعة خلال القصيدة. ولابن دانيال رواية أخرى هي (طيف الخيال) وبطلها هو الأمير وصال وتابعه طيف الخيال الأحدب القصير. ويحلل الكاتب هاتين الشخصيتين تحليلاً طريفاً، فيظهر مواطن الضعف في الشخصية الأولى ومواطن الشذوذ في الشخصية الثانية. ويعرض لنواحي اجتماعية عامة. وموضوعها اجتذاب الخاطبة للأمير بعروس موهومة ذات جمال ومال فيجدها شوهاء حين يتزوجها.

وهذه الروايات بسيطة في موضوعها وأشخاصها وحوارها لتلائم ذوق العامة ومستوى إدراكها.

على أننا لا نستطيع أن نقطع بوجود أدب مسرحي في الأدب العربي. ونكاد نشعر بوجود حائل حال دون تطور هذا الفن في العصور الجاهلية والإسلامية سواء في الآداب الشعبية أو الآداب العربية الراقية. وإذا رجعنا الى العصور الجاهلية وجدنا عبادة أوثان وآلهة كما عند الإغريق. وإذا انتقلنا الى العصر العباسي لمسنا اتصال الأدب العربي بالآداب الكلاسيكية. واتصل الأدب العربي بالآداب الاوروبية حين انتقل المسلمون إلى الأندلس فلم يوجد في الأدب العربي فن تمثيلي مستقل عن الشعر الغنائي، واضح المعالم، بين السمات. سنجد بعض أسباب ذلك في العوامل الاجتماعية الخاصة بالمصر، ومنها ما ذكره الاستاذ زكي طليمات من أن الوثنية الجاهلية الاولى بدائية مبنىً ومعنىً، فهي هزيلة التركيب، ضحلة الغور لم تبلغ التناسق والتكامل الاغريقي، ولم تحي وتكتسب أبعاد انسانية ومدلولاً فنيًّا يوحي بالجمال [1] وعلى ذلك لم يكن من الممكن أن يوجد مسرحي ديني، ثم مسرح دنيوي يعني

---

(١) التمثيل ولماذا لم يعالجه العرب مجلة الكتاب نوفمبر ١٩٤٥ ص ١٠١

بشؤون الآلهة والناس . هذا إذا أضفنا إلى ذلك قسوة الحياة الجاهلية التي شغلت الإنسان عن الترف الفكري وبحث القيم المثالية العليا .

ووجد دين جديد بسيط التركيب لا إبهام فيه ولا تعقيد . وقد عمل أنصاره على محو الآثار الجاهلية مادية ومعنوية محواً تاماً سيما الأوثان . وبذلك وضع حد لما كان يمكن أن تتطور إليه الوثنية الجاهلية . ولم يخف الدين الجديد كرهه لفنون النحت والزخرفة وما يقوم على تقليد مظاهر الطبيعة ونسخ نواحيها المختلفة، هذا إلى انصراف المجتمع الإسلامي إلى نشر مبادئه ومناهضة أعداء دينه . وصار القرآن محور الأدب في العصر الأول وطبع بطابعه التفكير الإسلامي، وشغلت الديانة الجديدة الواحدية المبسطة المتقشفة بمناهضة الوثنية ذات الآلهة المتعددة، وما اتصل بها من طقوس، ووضعت مكانها شعائرها البسيطة، ومعنويتها القوية .

واستمر هذا الاتجاه في العصر الأموي حتى العصر العباسي . وابتدأ الاتصال بالآداب الإغريقيـة من القرن الثاني حتى القرن السادس للهجرة ، وفيه ترجمت العلوم والمعـارف المختلفة ، ولكنا لا نجد فيها مسرحية واحدة مترجمة . وتلك ظاهرة تدعو إلى التساؤل عن التغاضي عن الاطلاع على النوع المسرحي في الأدب الإغريقي . ويعلل الأستاذ أحمد بك أمين هذه الظاهرة بقوله : « لقد كان تأثير الآداب الكلاسيكية في الأدب العربي ضعيفاً إذا قيس بتأثير الفلسفة والعلوم اليونانية . وإن بعض أسباب هذه الظواهر هو أن الفلسفة والعلوم عالميـة . والأدب قومي . والفلسفة نتاج العقل ، والعقل قدر مشترك بين الأفراد والأمم وإن اختلفوا في أنصبائهم منه ، والمنطق الذي يضبط هذه العلوم يستسيغه عقل الناس جميعاً . أما الأدب فلغة العواطف . وليس للعواطف منطق يضبطها . والأدب ظل الحيـاة الاجتماعية . ولكل أمة حياة اجتماعية خاصة تمتاز بها عن حياة الأمم الأخرى في أشكالها ومراميها . من أجل ذلك تذوق العرب منطق أرسطو، وطب جالينوس، وإلياذة هوميروس . وسبب ثالث يصح أن يكون ، هو أن الأدب اليوناني أدب وثني فيه آلهة متعددة ، وفيه عبادة أبطال ، والذوق العربي حين ترجمت هذه الكتب ، ذوق مسلم لم يستسغ هذا النوع من الأدب الوثني »(١) .

(١) ضحى الاسلام جـ ١ ص ٢٥٩

ومن الواضح أن أقوى هـذه الأسباب هو السبب الديني وإحساس العربي بأنه ليس بحاجة إلى الاستزادة من أدب غريب لايستطيع تذوّق آثاره . بحيث أنه لم يتأثر في جوهره حين انتقل إلى الأندلس . فقد نظرت قرطبة وأشبيلية دائماً إلى بغداد والشرق حيث الوطن الأول . ورغم تأثر العرب بالفنون الغربيـة في البناء والزخرفة والنحت والتمثيل والرسم والموسيقى وأثروا فيها ، إلا أنهم لم ينهجوا نهجاً أدبيـا جديداً في تعبير مبعثه عقيدة مخالفة لعقيدتهم. فما زال الإسلام ملأ قلوبهم وعقولهم وموجهاً لآدابهم.

وقد سيطرت هذه النزعة الإسلاميـة العـامة ، والاتجاهات الأدبيـة ، على الآداب الإسلامية في أنحاء الامبراطورية العربية، وتعدى تأثيرها إلى الآداب الشعبية.

٤ — المسرح المصري الحديث

لم يظهر المسرح المصري الحديث بمعناه الحقيقي بمصر إلا حين اتصلت بأوروبا إتصالاً وثيقاً تعدى الناحية السياسية إلى الناحيـة الاجتماعية والثقافية . وقد تهيأ ذلك عند مجيء الحملة الفرنسية إلى مصر سنة ١٧٩٨، كما ذكر الأستاذ حسين شفيق[1]. فقد أحضر نابليون معه بين رجال البعثة الفرنسية اثنين من كبار الموسيقيين الفرنسيين ، ويسمى أحدهما فيلوتو والآخر ريجل . وقد عنى نابليون بونابرت بشئون التمثيل كما يستدل على ذلك من رسالة كتبها إلى الحكومة الفرنسية يطلب فيها إرسال فرقة من الممثلين للتمثيل بمنزل كريم بك ببولاق ، وقد عثر الأستاذ حسين شفيق على رسالة كتبها فيلوتو إلى الجنرال مينو بالاسكندرية قال فيها : «كلفت بأمر القائد العام أن أسألك أن تبذل الجهد في مساعدتنا على إتمام مسرح التمثيل الذي تقرر إنشاؤه هنـا ، فأرجو أن ترسل إلينا ما عندك من الآثار والأدوات الفرنسية » . [2]

ويذكر التاريخ اسم الروايتين اللتين مثلتا به وهما «الطحانة» و«زيليس وفلكور» أو «بونابرت في مصر » وانطوت صفحة هـذه الفترة برحيل نابليون عن مصر وخروج الحملة منها سنة ١٨٠١ إذ لم يؤثر هـذا المسرح في الحياة المصرية المعاصرة . ومن المرجح أنه وجد لأجل تسلية الجنود والضباط الفرنسيين بمصر ، ولم يقصد به إدخاله في الحياة القوميـة المصرية .

ولم تصب الفنون شيئاً كثيراً من رعاية محمد علي باشا، اذ احتكر مجهوده تكوين جيش قوي منظم ، ودارت إصلاحاته في معظمها حول لوازم الجيش من صناعة وزراعة وتعليم . وانصرف بعد ذلك إلى تدعيم ملكه، وتوسيع سلطانه، فكان الفن — ومنه المسرح والتمثيل — شبه كامل في ذلك العصر .

وتبدأ صفحة تاريخ المسرح الرئيسية في مصر في عهد الخديوي اسماعيل أي بعد منتصف

---

(١) التمثيل في مصر : مخطوط : فصل التمثيل في عهد الحملة الفرنسية .
(٢) » » » » » »

القرن التاسع عشر . إذ جنح اسماعيل باشـا إلى نقل مظاهر الحياة الاوروبية إلى مصر ونواحي حضارتها المختلفة .

وحظى التمثيل والغنـاء بعناية خاصة من جانبه . فافتتح مسرح (الـكوميدي) عام ١٨٦٩، حين احتفل بافتتاح قناة السويس في هذا العام أيضاً . ثم أنشأ مسرح الأوبرا عام ١٨٧١ ومثل في هذه المسارح جمـاعـة من الممثلين والممثلات أحضرهم من أوروبا . ويحفظ لنا التاريخ اسم أول مسرحية مثلت بدار الأوبرا ، أمام ضيوف مصر الأجانب وهي مسرحية (ريجوليتو) . وعهد إسماعيل باشا إلى فردي — الموسيقار الإيطالي — بوضع موسيقى لأوبرا مصرية ، كلف العـلاّمة الفرنسي ماريت باشا بتأليفها ، وهي المسرحية المشهورة (عائدة) وقد ألفت باللغة الإيطالية . وطبع على غلافها ما يأتي (عائدة — أوبرا في أربعة فصول وسبعة مناظر من تأليف ا . غيسلانسوني وتلحين الـكومنداتوري ج فردي . كتبت بأمر سمو الخديوي بمسرح الأوبرا ، وستمثل بالقاهرة لأول مرة في ديسمبر ١٨٥١ ، وعدد صفحاتهـا ٩٥ صفحة صغيرة، ومنها نسخة بدار الـكتب المصرية . وترجمت المسرحية بعد ذلك إلى اللغـة الفرنسية . ثم ترجمت الى اللغة العربية سنة ١٨٦٨ م و (١٢٨٨ هـ) بواسطة أستاذ التاريخ بدار العلوم وصاحب جريدة وادي النيل ويدعى أبو السعود أفندي .

ولا نعلم عن الشخصية التي كتب إسمها على هذه النسخة كثيراً ، فهي شخص آخر غير مريت باشا . على أنه توجد وثائق تاريخية تثبت اشتراك مريت باشا في التأليف ، فهو الذي استخرجها من أوراق البردي . وقد كتب الى أخيـه في ٨ يونيو سنة ١٨٦٩ يقول : « هل تصدق أني وضعت أوبرا عظيمة يؤدي فردي موسيقاها ، ثم تمثـل في مسرح القاهرة في فبراير القادم ؟ إن الخديوي ينفق مليوناً — لا تدهش ولا تسخط — فإن ما أقوله صحيح حقًّـا » . وورد في كتاب له يضم طائفـة من رسائله وذكرياته الخاصة واسمه (خطابات وهدايا) ما يثبت اشتراكه في وضعها وتوفيقه في إخراجها .

وقد استدعى مريت باشـا أخاه ليساعده على إعداد الرواية التي اعتزم عرضها في شتاء سنة ١٨٧٠ على مسرح الأوبرا المصرية . ولم يتم تمثيل المسرحية كما كان مقرراً لها إذ لم يتم إعدادها، ومثلت بدلاً منها في نوفمبر سنة ١٨٦٩ مسرحية « ريجوليتو » التي وضعها فردي .

وشبّ حريق في دار الأوبرا في الليلة التالية وأتلف بعض أثاثها وأرجائها.

ومسرحية عائدة مأساة تدور حول عائدة ابنة ملك الحبشة الأسيرة في مصر وراداميس قائد جيش فرعون ، وهي مأساة تنشأ من حيرة عائدة بين هواها ووطنها ، وحيرة راداميس بين هواه ووطنه وهي مليئة بالمواقف الإنسانية وبصور من الصراع النفسي ، وتدبر العقدة وتحل ببراعة فائقة .

وشيد إسماعيل بعد ذلك مسرح الأزبكية، وشجع الفرق التمثيلية ، وصرف لها اعانات. فانتشرت المسارح الأهلية منذ ذلك الوقت . وانقضى عهد إسماعيل وتطور المسرح من بعده، وأتت إلى مصر فرق من الممثلين والممثلات من سوريا يمثلون روايات مترجمة ، مثل فرقة أبو خليل القباني ومارون وسليم النقاش .

وقد انحدر إلينا التمثيل والتأليف المسرحي العربي ، كما يذكر الأستاذ زكي طليمات ، من سوريا بحكم اتصالها بأوربا عن طريق التجارة وتعدد الهجرات بين أهلها وبين دول الغرب. ويرجح الأستاذ حسين شفيق ، أن أولى محاولات التمثيل المسرحي العربي هي مسرحية (البخيل) التي كتبها وأخرجها وأشرف على تمثيلها مارون النقاش سنة ١٨٤٨ ، وتبع هذه المسرحية بمسرحيتين هما (أبو حسن المغفل) و (الحسود) . وللأولى أصل معروف وهو مسرحية موليير (سيد من الطبقة الوسطى) ، ولم يعرف النقاد بالضبط مرجع المسرحيتين الباقيتين رغم ما يدل عليه التركيب من صبغة غريبة .

ونظرة عامة إلى مسرحيات مارون النقاش تدل على أنه لم يترجم هذه المسرحيات ترجمة دقيقة ، وإنما عرّبها بما يتفق واللغة والذوق المحلي — وجارى هذا الذوق في وضع مقطوعات غنائية خلالها تغنى مصحوبة بعزف الموسيقى.

وأغلب الظن أن التمثيل قد انتقل بعد ذلك إلى مصر على يد سليم النقاش من أخيه الذي ورد الى مصر في عصر إسماعيل بعد إنشاء الأوبرا . ومثل أمام الجمهور المصري مسرحيات مشابهة للمسرحيات السابقة ، وهي في معظمها مسرحيات مأخوذة عن المسرح الفرنسي ومترجمة بأسلوب لم يخل من بعض الركاكة مثل (أندروماك) و (الظلوم) .

وقد عاصر هذه الفرقة كاتب مصري من أصل اسرائيلي هو يعقوب بن روفائيل أو سانو

أبو نضارة. وقد أنشأ سنة ١٨٧٠، بمعاونة الخديوي إسماعيل، أول مسرح عربي بالقاهرة. ولقبه إسماعيل بلقب موليير مصر، وشجعه على العمل، فألف اثنتين وثلاثين رواية هزلية غرامية منها ما هو في فصل واحد، ومنها ما هو في خمسة فصول. ومسرحياته معربة عن مسرحيات موليير وبعض المسرحيات الأوربية، مع صبغها بصبغة مصرية ناجحة حوّرت لتتفق والذوق المصري، حتى استعملت اللغة العامية في المسرحيات المنقولة. على أنه نجح إلى حدٍّ كبير في جعلها تتصل بالمجتمع المعاصر ونقد عيوبه. وبذلك يكون أول واضع للمسرح الفكاهي الانتقادي رغم لغته العامية.

* * *

ويبرز من بين كتّاب المسرح أحمد أبو خليل القباني الذي وضع مسرحيات مقتبسة من التاريخ العربي، وأدخل فيها الكثير من الأناشيد ومناظر الرقص في دمشق. واضطهد من اجل ذلك اضطهاداً شديداً، فانتقل إلى مصر بمسرحه الذي يشبه المسرح السابق من ناحية الصنعة والأسلوب، ويختلف عنه من ناحية اقتباس مواضيعه من التاريخ العربي والأدب الشعبي. وأتت مسرحياته أضعف في حبكتها وسياقها من المسرحيات الأولى، إلاّ أنه كان أرقى لغة من المسرحيات السابقة، فاستعمل السجع والنثر والشعر دون شرط ولا قيد: ويعتبره بعض النقاد أول كتاب المسرح الغنائي العربي.

وهكذا أتت المرحلة الأولى للمسرح المصري من سوريا ورسمت الصورة العامّة والمثل الأعلى للاتجاه المسرحي الغنائي، متوخية سهولة الموضوع وتأليف الأغاني وسهولة الحوار والانتفاع بالموسيقى.

فبعد أن ابتدأت النهضة المسرحية، وتعددت المسارح الأهلية، مثل دار التمثيل العربي التي أسسها ومثل بها وغنى فيها سلامة حجازي، وجدت مدرسة من المترجمين والمؤلفين في مصر. ففريق نهج منهج الترجمة مستعملاً اللغة العامية وسيلة للتأليف، وفريق استعمل الزجل ومصّر فصول المسرحية ومناظرها ووضع فيها أناشيد تغنى، وفريق ثالث نهج منهج المسرحيات المستمدة من التاريخ العربي والأدب الشعبي مستعملة اللغة العربية الفصيحة والسجع والنثر وسيلة أدبية لها غني بالمجتمع يستمد منه مواضيع مسرحياته. ويمثل الفريق

الأول محمد عثمان جلال ، والفريق الثاني حامد الصدر وإبراهيم الطرابلسي، ويمثل الفريق الثالث فرح أنطون وابراهيم رمزي ومحمد تيمور .

ويمكن تقسيم التأليف المسرحي بشكل عام إلى مسرحيات غنائية ومسرحيات اجتماعية .

أما المسرحية الغنائية فقد عملت على تطورها وشيوعها عوامل اجتماعية . فقد شاع في المجتمع المصري في أواخر القرن الماضي وبعد بداية القرن الحاضر الغناء والموسيقى واشتهر أمر المغنين والموسيقيين ، مثل عبده الحامولي والشيخ سلامه حجازي وغيرهما . وأقبل الجمهور على سماع حفلات المغنين اقبالاً قوياً . وساير المغنون والموسيقيون هذه العاطفة رغم اعتماد الموسيقى في الأعم الأغلب على صوت المغني، ولم تستقل بنفسها وتتبع قواعد فنها . وشجع هذه النزعة الغنائية ما صحب القصص الشعبي كقصص عنترة وأبي زيد الهلالي من توقيع على القيثارة . وغدت هذه القصص بما يصاحبها من غناء ساذج بسيط وموسيقى فطرية ، عاطفة الشجن الشرقي والشعبي القريبة من النفوس. وكان من المناظر المألوفة أن يجتمع نفر من الناس إلى قصّاص يقص قصص الشجعان والأبطال، وينوّع في صوته وينشد ويغني ويحاكي الشخصيات وألوان الحوادث التي يروي عنها . وانعكست هذه الاتجاهات في ميول الجمهور في المسرح المعاصر وأبرزها الغناء والموسيقى . سيما وأن المسرح في بدايته قد ساير ذوق الجمهور وخضع لذوقه . وخير من يمثل هذا الاتجاه سلامه حجازي، الذي انتقل من الغناء الى المسرح ، وصحب معه شخصيته كمغنٍّ ، وافتتح دار التمثيل العربي ليغني بها ويمثل . على أنه غنى كثيراً ومثل قليلاً . ونظرة إلى مسرحه تدلنا على عناية بمظاهر المسرح من مناظر جميلة وملابس للممثلين رائعة ، كما تدل على اعتماده الكبير على الغناء والتلحين لا على فن التمثيل . ويرى الاستاذ سليمان بك نجيب أنه أول من وضع أساس المسرح المصري الشعبي . إذ لم يكن المسرح قبله على جانب كبير من الأهمية . كما كانت القيادة فيه لأبناء سوريا وبناتها ، وقد حفظ لنا التاريخ أسماء فرق أخرى تشبه فرقة سلامه حجازي من حيث الصنعة والاتجاه ، كفرقة عزيز عيد واسكندر فرح .

وكتب لهذه الفرق جمهور من المؤلفين والمترجمين وعنوا في تأليفهم وترجمتهم بميول الجمهور وطبيعة الممثلين والمسرح . فاتخذ البعض الزجل أسلوباً للترجمة حتى يفهمها العامّة ،

واتخذ البعض السجع والشعر أسلوباً للترجمة والتمصير، ملاحظاً بذلك ميل الجمهور ومعظمه ممن نشأ على الثقافة الأزهرية. ويمثل الفريق الأول محمد عثمان جلال الذي عنى بأن تتخلل مسرحياته (أدواراً تغنى)، وقال في مقدمة مسرحيته «وجعلت نظمها يفهمه العموم، فان اللغة الدارجة أنسب لهذا المقام، وأوقع في النفس عند الخواص والعوام» وهذه بداية مترجمة هي (أفغانية) تمثل صنعته.

أغاممنون أنا الملك اللي بصحيك يا صبي قوم شوف يا أركاس اللي حل بي
أركاس يه . د الملك جالي يصحيني صحيح وله بتصحى قبل ديكنا ما يصيح
النور شقشق والنـاس ما صحت وكل أبواب الخيم ما اتفتحت
ياريت على دا يكون الريح طلع ويكون ربي للدعا مني سمع
أغاممنون سعيد في الدنيا اللي يرضى بالقليل ولا يكون زي الملك حمله تقيل
يعيش متهني براحة السر دوم والرزق من ربه يجيله يوم بيوم

ويلاحظ في الترجمة أن المترجم لم يتقيد بالأصل الذي ترجم عنه وانما مصّر الشعر تمصيراً قوياً، كاد أن يفقدها صبغتها الأصلية، كما أنه اتخذ الوحدة في شطرتى البيت، كما في الأصل الفرنسي . وترجم على هذه الطريقة «الثقلاء» لموليير، و«طرطوف» تحت اسم «الشيخ متلوف» له أيضاً و «هرنان» تحت اسم «حمدان».

وبينما اتخذ محمد عثمان جلال الزجل وسيلة أدبية موسيقية تعبر عن الحوادث والشخصيات واتخذ نفر آخر من المترجمين والمؤلفين السجع والشعر أسلوباً موسيقياً آخر للتأليف والترجمة ومن ذلك مسرحية «عائدة» ترجمة خليل النقاش وهذه بدايتها تمثل صنعته.

رادامس: ليت في هذي الحروب أتتي ما اشتهي ثم أحظى بحبيبي وعذابي ينتهي

الكهنة في داخل المعبد ينشدون

أيها الفتاح هبنا نعمتك ورحيم أنت أظهر عظمتك
أيها الفتاح يا نعم النصير أنت في حال برايالك بصير
أهدنا سبل الهدى نعم المصير وأضل الخصم وابذل رحمتك

رادامس لنفسه : آه لو أوحت الآلهة بانتخابي لاكتمل سعدي، وعساها مع ذلك تتم

قصدي ، ها هو ذا رمفيس رئيس الكهنة خارج من لدن الآلهة بكل استعجال فلنسأله عساهم يكونون أوحوا إليه بانتخابي قائداً الجيش في النزال ، فتكون قد صدقت أحلامي ، فأبلغ قصدي ومرامي » .

فما زالت الميزة الغنائية الموسيقية مسايرة للصنعة المسرحية ، وتجاري بذلك ميول الجمهور ، وطبيعة الممثل والمسرح المعاصر . ويمكننا أن نضع في هذه المجموعة تراجم (الأمير المنفي) و (تاجر البندقية) و (الليلة الثانية عشر) و (الير وهملت) ترجمة اسكندر فلدس ، وكامل حفني عن شكسبير ، و (العاطفة والانتقام) لميشو دوميناك وترجمة أنطون زكري ، و (فتح الأندلس) لمصطفى كامل وهو طالب بالحقوق (سنة ١٨٩٢ م ١٣١١ هـ) و (الهنا بعد العنا) لعبد الله فكري (١٩٠٢ م — ١٣٢١ هـ) وتدور حول اسلام عبد الله مينو ، و (الظلوم) لسليم خليل النقاش (١٩٠٢ — ١٣٢١ هـ) وقد طرد بسببها من مصر ، إذ ظنَّ الخديوي إسماعيل أنها تعرّض به . (وحسن الوفا والظهور بعد الخفا) لحامد الصدر ، وابن زيدون وولادة لابراهيم الطرابلسي سنة ١٨٩٨ م — و (حسام الدين الأندلسي) لسعيد الطرابلسي سنة ١٨٩٥ وغيرها . وليست تواريخ المسرحيات هي تواريخ تمثيلها وانما هو تاريخ طبعها عقب تأليفها بقليل أو كثير .

ويمكننا اعتبار هذه الفترة من التاريخ المسرحي المصري فترة المسرح الغنائي الذي تمر به كل أمة في بداية تاريخها المسرحي ، بحيث يغلب فيها جانب الموسيقى واللغة والألفاظ على جانب الإجادة المسرحية . ولكنها مرحلة مهدت لظهور مسرح على جانب من الرقي الأدبي . وحدث ذلك في مصر حين أقبل المثقفون على التمثيل مثل عبد الرحمن رشدي ، وعزيز عيد . على أن مؤرخي المسرح يعتبرون جورج أبيض بداية المسرح الجديد ، فقد أتى من فرنسا حاملاً معه طرقاً جديدة في الإلقاء والإخراج والتمثيل ، متأثراً في ذلك بدراسته في فرنسا ، في مسارح الكوميدي فرانسيز وغيره . وكوّن حوله فرقة من الشباب المثقف ومنهم أفراد كانوا من قبل في فرقة سلامه حجازي ، مثل عبد الرحمن رشدي وزكي طليمات بك وفؤاد سليم . وارتقى التمثيل في مسرحه ارتقاء كبيراً إذ مثل خير المسرحيات المترجمة والمصرية . ويمكن اعتبار مسرحه بداية المسرح الاجتماعي الذي جنح عن التمثيل الغنائي إلى

تمثيل مسرحيات نثرية اجتماعية . فترجمت له مسرحيات موليير ومسرحيات شكسبير ، وألفت له مسرحيات شرقية . فكتب له فرح أنطون (مصر الجديدة ومصر القديمة)، وإبراهيم رمزي مسرحيات (الحاكم بأمر الله) و (البدوية) و (قلب المرأة) .

وهكذا مهدت الحركة المسرحية الغنائية لظهور مسرحيات على جانب من الرقي الأدبي تمثل نواحي المجتمع المعاصر ، وتستمد منه أحداثها وشخصياتها، وتعنى بإبراز المغزى الراقي والتحليل النفسي والقيمة الأدبية والانسانية، ومن هذه المسرحيات مجموعة كتبها محمد تيمور مثل (العشرة الطيبة)(وعبد الستار أو الهاوية). ومنها مسرحيات أخرى لإبراهيم رمزي مثل (بنت الإخشيد) و (دخول الحمام) و (صرخة الطفل) ومسرحيات عباس علام مثل (الشريط الأحمر) و (شقاء العائلات) و (آلاموود) ، ومسرحيات حسين رمزي مثل (الضحايا) و (طريد الأسرة) . وتمتاز هذه المسرحيات من الناحية المسرحية بعمق الدراسة وجودة حركة الحوادث المسرحية وبساطة الموضوع وخلوه من الحشو ، وقوة الصبغة المحلية فيه ، وترتيب الفصول والمناظر. ولو أن العمل في تحليل الشخصيات وسبر شعورها وعواطفها ما زال في بدايته ، وإنما يأتي ذلك نتيجة للخبرة المكتسبة بالمران الطويل في هذا الفن الشاق .

وهذه مسرحية (مصر الجديدة) لفرح أنطون . ويظن أنها أول مسرحية شرقية عصرية في تأليفها وحوادثها وتمثيلها . وتعد ديباجة لتاريخ نهضة التمثيل الشرقي الجديدة . وقد مثلتها في الأوبرا لأول مرة فرقة جورج أبيض في ٥ من أبريل سنة ١٩١٤، ولاقت اقبالاً عديداً من الجمهور .

وقد كان في سبيل المسرح عقبات استطاع الكتاب تذليلها إلى حد كبير . وأولى هذه العقبات هي اللغة . فهي الوسيلة الأدبية التي تتحدث بها الشخصيات . وقد عبر كاتب المسرحية السابقة عن هذه المشكلة بقوله « واذا كانت الرواية تأليفاً وإنشاء ، وموضوعها شؤون من لغتهم المحكية باللغة العربية العامية — ولا أقول شجونهم — إذ ليس لكتاب البلاد القريبة منا أحد أحق في الكلام في هذه الشئون...وإذا جعلنا لغة هذه الروايات اللغة العربية الفصحى خرجنا عن الطبيعة التي ما أنشئت الرواية التمثيلية إلاّ لتقليدها ، وخالفنا الواقع في شكله وصورته . وفي هذا هدم لأصل من أصول التمثيل الاساسية ، وكيف يستطاع

مثلاً جعل (خريستو) في مصر الجديدة ينطق باللغة الفصحى وهو أعجمي ، وما يكون رأي مشاهدي هذه الرواية إذا سمعوا فيها نساء قهوة الرقص وباعة الصحف والخادمين والخادمات والبرابرة والسكارى المترنحين، بل والسيدات في خدورهن ، ينطقون باللغة الفصحى .

ثم نرى من وجه آخر أننا إذا جعلنا تأليف الروايات التمثيلية الاجتماعية باللغة العامية حرصاً على تقليد الطبيعة كل التقليد، كما هي وظيفة دور التمثيل والمراسح، وقعنا فيما هو أشد وأنكى : وقعنا في إحياء العامية وإضعاف الفصحى ، وهذا أمر يأباه كل من ذاق لذة هذه اللغة الجميلة التي جرى حبها هذا مجرى الدم في المفاصل ، وما كنت لأرضى بأن يكون الشروع في أمر كهذا الأمر على يدي » .

وانتهى الكاتب إلى اختيار أمر وسط ، فاصطلح كما ذكر على جعل أشخاص المسرحية يتكلمون تبعاً لتربيتهم ومعارفهم وأحوالهم ، فتتحدث أشخاص الطبقة العليا بالفصحى وأشخاص الطبقة الدنيا بالعامية، ولكل عذوبة وحلاوة ، وللغة الفصحى جمال وجلال يصلح المواقف العالية والحوادث الفاجعة . على أن ذلك أدى إلى مشكلة أخرى، فلا يعقل أن يرد السيد على خادمه ، أو الخادم على سيده بالعامية والفصحى معاً ، فجنح الكاتب في هذه المواقف إلى ما سماه « الفصحى المخففة والعامية المشرفة » .

وأما العقبة الثانية فهي الجمهور الذي اعتاد رؤية المسرحيات المفعمة بالغرائب والعجائب والمبالغات والعناصر الشرقية والمحسنات والغناء والموسيقى ، مما شغل الكاتب عن الدرس السيكولوجي الدقيق ، في حادثة واحدة متماسكة من جميع جوانبها ، وتخرج جوانبها من بعضها خروج الأزهار من أكمامها مما جعله يوسع لوحة مسرحياته طولاً لا عمقاً ، وجعل عامة مواضيعه متشعبة متنوعة مع وجود عنصر وحدة فيها ، فقد جعل فكرتها الأساسية وجوب الإقدام والعمل والنشاط والجد حتى في أحايين اللهو ، كما ذكر في مقدمتها بوضوح .

وتلك أول مسرحية فعالة سعت إلى حل مشكلة اجتماعية يصح أن نسميها بالدرامة الحديثة . وتبعها في هذا الباب مسرحيات نهجت منهجها من حيث الاتصال بمشاكل المجتمع وإحكام العقدة والأزمة ، والتطور والحل ، وشخوصها حية ذات أبعاد ، بين أمزجتها وبيئاتها مقابلة فيها كثير من الصدق ، على أنها لم تبلغ من التعقيد الفني وعمق المدلول وخلوده نصيباً عظيماً .

الباب الثاني

المسرح عند شوقي

الفصل الاول

١ — شوقي (١)

عاصر شوقي فجر هذه النهضة المسرحيـة وتطوراتها المختلفة منذ عهد إسماعيل حتى عهد الملك فؤاد . وتأثر فنه بأحداث العصر السياسية الخارجيـة . ويذكر الدكتور محمد حسين هيكل باشا انه ولد بباب اسماعيل وشب في حماه . ودرس في مصر إلى نهاية المرحلة الابتدائية فالثانوية ، ثم درس عامين بمدرسة الحقوق ، فعامين بمدرسة الترجمة ، ثم أرسل على نفقة الخديوي توفيق إلى فرنسا ليتم علومه فيها عام ١٨٧٧ ، ثم قضى عامين في مونبيليه ، زار انجلترا في أثنائهما حيث مكث فيهـا شهراً . ومرض فاستشفى بالجزائر مدة أربعين يوماً ، ثم رجع إلى باريس ودرس فيها عامين آخرين وعاد الى مصر سنة ١٨٨١ ، ومكث فيها حتى نفي إلى برشلونه بإسبانيا سنة ١٩١٥ ، وأمضى فيها نحواً من خمسة أعوام ثم رجع إلى مصر . وساح في الشرق وأوربا وتركيا وتوفى بمصر عام ١٩٣٢ .

وتأثرت شخصيته بالعوامل السياسية الخارجية ، وفي مقدمتها تركيا أو كما سميت في القرن التاسع عشر بالرجل المريض . فقد صارت هذه الدولة مطمعاً لدول أوربا . وقد حاول محمد علي باشا أن يستولي عليها ، فوقفت الدول الغربيـة أمامه وحطمت الأسطول المصري . وسلخت عن تركيا معظم ممتلكاتها فاستقلت عنها اليونان وبلغاريا . وكانت تركيا على وشك أن تترك أوربا كلية لولا قيام الحرب بين تركيا وروسيا عام ١٨٥٦ ، فاستطاعت أن تحتفظ بذلك الجزء الصغير حول القسطنطينية ومضيقي البسفور والدردنيل . وأحدثت هذه الأحداث أثرها في الشرق

(١) مقدمة الشوقيات ج ١ ص ٣٣٠

الإسلامي عامة ومصر خاصة ، ونظروا إليها نظرة القبلة الدنيوية، فكان السلطان رمزاً للخلافة الإسلامية وشخصت الأنظار إليه في عطف ظاهر واتخذ صراعه مع الدول الغربية شكل حرب صليبية جديدة أو حرب بين الشرق وبين الغرب . وقد عبر شوقي عن هذه الحوادث تعبيراً قويًّا مخلصاً بحكم الدم والدين واللغة .

أما من حيث العوامل السياسية الداخلية التي أثرت في عقلية شوقي وفي فنه فهي الحركة القومية المصرية التي ابتدأت بظهور العلماء في عهد الحملة الفرنسية ١٧٩٨ حتى خروجها ، ثم في عهد محمد علي باشا ، واتساع أفق هذه النهضة في عهد الخديوي إسماعيل ، واتصال مصر بأوروبا اتصالاً قويًّا مباشراً ، وازدياد هذه القومية بالتدريج أثناء الاحتلال الانجليزي لمصر منذ سنة ١٨٨٢ ، وأذكاها العهود التي نكثتها انجلترا بعد دخولها مصر ، وعزل الخديوي عباس حلمي عند قيام الحرب العظمى الأولى ، ونفي زعماء مصر ومفكريها خلال الحرب حتى حصلت مصر على اعتراف مبدئي باستقلالها فيما يعرف بتصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ . وكان من الطبيعي أن تلاقي هذه الحركات صدًى في نفوس شعرائها وكتّابها ومفكريها .

وإذن فقد تأثرت نفسية شوقي بالبلاط الذي نشأ فيه، وتربى تربية مترفة، وأخلص للعرش الذي شمله برعايته فأخلص له، كما تأثرت بحبه للأتراك . وقوّى من ذلك صلة الدم التركي الذي جرى في عروقه . كما تأثر بالقومية المصرية التي شاهد نموها ، فظهرت هذه النزعات جلية واضحة في ديوانه ومسرحياته . فقد عبر عن رأيه في الخلافة كمهبط الحكمة والإلهام، وموئل الإسلام ، وتحدّث عنهم أكثر مما تحدث عن العرب بحكم قوة الدم وصلته بالخديوي، وتحدّث بعد ذلك عن مصر وآثارها ، وافتخر بمجدها ، وأسف على فترات ضعفها ، على أننا نلمس بوضوح أنه التهب حماسة من أجل الترك أكثر مما التهب من أجل مصر ، وعني بالجامعة الدينية الإسلامية أكثر مما عني بالوطنية المصرية .

وتأثر شوقي بالنهضة الأدبية التي بدأت بمصر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، حين التقت مخلفات الثقافة الفرعونية والاغريقية واللاتينية والعربية والتركية ، وابتدأ صهرها البطيء في كيان الشخصية المصرية ، الرحيبة الجوانب ، المتعددة النواحي : وساعد على

ذلك الأزهر بما فيه من مخلفات التراث العربي ، والصحافة ولغتها المبسطة التي هبطت إلى مستوى العامة غير المتحذلقة ، ممن ساعدت الحركة القومية على إعلاء مداركهم وتفتق أذهانهم للملاحظة وصقل عقولهم بالألفاظ السهلة المؤثرة . وصاحب هذه الحركة نهضة للآداب المصرية والعربية من كتاب وشعراء ، وإحياء للقصص الشعبي وأساطيره ، ووجدت الموسيقى الشرقية ، وابتدأ تطورها في ذلك العهد ، وقد ظهر أثر هذه العوامل في المسرح المعاصر بوضوح .

ومن البديهي أن تظهر في مسرح شوقي الذي انعكست فيه آثار تركيته بمحاولاته الدفاع المستمر عن الملوك وتبرير أعمالهم وإحاطتهم بهالة من الجلال والعظمة والمدح ، كما انعكست آثار إسلاميته المتسمة الأفق ، والعناية بتغليب الفضيلة على الرذيلة ، سواء في نفوس الملوك أو الشخصيات الأخرى ، فدافعت كليوباترة عن نفسها ، ودافع الأمويون عن سياستهم ، وكفر فرعون مصر عن آثامه ، وانتحرت ابنته ندماً . ومن الواضح أن شوقي أظهر حسناتها بكثير من المبالغة وصوّر عيوبها بكثير من المداورة . وتظهر النزعة الإسلامية جلية حين يقبل قائد الأسطول الروسي إلى علي بك لمساعدته ضد أعدائه ، فيرفض مساعدة من يخالفه في الدين ولا تظهر مصريته واضحة جلية بشكل فعال اذ شغل عن ذلك بالدفاع عن الملوك، ولم يستطع تصوير الشخصية المصرية أو حياة الشعب ، أو تصوير آماله وآلامه ، أو التعبير عما يجيش في نفسه إذ عاش في عزلة عنه، وإنما لجأ إلى التاريخ والأدب، واختار منه ما لاءم مزاجه وطبعه من ملوك وشعراء .

وقد حاول وهو شاب أن يؤلف للمسرح ،كما تدل على ذلك القصة الآتية : يقول الأستاذ احمد عبد الوهاب أبو العز[1] « في ٢٥ ديسمبر سنة ١٩٣٠ ، جاء أفندي بهذا المظروف ، ففتحناه فإذا فيه رواية علي بك الكبير، تأليف الفقيد من ثلاثين سنة . وقال لي إقرأ لي بعضاً منها . فقرأت له صحيفتين قال على أثرها ، لو أعطاني ربي الصحة ، بدّلتها بأخرى . ثم كتب المسرحية التي بين أيدينا اليوم . ولم نعثر على هذه المسرحية . على أنها تدل على شيئين هامين ، أولها وجود فكرة التأليف المسرحي في نفس الشاعر منذ شبابه ، وثانيهما أنه لم يعجب

---

(١) ص ٩٧ اثنى عشر عاما في صحبة امير الشعراء .

بهذه التجربة الأولى فعزم على تغييرها، وحقق ما عزم عليه رغم أهميتها التاريخية، وانصرف عن ذلك بتأليف بعض القصص وقصائد الشعر التي نشرها في ديوانه (الشوقيات) . وربما كان لعدم رقي الجمهور الثقافي أو وجود المسرح المصري والممثلين المصريين أثر في ذلك، وربما أن الشاعر آثر جانب المحافظة على جانب التجديد، ولم يأنس في نفسه القدرة بعد على التأليف المسرحي الذي يحتاج إلى دراسة وخبرة وصبر من جانب المؤلف .

على أنه اتجه إلى التأليف المسرحي في الأعوام الأربعة الأخيرة من حياته، فألف سبع مسرحيات لم يتم الأخيرة منها، حين ارتقى مستوى المسرح والجمهور واتسع نفوذه ونشاطه، وكثر الإقبال عليه، وتشجيع الناس له، والدعوة إلى التجديد الأدبي . ولكنه وقد مارس الشعر الغنائي التقليدي لمدة طويلة، لم يستطع أن ينتقل إلى التأليف المسرحي طفرة . فاتجه إلى الغناء . ثم انتقل إلى المسرح حاملاً معه تقاليد فنه الغنائي القديم، وحاول أن يكيفه المسرح، واعتمد على مقومات هذا الشعر الغنائي في إحداث التأثير المسرحي، ولم يترك الاعتماد على الشعر في مسرحياته، وإنما تطور في نطاقها فنه المسرحي، مثل إحكام الموضوع وجودة التشخيص وبراعة إدارة الحوار .

***

٢ — شعره الغنائي

جوهره : رواسب الشعر الغنائي العربي مادة وشكلا . تطوره في مجال موسيقى من تقليد وتوليد إلى تجديد . نواحي التقليد والتوليد تبلغ ذروتها في الاندلس . التجديد ومناحيه ودواعيه الاجتماعية . النواحي التي جدد فيها شوقي . القصص والحكاية . أدب الحياة الخاصة والادب المسرحي .

نشأ شوقي في عصر تلقى ما خلفه المغول من بقايا التراث العربي، وحاول أن ينفخ فيه روح الحياة بعد أن علاه الصدأ . وقد ابتدأت حركة الإحياء من قبله على يد محمود سامي البارودي باشا .

ثم استمرت حتى بلغت ذروتها في شوقي وحافظ، وكان المثل الأعلى للشاعر أن يطلع على شعر الفحول من شعراء العرب ويتشبع بأساليبهم وروحهم، وينهج مناهجهم، ويعارضهم ويحاول مجاراتهم والتفوق عليهم إن أمكن . ولم يكن هم الشاعر أن يجدد على طريقتهم

التقليدية ، إذ لم تتغير نظم الحياة الاجتماعية بعد تغيراً جوهرياً كما حدث بعد ذلك بقليل ، وما زالت الأغراض التقليدية من مدح وهجاء، وفخر وغزل، وغيرها من أغراض الشعر العربي مسالك يطرقها شعراء هذا العصر .

وتتضح آثار هذه المرحلة في شعر شوقي الأول كما هو بين أيدينا في الشوقيات ، فقد تعدّى شوقي التقليد والتوليد من البحور والأوزان ، إلى المعاني يقتبسها أو يستوحي منها أو يحوّرها . وقد أوضح نقّاده نواحي هذا التقليد في قصيدته التي تبدأ بقوله.

بسيفك يعلو الحق والحق أغلب   وينصر دين الله أيان تضرب

بمقارنتها ببائية أبي تمام وهو يمدح الخليفة . كما أوضحوا نواحي هـذا التقليد في سينيته التي استوحى فيها من سينية البحتري، وكذلك في فائيته التي استوحى فيها من فائية أبي العلاء ، كما تتضح في معارضاته لنهج البردة وميمية البوصيري ، واقتباسه لمعاني المتنبي على وجه الخصوص ، على إنه تتضح بالرغم من ذلك سيماء ذاتية الشاعر في ذلك الاختيار الخاص للألفاظ ذات الرنين الموسيقي ، والمشبعة بالعناصر والتقاسيم الغنائية التي تحدث رخامة وطرباً وتتشبع بالعاطفة . كما نعثر في هذه القصائد الأولى على معاني من ابتكاره تتخلل ثنايا هذه القصائد .

وحين نفي شوقي إلى الأندلس بلغت مرحلة التوليد في نفس الشاعر ذروتها ، واشتعلت نفسه بما شعرت به من عوامل الحزن والوحدة والاغتراب ، وبما شاهده من آثار العرب في الأندلس ، واتسع أفق شعره ، وعارض في قصائده قصائد البحتري في إيوان كسرى ، وابن زيدون وابن عباد والخطيب وغيرهم من شعراء الاندلس ، ونلمس في هـذه القصائد حرارة قد لا نلمسها في قصائده الأولى .

وحين عاد من الاندلس إلى مصر، نرى تغيراً واضحاً في أغراض شعر شوقي ، فقد تغيرت الأحوال الاجتماعية وتطورت تطوراً سياسياً وأدبياً. فقد خُلع الخليفة وتولى آخر مكانه وظهر في مصر وعي قومي ، وقامت ثورة سنة ١٩١٩ وطالب زعماء مصر بالاستقلال ونالوه ، وافتتح البرلمان ووجدت الأحزاب ونودي بالاصلاح الاجتماعي والسياسي والأدبي ، وبرزت إلى الوجود مشروعات ترمي إلى إصلاح التعليم والزراعة والمشروعات الاقتصادية ، وزاد

اتصال مصر بالحضارة الغربية ، وظهرت طبقة من الكتاب الذين تثقفوا بثقافتها ، فوجد تنافس واحتكاك بين مدرستين من مدارس الأدب ، هما مدرسة تتعصب للقديم وتكره الجديد ، وأخرى تدعو للتجديد وتضيق بالقديم .

وكان لهذه العوامل على شوقي أثر واضح جلي، إذ نلمس فيه قلة في الشعر التقليدي إلا ما ولدته الظروف الاجتماعية المرفهة ، ومعظمها من شعر الرثاء . وضاق شوقي بشعره القديم فسعى إلى التجديد ، وصنع قصائد في القصة وفي حياته الخاصة وفي الأدب المسرحي وفي الشعر الغنائي الشعبي .

على أن التغيير نال الموضوع أكثر مما نال جوهره . فقد مارس شوقي الشعر على مناهج خاصة ، ورسخت هذه الأساليب في ذهنه واستقرت ، ولم يكن بمرونته الأولى حين قويت الدعوة إلى التجديد ومجاراة دواعي العصر ، فدخل شوقي ميادينه الجديدة حاملاً معه رواسب شعره الغنائي الذي مارسه نيفاً وأربعين عاماً ، ورواسب الشعر العربي الذي يكون عنصراً هاماً في شعره الغنائي .

فنلمس في شعره القصصي ، وفي شعر الوصف ، كما ورد في قصائده عن النحل وروما وآثار مصر ، وشعره في الملوك والسلاطين ، وقصائده في النيل والأندلس ، وآثار شعره في الوطنية الذي اشتعل في الأندلس ، وشعره في الحكمة والتماسه لغرائبها منذ صباه ، وخبرته الواسعة بالحياة الاجتماعية ، ومدائحه للملوك كوسائط الاصلاح ، وعلى أيديهم تتقدم الدول بالعلم والأخلاق ، وشعره في أسرته ورثمه لما حوله من عوامل طبيعية غير متكافئة ، وشعره الديني الذي يصدر عن ايمان وعقيدة تمتز بالاسلام وتقدسه وتفخر به وتذود عنه ، وتنتقد أهله لتركهم لتعاليمه ، وظهرت آثار ذلك كله في شعره المسرحي ، الذي تطور من نظام في الحوار يشبه القصائد ، ويعرض لغزل أو وصف أو رثاء أو مدح أو غناء ، كما تظهر في عنايته باستكمال النواحي الشكلية للشعر الغنائي العربي دون أن يجدد فيها . وتبلغ صفات شعره الغزلي ذروتها في مقابلات العشاق التي لا تكاد تخلو منها مسرحية من مسرحياته ، كما في كليوبترة ، ومجنون ليلى ، وعنترة ، وصفات شعر الحكمة واستخلاص العظة حين تحدث الكارثة

في مآسيه جميعاً . وتتخللها مقطوعات في وصف البحر أو القتال ، أو تصوير صراع نفسي، أو أسباب فساد الأمة إلى غير ذلك .

ورجع شوقي إلى قصيدته الأولى عن كبار الحوادث في وادي النيل يستمد منها مواضيع لمسرحياته عن مصر القديمة . فيقول فيها عن قمبيز

لا رعاك التاريخ يا يوم قمبيز ولا طنطنت بك الأنباء

وقصّ فيها قصة فرعون وكيف أتى به قمبيز ذليلاً ، ولكنه أحاطه بهالة من العظمة ، فجعله يبكي لا لأن ابنته حملت جرّة ، وإنما لأنهم أتوه بصديقه ذليلاً . وكذلك عرض شوقي كليوبترة فيها فقال عنها :

فقضى الله أن تضيع هذا الملك أنثى صعب عليها الوفاء

تخذتها روما الى الشر تمهيداً ، وتمهيده بأنثى بلاء

وقصّ فيها قصة الصراع بينها وبين أكتافيوس ثم انتحارها .

ثم انثنى إلى أبطال الغزل العربي في الأغاني ، فاستمدّ منه موضوعات عن الهوى هي مجنون ليلى وعنترة ، مما يتصل بالشعر الغنائي العربي بأواصر قوية .

* * *

٣ — مسرحياته

حاول شوقي وهو شاب أن يؤلف للمسرح ، إذ ألف وهو طالب في فرنسا مسرحية علي بك الكبير ، كما تدل على ذلك القصة التالية . يقول مترجمه أحمد عبد الوهاب أبو العز « جاء أفندي بهذا المظروف ففتحناه فاذا فيه رواية علي بك الكبير تأليف الفقيد من ثلاثين سنة ، وقال لي إقرأ لي بعضاً منها ، فقرأت له صحيفتين قال على أثرها ، لو أعطاني ربي الصحة بدلتها بأخرى »[1] ثم كتب المسرحية التي بين أيدينا اليوم ، وما زالت النسخة الأولى عند أهل شوقي . وتدل هذه الظاهرة على شيئين هامين ، أولها وجود فكرة التأليف المسرحي في خلد الشاعر منذ شبابه ، كما تدل على أنه لم يعجب بهذه التجربة الأولى فعزم على تغييرها في بعض مواضعها وحقق ما عزم عليه .

(١) اثنى عشر عاماً ص ٩٧

وانصرف شوقي عن التأليف المسرحي إلى التأليف الغنائي ، الذي شمل قصصاً خرافية على ألسنة الطيور والحيوانات ، كما شمل قصصاً من التاريخ رمى بها إلى استخلاص العظة والعبرة ، اذ لم يألف الذوق العربي بعد هـذا الضرب من الأدب المسرحي المكتوب باللغة الراقية ، فآثر أن يوجه الميل للقصة والتصوير التشخيصي الى الشعر الغنائي

على انه اتجه إلى التأليف المسرحي في الأعوام الأربعة الأخيرة من حياته ، فألف سبع مسرحيات لم يتم الأخيرة منها ، ولا ريب أنه دفعه إلى ذلك عوامل أهمها رقى مستوى المسرح قبل أن تنافسه الخيالة عام ١٩٣٤ ووجود الوعي القومي بين أفراد الشعب المصري وإقبالهم على المسرح كمركز من مراكز الدعاية القومية ، وما صادف ذلك من رجوع جورج أبيض من أوربا ، وتكوينه لفرقته الجديدة لتمثل في الأوبرا ، وما كوّنه يوسف وهبي من فرق تمثيلية تمثل في المسارح المختلفة ، هذا الى امتداد حركة الدعوة الى التجديد الأدبي وازدياد الحملة على التقليد ، أصاب شوقي رذاذها . فكان عليه ، وهو أمير الشعراء الذي كرّم في الأوبرا سنة ١٩٢٧ أن يضرب بسهم في هذا الميدان الجديد .

على أنه وقد مارس الشعر الغنائي نيفاً وأربعين عاماً ، كان عليه من الصعوبة بمكان أن يكيّف نفسه للمسرح ومطالبه ، إذ قلّت مرونته وحدة ذهنه ، وهي صفات لازمة للشاعر المسرحي ، فاتجه إلى تأليف الأغاني أولاً ثم انتقل الى المسرح حاملاً معه تقاليد فنه القديم ومقوّماته ، واعتمد عليه في إحداث التأثير المسرحي رغم ما في ذلك من عيب واضح ، وتطوّر فنه تطوراً بطيئاً في حدود هـذا النطاق الغنائي ، معظمه نتيجة لاتصاله بالمسرح ورجاله ، وازدياد خبرة الشاعر بملامسته لمطالبه ، واستشارته لأهله ، وإدراكه لما يستهوى جمهوره من عناصر .

على أن هـذا المسرح المعاصر في جملته وأدواته وممثليه وجمهوره لا يحقق المثل الأعلى المسرحي . فقد عنى هذا المسرح ببهجة المناظر وروعة ملابس الممثلين أكثر مما عنى بالمطالب الفنية الراقية المسرحية وأولها إجادة التمثيل . وكان التمثيل في جملته خطابي النزعة ، يستهوي الجمهور بالشعر وما فيـه من خيال أو عاطفة أو موسيقى ، وما يتخلله من غناء . وتغذى الجمهور بهذا الغذاء الرخيص ، وظن أن ما قدّم له تمثيل حقيقي ، إذ لم يرفعه الممثل والمسرح

إلى تذوق ما هو أرقى فنًّا وأنقى جوهراً وأرفع قدراً . ولم يستطع بعد ذلك أن يميز الغث من السمين . ولم يحاول شوقي رغم دراسته للأدب الأوربي رفع مستواه الفني وترقية ذوقه التمثيلي .

ولا يظهر أثر ما قرأ وشاهد من مسرحيات أوربية من فرنسية وإنجليزية أثناء دراسته بأوربا في شعره إلاّ بشكل عام . فقد استهواه من المسرح الفرنسي بساطته وسمو شعره كما كان مسرح راسين وكورنى ، واستهواه من المسرح الإنجليزي السلسلة التاريخية القومية التى نظمها شكسبير في تاريخ بلاده القومي مثل الملك هنري الرابع وهنري الخامس والملك لير وغيرها . ثم جنح في النهاية إلى كتابة مسرحيات تتصل بحياة المجتمع المعاصر .

ويتضح أثر المسرح الغنائى المعاصر بمدارسه المختلفة التي رأسها سلامه حجازي ، وأخذه عنه معظم كتّاب المسرحيات الشعبية المعاصرة له ، بحيث شاع الغناء على المسرح في تلك المقطوعات التي تتجمع وتتفرق في ثنايا مسرحياته ، والتي قصد بها غاية غنائية خالصة ، وبالعناية بمناظر العشاق ومحاوراتهم العاطفية .

وتفاعل هذان العاملان مع مقومات شعر شوقي الغنائي ، بحيث بلغ المسرح الغنائى ذروته فيه ، وصارت النواة الغنائية محور فنه بأجمعه ، وبها وعن طريقها انتقل إلى الممثل وأثر في الجمهور . ومن هذه النواة تنبع حسنات فن شوقي وعيوبه ، فهذه الأغانى امتداد لما كتبه الشاعر من مقطوعات غناها المغنون ، ونظرة إليها وإلى تركيبها تبين ما روعي فيها من قيم غنائية صوتية موسيقية ، وتعبيرها عن عاطفة هي الحب عامة ، وتتشبع به تشبعاً عالياً ، ويعبر بعضها عن عواطف شائعة بين النفوس : ففي نشيد الحب والحياة في مصرع كليوباترة يعبر عن الحب ، وفي نشيد الموت يعبر عن الموت ، وفي نشيد القبور يعبر عن الموت في مجنون ليلى ، وقد توجد أناشيد المدح كما في قمبيز حين يمدح فرعون ، أو للعرس كما في علي بك حين يتزوج آمال ، وعنترة حين يتزوّج بعبلة ، على أنهـا تشترك جميعها في التشبع بالعاطفة وبالقيم الموسيقية لتناسب الغنـاء . ولنضرب المثل بنشيد الحب والحياة في مصرع كليوبترة ، يغني إياس :

أنا أنطونيو وأنطونيـو أنا   ما لروحينـا عن الحب غنى

غننـا بالشوق أو غنّ بنـا نحن في الحب حديث بعـدنا
وجثمت عن شجونا الريح الحنون وبعينينا بكى المزن الهتون
وبعثنـا من نفاثات الشجون في حواشي الليـل برقاً وسنا

قد لا يكون في هـذه الأبيات معنىً واضحاً عميقاً ، على أنه يتضح الاختيـار الدقيق للألفاظ ذات الرخامة في الصوت ، وتتكرر الحروف بصورتها الهجائية أو ما يناسبهـا من حركة صوتية . حتى تحدث نغماً موسيقيـّا اشتهر به شعر شوقي عامة . ففي البيوت الأربعة الأولى يتكرر حرف الواو وتتكرر الفتحة كما يتردد حرف النون . هذا إلى اتحاد القافية في الشطرات الثلاث الأولى من كل بيتين ، واتحادها في القافية في الشطرتين الرابعتين من كل بيتين.

ولم تقف النزعة الغنائية عند حد الغناء ، وإنما تكون لحمة الحوار ونسيجه الرئيسي ، كما يظهر من عنـاية شوقي باستكمال الأوزان والبحور ، واتخاذ هـذه الأوزان والبحور من الصيغ التقليدية الشائعة في الشعر الغنائي العام ، وتظهر جلية في المسرحيـات الأولى ، ولا تنعدم في المسرحيات الأخيرة ، أنظمة الحوار التي تقترب من نظام القصيدة العربيـة مبنىً ومعنىً . وتطول في أماكن الوصف ، والرثاء ، والشكوى ، والغزل ، وتدور حوادث الفصول في العادة على هذه الصور ومثلهـا من صور الشعر الغنائي ، ويخفف من عيوبها المسرحيـة ما يتخللها بين الفصول من حوار متقطع ، تشترك فيه شخصية أخرى أو شخصيتان غير الشخصية المتحدثة ، فتقلل من هذه النزعة الخطابية ، إن ألقيت على مسامع الجمهور ، أو النزعة الغنائية إن غنيت أمامه . وتتناسب هذه النزعة تناسباً عكسيـّا مع قدرة شوقي المسرحيـة ، فيكثر اعتماده عليها في إحداث التأثير المسرحي ، دون اعتماده على الشخصيات والحوادث المسرحية في مسرحياته الأولى ، ويقل كلما ازدادت قدرة الشاعر على تحريك الموضوع ، والتأثير بوسائل المسرح الخاصـّة . على أن هذه النزعة التي خلطت بين الصفة القصصية الغنائية ، التي تعتمد على الحـكاية والخطابة ، والصفة المسرحية التي تعتمد على الشخصية والحادثة ، بحيث يكون الحوار تعبيراً لازماً ، وعنصراً اقتضاه المقـام . ولجأ شوقي ، كما لجأ المسرح الغنـائي ، إلى وسائل مسرحية خارجيـة لإحداث تأثير مسرحي ، واجتذاب اهتمام جمهوره ، فأكثر من المناظر التي تضيف أهميتها المسرحيـة ، بينما تتصف بروعة المنظر ، كما في منـاظر الولائم

والحفلات الراقصة والموسيقيـة . وبلغت درجة كبيرة من الأهميـة حيث تضعف الحركة المسرحية ، كما في المنظر الثاني من الفصل الأول في مسرحيتي مصرع كليوبترة وقمبيز والمنظر الأول من الفصل الأول في مسرحية علي بك . وعيب مثل هـذه المناظر أنها تصرف انتباه الجمهور عن الموضوع الرئيسي والتطور الذاتي لحوادث المسرحيـة الدقيق ، لقلة اتصالها بالمسرحية وموضوعها وشخصياتهـا . فهي وسائل غير جيدة يلجأ إليها الكاتب البادئ الذي يعتمد على أدوات مسرحية خارجـة عن تطوّر الموضوع الذاتي ، من داخل طبائع الشخصيات ، بحيث يكون كل تأثير مسرحي مثير نتيجة لأزمة خاضعة لهذا التطوّر . وقد قلت هـذه العيوب إلى حدٍ كبير تبعاً لازدياد خبرة الشاعر المسرحية كما في علي بك الكبير وعنترة والست هدى ، على أنها لم تنعدم تماماً .

وتأثر شوقي بالمسرح الانجليزي ، وشكسبير خاصة كما يظهر في مسرحيته الأولى وهي مصرع كليوبترة ، إذ استوحى من هـذه المسرحية بعض المنـاظر ، كمناظر لقاء أنطونيو وكليوبترة ، ومنظر موت أنطونيو ، ومنظر موت كليوبترة ، ويوضح الفرق بينهما توضيحاً جليـاً الفارق بين مذهب شوقي ومذهب شكسبير ، أو المذهب الغنائي القصصي والمذهب المسرحي التمثيلي . وتلك ظاهرة من ظواهر الاقتباس التي يبدأ بها الكاتب حياته ، وهي تتضح أيضاً في اقتباس الشاعر لبعض شعر مسرحيته الثانية وشخصياتها وحوادثها من الأغاني ، وإن مقارنة بين أوجه الشبه في شعر المجنون الذي ورد بالأغاني وشعره كما ورد في مسرحية شوقي ليؤكد هذه النزعة الغنائية في الشاعر .

إذا أضفنا إلى هـذه الاتجاهات نفسية الشاعر الاجتماعية ، من اتصال بحيـاة البلاط والملوك ، ومدحهم ردحاً طويلاً من الزمن ، والتغني بآثارهم ، ومن نزعة إسلاميـة عامة لا تشعر شعوراً قويـاً بالوطنية المصرية ، وإنما بنزعة إسلامية قوامهـا القومية التركية على الأصح ، ومن نزعة غنائيـة اتصلت بحياة الشعراء في الأدب العربي في تاريخه الطويل ، أمكننا أن نتنبأ باتجاهات مسرح شوقي عامة ، بل وأمكننا التنبؤ بنواحي الإجادة والتقصير فيه ، فهو يجيد حيث خبر وعلم عما يصف من شخصية أو حوار ، كما في الملوك والملـكات ، ويقصر حيث لم يعلم ولم يخبر ، كما يحدث حين يصف الجمهور وعامة الشعب ، بل لا يكاد يعـلم

عنهم شيئاً ، نتيجة عزلتـه عنه ، إلاَّ في مسرحية أخيرة ، هي ملهاته الوحيدة التي اتصل بشخصياتها وحوادثها فأجاد تصويرها إلى حدٍّ كبير.

وإن شاعراً اتخذ النواة الغنائية أساساً لمسرحه ، ليفتح مسرحاً ذاتيًّا فيه من شخصيته الـكثير. ولم يحاول شوقي أن يختفي وراء مواضيعه أو شخصياته أو حواره ، وإنما تظهر فيها ذاتيته وآراؤه وأهواؤه بشكل واضح .

* * *

استمدّ شوقي موضوعات مسرحياته الأولى من التـاريخ . فموضوع مصرع كليوبترة مستمد من تاريخ مصر القديم ، وموضوع مجنون ليلى مستمد من التاريخ الإسلامي في عهد بني أمية ، وموضوع قمبـيز مستمد من تاريخ مصر القديم ، وموضوع علي بك الـكبير مستمد من التـاريخ الإسلامي في عهد المماليك ، وموضوع عنـترة مستمد من تاريخ العصر الجاهلي ، أما موضوع أميرة الأندلس — وهي المسرحية النثرية الوحيدة التي ألفها — فستمد من التاريخ الاسلامي في الأندلس على عهد بني عباد في نهاية حكم ملوك الطوائف وأوائل عهد المرابطين . ويأخذ البعض على شوقي سوء اختيار بعض هـذه الموضوعات في عصر ذكر أنه يدافع فيـه عن القومية ويساير الشعور القومي . إذ اتسع التـاريخ المصري القديم والإسلامي لصفحات بطولة ناصعة مشرقة . ويأخذ عليه البعض سوء دفاعه حيث أراد الدفاع، كما حاول حين دافع عن كليوبترة، ويأخذ عليه البعض عجزه عن فهم طبيعة المصري المستمرة خلال العصور ، وصوره شعباً جاهلاً لا حيـاة فيه ، يسير في ركاب المنتصر، وينقلب على المهزوم ، وفي هذه المآخذ الـكثير من الصدق ، ومنشؤها انعزال الشاعر عن حياة الشعب من جهة ، وتغلب عاطفته نحو الترك على عاطفته نحو مصر من جهة أخرى . وإنما وجه اهتمامه في المسرحيات التاريخية التي تدور حول الملوك إلى تصويرهم مدافعاً عنهم ومحاولاً ستر عيوبهم ، ، وإكسابهم صفة البطولة والنبل . وكان الشاعر موفقاً أكثر من ذلك في مسرحياته التي اختار الشعراء أبطالاً لها ، فهو يعرضه لحياة شاعر مثله من السهل أن يتفهم وسائله ونفسيته وصوغ حواره ، ومن السهل أن يدير عواطفه حول نواة واحدة هي الهوى ، وإنشـاء الغزل . كما في مجنون ليلى وشبيهتها عنـترة . وزاد توفيقه حين ترك

التاريخ وجنح إلى الحياة يستمد منها مباشرة صور الناس كما تراهم وتحسهم في الحياة ، وما يحدث لهم من وقائع إنسانية عامة .

على إنه يهمنا العرض المسرحي للموضوع . ولعله من الخير أن نفرق بين مذهبين من مذاهب الفنون ، هما مذهب القصة ومذهب المسرح . إذ يعتمد فن القصة على السرد والاطناب والتحليل ، فيوصف المجال الذي تتحرك فيه الشخصيات ويفصل في بيئاتها وعوامل الوراثة فيها . ذلك لأن القصة يقصد بها القارىء الذي يتسع وقته للمقارنة والموازنة والتحليل والتعليل . أما في المسرح فيختار من هذه المجموعة الكبيرة أكثر الحوادث مدلولاً ومغزًى، وأقواها تأثيراً، ويضعها في فصول ومناظر مركزة ، تجمع مدلول الموضوع، والحوادث بين طياتها عن طريق التمثيل المباشر، كما لو أنها تحدث لأول مرة . بحيث يتطوّر الموضوع من داخل الشخصيات ، وتتحرك الشخصيات مع حوادث الموضوع في انسجام . وتؤدي الحوادث إلى الأزمة الكبرى التي تنتهي بحل ، فالمسرحية أزمة تعرض وتتوتر وتحل . ولا بد من اتفاق الحوادث وصفات الشخصية . وخير موضوع ما تطور من داخل شخصياته . وما ذلك إلا لأنّ المسرحية تمثل عن طريق ممثلين أمام جمهور ، لا يتسع وقته للتحليل والتعليل ، وإنما يتابع المسرحية بعواطفه أكثر مما يتابعها بعقله ، ولا بدّ من اجتذاب انتباهه من بداية المسرحية إلى نهاية بالحوادث المفعمة بالحياة ، المركزة المدلول .

وإنا لنقابل في مسرح شوقي ما يدل على عدم اعتبار لهذه الفروق الأساسية . منشؤها عناية الشاعر بالصفات الغنائية ، بحيث صرفت اهتمامه عن لوازم المسرح . وإنما عني باستكمال البيوت والأوزان ، وفي تطويل الحوار حتى طغت صفاته الغنائية ، على صفاته المسرحية وأفقدت هذه العوامل الشخصيات الكثير من حيويتها ، وجعلتها جامدة لا حياة فيها ، سيما في أبطال المسرحيات ، حيث تدخل شوقي في تعبيرها ، فلم تترك لتعبر عما بها ، وإنما تكلم شوقي من ورائها ، بشكل خطابي يقص ولا يمثل . وكثيراً ما سبب هذا الاسترسال الغنائي تفكك الشخصية واضطرابها ، كما سبب تفكك الموضوع وضعفه من الناحية المسرحية .

على أن هذه العيوب التي ظهرت قوية في المسرحيتين الأولى والثانية وهما مصرع كليوبترة ومجنون ليلى ، قد قلّت بالتدريج في المسرحيات الأخيرة ، وتدرّج فن شوقي بازدياد خبرته

المسرحية ، فوضحت الأزمة في المسرحية الثانية ، وازدادت في المسرحيات التالية على التوالي ولو أنها لم تكتمل تماماً .

ولشوقي أسلوب متشابه في تأليف مسرحياته ، فالموضوع يتكوّن في العادة من خمسة فصول كما في مجنون ليلى ، أو أربعة كما في مصرع كليوبترة ، أو ثلاثة كما في الست هدى . ويبدأ الفصل الأول في العادة بتمهيد تلخص فيه بعض الشخصيات الثانوية الموقف ، وتوضح علاقة البطلين ببعضهما ، وتظهر بعد ذلك الشخصيات الرئيسية أمام الجمهور لتمثل هذه العلاقة . ويبدأ الموضوع في التطور في الفصل الثاني . وتحدث مأساة البطل الثاني في الفصل السابق للأخير ، ومأساة البطل الرئيسي في الفصل الأخير ، أو تتوتر العقدة ، وتحل في الفصل الأخير إذا كانت المسرحية ملهاة . ويبث الشعر في فصول المسرحية الأولى ألواناً بهجة عن طريق الشخصيات الثانوية ، ويتدرج نحو الأظلام حتى يبلغ نهاية ذلك في فصل المأساة ، مستعيناً بالأدوات المسرحية الخارجية في إحداث تأثيره ، أكثر مما يستعين بتحليل نوازع الشخصية والتعمق في سبر غورها ، والتدسس إلى تحليل عواطفها .

ولعلّ ذلك راجع إلى ذلك الحيز الضيق الذي حصر شوقي نفسه فيه . فقد قيد نفسه بحدود التاريخ يستمد منه مواضيع فنه . ومن المتعذر إحياء الشخصية التاريخية ، ويحتاج ذلك إلى مهارة وقدرة لا تتوفر للشاعر المبتدىء . والشخصيات التاريخية أقرب إلى الأنواع منها إلى أفراد واضحة الملامح ، بينة الصفات ، كما نجد في الشخصيات التي تعيش في الحياة ، فهي حية نابضة متميزة ذات فردية . ووفق شوقي في العثور على هذا المفتاح الهام للمسرح حين جنح للحياة ، يستمد منها مواضيع مسرحياته في المسرحية الأخيرة ، وهي الست هدى ، لأول مرة ، ولكنه لم يمهل ليؤلف المسرحيات التالية وهي البخيلة التي أتمّ بعضها وعلي بك الكبير التي لم يبدأ في تأليفها .

وحاول شوقي أن يزاوج بين موضوعين في مسرحياته أحياناً كما فعل كتّاب المسرح الرومانتي ، فيساير الموضوع التاريخي في مصرع كليوبترة موضوع مبتدع يوازي الموضوع التاريخي ، ويخفف من ثقل أعبائه ، ويقابل بين تبعات الملوك وحرية الأفراد العاديين ، ويطيل الموضوع وحوادثه . وكذلك يساير الموضوع التاريخي في علي بك موضوع آخر مبتدع ،

ويتشابك الموضوعان وتكسب نهاية الموضوع المبتدع الموضوع التاريخي نهاية مخففة الوقع ، إذ تتصل حظوظ علي بك ومصيره بحظوظ آمال ومراد ، ويتطوّر الموضوعان معاً ببراعة لا نلمسها في المسرحية الأولى . على أن هذا الموضوع الثانوي يبلغ أحياناً درجة من الحياة والجودة لا يبلغها الموضوع التاريخي .

وتكثر في مسرح شوقي مناظر العشاق ، وتبرز فيها العواطف ويلتهب الشعر ، وهذه المناظر تعجب الجمهور لشيوع هذه العاطفة بين الناس على اختلاف درجاتهم ، وتكثر في الفصول أيضاً مناظر الصراع الحسي ، وتقل مناظر الصراع النفسي ، ولو أنها لا تنعدم . والنوع الأول أقل جودة من الناحية الفنية من النوع الثاني . فيوجد مثل هذا الصراع النفسي في كليوبترة ، بل هو لب مأساتها ، ولكنه لا يتضح تماماً . وكذلك يوجد في أنطونيوس . ويتضح قليلاً في ليلى وحيرتها بين هواها وواجبها . ويبلغ غايته وذروته في آمال ، حيث يتصارع في نفسها اخلاصها لزوجها واخلاصها لهواها . أو بين دواعي الخير ودواعي الشر . أما مناظر الصراع الحسي فشائعة في المسرحيات ، ففي المسرحية الأولى صراع بين أنطونيو واكتافيو ، وفي مجنون ليلى صراع بين قيس وآل ليلى ، وبين زياد ومنازل ، وفي علي بك صراع بين محمد بك وبينه ، واصطدام بين علي بك وسعيد . ويبلغ غايته في عنترة حيث يتكرر بصورة ملحوظة لا تخلو من المبالغة

وتوجد مناظر الولائم والحفلات في كل مسرحية تقريباً ، كالغناء والرقص والولائم وعيبها أنها تشغل حيزاً كبيراً في تطور الموضوع ، بحيث تصير حشواً يفسد الموضوع الدقيق التطوّر . وبها يعتمد الشاعر على أداة خارجية لاحداث التأثير المسرحي الدقيق .

أما في مناظر الموت فيمهد لها بإثارة روح المأساة في الجوّ بالتلميح به عن طريق الشعر وحشد أدوات مسرحية خارجية كأزهار وأفاعي ، وقبور وجرحى على المسرح ، وتعبر الشخصية في هذا الموقف عامّة عن عواطف متقاربة ، في جملتها بكاء الأهل والأحبة والوطن مما يشابه شعر المؤلف في الرثاء إلى حدّ كبير .

ونكاد نتبع تياراً فكاهيّاً في مسرح شوقي يبتدىء بصورة أولية في المسرحيات الأولى عن طريق اللفظ أو المنظر الجسمي للشخصية ، ويتطوّر حتى ينبع من الموقف والشخصية والمزاج في المسرحية الأخيرة .

والشخصيات المسرحية عند شوقي بسيطة التركيب قليلة التعقيد ، بل قد تبلغ بها البساطة إلى حد انعدام الملامح وضياع السمات ، أمام تيار السيل الغنائي الذي يفقدها الكثير من حيويتها ، وصدق تصويرها ، بحيث لا نجد فيها ما نجد فيمن نلمسهم ونعاشرهم من الأحياء . وتدفع الشخصية في العادة عاطفة عامة توجه تفكيرها وسلوكها ونوازعها ، بحيث تظهر أفعالها وأقوالها منسجمة معها ، ودالة عليها وموضحة لها . فتوجه أنطونيوس عاطفة الحب ، كما توجه قيساً . وتوجه قمبيز صفات مضطربة ، فيوجهه الجنون المتقطع في بداية المسرحية ، ثم يستولي عليه ندم وحب في نهاية المسرحية . وتدفع علي بك فكرة التبذير نحو المأساة .

ولمسرحيات شوقي في العادة بطلان أحدهما رجل والآخر امرأة . وتتحكم المرأة في مصير الرجل الى حدٍّ كبير ، كما في مصرع كليوبترة ، ومجنون ليلى ، والست هدى . وفي البطل عيب تنفذ منه المأساة اليه . فكليوبترة لا تعبر بوضوح عن حبها لوطنها ، وحبها لأنطونيو ، ولا تستقر على جانب منهما ، فهي أمام المصريين مصرية تدافع عن مصر ، ومع أنطونيو عاشقة له متفانية في حبه . وظل هذا التردد موجوداً حتى نهاية المسرحية دون أن تتماسك شخصيتها بل كثيراً ما ترتبك وتضطرب . حتى إذا ما فشلت ، انتحر انطونيو ، وانتحرت بعده دون وضوح الدوافع والبواعث التي تتمشى مع سياق المسرحية . وأنطونيو عاشق ولا تظهر أعماله وأقواله نفسية الجندي الباسل كما يصفه من حوله . وحظ ليلى خير من حظ كليوبترة . فهي بدوية عاشقة ، على انه قام في نفسها صراع ، كان من الممكن أن يحلل تحليلاً شائقاً كما حلل في نفس جوليت ، إذ يتضح حيرتها بين واجبها نحو هواها ، وواجبها نحو التقاليد التي تتمسك بها . فيؤدي بها هذا الصراع النفسي الى الكارثة ، ويموت قيس بعدها . وقيس كأنطونيو عاشق ، بالغ الشاعر في اظهار سيطرة هذه العاطفة على أموره ، بحيث تخرج عن مألوف الحياة أحياناً . وعنترة عاشق أيضاً ، وعبلة عاشقة . على أن عنترة أوضح في قسماته وشخصيته من سابقيه ، فظهرت آثار البيئة المحلية فيه ، كما قويت ألوان عبلة وسماتها . فعنترة محب بدوي عفيف ، وعبلة فتاة بدوية خشنة جريئة . على أن قوة عنترة تصور أحياناً بصور خارقة خارجة عن مألوف الحياة . ولا تبرز الأزمة أمام الجمهور على المسرح ، ويسترسل في انشاد الشعر في معظم أجزاء المسرحية . وعلي بك محسن كبير ، يؤدي به الكرم الى

فقد الخزانة ، وانفضاض أعوانه من حوله، ومما يؤدي به الى التماس المعونة من غيره، وآمال صورة حقة بما يبرز فيها من صراع نفسي بين ميلها الى مراد ، واخلاصها لزوجها، وقد انتصر ضميرها على هواها بسرعة . وهي أكثر حياة من ليلى وكليوبترة . أما قمبيز فهو صورة مضطربة من أهواء متضاربة، من جنون إلى ندم إلى حب مفاجيء . ونتيتاس تظهر وتختفي وتضطرب في أقوالها ولا تنسجم مع نفسها في أفعالها . وكذلك نفريت التي تظهر في بداية المسرحية مظهراً لا يتفق وانتحارها في النهاية . ولعلّ أبرع نساء شوقي في تصويرها هي الست هدى التي تحيا حقًّا ونكاد نلمسها بين من نعاشرهم من الناس ، فهي عجوز ترث ثروة من يطمعون في مالها واحداً إثر الآخر ، ممن يلتمسون مالهـا ، حتى إذا ماتت لم تترك شيئاً لزوجها الأخير .

ولعلّ شخصيات شوقي الثانوية أقرب الى الحياة من أبطاله ، إذ لم يحاول أن يرفع من شأنها بشعر مصطنع ، أو يتدخل في طريق تعبيرها الحر عما يخالجها، كما تدخل في شخصياته الرئيسية . ولم يحاول شوقي بتر أحد جوانبها ، كما بتر كليوبترة مثلاً حين حلل نفسيتها من وجهة نظر دفاع وتبرير عن كل عمل تعمله . وإنما تحيا الشخصية بنواحي الضعف ، كما تحيا بنواحي القوة ، وربما كان تحليل نواحي الضعف أكثر قدرة على إحيائها وإكسابها أبعاداً إنسانية . وربما تكسب بعض التفاصيل التافهة الشخصية حيوية وقوة .

ومن هذه الشخصيات الثانوية الحية أتباع الأبطال . فأوروس تابع وفي لأنطونيوس ، كما يتبع قيساً زياد ، وعنترة داحس ، وكما تفي هيلانة وشرميون لـكليوبترة ، وعفراء لليلى . وتدع هذه الشخصيات الثانوية الأبطال يفصحون عما في نفوسهم ، ويكون الحوار طبيعيًّا يكشف مغالق عواطفهـا حين توجد هـذه الشخصيات الثانوية وتشترك فيـه . والنساء في العـادة أكثر عطفاً على سادتهنّ من الأتباع ، على أنها جميعاً تكاد تكون نوعاً واحداً ، فهي مرتبطة بهذه الشخصيات الرئيسية وتستمد كيانها وأهميتها تبعاً لاتصالها بها .

ولهـذه الشخصيات أدوار تظهـر وتختفي دون استمرار في المسرحيـة ، فرينون وأنشو في مصرع كليوبترة ، وابن ذريح وهنـد في مجنون ليلى ، والماشطة والجواري في علي بك الـكبير ، ووفد قمبيز ، وكلها شخصيات ثانوية تظهر لتؤدي عملاً ما ثم تختفي . ويقوم

بعضها في العادة بتبادل فكاهات لفظية تثير في الجوّ روح المرح والفكاهة . فهي كاللون في يد الرّسام ، تعطي الصورة لوناً بهيجاً . على أن بعضها أداة تهكم حين يظهر في نهاية المسرحية بصورة محزنة كابن ذريح في مجنون ليلى ، وإياس في مصرع كليوبترة .

ومن هذه الشخصيات صورة أنذال المسرحية ، كأولمبوس في مصرع كليوبترة ، وزياد في مجنون ليلى ، وتاسو في قمبيز . وأبو الذهب في علي بك ، وصخر في عنترة . وهي تهزم في النهاية جميعاً ، بل أن شوقى قد يعاقبهـا بالقتل كما في أولمبوس وزياد وتاسو ، ونفريت ، فتعتبر بتراً قد يكون غير طبيعي وفيه بعض الشذوذ والمفاجأة .

ومن هـذا تتضح طبيعة الشخصيات عند شوقي ، فهي شخصيات بسيطة التركيب قليلة الألوان ، ضحلة الغور . ولعلّ الشاعر لم يقصـد إلى عمق التحليل ، إذ وجه اهتمامه إلى النظام دون النواحي الأخرى للإجادة المسرحيـة ، مما حدا إلى اضطرابها أحياناً . يقول الأستاذ عباس محمود العـقاد : « وغني عن الإبانه أن هـذه الروايات التي نظمها شوقي خلت من الشخصيات ، والتبست فيها ملامح الأبطال أيما التباس . مع أن كلها أو بعضها تاريخية ليس في تحضيرها وتصويرها فضل كبير بالنسبة إلى فضـل الإنشاء والإبداع ، »[1] ويرجع هذا إلى انعـدام شخصيته في شعره . والواقع أن شخصيات شوقى المسرحية سطحية التحليل حقـّـا ، ولـكن مرجعها إلى الاتجاه الغنائي الذي اندفع فيه الشاعر ، وضحى في سبيله بالقيمة المسرحية ، والمثـل الأعلى للـكاتب المسرحي أن تختفي شخصيته من المسرحيـة ، ويدع الشخصيات تدير الحوار وتحرك الموضوع بصورة طبيعية ، وتعكس عالماً كأنه عالم الحياة .

وتنقسم شخصياته إلى أنواع ذات مثل عليـا إسلامية رغم اختلاف هـذه الأنواع . فالبطل في العادة يمتاز بصفات نبيلة . فهو بطل في الحرب كأنطونيو وعنترة ، أو مثل أعلى في الوفاء والمروءة والشجاعة ، وهي صفات بدوية تتضح في عنترة ، وضرغام ، وزياد ، وفرعون ، وضاهر ، يقابل هذه الصفات النبيلة ناحيـة ضعف تنفذ المأساة إلى الشخصية منها — إذا كانت المسرحية مأساة . على أن البطل قد يكون شاعراً ، وتصير هذه الميزة صفة البطولة فيه . ومن أجل ذلك نسب شوقى إلى كليوبترة الشعر ، وصار قيس بطل البادية لعزة ، وكذلك

---

(١) شعراء مصر وبيئاتهم : ص ١٦٥ — ٢٦٦

عنترة . ولا تخلو صحبة الملك من شاعر يمدحه ويمجده وينشده . أما إذا كان البطل امرأة ، جعل شوقي محور حياتها عاطفة الحب ، وأقام بجواره حائلاً يمثل الواجب . وكثيراً ما ينسب إلى البطلة صفات أقرب إلى صفات الذكر . فكليوبترة بطلة سياسية ، رغم هواها . وليلى عاشقة، ولكنها تتمسك بواجبها . وتنيتاس تحب ، وتجد في أداء الواجب مهرباً لها من حب يائس . وقد حرص شوقي على عدم خروج نسائه على تقاليد الإسلام بشكل واضح ، فيحيط ملوكه وملكاته وأبطاله بهالة من العظمة والعفاف .

وشعراء شوقي يحسنون الشعر ويسترسلون فيه استرسالاً قد يفسد الحركة المسرحية أحياناً سواء كانوا أبطالاً من شخصيات محترفة . ويدور شعرها بهذه الصور حول الهوى كما في مصرع كليوبترة، وليلى، وعنترة ، أو الفخر أو الحماسة أو الرثاء كما في مسرحياته كلها. ويصحب الشاعر في العادة مغنٍ يغني بعض المقطوعات . وقد يصاحبه مضحك يثير الفكاهة بألفاظه كانشو ومقلاص .

وللبطل تابع تفنى شخصيته في سيده ، ويخلص له اخلاصاً تامًّا ، ويتيح له الفرصة للتحدث عما يجيش بنفسه . فأوروس وزياد وداحس شخصيات تتبع الأبطال وتعطف عليها عطفاً يكاد يشبه عطف الأم الرؤوم ، والأنثى الحنون . وقد ترتبط مصائرها بمصائر أبطالها كما في أوروس الذي ينتحر قبل سيده ، أو تفنى لذة حياته بفنائه كما في زياد . وللبطل أيضاً منافس يحرص الشاعر على أن يكون غير كفء لمنافسة البطل ، فرينون منافس مضحك لأنطونيو ، ومنازل منافس، أدنى مرتبة من قيس . وصخر غير كفء لمنافسة عنترة ، وضرغام هو المنافس الوحيد الكفء لمنافسة عنترة ، ويحرص الشاعر على أن يقتل في معركة ليخلو الجوّ لعنترة .

***

أما ذلك العنصر المسرحي الذي اعتمد عليه شوقي في حواره ، فهو الشعر الغنائي ورواسبه . وجوهر الشعر الغنائي العربي لغة منمقة تعني بالتشبيه والاستعارة والبديع والأخيلة البعيدة المآخذ أحياناً ، والمعاني الطريفة ، وكل ما من شأنه أن يوفر الألوان الخيالية التي تنفذ الى أحاسيسنا وخيالنا . ولم يفكر شوقي مليًّا في جوهر هذا القاموس

التقليدي ، وفي وسائل تكييفه للمسرح . ولم تقف هذه المشكلة عند البحور والأوزان أو القوافي ، وإنما تتعدى الشكل إلى الجوهر ، إذ يعتمد الحوار المسرحي على التحليل النفسي العميق للشخصية والموقف ، ويخضع خضوعاً تاماً للتمثيل بحيث يعبر عما يجول في نفس الشخصية من جهة ، ويساعد على تحريك الحوادث المسرحية نحو الأزمة الكبرى . فالحوار والشعر وسيلة لا غاية في ذاته : وسيلة إلى تجسيد الشخصيات واحيائها ، حتى نلمسها بارزة الملامح .

وإنه ليقابلنا في مسرحيات شوقي الأولى صور من الحوار تركيبية المبنى ولا تكاد توجد بينها تلك الوحدة الحية التي تميز العمل الفني والمنتج المسرحي ، بحيث ترتبط سلاسل الحوار بأواصر السببية ، ويعم عنصر الوحدة النابع من الشخصية . وسيقابلنا في المسرحيات الأولى كمصرع كليوبترة ، ومجنون ليلى ، استرسال غنائي ينزلق فيه المؤلف بسهولة ، فيفلت زمام تصوير الموقف والشخصية ، والتطور السريع المتوتر للحركة المسرحية من يده . وستقابلنا أنظمة من الحوار تكاد تشبه القصائد الغنائية مبنىً ومعنىً ، من وصف أو شكاة أو نجوى ، أو رثاء ، أو مديح أو قصائد غنائية . وهي خيوط ابتدأ منها فن شوقي واتجه فلم يستطع أن يتخلص منها عند ما ازدادت خبرته المسرحية ، ولم يتخلص منها إلا حين ترك المسرح التاريخي إلى المسرح الاجتماعي في مسرحيته الأخيرة ، حيث تدل الدلائل على أن الشاعر إنتبه إلى الأسس المسرحية وغير اتجاهه الأول ، فأخضع الحوار للحوادث والتشخيص . ولسوء الحظ لم يؤلف إلا مسرحية أتمها ولم يطابعها ، ومسرحية أخرى لم يتمها ولم يطابعها . وما زالت نسختها الناقصة عند أحد المعجبين به (الدكتور سعيد عبده) .

ولقد خدع شوقي بالنجاح الذي لاقاه مسرحه حين مثل على المسرح . واعجاب الناس به . على أن هذا الجمهور المعجب ، والمسرح الممثل لمسرحياته كان من هذا النوع الذي اعتاد مشاهدة المسرحيات الغنائية وسماع الغناء والطرب بسماع الألفاظ والأخيلة ، فقد كان كل هذا الجمهور المثقف ذا ثقافة أزهرية ، ولم يخلق بعد الناقد والمؤلف الذي اطلع على المسرح الغربي تأليفاً ونقداً وتعريفاً . وإنما كانت تلك الحركة الجديدة ناشئة حين كتب شوقي للمسرح ، وربما غير رأيه واتجه اتجاهاً آخر لو تأخر به الزمن قليلاً .

وقد نجحت مسرحياته للأسباب التي نجحت من أجلها المسرحيات الغنائية ، ففيها شعر مطرب ، وأغان تغنى ، ومناظر تبهر ، وقصص مستحدثة لم يسبق إليه في المسرح الشعري الراقي . على انه لبث مسرحاً مترفاً خاصاً عكس أنواع العيوب التي ظهرت في المسرح الغنائي . فقد ضحى في سبيل هذا الامتياز بالقيم المسرحية الفنية ، وما كان من الممكن أن يحدث من

عمق في التصوير والتشخيص والمدلول . على أنه لا بدّ من الإشارة إلى جهد الكاتب الذي بذله حتى يكيف شعره الغنائي للمسرح ، وقد كان مجهوداً جباراً حقاً . فقلت النزعة إلى إنشاء القصائد بالتدريج ، وازدادت مرونة الحوار وقصرت الأوزان والبحور وبيوت الحوار ، بازدياد خبرة الشاعر المسرحية واتصاله برجال المسرح ومشاهدته لمسرحياته . ولمسه لحاجات الجمهور . وهو اجتهاد اعتمد فيه المؤلف على ذكائه ، وربما هدته دراسة قليلة إلى الأسس القويمة .

وصاحب تطور هذه النزعة تطور آخر في فن شوقي المسرحي ، فقد زاد اعتماده على صور الصراع النفسي في الشخصيات ، والحوادث الناجمة عن تطور الموضوع ، وتصوير شخصيات بدأت ملامحها بالبروز إلى حد ما ، ووردت صور من المفاجآت وصور من التهكم المسرحي ، وازدياد في الحركة المسرحية والتمثيل ، ولو أن النواة الغنائية ما زالت محور هذا الفن . فقد وضع شوقي لنفسه أساساً لم يستطع أن يفلت من زمامه . ولم يفطن إلى ما في هذا الأساس من عيوب .

* * *

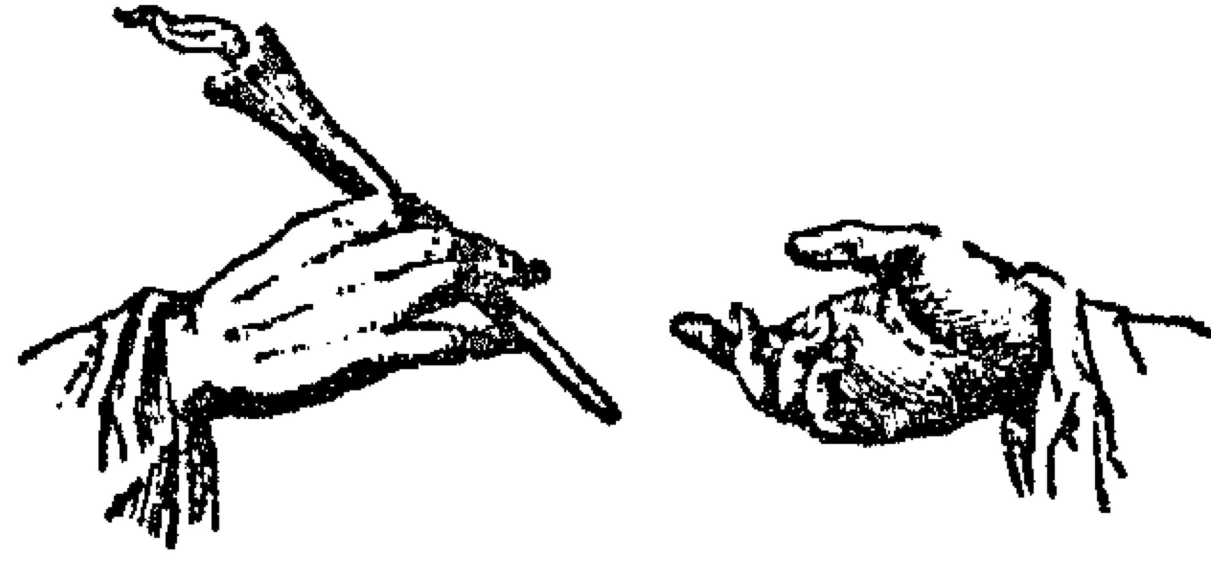
على أنه رغم هذه العيوب فشوقي هو أول رائد وضع أساس الشعر التمثيلي الراقي ، وترك لمن بعده مهمة إتقان نواحي المسرح الأخرى . يقول الدكتور طه حسين « أما عن التمثيل فقد غنى وأطرب وأثر ولكنه لم يمثل ، لأن التمثيل لا يرتجل ارتجالاً ولا يهجم عليه . وإنما هو فن يحتاج إلى الشباب والدرس والقراءة . وتمثيله صورة تنقصها الروح ، وإن حببها إلى الناس ما فيها من براعة الغناء . وربما أتى بالمعجب لو انه اطلع على كتابات قدماء الاغريق ، كما اطلع على كتابة قدماء العرب ، فاطلع على إلياذة هومر وأوديسته ، واطلع على فنهم التمثيلي . على أنه لا ينكر أنه منشىء الشعر التمثيلي في الأدب العربي . » (1)

حقاً لقد بذل شوقي مجهوداً جباراً في إنتاج تمثيليات في هذه السنوات الأربعة من حياته ، وتطور فيها فنه تطوراً سريعاً بازدياد خبرته ، فكثر الاقتباس والتقليد في المسرحيتين الأولى والثانية ، ثم استقل الشاعر بنفسه في مسرحيته الثالثة والرابعة والخامسة ، بحيث ترك الاقتباس واكتفى بالتاريخ ، ثم كمل استقلاله بنفسه حين خلف التاريخ كلية إلى الحياة يستوحي منها .

[يتبع]

---

(١) حافظ وشوقي ص ٢٢١ .



المقتطف

الجزء الرابع من المجلد العاشر بعد المئة

١٠ ابريل ١٩٤٧ — ١٨ جمادى الاولى ١٣٦٦

المقتطف

مجلة علمية صناعية زراعية

لمنشئيها

الدكتور يعقوب صروف و الدكتور فارس نمر

رئيس تحريرها اسماعيل مظهر

قيمة الاشتراك — في القطر المصري ١٢٠ قرشاً مصرياً وفي سورية ولبنان وفلسطين وشرقي الاردن والعراق ١٤٠ قرشاً مصرياً وفي الولايات المتحدة ٧ دولارات اميركية وفي عدن وأفغانستان وايطاليا والمانيا وبلاد الانجليز ٣٠ شلناً

اشتراك الطلبة والمدرسين — قيمة الاشتراك للاساتذة والطلبة الذين يرفقون طلبهم بقيمة الاشتراك وبشهادة من رئيس المدرسة تكون ١٠٠ قرش مصري في مصر و ١١٠ قروش مصرية في الخارج بالبريد العادة

الاعداد الضائعة — الادارة لا تعد بتعويض المشتركين ما يضيع من اعدادهم في الطريق ولكن تجتهد أن تفعل ذلك

المقالات — لا تقبل المقالات للنشر في المقتطف الا اذا كانت له خاصة ولا يعد قلم التحرير بارجاع المقالات التي لا تنشر فنرجو من حضرات الكتّاب ان يحتفظوا بنسخة من المقالات التي يرسلونها

العنوان — ادارة المقتطف بالقاهرة — مصر

AL-MUKTATAF

An Arabic Monthly Review of Current Science and Literature.

Published in Cairo Egypt

Founded 1876 by Drs. Y. Sarruf & F. Nimr

Edited by I. Mazhar



خليل بك مطران

(تصوير الدكتور احمد موسى)

المقتطف

الجزء الرابع من المجلد العاشر بعد المئة

١٠ ابريل سنة ١٩٤٧ — ١٨ جمادى الاولى سنة ١٣٦٦

المدرس الدولي

أو منظّمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة (١)

في أثناء الحرب العالمية الثانية أسست وزارة المعارف الانجليزية ، بمساعدة المجلس البريطاني ، منظّمة أطلق عليها إسم « مؤتمر الأمم المتحدة لوزراء التربية » . ولقد نالت هذه المنظّمة من النجاح ما فتح أمامها أبواباً من العمل والجهد ، حتى لقد فكر كثير من المهتمين بشئون الحضارة والسلام ، في تأسيس منظّمة دولية دائمة تتابع العمل فيما بدأ به ذلك المؤتمر الصغير . وبان عمّا قليل أن المؤتمر لا يستطيع ، إذا ما أراد الخير الشامل للبشر ، أن يحصر عمله في نطاق التربية وحدها ، وفي دائرة المتفق عليه من تعريفها . فلما أسست المنظمة الدولية ، أضيف إلى التربية أمران آخران : هما العلم والثقافة ، وصرف عليها إسم « منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة » .

وشهدت مدينة لندن مولد هذه المنظّمة العالمية ، حيث اجتمع نفر من العلماء المبرزين ، قضوا الصيف والخريف عاكفين على وضع القواعد الأساسية التي سوف تقوم عليها وتصدير لوائحها ونُظُمها ، ومن ثمة انتقلت برجالها وبرامجها الواسعة إلى باريس مقرّها الثابت ،

(١) صرف الانجليز على هذه المنظمة اسماً دولياً هو : Unesco وجاراهم على ذلك الفرنسيون وبقية الامم المشتركة فيها والكلمة مؤلفة من الاحرف الاولى للعبارة الآتية

United Nations Educational, Scientific and Culturar Organisation.

وسميناها في العربية « المدرس الدولي »

واجتمع في أثناء شهر نوفمبر سنة ١٩٤٦ مؤتمر افتتح المنظمة ، فغدا الجنين الذي وُلد في لندن طفلاً يحبو في عاصمة الفرنسيين .

ولا شك عندي في أن هذا الطفل سوف يشب وينمو ويرجل فرعه وتستبان عضلاته عما قريب . ذلك بأن غذاءه الحرية والتسمح والسلام ، فقد أقر المؤتمر العام هذه المبادىء السامية منذ البداءة ، بعد أن أيدها كثير من رجال الأمم المختلفة الذين شهدوا مولد ذلك المدرس الدولي ، فقام نظامه الأساسي على مبدإ حرية الأديان جميعاً ، وحرية المذاهب جميعاً ، وحرية العقائد جميعاً ، بحيث ينفسح المجال للنصراني والمسلم والبوزي ، والماركسي ، والشيوعي ، والاشتراكي ، والديمقراطي ، ونصير الاستبدادية ، ونصير الحرية الإنسانية أن يعملوا معاً لخير الإنسانية المحض من غير أن يضحي واحد منهم بمبدئه أو يطرح انتسابه إلى هذا المدرس بعقيدة من عقائده .

على أن الأمر لم يقف عند هذا وحده ، بل وضع المؤتمرون تعريفاً جديداً للسلام . فلم يعرفوه بأنه مجرد الامتناع عن العدوان ، بل سلام ينشأ عن عقيدة ينطوي عليها قلب الإنسان وحبه الخير لغيره كما يحبه لنفسه . وقد قبل هذا التعريف بإجماع شامل ، فكان لقبوله أثر واضح في جميع المناقشات التي دارت في ذلك المؤتمر التاريخي .

والجديد في ذلك الأمر كله . ان المعارف الانسانية وجعلها أساساً للروابط التي تجمع بين الأمم ، أصبحت قوة معترفاً بها في العالم الدولي ، ولم يصبح أمر العالم قاصراً على رجال السياسة والانتهازيين من رجال الحرب والدولة . ولا مرية إطلاقاً في أن التجاوب العقلي والروحي بين الأمم ، هو أكبر مانع للعدوان وأكبر مقاوم للعداوات التي تسبب تلك الحروب المهلكة المفنية .

ولقد لاحظ القائمون بأمر هذه المنظمة ذلك الأمر ، فرسموا الخطة التي تلزمها الأمم الممثلة فيها على خمس قواعد ، بل أنهم حصروها في خمسة رؤوس :

الأول : التنوير الذهني . فإن حاجة العالم الآن تنحصر في القيام بحملة كبيرة للقضاء على الأمية والجهل ، ذلك بأن السلام الحقيقي بمعناه الذي قرره مؤتمر باريس ، لا يمكن أن يقوم على أساس مكين ونصف أمم العالم في ظلام دامس من الخرافات والأساطير والجهالات وبالرغم من أن هذا العمل من اختصاص كل أمة قائمة بذاتها ، غير أن « المدرس الدولي » يستطيع أن يبعث الروح العاملة في سبيله وينفث فيه القوة بأن يجمع الحقائق والمعلومات الصحيحة ويعمل على نشرها بين الشعوب التي تأخذ في سبيل التنوير الذهني والقضاء على مخابث الجهل ، فقررت لجنة التربية رسم الخطة الآتية :

« القيام بحملة كبيرة على الجهل بالعمل على نشر التعليم من بداياته الأولية في القراءة والكتابة إلى غاياته العالية في تنوير الذهن وتقوية الحس الرعوي عند الأفراد ، وتصحيح العقول والأبدان ، وترتيب القيم الروحية » .

الثاني : ايقاظ النائمين ، فان في أمم العالم قاطبة فئات من المتعلمين ، غير أنهم يهملون عقولهم فتذل وتتضاءل قواها بالاغفال . وأمثال هؤلاء قوة من أخطر القوى التي تناوىء السلام في العالم . ذلك بأنهم يقعون فريسة أولئك الذين ينتهزون فرصة ضعف تفكيرهم ، فيبثون فيهم فكرات منقولة ليست من نتاج قواهم الذاتية . وهذه الظاهرة ولا شك معضلة قومية تهم جميع الأمم . ومن أجل أن يقاوم المدرّس الدولي هذه الآفة النكراء ، قرر المؤتمرون أن يكون من أوالي واجباته نشر نظام المكتبات المتنقلة ، وكتب المراجع والمتاحف ، على أن يهتم قسم العلم الطبيعي بأن يمهد السبيل بنشر الآداب العلمية بين الناس ، وفي اذاعة الحقائق العلمية باخراج الأفلام التي تتناول مختلف موضوعات العلم . في حين أن قسماً آخر سمي قسم « بيئات الجماهير » سيعكف على درس برامج الاذاعة ، وخصيات الصحف الرئيسية وأهوائها وميولها ، ومقدار تأثير بعض الأفلام على اتجاه الناس .

الثالث : تهيئة الأداة ، فان كثيراً من الفنانين والعلماء والفلاسفة ، وعلى الجملة كثيراً من رجال الأدب والفضل العاملين الذين تأكل صدورهم الغيرة على خير البشر ، كثيراً ما تقعد بهم الحاجة عن الحصول على الأداة التي بها يتهيأ لهم المضي في عملهم الناجح المفيد أو تصدهم الظروف عن الاتصال بغيرهم من العاملين . وقد يكون عجزهم المادي سبباً في عجزهم عن الانتاج والمضي في الابتكار . فقرر المؤتمرون أن يوجه « المدرّس الدولي » أقصى همه الى القضاء على الأسباب التي تقف بهؤلاء عن متابعة بحوثهم المبرورة ، بأن يهيء لهم الوسائل المادية اللازمة ، وان يشجع عقد المؤتمرات العلمية والفنية ، وأن يعمل على نشر المناقشة القيمة التي تسهل سبيل ذيوع المعرفة الحقة .

الرابع : تحطيم الموانع ، إن أمة بعينها ، وبمساعدة « المدرّس الدولي » ، قد تستطيع أن تعالج مشكلاتها الداخلية التي أشير اليها في الأقسام الثلاثة السابقة . وقد تتفق أكثر من أمة على توليف اتحاد يعمل في سبيل فض مشكل دولي من مشاكل الحياة الانسانية . ولهذا ينبغي أن توجه حملة شعواء على الموانع التي تحد من اتصال بعض الشعوب ببعض ، ومثلها التأثير على جوازات السفر ، وفداحة الرسوم الجمركية وقيود النقد ، وعلى الجملة كل القيود والموانع التي أقامتها الأمم علاجاً لحالات طارئة . وسوف يوجه « المدرس الدولي » أوالي جهده إلى هذه المجال . ومن أعظم الأسلحة التي يريد أن يتذرع بها وضع قاعدة بنشر

المؤلفات بأن تجعل حق نقلها وترجمتها حقًّا دوليًّا عامًّا .

الخامس : قوة التعاجل ، ان العمل بمقتضى المبادىء التي شرحت في الأقسام السابقة ، ولو أنه عمل فادح الجهد والمشقة ، إلاَّ أن « المدْرَس الدولي » لم يجده وافياً بغرضه الأصيل فان « المدْرَس » لا ينبغي أن يقصر همه على تطهير الحقل الدولي من العقبات والموانع ، بل يجب أن يثير الهمة إلى الأخذ بمبدأ التعاون الدوليّ والتقارب بين الأمم والتواصل بين أفرادها وجماعاتها ، على اعتبار ان ذلك هو السبيل الأمثل لقيام سلام حقيقي دائم . إما الخطوة الأولى في سبيل هذا الغرض فاتجهت نحو المسرح واتخاذه سبيلاً إلى تفهيم بعض الأمم آداب بعض بعرض المسرحيات الثقافية لجميع الأمم من غير تمييز . وقد اتفق على أن يكون هذا المعهد التمثيلي هيأة قائمة إلى جوار هيأة المدْرَس ويباح الاشتراك فيها لجميع الأمم، سواء أكُنَّ مشتركات في المدرس أم غير مشتركاتٍ فيه ، غير أن نجاح الرسالة المنشودة من هذا المعهد إنما تتوقف على النجاح في إزالة العوائق والعقبات التي تقف حائلاً بين اتصال بعض الأمم ببعض . هذه هي الرسالة الثقافية والعلمية التي يرمي إلى تحقيقها «المدْرَس الدّولي» . ولا شك في أنها أسمى رسالات هذا العصر .

يرأس هذا المدْرَس عالم انجليزي هو العلاَّمة « جوليان هكسلي » . ابن العالم الفيلسوف « توماس هنري هكسلي » زميل داروين المعروف ، والزائد عن حياض مذهب التطوُّر بكل ما أوتي من قوة البيان وقوة العلم .

نشأ « جوليان هكسلي » في بيئة التطور واستسقى من أفكارها ونهل من منابعها . فلا عجب إذا نظر في تأسيس هذا المدْرَس نظرة من يعتقد إنه مدرج من مدارج الارتقاء الانساني تجري عليه سنن التطور جريانها على كل ما في هـذا الوجود . فهو يرى ان مبدأ التطور قد أصبح الآن القوة المحرِّكة والغرض الأسمى الذي يحرك أفكار الناس ويوجهم وجهة أسمى من وجهتهم الأولى . ومن الظاهر بصورة قاطعة ان العالم يسير الآن صوب العمل على تأسيس حكومة عالمية . وهذا الغرض النهائي ظاهر الأثر في جميع المؤسسات والمنظمات التي يقوم الإنسان بابتكارها في هذا العصر . « والمدْرَس الدولي » مظهر من أجلى مظاهر التطور في الجمعية الحديثة لأنه يعمل إلى جمع الناس جميعاً في بوتقة واحدة ، من طريق تواصل الثقافات وتآلف الاستجابات النفسية والروحية . وفي ذلك جوْهَر ما يرمي إليه محبو السلام إذ يؤمنون بأن التفاهم بين الأمم وتكافلها من طريق الثقافة والعلم ، أعظم مُرَغِّب لها في السَّلام ، وأجدى عامل على إزالة الريبة وسوء الظن بين الأمم .

اسماعيل مظهر

خليل مطران الشاعر

كان خليل مطران منذ خمسين عاماً وتراً جديداً في قيثارة الشعر العربي استطاع أن يبتدع فيه ألواناً جديدة لم يكن له به سابق عهد .

وقد استطاع الخليل — رغم البيئة والعصر — أن يوجّه النظر إلى طريقته ، وأن يجتذب الى هذه الطريقة الأسماع ، ويسترعي الأنظار لفنه ، وأن يتبعه في نهجه فريق خطوا خطوات واسعات على ضوء المشعل الذي حمله .

ولئن اقترن اسم الخليل زمناً طويلاً باسمي زعيمين من زعماء الشعر العربي وقتئذٍ ، هما شوقي وحافظ ، لقد كان الخليل متفرداً عنهما بطريقته ، كما كان لكلٍّ منهما نهجه ... فلقد أخذ حافظ يضرب على وتر الوطنية المصرية زمناً ، وأخذ شوقي يدوّن أحداث الشرق ويسجّلها ، ويعرب عن آلام الشرق وأفراحه ، بينما كان الخليل يبني للشعر الحديث أسسه ، ويضع للسائرين على دربه الصُّوَى .

لقد كان ينقل الشعر من دائرة الى دائرة ، ومن محيط الى محيط . من دائرة التقليد الى دائرة استخدام الألفاظ والتراكيب على غير المألوف والمطروق منها . ومن محيط النظم الى محيط الشعور الحق بالجمال الحق ، والأخذ من الواقع للخيال ومن الخيال للواقع .

ولقد جعل الخليل أسس نهضته الشعرية على العناية بالمعنى قدر العناية باللفظ المنسجم معه ، وتحرّي الجديد من الموضوع ، والنادر من التصوّر ، وجعل وحدة القصيدة مبدأ ليتم للخيال استكمال صورته دون أن تقف أمامه وحدة البيت عائقاً

وأدخل على الشعر العربي اللون القصصي فغنّى منه بالمبدع ، وأتى فيه بالروائع البكر ، فاتسع بذلك المجال على الخيال الشعريّ الخلاّق ، ومزج بين الطبيعة والتفكير ، أو بين المرئي وغير المرئي ، وبين المُدْرَك بالعين والمُدْرَك بالبصيرة النفّاذة ، فقدّم للشعر العربي أفتن صورة ، ولعلّ قصيدتَه في هذا الباب « المساء » هي المثال الخالد لهذا اللون كما أنها المثال الرائع في الشعر العالمي .

هذا هو خليل مطران الذي يحتفى بالنهضة الشعرية عند ما يحتفى به

الصيرفي

أبناء العروبة
يكرمون شاعرهم

مهرجان أدبي بدت فيه مظاهر الوفاء والتقدير للشعر والأدب والفن

تجلت روعة الشعر وتقدير الأدب والبيان في المهرجان الأدبي التاريخي الذي أقيم في دار الأوبرا الملكية مساء السبت ٢٩ مارس سنة ١٩٤٧ تكريماً لشاعر الأقطار العربية الأستاذ خليل بك مطران فاجتذبت شاعريته وعبقريته أدباء العروبة وخطباءها وشعراءها من لبنان موطنه الأول وسوريا والعراق ومصر موطنه الثاني اجتمعوا في هذه الحلبة الأدبية التاريخية ليوفوه بعض حقه من التقدير والإكبار لما أجدى وأسدى وأنتج ونفع وأفاد شاعراً وكاتباً وصحافياً واقتصادياً

وتوّج هذا الحفل جلالة الملك المعظم في عطفه السامي وتقديره الكريم للأدباء والفنانين بأن شمل الحفل برعايته السامية فأوفد من لدنه حضرة صاحب العزة كريم ثابت بك المستشار الصحفي لديوان جلالته لحضوره .

واكتمل الحفل في الساعة الخامسة فاذا به مهرجان أدبي رائع ضمّ إلى كبار الأدباء والصحافيين وأبناء العروبة كبار رجال الدولة ، رأينا منهم دولة محمود فهمي النقراشي باشا رئيس الوزراء وجميع رجال السلك السياسي العربي ومعالي ابراهيم عبد الهادي باشا رئيس الديوان الملكي وصاحبي المعالي وزيري المعارف والمواصلات وسماحة السيد أمين الحسيني المفتي الأكبر، وسعادة علي زكي العرابي باشا ، وتوفيق دوس باشا ، وفؤاد أباظه باشا ، ومحمد العشماوي باشا ، والسيد صادق المجدّدي والدكتور طه حسين بك ، وغيرهم من الكبراء وأعلام الأدب والصحافة . وفي الساعة الخامسة وقف حضرة الشيخ المحترم خليل ثابت بك رئيس لجنة الاحتفال وألقى كلمة الافتتاح التالية :

حضرة صاحب العزة مندوب جلالة مليكنا المعظم ملك وادي النيل .

حضرات أصحاب السعادة الممثلين الرسميين لدول الشرق العربي .

حضرات أصحاب المقام الرفيع والدولة والفضيلة والنيافة والمعالي والسعادة والعزة .

حضرات السادة والسيدات

في سهل من سهول هذا الشرق طاب هواؤه ورقّ ماؤه وصفت سماؤه وسقيت أرضه

بماء التاريخ شاء جيل من الناس في سالف العصر والأوان أن يعربوا عن تقواهم وشدة تعبدهم فشادوا طائفة من المعابد والهيا كل جمعت بين العظمة والجلال والبهاء والجمال وصبرت على عاديات الدهر وصروف الأيام فكانت أعجوبة من أعاجيب الزمان .

في ظلّ هذه الهيا كل وفي الحدائق الغناء المحيطة بها وإلى جنب ينبوع رأس العين يتدفق ماؤه من جوف الأرض كذوب البللور نشأ في أواخر القرن الماضي في بيت اشتهر أهله بالمروءة والنجدة والجود ومكارم الأخلاق فتىً نحيل البنية واسع الخيال .

وانفتحت عينا ذلك الفتى على هذا المنظر الرائع الحسن في إطاره البديع من خضرة الأرض وزرقة السماء فنفذ جماله إلى شغاف قلبه ورسم في مخيلته صوراً من الحسن أخذ يصفها بشعر رقيق أطرب سامعيه وقارئيه فتوسموا فيه خيراً وأدركوا أن العناية حبتهم شاعراً . غير أن جوّ الحياة في بلاد الشام في ذلك العهد كان خانقاً لحرية الفكر والرأي والقول فضاق الشاعر الشاب ذرعاً بتلك الحال وهجر وطنه وأهله إلى مصر — مصر العزيزة ملجأ الأحرار وملاذ الباحثين في الشرق في ذلك الحين عن الحرية حرية الفكر والرأي والقول .

جاء إلى مصر الوطن الثاني لكل عربي في أقطار العرب ومهاجرهم فلقي أهلا بأهل ووطناً بوطن

وأشرف الشاعر على النيل العظيم فوقف على ضفافه خاشعاً وزار الاهرام فأكبر عظمتها وأصاب من رعاية أهل هذا البلد الكريم ما أطلق لسانه فأخذ يغرّد على ضفاف النيل بمثل ما لم يغرّد به على ضفاف القاسمية ويطرب العرب في أوطانهم ومهاجرهم .

هذا أيها السادة والسيدات هو خليل مطران شاعر الأقطار العربية وهو الذي اجتمعنا اليوم لتكريمه وتقدير خدمته للشعر والأدب كرجل كريم وشاعر عظيم وأديب كبير قضى العمر في خدمة الأدب والشعر واتصف بنبل الأخلاق والفضل وستسمعون أقوال الخطباء والشعراء في وصفه ووصف أدبه وشعره .

أيها الشاعر العظيم ، أيها الأديب الحكيم ، أيها الصديق الحميم ، هؤلاء نخبة من صفوة أقطاب العرب وعظمائهم في وادي النيل وسائر الأقطار العربية اجتمعوا اليوم للاعراب لك عن تقديرهم وتكريمهم فأهنأ بما لقيت وأنعم بما أوتيت زادك الله من فضله ونعمته .

يا حضرة صاحب العزة مندوب جلالة مولانا الملك المعظم . أرجو باسم لجنة الاحتفال وسائر حاضري هذا الاجتماع أن ترفع إلى مقام جلالة حبيب العروبة وناصر العلم والأدب أسمى آيات الولاء وأبلغ عبارات الحمد والثناء على تفضله برعاية هذه الحفلة وشمولها بعطفه السامي أطال الله عمره وأعزّ به مصر والعروبة .

واليكم يا حضرات السادة الكرام والسيدات الفاضلات ولا سيما حضرة صاحب المعالي وزير

المعارف ورئيس الحفلة وحضرات أصحاب المعالي والسعادة والعزة الخطباء والشعراء تسدي لجنة الاحتفال جزيل شكرها الخالص على تفضلكم بتلبية دعوتها . والسلام عليكم ورحمة الله.

وأنشد حضرة صاحب العزة الدكتور محمد صلاح الدين بك قصيدة خليل مطران بك التي توجه بها الى المحتفلين بتكريمه وهي :

طوّقتموني بأطواقٍ من المننِ ... فكيف أقضي حقوقاً جاوزت مُنني
وما سبيلي إلى أدنى الوفاء بما ... لكلِّ مبتدرٍ وافى ليكرمني
قد أعجزتني عن التخصيص كثرتكم ... فمن أقول له شكراً ومنْ ومنِ
أخاف من سوء تأويلٍ لرأيكمُ ... في الفضل لو قلتُ إني لستُ بالقَمِنِ
قومي وفي هامة العلياء منزلهمُ ... هم صفوة الخلق بالأخلاق والفِطنِ
إن عزّ من منحوا نصراً فأحرِ به ... أو هان من منعوه النصر فليهنِ
مواطنُ الضاد شتّى في مظاهرها ... وفي حقيقتها ليست سِوى وطنِ
ممثلوها بهذا المنتدى لهمُ ... مفاخرٌ مِلء عينِ الدهر والأذنِ
من كل ذي نسبٍ أو كل ذي حسبٍ ... ما في مصادرهِ من مصدرٍ أسِنِ
وكل ذي منصبٍ تعتزّ أمته ... بسيفه العضبِ أو بالرأي واللسنِ
وكل مقتبل الأيام مجتهدٍ ... وكل طالب علمٍ نابهٍ ذهنِ
ومن مؤثّل جاهٍ في تجارته ... أو في صناعتهِ أغنى الحمى وغني
وزارعٍ صائنٍ بالبرّ همته ... للوجدِ مبتذلٍ للحمدِ مختزنِ
وشاعرٍ يطربُ الدنيا ترنمهُ ... فما أفانينُ غرّيدٍ على فَننِ
وناثرٍ مسرفٍ في الدرّ ينفقه ... كأنه يتلقّاهُ بلا ثمنِ
يا للوزير رئيس الحفل هل وسعتْ ... شأني جلائلُ ما تهدي إلى الزّمنِ
ليحفظ اللهُ « فاروقاً » لأمته ... وللعروبةِ ولينصرهُ وليصنِ
هو الذي خبرَت معروفهُ أممٌ ... فما تنكّر في سرٍّ ولا علنِ
لولاه لم تكُ مصرُ اليومَ بالغة ... مكانها واتحادُ العربِ لم يكنِ
وليحفظِ الله أبناء الكنانة في ... يمنٍ وأمنٍ من الأحداثِ والمحنِ
وليحيَ من صان مجدَ الضاد من ملكٍ ... ومن رئيسٍ عليه اليومَ مؤتمنِ
فكلّهم جاء في ميقاته وله ... تاريخُ فضل بهذا المجدِ مقترنِ
دوموا وأيامُكم بالآلافِ زاهرةٌ ... ولا عدَتهُ عوادي الخلف والاحنِ
أبالغ بي وفائي بعض واجبهِ ... لو أن عمريَ في هذا الوفاء فني

أصل الأديان

اختلفت آراء العلماء في أصل الأديان ومصدرها ففريق اعتبر الدين كحادث طبيعي توصل إليه البشر بذات الطرق التي توصلوا بها إلى العلم والفلسفة .

وفريقٌ آخر اعتبر الدين غريزة في النفس:واليك خلاصة الآراء .

الرأي الطبيعي : زعم قوم من المعطلين أن الفواعل الطبيعية وما حلّ بالانسان من كوارث الحدثان أثرت في الماضي على عقله البسيط وأرعبت تصوراته الجامدة وجعلته يصدق الخيالات ويعتقد بالأرواح،فما العقل البشري حسب ظنهم إلا آلة مادية للشعور وهذا الشعور قاد الانسان إلى الاعتقاد بما يجهله مما غاب عنه إدراكه فعندهم أن الديانة صورة الخوف والهواجس .

وارتأى غيرهم أن مصدر الديانة جهل الانسان شرائع الكون وذهوله من تتابع الحوادث الطبيعية وسيرها على منهاج واحد لذلك ألّـه كل حادث من الحوادث الطبيعية وعبدها.

وقال أوغيست كونت : عبد الانسان الطبيعة إما لاعتقاده بأن بها روحاً له سلطة عليه . وإما لخوفه من قواها الظاهرة،وعنده إن أصل الأديان ميل الانسان الأدبي،لهذا قامت الأديان وهو حقيقتها وبه حفظت ولولاه لزالت . قال لاستري وتابعه غيره من الماديين ان الديانات بقية باقيـة من خرافات العصور الماضيـة أوجدتها الصدفة وتمسك بهـا الانسان لخوفه من مجهول وذلك لعدم معرفته نواميس الطبيعة .

وزعم قوم إنها حيلة من حيل الكهنة تسلطوا بها على البشر بواسطة التخرصات والخزعبلات

وقال هيجل وتابعه ميل إن الديانة كبقيـة المعارف التي توصل إليهـا الانسان بالملاحظة والاختيار أوجدها جهله لأسرار الطبيعة وسيتركها لدى إطلاعه عليها .

وقال مينزس Meinzise : أكرم الانسـان الطبيعة وعبـدها لخوفه من الظواهر الجوية وتعلق بها لاحترامه للفائدة والتجربة التي حصل منهما على غذائه وتدرّج من هذا إلى الاعتقاد أن بها روحاً نظير روحه فصدق الخيالات وعبد الأرواح وعن هذه الأسباب نشأت الأديان فالديانة بنظره عبادة قوة غير منظورة نتجت عن شعور عدم الارتضاء .

اما شلير ماخير chleirmacheir فقال انها حاصة ناتجة عن اعتقاد الانسان بكونه متعلقاً بكائن لايعلمه . ترجع هذه التعاليم والآراء إلى هذه المبادىء الثلاث .

اولاً — « ان مصدر الديانة الانفعال من الظواهر الجوية والخوف من الفوادل

الطبيعية لعدم معرفة الانسان لنواميس الكون وارجاع الاسباب لمسبباتها »

ثانياً — « ان الديانة صدفة حدثت عن مجرد الخوف والوهم لوقوف الانسان امام المجهول ».

ثالثاً — إنها حيلة من حيل الكهنة موّهوا بها على العقول البسيطة حبًّا بالسلطة ورغبة بالمنفعة فصدّق الانسان التخيلات واعتقد بالخرافات لتهويلهم على مخيلته .

فلنبحث في كل حالة من هذه الأحوال الثلاث .

أولاً — نعم أنَّ الفواعل الطبيعية والظواهر الجوّية أثرت في مخيلة الانسان وفي معتقداته فصوت الرّعود ووميض البروق ودمدمة الزوابع شغلت أفكار الانسان المتوحش وأرعبت قلبه وأثرت في تصوراته فاندهش من عظمتها وخاف من قوتها وحذر من مظاهرها وهاله أمرها فاعتقد أن قواها المنظورة وغير المنظورة عاملة به متسلطة عليه فارتبط بوجوده معها وتعلقت حياته بها فكان إذا أخصبت أرضه عاش رضيًّا واذا أمحلت مات ونتج عن ذلك أنه اعتقد بأرواحها وعبدها وقسمها إلى صالحة وشريرة تبعاً لمنافعها وأضرارها فأرواح الأمطار الشمس والحرارة مثلاً كانت في عينيه من القوى المحسنة إليه وأن ارواح الجفاف والبرد والمجاعات والأمراض من الأرواح المضرة له فقال إنها شريرة . ومن ثمّ نتج عن ذلك الاعتقاد الميل إلى استرضائها لدفع أضرارها أملاً بالحصول على رضاها فقدم لها الضحايا وحباها بالعطايا وتقرب إليها بالصلوات والرقص إلى غير ذلك من العبادات والطقوس إن هذا الرأي يفسر لنا بعض معتقدات القبائل المتوحشة لكنه وهمٌ فاضح وخطأ يتقدمه الواقع ويتضح فساده لدى درس النفس البشرية والاطلاع على الحقائق العلمية . لأنه لو لم تكن الديانة غريزة في النفس لما تأثرت من الفواعل الطبيعية فعاش الإنسان بغير ديانة . فالدّيانة إذاً غريزة في النفس ولو لم تكن كذلك لزالت وطوتها الأجيال الطوال ولم تبق مع العصور المتناهية في القدم، يؤيد هذا القول الاختبار الفسيولوجي ومنه نعلم أن علاقة النفس مع علة العلل هو ميلها إلى معرفة مصدرها فاستغاثة الانسان بالله هو يقين بوجوده وإيمانه بمقدرته وثقته براحمه .

فالإنسان في حالتي الحزن والمرض والضيق والخوف والضعف والخطيئة يستغيث بخالقه بتلك الذات السماوية الفائقة الإدراك . فلو لم يعتقد الانسان بالله لما طلب منه المعونة ولما كان له اتصال معه وعلاقة به. وتاريخ الأديان يثبت لنا ذلك . وصلاة هذا البابلي وقد مضى عليها أربعة آلاف سنة توضح لنا حالة النفس الدينية بأجلى بيان . ومنها نطلع على أسرارها الخفية ونقف على ضعفها وقوتها فنرى أنها قد تغلبت على الفناء ونهضت من ظلال الموت لتخبرنا بفعل الرحمة .

إلهي ان آثامي عظيمة وخطاياي كثيرة قد صنعت شروراً كباراً وصغاراً لاعداد لها ولا علم لي بها . فيا إلهي أيها السيد إن ساعة غضبك أدهشتني لكن مراحمك أحاطت بي وخلقتني فيا ربي وإلهي لا تبتعد عن عبدك إذا انحدر إلى الهاوية التي لا قاع لها مد يدك إليّ أغثني وامحو آثامي وبدد خطاياي ذرها كالرماد مع الرياح فأحيا .

يرى المرء بهذه الصلاة صورة نفس الانسان التي شعرت بأصلها السماوي فطلبت المعونة من الله والغفران . فالديانة كما قلنا هي شعور النفس بالخالق وميلها إلى معرفته بالاشتراك معه بالحق والمحبة لذلك أحب الانسان قريبه وعمل بما ينيله عفو الله ورضاه بهما وظهرت فكرة العدالة والرحمة وبهذا صار الانسان إنساناً له صفة امتاز بها عن بقية الحيوان ووجوده كانسان هو بقوة نفسه الأدبية أي بسلامة النفس واشتراكها مع الله بالحق وحياتها معه بالمحبة . إن كل إنسان يميل بالطبع إلى التعبّد لمعبود منظوراً أو غير منظور وهذا ما يسمونه بالحاسة الدينية وهي غريزية غير عرضية لوجودها في جميع البشر في حالتي الرقي والانحطاط

إذا قلبنا صفحات التاريخ واطلعنا على أخبار الأمم القديمة والحديثة لا نجد شعباً بدون ديانة حتى إن وجود قوم بدون نطق ليس بأبعد من وجود قوم بعيدين عن الفكرة الدينية والمعتقدات الروحية . وما قال به بعض السياح من الذين جابوا الأماكن المجهولة وعاشوا بين البرابرة من أن بعض القبائل المتوحشة بلا ديانة وليس عندهم عبادة ظهر لدى الفحص والتحقيق إنه كان خطأ . ومن يبحث أحوال الشعوب قديمها وحديثها يحكم حكماً قاطعاً إنه لا يوجد شعب واحد خالٍ من الاعتقاد بروح من الأرواح أو بإله من الآلهة وهذا الأمر كان معروفاً من فلاسفة اليونان وقد بنوا عليه نتائج جوهرية . فالديانة مغروسة في النفس وهي من مطاليبها ولا يمكن صرفها إلى غير ذلك من الأغراض مهما حاول المدعون فهذا الأمر قضية أولية لا يمكن نقضها

ثانياً — إننا لو دخلنا إلى اعماق النفس البشرية وتعمقنا في البحث بمطاليبها واطلعنا على أسرارها ولاحظنا ميولها لعلمنا إن الديانة حاسة غريزية في النفس لم تنتج عن الخوف من المجهول كما يزعمون ولا عن الوهم بما خفي من الأمور كما يتوهمون .

فلو إنها حدثت عن صدفة كحادث من الأمور العرضية. ولو كانت نتيجة الخوف والوهم لنبذتها النفس كما نبذت أشياء كثيرة من الأمور المجهولة . إننا نرى بالواقع أناساً من أصحاب العقول السامية والنوابغ الذين اشتهروا بين البشر وقادوا الانسانية إلى العمران والرقي كانوا متدينين وغيرهم من الجهلة كانت حاستهم الدينية ضعيفة فلو صحّ ما زعموا من أن أصل الديانة الخوف وعدم المعرفة لنبذها عقلاء القوم وتمسك بها الجهلاء . وبالواقع

نرى عكس ذلك، نرى ان عدد المتدينين بين العقلاء أكثر من عددهم بين الجهلاء. أخيراً لو كان الخوف علة وجود الآلهة لما رأى فيها الانسان صورة الخير العام. فجميع الأديان الفطرية والراقية علمت أن الآلهة أوجدت الواجبات على البشر وانها هي التي أمرت الانسان بعمل الخير وبالابتعاد عن الشر وعلمت أيضاً أنها هي التي تدفع عنه المضرات وتهبه الخيرات من شبع وري وإنها هي التي خلقت العالم وأوجدت الحياة. ولو اعتقدنا أن هذه الفكرة ظهرت حينما ارتقى الانسان وصارت له حياة معنوية لو صحّ ذلك لما رأينا الشعوب الهمجية تعتقد ذات الاعتقاد وتنسب إلى آلهتها الخلق والفضل والبركات. ولو لم يكن كذلك لظلّ الانسان مقتصراً في عباداته على طريق المبادلة بينه وبين الآلهة ولم يهتد إلى الواجب المفروض عليه من قبل الرحمان، إن فكرة الخوف لم تكن لتتمكن من نفس الانسان لو لم تكن طبيعة نفسه دينية. فالسبب الذي عمل بها في الماضي يعمل به الآن بعد أن زال الخوف من فكر الإنسان. وإننا إذا وجدنا في بعض الأديان قضايا شاذة وخرافات كثيرة متنوعة متشعبة ناشئة عن خوف الإنسان في الماضي من الفواعل الطبيعية والظواهر الجوية فإن أصل تلك المعتقدات خارج عن أصل الديانة الطبيعي.

ولو كانت الديانة صدفة عرضية لتركتها النفس البشرية حينما زال المسبب لها ولما شملت جميع الخلائق والأمم وتاريخ جميع الشعوب شهادة لا يمكن إنكارها.

ولو لم تكن الديانة في النفس لتركتها النفس فزالت كبقية الصدف العرضية لأن العرض لا يدوم ولا دوام إلاّ للجوهر، وهل يقدر الإنسان أن يحافظ على خلق بعيد عنه وصفة ليست منه إن هذا من المسلمات البديهية.

ثالثاً — لو اهتمّ الكهّان والحكماء وموّهوا على الأذهان وضللوا العامة بالأديان ليتسلطوا عليها. لو أنهم اخترعوا الأرواح والآلهة ووضعوا أصول الأحكام الدينية ورسوم العبادات ليؤثروا بذلك في المخيلة لما وجدت ديانة على وجه الأرض لأن التاريخ يدلنا على أن الأديان وجدت قبل الحكماء والملوك والكهنة. قبل حياة الانسان الاجتماعية، أي حينما كان متوحشاً طريداً شريداً يأوي الى المغاور ويسكن في شقوق الصخور. فلو كانت الديانة حيلة من حيل الكهنة لما وجدت ديانة لأن مجرد وجود الكهنة يلتزم وجود ديانة قبلها. ولو لم توجد في النفوس البشرية تلك الحاسة الغريزية لما وجدت الفكرة الدينية في عقول الكهنة ولولا ذلك الميل السابق الى الديانة لخابت آمالهم من تسلط أوهام بعيدة عن الطبيعة البشرية، ولما دام هذا الخداع مدة أجيال طويلة متناهية في القدم، ولما انتشرت الأديان في جميع القبائل والأمم.

أسكاتة — طرابلس الشام أمين نعوم

الكتاب اللبناني

بمناسبة المعرض الذي أقيم بالقاهرة

لا شك في أن إخواننا اللبنانيين كانوا من أسبق أدباء العربية عناية بالطباعة ، وإذا كانت المطبعة الأهلية التي أنشأها في القاهرة مؤسس مصر الحديثة قد أسدت للكتاب العربي أيادي لا تجحد من العناية بالطبع والإخراج الصحيح ، فإن للآباء اليسوعيين مثل هذا الفضل ، فقد بذلوا من الجهد في التنقيح ، والعناية بمظهر الكتاب ، وإبرازه في أحسن حلة لم يسبق لها مثيل في الشرق ما جعل لمطبوعاتهم من المكانة والتقدير ما هي جديرة به .

وكان لنشاطهم أثر ملحوظ في النهضة الأدبية امتد إلى هذا العصر . . . ولقد نقل اللبنانيون معهم في كل مكان هاجروا إليه بذور هذه النهضة ، وما زالوا بها حتى أثمرت وخلدت على رغم الزمن ، وثبتت جذورها وامتدت أغصانها فأظلت كل ضروب الثقافة .

وتاريخ النهضة الفكرية مدين في كثير من نواحيه إلى أعلام نبتوا في ظل الأرز الخالد .. هذه حقيقة لا تجد إنكاراً ولا تصادف جحوداً .

ولقد كنا — نحن المصريين — من أكثر الناس إعجاباً بكل أثر فكري ينتجه عقل لبناني . ولكن إخواننا اللبنانيين كانوا أكثر الناس عتباً علينا ، ناسبين إلينا التقصير عن الإشادة بما ينتجون . . . ولكنني كنت أمر بهذا العتاب مطمئن الضمير ، لأنني كنت من السباقين في الكتابة عن معظم آثار الفكر اللبناني التي ظهرت خلال الخمسة عشر عاماً الماضية ، وكانت هذه المجلة في مقدمة المرحبين بهذه الآثار والكتابة عنها .

نعم . قد يكون هناك تقصير من بعض الصحف والمجلات في تناول كثير مما تخرج المطبعة العربية ، وقد تكون هناك شكوى من هذا التقصير في حق النهضة الأدبية ، ولكن هذا التقصير وتلك الشكوى منه ، ليس بالواقع أثره على أدب بعينه ، ولكنه تقصير لحق حتى بما تنتج المطبعة في مصر ، والشكوى التي يرددها إخواننا في لبنان يشكو منها أدباؤنا من تقصير الصحافة المصرية في تناول آثارهم .

وقد يجرّنا القول هنا إلى إثارة شكوى كثير من أدباء مصر من عدم العناية بدراسة آثارهم في صحف لبنان ، وأنا أميل إلى الاعتقاد بأنه إذا كان هناك تقصير ، فإن هذا التقصير ليس بالمتعمد ، أو ليس مقابل الصنيع بالصنيع . وقد يكون مردّه إلى طغيان المسائل السياسية وضيق الصفحات بسبب ظروف الحرب الطارئة .

هذه كلمة أردنا أن نقدم بهـا كلمتنا عن معرض الكتاب اللبناني الذي أقيم بالقنصليـة اللبنانية في القاهرة ، وافتتح في اليـوم الحادي والعشرين من شهر مارس المـاضي بحضور كثير من الشخصيات البارزة في البلاد العربيـة وكثير من أعلام الأدب والمعنيين بالثقافة العربية ، لأن من العوامل الأولية في إقامة هـذا المعرض بمدينة القاهرة للكتاب اللبناني ، تلك الشكوى التي أشرنا إليها .

فلقد أشير في مقدمة الدليل الذي صنّف بمناسبة هذا المعرض إلى هذا السبب حيث جاء فيها : « تلاحظ جمهرة الكتّـاب في لبنان أن الـكتاب اللبناني في مصر مغمور ومحاط بالغموض ، ولعلّ الخطأ في ذلك يرجع إلى نقص في تنظيم النشر أكثر مما يعود الى عدم إقبال القرّاء المصريين » وإن كان قد أشير كذلك إلى أن إقامة هـذا المعرض غرض من الأغراض التي عمل القائمون به على العمل في سبيل تحقيق الغاية التي تدعو إليها اللجنة الثقافية في جامعة الدول العربية من تقوية الوشائج الثقافية بين الدول الناطقة بالضاد .

ولقد كانت الفـكرة التي خطرت للأستاذ مصطفى عبد الباسط فتح الله صاحب مكتبة الـكشاف ومطبعتهـا في بيروت فـكرةً جميلةً أحسن الى الثقافة العربيـة حين عمل على تنفيذها بإقامة هذا المعرض ، كما أنه كان أجمل من هـذه الفـكرة وتنفيذها وأروع منهما ، هذه الروح الطيبة التي دفعته إلى العناية بإبراز معظم المطبوعات اللبنانية التي أصدرتها دور نشر أخرى . غير داره هو ، ناظراً في ذلك الى تحقيق الغاية النبيلة التي تقام من أجلها مثل هذه المعارض ، ولم يقصر ذلك على ما ظهر من الـكتب في لبنان وحده ، بل تعدّى ذلك الى عرض جميع ما ظهر للـكتّـاب اللبنانيين أو الذين من أصل لبناني في بلاد أخرى .

وكان الدليـل الذي قام بنشره مما تدعو الحاجة إلى إخراجه — ولو أنه في حاجة الى مراجعة كثيرة وإلى إضافات كثيرة ، لعـلّ الظروف تساعده على إعادة نشره على ضوء

ما يهتدي إليه وفي مظهر أكثر فائدة للمشتغلين بالثقافة العربية وتأريخها حتى يكون مرجعاً دقيقاً لهم .

على أنه قد بدت لنا بعض أشياء لاحظناها خلال طوافنا بهذا المعرض ، لعلّ في مقدمتها عدم عرض المنشورات الدورية التي تصدر في لبنان من صحافة يومية أو أسبوعية أو شهرية ليتعرّف إليها القارىء المصري الذي لم يستطع الإحاطة بها أو الحصول عليها . كما انه كان من الجدير أن تعرض بعض أعداد مما صدر من صحافة لبنانيــة في مصر او في الأقطار التي هاجر إليها اللبنانيون أو ما ظهر في لبنان في الجيل الماضي أو القريب من عهدنا الحاضر .

وقد يُرَدُّ على ذلك بأن المعرض خاصٌ بالكتاب اللبناني ، ولكن ليست كلمة الكتاب قاصرة على ذلك ، فكل ما انطوى على ثقافة فهو كتاب .

كما أنه قد بدا شيءٌ من التقصير في عرض كثير من الآثار التي أخرجتها المطابع اللبنانية في أمريكا ، وكان واجباً — وقد استعير بعض هذه المؤلفات من دار الكتب المصرية — أن يكون العرض شاملاً لتلك المؤلفات ولو عن طريق الاستعارة أيضاً .

ولا ينهض عذراً للاستاذ مصطفى فتح الله ما أشار اليه في مقدمة الدليل من أنه لا يدعي أنه حصر « بهذا المعرض وبهذا الدليل جميع الكتب التي ألفها لبنانيون أو التي صدرت عن المطابع اللبنانية ، إذ أن هذا واسع جدّاً ومتنوّع في لغات متعددة ، وغير محصور في الوطن الأم ، بل هو منتشر في أنحاء الدنيا حيث المغتربون اللبنانيون » بدعوى أن هذه محاولة أولى في هذا المضمار . لأنه كان في استطاعته وقد لقي من حكومته كل تقدير ومساعدة مادية ومعنوية أن يسعى إلى إتمام هذه المحاولة وإبرازها كاملة .

كما لوحظ أن هناك كتباً عرضت ليس مؤلفوها لبنانيين أو عرف عنهم أنهم من أصل لبناني ، ومن الأمثلة على ذلك كتاب « في الحياة والأدب » للأستاذ سلامه موسى .

على انها بالرغم من هذا كانت فكرة طيبة ، وكانت غاية نبيلة ، وكانت فرصة سعيدة للقارىء المصري ظفر بها في التعرف الى تلك النهضة الفكرية الحديثة التي ظفر بها لبنان الشقيق ، وهي امتداد للنهضة العريقة التي حققها أدباء ذلك الوطن في الجيل الماضي .

حسن كامل الصيرفي

الربيع

يا جمالَ الربيع ، صبحٌ طروبُ وضُحىً ضاحكٌ ، وليلٌ لعوبُ
وغصونٌ حنتْ فقلنا ضلوع وطيورٌ حنت فقلنا قلوب
ونسيمٌ مرنحُ العِطف ، نشوا نُ ، ولكن موقّرٌ محبوب
رقّ حتى لو صُغتَ منه اعتذاراً لارتضاه منك الحبيب الغضوب
وندًى مترفٌ ثغور العذارى تدّعيه لو كان فيه ثقوب
هو دُرٌّ طافٍ على صفحة الرو ض ، عطوفٌ على الزهور ، وثوب
وورودٌ لم أدر هل هي أورا ق وشوك ، أم راحة ولغوب ؟
حملت شوكها سلاحاً ، فهل تنـ ـشب في عالَم الزهور حروب ؟
وهزار لم أدر هل هو طير يتغنى ، أم شاعرٌ مشبوب ؟
أم ملاكٌ يستغفر الله للنا س ؟ . على الناس أجمعين ذنوب
وزهور هي الثغور التي للنحـ ـل في رشفها غرامٌ دءوب
قلتُ للقلب حين هفّت ورفّت أنت حرٌّ ، تتوب ، او لا تتوب
ما لقلبي وما لها ؟ . . غار حتى كاد من غيرة عليها يذوب
هو ، إن قال قد صبوتُ ، صدوقٌ وهو ، إن قال قد سلوتُ ، كذوبُ

شاعر البرازي

هذا الانسان

أحبَّ نفسه حبّـا لو تقصّـيت لعثرت عليه حتى وهو في نسكه ، وتعالى فاشتطَّ يدعي لها الـكرامة على الـكون ، ويصطنع العزة تنافس السماء . ولـكنك لا تقف منه عند هذا الفصل فهو في فصل آخر يبذل على الشّهى من نفسه بذلاً جمّـا ، فيه الـكثير من السرف والسدر ، كأنما هي ليست بالـكريمة ولا بالعزيزة عليـه . وما يعوزك إلاّ القليـل من البصر لتشهد الانسان في موقفه الثنائي هذا ، فأنت تراه يعصي حتى المعاني الخلقية وهو يلتمس لنفسه المال والجاه والسلطان جميعاً ، وتراه يجري مع الأشواق أشواطاً إلى ما يذهب منها بالعافية ، ويستنفد الطاقة ، وقد يأتي على الثروة من هـذا اللهو المترف النهم أو الخشن الجائع ، وهذه الملذات وتلك يقبل عليها في الخفاء أو في الجلاء ، ساهراً عابثاً أو داعراً ضالاً ، وقد يقبل شقيّـا بائساً ، أو يقبل قانطاً منتحراً يصارع الحياة ، فهو في حاليه هاتين مفتون بنفسه شديد الفتون بها ، عدوٌّ لها كثير الجناية عليها ، ولست تجده — على المصباح إلاّ مخلوقاً يجاهد قلبه حيناً ، وحيناً يناقض بعضه ، ولا يغرّنك وجهه ولباسه وكله .

رأيته أمة تنعي على أمة شهوة اتخاذ الغـازات والجراثيم اداة عدوان وقهر ، وتقول : «ما هذه الشهوة إلاّ الجناية على الانسانية » ثم لم تلبث هي أن أخذت بالقنبلة الذرية ، تبيد بها المدينة الـكبيرة من بعد المدينة الـكبيرة ، وتبرّر فعلتها الجانية هذه بما شاءت لها الوقاحة .

ورأيته حكومة وعدت قوماً ديار الآخرين على سعة أرضها وعريض ملـكها ، واصطنعت من الـكذب على الانسانية ، ومن فتات القوم مبرراً للعدوان .

ورأيته ملـكاً لا يعرف إلاّ أن يمد من سلطانه ، وإلاّ أن ينتقص من حرية شعبه ، ومن حقوقه ما وسعه أن يفعل ، وإلاّ أن يمن من بعد على الناس بأنه من أهل الهدى !

ورأيته جماعات وأحزاباً وطبقات وشعوباً وقبائل ، بل ومبـادىء تمارس أرقى المعاني المثالية ، ومن بين يدي هـذه المعاني ومن خلفها وفي ثناياها تروح الأنانة وتجيء ، وقد تضحك فتقهقه .

لك أن تتخيل الانسان فيلسوفاً في ثقافته ، أو تاجراً أو صانعاً أو عاملاً أو اكاراً ، ومن أي وسط وطبقة ولون .

ولك أن تتخيله سلافيـًّا أو سكسونيـًّا أو لاتينيـًّا أو عربيـًّا ، ومن العرق الأصفر أو من الزنج ، فهو في هؤلاء جميعاً مخلوق معقد أشد التعقيد ، ولعله أعظم المخلوقات تعقيداً فيما يبطن ويتلوّن ويتقلب بين الشيء وضده ، فما تراه عنده أو تراه منه ليس – في الغالب – هو ما انطوى عليه أو تحرّك إليه .

فهل طبيعة الانسان المتناقضة الثنائية هذه — في حبه لنفسه وجوره عليها ، وفي تقلبه بين الخير والشر ، وتذبذبه بين الفضيـلة والرذيلة — تحمل معنى طفولته العقليـة على رغم مئات الألوف من السنين : هذه التي عاشها مذ كان على وجه الأرض ؟ أو هي الشاهد على أن ليس له يد — على الأغلب — فيما يقبل ويدبر ، وفيما ينهج ويصنع ، وإنه إنما يسعى مختاجاً أو مؤتمراً بما يعتمل فيه من رأسه إلى صدره إلى معدته وغدده وأعصابه ، ومستجيباً ان قليلاً وإن كثيراً لضغط ما يلابسه من العوامل والقوى الخارجية على امتداد البيئة والجو والهواء ؟ .

ليس الانسان بدعاً بين المخلوقات في طبيعتـه الثنائية ، فتلك سنة الخليقـة في الوجود ، تقوم على الدفع والجذب ، على الضدين يتفاعلان فيمضيان إلى التشاد والتماسك في كل كائن ، وكل خلية من كائن . ولولا قيام الكون على سنة تعارك الاضداد هذه لفسد النظام وانفرط العقد الجامع بين الكائنات .

وأنت تجد هـذه السنة شائعة حتى في دنياك لو فطنت إليها ، فهي محتشدة بالاضـداد كالتحليل والتركيب والعرض والطلب والخير والشر والحب والبغض والمساواة والتفاضل والوحدة والتنوع والديمقراطية والارستقراطية وما إلى هذه وتلك من ثنائيات الحياة .

وقد تنظر من نافذة ثانية فتجد أمامك الانسان بما استنبط من القواعد واكتشف من النواميس ، وراد من المجاهل ، وصعد في السماء قد بلغ ذروة تنفي الطفولة عن العقل البشري ، ولـكننا نعنت هذا العقل كثيراً ونحن نتوقع له السلطان الكامل على أشواق الانسان ، وربما كان من الخير أن نفرق بين مجاله ومجالات الغرائز الأخرى .

وأحب وأنا أنتقل إلى النقطة الثانية من الموضوع — أن أنطلق من أغلال الرأي القائل بقدرة الانسان على ان يصنع أو ينذر نفسه للخير الخالص وأن أتحرر من أوهام هذه المعاني التي حفلت بها كتب الأخلاق ومعاجم اللغة ، فأنت واجد فيهـا أسماء لفضائل خلقية ليس لها — ان صدق الرأي — في الدنيا من وجود ، أو ليس لتحقيقها مكان في الطبيعة البشرية

وان كانت جذابة مدوية كالعدالة والعفة والمساواة ، وكالقناعة وأشباهها من المعاني المثالية وأنت ان أخذت منها احداها : القناعة مثلاً ، وتقصيت كبد الواقع ، رأيت الانسان لا ينفك يطلب المزيد من دنياه وان ليس في وسعه -- بحكم تركيبه الفطري — ان لا يفعل ، واذ يظهر القناعة أو تظهر هي عليه ، فإنما ذلك يكون إما لعجز في القدرة ، أو لتقصير في التطاول ، وأكبر الظن في الانسان الذي يرى قانعاً أن يكون مأخوذاً بسلطان هوى اشد امتلاكاً له ، وأكثر تحكماً في مراده من غريزة الطمع . وقد يتبدّل الإنسان بالقناعة ، وهو يتخذ منها قناعاً .

وبعد فما الذي يصنع الإنسان ، أو ما الذي له يد فيما يصنع الانسان؟ وأنا إنما أتساءل عن المكونات الأصلية لخلقه ومشاعره فيما ينطلق ويتجه ويتكيف ، وأحبُّ أن أتخطى دواعي الحركة كالهم والألم والجوع وطلب اللذة وارضاء الكبرياء فما هذه إلاَّ الآثار لأشيال هي التي نريدها بالبحث ، وتلك مقوّمات الهيكل البشري ، أو عماد تكوينه وأدوات اضطرابه وتقلبه في الحياة .

وانت تعلم أن الإنسان في بنيته مؤلف من عناصر المادة ، فهي ملاكه على اليقين العلمي وتعلم أنه يتساوى في هذا الخلق ويشترك هو والحيوان والنبات والجماد جميعاً ، وليس يمتاز إلاَّ من حيث ارتقاء التركيب والتأليف ، وإبداع الخالق تعالى في خلقه . فنحن إذن من الإنسان أمام مزيج من عناصر المادّة المتفاعلة ، كما نحن من سائر الكائنات على السواء . ودع أمر الإنسان فيما يمت إلى الروح أو إلى أثرها فيما يسعى ، فالعلم ما زال منها أمام باب مغلق وسرّ مبهم، ولست أريد فيما أبحث أن أستسلم إلى الأحاسيس الغامضة فأرجم بالظنون .

هذه مضارعة ، أو هي على الأصح مقارنة نريد منها أن نخلص إلى القول بأن الإنسان إنما يصنعه حظه من الخلاق فهو كائن على قدر الابداع في تركيبه من عناصر المادّة ، وأعمال هذه العناصر في بدنه ، وقدرتها على الإمتصاص من الخارج ، وأنّ طبيعة الخلق هذه في الإنسان لا تيسره للخير الخالص ، ولا للشر الخالص ، فهو يتذبذب بين هذين وإنما الطيبة على قدر غلبة الجوانب الخيرة فيه على جوانب الشر ، وأن ما يفعل في سائر الكائنات يفعل في الكائن البشري لا محالة .

ولعلّ الخير في أن تأخذ من الجمادات مثالاً ، فأنت في تحريكك لحجر من مكان إلى آخر ، إنما تعتمد، بالإضافة إلى قدرتك الشخصية ، على أشياء بعضها يتصل بالحجر ذاته ، وبعضها بالخارج ، مثل حجمه وشكله الهندسي وثقله ، أو تماسك ذرات بنائه وتراصها ، ومثل مكانه من مركز الجاذبية،ومدى تعرضه إلى الانحدار أو الارتفاع أو الانبساط،ثم للهواء الخافق

المترقرق ، أو الشديد العاصف ، كل أولئك عوامل ذاتية وخارجية تشترك معك في تحريك الجماد .

كذلك الشجرة فهي إنما تمتد في الفضاء فروعاً ، وتخترق الأرض جذوراً على قدر ما في طبيعتها من سعة للامتداد والاختراق . وقدر ما تمتصه في جوّها من الضوء والحرارة ، وفي تربتها من الرطوبة والمواد الصالحة لها ، وهي تختلج متأثرة بالهواء يختلف ترفقاً وعتوّاً ، ويتحوّل إلى الشمال أو الجنوب ، الى الشرق أو الغرب . ولعلك واجد في اختلاف الشجر والنبات علوّاً وضخامة ، ثمراً ولوناً ، واختلاف استجابتها للعوامل الخارجية تعليلاً يمدك بالفطنة الى أن أسباب الحركة والنمو والتطوّر لا تنحصر في الكائن ذاته ، بل لا بدّ من يد تمتد إليه من الخارج . فهل هذا شيء يمت الى وحدة الوجود ؟ .

والإنسان لا يشذ عن هذه السنة فهو عبدٌ لنفسه لفطرته ، لهذه الأجهزة في إهابه ، وعبدٌ كذلك لعوامل البيئة والجو ، وبتعبير آخر : إنّ الانسان ينفعل بهذا التعامل المعقد بين الخلايا في جثمانه كما ينفعل بطبيعة الجو فيما يلابسه من الأشعة والحرارة والبرودة ، وكما ينفعل بطبيعة البيئة فيما يرى ويسمع ويقرأ ويمارس ، حتى وفيما ينال من حبّ وعطف وحنان ، أو يجد من خشونة وقسوة وظلم . ودع نوع الغذاء ولون الحياة ، فأمر هذين في خلق العافية وتكوين الشخصية بيّن معروف .

هاك التنفس مثالاً ، فأنت به تحيا على شيء يبلغك من الخارج ، فيقبل جهازك منه ما يقبل ويلفظ ما يلفظ ، يقبل ما خلق واتسع لقبوله ، ويلفظ ما عداه ويمجه . وإذن فان انفعال الإنسان بما في الجو والمحيط إنما هو على قدر ما تسمح به طبيعته الذاتية ، ولعلّ هذا يعلل اختلاف الناس في مدى الإنفعال بالمؤثرات الخارجية ، ومدى قربهم من الخير أو الشر ، وقد يعلل كذلك تفاوت الفطرة البشرية ، فهي على أنماط منها ما يغلب الشر عليه فيمج مُمّا حذو طائفة من النبات والحيوان ، ومنها ما يقطر شهداً حذو أخرى من هذا وذاك .

وإذ كان هذا مكان الإنسان من نفسه ومن الطبيعة كان منفعلاً على الغالب وليس بفاعل فيما يأتي ، أو في معظم ما يأتي على الأقل ، وهو من أجل هذا المكان جديرٌ بالمعالجة الرحيمة أكثر مما هو جدير بالتثريب والزجر والقصاص ، بل هو بهذا الحظ تعسٌ شقي يأتي دنياه على ألم ، ويفارقها على آلام ، ويعيش بين البداية والنهاية يجاهد من نفسه مراداً يطلب في الحياة كل شيء ، ولا يرضيه شيء .

أنظر إليه فيما يعاني من طبيعته ، فقد يغضب ولا يملك أن يخمد ثائرته ، ويأرق ولا يملك أن ينام ، ويريد أن يعف ولا يملك أن يفعل ، ويحسد ولا يملك لقلبه نصحاً ، ويطمع

ولا يملك لطمعه ردعاً . وقد يدمن الخمر أو يدمن الميسر ولا يملك أن يكف على ما يعلم من ضرر ما هو ماض عليـه ، وقد يكربه أمر فيأخذ يفكر فيه ثم يمل ، أو يتغشاه الاجهاد ، فيريد أن ينقطع ولا يملك لتفكيره وقفاً ، ويظل عقله يعمل ، وأعصابه تختلج على رغمه ، وهو يعلم أن شر ما في الدنيا هو القتل ويقتل حتى نفسه . وشر ما في العيش هذه المحرّمات ويأتيها ، وإن اتخذ من الظلمات أستاراً ، أو من التلفيق أعذاراً لما يأثم . وهذا من عجاب أمر الإنسان ، تركبه نفسه فيقترف الإثم ، فتنقلب عليه ، وتتنكر له ، فيروح يلتمس لها الرضا بالمنطق يصطنعه اصطناعاً . أو بالمبررات الواهيـة يختلقها اختلاقاً ، فهل هذه الذبذبة وهذا العجز يفسران مكان الانسان من طبيعته البشرية ؟

« غضب هشام على رجل من الأشراف فشتمه ، فوبخه الرجل فقال : « أما تستحي أن تشتمني وأنت خليفة الله في أرضه ؟ » فأطرق هشام واستحيا وقال : « اقتص » فقال : « إذن سفيه مثلك » فقال : « خذ من ذلك عوضاً المال » قال : « ما كنت لأفعل » قال : « فهبها لله » قال : « هي لله ، ثم لك » فنكس هشام رأسه وقال : « والله لا أعود لمثلها أبداً » .

ثارت نفس هشام على الرجل من فعل أتاه أو من مظهر تبدّى به ، فدفعته الى شتم صاحبه ، ولما ذكر بما لا يجمل بالخليفة أن يفعل ، راحت نفسه تلح عليه بالتأنيب وتدفعه الى استرضاء الرجل . ويلوح لي أن الشارع كان بصيراً حقّـا حين نفذ الى معنى ثورة النفس فقال بعدم صحة الطلاق في حال الغضب .

* * *

لست في سبيل ان أصوّر الانسان مجرداً من الأداة ، عاطلا من الادراك ، فأجعله براء مما ينحرف ويأثم وأن أسقط عنه التبعات جميعاً ، فما لهذا أقصد ، فهو يمتاز ولا ريب بقدرته الاختزان العقلي ، وعلى ربط ما بين المعاني والصور ، وعلى التوليد والاستنباط وله من غرائزه الخيرة بعض العون على المناضلة ، أمام نزعات الشر وعوامل الفساد ، وما أريد الاّ الجهر في القول بأن الاصلاح الحق إن أريد للناس لا يغني فتيلاً حين لا يبنى على تقدير ما للطبيعة البشرية من سلطان قاهر على الانسان ، وبتعبير آخر : حين لا يرتكز على مدى طاقة الانسان على النضال أمام غرائزه الفطرية ، ومدى ما في تحسين العوامل الخارجية من عون على الصلاح الانساني ، فماذا عسى أن يردع الجائع المحروم حين تطول يده ، وان حرمت عليه السرقة ، ووضعت لها العقوبات ولو شددت ، وكيف يمكن أن يتيسر الصلاح في عالمنا الأرضي هذا وأمة من الناس تبيد ملايين من البطالة لمجرد الابقاء على الأسعار

الراهنة ، وأمم كثيرة في أماكن شتى من الأرض تنام على الطوى ، وتعيش على الشظف والعري وتعايش ضغينة التفاضل وآلام الحرمان مما هو عسير للآخرين ؟

مذ كان الانسان وهو ينشد الصلاح لنفسه ولقد حسبه في التكتل والتجمع ، فتكتل وتجمع ، وفي الدين فتدين ، وفي العلم فنقب وبحث وتفلسف ، وفي الأخلاق فصنف الكتب وأكثر من النصح والارشاد ، وفي القوانين والأنظمة فوضع منها الأفانين الكثيرة ، ولكنه لم يبلغ ما أراد ولم يصنع الا هذه البراعة فيما يخادع الناس بعضهم .

ومنذ عهد قريب شاعت فكرة الضمان الاجتماعي فأخذت بها بعض الأمم القادرة ، ولكنها لا تعدو العلاج الموضعي ، وهي ليست بمغنية شيئاً في حل مشكلة الانسان العالمية ، فما ارتفاع منزلة الفرد أو الجماعة في شعب دون آخر الا السبب يزيد من شقة التفاضل بين الشعوب ويثير حس الكبرياء ، ويقوي العصبيات القومية وان وجدت أمة لها القدرة على الأخذ بهذا العلاج ، فانك لا تجد تلك القدرة في أمم أخرى ، وفي وسعك ان تحكم بأن وسائله غير متيسرة عند أكثر الشعوب .

وها هو ذا الانسان اليوم في مرحلة الأمم المتحدة ، ولكن صوت الأنانة القومية لا يزال مدوياً بالأسماء والأسباب الباطلة ، فالنزاع على السبق في الارتفاق ، وعلى مد السلطان وعلى القنبلة الذرية ، ما انفك قائماً على أشده ، وسيظل قائماً إلى أن تقوم حرب عالمية ثالثة تأتي على الأخضر واليابس ، ولعلها تقسر الانسان على التماس دولة واحدة تنهض بالضمان البشري ، وتعالج الناس معالجة نفسانية صحية أكثر منها زجراً بالعقوبات ، أو تشويقاً بخيال المدينة الفاضلة ، وتكفل الحاجات البشرية بنظام واحد للاقتصاد والنقد ، كما هو واحد للصناعة والزراعة والصحة ونحوها وتساوي بين البشر في ظروف الأخذ بالوسائل الثقافية ، وتقضي على الجوع والعري والجهل ، وتنفي العصبيات القومية مكان الأدواء جميعاً إلى حيث يعلم الناس في أقطار الأرض إنهم بشر وليسوا شعوباً وقبائل تمايز وتتفاضل بالعرق والأرومة ، وحيث لا تباد المواد الغذائية في مكان وفي الآخر من الدنيا شعب محروم ، ثم إلى حيث تنسجم الاعمال البشرية في وحدة تتحرك وتتجه لخير أهل الأرض .

* * *

فهل تبلغ الانسانية هذه الذروة فيفلح الانسان ؟ إني لكثير الشك ، وإن كنت أرجو لهذا الحلم أن يتحقق .

عمان — شرق الاردن

شكري شعشاعة

وقفة على قبر أخي

بمناسبة الذكرى الخامسة لوفاة المرحوم هيثم

يهيب بأضلعي للهو　　ق حادٍ يورث الأرقا
فأعدو عدو مذعورٍ　　رأى ما أوجب القلقا
وصدر الأفق ملتهبٌ　　يمج النار والعلقا
إذا ماج الهجير ضحى　　تلوّى الغصن واصطفقا
ورقّت مقلة الأزها　　ر مما أبصرت فرقا
كعين مدلهٍ دنفٍ　　يعاني الوجد والحرقا
أو السكران حين هوى . وأسلم للسكرى الحدقا
فأسرعُ مطبقاً جفني　　على مضض إلى قبركْ

* * *

أتيت وللضحى شعلٌ　　على الغبراء تلتهبُ
أجر على وجىً قدمي　　كشيخٍ شفه الوصب
اذا الإعياء أقعدني　　وفتْ بساعدي النصب
دعاني في الفؤاد اليـك شوقٌ حلوه العطب
فأغدو والهجير يمو　　ج جيّاشاً ويصطخب
وللأغصان إطراق الـحزين أمضه النّكبُ
ووجه الأرض مربدٌّ　　على قسماته الغضب
كأن الكون شاركني　　بما قاسيت من هجركْ

* * *

بسطت وأدمعي تهمي　　اليك ذراع ملتاعِ
كما بسط الغريق يداً　　وقد أهوى الى القاعِ
إذا لمعت له خلف الدّ　　جى ومضات أطماع

وأشرق للمنى فجرٌ جـديد غير خدّاع
أطلَّ الموت في صور مروعة وأوضـاع
أحال اليأس آمال الـ فتى همهمات أوجاع
ولم يدع الأسى صبراً بأكبادٍ وأضـلاع
كأني ذلك الملتا ع إذ فكرت في أمرك

* * *

بثثتك نار ما أخفي ولم أكتمك أشجاني
فهـل عن فائتٍ خبر يهدهد غرب أحزاني
دعوتك والظلال عليـ ك أرخت فضل أردان
والأزهار من عبث الصـبا تهويم سكران
تقلب مقـلة يقظى وتنكس جيد وسنان
دعوتك والأسى ملء الـضلوع شواظ نيران
فما لبّيتني لـمّا أبحتك سرّ أجفـاني
أتبخل بالجواب وما عهدت البخل في نجرك

* * *

أخي أسمعت من نادا ك خلف صفائح الحجر
وعظتَ وما فغرت فـماً وجئت بمعجز السور
وحركت القلوب أسىً وراء غياهب الحفر
فكم في صمتك المرهو ب للملهوف من عِبرِ
أثرت الداء في كبدي جحيماً ماج بالشرر
وأجريت الأسى دمعاً بعينيَّ غير منحسر
وهذا كل ما أبقت ليَ الأيام من خطر
إذا عصفت بيَ البلوى وجدت الأمن في ذكرك

دمشق عبد الله صرصم بك

النظارات

(العدسات) اللاصقة

أو النظارات (العدسات) غير المرئية

نظراً لشيوع استعمال النظارات (العدسات) غير المرئيـة في أمريكا وأوربا ، ولعـدم شيوع استعمالها في بلادنا ، أستميحكم عذراً أن أحدثكم اليوم عنها .

العين جهاز كاسر ، قدرته الإنكسارية (٦٢) كسيرة Dioptrie ومعظم هـذه القدرة الـكاسرة ، يعود الى القرنية التي قدرتها الـكاسرة (٤٥) كسيرة ، وما يتبقّى يعود الى البلورة (Cristallin) والتي قدرتها الـكاسرة (١٧) كسيرة (وحقيقة الأمر أن قدرة العين الـكاسرة أقل بقليل مما ذكر لوجود مسافة بين القرنيـة والبلورة ، وتسهيلاً للبحث اعتبرناها إثنين وستين كسيرة) .

نرى أن معظم قدرة العين الـكاسرة يعود الى القرنية الموجودة بين وسطين قرنيـة انكسارهما متباينـة : أولها الهواء ، وقرنية انكساره (واحـد) وثانيهما الخلط المائي Humeur aqueuse وقرنية انكساره تتراوح بين (١٫٣٣ و١٫٣٤) ودون ارتكاب خطأ فادح يمكن اعتبار قرنية انكسار الخلط المائي معادلة الى قرنية انكسار القرنية الذي هو (١٫٣٢) وهذا يساعدنا على اعتبار وجه القرنية الأمامي وسطاً كاسراً لهذه المجموعة ، وبما أنه محدب فإن قدرته الـكاسرة متناسبة عكساً مع نصف قطر انحنائه، أي كلما صغر نصف قطر انحنائه، زادت قدرته الـكاسرة .

ومن المعلوم أن الأشعة الضيائيـة المتوازية الصادرة عن الأجسام الخارجية والواردة الى العين تنكسر بأوساط العين الـكاسرة ، ويتشكل خيال الأجسام الخارجية على الشبكية إن كانت العين سديدة البصر Emmétrope وإذا كانت القرنية كثيرة الإنحناء أو قليلته ، أو كان انحناؤها غير منتظم ، كانت العين محسورة البصر Miope أو مديدة البصر Hypérmétrope أو مصابة بحرج البصر . Astigmatisme ، ولجعلها سديدة البصر، يكفي إذن تبـديل قرنيتها

بقرنيــة ذات انحناء طبيعي (أي نصف قطر انحنائها سبعة وأربعة وثمانون عشر المليمتر ٨٤ر٧ مليمترات).

هذا إذا كانت قوة البصر (Amétropie) ناجماً عن القرنية، أما إذا نجم عن البلورة، فيصحح بتبديل القرنيــة الطبيعية بقرنية أخرى ذات انحناء قليل أو كثير حسب المقتضي، وهكذا تصبح هذه العين سديدة البصر .

وإذا نجمت هذه القوة في البصر عن زيادة أو نقص في طول محور العين الأمامي الخلفي، صحح أيضاً بإبدال القرنية الطبيعية بقرنية أخرى موافقة الانحناء .

فتبديل قرنيــة بأخرى هو الدستور الذي بنيت عليه صناعة النظارات (المدسات) غير المرئية . ولما كان من المسلم به عدم إمكان إبدال قرنية بأخرى أستعيض عن ذلك بإبطال عمل القرنيــة البصري وجعلها كأن لم تكن ، والاستعاضة عن قدرتها الـكاسرة (بنظارة عدسة) تكون القسم الأمامي لوعاء يحوي مائعاً . وأول من فكر في ذلك هو العالم (توماس يونغ Thomas Young) وذلك سنة واحد وثمانمائة بعد الألف .

ولا أرى مناسباً ذكر المراحل التاريخية التي مرت بها النظارات (المدسات) اللاصقة ، بل سأنتقل بكم الى النتائج العملية التي توصل إليها العلماء من ألمان وفرنسيين وإنجلو ساكسون إذ اشترطوا للوصول الى هذه الغاية تحقيق ما يلي :

١ — وضع مادّة عجينية شفافة أمام قرنية العين على أن تكون قرنية انكسارها معادلة لقرنيــة انكسار القرنيــة والخلط المائع، وأن يكون هنالك تماس تام بينها وبين القرنية ، وهكذا تبطل قدرة القرنية البصرية الـكاسرة ، ويصبح انكسار الأشعة الضيائية الواردة حذاء الوجه الأمامي لتلك الصفيحة المشكلة من المادة العجينية .

٢ —جعل الوجه الأمامي لهذه الصفيحة بشكل كروي ذي انحناء مناسب ، اذ سيكون هذا الوجه قرنية جديدة تقوم مقام قرنية العين ، ولما كان متعذراً تحقيق ذلك الأمر بمادة عجينية ، أستعيض عنهــا بمائع يوضع أمام العين ويضبط بقشرة زجاجية أطلق عليهــا اسم النظارة (المدسية) غير المرئية . وينطبق المائع تماماً على القرنية ويزاوج أقل عدم انتظام منها وهكذا يبطل عمل القرنية البصري بأن تقوم مقامها القشرة الزجاجية الـكروية الشكل

على أن يعطى لها الانحناء المناسب بغية تصحيح قوة بصر العين .

فالنظارة (العدسة) اللاصقة إذن عبارة عن كؤيس يضبط المائع الموضوع أمام العين ، وهي مصنوعة من زجاج شفاف بشكل نظارة (عدسة) وجهها الامامي محدب والخلفي مقعر مكونة من قسمين : مركزي ومحيطي . ويسمى المركزي : القسم القرني ويسميه الألمان Optik ويسمى المحيطي القسم الصلبي ويسميه الألمان Happtik ووظيفة هذا القسم المحيطي ضبط واطباق القسم المركزي بصورة محكمة وصحيحة على العين .

توضع هذه النظارات (العدسات) بين العين والأجفان ، قسمها القرني يقابل القرنية ومفروق عنها بمسافة ضيقة جداً مملوءة بالمائع (وهو المصل الفريزي أو محلول ثاني فحمات الصودا بنسبة ٢ ٪) وقسمها المحيطي يقابل الصلبة وينطبق عليها تماماً ، وقديماً كان يعمل هذا القسم بلون يحاكي لون الصلبة وعليه ارتسامات أوعيتها ولكن في يومنا هذا تصنع النظارة (العدسة) بقسميها من زجاج شفاف وأحياناً يكون قسمها القرني بلون أزرق فاتح اتقاء أشعة الشمس شأنها شأن النظارات (العدسات) الملونة .

تنطبق هذه النظارة (العدسة) على العين بالخاصة الشعرية (Force capillaire) وبالضغط النسيمي ويجب أن تكون محكمة الاطباق والسد وإلا سال المائع وقامت مقامه فقاقيع هوائية تخل الرؤية وتزيد في قوة البصر .

فاذا كان وجها هذه النظارة (العدسة) متوازيين يصحح حرج البصر سواء كان منتظماً أو غير منتظم بواسطة المائع المحصور بينها وبين القرنية . أما اذا كان هناك قوة بصر كروي عدا حرج البصر ، صحح باعطاء انحناء مناسب لوجه النظارة (العدسة) الامامي وهكذا يمكن تصحيح سوء انكسار العين بتمامه .

الأساليب العملية
في تطبيق النظارات (العدسات) اللاصقة

لانطباق النظارات (العدسات) اللاصقة على العين لا بدّ من قياس قسميها الصلبي وقسميها القرني كل على حدة :

١ — قياس قسم النظارة (العدسة) الصلبي : يوجد عادة مجموعة نظارات (عدسات)

مرقبة بحسب سمة قسمها الصلبي بالأرقام ١١ ، ٢٥ ر ١١ ، ٥ ر ١١ ، ٧٥ ر ١١ ، ١٢ حتى ١٤ ونصف قطر انحناء القسم القرني لكل منهما ٧ ملم ، ولتطبيق إحدى هذه النظارات (العدسات) على العين ، يقطر في العين قطرتان من محلول الكوكائين بنسبة ٢ ./. لتخديرها وبعد تطهير النظارة (العدسة) تمسك بيد الطبيب من وجهها المحدب بواسطة قطعة من المطاط على هيئة المحجم ووجهها المقعر ناظر إلى الأعلى ويملأ هذا الوجه بالمصل الفريزي ثم يطلب إلى الشخص أن يحني رأسه قليلاً إلى الامام وأن يوجه نظره إلى الأعلا وبعد أن يرفع الطبيب الجفن العلوي يطبق النظارة (العدسة) بخفة على العين مع المحافظة على المائع ثم يرخي الجفن العلوي فوق النظارة (العدسة) ويطلب إلى الشخص أن ينظر إلى الأسفل ، وبعد أن يتم تطبيق النظارة (العدسة) كما ذكر يرفع محجم المطاط ، فتتثبت النظارة (العدسة) بواسطة الأجفان . ويجب كما قلنا أن لا تكون هناك فقاقيع هوائية بين النظارة (العدسة) والقرنية، وإذا وجدت تخرج باجراء ضغط خفيف بواسطة مرود زجاجي على الصلبة حذاء محيط النظارة (العدسة) مع تقطير قطرات متوالية من المائع وهكذا تخرج الفقاقيع الهوائية ويحل محلها المائع . ويجب أن تكون النظارة (العدسة) منطبقة على العين بسطحها المقعر الصلبي لا بحافاتها وان لا يمس وجهها المركزي القرنية ولا اللم limbe تترك هذه النظارة (العدسة) مدة ٥ — ١٠ — ٣٠ دقيقة لمعرفة درجة تطابقها على العين مع ملاحظة الأمور التالية .

ا — أن لا تكون النظارة (العدسة) صغيرة ويعرف ذلك بضغطها على أوعية الملتحمة البصلية واحداثها فقر دم ولو جزئي ، وان لا تكون كبيرة ويعرف ذلك بتحركها بحركة الأجفان وتبديل مكانها بحركة المقلة .

ب — أن يتحملها الشخص بسهولة ولا ينزعج من وجودها فعدم تحمله لها إما أن يكون آنياً ويتظاهر باختلالات مروية (Subjéctif) وأخرى مرئية (objéctif) فالمروية هي خلل في الرؤية كرؤية قوس قزح كما لو كان المريض مصاباً بالزرق (Glaucome) . أما الاختلالات المرئية فهي ضيق وعاء أو عدة أوعية سطحية أو احتقان حول اللم (Limbe) أو أن يكون عدم التحمل متأخراً بعد عدة شهور مثلاً ، إذ ينزعج الشخص من وجودها ولا يمكن معرفة

سبب ذلك ولكن يكتفي بإبدال النظارة (العدسة) بأخرى ؟ وهكذا تعرف موافقة القسم المحيطي من النظارة (العدسة) لصلبة العين ويدوّن رقم تلك النظارة (العدسة) ليرجع إليه عند تحرير الوصفة .

٢ — قياس قسم النظارة (العدسة) القرني : هنا يوجد أسلوبان :

الأسلوب الأول . بعد إتمام قياس القسم الصلبي ، تبقى هذه النظارة (العدسة) أمام العين وبذلك نكون قد أبطلنا عمل القرنية البصري وحذف كل حرج في بصرها ، وأصبحت العين ترى بتلك النظارة (العدسة) اللاصقة ، وبعد ذلك تعين قدرة العين البصرية على لوح الحروف ويصحح بسوء انكسارها الكروي (حسور البصر أو مده) بإمرار نظارات (عدسات) كروية (محدبة أو مقعرة) بالتتابع والتسلسل حتى تصبح الرؤية طبيعية بإحدى هذه النظارات (العدسات) ثم تقاس المسافة الواقعة بين ذروة النظارة (العدسة) اللاصقة والنظارة (العدسة) المصححة بآلة خاصّة .

مثال ذلك : عين طبقت لها النظارة (العدسة) اللاصقة التي قيمتها بالنسبة الى القسم المحيطي (٥ر١١) ثم صحح سوء انكسارها بنظارة (عدسة) مقعرة (— ٦) وكانت المسافة بين ذروة النظارة (العدسة) اللاصقة ومركز النظارة (العدسة) المصححة (١٢) ملم تحرر الوصفة على الشكل الآتي :

O. D. 11,5 / 7 , Meltez — 6
D. P = 12 Mm

وترسل هذه الوصفة الى المعمل المختص لصنع نظارة (عدسة) لاصقة حسب هذه المعلومات والمقاييس .

الأسلوب الثاني : يعين أولاً سوء انكسار العين بالطريقة المعروفة والمبنية على سير ظل الحدقة والمعروفة تحت اسم (Skiascopie أو Pupiloscopie) ثم تفحص العين بمقياس العين Javal ويعين بواسطته نصف قطر انحناء القرنيــة مع معرفة ما يقابله من درجة القــدرة الكاسرة لتلك القرنية ، ثم يطرح منها كسيرات حسور بصر تلك العين أو يزاد عدد كسيرات مد بصرها .

مثال ذلك : عين مصابة بحسور بصر قدره (١٠) كسيرات ونصف قطر انحناء قرنيتها

(٧) ملم يقابله (٤٢ر٤٧) كسيرة لقدرة الإنكسار ، فلتصحيح حسور بصر تلك العين ، يجب تنقيص انحناء قرنيتها لنصف قطر انحناء يقابل (٤٢ر٣٧) كسيرة . وبعبارة أخرى إذا طرحنا (١٠) كسيرات من (٤٣ر٤٧) يبقى لدينا (٤٢ر٣٧) فاذا نظرنا الى هذا الرقم على قوس جهاز (Javal) وجدنا أنه يقابل رقم ٩ر٨ أي يجب أن يوضع لهذه العين قرنية نظارة (عدسة) نصف قطر انحنائها (٩ر٨) وهكذا يصحح سوء انكسار تلك العين وتحرر الوصفة كما يلي :

O. D. = 11,75 / 8 , 9

أما اذا كانت العين مديدة البصر بقدر (٥) كسيرات فيضاف هذا العدد الى (٤٢ر٤٧) وينظر الى ما يقابل (٤٢ر٥٢) على جهاز Javal فيكون (٣ر٦) ثم تحرر الوصفة بحسبه . وهنالك أسلوب آخر لأخذ قياس صلبة العين بواسطة القالب ، وذلك بعد تعيين سوء انكسار هذه العين ثم يرسل هذا القالب مع رقم سوء الإنكسار الى المعمل الذي يصنع بدوره هذه النظارة (العدسة) اللاصقة حسب القالب ورقم سوء الإنكسار

وختاماً لابدّ لي من ذكر الاستطبابات الهامة للنظارات (العدسات) اللامرئية ، وذكر أفضلياتها .

توصف النظارات (العدسات) اللاصقة للمصابين بحرج البصر غير المنتظم Astigmatisme irrégulier وغير قابل التصحيح ، وهذا ما نصادفه كثيراً مع الأسف في بلادنا من جراء كثرة حدوث قروح القرنية ، كما توصف للمصابين بمخروط القرنية Kératocône الذي لا يصحح بالنظارات (العدسات) العادية .

أما أفضلية استعمال تلك النظارات (العدسات) فهي حلولها محل النظارات التي تشوه منظر الوجه لذلك شاع استعمالها عند الممثلات والممثلين وعند المتأنقات كما استعملها الطيارون بغية التخلص من إزعاج النظارات .

ومن حسنات هذه النظارات (العدسات) غير المرئية ، المحافظة على ساحة بصرية طبيعية التي يشوشها إطار النظارات ، وعدم تشكل بخار الماء عليها لأن حرارتها تعادل حرارة الجسم ، ذلك البخار الذي يتراكم على زجاج النظارات في الأيام الباردة .

دمشق دكتور ممدوح الصباغ

الماضي الخالد

بالله ياليلُ هل واسيت أشجاني !! ... وهل رثيت لآلامي وأحزاني !
أثرتَ في القلب ذكرى كاد يدفنها ... وهجتَ جُرحاً بليغاً كاد ينساني
قد كان لي في الهوى إلفٌ يؤانسني ... وكنت بالروح أرعاه ويرعاني
وكان ملء حياتي بهجةً وسناً ... وكان سلوة قلبي المرهق العاني
كم ضمنا في الليالي مجلسٌ عطرٌ ... يزهو بكل بديع الحسن فتان
في جنة الحب ترعانا خمائلها ... وأين من سحرها فردوس رضوان !
تنساب أرواحنا في الجو هائمةً ... في قدسها فوق هذا العالم الفاني
دنيا من الطهر لم تُنقل بها قدم ... وعالم لم يُتح قبلاً لانسان
لا تسمع الأذن في مسراه لاغيةً ... ولا تحسُّ سوى شدو وألحان
ترف من حولنا للحب أجنحةٌ ... بيضٌ ويسمو بنا منها جناحان

* * *

عصر الهوى قد مضى في عز بهجته ... وكأسه نزعت من كفِّ ظمآن
أيامه الغيد ولّت في نضارتها ... ولم تخلِّف سوى وجدي وحرماني
أحيا غريباً وأبياتي تجاورني ... مشرّد الروح في أهلي وأوطاني
كم ليلة بتُّ لا تنجاب ظلمتها ... أطوي فؤادي على همي وكتماني
أساهر النجم لا خلٌّ يؤانسني ... سوى دموعي وأشواقي وتحناني
يلوح لي طيفه يسعى بلا قدم ... كالحلم يسبح في أجفان وسنان
هيهات أن تمّحي ذكراه من خلدي ... أو من فؤاديَ أو حسّي ووجداني
يفنى فؤادي وتفنى كل جارحةٍ ... مني ولكن حبي ليس بالفاني
وكلما جنّ ليلي رحت أسأله ... بالله يا ليل هل واسيت أشجاني !!

كلية العلوم ... عفيفي محمود عفيفي

قصة تاريخية

الشيطان – الملاك !!

حدّث محمد بن جعفر الزيدي عن عروة بن الزبير قال :

كان عمير بن وهب شيطاناً من شياطين قريش ، فاتكاً لا تؤمن بوائقه ، غضوباً للتوافه ، لم يعرف بحلم ساعة ، يطلب ما يشتهي ، لا يحول بينه وبين شهواته أي حائل من نبل أو كرم أو شفقة أو إنسانية ، فان استعصى عليه مطلب اقتنصه بحد السيف مجابهاً أو غادراً أو خائناً . فلما أكرم الله الانسانية فأرسل إليها محمد بن عبد الله هادياً ومبشراً ونذيراً اندفع عمير بن وهب يؤذي الرسول ، وينكل بالمؤمنين ، وتفنن في ضروب الأذى وأساليب التنكيل ، ولقي المسلمون منه كل عناء ، ولحقهم من شروره مختلف أنواع الإيذاء ، وكان له ابن لا يقل عنه شرّاً هو وهب بن عمير . وقد اشترك هو وأبوه في حرب المسلمين يوم بدر ، أما عمير فأفلت من القتل والأسر ، وأما وهب فقد وقع أسيراً في يد رفاعة بن رافع !

***

قال عروة : مضت أيام وأيام على يوم بدر ، وأعلام قريش في مكة أو من بقي من أعلامها بعد بدر ، مطأطأة رؤوسهم ، مقوّسة ظهورهم من ثقل ما حملوا يوم بدر من عار ، وهول ما فقدوا من أبطالهم ورجالاتهم ، فلما استبدّ بقلوبهم الغيظ حتى كادت تتمزّق ، وألحّ الحقد عليهم حتى أكل نفوسهم ، كانوا يخرجون زرافات ووحداناً إلى بطحاء مكة يلتمسون السلوة من الآلام ، أو يتذكرون تلك الآلام ، ويبحثون عما يغسل عنهم عار بدر .

وفي صبيحة يوم خرج عمير بن وهب شارد الفكر ، مسلوب الفؤاد فاذا به يجد صفوان ابن أمية جالساً في (الحجر) مطرق الرأس ساهماً ، يفكر في أبيه الذي صرعه المسلمون يوم بدر ، وما عساه يفعل لإدراك ثأر أبيه ، وبينما هو كذلك إذا به يسمع صوتاً يناديه : عم صباحاً يا ابن أمية ، ما جاء بك الى الحجر في البكور يا صفوان ؟ قال صفوان : بالله لا تناديني

منذ الساعة بابن أميّة ، فلست جديراً باسم أبي حتى أدرك ثأره ، إننا ياعمير قد أمسينا وأصبحنا فاذا بنا كالبهم السائبة لا راعي لها ولا مرشد، فهذا مشرّق وذاك مغرّب ، ولقد ترى الصديقين يتلاقيان في طريق واحد فما يرى أحدهما صاحبه من هول ما يحتمل في نفسه من خزي بدر ، وما جرّه علينا مطلعه المشئوم من فقدان الأحبة البهاليل ! !

قال عمير مبتسماً : ممن تأخذ ثأرك يا صفوان ، أمن محمد أم من أصحابه ؟! فيتمامل صفوان ويضطرب ويقول : والله يا عمير لقد رأيت يوم بدر أناساً كالناس ، يضربون ويقتلون فإذا أهويت على أحدهم بسيفي زاغ في الناس فما أبصر غير سيفي في عنق أخي أو عمي أو ابن عمي . ولقد كان يستدبرني أحدهم يقاتل قومنا حتى إذا أمكنت منه وعلاه السيف رأيت الرجل من ورائي والسيف في ظهر أحد أبناء العشيرة ، فإن كان يا عمير هذا شأن واتريّ فما عساي أفعل بهم ، وكيف أدرك ثأري ؟

قال عمير وقد بدت على وجهه علائم الاستهزاء بصفوان : أجل يا صفوان بن أمية ، لا يزال الرعب يأكل كبدك مذ لاقيت محمداً وأصحابه يوم بدر ! أي خير ترجوه في العيش بعد أن نحر صابئة محمد غطاريف قومك نحر الجزور ، وبعد أن خلفت عندهم من بقى لنا من الأعلام الصناديد ؟ قال صفوان : والله ما في العيش بعدهم خير ، ولست أرى بعدهم إلاّ همّـاً ملفوفاً بهم ، وحياة مجللة بعار ، وقروماً يرسفون في الذّل عند أعدائنا الأشرار ! يا عمير هل من مخلص ينجيني من همٍّ أعانيه ، وعار يلاحقني ؟ : قال عمير : وقد لمعت بالشر عيناه ، وانقلبت سحنته : صدقت يا صفوان ! لا خير يرجى بعد قتل من قتل وأسر من أسر ووالله لولا دينٌ عليّ ، وليس عندي له قضاء ، ولولا عيال أخشى عليهم الضياع بعدي . لركبت إلى محمد حتى أقتله وأهريق في أصحابه فإنّ لي قبلهم علة . إبني وهب أسير في أيديهم فإمّا أبرأت علتي منهم ، وفككت أسيري ، وأما قتلت محمداً وقتلت فيه ! ! قال صفوان : وقد اغتنم الفرصة : يا أبا وهب ليس فينا من هو مثلك شجاعةً وفتكاً ، وأنك تغسل عن قومك عار الأبد . وترفع رؤوساً قد نكّسها الذل ، وتقيم أعواداً قد أحناها الهوان ، وترغم الدنيا على التحدث باسمك في كل مكان وكل جيل ، وتخلف من بعدك ذكراً حسناً ليس لقصي بن كلاب ولا لابنه عبد المطلب ! سيقول الناس : لقد أنقذ عمير ابن وهب

شرف قريش ، وكتب لها العزة والخلود ! قال عمير وقد أربدَّ وجهه : ديني وعيالي يا صفوان ؟ قال صفوان : عليّ دينك أقضيه عنك ، وعيالك مع عيالي أواسيهم ما بقوا . لا يسعني شيء ويعجز عنهم !. قال عمير : حقـًّا ما تقول ؟ ! قال صفوان نعم . نعم.قال عمير : لا اقالة ولا استقالة ! يا صفوان اكتم شأني وشأنك ! ثم انطلق صفوان إلى مهمته ومضى عمير فشحذ سيفه وسَمَّه وانطلق إلى المدينة ! !

* * *

في مسجد الرسول (ص) بالمدينة يجلس عمر بن الخطاب في نفر من المسلمين يتحدثون عن يوم بدر ويتذاكرون ما أكرمهم الله به من نعمة النصر ، وعزّة الدين قال عمر : لقد كان يوماً من أيام الله ، وإن أصدق فلهذا اليوم ما بعده « لقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون . . . (الآيات) »

قال فتىً من شباب المسلمين كان له يوم بدر بالمشركين أفاعيل هو مُعَاذ بن عمر بن الجموح: والله يا أبا حفص لقد كنت أعمد إلى الرجل بسيفي أضربه فإذا برأسه تطير قبل أن يمسها السيف ، ولقد كنت أكون وما بيني وبين المشرك أحد فأسرع إليه بضربة . فإذا قد نبع بيننا رجل فضربه قبل ان أضربه . ثم لا أدري بعد أصعد السماء أم ابتلعته الأرض ، فأيقنت إن الله هو الصانع ، وإن الله لابدَّ ناصر جنده ، وبالغ أمره ، وبينما القوم كذلك وإذا رجل ينيخ بعيره على باب المسجد فينظرون إليه . قال معاذ أنه متوشح سيفه ، تقدح عيناه بالشرر ، وتنم سحنته على الغدر وسوء الطوية ، قال عمر — وقد انتفض انتفاضة عرفها القوم — : هذا الكلب عدو الله عمير بن وهب ما جاء إلاّ لشر ، وهو الذي حرّش بيننا وحزرنا للقوم يوم بدر ! ثم هبَّ وهبَّ من حوله وقوفاً ، وأيديهم على مقابض السيوف . قال عمر : احذروا الرجل وخذوا عليه الطريق حتى أدخل إلى رسول الله (ص) فإن أذن له النبي بالدخول فادخلوا قبله على رسول الله فاجلسوا عنده واحذروا عليه من هذا الخبيث فانه غير مأمون . وأنتم أنصار الله وجند رسوله فكونوا عيوناً على هذا الكلب وخذوا حذركم . ثم دخل عمر إلى رسول (ص) . فقال يانبي الله هذا عدو الله عمير بن وهب قد جاء متوشحاً سيفه ! قال ص : فأدخله عليّ ! فخرج عمر إليه . فأخذ بحمالة سيفه في عنقه

فلببه بها . وقال للانصار أدخلوا على رسول الله فدخلوا ودخل عمر وهو ممسك بتلابيب عمير فقال ص : حين رآه كذلك : « أرسله يا عمر » « ادن يا عمير » . فدنا ثم قال عمير : عموا صباحاً ! فقـال ص : « قد أكرمنا الله بتحية خيرٌ من تحيتك يا عمير . فالسلام تحيـة أهل الجنة !! » . فقال عمير : أما والله يا محمد ان كنت بها لحديث عهد . قال ص : فما جاء بك يا عمير ؟ قال عمير : جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم فأحسنوا فيه ! . قال ص : فما بال السيف في عنقك ؟ قال عمير : قبحها الله من سيوف وهل أغنت عنا يوم بدر شيئاً ؟ . قال ص : أصدقني ما الذي جئت له ؟ . قال عمير : ما جئت إلاّ لذلك ! . قال ص : « بل قصدت أنت وصفوان بن أمية في الحجر فذكرتما أصحاب القليب من قريش . ثم قلت لولا دينٌ عليّ وعيالٌ عندي لخرجت حتى أقتل محمداً . فتحمل لك صفوان بدينك وعيالك على ان تقتلني له ، والله حائل بينك وبين ذلك . قال عمير بعد صمت طويل : أشهد أنك رسول الله ! قد كنا يا رسول الله ! نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء ، وما ينزل عليك من الوحي ، وهذا أمرٌ لم يحضره إلاّ أنا وصفوان ، فوالله إني لأعلم ما أنبأك به إلاّ الله ! فالحمد لله الذي هداني للاسلام وساقني هذا المساق ، أشهد ألاّ إلـه إلاّ الله . وأن محمداً رسول الله ، ثم وقع مغشيًّا عليه ، فلما أفاق قال (ص) لأصحابه : فقهوا أخاكم في دينه وأقرءوه القرآن . وأطلقوا له أسيره » !! قال عمير : يا رسول الله اني كنت جاهداً على اطفاء نور الله ، شديد الأذى لمن كان على دين الله عزّ وجل . وأنا أحب أن تأذن لي في المشركين وفي دينهم ! فأذن له عليـه السلام ، وهكذا تحوّل شيطان قريش وفاتكها الجبار الى ملاك رحيم ، وقطعة من الايمان الحي ، وهكذا أصبح عمير بن وهب الذي جاء لاغتيـال محمد — من أصدق المؤمنين به الحادبين عنه أصبح أشد الناس أذىً للمسلمين ، أشد الناس حفاظاً على الرسول ومحاماة عن الاسلام .

قال عروة : وقد حدّث عمير عن نفسه فقال : والذي بعث محمداً بالحق بشيراً ونذيراً لقد بارحت مكة وما أحد من خلق الله أبغض الى قلبي من محمد ، واني لعازم على قتله ولو حال بيني وبينه أهل الارض قاطبةً ، فما أن وصلت الى المدينة حتى أُلقي في روعي أن السماء توشك أن تنقض على الارض ، وما أن وصلت إلى باب مسجد الرسول حتى خيل اليّ أن بعيري يسخر مني ، وان الارض قد كرهت أن تحملني ، وتبدى لي المسجد أسيافاً متلاصقة .

وخلت كل ذرة من الهواء قد غدت سيفاً مهدوداً لمحاربتي ، وما أن لبثني عمر حتى خلتني بين صخرتين عظيمتين تضغطان عظامي ، حاولت أن أصرع عمر . وحدثتني نفسي بذلك ولكنني ثبت الى نفسي وقلت لقد جئت لمن هو أعظم من عمر ، فان هاجرته حيل بيني وبين طلبتي فأمسكت . فلما دخلت على الرسول ، ولا أحد أبغض إلى قلبي منه ، وجدت من حوله رجالاً قد شدّت أبصارهم الي وان لها لبريقاً يصرع الشجعان غيري ، ولكنني لم أحفل بهم ، وحادثت الرسول وأطلت علّي أصيب من القوم غرّة ، فاختلس أنفاسهم ، ولقد واتتني الفرصة غير مرة . فقد كان القوم كلما نطق الرسول خشعت أبصارهم فأريد اغتنام الفرصة فاذا بيني وبين الرسول حائل . وأقسم لقد كنت كلما تحسست مقبض سيفي وجدت حولها عشرات من الأيدي كالحديد أحسها ولكن لا أرى أصحابها ، وكلما هممت بذلك رأيت أسيافاً وحراباً تسد الفضاء بيني وبين الرسول ، وتبدّى لي الرسول بعيداً ، فأيقنت أن الرجل مصنوع له ، وان الله حائل بيني وبينه كما قال محمد (ص) . فلما كذبت على الرسول . وما أراني كذبت غيرها والحرب خدعة — فواجهني بما كان بيني وبين صفوان أيقنت أن الأمر جد لاهزل فيـه ، فارتجّ عليّ وعرضت على عقلي ما أنا فيه . واختبرت نفسي ، وخبرت ما لديّ من شواهد على صدق محمد فلم أتمالك أن قلت أشهد أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمداً رسول الله . وأضحى قلبي معلقاً بمحمد وما من أحد من خلق الله أحبُّ الى قلبي منه ، وغادرت المدينـة وكل قطرة من دمي قد وهبتها لرب محمد، ولفداء محمد ، ودين محمد . وهكذا الأيمان يا بنيّ إذا خالطت بشاشته القلوب ، يحوّل النار نوراً والشياطين ملائكة . والقساة رحماء . وكان الله ورسوله أحبُّ إلى المؤمن من نفسه وولده والدنيا وما فيها !!

* * *

صفوان بن أمية في مكة بعـد أن أدّى عن عمير دينه وضمّ إليـه عياله . أخذ يطوف بأرجائها — لا يقر له قرار — يعلوه البشر ويشرق وجهه إشراقاً عجيباً . وها هو ذا كلما لقي قوماً أو مرَّ على محفل ، وقف بينهم قائلاً : أبشروا بوقعة تأتيكم في أيام تنسيكم وقعة بدر ! والناس يتساءلون عما عسى أن تكون تلك الوقعة ! فراقبوا صفوان حتى علموا أنه يكثر من سؤال الركبان عن أبي وهب عمير بن وهب ، فأيقنوا أنّ صفوان لا بدّ أن يكون قد أرسله لاغتيال محمد ، وما هي إلاّ أيام حتى قدم عمير بن وهب فتلقاه صفوان قائلاً : مرحباً بالحبيب

ابن الحبيب مرحباً بأبي الأبطال ! وفخر الرجال ! مرحباً بعز قريش وغاسل عارها . ومدّ صفوان ذراعيه ليحتضن عميراً ، وعمير يبتسم في سخرية واضحة ثم يقول ويده تجرد السيف من غمده : يا صفوان بن أميـة . لقـد علمت قريش أن محمد بن عبد الله من أشرفها بيتاً ، وأصدقها حديثاً ، وأعرفهـا بالأمانة ، ألم تستبشر قريش بمولده يوم ولد . ألم تحكـّمه في أمورها شابـّا ورجلاً ، ألم تلقبـه بالأمين وهو أعز ألقابها . هل جرّبتم عليـه كذباً ؟ هل عرفتموه بخيانة ؟ يا قوم لقد آمنت بالله ورسوله ، وشهدت وأشـهد أن لا إلـه الا الله وأن محمـداً رسول الله ، والذي شرّف محمداً بالرسـالة العظمى لأدعونّ إلى الله في أجوافـكم ولأملأنّهـا عليكم حرباً أو تؤمنوا بالله ورسوله وهـذا سيفي . فمن شاء أن تثكله أمه فليلقني بهـا أكره ! ومضى الى بيته . . أما صفوان بن أمية فقـد خارت قواه وزاغت عيناه . وانكبّ على وجهه يسمع لعمير فاغراً فاه ، ومن حواليه رجال معزفون في صمت رهيب يعجبون لعمير وكيف انقلب من عداوة محمد الى الايمان بما جاء به ؟ هذا الذي خرج للغدر والاغتيال كيف يعود داعياً الى ما يدعو اليه محمد . ثم انتبهوا وأفاق صفوان وساروا الى البيت الحرام فاذا بعمير واقف كالأسد الهائج بيده سيفه وهو يقرأ آيات من القرآن : « ق . والقرآن المجيد ، بل عجبوا أن جاءهم منذرٌ منهم ، فقال الكافرون هذا شيءٌ عجيب . أإذا متنا وكنا تراباً ذلك رجعٌ بعيد ، قد علمنا ما تنقص الأرضُ منهم ، وعندنا كتابٌ حفيظ . بل كذّبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مريج . أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيّناها وما لها من فروج ، والأرض مددناها وألقينا فيها رواسيَ وأنبتنا فيها من كل زوجٍ بهيج . تبصرةً وذكرى لكل عبدٍ منيب » .

هذا هو عمير يقرأ القرآن ، وقد أعرض عنه من أعرض من رجالات قريش واستمع إليه من استمع فأخذ القرآن قلوباً مستعدة للايمان . فدخل كثير من العرب الاسلام على يدي عمير الذي أقام بمكة داعياً إلى الله بإذن رسوله ، يؤذي من يتعرض له أو لرسوله أو للاسلام بسوء وهكذا أصبح عمير قوة للاسلام في قلب مكة ، وهكذا « يمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين »

وبعد فهذه يا شباب الاسلام قصة البطولة المؤمنة ، والشجاعة البصيرة ، والقوة العاقلة ، فاسألوا المكابرين من خصومكم هل أسلم عمير بن وهب مكرهاً أم أخذته قوة الحق بوسائل الاقناع بعـد أن عرض كل أمره على عقله وقارن ماضي محمد بحاضره فدخل في دينـه طائعاً مختاراً ؟ يا شباب الاسلام هيا إلى الله ، جدّدوا الايمان به وجاهدوا في سبيله حق الجهـاد ، هو اجتباكم لرسالته ، هيا إلى الله ، وخذوا من عمير مثلاً ، واجعلوا منـه قدوة لمن كان يؤمن منكم بالله واليوم الآخر.

الدكتور محمود فياضي

غروب شمس

(مهداة إلى روح شقيقتي الوحيدة
التي رجعت إلى ربها راضية مرضية)

تركتِ الدار موحشة الجنابِ ... ورُحت وأنتِ في شرخ الشبابِ
دفنتك في التراب وكنت عندي ... أعزَّ الخاطرين على التراب
وأودعتُ الثرى كنزاً ثميناً ... من الأخلاق والشيم العِذاب
وغاب مع السكون الجهم صوتٌ ... على نبراته يغفو اضطرابي
وغيِّب في ظلام القبر نور ... وخلَّف لي لهيباً من عذاب
يؤرّقني غيابك من حياتي ... وما أقسى مرارات الغياب !
تلمستِ النجاة فرُحت جسماً ... طريَّ العود خفَّاق الإهاب
وعُدتِ إليّ لا نفَس خفوق ... ولا روحٌ يلطف من مصابي
ولو أني استطعت بذوب قلبي ... فديتُك من أعاصير التباب
أنادي باسمك الغالي ، ولكن ... أراك عييت عن رد الجواب
وكنتِ إذا سكتُّ ملأتِ نفسي ... بألوان الحديث المستطاب
أنادي . . والأنين رجيع صوتي ... وأهتف والجواب صدى انتحابي
وتغلبني الدموع . . . وأي صبرٍ ... يقرُّ أمام دمع في انسكاب !
وأي مصيبة نزلت بساحي ! ... وأي رزيئة وقفت ببابي !
وما بالهين الخطب افتقادي ... أعزَّ الأقربين إلى انتسابي
فقدتك وافتقدت عزاء نفسي ... وكنت لي العزاءَ وقد خلا بي !

***

أراكِ وقد أراكِ الموت حلماً ... بسمتِ فقد خلصت من العذاب

رؤى الدنيا كواذب خادعات وقد صُبغت بألوانٍ كذاب
نساق إلى مفاتنها ، ونمضي مُضيَّ المصحرين الى السراب
ونعشو كالفراش على شعاع جحيميّ الحـرارة واللُّهاب
نؤمّـل ما نؤمّـل ثم تُطوى مع الأنفـاس آمالٌ خوابي
تعللنـا بمعسول الأماني وتمزج بالتعلة كلَّ صاب
ونأخذ من يد الأيام كأساً تداولُ بالقديم من الشراب
نجرّعه وليس لنـا سبيل إلى الشكوى من الألم المذاب
وتسلبنا الأعزَّ ، وليس حرصٌ بمانع كفها عن الاغتصاب
مضت بالاولين ، وسوف تمضي بنا وبغـيرنا من كل باب
نعيش وحولنا أهلٌ وصحبٌ ونحن من الحياة على اغتراب
وما حمل المرارة غيرُ حي زواه الموت عن هذا الركاب
يشيّع نفسه في كل حين وراء الراحلين من الصحاب ..!

***

شقيقتيَ العزيزة ! لست أدري أكنتِ خيال وهمٍ في عبابي ؟!
أسـائل موج أيامي أكانت ليالينا بهـا خفق الشهاب ؟!
وكنا ناعمين على صبوح رخيّ الريح يمرح في انسياب
يوحدنا الحنانُ الجمُّ حتى كأن رغاب نفسك من رغابي
فلم يعصف برحلتنا خلافٌ ولم نعرف لجاجات الشغاب
ولم يلمم بنفسينا خصـام ولا خطرت بنا نسم العتاب
فما لك قد قطعت سُراك منها وعوجل نجم عمرك باحتجاب ؟!
وروّع ليلنـا الزاهي بفجر دميم الوجـه مهتوك النقاب
وهبت في الصباح الطلق ريح تسوق إليه داكنة السحاب
وزُلزلت السفينة وهي تمضي تشق عباب أمواج غضاب
منكسة الشراع كأن نعشاً سرى في اليمّ ما بين اصطخاب

تمرُّ بها العواصف معولات كأن سبيلها أحشاء غاب
وقهقهت المقادر وهي تبدو مسلحة بأظفار وناب
فألقى بي الأسى في غير وعي شريد الفكر مشدوه الصواب
أجوب الشاطئين غريب دار مطلسمة المعالم والشعاب
كأن نسيمها أنفاس جنٍّ وأن حفيفه صمت اليباب !
محا منها البشاشة هول يوم أساء إلى مغانيها الرطاب

* * *

شقيقتيَ العزيزة ! أي خطب بليتُ به ولم يك في حسابي !
كتاب حياتك اختتمته بلوى فكان الرزء خاتمة الكتاب
طويل فصوله سِنةٌ وحلمٌ سريع الخطو ومضيُّ الوثاب
طواه الموت مخترماً عجولاً كما يطوى الحديث بالاقتضاب
وكانت قصة القدر المعمَّى وكانت قصة الزمن المحابي
صبرت على متاعبها ، وكانت شجونك في فؤادي كالحراب ..

* * *

شقيقتيَ العزيزة أي ذكرى معطرة تَنمُّ عن كل غاب !
حديثك في فم الأهلين شهدٌ وبُعدك عن ديارك كأس صاب
وما عوَّدتني في العيش نأياً فكيف وقد رحلت بلا إيابِ !
ذهبتِ شهيدةً للقاء ربٍّ كريم الأجر ، مرجوّ الثوابِ
حملتِ على يديك كتاب طهرٍ وعفّة خاطرٍ ، وتُقى شبابِ
رحلتِ وأنتِ باسمةً رضاءً وما خلّفت لي إلاّ اكتئابي
سأمضي بعد موتكِ في حياتي كما يمضي المغامر في الضبابِ
خلَتْ من كل سلوان وشاهت وقد ضاقت بأحزاني رحابي ...

حسن كامل الصيرفي

السلم الدائم

والحلف العام

« الناس كلهم إخوة والدنيا وطن كل إنسان » ! !

زينون : الفيلسوف الاغريقي

بدأ الإنسان مغيراً بطبعه غاصباً فكانت تغير القبائل الأقل حضارة على البقاع الغنية الأكثر حضارة فاذا جمعت هذه بين الحضارة والقوة صدتها وإلا غمرتها الأولى وبدأت الحضارة تنمو من جديد كما حدث في مصر في عهد الهكسوس وفي بابل في عهد البابليين والأشوريين ، والكلدانيين ، وفي كنعان عند دخول اليهود ، وفي البلقان عند إغارة الأغريق على الايجيين الذين أسسوا الحضارة الإيجية ، وفي آسيا الصغرى عند هجوم القبائل الآرية المختلفة. ولكنا مع ذلك نجد العقل البشري في نظره الى الإنسانية يتغير ويقابل ذلك تغير في الكتب السماوية القديمة كما هو ظاهر من مقارنة أسفار التوراة الأولى التي كانت تحث على سفك الدماء بالأسفار الأخيرة التي ذكر فيها السلم الدائم ، واخوة الناس في الإنسانية ، والمساواة بين القوي والضعيف ، ولو أن كل ذلك ممزوج بفكرة سيطرة اليهود ، وكذلك نرى الأغريق كانوا في أول أمرهم يقسمون العالم إلى أغريق وبرباريين ، وكانت كلمة باربارين تشعر بشيء من الغربة والاحتقار مثل كلمة جنتيل عن اليهود . ولكن في النهاية صارت الفلسفة الأغريقية تنظر نظرة أعم إلى الإنسانية ولاسيما مذهب زينون . ومن المأثور عنه قوله « إن الناس كلهم اخوة والدنيا وطن كل إنسان » إلا أننا مع ذلك لا نجد محاولة لتأسيس حلف عام ، لقد تحالفت بعض المدن الأغريقية لأغراض دينية كرعاية المعابد أو لتقرير ما يجوز عمله في الحرب وما لا يجوز وهو عمل إنساني وهو ما قام به الحلف الامفكتيوني ، أو لأغراض سياسية كصد الفرس وهو غرض حلف ديلوس الذي تحوَّل إلى امبراطورية أثنية ونشوة القوَّة والظفر ، ولدت الصلف والكبرياء الحربي وحب الاعتداء فأغارت أثينا

على سرقوزة في صقلية . وإذا قرأنا ما كتبه ثيوكيديدس وجدنا أنه يعزو الى الإثينيين الآراء والأقوال التي كنا نسمع بها عن النازيين والفاشست أي قولهم أن الحرب واجبة ، وأن من حق القوي أن يستعمل قوته ، وأن يسيطر على الضعيف . ولكن هذا الاعتداء كان من أسباب سقوط أثينا ، وصار ملك الفرس حكماً بين الدويلات الاغريقية إلى أن ظهرت مقدونية وسطا الإسكندر المقدوني على الشرق . ومن الأساطير المأثورة أنه وجد في بلدة بها عقدة قيل أن من يستطيع فكها يسود العالم ، فأخرج الاسكندر سيفه وقطعها به بدل أن يحاول حلها وهذه هي العقدة المعروفة بالعقدة الجوردية فصارت مثلاً يتمثل به في السياسة عند ما يحاول أن يحل إنسان مشكلة دولية بالسيف بدل حلها بالتفاهم والمفاوضة والتراضي وتجزأت دولة الاسكندر بعد موته وغزت روما أكثر العالم المتحضر حول البحر الأبيض وما يلي ذلك واستغلت الدول وفاخرت بالسلم الروماني ولكنها لم تستطع منع الحرب حتى بين جيوشها ، ثم سقطت . وكان يظن أن المسيحية ستمنع الحروب وتحقق السلم العام فاذا كل ذلك حلم جميل وكانت الفكرة السائدة أن العالم المسيحي عالم واحد وأمة واحدة ، ولكنها فكرة لم تحقق كما أن الأوروبيين كانوا يعدون باقي العالم من غير المسيحيين خارجاً عما تقتضيه العهود المرعية . وما لبث أن ظهر فشل البابوات في تكوين امبراطورية دينية عالمية ونشأت فكرة التوازن الدولي . وكان أول من جاهر بضرورة حلف دولي عام سولي وزير هنري الرابع ، ولكننا لو فحصنا هذا المشروع وجدنا تحته أغراضاً سياسية خاصة بفرنسا وتأمينها وصيانة سلامتها من دول أسرة الهابسبرج التي كانت تخشاها كما تخشى الدول الجرمانية في العصر الحديث ، والحقيقة أن كل مشروع من هذه المشاريع إنما يلجأ إليه الساسة عند الضرورة . ثم أننا نجد الدول الأوروبية في عهد لويس الرابع عشر صارت تنادي بضرورة التحالف ضده لمنع اعتدائه على جيرانه الضعفاء ، وكثر الكلام في ضرورة تأمين الضعيف من سطوة القوي ولكن الدول مالبثت أن اقتسمت مع حفيده شعوب الامبراطورية الاسبانية الضعيفة .

ثم جاءت الثورة الفرنسية فخطب الثوار الفرنسيون زاعمين أنهم يريدون خير الإنسانية ، وكان منهم من يسمي نفسه خطيب الانسانية أو محب الانسانية ، وكانت أكبر سبة عندهم أن سموا

بت الوزير الانجليزي عدو الجنس البشري ، وأعلنت الحكومة الفرنسية إنها حليفة لجميع شعوب العالم ضد الطغاة ووعدت الشعوب المغلوبة على أمرها بتحريرها . ومن العجيب أن بعض الأدباء بيننا ممن تثقف بالثقافة الأدبية الفرنسية ولم يعي عظات التاريخ كان إلى عهد قريب لا يزال يغتر بهذه الأقوال التي ظهر بطلانها من عهد بعيد، فقد صارت جيوش الجمهورية الفرنسية جيوشاً غازية مستعمرة مستغلة، واستفحل ذلك في عهد نابليون بونابرت فاتحدت ضده الدول وزعمت انها تحاربه كي تحرر العالم من طغيانه، وصارت تعد كل أمة بالحرية ، ولكن ما لبث ان سقط نابليون حتى اقتسمت الدول المتحالفة شعوب العالم ونسيت وعودها . وصار نابليون في منفاه يلقي على تابعه منثولون أحاديث السلم العام والحلف الانساني الذي عهد لابنه ان يحققه عند ما يستطيع أن ينال الملك . وفي هذه الأحاديث يقول نابليون إن الحلف الانساني لا يحقق بقطع العقدة الجوردية بالسيف كما فعل الاسكندر وكما فعل هو وإنما يكون بالتفاهم . هذه بعض أحاديث نابليون في جزيرة سنت هيلانة التي نُفِيَ إليها وهي أحاديث تخالف تاريخ حياته بعض المخالفة على الأقل. ومن الغريب ان خصمه اسكندر الأول قيصر الروسيا طلع هو أيضاً على الدول بفكرة حلف عام أسماه الحلف المقدس يتعهد فيه المتحالفون أن يعاملوا رعاياهم حسب مبادىء المسيحية . وقد رأت بعض الدول في هذا رغبة من الروسيا في إخراج تركيا المسلمة ونيل مآربها الاستعمارية منها . وعلى أي حال فإن دول هذا الحلف كانت مشغولة بمكافحة نزعات الحرية والوطنية التي ظهرت بين الشعوب الأوربية التي كانت خاضعة لها . وتمَّ توحيد المانيا وايطاليا وظهرت دول كانت شعوبها مغمورة، ولاح ان العالم مسوقٌ إلى حرب عالمية كبيرة لاختلاف مطامع الدول ومصالحها، ففكر الساسة في التحكيم الدولي ، وتأسست محكمة لاهاي ، كما فكروا في الحد من التسليح. ولكن كل هذا لم يفد لمنع الحرب وهكذا انقاد العالم إلى الحرب العالمية الأولى التي ظن إنها خاتمة الحروب، وتأسست عصبة الأمم بعد ان طلع الرئيس ولسن بشروطه، وتلقاه العالم كأنه رسول السلام، ولكنه أطمع الشعوب أكثر مما أشبعها ، فخاب أكثر مما نجح، وتخلى عنه نواب الشعب في أمريكا فتخلت أمريكا عن عصبة الامم ولم تفلح تلك العصبة في منع الحروب . وقيل إن سبب ذلك إنها لم يكن لها جيش دولي ويخيل لي أن الساسة يغالون أن تسهم في هذا

الجيش الدولي إذ كيف يكون جيشاً دوليًّا يخلص آحاده لغير دولهم إذا كانت هي المعتدية أليس يكون منقسماً على نفسه .

* * *

ولقد دهمت الحرب العالمية الثانية العالم وهي تنذر بحروب أخرى . ولم نسمع ان الدول استطاعت تكوين جيش دولي حقيقي وانما هي أجزاء من جيوش الدول كل جزء مطيع لحكومته ودولته . ولا تزال الدول مختلفة في المبادىء والاطماع والنفس الانسانية كانت ولا تزال يقودها الطمع . وقد زعموا ان الخوف سيمنعها من حرب أخرى . ولكننا لا نرى الخوف من القنبلة الذرية قد قلل أطماع النفوس ، ولا صرف الناس عن التسلح والاستعداد الحربي، ولا حل مشكلة اختلاف المبادىء ، فاذا ذلك الخوف لن يعصمهم من حرب او حروب أخرى . بل ربما كان الخوف من أسباب تلك الحرب كما يزعمون ، واذا لم يكن الخوف فالطمع والجشع واختلاف المبادىء . والنفس الانسانية تعرف انها تستطيع أن تعوض خسائرها مهما عظمت . فلو هلك نصف سكان العالم لاستطاع النصف الباقي أن يعود الى ما كان عليه العالم من الازدحام بالناس . وقد كانت بعض بقاع العالم عامرة فخربتها الحروب الماضية ولا تزال خراباً، ولم يمنع ذلك الناس من معاودة الحروب، ولم تكن هذه الحروب العالمية الحديثة أول صنف من الحروب التي يهلك بسببها الملايين من الناس . على أنه لو حاول العالم أن يتعظ ويمنع الحرب لكان ذلك بحرب أخرى لارغام من لم يتعظ ، وكل حرب توطئة لحرب أخرى في المستقبل .

* * *

ولقد قال جان جاك روسو « منع الحرب لا يكون الا بحرب أشد من كل حرب » وعندي أن هذا هين اذا استطاعت تلك الحرب الشديدة ان تمنع كل حرب، فان الظاهر من عظات التاريخ ان كل حرب تبذر بذور حرب جديدة في المستقبل وتهيء أسبابها ولكن ليس من المستطاع أن يتجنب العالم الحرب ان لم يكن ذلك للرغبة في اعتداء جديد فبسبب اعتداء أو ظلم قديم . وهذه الحرب العالمية الثانية لم تغير طباع النفس الانسانية وما دامت المنافسة أساس الحياة والعمران بين الأفراد والجماعات صعب التعاون الذي يمنع الحرب . ومن الصعب

وضع حد للمنافسة حتى لاتتعداه فتؤدي الى الحرب، وما عدا ذلك مغالطة في القول . ومما يدل على قلة ثقة أهل السياسة بمجلس الأمن العام وهيئة الدول المتحدة أنهم بدأوا يفكرون ويدعون الى وسائل أخرى لمنع الحرب، فبعضهم يدعو الى انشاء ولايات متحدة أوربية بين ممالكها ، والظاهر ان المستر تشرشل صاحب هذه الفكرة لا يعرف ان النجاح في انشائها ليس بأقرب الى التحقق مع اختلاف الأطماع والمبادىء . أو انه يعرف ولكنه يخفي ما يعرف لسبب ما . وبعض أهل السياسة يدرك الصعوبة فيدعو الى تحالف الدول الأربع الكبرى وتفاهمها ، وهذا لا يكون الا على حساب دول كثيرة صغيرة . مما يؤدي الى الحرب التي يراد تجنبها في المستقبل . ومما يزيد المعضلة الدولية تعقداً بدأ النزاع بين الشيوعية والرأسمالية. وفي الدول التي نظامها رأسمالي يراد إقناع الطبقات الفقيرة بترفيه اجتماعي نسبي سيكون حمله على الطبقات الدنيا الفقيرة من الطبقات الوسطى ، لأن أفرادها هم أكثر أفراد الأمة ولأنهم أقل نفوذاً من الطبقات العليا ، ولأن المتحصل من الضرائب عليهم وان كانت تصاعدية أكثر من المتحصل من غيرهم لكثرة عددهم ، وسيكون حمله أيضاً على الأمم الضعيفة ، ولا سيما الزراعية لأنها تستثمرها الأمم الصناعية القوية حتى في التجارة المشروعة وهذه الوسائل وهذا النزاع مما ينذر أيضاً بحرب في المستقبل .

* * *

لقد رأينا ان الانسان من قديم الزمن فكر في أن الناس كلهم أخوة وان الدنيا وطن العالم . ولقد رأينا أن الدول في كل عصر تحاول اكتساب الأنصار بالدعوة الى السلم والاخاء الانساني اذ خافت أن يمسها الضر، فاذا تحكمت نسيت دعوتها . وقد رأينا أن الأمل في هذا السلم الانساني الدائم كان مخدراً تهيئه الحياة للناس كي يستطيعوا أن يعيشوا حتى يصابوا بحرب مهلكة . فهو من مدن الحياة . وقد رأينا أن الساسة غير واثقين من وسائلهم الحديثة لمنع الحرب . وان أطماع النفس لم تتغير. وان خير ما في النفس قد يؤدي إلى الحرب كما يؤدي شر ما فيها . وان الانسانية تعودت أن تستعيض عما خسرته في كل حرب ، فألفت ذلك واطمأنت .

ع . ش

البصل

علاج للسرطان

البصل من أفضل النعم التي زخرت بها هذه الأرض التي سخرها الإنسان لمنافعه وما ربه وفيوض الطبيعة التي جادت عليه بما شاء من خيراتها ، وما بطنت من أسرارها . لقد عظمت منافع البصل وتعددت ، حتى لا تدري ما تحصي منها وما تدع . فإنه على كونه غذاءً للأبدان وافر التغذية ،مصلحاً للدم ، منشطاً للدورة الدموية ، فانه علاج متشعب المنافع ، يُستطب به من كثير من العلل والأدواء ، فمن ذلك إنه مسكن للأعصاب الهائجة ، والمعتلة الواهنة ، مبرىء من السعال والزكام ، مذهب للأرق ، مدر للبن المرضع ، نافع لمرض البواسير إذا دُقّ وغلي في زيت الزيتون . وإذا قطر منه في العين الرمدة المزمنة ، أفادها فائدة عظيمة ؟ كما أنه إذا أذيب فيه الملح وقطر منه في الأذن السائلة ، قطع ما يسيل منها . ويفيد في القراع بعد تنظيف الرأس بالماء الساخن والصابون . ودقه وغليه في زيت الزيتون يفيد في تشقق الثدي والخرّاجات .

وفي القصع والوثي والالتهابات عن رضوض ومصادمات . ما قرأته في بعض المجلات الطبية ، عن تجربة طبيب بنفسه ، إن حمل لبخة من البصل هي ذات فائدة عجيبة ، وذلك بدعكه جيداً وإضافة الملح إليه ، ثم يوضع على قطعة قماس أو قطن ، فيضمد بها الجزء المصاب وتغطى بخرقة من صوف ، وتربط ، وتترك هكذا بضع ساعات على العضو المصاب . وتعاد هذه اللبخة وتجدد عدة مرات حتى يتم الشفاء .

وجاء في تذكرة داود الطبية عن البصل ما يأتي : « والبصل الابيض هو أجوده خصوصاً المستطيل ، وأردأه الأحمر ، لا سيما إذا استدار ، ولا يختص وجوده بزمن ، لكنه ربيعي في الأغلب ، وهو حار يابس ، يقطع الأخلاط اللزجة ، ويفتح السدد ، ويقوّي الشهوتين ، خصوصاً المطبوخ مع اللحم ، ويُذهب اليرقان ، ويدر البول والحيض ، ويفتت الحصى

وماؤه ينقي الدماغ سعوطاً ، ويقطع الدمعة ، والحكة ، والجرب والبرص ، والكلف . والثآليل مع الملح والبارود ، والعسل والسداب ، وعضة الكلب مع شعر الآدمي ، والسموم مع التين ، والوباء والطاعون وفساد الهواء والماء ، ويعيد الشهوة إذا انقطعت مع الخل ، ويحمل فينزف الدم ويفتح البواسير ، وإذا شُوي ودرس بشحم الخنزير أو السمن ، أو سنام الجمل ، ليَّن أورام المقعدة ، وأذهب الشقاق والباسور والزحير مجرّب ، واذا دُلك به البدن حسن اللون جدًّا وحمَّره وأذهب أوساخه ، وعصارته تنقي الأذن والسمع ، وأكله في الصيف يصدع ويضر المحرورين مطلقاً ، والإكثار منه مسبت ، مهيج للقيء ، يورث الرياح الغليظة ، ويصلحه غسله بالماء والملح ونقعه في الخل ، ويقطع رائحته الباقلاء ، والجوز المشوي والخبز المحرّق ، وكلما عتق كان أجود »

هذا ما ورد عن البصل في الطب القديم ، وأما الطب الحديث فأعجب ، إذ أمسى يعالج به السرطان ، ذلك الداء العياء الخبيث ، عدوّ ألد الخصام للانسان ، الذي ألب نطس الأطباء وقادة العلم جميع ذرائعهم ، وقصارى جهودهم مقاهرةً له واستئصالاً لشأفته ، وهم ما برحوا من أمره في حيرة ولا يزالون مختلفين : فبعض يقول أصله مكروبي ، ومتى عرف الميكروب ، عرف الدواء ، وبعض ينفي ذلك ، وعلى رأسهم الدكتور وولف الألماني ، ولا ندري إذا كانت هذه الحرب القاصمة قد أبقت عليه ، أم هو أمسى في الهالكين ، فانه يذهب إلى أن السرطان مرض لا يصيب إلاّ من جاوز الأربعين ، فلو كان مرضاً ميكروبيًّا لأصاب الناس في شتى أعمارهم .

قلنا حال الطب الحديث مع البصل أعجب . فقد اطلعنا على بحث طريف ... في مجلة « كل شيء » العلمية الفرنسية ، للطبيب العلامة جورج لاكوفسكي في منافع مصل البصل والحقن به ضد كثير من الأمراض ، ولا سيما مرض السرطان ، وقد وردت عليه عدة كتب يطلب فيها أصحابها منه مقادير من هذا المصل ، فكتب رسالة أخرى في هذه المجلة يعتذر بعجزه عن تلبية هذه الطلبات ، لأنه لا يملك من هذا المصل إلاّ مقدار ما يحتاج إليه في معمله لتجاربه الطبية ، واختباراته العلمية الخاصَّة . وقد ذكر أن أكل البصل نفسه يغني عن الحقن بمصله ، ويفيد ذات الفائدة . وإليك ما حققه في مقالته تلك ، ننقله بنصه لقراء المقتطف الأفاضل :

« إن مصل البصل أو لقاحه المستخدم في الحقن الجلدي ، ليس من السهل استحضاره ، ولكني أنصح قراء مجلتكم استبدال الحقن تحت الجلد ، في أكثر الحالات ، بحقن شرجية تعمل من عصير البصل المستخرج بالضغط ، أو بالسحق أو البَشر ، أو بأية وسيلة مما يكون في المطابخ والذين يستطيعون هضم البصل النيء دون عسر ، فليأكلوه مع الخبز والزبد ، أو مع السلاطة أو مع فواتح الطعام ، مثل الجرجير والزيتون ، وما إليهما .

ولقد ذكرت أن طوال الأعمار يكثرون في البلدان التي يكثر فيها أكل البصل ، وإن مرض السرطان كاد أن يكون فيها معدوماً ، ولا سيما بلاد بلغاريا التي عدد الذين عمروا فيها ، فبلغوا أرذل العمر ، المائة والثلاثين ، أو جاوزوا ، جسيم بليغ . وقد كانوا يعزون ذلك إلى أكلهم اللبن الرائب (الزبادي) اقـد وهموا وما أصابوا ، فان أهالي قفقاسيا ، وبعض جهات روسيا ، يأكلون هـذا اللبن ، ولا تراهم مع هذا ، قد بلغوا هـذه الأسنان . وإنما امتداد السن بأهالي بلغاريا مبعثه في رأيي ، ما يتغذون به من فج الأغذية (غير المطبوخة) خصوصاً ، كالخضر والفاكهة ، ولا سيما البصل النيء ، ما عدا اللحوم ، التي لا يتناولونها إلاّ يوم الأحد . وإني لمؤيد رأيي بهذا الكتاب الوارد عليّ من الأستاذ ستامانوف من جامعة صوفيا ، غب إذاعتي نتائج بحوثي الذي يقول لي فيه :

« دونك هذا الاحصاء الذي استخرجته من ادارة الصحة العمومية عندنا ، ويقر عيني علمي أنك على حق ، فان الفلاحين هنا ، وهم السواد الأعظم ، قد سلموا من هذه السرطان ، ووقوا غائلته ، إلاّ قليـلاً . وما كان ذلك إلاّ لأننا نكثر من أكل البصل ، ما عدا أهالي رومانيا ، وربما أيضاً أهالي يوغوصلافيا . وما أعلم ان بلداً في الدنيا يفوقنا في أكل البصل ونحن نأكل البصل فجـّاً مع المليح والفلفل والخبز . وطعامنا أيضاً الكثير من البهارات والثوم » .

هذا ، وإني منذ أن أذعت تجاربي ، جاءتني عدة خطابات ، يذكر فيها مرسلوها فعل البصل العجيب ، مؤيدين القول بالتجربة ، وقد كتب إليّ أحد أساتذة هيبلية ، أن مشاهداته وتجاربه قد دلته على أن البصل يبرىء المصابين بالزهري متى تناولوا منه مقداراً كبيراً . وكتب إليّ أيضاً بمثل هذا مهندس مشهور .

لقد تكاثرت عليّ الكتب في ذلك ، على أن ما تضمنته من أقوال يحتاج الى تحقيق واثبات ، ولكنه كله جائز ومحتمل ، ذلك أن الكاتبين إليّ من كل فج ، هم من الجلة الفضلاء ، ولا مقصد سوء لهم ، ولا خبث دخيلة » .

هذا ما حققه هذا الطبيب البحاثة في أعاجيب أفاعيل البصل . فما رأي أطبائنا الاجلاء في هذا ؟

احمد ابو الخضر منسي

جزيرة الرجال

وجزيرة النساء

في يوم اشتدّ حرّه من أيام شهر آب (أغسطس) سنة ١٩٣٢ غصّت قاعة المحاضرات في كلية ترّا سانطه بالقدس، بما لا يقل عن ثلاثمئة مستمع من سيدات ورجال، جاءوا لاستماع محاضرة عنوانها «جزيرة الرجال وجزيرة النساء» يلقيها فقيد العربية المرحوم العلاّمة الأب انستاس ماري الكرملي. ولما أزفت الساعة المعينة بدأ المحاضرة بقوله:

«قرأت منذ ثلاثين سنة في كتاب نخبة الدهر لشيخ الربوة الدمشقي أن هناك جزيرتين لا يقطن إحداها إلاّ الرجال ولا يسكن الأخرى إلاّ النساء... وأنا أعتبر شيخ الربوة من أدق الجغرافيين الإسلاميين. ولم يؤثر عنه أنه مزج الحقيقة بالخيال، أو خلط الوهم بالصحيح. ولا بدّ وأن يكون لهذا النبأ أساس كبير من الصحة. وقد شغلت هذه القضية أفكاري. واتصلت بأهل العلم من شرقيين ومستشرقين. في خلال هذه الثلاثين من السنين فبعضهم جعلها في بحر الظلمات، وآخرون ذهبوا بهما الى بلاد الدنمارك، وغيرهم وضعوها في الأوقيانوس الهندي... إلى غير ذلك من الأمكنة والبقاع. ولكني لم أرتح لرأي أي واحد منهم. لأنّ الشروط التي يجب أن تتوفر في تعيين هاتين الجزيرتين لم تتوفر في رأي أي واحد من هؤلاء العلماء الأجلاء. وأهمها:

١ — أن تكون الجزيرتان متقابلتين:

٢ — وبجوار بحر الأرخبيل:

٣ — قريتين من بلاد الصقالبة:

٤ — وتقابلهما كبدوكية التي سكنها أمارينوس...» ثم أخذ رحمه الله يذكر وصف المعيشة في تينك الجزيرتين، وكيف أنه كان يسمح في فصل الربيع بالتقاء الرجال والنساء في

خروجهم للصيد في عرض البحر ، وهناك يتلاقحون . وشرح كيف كان يتم التلاقح ، بحيث أن بعض السيدات الحاضرات أخذنَ يتبادلنَ الابتسامات التي تدل على الخجل . وبعد ساعة من بدء المحاضرة أخذ العرَق يتصبب من أجسام المستمعين ، فنام بعضهم وخرج معظم السيدات الى فناء الكلية . وبعد مرور الساعة الثانية لم يبق في القاعة أكثر من ربع المستمعين ، فشعر المحاضر الكريم بالموقف وأنهى المحاضرة بلباقة . وطلب أن يكون البحث في المحاضرة في المقصورة ، حيث يتناول الشاي . ولما نهض تبعه كل من كان يهمه الموضوع . وغصت المقصورة بهم . ولم يبق لي مكان أجلس فيه . ولئن لم يساعدني ظرف المكان على الاشتراك في البحث ، فقد ساعدني القلم . فكتبت إليه هذا الكتاب(١)

سيدي العلاَّمة قدس الأب الكرملي الأجل :

السلام عليكم :

وبعد فقد أسعدني الحظ بأن أكون من مستمعي محاضرتكم الممتعة التي تفضلتم بإلقائها في نادي ترَّا سانطه الزاهر بالقدس ، عن جزيرة الرجال وجزيرة النساء . ويعلم الله أنني توَّاقاً إلى مشاهدتكم والاستماع إليكم بعد أن قرأت لكم كثيراً فكنت ألتهم كل ما تقولون إلتهام الجياع كل ما في القصاع . ولقد أكبرت فيكم هذه الاناة والصبر على البحث والجلد المتواصل على معاناة الدرس الجاف ، حتى يخرج البحث من قلمك سائغاً للقارئين ، وسهلاً على السامعين . ولكن هذا لا يمنعني من إبداء رأي بسيط في الموضوع ، بعد تأكدي من أن صدرك الرحب سيتسع لما أقول . وأن آذانكم ستسمع ما أعرض عليها ، وقد سمعت ووعيت الشيء الكثير من الآراء التي تعرض عليها ، ولو كانت جافة وفجَّة .

إرتحت إلى جعل جبل آثوس — الذي في بلاد اليونان ، ويقرب من شبه الجزيرة في شكله ووضعه — إرتحت إلى جعله جزيرة الرجال . . ولكن يا سيدي الفاضل أستبعد كل محاولة لإيجاد جزيرة النساء ، سواء في بحر الظلمات أو في بلاد الدنمارك أو في الأوقيانوس الهندي . كل هذه المحاولات كانت مستهجنة عندي . وعلى الأخص ما دار منها حول جعل

(١) المدرسة الاميرية : بيت لحم في ١٥ — ٨ — ١٩٣٢

الجزيرتين «كوريا» و«موريا» جزيرتي الرجال والنساء ، وقلب أو ابدال أو مسخ السقاطرة سكان جزيرة سقطرا المجاورة للجزيرتين — إلى صقاطرة ، ثم الى صقالبة . هذا شيء بعيد الاحتمال . وعندي رأي أتجاسر لأن أعرضه عليكم وهو :

في أوائل القرن الرابع عشر قبل الميلاد اشتبك المهاجرون الاخائيون والروريون — أجداد اليونان — في أثناء رحيلهم من الشمال الى الجنوب ، بأمم تسكن بلاد كبدوكية . وكان كل المحاربين من النساء . وقد أطلقوا على هذه النسوة المحاربات اسم «الأمازونات» . وبعد ازدهار الفن الأغريقي خلد اليونان أمجاد أسلافهم القدماء ، فرسموا صور هذه المعارك مع الأمازونات على آنيتهم الفخارية الجميلة ، وحفروا هذه المشاهد على نواويسهم الرخامية والحجرية بغاية من الدقة والمهارة . وفي متحف القدس صورة هذا المشهد محفورة على ناووس رخامي وجد في سواحل هذه البلاد .

ولكن ما عسى أن تكون هذه النساء المحاربات ، وإلى أي قوم ينتسبن ؟

يجيبنا على ذلك الأستاذ «ميرز» المؤرخ الانكليزي ، فيقول : إن نتيجة أبحاثه الأثرية تثبت لديه أن الخيتاس (الحثيين) هم سكان كبدوكية القدماء وقد كان من عادتهم حلق اللحى والشوارب . فرآهم اليونان القدماء في حروبهم معهم كأنهم نساء . ثم زالت هذه العادة بعد احتكاك الخيتاس بالمهاجرين . ولما بعد العهد بين المظهرين ـ الحلق والاطلاق ـ ونسي الاحفاد ما شاهد الأجداد ، من أربعة قرون ، خلد هوميروس مفاخر اليونان القدماء في إلياذته . ومن جملة ما ذكر حروبهم مع النساء الأمازونات . ونقل الخبر عنه هيرودتس . وعن هيرودتس أخذ بطلميوس . وما أكثر ما أخذ العرب في الجغرافية عن بطلميوس .

أستنتج من كل ما سبق أن جزيرة النساء التي وردت في كتاب شيخ الربوة ، وغيره من كتب الجغرافيين الاسلاميين ، هي شبه جزيرة آسيا الصغرى — أو قسم منها — التي كانت تعرف بكبدوكية — وهي قريبة من بلاد الصقالبة — السلاف — وكان يسكنها الخيتاس ، أو الأمازونات التي حرفت الى إمارينوس . وهي قريبة من بحر الأرخبيل ، ومقابلة لجزيرة الرجال — جبل آثوس — ولا يضيرنا أن يكون المكانان شبهي جزيرة ،

فان العرب قالوا : جزيرة العرب ، وجزيرة الاندلس ، في حين أن كلاً منهما شبه جزيرة .

ومن هذا يتضح أن هـذا الافتراض يزيل من الطريق كثيراً من العقبات التي اعترضت السبيل في البحث .

هـذا ما خطر لي أن أكتبه إليكم الآن على عجل ، آملاً أن يصلكم وأنتم في فلسطين ، عسى أن يكون فيه شيء يرتاح اليـه الضمير ويقبله البحث . أيدكم الله بعزم من عنده لتبقوا ذخراً للعرب والعربية والسلام عليكم .

ثم تلقيت منه هذا الجواب الذي أحتفظ به الى الآن :

حيفا في ١٧ / ٨ / ٣٢

كنت على جناح ركوب السيارة . وإذا راهب من كلية الفرنسيين سلمني كتابكم فلم أستطع الاجابة عنه ، لذهابي الى الناصرة ومنها الى هنا .

لا يخلو تأويلكم من بعض الصحة . ولا جرم أننا اذا استطعنا أن نؤول الجزيرتين بما هو أقرب الى مألوف ما نفهمه من معنى الجزيرة ، ومن معنى الرجال والنساء ، من غير أن نتطلب التخريجات والتأويلات نكون أقرب الى الصحة . وعلى كل حال اني إذا عدت الى هذا البحث أذكر رأيكم وأنسبه اليكم . ولكن يبقى ذلك تأويلاً للأمازونات ، لا تأويل جزيرة الرجال وجزيرة النساء . وتأويل الأمازونات راجع الى عالم واحد — لا الى جماعة من العلماء . وأنا أقر بفضلكم العميم . وأشكركم على ما أفضتم به من رأي وحفظكم الله

الأب انستاس ماري الكرملي

ومن ذلك التاريخ أخذت اهتم بهذا الموضوع لأسباب كثيرة منها محاولة اثبات اجتهادي ، وتلبية لطلب المحاضر الكريم الذي رجا فيه من كل مستمع أن يواصله بما يجد له في هذا البحث ، ومن أهمها أن شمس الدين شيخ حطين أو شيخ الربوة الدمشقي قضى شطراً كبيراً من عمره في صفد وفيها كتب كثيراً من كتبه ، وفيها توفي ودفن في بيمارستانها سنة ٧٢٥ هـ كما يذكر معاصره صلاح الدين الصفدي في مخطوطته الثمينة «الشعور في العور» وكنت أهم بإرسال هذه المعلومات لقدس الأب الكريم ، حتى فوجئت بنعيه . فأحببت نشر البحث بكامله ، لعلَّ فيه بعض الفائدة .

في الحرب الكونية الثانية جاست الجيوش ، يرافقها الصحفيون والعلماء ، خلال ديار مهجورة ، وكتبوا عنها الشيء الكثير . فقد كتب صحافي أميركي ما يأتي عن جبل آثوس :

يقع جبل آثوس في الشمال الشرقي من بلاد اليونان وقد مدَّ رأسه في بحر الأرخبيل ، وعلا عنه ثلاثة آلاف قدم .

وكان الاغريق يقولون أنه مسكن آلهتهم القديمة . ومنذ القرن التاسع الميلادي بدأت الأديرة النصرانية تحتل محل الهياكل اليونانية الوثنية . وقد وصل عددها في القرن الثالث عشر مئتي دير . أما الآن فعددها لا يتجاوز العشرين ديراً . وكل دير منها قائم على بعد غير قليل من الآخر . ومن هذه الأديرة ما بني على حافة هاوية رهيبة ، يرى الواقف من فوقها البحر هادئاً تحته . وهذه الأديرة زاخرة بأقدم الكتب المزينة بأجمل النقوش والحافلة بأثمن التحف وكلها من تراث البوزنطيين ويمتاز دير « سيموپيترا » الروسي بتحفه الرائعة من العهد القيصري .

يسكن هذه الأديرة ستة آلاف راهب . ولهم امتيازات من العهد العثماني . ولما انفصل اليونان عن العثمانيين في أوائل القرن التاسع عشر حاولت حكومتهم الجديدة العبث بهذه الامتيازات . فلم تستطع .

أقمت في سلانيك ثلاثة أيام حتى حصلت على الاذن بدخول منطقة جبل آثوس سافرت في باخرة — اعتادت السفر إلى تلك المنطقة مرة في الأسبوع . وأول ما قابلني حرس الرهبان الذين مهمتهم أن يراقبوا الحدود خوفاً من دخول الذئاب أو النساء . ومنذ اتخذت هذه المنطقة مقراً للرهبان لم تطأها قدم امرأة ، سوى اليزابث ملكة رومانيا ، التي سمح لها أن تزورها وتقيم فيها خمس عشرة دقيقة . ولا يمكن بصورة من الصور أن تستطيع امرأة ، مهما تخفت الدخول إلى ذلك المكان — فالرقابة شديدة والتفتيش دقيق . وقد حاولت صحفيات كثيرات ذلك . فأخفقن . ولا يمنع النساء وحدهن دخول هذا الجبل ، بل حظر ذلك على أناث الحيوان والطير كذلك ، فلا تقبل فيه الناقة ولا الفرس ولا البقرة وحتى أن بعض الأديرة تمانع في دخول الدجاجة . ويقدم للضيف « الراكير » والقهوة التركية وعصير البرتقال . وعند غروب الشمس تقفل أبواب الأديرة ، ويتفرغ الرهبان لقيام الليل . وهم يصلون قبيل عيد الفصح صلاة تستغرق اثنتي عشرة ساعة .

وكتبت مجلة لسنر Listner عن جزيرة النساء :

في سنة ١٩٤٤ . نزلت القوات البريطانية في جزيرة لامينوس ، من جزر الدوديكانيز الواقعة عند مدخل الدردنيل ، وهذه الجزيرة غريبة في تاريخها ، وقد عرفت في التاريخ باسم جزيرة النساء . وتقول إحدى خرافات اليونان أن نساء هذه الجزيرة تآمرن على أزواجهن وقررن التخلص منهم . فذبحن جميع الرجال في الجزيرة ، بحيث لم يبق غير النساء

محمود العابدي

باب المراسلة والمناظرة

تنبيهان

اطلعت في مقتطف فبراير سنة ١٩٤٧ على قصيدتين رائعتين إحداهما بعنوان (برلمان الطبيعة) والأخرى بعنوان (تلمس في الظلام) وهي مهداة الى روح أبي العلاء المعري .

اما القصيدة الاولى فكلها ابتكار ولكن جاء فيها البيت الاول أو مستهلها عسر القراءة الصحيحة المستقيمة الجرس ، إذ أن الشاعر على ما يظهر اراد ان يعدم همزة الوصل من النطق فلم يفلح وإن افلح فإنه استعاض عنها بحرف ساكن كسره،وكان الأحرى ان يبقيها وهي مكسورة بطبيعة الحال في مصادر الأفعال الخماسية والسداسية . فيكون بيته الأول باثبات همزة الوصل على هذا الوضع .

لقد رشحت يا أفق السحابا وقد أجرت رياحكِ إنتخابا

والقصيدة ـ لا شك في انها ـ من الوافر وإذا اراد الشاعر ان لا يثبت همزة الوصل يمكن ان ينظم البيت على الصورة التالية :

لقد رشحت يا افق السحابا وقد أجرت لها الريحُ انتخابا

ولكن ليس من الضروري ان يضعها في القالب الثاني لأن إثبات الهمزة اي همزة الوصل جائز ضرورة ووارد في اشعار الأقدمين وهذه امثلة على ذلك . قال ابو العتاهية .

ايها الباني لهدم الليالي إبن ما شئت ستلقى خرابا

وقال قيس ابن الخطيم

إذا جاوز الإثنين سرٌّ فانه بنشرٍ وإفشاء الحديث قمينُ

اما القصيدة الثانية فجاء فيها البيت الآتي مضطرباً وغير موزون وعلى الأغلب ان هذا الخطأ الذي فيه ناتج عن الطبع لأنه توجد بعض الآثار للتصحيف تنم عن ذلك وها أنا نورده بنصه:

« غير أن الزهور تفنى ولكن مودعات البذور سرٌّ من السرّ المعاد »

البيت كقصيدته من البحر الخفيف ولكي يستقيم وزنه يجب أن تحذف منه هاتان الكلمتان (من السر) فيكون بصورته الصحيحة .

غير أن الزهور تفنى ولكن مودعات البذور سرٌّ المعادِ

هذه بعض الآراء التي عنت لي وأنا أقرأ القصيدتين العصماوين اللتين لا يضيرهما ان وقعت فيهما بعض الهنات الخفيفة إذ أن الكمال خصّ بالباري وحده .

البصرة — العراق رشيد السعر

باب الأخبار العلمية

الديكتافون

جاسوس علمي مأمون ، تنفيض الغبار بالكهرباء ، الجهاز الحلاق

جاء في إحدى الصحف الأسبوعية بتاريخ ٢٨ ديسمبر سنة ١٩٤٦ .

« هذا نبأ لا شك أنه يدعو الى اهتمام العدد العظيم في مصر ، من الموظفين والكتبة وعلى الأخص كبار رجال الأعمال . وقد أذاعته أمس إحدى الشركات الأمريكية لعمل الأثاث وذلك تحت عنوان (مكتب الغد) وصفت فيه « مكتب المستقبل » الذي أتمت وضع تصميمه وشرعت في إخراجه . وهو مكتب عصري بأقصى معنى الكلمة . ففيه ثلاجة و « بار » وخزانة غير قابلة للحريق ، وراديو وتليفون داخلي بين المكاتب وتليفون خارجي ، وولاعة تخرج من جانب المكتب ، وفي قمتها شعلة من النار ، تشتعل متى ضغطت على زر صغير ثم تعود ثانياً وتختفي من حيث أتت . وقد استعاضت الشركة في تصميمها ، عن الرفوف العالية التي كانت تستخدم في المكاتب القديمة ، لجمع الأوراق ، بأجهزة لطيفة جميلة أقل ارتفاعاً من الرفوف ، تشع ضوءاً على المكتب بحيث لا يؤذي نظر الجالس إليه . وقد وضع في أحد جوانبه ، جهاز التليفون الخارجي وفي جانب آخر ، جهاز (الديكتافون) وهو جهاز خاص يسجل فيه صاحب العمل تعليماته أو خطاباته على قرص كأسطوانة الفونوغراف فيأتي السكرتير فيما بعد ويصغى الى الاسطوانة وينفذ مافيها . وفي هذا المكتب ساعتان إحداهما في مواجهة صاحب العمل والاخرى في مواجهة الزائر .

ويستطيع الأول أن يقدم ساعة الزائر على قدر ما يرى ليتخلص من زائره . ولم يفت الشركة تزويد هذا المكتب بجهاز للحلاقة يستخدمه صاحب العمل في آخر النهار ، إذا كان يعتزم قضاء السهرة في حفلة عامة . أما دهان المكتب فمن النوع الذي لا يتأثر من أعقاب السجائر ، على أنه ينقص هذا المكتب جهاز أوتوماتيكي لتنفيضه من الغبار » تم بحروفه .

قرأت هذا الخبر فاستدعى نظري فيه ثلاثة أجهزة هي (أولاً) الديكتافون (ثانياً) جهاز تنظيف الغبار (ثالثاً) جهاز الحلاقة ،

فتوخيت وصفها فيما يلي ليقف قرّاؤنا على مزاياها الطريفة : —

ظهر الديكتافون أو الديكتوغراف أو الديتكتافون في إنكلترا في أوائل سنة ١٩١٢ ومن بواعث غبطتي أني كنت سنتئذٍ أول من وصفه وذلك في مجلة المحيط

وهو جهاز تصح تسميته بالجاسوس الآلي، إذ هو يقاوم المجرمين ، أقطع مقاومة أيًّا كانت صفاتهم . ولا غرو فانه خير جسَّاس لتسقط أخبار السجناء في حجرهم الانفرادية وفضّاح للمؤامرات التي تحاك شباكها في غرف الفنادق ، وحجر دوائر الأعمال . إذ يجأر تجاه أربابه ومستعمليه ، بما يدور همساً على ألسنة الخبثاء في غياهب معتقلاتهم . وحسبك أنك إذا أخفيته تحت أريكة أو كرسي أو خلف مكتبك أو وراء نافذة من نوافذ مسكنك أو متجرك ، استطاعت تلك الأذن الميكانيكية الدقيقة الأنصات لما يفوه به المجرمون والأشرار في خلواتهم ، واظهار ما تجيش به أفئدتهم ثم ايقاع الذعر في نفوسهم عند افتضاح أسرارهم . فلا فائدة إذن في اغلاق الأبواب ، وخفت الأصوات ما دام الديكتافون مخفيًّا . إما في أثاث الحجرة وإما في أحد حيطانها ، حيث يمكنه التقاط أضعف الأصوات واعادتها عند الحاجة على من يطمحون إلى سماعها بعيداً عن مصادرها

ومما ينبغي ذكره في هذا الصدد أنه كان في بلاد الأمريكان ، مخبر سري يشار إليه بالبنان هو و . ج . برنز W. G. Burns بلغ من عبقريته في اقتفاء آثار الأشرار والتنكيل بهم أن حسبه بنو وطنه « سحّار الفجّار » وذلك قبل أن يعرفوا أنه يستخدم الديكتوغراف ، ثم إن براعته بصفة كونه مخبراً سريًّا لم تَهِنْ عندما تبيَّن أنه هو نفسه كان من أوائل الناس الذين شاهدوا خطر شأن الأعمال التي يضطلع بها هذا الجهاز في المباحث السرية ، فضلاً عن كونه قد استخدمه استخداماً ناجحاً حتى بعد تكشف سرّ هذه الآلة للمجرمين ، ثم عقب معرفتهم إياها . وبلغ من شغف برنز بالديكتوغراف أنه يحمله دائماً في جيوب ثيابه . وقد يغفل حمل غدارته أو يهمل حمل الأغلال ، خلافاً لأترابه ، من أقطاب المخبرين السريين ، ولكنه لا ينسى أبداً صديقه الديكتوغراف لأنه يعدُّه أقوى آلة عصرية ترغم الآثم على الاعتراف بإثمه . وإذا وُصّل الديكتوغراف بآلة التليفون المنزلي ، استطاع به رب البيت أو ربته أن تسمع خلسة كل كلمة يفوه بها أي إنسان يلوذ بها ، خادماً كان أو زائراً أو قريباً لها ، وإن كان بعيداً عنها . وبلغ من صغر حجم الديكتوغراف أنه يسهل تركيبه في جوف جهاز التليفون المألوف بحيث لا يفطن له امرؤ . فهو جهاز يشبه ناقلاً صوتيًّا ، أو بوقاً كهربيًّا حساساً جدًّا مؤلفاً من قطب كهربي ذي عشر بطاريات تحتوي على كريات من الفحم بدلاً من رقعة

الصفيح التي توضع تجاه قطب كهربي صلب من الفحم ، كما هي الحال في بوق التليفون . ومن طبيعة هاتيك الكريات الفحمية عدم الاستقرار في مكانها ، بل التجوال تجوالاً من شأنه صيرورة البوق الديكتوغرافي نشيطاً على الدوام ، حساساً الى أقصى حد .

فاذا ما وقعت محادثة أو أي صوت في حجرة يوجد فيها تليفون ركب فيه بوق ديكتوغراف أتيح لطالبها سماعها جليّاً في الطرف الآخر من الخط . وبلغ من حساسة هاتيك الأبواق أن المستمع لها في نهاية الخط لا يجب أن يكون قريباً من السماعة لكي يسمع كل ما يدور في مصدر الحديث .

وبما أن الديكتافون يحل محل البوق التليفوني ، فلا يدري به أحد على الاطلاق فيقوم التليفون مقام بوقه حينما توضع السماعة في موضعها . ومن ثمة يتاح تضليل كل من يُقصد كشف سره به .

فان كنت مثلاً صاحب دائرة أشغال تجارية مؤلفة من مكاتب شتى ، أمكنك عن طريق هذا الجهاز ، الوقوف على كل ما يدور من المحادثات في كل مكتب منها على حدته بينما تكون جالساً عند مكتبك . وما عليك لتحصل على أمنيتك إلاّ أن تضغط زرّاً صغيراً فيتصل تليفونك بتليفون المكتب المراد استقصاء أخباره ، فتنصت لكل ما يحدث فيه من المحادثات العقيمة . فاذا كان المستخدمون مثلاً يتسامرون بعضهم مع بعض ، مهملين واجباتهم ، أدركت تقصيرهم على الفور . وهذا من حقك الشرعي ما دمت مخولاً قانوناً أن تجوس خلال مكاتب أشغالك من حين الى آخر لتتفقد أحوال عمالك ومرؤوسيك .

وهذا بلا جدال من أنفع منافع الديكتافون . واشد ما يدهش كثيرون من المستخدمين ، عند ما يدركون أن صاحب العمل أو مديره يلم بما يتفوهون به في غيبته ، وأنه متيقظ لكل ما يبدر منهم من التلكؤ في نوبات أعمالهم فيسجلها ضدهم . ولذلك عنيت شركات كثيرة للمصانع الانكليزية والأمريكية وغيرها من دوائر الأعمال الاوربية والأمريكية وغيرها بتجهيز مكاتبها به بغية تجسس أحوال صناعها ومستخدميها في حينها (ولكنها لا تعترف بهذه الحقيقة لأن إعلانها ليس في مصلحتها طبعاً) .

أما التذرُّع بهذا الجهاز لإثبات الجرائم على مقترفيها أو للتجسس على المستخدمين ، فعلى الرغم من خطر شأنه ، فهو أمر محدود جدّاً بلا ريب . غير أن نفعه في الأعمال التجارية أعظم مما تقدم وصفه وبالديكتوغراف أصبح في وسع صاحب الأعمال ، الإتصال بكل دائرة من دوائره التجارية دون مغادرة مكتبه . فاذا شاء مثلاً محادثة مستخدم في الطبقة الرابعة من المتجر مثلاً ، أتيح له ذلك الأمر دون إنزال سماعة التليفون عن

مكانها ، ولا نداء عاملة التليفون لكي توصله بمن يريد مخاطبته ، وقد يكون هذا الشخص متغيباً عن مكتبه أو يكون في الجانب الآخر من غرفته . بل كل ما يجب عليه وقتئذٍ أن يضغط زراً فيدق جرس التليفون في الغرفة المفروض وجود المرء المطلوب محادثته فيها . ثم يواصل المزمع المحادثة أعماله المألوفة أيّاً كانت ريثما يرد عليه الشخص المقصود ، فيتمكن صاحب الأعمال (وهو جالس على مقعده الوثير) وقد يكون المخدوم مشغولاً بالكتابة) من إصدار تعليماته الى ذلك المستخدم . وحينئذٍ لا يضطر المتكلم الى وضع شفتيه على بوق التليفون لأن المستخدم يستطيع من الجهة الأخرى الرد على التليفون، ولو كان بعيداً عن مكتبه (مائدة الكتابة) وذلك لأن المستخدم إذا تكلم بصوته العادي صار صوته مسموعاً ، وإن صدر من أي جزء من أجزاء الحجرة فلا يضيع عبثاً أي وقت من كليهما. وباستخدام الديكتافون موضوعاً على المكتب ، يمكن الاستغناء به عن خزانة التليفون وهي التي يلجأ إليها المتكلم لكيلا يسمع الآخرون حديثه التليفوني ، وذلك لأن بوق الديكتافون حسّاس جدّاً فيجعل أخفت الأصوات مسموعاً ولو كان همساً . هذا اذا كان المتكلم يبغي ألاّ ينكشف سره لغير مخاطبه ، وحسبه أن يقرّب شفتيه من البوق ثم يتكلم بصوت منخفض جدّاً فلا يسمعه الجالسون بجوار مكتبه .

كيف تسجل الأحاديث الخاصة بالأشغال التجارية

ومما لا شك فيه أنه يكاد يستحيل على أي واحد من أرباب الأعمال التجارية ، املاءُ كاتبٍ من كتبتهم ، أي خطاب يتعلق بأشغالهم في حضرة زائريهم ، دون وقوفهم على فحواه ، في أثناء الاملاء ، بيد أن هذا ميسور بمعاونة الديكتافون إذ يستطيع المرء أن يملي مُهامَسةً كاتب الاختزال ، ما يريده ولو كان هذا المختزل في حجرة مجاورة له . ويتسنى أيضاً الحاق الديكتافون بجهاز الفونوغراف ، بغية تسجيل حديث المتكلم ، إذا شاء ذلك . ويكفي حينئذٍ أن يضغط المتحدث زرّاً كهربيّاً فيقوم الجهاز عما ينشده الطالب . وإذا كنت تناقش تاجراً من أصدقائك في أمر ذي بال ، ويهمك تدوين ما يدور بينكما من المفاوضات ، قام الديكتافون بذلك العمل على خير ما يرام . وفي مثل هذه الحالة يمكن الاستغناء عن المختزل الذي يكلف العمل في آخر الخط . وحينئذٍ تسجل المحادثات جميعها على اسطوانة الفونوغراف . وعنها يستطاع نقل الحديث برمته فيكتب بالآلة الكاتبة . وبلغ من دقة جرم الديكتافون أنه حيثما يوضع لا يتجلى أمره لمخلوق ، فيمكن تركيبه في مستشفيات الأمراض العقلية فيلتقط كل ما يصدر من أقوال المجانين آناء الليل وأطراف النهار ،

فتعرض على أطبائهم ليقفوا على تفصيلاتها لأن للمخبولين حالات شتى يتعذر على الأطباء دراستها بالرقابة الشخصية فيتسنى لهم الوقوف على كنهها بمساعدة الديكتافون . لأن أولئك المرضى يسلكون في عزلتهم سلوكاً مخالفاً لما يبدو منهم في حضرة مراقبيهم . وقد رُكّبتْ أجهزة الديكتافون في طائفة من الفنادق الكبرى في انكلترا وأمريكا وغيرها فاستدل بها مديروها على الأشرار الذين يلجؤون إليها ، فأرغموا على اخراجهم منها غير آسفين . بل إنها أصبحت واسطة لاثبات التهم على المجرمين الذين يكمنون فيها ، وتسهيل ارشاد حفظة الأمن العام اليهم ، ليقبضوا عليهم . وقصارى القول إن للديكتافون محاسن ومساوىء لا تحصى .

والديكتوغراف الذي يستعمله المخبرون السريون ، هو تليفون داخلي مكيّف ، لتلك الغاية ، الغرض منه التجسس . ويبلغ ثقله نصف رطل ويمكن حمله في جيب المعطف . وعند ما يوضع في علبة من الجلد الأسود يخيل لناظره أنه آلة تصوير صغيرة مما يحمل في الجيب ، وفيه جامع للصوت أو بوق ، وقرص يتلقى الصوت ، وبطاريتان جافتان صغيرتان ، وسلكان مغطيان بالحرير الاسود . وذلك البوق قرص من الكاوتشوك الصلب الأسود ، يزن بضع أواق . ويبلغ عرضه زهاء ثلاث عقد أصبع ٣ بوصات ٣ وثخنه عقدة واحدة . وله عين معدنية يمكن تعليقه بها على مسمار خلف أحد المكاتب أو وراء إحدى الصور . ثم إن الأسلاك تدخل في الطرف الأسفل للقرص حيث يوصل آخرها بقرص الاستقبال الذي يثبته المتصنت بأذنه . ويستمد الجهاز ، التيار الكهربي اللازم له ، من البطاريتين الجافتين . ولا يصلح الديكتوغراف لمسامرة شخصين بعضهما مع بعض ، خلافاً للتليفون الداخلي . وذلك لأن المخبر السري أو المختزل الذي في آخر الخط لا يهمه الرد على محادثه . فنهيب إذن بولاة أمورنا أن يتصلوا بسفيرنا في واشنطون ليبتاع لحكومتنا طائفة من أجهزة الديكتوغراف بغية الانتفاع بها في المعتقلات المصرية المعاونة على خدمة العدالة واحقاق الحق وازهاق الباطل إن الباطل كان زهوقاً .

تنفيض الغبار بالكهرباء

اخترع الدكتور سويني العالم الامريكي أستاذ الهندسة الكيميائية في كلية آيوى الحكومية ، ورئيس ذلك القسم من أقسامها العلمية اختراعاً سوف يكون من بواعث ارتياح ربات البيوت جميعهنّ ، إذ يكفيهنّ مؤونة نفض الغبار عن أثاثاتهنّ المنزلية . وذلك عن طريق قيام الطاقة الكهربية بهذه الخدمة . ومذهبه في هذا الاختراع أن العثير ونُسُج العناكب ، تتراكم على المفروشات . ولا مندوحة عن إزالتها . ولما كان العثير خاصاً بالشحنات كهربية سالبية ، تقابلها شحنات

كهربية إيجابية في الأثاثات ، فقد دلت المباحث العلمية على امكان صنع كراسي من العجائن الكيميائية ذات شحنات كهربية سلبية ضئيلة أيضاً ، فلا يستطيع الغبار الاستقرار عليها لأنها تطارده فلا يبقى إذن موجب لتنفيضها . وهذا يطابق القاعدة العلمية المعروفة وهي إن الشحنات الكهربية التي تكون من نوع واحد ، يتنافر بعضها مع بعض . ومن الغريب أن هذه الكراسي كان اختراعها نتيجة لظاهرة طبيعية تجلت لمخترعها في سطوحها على غير قصد ، أي إنها لم تكن متولدة من إدخال شحنة كهربية فيها عمداً . وهكذا الحال إذا أردنا ترسيب الغبار في المصانع المعدنية ، فيجب شحنه بنوع واحد من الكهرباء ثم نشحن سطحاً معدنيًّا أيًّا كان بهذا النوع نفسه من الكهرباء فينهال الغبار بعيداً عنه حيث يتاح جمعه في الدلاء فياله من اختراع رائع .

جهاز الحلاقة

اخترع في شيكاغو جهاز حلاّق يركب في الأماكن العامة ، ذو ثغر ، فيلقي فيه السائح أو مرتاد السينما ، الأجر فيدفع إليه توًّا ، موسى كهربائية ، فيحلق بها الطالب لحيته وذقنه ، وذلك تجاه مرآة مثبتة في الجهاز ، تضاء يمنةً ويسرةً . وعندما يتمم العميل حلاقته ، يلقي الموسى في وعاء التطهير المركب في الجهاز نفسه . حيث يقوم مصباح مبيد للجراثيم بتطهيرها بأشعته القتالة لها . وهذه الموسى متصلة بحبل كهربائي فاذا ما سوّلت لامرىء نفسه سرقتها ، فعمد إلى قطعها من حبلها قُرِعَ جرسٌ كهربائي ، في الجهاز فيفتضح أمر السارق فيقبض عليه الشرطة توًّا . وقد شاهدنا جهازاً كهربيًّا حلاقاً بسيطاً وذلك في صالون حلاقة ابتاعه صاحبه من جندي ، منذ سنتين . ثم علمنا حديثاً أن هذه الآلات تباع بالقاهرة بسعر الواحدة خمسة جنيهات .

أقراص البنيسيلين ومنافعها

قالت الجريدة الطبية البريطانية إن البنيسيلين أصبح مستعملاً أقراصاً كالأقراص الدوائية الصغيرة المحلاة بالسكر التي يمتصها الناس ، ابتغاء شفاء السعال . وذلك لعلاج أمراض الحلق والفم . وقد نجحت هذه الأقراص في بعض الاصابات كازالة الألم والحمى وابادة الجراثيم في ٢٤ ساعة . أما في حالات الالتهابات الحادة للوزتين ، التي تكون مصحوبة بالجراثيم السبحية الشكل « التي على شكل المسبحة » فقد أفضت الى تخفيف المرض تخفيفاً عظيماً في ٢٤ ساعة . وبعد مضي ٤٨ ساعة على تناولها نجا المرضى جميعهم من الحمى . وتركب هذه الأقراص من الهلام « جيلاتين » والبنيسيلين ممزوجين بمادة واقية لهما من التلف

عوض جندي



مكتبة المقتطف

عصر الاشتراكية

للأستاذ اسماعيل مظهر

— ١ —

أصدر رسالة بهذا العنوان الأستاذ اسماعيل مظهر رئيس تحرير « المقتطف » والكاتب المفكر الذي رفع مشعل حرية الفكر بأعمق معانيها في مصر منذ ثلاثين عاماً والذي قبس من نور هديه وغزير علمه ونقاء وطنيته الكثيرون من رجال مصر وقادة الجيل . . . وان هذا المفكر الجريء الذي يأبى إلا أن يكون كما كان دائماً في طليعة المفكرين والذي لم يضعضعه تطاول السن، ولم توهن من عزيمته فداحة التضحيات ، هذا المفكر الجريء يضع اليوم أمام شباب هذا الجيل بهذه الرسالة نبراساً مضيئاً يبصّرهم بحقيقة المذهب المسيطر على العصر الذي يعيشون فيه بأسلوب قوامه الاخلاص والتعمق وعرض يهدف الى اجتناء الفائدة وتجنب الزّلل. فانه من الغباء حقًّا أن لا نستفيد من تجارب غيرنا كالابتداء في تحقيق المذاهب الجديدة من غير أن نتعمق في درسها واكتناه احتمالاتها .

وقد تناول الأستاذ اسماعيل مظهر في الفصل الأول شرح ما هي الشيوعية وما هي الاشتراكية مما يجهله الكثيرون من قادة هذه الحركة أنفسهم في مصر وغيرها وما يجب أن يعرفه كل مثقف حتى لا يسهل انحرافه وفي هذا القول ردّ على أستاذ في معرض المناقشة بشأن الصلة بين الشيوعية والاشتراكية (نعم أن في الشيوعية بعض معاني الاشتراكية ولكن الشيوعية مع ذلك مذهب أو متجه إجتماعي ليس فيه من الاشتراكية إلاّ ناحية منظمة للحياة الاقتصادية ولكن الشيوعية فوق ذلك نظام حكم ودولة دكتاتورية .

وليس في الاشتراكية شيء من ذلك أصلاً وقد يكون النظام الاقتصادي إشتراكيًا وتكون الدولة ديموقراطية مقيدة بأنها ملكية أو جمهورية ملاكها دستور حر تحترم فيه الحريات وتنمو فيه الكفايات ... وليس في ذلك كله شيء من الشيوعية إذ أن النظام الشيوعي نظام هرمي تطابقي تعلو فيه طبقة على طبقة، وتتدرج الطبقات، فإذا كمل الهرم تربع من فوقه مجلس أعلا ومن فوق هذا المجلس تربع شخص واحد هو ستالين في روسيا) .

بهذا التحديد الواضح الدقيق تكشفت حقيقة خطرة بعيدة الأثر . فلو عرف دعاة الحركات التقدمية في مصر والشرق كيف يوضحون مذاهبهم هذا التوضيح الجلي، لما كانت قائمة الحكومات عليهم ووقفت بذلك سير شعوبها نحو التقدم . وللحكومات عذرها إذا خلطت بين دعاة الاشتراكية ورسل الشيوعية من المجاهدين في سبيل أممهم ومذاهبهم الاصلاحية إن النظام الشيوعي كما أمكن تطبيقه رجوع الى أشنع أنواع التحكم التي عرفها التاريخ . إن أعلا القمم في سلسلة تاريخ البشرية هي النضال من أجل الحرية حرية الفكر والوجدان لا حرية الرغيف . فالثانية تبع للأولى . وإننا نكون جد مجانين وخائنين لرسالة الانسانية لو أسلمنا هذه الحرية لأي نظام من الأنظمة مهما تحقق في ظله من مطالب المادة . إن أفضل الأنظمة عندي هو النظام الذي يستطيع فيه من ليس في الحكم أن يقول للحاكم إذا تجاوز حده : قف مكانك وإلا أزلتك بقوة القانون فهو الحكم بيني وبينك . وهذا أبعد ما يكون عن التحقيق في ظل نظام دكتاتوري . ولكن هذا يتحقق فعلاً في ظل نظام اشتراكي لدولة ديموقراطية سواء أكانت ملكية أم جمهورية قوامها دستور حر — وهذا ما يجب أن يعرفه الناس في هذا الشرق حكاماً ومحكومين حتى لا تفزع الحكومات وتأخذ المصلح بجريرة الهدام نتيجة تخليط في الفهم وجهل بالمبادىء، وهذا ما يقع فيه مع الأسف الكثيرون من المفكرين والمثقفين فضلاً عمن دونهم .

وفي الكتاب بحث رقم بعنوان « حددوا الحدود » نشر بمناسبة إصدار الحكومة المصرية لقانون مكافحة الشيوعية وكان من أثره تعديل القانون وقصر تهمة الشيوعية على محاولة التنفيذ العملي لا مجرد إبداء الرأي

ولعل حكومات الشرق المستقلة لا ترى حرجاً بعد ذلك في قيام الاحزاب الاشتراكية

ما دام الأمر قد وضح هذا الوضوح الذي لا لبس فيه ولا خلاف منه على الأنظمة القائمة .

وجاء في الفصل الثاني من الرسالة ملخص بتاريخ الحركة الاشتراكية والعمالية في بريطانيا ولعلّ هذا الفصل أحسن قدوة يستطيع أن يستفيد بها الشباب المتنور وان هذه الرسالة على صغرها لأجدى على القارىء من قراءة كثير من الكتب المطولة في هذا الموضوع بل لعلها ألزم له إذا ما أراد الا ّ أن يطالع المطولات فانه لأفضل له أن يدخل عليها من هذا الباب (رسالة عصر الاشتراكية) إذ بذلك يكون قد حمل بيده مصباح الأمان .

محمد فهمي

— ٢ —

ما أشبه المجتمع البشري بسفينة تشق طريقها في بطء ، وتتحرك على مهل ، وسط ثورة العواصف ، واصطخاب الأمواج ، وما أشبه أحرار الفكر بمن يقبضون على دفتها ويحاولون النجاة بها ، فهم يدرسون حالة الطقس ومداخل الطريق ، ويحرصون على سلامة الركب ، وما هذه الألوان المثيرة ، المحزنة من الثورات ، والحروب التي تلطخ التاريخ البشري ، إلاّ أدلة قوية ، على أن الوضع الاجتماعي لم يأخذ مكانه الطبيعي بعد ، وان أطباءه الاجتماعيين لا يزال الداء يستتر على أنظارهم ، ويدق على أفهامهم ، ولا تزال هذه الأعراض التي تبدو على جسمه تؤكد كون الداء ، واستشرائه ، وما هذه الدعوات إلى هذا المذهب أو ذاك ، إلاّ تجارب للوصول إلى معرفة الدواء الذي يسكن إليه المريض ، وتذهب معه العلة ، ومن أخص واجبات هؤلاء الذين يتولون الدعاية الاجتماعية ، ويتصدون للقيادة الفكرية ، أن يكونوا على أهبة لتلقي أمثال هذه المذاهب ، وفحصها أولاً ، ومناقشة ما تنطوي عليه من عناصر ، والأستاذ — اسماعيل مظهر — من أولئك الذين قاموا بأعظم الجهود في تأدية رسالة الفكر الحر ، ولا تتأتى النهضة الاجتماعية ، والفكرية إلاّ على أمثال هذه الأيدي الحرة ، التي لا تقيدها الرجعية ، ولا تحجب عن أنظارها سحائب الجمود الجوانب التي هي خليقة بالعناية والدراسة وهو في هذه الرسالة يجنح إلى أن طبيعة المجتمع الحاضر ، لا يصلح لها ولا تستمرىء غير الاشتراكية . وهو لا يرمي بهذا رمياً . بل هو يبنيه ، ويستخلصه من دراسات ونظرات طويلة نافذة ، فهو يعرض لك المقدمات ، ويضع بين يديك الشواهد ، التي تسلمك إلى النتائج

التي يحاول الوصول اليها ، ولا يعنيه أن يرى غيره غير هـذا الرأي ، أو ينظر في المجتمع من غير هذه النافذة ما دام جيد البحث ، قوي الاستقراء ، عبقري النظرات . فنحن نستفيد من أسلوب هذا العرض قبل كل شيء . فهو أسلوب جديد في الدراسات الاجتماعية والفكرية في الشرق. وقد قسم البحث على بابين : الأول وقفه على تفنيد المزاعم التي يروّجها الشيوعيون ثم يعقب في الباب الثاني على ذلك ببحث تأملي ، تاريخي ، ناضج عن طبيعة الاشتراكيـة ، والأستاذ يعتمد في دراساته على أعظم رجال الدراسات الاجتماعية في العالم ، ثم على نظرته الخاصـّة ورأيه المستقل ، فجاءت هذه الدراسات عن ذلك النمط الذي لا يظفر به القارىء إلاّ من الأقلام الفذة ، وإنه لبحث خليق أن يكون الطالع الجديد « لرسالة الفكر الحر » والتي نأمل أن تؤتي ثمارها في تحرير الفـكر الذي طال استعباده ، وعمق نومه ، وتفه في الحياة القيمة أثره .

محمد عبد الحليم أبو زيد

١ — أمهات المؤمنين وأخوات الشهداء

للسيدة وداد سكاكيني — ١٧٢ صفحة من الحجم المتوسط — دار الفـكر العربي

كتاب موجزٌ مُلمٌّ جمع في عدد قليل من الصحائف سير طائفة من العربيات اللائي كنّ فجر النهضة النسوية في الجزيرة العربية . أنيق الأسلوب ، أنيق العرض ، أنيق الاختيار ، ولا غرو فهو كتاب عن سيدات كتبته أديبة بارعة هي السيدة الجليلة وداد سكاكيني ، أديبة سوريا ونزيلة القاهرة الآن .

تحدّثت في الـكتاب عن خديجة أم الزهراء التي كان لها من الجرأة والإقدام ما دفعها إلى أن تتقدّم إلى محمد الرسول تخطبه لنفسها وتعيش في كنفه خمسة وعشرين عاماً حتى يُؤْذَن لها بالفكاك من قيود الدنيا المادية وتنطلق روحها إلى بارئها .

وتحدّثت عن فاطمة الزهراء بنت محمد وأم الحسنين ذات القلب الرفيق الحنـان ، التي آثرت أن تتصدق بذهبها وسترتها لبعض الفقراء ، على أن تتزين بهما وتختال على وصيفاتها وبنات جلدتها .

وساقت حديثاً طليّـاً عن عائشة المفترى عليها وكيف تجلدت أمام حديث الإفك الذي تناقلته ألسنة الوشاة المرجفين حتى ظهرت براءتها على الملأ ولقّبت بأم المؤمنين .

واسترسلت السيدة وداد سكاكيني بإطارها البياني الجميل تتحدث عن وفاء بنت الرسول وأخت الحسين وذات النطاقين وأم سلمة وزينب الأسدية ومارية المصرية وخناس الصبور وريحانة الحجاز وأم معاوية وأخت ضرار وأم الأمين ، وهي لا تكاد تستكمل صورة زاهية الألوان حتى تنتقل إلى أخرى آخذة البريق ، إلى أن أتمت الكتاب والقارىء مبهور مشغوف .

بيد أني أعتقد أن كتاب « أمهات المؤمنين وأخوات الشهداء » لا يصح أن يعدّ كتاباً كاملاً وافياً ، وإنما هو مقدمة لكتب يفرد كل واحد منها لامرأة من هاتيك النسوة اللائي استطعن في عصر بادي الرجعية ، أن يتصدرن حركات السفور ويأخذن مكانهن الطبيعي في حلبات السياسة ومجالس الشورى .

٢ — النار الخالدة

للاستاذ فؤاد صروف — سلسلة إقرأ — دار المعارف بمصر

استيقظت الشعوب ذات صباح لتقرأ في صدر صحفها وبأبرز حروفها ذلك النبأ المروع نبأ توصل العلماء إلى إبتداع قنبلة ذرية تدكّ مدناً وتفني عشرات الآلاف ساعة انفجارها .

واستيقظت اليابان ذات يوم على مصرع سكان مدينة هيروشيما ، ولم تمض ساعات حتى لحق بهم سكان مدينة نجازاكي فأمست المدينتان قفراً بلقعاً ليس فيهما سوى أشلاء متناثرة وبقايا دور سوّيت بالأرض ، وحفنة من المرضى والعَتَه أمهلتهم الطبيعة بضعة أيام ليقصّوا على العالم قصة أكبر مأساة عرفها التاريخ ، وأكبر كشف استطاع بنو البشر أن يحققوه على مدى الحقب والقرون .

وإذا كانت هذه الأنباء انقضت على العامة انقضاض الصاعقة لأنهم صدموا بجدّتها ، غير أن العلماء كانوا يتوقعونها بين يوم وآخر لأنهم كانوا قد تحققوا من قدرة العلم على تحطيم نواة الذرّة وإطلاق الطاقة المكنونة فيها من عقالها ، وهي طاقة لم يكن للبشر بها عهدٌ وإن استطاعوا أن يرصدوا مداها على الورق بتطبيق قاعدة اينشتين .

والأستاذ الكبير فؤاد صرّوف من أولئك العلماء الذين أولوا مسألة تحطيم نواة الذرة

واستغلال الطاقة الناتجة عن هذا الشطر في مرافق الحياة ، عناية كبيرة ، وكان من أسبق المصريين — إن لم يكن أسبقهم — إلى نشر بحوثه العلمية — في هذه المجلة وفي كتابه النفيس « الفتح مستمر » وقد أصدره من بضع سنين . وكان من حسن الاتفاق أن حقق العلماء الاميركيون انتاج أول قنبلة ذرية وتجربتها في بيداء نيومكسيكو والاستاذ صرّوف يزور القارة الاميركية فاستطاع أن يشهد مولد القنبلة في مهدها ويظفر بنسخة من التقرير الرسمي الذي وضعه العلماء عن القنبلة .

ولم يشأ أستاذنا صرّوف ان يستأثر لنفسه بهذه المعلومات ، بل عمد إلى تدوينها في كتابه الجديد « النار الخالدة » الذي قص فيه رواية القنبلة فصلاً فصلاً في غير تهويل ولا إسراف متحرياً أدق الحقائق ومستنداً إلى أجدر المراجع بالثقة . وكما أن النار التي اخترعها الإنسان في فجر حياته تنفع البشرية نفعاً غير محدود إذا أحسن استخدامها ، وتضرها ضرراً غير محدود إذا أسيء استعمالها ، فكذلك « نار القرن العشرين » — وهي كناية عن الطاقة الذرية — تستطيع أن تهب العالم رخاءً لا حدّ لمداه ، وتستطيع كذلك أن تفني الخلائق في غمضة عين .

إن كتاب « النار الخالدة » وعاء مليء علماً . . وهو علاوة على قيمته العلمية الممتازة قطعة أدبية رائعة ممتعة .

٣ — وطنيتي

للاستاذ علي الغاياتي — ١٣٥ صفحة متوسطة — مطبعة منبر الشرق بمصر

ليس من يجهل قصة ذلك الديوان الشعري الذي حوكم بسببه اثنان وحكم عليهما . فهو ديوان صدرت طبعته الأولى من سبع وثلاثين سنة ، فكانت ضجة ، وكانت هبّة ، وقامت السلطات تبحث عن مؤلفه الأستاذ علي الغاياتي وكاتب مقدمته الأستاذ محمد فريد بك لتقدمهما الى القضاء جزاء وطنيتهما !

لقد آمن الأستاذ علي الغاياتي في ريّق عمره بحاجة الوطن إلى أعمال كل ابن من أبنائه فوقف قلمه على الاشادة بمجد بلاده ، وسخر ملكته الشعرية على التنديد بالظلم أيّا كان مصدره ، وتمجيد الحق أيّا كان رافع مشعله . كان مفعم القلب بحب وطنه مصر ، وحب

الحرية ، فكان شديداً في الحملة على أعداء الوطن والمتقوّلين عليه ، عنيفاً في هجاء ذوي السلطان ممن يعملون على تقييد حرية الفكر وحرية الوطن .

وإذا كان الأدباء اليوم يتجادلون وتدور بينهم المساجلة بشأن الأدب وهل يقتصر على ذاته أم يسخر لخدمة المجتمع ، فقد برهن الأستاذ علي الغاياتي على أن الأدب يمكن الاستعانة به في ترقية القوميّة والحميّة الوطنية، ويتيسّر التوسل به في إلهاب حماسة الأفراد والشعوب دون ان ينتقص من قدره كأثر فني جميل .

وأريد أن أنبّه الأستاذ الغاياتي إلى أنه قال في مقدمته إن مدينة « التير » مدينة قديمة عظيمة من مدن فينيقيا شهيرة بالتجارة والصناعة . وإن كان الانجليز والفرنسيون يطلقون على هذه المدينة اسم Tyre غير انه يطلق عليها بالعربية اسم « صور » وهي مدينة شهيرة تقع على ساحل لبنان جنوبي صيدا . ومن الأفضل دائماً ان نطلق عليها اسمها العربي منعاً للبس ودفعاً للغموض .

وديوان الغاياتي يشتمل على دعوة وجهها الشاعر إلى الأدباء يناشدهم فيها أن لا يضيعوا جهودهم في ما لا منفعة منه للوطن بل ينبغي لهم أن يشركوا بلادهم ومشكلاتها في أعمالهم ويخدموها إن لم يكن بكل نتاجهم ، فبجلّه .

وهي دعوة — وإن ردّدها صاحبها من سبعة وثلاثين عاماً لا تزال أسبابها ودواعيها باقية ماثلة . وديع فلسطين

١ — سادهانا أو تحقيق الحياة

لشاعر الهند رابندرانات تاجور — ١٧٦ صفحة من القطع الوسط — نشرته مكتبة الانجلو المصرية

كان « المقتطف » في السنوات الأخيرة في مقدمة المجلات العربية التي عنيت بأدب شاعر الهند العظيم رابندرانات تاجور ، فنشرت ترجمات كثير من آثاره الشعرية نقلها إلى العربية الأستاذ محمود كامل حبيب .

ثم نشرت دراسة ممتعة عنه بقلم الأستاذ محمود المنجوري ظلّ يتابع نشرها زمناً في المقتطف حتى أتمها .

ولقد كان رئيس تحرير المقتطف — وقتئذ — الاستاذ فؤاد صرّوف من المعنيين

بإبراز أدب تاجور في العربية فهيأ تلك الفرص . كما أن رئيس تحرير المقتطف الحالي الأستاذ اسماعيل مظهر كان من أوائل العاملين على تغذية الأدب العربي بثروة طائلة من أدب هذا الشاعر العظيم فنقل الى العربية — حين كان يصدر مجلة « العصور » منذ عشرين عاماً — كثيراً من روائع تاجور .

فإذا كانت هذه المجلة هي أولى المجلاّت العربية تقدم إلى قرائها خبراً عن أثر جديد من تاجور — فليس غريباً عليها ذلك — وهذا الأثر هو كتابه « سادهانا » الذي قام بترجمته إلى العربية الأستاذ محمد طاهر الجبلاوي وهو أديب متعمق شاعري اللفظ ، دقيق في المحافظة على تعبير تاجور . وقد استطاع — على حدّ تعبير الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد — أن يلج إلى قدس أقداس هذا المحراب ، فينقل الى لغته هذا الأثر الخالد من آثار حكيم الهند .

ومن يرجع إلى الترجمة الانجليزية لهذا الكتاب يجد الدقة التي أخذ الأستاذ الجبلاوي نفسه بها حين أراد أن يؤدي إلينا في أمانة هذه الرسالة .

٢ — أعلام الجيش والبحرية في مصر
أثناء القرن التاسع عشر

الجزء الاول — ١٩٢ صفحة من القطع الكبير — مطبعة الرسالة بمصر

وهذه خطوة أخرى من الأستاذ البكباشي عبد الرحمن زكي حقق بها أملاً للمكتبة العربية ، وسدّ بها نقصاً كانت تشكوه

فالمكتبة العربية غنية بالتراجم لأعلام الأدب والفكر في كل عصر ، ولكن أبطال الجيش والبحرية لم يقدر لهم ذلك ، وكاد النسيان يعفي عليهم لولا أن فكر الأستاذ عبد الرحمن في وضع اللبنات الأولى لهذا العمل المجيد حتى تتكوّن منه على مرّ الزمن معلمة يرجع إليها في تاريخ هؤلاء الأبطال ، وليكون من وراء عرض سيرهم حافز للشباب على التطلع إلى القدوة المثلى .

وليس الغرض من تأليف هذا الكتاب — كما يقول مؤلفه الفاضل — هو ترجمة حياة القادة ، من رجال البر والبحر ، فحسب ، وإن كان هذا وحده غرضاً كافياً بل إننا نهدف إلى تبيان فعال هؤلاء الأعلام ، في ميادين الجهاد والعلم والبحث والبناء حيث عملوا أفراداً أو متضامنين .

وقد ضم الجزء الاول ترجمة أكثر من مائة وعشرين شخصية من أبرز رجال الجيش والبحرية في أيام محمد علي وفي أيام الخديوي اسماعيل وما يلي عهده . وفي مقدمة من تناولهم

البحث مؤسس النهضة العسكرية في مصر محمد علي الكبير ثم ابنه ابراهيم باشا فاسماعيل باشا وأشباله .

وإنه في الحقيقة لمجهود ضخم يحتاج إلى قوى كثيرة تضطلع به ، ولكن همة المؤلف فوق كل جهد ، فقد اضطلع وحده بهذه المهمة الشاقة فاستطاع أن يبرزها قوية واضحة السمات . .

حسن كامل الصيرفي

أولادنا

تدأب « دار المعارف بمصر » منذ انشائها على اداء رسالة الفكر ومسايرة روح العصر والتمشي مع نهضته ، فنراها تهل علينا بين الحين والحين بمشروعات تتفق ومختلف الأذواق ، فأصدرت منذ أعوام سلسلة « اقرأ » ثم مجلة « الكتاب » ثم « روضة الطفل » . وها هي ذي اليوم تصدر سلسلة جديدة للنشء هي « أولادنا » .

فأولادنا هم « أكبادنا تمشي على الأرض » والواجب يقتضينا أن نوفر لهم كل أسباب الحياة النافعة ، فان العناية بهم وتنشئتهم النشأة الصالحة هما أساس تقدم الأمم ونهضتها . وأول مظاهر هذه العناية يتجلى في الحياة العقلية فهي دعامة السعادة والرقي ، ومن ثم وجب أن يحبب اليهم الكتاب الصالح ليقبلوا عليه صغاراً ويتعلقوا به كباراً ، فيرهف حسهم وتنمو ملكاتهم ويصيروا رجالاً تزهى بهم الفضيلة ويعتز الوطن .

ولقد احتلت القصة في هذا العصر المحل الأول من عناية المربين والمعلمين لأنها الدرجة الأولى من سلم المعرفة ، ولكن المكتبة العربية ، على ما فيها من نفائس القصص الصالحة للنشء — لا تزال مفتقرة الى المزيد . « فدار المعارف » باصدارها هذه السلسلة الجديدة تسد هذا الفراغ ، وتقدم « لأولادنا » خير ما يوسع آفاق خيالهم ويجلو لهم أنوار المعرفة في متعة وتسلية .

و « أولادنا » عنوان يذكر الآباء بمطالب أبنائهم ويبصر الأبناء بفضل آبائهم عليهم ولا شك أن إشراف حضرة المربي الكبير الأستاذ محمد فريد أبو حديد بك عميد معهد التربية العالي على هذه السلسلة كفيل بأن يقدم لأولادنا كل ما يسر وينفع .

تصحيح خطأ

وقع في مقال الأستاذ العرير في المنذور في الصفحة رقم ٢٣٧ من العدد السابق عن كتاب « رباعيات عمر الخيام » خطأ حيث جاء فيه « ... فتح جديد وصحته « فتح باب جديد »

فهرس الجزء الرابع

من المجلد العاشر بعد المئة

٢٤٣ المدرّس الدولي أو منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة : اسماعيل مظهر
٢٤٧ خليل مطران الشاعر : حسن كامل الصيرفي
٢٤٨ أبناء العروبة يكرمون شاعرهم
٢٥١ أصل الأديان : أمين نعوم
٢٥٥ الكتاب اللبناني : حسن كامل الصيرفي
٢٥٨ الربيع (قصيدة) : شاعر البراري
٢٥٩ هذا الانسان : شكري شعشاعة باشا
٢٦٥ وقفة على قبر أخي (قصيدة) : عدنان مردم بك
٢٦٧ النظارات (العدسات) اللاصقة : دكتور ممدوح الصباغ
٢٧٣ الماضي الخالد (قصيدة) : عفيفي محمود عفيفي
٢٧٤ الشيطان — الملاك (قصة تاريخية) : الدكتور محمود فياض
٢٨٠ غروب شمس (قصيدة) : حسن كامل الصيرفي
٢٨٣ السلم الدائم والحلف العام : ع . ش
٢٨٨ البصل علاج للسرطان : احمد أبو الخضر منسي
٢٩١ جزيرة الرجال وجزيرة النساء : محمود العابدي
٢٩٦ باب المراسلة والمناظرة * تانيهان : رشيد السعد
٢٩٧ باب الاخبار العلمية * الديكتافون جاسوس علمي مأمون . تنفيض الغبار بالكهرباء . الجهاز الحلاق . اقراص البنسيلين ومنافعها : عوض جندي
٣٠٣ مكتبة المقتطف * عصر الاشتراكية للاستاذ اسماعيل مظهر بقلم محمد فهمي ومحمد عبد الحليم أبو زيد . (١) أمهات المؤمنين وأخوات الشهداء (٢) النار الخالدة (٣) وطنيتي : وديع فلسطين (١) سادها نا أو تحقيق الحياة (٢) أعلام الجيش والبحرية في مصر : حسن كامل الصيرفى . أولادنا .

---

٢ — لحق

٤٩ — ١٠٠ المسرحية عند شوقي : تأليف محمود حامد شوكت

المسرحية

في شعر شوقي

— ٢ —

تأليف

محمود حامد شوكت

ليسانس في الادب الانجليزي

ودبلوم معهد التربية العالي وماجستير في الآداب

طبع بمطبعة المقتطف والمقطم

١٩٤٧

الفصل الثاني

مصرع كليوباتره

المسرحية والتاريخ

غير شوقي في بعض الحوادث التاريخية لهذه المسرحية ووجه المسرحية بحيث تدافع كليوباترة عن سياستها . وينقسم النقاد فريقين حول علاقة الكاتب بالتاريخ : ففريق يرى أن الكاتب المسرحي مبدع مبتكر يخلق ويصوّر دون التقيد بحقائق التاريخ ، وله من الحرية ما يمكنه من مسايرة منطق الحوادث الروائية وطبيعة الجمهور . ويرى فريق آخر بأن الكاتب الذي يستمد موضوعه من التاريخ ويسمي المسرحية باسم تاريخي لا بد أن يتقيد بحوادث التاريخ ولا يخرج عليها .

والواقع أنه من التطرف التمسك بأحد الرأيين . وإنما نطالب الكاتب المسرحي الذي يستمد حوادثه من التاريخ بأن يحافظ على منطق التاريخ العام، ومنطق حوادثه الهامة، فيحفظها دون تغيير . فلا يغير الكاتب في الحوادث الرئيسية أو الشخصيات الرئيسية ، وإنما يبتكر ويبدع فيما عدا ذلك من ترتيب لهذه الحوادث بحيث يبرز الأزمة ويحلها حلاً مسرحيًّا شائقاً، ويبتكر ويبدع في إحياء الشخصيات ، وإلباسها أثواب الحياة ، فيتدسس إلى عواطفها وأهوائها وبواعث سلوكها بحيث تحيا أمامنا على المسرح . وبذلك يلتقي التاريخ والفن فلا ينقض أحدهما الآخر وإنما يكمله بطبيعته . والمثل الأعلى للكاتب المسرحي أن يخرج صور الحوادث والأشخاص إخراجاً موضوعيًّا يبرز فيه الصورة كما تتراءى لنفسها في الحياة ، ويتركها تسلك وتحاور على سجيتها وطبيعتها ، تبعاً لفهمه لها منذ البداية ، دون أن يفسدها بتدخله في أفعالها وأقوالها فيفقدها وحدتها الحية ، وشخصيتها التامة الكاملة .

وقد غير شوقي ثلاث حوادث رئيسية في المسرحية : فقد قرر التاريخ أن كليوباترة قد فرّت من أكتيوم غدراً منها بأنطونيو، وصوره شوقي على أنه حدث يتمشى وسياستها التي

رحمتها نحو روما ، وهي التفرقة بين أنطونيو وأكتافيو ، وتركهما يتحاربان حتى يضعف شأنهما وتظهر قوتها هي . ولم يذكر التاريخ فرار كليوباترة من معركة الإسكندرية البرية ، بينما قرر شوقي أنها فرت تمشياً مع هذه السياسة . وقرر التاريخ أن كليوباترة قد أرسلت الى أنطونيو من يبلغه بانتحارها فانتحر، بينما يرى شوقي غير هذا . وأوجد شخصية أخرى هي أولمبوس الذي يتولى إخبار أنطونيو بذلك . وقد ذكر شوقي في النظرات التي كتبت بإيحائه في نهاية المسرحية بأنه فعل ذلك دفاعاً عن كليوباترة ، وهو كما نعلم مخلص للبلاط يحاول الدفاع عن عيوب الملوك عامة ويبرر أخطاءهم . على أن هذا التغيير التاريخي لم يصحبه قيمة فنية تعوض عنه، فقد أضر بتصوير شخصية كليوباترة بحيث لا نعلم من أقوالها أو أفعالها أهي عاشقة لأنطونيو أم مخلصة لمصر . فهي حين تتكلم أمام أهل مصر وطنية ، وحين تقابل أنطونيو تتكلم كعاشقة له . وتظهر في بداية المسرحية عدوة لروما وأهلها وتتخلى عنهم ساعة الشدة وفي نهاية المسرحية تتذكر أنطونيو، وإنه ليقابلنا في الحديث الواحد تناقض بين هواها وواجبها ، فلا نعلم أيهما محور شخصيتها . وكثيراً ما ترتبك شخصيتها حين يظهرها وطنية على طول الخط فلا يفصل بوضوح في تعبيرها عن هواها حتى بعد ان مات أنطونيو وحين تنتحر، أو يجعل نواة شخصيتها صراع بين الهوى والواجب ، ويبرز هذا الصراع في كليوباترة كما يبرز في أنطونيو ، ولم يتخذ أساسه تغلب الهوى على الواجب كما صوره شكسبير في « أنتوني وكليوباترة » أو جون دريدن في مسرحيته « كل شيء في سبيل الحب ». أحد هذه المحاور الثلاثة ممكن وطيب أما بعضها أو كلها فيحدث خلطاً لا يؤدي إلا إلى ضعف الشخصية واضطرابها والمبالغة في تبرير عيوبها وافقادها أبعاداً انسانية حية وطبيعية . ولنضرب لهذا مثلاً بحديث أنطونيو إلى تابعه قبل انتحاره فيبدأ ، بقوله : —

روما حنانك واغفري لفتاك   أو أن منك وآه ما أقساك
روما سلام من طريد شارد   في الأرض وطن نفسه لهلاك
انه الذي بالأمس زنت جبينه   بالنار عقك جهده وعصاك
الأمهات قلوبهن رقيقة   ما بال قلبك لم يلن لفتاك (ص ٧١)

وينتهي فيها بقوله : —

صفحاً كلوباترا قربت زلة　　قد كنت تغتفرين حين أراك
حتى إذا حمَّ القضاء وراعني　　عطل المقاصر من بهاء حلاك
ضحيت بالدنيا وقلت رخيصة　　وبذلت أيامي وقلت فداك

ولا يقتصر هذا الازدواج المتناقض بين عاطفتين متناقضتين على أنطونيو ، وإنما يرد في حديث كليوباترة قبل أن تنتحر . فتقول في بداية حديثها : —

اليوم أقصر باطلي وضلالي　　وخلت كأحلام الكرى آمالي
وصحوت من لعب الحياة ولهوها　　فوجدت للدنيا خمار زوال (ص ١٢١

وتقول في نهايته : —

يا ابنتي ودي هاما　　زيناني للمنية
غسلاني طيباني　　بالأفاويه الزكية
ألبساني حلة تعجب　　أنطونيو سنية
من ثياب كنت فيها　　أتلقاه صبية (ص ٢٤)

فهو جامع أيضاً لعاطفتين متناقضتين ليس من المحتمل أن توجدا في الحياة في الحديث العادي . وقد كان من الممكن أن يحلل شوقي شخصيتها كمصرية وطنية لو أنه جعلها تتخذ من جمالها وسيلة تفتن بها أنطونيو واكتافيو كما فتنت يوليوس قيصر من قبل، على أن يدعها تعمل بإيجابية أكثر من تلك السلبية المطلقة التي تقفها أمام صراع أنطونيو واكتافيوس .

فصول المسرحية

وتنقسم المسرحية عند شوقي إلى فصول أربعة : يرتفع الستار في الفصل الأول عن نشيد ينشده العامة خارج قصر الملكة ، ويتغنون فيه بانتصار موهوم . وينتقل الحوار إلى غرفة المكتبة ويدور بين رجالها ، ويعلقون على هذا النشيد تعليقاً عدائياً يذكرون فيه هزيمة الأسطول وخديعة الملكة لشعبها ، ويعلقون على هذا ويعرضون بعلاقتها الآثمة مع أنطونيو . وتحضر الملكة فتقص على القوم فرارها من أكتيوم ، وتبسط سياستها أمامهم ثم تدخل لتصلي ، على أن أهل المكتبة ما زالوا في موقفهم العدائي منها . ويختتم المنظر بنشيد ديني .

حقًّـا قدم لنا الفصل الأول الشخصيات الرئيسية . ولخص لنا الموقف، إلاَّ أن الأزمة لم تتضح بوادرها واتجاهاتها تماماً . ولم يخل الفصل من استطراد غنائي يلخص بوسائل القصة ما يجب أن يمثل تمثيـلاً مسرحيًّا ، كما يقص حابي ما رآه بالأمس (ص ٢) . وتبسط كليوباترة سياستهـا وما فعلته في أكتيوم بهذه الطريقة . وهذا اتجاه سيخترم منهج شوقي كله .

ولذلك لزم وجود منظر آخر يتمم المنظر الأول نرى فيه أنطونيو ونلمس العلاقة الفعلية بين البطلين والاتجاه الواقعي المسرحية . ويمهد لظهور أنطونيو وكليوباترة معاً ظهور حابي وهيلانة الذين تفاجأهما كليوباترة وأنوبيس، وتكشف الملكة عن حبهما، وتسأل أنوبيس أن يباركه، ثم يدور الحديث حول المعركة الدائرة على أسوار الإسكندرية وانعـدام أخبارها . فالمقدمة الموضوع الرئيسي لا تبين طبيعته تماماً . وإنما تظهر عليها مسحة التـكلف . ويدخل جندي من جنود أنطونيو ليعلن انتصار سـيده ، ويتبعه سيده في موكبه الظافر ، وهنا يحدث ما يناقض ما ذكرته كليوباترة في بداية المسرحيـة . إذ تستقبله كليوباترة استقبال العاشقة ، ويشكو إليها أنطونيو هواه وما أبلاه في الحرب ، ويعبر خيانتهـا له ، وفرارها من المعركة عبوراً قد يثير دهشتنا . ولـكن هكذا أراده شوقي شخصاً لا يستطيع مقاومة الحب أو يصبر عنه ، وعاجزاً عجزاً تامًّـا عن سلواه والبعد عنه وتبريره بشتى الوسائل ، وقد يبدو هذا غريباً بما يصف به أنطونيو نفسه ، ويصفه به أتباعه ، كرجل حرب، وبطل قتال ، ويبدو غريباً أيضاً أن تعرّض كليوباترة بروما والرومان طول المنظر، وهم ضيفانها ، وتعتمد عليهم في محاربة اكتافيو ، وتعـلم أنه من مصلحتها كسبهم إلى جانبها في هـذه الآونة . ولـكن أراد شوقي أن يستعجل الأزمة بأي شـكل فيجعلهم يعبرون عن عدائهم لها، ويجعلهم يضمرون لها الشر . وبهذا ينتهي المنظر الثاني .

ويغلب على الظن أن منظر مطارحة الهوى بين حابي وهيلانة، وبين كليوباترة وأنطونيو، قد أغرى شوقي فاسترسل فيه استرسالاً أفسد التطور الدقيق للموضوع ، إرضاء للجمهور الذي تجتذبه هذه المناظر العاطفية . على أن هذا الإغراء قد أضرَّ بالقيمة الفنية للفصل .

وفي الفصل الثاني ترفع الستار عن منظر الوليمة ، وتكثر مناظر الغناء والرقص ، ويأتي

العرّاف يقرأ الأكف ، على أننـا نستطيع أن نلمس اتساع الأزمة التي ظهرت بوادرها في الفصل الأول وتفاقمها ، إذ يقرر الرومان الانصراف عن قائدهم الضعيف الخاضع لأهوائه .
ويلهو العاشـقين لهواً قد يظهر غريباً في كليوباترة كما أرادها شوقي ، ويستمتعان بالطعام، والشراب والغناء ومشاهد الرقص . ويقرأ العرّاف لها الأكف دون أن يعبأ بالغد القريب. وقد ورد في هذا الفصل نشيدان أحدهما عن الخمر ينشده الشاعر ، والآخر هو نشيد الحب والحياة ، وقد نسبه شوقي إلى كليوباترة ، فجعل منها شاعرة ، حتى يجد النشيد لنفسه مكاناً في الفصل مع ما فيـه من استرسال غنائي خارج عن التطور الدقيق للحوادث . بل ويزيد في اظهار كليوباترة بمظهر العاشقة . ويخرج أولمبوس ويعلن القواد عن بوادر التمرد : وهكذا ينتهي الفصـل بحيث يطغى المنظر بما فيه من غناء ورقص ، على الحركة والتطور المسرحي . ولعل شوقي قد دفع إلى ذلك مساقاً بميول الجمهور كما نلمسها في المسرح الغنائي .

ويفاجأ الجمهور في الفصل الثالث بهزيمة أنطونيو دون أن يلمس تطوّر الحوادث بين الفصل الثاني والثالث . ولعل شوقي قد لمس ذلك وحاول أن يخفف من وطأته ليجعل المنظر يتردد بين داخل المعبد وخارجه حتى لا يقتصر المنظر على شخصيتين تتحدثان لمدة طويلة ، بينما امتلأ الفصل السابق بالشخصيات. فيرى الجمهور أنطونيو وتابعه أوروس ، وأنطونيو يشكو نكد طالعه ، وأفول نجمه ، وخجله من فراره ، وأوروس يعزيه ويحاول تخفيف وقع الكارثة . ثم يناجي روما وكليوباترة في حوار طويل (ص ٧١) وهو أقرب إلى القصيدة التي تلقى منه إلى حوار يمثل ، وقد استعان عليه الممثل أول مرة بالغناء . وهو علاج خارجي لا يخفف من عيبه المسرحي . ويرتد المنظر إلى داخل المعبد حيث يناجي أنوبيس أفاعيه في حديث عن العلم والسموم . وهو متشائم من بني البشر . ويدخل حابي معلناً هزيمة أنطونيو ، وهنا يبرز شوقي الذي دافع عن كليوباترة كملـكة فعالة (هي السيف والآخرون العصى) ويتهم حابي كواحد من (فرسان المقال) رغم وطنيته وثورته على ملـكته ، ورغم عدم وجود ما يؤيد محاولة كليوباترة الدفاع عن مصر في المسرحية ، ورغم اخلاص حابي لوطنه ومحاولتـه جمع حزب مصري من زملائه .ويعطي أنوبيس لحابي ترياقاً للسم ، بطريق الصـدفة ، إذ ربما احتاج إليـه . ثم تدخل الملـكة لتتحدث عن هزيمة أنطونيو ، وتسأل أنوبيس الهداية

والنصح فيلح عليها أنوبيس بالانتحار صونًا لتاج مصر، ويمدها بإرسال الأفعى إليها ساعة الخطر مع حابى . ويرتد المنظر إلى خارج المسرح حيث يعثر الجنود على أنطونيو الجريح فينتقل إلى داخل المعبد ، ويكتشف أن كليوباترة ما زالت حية ، ويموت بين ذراعيها . ويحضر أكتافيوس ويراها لأول مرة ، ويتأكد من موت أنطونيو ثم يخرج .

ويظهر التفكك وضعف الحبكة المسرحية في هذا المنظر لتردده بين داخل المعبد وخارجه، سيما إذا تصورناه على خشبة المسرح ، ويلوح بعض التقدم في تحريك الحوادث وجمع الشخصيات بصورة لم تظهر في الفصلين الأولين من المسرحية كما يقل هنا الاسترسال الغنائي.

* * *

وفي الفصل الرابع تناجي كليوباترة أنطونيو الراحل ، وتقص لوصيفتيها خبر فشل سياستها التي لم يلمسها الجمهور لمسًا قويًّا في طور التنفيذ على المسرح . وتحكي لهما عن مراوغة أكتافيو لها، ويدخل حابى ومعه السلة وتشتد حلكة الفصل بالتدريج، ويستجمع شوقي قدرته على النظم ويستعين بما على المسرح من أدوات خارجية تبث في الجو روح المأساة لظهور الأزهار الذابلة وسلة الأفعى والنساء الباكيات، ويغني إياس نشيد الموت وتودع كليوباترة آلها ووطنها في حديث طويل (ص ١٢٠) ثم تنتحر وتنتحر معها وصيفتها، على أن حابى وأنوبيس يدخلان في هذه اللحظة وينقذان هيلانة، وينصرف حابي وهيلانة إلى طيبه، ويرثى أنوبيس كليوباترة ، ويدخل أكتافيوس وأولمبوس ، وتلدغ الحية أولمبوس، ثم يرثى أكتافيوس كليوباترة ويخرج وتسدل الستار على أسف أنوبيس والدعاء لروما بالشر .

وعيوب هذا الفصل هي عيوب الفصل الثاني من استرسال غنائي قوي يستعان على تمثيله بالغناء والاستعانة بأدوات خارجة عن تطور الحوادث وتحليل العواطف تحليلاً دقيقًا عميقًا، لا تحليلاً سطحيًّا . على أن قدرة الشاعر تبلغ أقصى درجاتها فيه ويرتفع الشعر إلى أوجه وتبلغ فيه قوة التأثير ممتها بما حصل عليه شوقي قبلاً من خبرة سابقة في الرثاء . وما خبر في الحياة من حكمة وفلسفة تبلورت في نهاية الحياة .

الشخصيات

حلل شوقي شخصياته تحليلاً ذاتيًّا أكثر منه تحليلاً موضوعيًا ،وتتفاوت نسبة ذاتيته في شخصياته تبعاً لقرب هذه الشخصية من عواطفه ، وبذلك أتت الشخصيات مركبة من بعض نواحيها وبعض نواحي مزاج شوقي وفلسفته وآرائه السياسية والخلقية ، بنسب متفاوتة .

فقد سكب شوقي الكثير من عواطفه في كليوباترة كملكة تمثل عرش مصر الذي اتصل به شوقي وحاول الدفاع مما يشينه ، مادحاً لمحاسنها مبرراً لمساوئها . فهي كملوك مصر الذين يحبهم شوقي وان انحدروا من أصل أجنبي إلا أنهم تمصروا واتخذوا مصر وطناً ثانياً . وقد حاول شوقي جهده أن يهب كليوباترة كل فرصة للدفاع عن نفسها ، والتعبير عن محاسنها، والإشادة بفضلها ، على لسان من حولها ، سواء تزلفاً منه أو حقيقة ، ماراً مروراً طفيفاً على أخطائها . ولعلّ هذا هو مصدر اضطراب الشخصية وتحليلها على طريقته التركيبية التي تضيف صفة إلى أخرى، لا الطريقة التحليلية التي تشخص الصفة الرئيسية ، وتحلل الصفات الأخرى من حيث اتصالها وتأثرها بهذه الصفة الرئيسية . وكليوباتره ملكة مصرية . فهي تقول :

أموت كما حييت لعرش مصر   وأبذل دونه عرش الجمال (ص ٢٥٥)

وتقول أيضاً :

موقف يعجب العلا كنت فيه   بنت مصر وكنت ملكة مصر (ص ١٥٩)

وهي ذات جمال يقول عنها زينون حين ألقاها أنه

يطأطىء رأساً لمجد النبوغ   ويخفض رأساً لمجد الجمال (ص ١٤)

ويقول أنطونيو لها حين يلقاها

ردي على هامتي النار التي سلبت   فقبلة منك تملوها هي النار (ص ٣٤)

ويذكرها حين ينتحر بقوله :

لما لقيتك في الجمال وعزه   قهرت قواي الظافرات قواك (ص ٧١)

ويذكرها وهو يحتضر بقوله :

كليوباتره زوّديني قبلة من ثناياك العذاب الشهيات (ص ٩٥)

وتقول عنها هيلانه : لم يحو تحسين الفلك (ص ٥)

ويقول عنها أنوبيس : شعاع المدائن نور القرى (ص ٢٨)

ويقول حبرا عن كفها : هذه كف آلهة جاء في زي النساء (ص ٥٢)

وتقول هي عن نفسها : وأنا المهاة وقد ملأتك قاعاً (ص ١٠٢)

وتقول عن عشاقها :

يموتون بي عشقاً ويشقون بالهوى فكم من حياة في يدي وممات (ص١١٥)

فالجمال صفة لازمة لها أراد شوقي أن يبرزها بقوة ، ويضاف إلى هذه الصفة صفة أخرى هي البيان فيقول عنها حابي : —

لسياس إنك قد سمعت حديثها كالسحر في الآذان حين يدار (ص ١٢)

ونسب إليها المؤلف القدرة على قرض الشعر فيقول لها أنطونيو

وقولي الشعر علويًّا كما كنت تقولينا (ص ٤٠)

ويقول إياس :

غنني شعر ملاكي غنني شعر الإله (ص ٥٢)

. وهي مغرمة بالقراءة فيقول عنها زينون :

تنسى ملكها بلقاء الكتب أو تنسى هواها (ص ٦)

وقد أراد لها المؤلف أن تكون أمًّا تحس عواطف الأمومة بقوة فتقول عن أولادها :

وقد اشتهي عيش الذليل لأجلهم فلا المجد يرضى لي ولا النبل يسمح

هذا جانب المادحين ، وقد اختصت بذمها جماعة ألقوا على عرضها التهم جزافاً وهم الرومان وحابي . فيقول حابي عن أهل الأسكندرية أنهم :

هتفوا لمن شرب الطلا في تاجهم وأصار عرشهمو فراش غرام (ص ٢)

وقال أترضى ان يكون سرير مصر قوائمه الدعارة والبغاء (ص ١٠)

ويقول عنها قائد روماني : قد اجترأت على روما البغي (ص ٤٢)

ويقول عنها أنطونيوس لاولمبوس .

صرّح أبن قل غدرت قل جددت   بقيصر الثـالث دولة الهوى   (ص ٦٠)

وقد لخصت هي هذه التهم في قولها :

يقولون أنى أفنت العمر في الهوى   بهيميـة اللذات والشهوات   (١١٥)

وتدافع عن هذه التهم بقولها :

ولـكن عشقت العبقرية طفلة   وفي الغافلات البله من سنواتى   (ص ١١٥)

وعاد حابى الذي أتهمها يقول أنها « أشرف الناس إحساناً ووجدانا »

ولم يبق إلا الرومان ، ومن الطبيعي أن يتهموها في عرضها .

ولـكليوباترا جوانب أخرى تتلخص في حبها للحيـاة فهي تحب اللهو وتعشق وتفنى فيه وتضيف إلى ذلك كبرياء الملـكة ووقارها . فهي تقول لأنطونيو :

أمض معي في لذة الـــيوم ودع همّ الغـــد   (ص ٣٩)

لا نبـالي إذا صفت   بعـدها ما يكدر

وتلهو حتى تصبح « سكرى تمثر في خليج عذارها »   (ص ٥٨)

وهي تحب أنطونيو وتذكره في موتها فتقول للموت :

سر بي إلى أنطونيو في نضرتى   ورواء جلبابى وزينـة حالي   (ص ١٢٢)

وتقول لوصيفتيها : ألبسـانى حلة نمـــجب أنطونيو سنيـة   (ص ١٢٤)

على أنها رغم ذلك متدينة تهتف قائلة لأنوبيس :

صلّ من أجلي ولا تنس صغارى في صلاتك   (ص ١٥)

كما تقول :   إن الصـلاة على شدة الزمان معينـة   (ص ٩١)

وهي ملكة ذات كبرياء . تقول وتفخر قائلة :

فإن تك بى خشية في النساء   فلي جرأة الملـكات الـكبر   (ص ٨٤)

وقد علم البرية أن تاجي   نمته الشمس والأسر الموالي   (ص ١٢٣)

وتقول للعرّاف   خاتم الأيام أولى باهتمام العظمـاء   (ف ٥٢)

وتقول وهي تودع الدنيا :

وقد اشتهي عيش الذليل لأجلهم فلا المجد يرضى لي ولا النبل يسمح (ص١٢٠)

وهي رغم ذلك رحيمة القلب تقول لوصيفتها :

أنت لي خادم ولكن كأنا في الملمات أهل قربى وصهر (ص ١٧)

وتتقن أساليب السياسة فتقول لأروس :

الحرب فتك أروس والسياسة فني (ص ٣٧)

ويلخص أنوبيس شخصيتها في قوله :

بذي رجوتك للضحية والفدى فوجدت عندك فوق ما أنا راضي

إن تصبحي جسداً فنفسك حرة وعلاك سالمة وعرضك ناجي

سيقول بعدك كل جيل منصف ذهبت ولكن في سبيل التاج

حقاً إن كليوباترا متعددة الجوانب . على أنه يحق لنا أن نتساءل ما هي كليوباترا ؟ وهل نشعر بها كائناً حيًّا ؟ إنا لا نشعر بوجود شخصيتها ، ولا بالعاطفة الرئيسية التي تقودها . وما العبرة بتعدد الصفات والنواحي ، وإنما العبرة بتناسقها في ذات واحدة حول صفة تهب الشخصية كياناً . وقد أضاعها شوقي بمحاولته الدفاع عنها حين وصفها بالصفات الجيدة الطيبة ، وبتر الصفات الخبيثة . والإنسان الطبيعي مزيج من هذا وذاك .

تأتي بعد ذلك شخصية أنطونيو . وقد صوره شوقي بطلاً أعجزه الحب وسلبه الرجولة والشهامة ، وقد بالغ في تصوير ذلك إرضاءً لشعور الجمهور لا إرضاءً لنفسه وفنه ، ويذكر حياته الأولى قبل أن يتصل بكليوباترا بقوله :

فهمة قلبي في شراب وصبوة وهمة نفسي في علاء ومفخر (ص٧٤)

ويقارن بينها وبين حياته الثانية بقوله عن كليوباترا :

أخرجت أمري واختياري من يدي وتركتني نفساً بغير ملاك (ص ٧٢)

ولا نكاد نلمس فيه صفات الجندي التي تحكي عنه ،وقد وصفه بها كثيرون ، وتقول عنه كليوباترا أنه جيش « بمفرده في الروع جرار » (ص ٣٦)ويسميه حبر إله الحرب (ص٤٨) ويسميه أوروس « إله الوغى » (ص ٦٧) ويقول له :

وقد كان سيفك غول السيوف وكانت قناتك غول القنا

وكدت إذا الموت أفضى إليك تحديته فاتقى القهقرى (ص ٦٧)

ويقول عنه جندي روماني أنه « ميكلاً عزّ في الرجال ضريبا »

قد عرفناه خير من هزّ رمحاً   أو نضا صارماً ولاقى الحروبا (ص ٩٢)

وتسميه كليوباترا :   محور الأرض وميزان الشعوب (ص ٩٥)

ويقول عنه أوكتافيوس : « سيفاً لرومة باتراً » (ص ١٣٥)

وتقول كليوباترا : أنه غفور طيب القلب « وكم حقدت ثم أصبحت كأن لم تحقد » (ص ٣٩)

وتقول عن بشاشته :

ليس العبوس سنة   لوجهك الطلق الندى (ص ٣٩)

ولكن لا نرى أنطونيو يعمل حتى نحس بهذه الصفات في كيانه ، ونحس بوجوده حيًّا ، وهي عيوب يشترك فيها مع كليوباترا .

ويظهر حابي بعد ذلك مثالاً للشباب الوطني الممتلىء بالحماس ، القليل العمل ، كما يريد المؤلف أن يصوره ، وقد شاء أن يجعل منه أداة تدافع عن كليوباترا بعد أن أتهمها . ويصوّر أنوبيس بصورة الوطني المتشائم . وتظهر وطنيته حين تطلب منه كليوباترا أن يصلي من أجل ولدها فيقول :

أزيس كيف أصلي   على ابن يوليوس قيصر

أبوه عالٍ ولكن   فرعون أعلا وأكبر (ص ١٥)

أما بقية الشخصيات من الوصيفات وأولمبوس فهي شخصيات ثانوية ، تظهر وتختفي أثناء المسرحية وتساعد الشخصيات الرئيسية على التعبير .

ولعله يجدر بالإشارة أن نذكر أن الشخصيات الثانوية أقرب إلى الحياة من أبطال شوقي ، وقد زاد انسجامها ، إذلم يقف في طريق تعبيرها الحر عن نفسها نزعة أخلاقية أو وطنية ، أو تدخل من جانب المؤلف ، وعنها صدرت العناصر الفكهة والحركة والحياة والانسانية كما في أوروس وهيلانة وأنوبيس . ولم يتكلف الشاعر إكسابها صور العظمة والنبل المفتعل ، ويقابل زينون الشيخ المحنك المجرّب الماكر حابي الشاب الصريح النظري المتحمس ، كما يقابله أيضاً أنوبيس المتشائم العملي ، وتقابل كليوبترا العاشقة هيلانة العاشقة أيضاً . وأولها يحف بحبها الأثم ، ولا يحف حب الثانية إثم ، وحبذا لو اتجه فن شوقي إلى إبراز مثل هذه المفارقات ، مكسباً مسرحيته العمق في التشخيص وسمة المدلول .

الحوار

وقد تسببت معظم هـذه الأخطاء عن نوع الحوار الذي ارتضاه شوقي لفنه . وعيوب حوار المسرحيـة هي عيوب الكاتب البادىء الذي ما زال يتلمس الطريق ولم يكتشف بعـد الوسائل المسرحية النوعيـة التي يؤثر بها الكاتب المسرحي من عرض للأزمة وتطوّرها وتفاقمها وحلها أو تشخيص وفلسفة ، وإنما يقارب حوار هـذه المسرحية نزعة القصيـدة والأناشيد المفتعلة إلى حدّ كبير، وقلة المرونة في تبادل الحوار، فتكاد تتوالى القصائد وتلقى بشكل خطابي . ولئن أطربنا منهـا موسيقى الشعر وجودة الوصف والغزل والرثاء والشكاة والعتب ، ولـكن ما هي قيمتها المسرحيـة التمثيلية الفنية ؟ — لعله من الخير أن نقارن بين فصول مشتركة من مسرحيـة « مصرع كليوبترا » « لشوقي » « وأنطونى وكليوبترا » لشكسبير لنرى ما كسب شوقي وما خسر بمذهبـه الغنائى ، وما كسب شكسبير وما خسر بمذهبه المسرحي التمثيلي

بين مسرحية شوقي ومسرحية شكسبير

ألف شوقي مسرحيته في عصر خاص، وتأثر بأحداث خاصة اجتماعية ومسرحية ، وألف شكسبير مسرحيتـه في عصر خاص ، وتأثر بأحوال اجتماعية ومسرحية خاصّة . على أن للمسرحية قيمة فنية عامّـة من حيث تحقيقها لمطالب الفن المسرحي الرفيـع، ومن حيث قيمتها الإنسانية العامّـة . ولا بدَّ حين المقـارنة من التخلص من العوامل البيئية الخاصّـة قدر الامكان ، وبنائها على أسس المسرحية، أي كمسرحية تمثل أمام الجمهور وعن طريق ممثلين وعن عرض الموضوع المسرحي وتحليل الشخصيـات وما بلغ ذلك من عمق ، وعن ارتباط الحوار بالشخصية والموقف وقيمته الأدبية والمسرحية، وعن القيمة العامة للمسرحية في تاريخ الأدب المسرحي عامة . ومذهب شوقي كما سبق القول مذهب غنائى يسترسل في نظم الشعر الغنـائى ويحاول التأثير في الجمهور والارتفاع به عن طريق الشعر أكثر منـه عن طريق التشخيص والعرض المسرحي للموضوع . ومذهب شكسبير مذهب التصوير المباشر للحقائق عن طريق عرض الموضوع عرضاً مسرحيًّا كأزمة تتطوّر وتتوتّر وتحل ، بحيث يحدث هـذا التطوّر

من داخل الشخصيات ، وينسجم معها فتؤثر حوادث الموضوع في سلوك الشخصيات وتؤثر الشخصيات في تحريك حوادث الموضوع كوجهين لعملة واحدة . ويعبر الحوار تعبيراً طبيعيًّا عما يقتضيه الموقف معبراً عن أهواء هذه الشخصيات العميقة وعواطفها كما تخرج الحرارة عن النار،والرائحة من الزهور . وقد دفع مذهب شوقي صاحبه إلى الخلط بين وسائل القصة وهي السرد والتفصيل والاسترسال ، بينما ساعد مذهب شكسبير صاحبه على أن يبتدع ويحلل في حدود ما اقتضاه المسرح . وقد وقفت في سبيل شوقي حياته الغنائية وتكوينه لأساليب خاصة لم يستطع أن يتخلص منها وهو في أواخر حياته ، ولم يستطع أن يكوّن دراسة عميقة جديدة لأسس فنه ، بينما ساعد شكسبير على اتقان فنه المسرحي حياته المتصلة بالمسرح من تمثيل وإخراج منذ بداية حياته . ولم يكن الشعر الغنائي عنده إلاّ مخرجاً ثانويًّا لعواطفه الجياشة، بل إن قصصه الطويلة الغنائية الأولى تعتبر مقدمة لميوله المسرحية قبل أن تصقل أو تهذب . وقد عبر فيها عما يجيش في أعماق قلب الانسان . يضاف الى ذلك عبقرية نادرة في تفهم أعماق القلب البشري وقدرة فذة على تصويرها في لوحة متسعة الشخصيات ، متسعة الأفق في الفلسفة والمدلول.

وبداية المسرحية في العادة شاقة عسيرة في تأليفها . وقد بدأها شوقي في مسرحيته بداية غنائية ولم تعرض عرضاً مسرحيًّا خالصاً . فيتردد الحوار الآتى بعد نشيد العامة بين حابى وديون : —

حابى : اسمع الشعب ديون كيف يوحون إليه
ملأ الجو هتافاً بحياتى قاتليه
أثر البهتان فيه وانطلى الزور عليه
يا له من ببغاء عقله في أذنيه

ديون : حابى سمعت كما سمعت وراعني أن الرمية تحتفي بالرامي
هتفوا لمن شرب الطلا في تاجهم وأصار عرشهمو فراش غرام
ومشى على تاريخهم مستهزئاً ولو استطاع مشى على الأهرام

حابى : أتذكر يا ديون إذ انطلقنا إلى الميناء نلتمس الهواء

وكان البحر كالميت المسجّى وكان الليـل الميت الرداء
ديون : نعم وهناك آنسنا سحاباً وراء الليل جللت السماء
فقلت انظر ديون ترى الجواري يطأنَ المـاء همساً والفضاء
وأقبلت البوارج بعد عطلٍ سوائب لا دليل ولا حداء
رجعنَ رجوع فرسان أصابوا من الغزو الهزيمة والبلاء
فلم نسمع لمـلاّح هتافاً يبشر بالقدوم ولا نداء
حابي : فماذا قلت :
ديون :(قلت)ديون إني أرى الأسـطول بالويلات جاء
دخول الظافرين يكون صبحاً ولا تزجى مواكبهم مساء
فلما أصبح الصبح انتبهنا نرى الأسطول أزين ما تراءى
تبرّجت البوارج بعد عطلٍ وهزّت في ذوائبها اللواء
وردّد في المدينة أن روما عفـا أسطولها ومضى هباء
فضجَّ الناس بالبشرى وكدُّوا حناجرهم هتافاً أو دعاء
هداك الله من شعب بريء يصرّفه المضلل كيف شاء (٢)

هذا شعر طيب النسج حقّـا ، ويلخص تلخيصاً جيداً ما حدث وما مضى . ولـكن هل حلل شخصية كل من المتكلمين تحليلاً يجعلنا نحسهما كائنين حيين لـكلٍ شخصيته ؟ وهل مثل الحادثة أمام الجمهور تمثيلاً مسرحيًّا ؟ أغلب الظن أن شوقي قد اكتفى بالحوار عن الحركة في معظم المواقف ، وجعله يصور الحوادث ويصف الشخصيات . فلنحاول إذن أن نوضح ذلك بتمثيل الحادثة تمثيلاً مباشراً ، وعرضها عرضاً مسرحيًّـا تبرز فيه سمات الشخصيات وتحيا على المسرح وتبرز أعماق المواقف وتجلو خوافيها . هذه بداية مسرحية شكسبير : —

فيلبو : كلاّ . فقـد اجتاز هتر قائدنا الحدود . أنظر إلى هاتين العينين الجميلتين وقد لمعتا كالمشتري فوق خضم القتال وحشد الجنود ، وها هما تترددان إلى هـذا الجبين الأسمر ،

وهكذا أصبح قلب القائد الذي حطم لوحات الصدر من درعه في الميدان كيراً تبرد به هذه النورية شهوتها . أنظر هاهما مقبلان (يدخلان) .

كليوباترا : إذا كان ما تزعم حبًّا فاشرح لي مداه .

أنتونى : ما أفقر حبًّا يحصى ويعد .

كليوباترا : سأقيم حدًّا أرى به مبلغ هواك .

أنتونى : إذن فاكشفي عن سماء أخرى ، وأرض غير هذه الأرض (يدخل رسول قيصر)

كليوباترا : إستمع إليه فلربما أتى بغضبة من فلفيا . ومن يدري — ربما حمل إليك أمر قيصر ونهيه لتفعل هذا وذاك ، وتفتح قطراً وتترك أقطاراً ، وإلا اتهمتك .

أنتونى : كيف يا محبوبتي ؟ .

كليوباترا : إستمع إليه يا أنطوني . فربما كانت أخباراً من قيصر أو من فلفيا أو منهما معاً . ادع الرسل . أتستحي ؟ لعمري في حمرة وجهك إكرام قيصر ، أم تراها من لوم فلفيا القاسية ؟

أنتونى : لتذب روما في مياه التيبر . وليطو صرح الامبراطورية العريض . الملك من طين ، ومن الطين يغتذي النـاس والبهائم . ولا نبل ما في الحياة أن نتعانق ، ولترَ الدنيا كيف نقف وحدنا دون نظير .

كليوباترا : يا للكذبة الرائعة . ولِمَ تزوّج فلفيا ولم يحبها ؟ أتخالني بلهاء ؟

أنتونى : ولـكن حين تدفع كليوباترا ، وحب الهوى ، وساحتها الناعمة ... ولـكن لم تكدر صفو الزمن بأحاديث العتاب أو تفقد لحظة من الحياة دون نشوة ؟

كليوباترا : إسمع الرسل أولاً .

أنتونى : أيتها الملـكة المعاندة التي يزينها كل فعل : حين تلوم وحين تضحك ، فيظهر كل ما فيها جميلاً . لن أسمع الرسل . وسنجول الليلة في أحياء المدينة نرى أنماط الخلق فلقد رغبت في ذلك (يخرجان) .

ديمتريوس : أو يستخف أنطونيو بقيصر إلى هذا الحد ؟

فيلبـوس : أحياناً يا سيدي ، حين لا يكون أنتونى . ويقصر عن السموّ الى مرتبة هذا الاسم النبيل .

ديمتريوس : لقد ما آسف . فإنه يحقق كلام العامة وكذبهم في روما ، وما آمل في الغد خيراً من هذا صاحبتك السعادة . (ظ — م) (ص ٢)

تصوّر بعد ذلك بدايتي المسرحيتين على المسرح . ففي مسرحية شوقى تتبادل الحديث شخصيتان وتنشدان الشعر لتلخيص الموقف . وفي مسرحيـة شكسبير يتنوّع الحوار بين الشخصيات فتتحدث شخصيتان حديثاً يبرز شخصيتهما كجنديين لا يعجبهما أنتونى العاشق وإنما ينظران فيه الى أنتونى الجنـدي ، ولا يفهمان لحبه معنى . ثم ينقضي هـذا الحوار القصير ليدخل أنتونى وكليوباترا ويمثلا تمثيلاً مباشراً هذا الحب ، فنلمس كما يلمس الجمهور، عمقه وسعته وسموه ، يضحي في سبيله بالملك ويرتفع في عالم لا يرتفع إليـه الآخرون ، وتنكشف فيه أعماق قلب أنتونى وأعماق قلب المرأة في كليوباترا بتنوعه وتعقده في نفسها اللعوب . حتى إذا ما علمنا ماهية حبهما اكتمل المنظر دورته فيخرجان وتعود الشخصيتان الأوليتان في حوار بما يتفق وشخصياتهما . ثم حدثني ، ألم تلخص هـذه الأسطر القليلة الأزمة وبوادرها وتدفع الحركة وتمهد للمنظر الثانى وتحوي من عناصر التنوع وعمق التحليل وسعة اللوحة من تصوير لحب في مجال عدائى ، ثم انظر إلى بداية شوقي التي تصوره في مجال عدائى فترى فيما اتجه إليه شوقي من محاولة التأثير بالشعر وكيف حال دون أن يتقن ما أتقنه شكسبير ؟ إن الشخصيات عنـد شكسبير حية تنبض بالحياة أمامنا ، ونشعر بنواحي قوتها وضعفها أحياءً مثلنا ، ولا تجد هذه الحياة في شخصيات شوقي الجامدة الخشبية . وقارن بين المناظر المشتركة في المسرحيتين هي ليست بالقليلة لترى هـذه الصفات تتكرّر وتتفرّق في ثناياها . فقارن مثـلا بين أنطونيو يرجع منتصراً إلى كليوباترا في المسرحيتين ليتضح فرق المذهبين . ونقتطف من هذا المنظر الحوار الآتى : —

أنطونيو : لقد طاردناهم . هلمّ بأحدكم ليخبر الملكة بقدومنا . وفي الغد قبـل أن تطلع الشمس نسكب الدم الذي نجا اليوم منا . شكراً لـكم فقد حاربتم كما لو كان كل منكم أنتونى وحاربتم كما لو كان كل منكم إله . هيا إلى المدينـة وتحدثوا إلى أصحابكم وأزواجكم بما فعلتم . ولسوف يمسحون بدموع الفرح جراحكم

(تدخل كليوباترا)

يا أنهار العالم ، طوّقي بساعديك عنقي . واقفزي بجمعك إلى قلبي . وامتطي صهوة أنفاسي .

كليوباترا : ياسيد السادة . أيها الحب اللانهائي . أتأتي باسماً من شباك العالم الأعظم .

أنتـوني : يا بلبلي . لقد طاردناهم إلى مهادهم . أي فتاتي . لئن امتزج المشيب ببعض من أدكن الشباب فلنا عقول تغذي أعصابنا وتكيل للشباب صاعاً بصاع . انظري إلى هـذا الرجل واحملي إلى شفتيه يدك الحبيبة . قبلها أيها الجندي فقد حاربت كإله ينتقم من البشر .

فها هو أنطونيو الجندي لا يكافح إلاّ من أجل حبه الذي صار نواة روحه ، وغاية أعماله فانتصاره الحربي انتصار لحبه ، ونشوة ظفره نشوة حبه ولا يفقد شخصيته الرئيسية في موقف من المواقف مهما تمددت خيوطه وتشابكت أطرافه .

ولنقارن بينه وبين مقتطفات وردت في مسرحية شوقي تقابل هذا المنظر ، يقبل أنطونيو منتصراً إلى كليوباترا فتلقـاه ويسألها أن تقبله فتقبله . فتقول له :

اليوم تعلم روما أن ضرّتهـا ... تقلد الغار من تهوى وتختار
اليـوم تعلم روما أن فارسها ... جيشٌ بمفرده في الروع جرار
أنطونيو ، سيدي هل نحن في حلم ... أسالمٌ أنت لا أسرٌ ولا عار

أنطونيو : أسرٌ وهمت كليوباترا أتظفر بي ... كأس المنايا على الأبطال دوار
لو كنت شاهدتني والحرب جارفة ... والصف تحتي بعد الصف ينهار
قد جنّ تحتي جوادي فهو عاصفة ... وجنّ كفي بنصلي فهو إعصار
رأيت حملة صدق غير كاذبة ... لا السيل يحملها يوماً ولا النار
لما صدمت جناحيهم وقلبهمو ... عن الخيام ومن أوكارهم طاروا
وما وجدت لأكتافيو وقادته ... ريحاً ولم أتبين أيه ساروا
ومالت الشمس أو كادت فراجعني ... شوقٌ إليك قديم الداء سوار
حتى رجعت ولو أني طردتهمو ... لبات أكتاف عندي وانقضى الثار (ص ٣٦)

تظهر صعوبة هذا الحوار على المسرح إذا تصورناه ملقى من فم الممثل مما فيه من الحركة رغم ما فيه من جودة شعرية وطرب بالألفاظ . فهو حوار يدور بين شخصيتين اثنتين في المنظر كله ، ويطول دون أن يتنوع أو يكشف عن حقيقة جديدة في الموقف أو جانباً من جوانب الانسان العميقة . وهو يلخص تلخيصاً سطحيّاً ما يدور من حوادث النفوس ونوازعها .

وسنلمس في مسرحية شكسبير صوراً من التعقيد المسرحي النوعي الذي لا ينتبه إليه شوقي ويثير بها شكسبير في مسرحيته عوامل معنوية تحدث أصداء في المسرحية وتثير وسائل تهكم مسرحي عام، وإحدى صور هذا التعقيد هي العرّاف . فقد اتخذه شكسبير أداة ترمز إلى غموض القدر وعجز الشرق الصوفي الخيالي أمام الغرب العملي ، وتكررت ألفاظه فوسعت الأفق المسرحي حتى اتصلت عناصرها بعناصر الكون ، وزادت من عمق مدلول الحوادث وسمتها الإنسانية، فيذكر العرّاف لأنطونيو أن حظه يتضاءل كلما اقترب من قيصر «فابتعد عنه» ، ويرد أنوبيس على العرّاف في بداية المسرحية « مصيري ومصير جماعتنا هو أن نثمل حتى النوم » بينما يقول العرّاف لأنطونيو :

حيـاتي في يديه والنـاس يحيون قسرا
إن شئت عمرت نهاراً أو شئت عمرت دهرا

ويقول لكليوباترا : ملـكتي يومك في الأيـــام منشور اللواء
خطر العز عليـه ومشى فيه الأباء
ثم يتبـــلوه بقاء لم يطاوله بقـاء

فذلك شعر غنائي أكثر منه شعر مسرحي ، يتصل بالشخصية التي تتحدث عنه ، وقد يعجب القارىء ولـكن لا يصلح للمسرح الذي يرمي إلى تمثيل الحوادث تمثيلاً يخاطب عقل المتفرج وخياله وعواطفه كما يخاطب سمعه ، بل أكثر مما يخاطب سمعه .

ولنقارن بعد ذلك بين منظرين جمع لهما المؤلفان عبقريتهما وقدرتهما على التصوير والتأثير حين تتوتر الأزمة إلى أعلى نقطها ، وتبرز شخصيات المأساة إلى أسمى مراتبها ، فيسطع نورها قبل أن تنطفىء . ولنبدأ بالمقارنة بين منظري انتحار أنطونيو في المسرحيتين:

أنتوني : ضاعت آمالي وخانتني هذه المصرية الدنيئة ، واستسلم أسطولها للعدو ، وها هم رجالها يقذفون بقبعاتهم إلى أعلى كمن يلقى صديقاً غائباً . أيتها العاهرة ثلاثاً، قد باعتني إلى هذا المحدث الجديد . دعهم يحربون وسأتم أفعالي بعد أن أحطم السحر .

أيتها الشمس . لن أرى المشرق بعد اليوم ، وسأصالح مجدي الآن . أو ينتهي كل شيء هكذا ؟ فتذوب قلوب تبعت قدمي ، وحققت أمانيها فيَّ ، لقد خانوني . وأنت أيتها النفس الكاذبة والساحرة الخطيرة ، من أجل عينيها أثرت الحرب ، يا من دعوتها ملكتي وصدرها تاجي ومهادي . لقد خدعتني (تدخل كليوباترا)

ابتعدي أيتهـا الساحرة أو تنالك يداي بالأذى ، اخرجي أو تنالين ما تستحقين أو أشوّه نصر قيصر . دعيه ينالكِ ويعرضكِ على غوغاء روما الصاخبين . وليأخذكِ درة في تاج نصره ، ويعرضكِ كما تعرض الوحوش على العـامة ،وتخدش أكتافيا وجهك بأظافرها . (تخرج كليوباترا)

أما زلت تشهدني يا إيروس — قد نرى أحياناً سحابة نحسبها وحشاً ، وبخاراً نحسبه أسداً ، أو نمراً ،أو قلعة مشيدة، أو جبلاً متشعباً، أو صخرة هائلة ، فيسخر الوهم من أعيننا .أرأيت هذه الظواهر ؟

إيروس : نعم يامولاي .

أنتوني : أيهـا التابع الطيب ، هكذا مولاك الآن . لـكني لا ألمس هذا الشخص فيَّ لقد خضت الحرب من جرائها . ولقد ظننت أن بيدي قلبها إذ كان قلبي بيدها لقد ضاعت مني واتصل مصيرها بقيصر . وصار مجدي نصراً للعدو . لا تبكي يا إيروس . فقـد بقيت لنا أنفسنا لنقضي على أنفسنا (وحين تخبره ماريان بموت سيدتها يقول) :

أماتت ؟ إذن أنزع الدرع يا إيروس . لقد انقضى عبء النهـار الطويل ، وعلينا أن ننام . دعيني ، إنزع الدرع يا إيروس ، فان يمنع درع آشيل انهيار

جوانبي، جانبي انشقا وحطما هذا الهيكل الواهن ، إليك عني يا إيروس فلست الآن جنديًا ، تداعي أيتها الأشلاء المرضوضة . دعني يا إيروس ، سألحق بكِ يا كليوباترا . كل زمن يمر عذاب . لقد خبا السراج . سأقضي وأنهي الأمور وأفسد عمل قيصر . ولن يحطم العنف إلا العنف . إيروس . سآتي يا مليكتي. إيروس سنخطو يداً في يد، وندع الأشباح تنظر وتتبع . إيروس .

إيروس : ما يريد مولاي :

أنتوني : لقد صحبني العار منذ ماتت كليوباترا . وتحتقر الآلهة دناءتي . قد قسمت العالم بسيفي وصنعت بيدي ملكاً على ظهر البحر . والآن تعوزني شجاعة امرأة وعقل سيد . لقد أقسمت يا إيروس حين يدلهم الخطب — وقد ادلهمّ الآن — أن تقتلني . فافعل فقد حان الوقت هيا ودع الدم يجري في وجهك .

إيروس : أوَ أفعل ما لم تفعله السهام المعادية وأخطأت ولم تصب ؟

أنتوني : إيروس . أتحبس في نوافذ روما ؟ وترى مولاك مكبلاً بالحديد ، يحني هامته ويخترم العار وجهه وأمامه قيصر الظافر ؟

إيروس : لن أرَ هذا اليوم .

أنتوني : إليّ إذن ، لن تشفيني إلاّ الجراح ، انزع سيفك الأمين .

إيروس : عفواً يامولاي .

أنتوني : ألم تعدني بذلك حين أطلقت سراحك ؟ أم كان ولاؤك حدثاً طارئاً ؟ انزع سيفك .

إيروس : إذن فأدر عني وجهك النبيل ، فقد كان قبلة العالم أجمع . ها قد نزعت سيفي .

أنتونى : فافعل ما سللته من أجله .

إيروس : وداعاً أيها السيد العظيم . سأطعن الآن .

أنتوني : الآن يا إيروس .

إيروس : ولمَ إذن ؟ هنا الموضع فأهرب من الجزع (ينتحر) .

أنتونى : لأنت أنبل مني ثلاثاً . منك تعلمت ما أفعل . لقد سبقتني في معرض النبل ،

سأجري الآن إلى الموت كروح يسعى إلى سرير العرس . وسيموت سيدك يا إيروس تلميذك (ويطعن نفسه) ماذا ؟ لم أمت . (ينقل الى كليوباترا) .

كليوباترا : أيتها الشمس إظهري واحرقي مدارك .

أنتوني : سلاماً ، لم يحطم قيصر أنتوني وإنما تغلب أنتوني على نفسه .

كليوباترا : هذا ما يجب أن يكون فلم يخضع أنتوني أحداً غيره ولكن واحزناه .

أنتوني : إنني أموت يا مصر ، وقد سوفت في موتي حتى أنال من آلاف القبل القبلة الأخيرة — لا تحزني أو تندبي نهايتي . عيشي على الماضي حين عشت سيد العالم . ها أنا لا أموت جباناً .

كليوباترا : يا أنبل الناس كيف تموت ؟ ألا تعبأ بي ؟ هل أبق هنا في هذا العالم الجامد الذي لا يفوق في غيبتك حظيرة ؟ لقد ذاب تاج الأرض وإكليل الحرب وعماد الجند وتساوى الفتيـة والفتيات بالرجال . لقد زالت الفوارق ولم يبق تحت القمر الراحل ما تحيا به . وهل أنا إلاّ امرأة تقودها عاطفتها كمن تبيع اللبن وتؤدي أحقر الشئون ؟ لقد قذفت الآلهة بصولجاني ، كان عالمنا كعالمهم حتى سلبنا من جوهرتنا . والآن كل شيء عدم والصبر بلاهة ، أمن الاثم أن ألج باب الموت الخفي ؟ كيف يا نسائي ؟ الشجاعة لقد خبا السراج وانطفأ . الصبر يا قوم ، سندفنه ونعمل ما هو جريء نبيل ، سندفنه في موكب روماني ، هيا فقد برد ذلك الهيكل الذي حوى تلك النفس الكبيرة ، لم يبق لنا يا نسائي من صديق إلاّ العزم والموت .

نرى في هذا المنظر البطل في بؤرة الاهتمام تحلل عواطف وتسير إلى نهايتها المحتمة نحو المأساة سيراً نفسيّـاً متماسكاً . وتحبك الحركة المسرحية وترتب المفاجأة ويتبادل الحوار فيطول ويقصر تبعاً لحاجة الموقف ، ومجرى عواطف الشخصية فتنمو عناصر المنظر وتتطور نحو النهاية ، ولننتقل بعد هـذا إلى نظير هذا المنظر في مسرحية شوقي . ها هو أنطونيو مهزوم يخاطب تابعه بقوله :

أوروس إني جهـدت مشياً ومسني الضر والـكلال

هل بنا نستريح قليلاً من قبل أن يدهم الرجال (يجلس منهوكاً)

اوروس ماذا دهاني حتى نسيت مكاني
كان الملوك عبيدي فصرت عبد الحسان
ولست أول حر استعبدته الغواني
ولم أر كالحرب امتراح قتيلها وأفضى إلى القيد الأسير المقيد
ولكن شقي الحرب والمصطلي بها إذا انفضت الحرب الطريد المشرد
ولولا اختلاف الحرب بالناس لم يهن عزيز ولم ينزل على القيد سيد

فيرد عليه أوروس قائلاً:

وقارك قيصرُ لا تجزعنَّ وخلِّ المقادير تجر المدى
فما أنت أول نجم أضاء ولا أنت أول نجم خبا
أما لك أنطونيو أسوة بيوليوس قيصر أين انتهى
رأيتك والحرب تبلو الكماة فاشهد كنت إله الوغى
وقد كان سيفك غول السيوف وكانت قناتك غول القنا

ويخبره أوروس بموت كليوباترا فيقول:

يا للسماء انتحرت أين أين ولم ؟ وكيف كان ذالك ؟ ومتى
اولمبوس : مررت بالقصر ضحى اليوم فلم أجد له نظماً ولا حسناً يرى
بدا لعيني خلاء موحشاً غير عويل هنا وهنا
انطونيو انتحرت يا للخبر ويا لقسوة القدر
إن الأمور انتقلت من خطر الى خطر
ما غدرت وإنما أنا الذي بها غدر (ف ٣)

ويناجي كليوباترا بعد ذالك في قصيدة تبلغ واحداً وثلاثين بيتاً كما يناجي روما ويعرض لماضيه . ويحدث بينه وبين أوروس ما حدث في مسرحية شكسبير . وينتقل إلى كليوباترا فيقول :

قد تداعى محور الأرض وميزان الشعوب

مال كالشمس جمالاً وجلالاً في الغروب
أيهـــا المجروح لو تدري جروحي وندوبي
أيهـا الذاهب قد آن عن الدنيا ذهوبي
أيهـا الخـالص ودًّا ليس ودي بالمشـوب
عن قريب ينطوي الـــقبر علينـا عن قريب
كللـــوه بالرياحـــين وبالغـــار الرطيب
أيها الجند مات قيصر فابكوا معي السيد الجسور الوهوبا
شبكوا ساعديه من فوق صدر كان في الروع بالمنايا رحيبا (ف ٣)

إلى آخر هذه القصيدة البليغة في رثائها ، الضعيفة في تركيبها المسرحي . لم يراع فيها دراسة الموقف دراسة فنية عميقة ، ولم تعتبر مطالب الممثل والجمهور والإجادة الفنية في التحليل والتشخيص والحوار . ونفقد هنا التدرج الإنساني نحو الاستعداد للموت ، والتطور في تحليل العواطف بحيث تؤدي إلى حدوث الكارثة . ولا نجد في استجابة كليوباترا لهذا الموقف استجابة إنسانية تكشف عن موقفها من أنطونيو بوضوح ، تستبين منه دقائق الصور وخلجات النفوس . وتنتهي المقارنة بعرض موت كليوباترا في كل من المسرحيتين .

ففي مسرحية شكسبير يلمس الجمهور استعداد كليوباترا الموت ويحسون بالنهاية آتية لا ريب فيها وترتفع رويداً رويداً إلى مرتبة القديسة التي تتطهر . تهيب كليوباترا بوصيفتها قائلة :

كليوباترا : اليَّ بردائي وتاجي فبين جنبي تختلج آمال الخلود. لن يحس خمر مصر هذه الشفاه
هلمي يا إيراس ، إخال انطونيو ينادي ويقوم من مضجعه يمدح مقالي ويسخر من قيصر . ها أنا يا زوجي جديرة بهذا الاسم . أنا هواء ونار ، تركت عناصري الأخرى للتراب . هلمي اليَّ واسلبيني بقية من حرارة . وداعاً شرميون طويلاً (تقبل إيراس فتسقط ميتة) أو أملك الصبر في فمي — أهكذا تموتين ؟ واذا كان الموت سهلاً سريعاً هكذا فان وخزته كوخزة حبيب . أترقدين ساكنة ؟ إذن فلا يستحق العالم وداعاً .

شرميون : انفجري أيتها السحب الكثيفة . ها هي الآلهة تبكي .

كليوباترا : يا لدناءتي . ستقابل أنتوني قبلي . وسأفقد قبلة هي مماتى . إليّ أيها التمس القاتل وفك عقدة حياتى بنابك القاطع . ولو نطقت لسميت قيصر حماراً لا يفقه

شرميون : أيتها النجمة الشرقية .

كليوباترا : سلاماً سلاماً . ألا ترين ابني على صدري يدفع مرضعته للنوم ؟

شرميون : تحطمي وانفرجي .

كليوباترا : حلو كالبلسم — لين كالهواء اللطيف — أنطونيو — إليّ أيها الآخر (تموت)

(ف ٥)

وفي شوقي تستمد الموت في قصيدة واحدة طويلة ترثى فيها نفسها وتذكر موتها فداء لمصر وتخاطب الإسكندرية ، ثم تتناول الأفعى وتنتحر . فهي قصيدة طويلة لا نجد فيها التدرج النفسي نحو المأساة ، وإنما يثار جو المأساة . عن طريق الشعر .

والفرق بين المنهجين واضح ، وهو أن شكسبير قد قرر لمسرحيته عالماً منسجماً يدور حول فكرة وفلسفة واحدة ، هي الهوى والتضحية في سبيله ، لم يختلف في ذلك انطونيو أو كليوباترا . وبذلك وضع لها قاعدة تتصل بنفوس النـاس وتهوي إلى أعماقهم . وصوّر الموضوع تصويراً إنسانيًّا شمل الكون وقارن فيه بين الغرب العملي والشرق الذي لا يعترف بالمادة . وملأ هذا العالم بأنماط عديدة من الناس وحللها هذا التحليل العميق البارع المعقد فأنطونيو يضحي بمجده وهو يعلم بضعفه ، ويهجر أكتافيا إلى كليوباترا وهو يعلم أن ذلك سيثير عليه سخط الرومان . وصوّره متصـلاً بكليوباترا اتصالاً يجذبه إليهـا كما يجذب المغناطيس الابرة . وتظهر كليوباترا بمظهر المرأة التي تجمع في ذاتها حواء المتنوعة المغرية المعقدة الغامضة التي لا تفهم وربما لم تفهم نفسها . وأكسبها قولاً وفعلاً يتصف بالحيوية الشديدة . وأدار حول الكوكبين الرئيسين شخصيـات ثانوية تقابل بين أهوائهما ويرتفع البطلان بالتدريج نحو المأساة فيصير الموت نصراً لا هزيمة ، ومجداً لا ضعة ، وتتحرك في أثناء ذلك من عالم من الرموز وتتشبع اللغـة بألفاظ الذهب والفضة واللآلىء والشموس والأقمار في تعبيراتهـا . وترى في هذا العرض الزائل من مال وجاه توافه بجانب هذه القيمة

الروحية الكبرى وهي الحب . هذا إلى تعقيد الموضوع والتشخيص وروعة اللغة وتطوّر الشخصيات مع انسجامها واتساع الأفق والمدلول الذي يحتضن عالم المسرحية ، فارتفعت المسرحية إلى قمة الوجود وهبطت إلى أعماق قلب الإنسان .

وربما اطلع شوقي على مسرحية شكسبير كما تدل على ذلك بعض الدلائل مثل أسماء بعض الشخصيات ومشابهة بعض الفصول والمناظر ، على أنه كان اطلاعاً عابراً سريعاً لم يدعه يتفهم أصولها ومراميها . وكانت النتيجة أن عني بشعره أكثر مما عني بشخصياته وموضوعه ولوازم المسرح والجمهور، ولم يعن بالقيمة الفنية العامة للمسرح، فاضطربت بعض الشخصيات الرئيسية لكليوباترا ، وفقد الموضوع تطوره المسرحي الدقيق من أزمة تتوتر وتحل ، وشخصيات ينبع من داخلها الموضوع وتحلل تحليلاً نفسيًّا عميقاً وسعى إلى التأثير في نفس جمهوره بوسائل هي الشعر آناً ، وأدوات مسرحية خارجية آناً آخر .

على أن عيوب هذه المسرحية هي عيوب الكاتب البادىء الذي يتلمس الطريق في تجربته الأولى، ولم يكتشف بعد طريق الكاتب المسرحي الماهر إلى نفوس الجمهور، أو يضع يده على وسائل إجادة الموضوع المتماسك والمفاجآت والشخصيات وإخضاع الحوار لها بشكل يرضاه قواعد هذا النوع من الفنون .

الفصل الثالث

مجنون ليلى

يتطوّر فن الكاتب المسرحي المبتدىء تبعاً للخبرة التي يكتسبها نتيجة لاتصاله بالمسرح والممثل والمخرج وتبعاً لاحتكاكه المباشر بالتمثيل ، مما يوضح له مطالب فنه بالتطبيق العملي، فالى أي حد تطوّر شوقي الشاعر الغنائي إلى شاعر مسرحي ، وإلى أي حد أثر شوقي الشاعر الغنائي في شوقي الشاعر المسرحي ، وإلى أي حد تطوّر فن المؤلف في مسرحيته الثانية من حيث اتصالها بمطالب المثل والمسرح والجمهور ، وإلى أي حد اتفق عرض الموضوع وتحليل الشخصيات وإدارة الحوار مع المثل الأعلى للمسرحية ، وإلى أي حد تقدمت فى منهجها على منهج مسرحيته الأولى ؟

سنلمس في مسرحية شوقي الثانية أوجه شبه بالمسرحية الأولى تصلها بها ، في تطور الموضوع وتقسيم فصوله ومناظره العامة ، على أننا سنلمس تطوراً في الصناعة المسرحية في تحليل الشخصيات وانسجامها وتطورها نحو المأساة ، ووضوح الأزمات والتحايل على إخفاء العيوب المسرحية في الحوار الغنائي باختيار موضوع يعرض لقصة هوى شاعر غنائى مثله ، في مجال من الشخصيات تعجب بالشعر وتنشده وترويه ، وأورد في ثناياه أناشيد ينشدها شعراء ومغنون سعوا إلى زيارة الشاعر . فالشعر مصدر البطولة في قيس ، ومصدر إعجاب الشخصيات الأخرى به ، والشعر مصدر خلود هذه المسرحية بما يصف من هوى متأجج في نفس البطل . وقد اجتذب الشعر أعداء قيس وأصدقاءه على السواء ، إذ يحسده منازل على براعته فيه ، ويأمر به أبا ليلى فيرويه عنه كارهاً ويستهوى به زوج ليلى ، ويسعى من أجله ابن عوف لينيل قيساً ما اشتهى ، ومن أجل الشعر يقصد الشعراء قيساً للتعرف به والتودد اليه، فلا بد أن يجتذب الجمهور المسرحي ويدعوه إلى الاعجاب بالمسرحية

ولكن الشعر في المسرحية الجيدة لا يقصد لذاته . وانما هو وسيلة لادارة الحركة

المسرحية ، وحوادث الموضوع ، ووسيلة للتعبير عما يجول في أعماق الشخصيات حتى تتحرك نحو الأزمة ، فإلى أي حد حقق شوقي هذه المطالب الرئيسية ؟

اقتبس شوقي حوادث هذه المسرحية وبعض الحوار من كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني،واختار من روايات الرواة والشعر المنسوب لقيس بعضاً منها دون أن يحوّر فيه كثيراً ، وأغلب الظن أنه اختار أكثرها طرافة وغرابة ، لا أكثرها تمشياً مع العادي من منطق الحياة والناس. واختار الرواية التي رواها بعض الرواة،وهي أنّ قيساً كان يهوى ليلى، وأحبها منذ كانا حبيبين يرعيان مواشي أهليهما ، ولم يزالا كذلك حتى حجبت عنه ، فأنشد في هواها شعراً ، واشتهر أمر هذا الهوى وذاك الشعر بين الناس ، ثم حيل بين قيس وبين ليلى ، فلما خطبها خيرت ليلى بينه وبين خطيب آخر هو ورد بن محمد العقيلي ، فاختارته وتزوجته على كرهٍ منها . فيئس منها وشرد في البادية . وأكسب شوقي بعد ذلك القصة نهاية مسرحية هي يأس ليلى أيضاً ، وموتها، ثم علم قيس بذلك ومات .

وأورد شوقي في ثنايا هذه القصة ما اشتهر به قيس من عجائب وغرائب . فقد ذكر ما رواه البعض من أن عمر بن عبد الرحمن بن عوف والى صدقات بني كعب وقشير والحرمين وحبيب عبد الله ، فنظر إلى المجنون قبل أن يستحكم جنونه وكلمه وأعجب به ، وسأله قيس أن يخرج به إلى آل ليلى وقال له « أكون معك في هذا الجمع ، فأرى في صحبتك ، وأتجمل في عشيرتي بك ، وأفخر بقربك ، فجاؤا رهط ليلى وأخبروه بقصته ، وأنه لا يريد التجمل به وإنما يريد أن يفضحهم في امرأة منهم يهواها ، ورفضوا وساطته فانصرف ابن عوف وانصرف قيس منفرداً عارياً لا يلبس ثوباً إلاّ خرقه ، ويخط في الأرض ويلعب بالتراب والحجارة ، ولا يجيب أحداً سأله عن شيء ، فإذا أحبوا أن يتكلم أو يثوب الى عقله ذكروا له ليلى فيقول ، بأبي هي وأمي . ثم يرجع إليه عقله فيخاطبونه ويجيبهم ويأتيه أحداث الحي فيحدثونه عنها وينشدونه الشعر والغزل . فيجيبهم جواباً صحيحاً وينشدهم أشعاراً قالها حتى وفد عليهم في السنة الثانية بعد عمر بن عبد الرحمن ونوفل بن مساحق ، فنزل مجمعاً فرآه يلعب بالتراب وهو عريان فقال له « ياغلام ، هات ثوباً » فأتاه به فقال لبعضهم « خذ هذا الثوب وألقه على ذلك الرجل » فقال له « أتعرفه جعلت فداك ؟ » « فقال لا »

قال « هـذا ابن سيد الحي . لا والله ، ما يلبس الثياب ولا يزيد على ما تراه يفعل الآن . وإذا طرح عليه شيء قذفه . ولو كان يلبس ثوباً لـكان في مال أبيه ما يكفيه . فحدثه عن أمره فدعا به وكلمه ، فجعل لا يقبل شيئاً يكلمه به . فقال له قومه : « إن أردت أن يجيبك جواباً صحيحاً فاذكر له ليلى » ، فذكرها له وسأله عن حبه إياها . فأقبل عليـه يحدثه بحديثها، ويشكو إليه حبه إياها ،وينشده شعره فيها . فقال له « الحب صيَّرك إلى ما ترى ؟ » قال « نعم ، وسينتهي إلى ما هو أشد مما ترى »فعجب منه وقال له « أتحب أن أزوجكها ؟ » قال « نعم ، وهل إلى ذلك من سبيل ؟ » فقال « انطلق معي حتى أقدم على أهلها بك وأخطبها عليك وأرغبهم في المهر لها » . قال « أتراك فاعلاً ؟ » قال « نعم » . قال « أنظر ما تقول » . قال « لك عليَّ أن أفعل ذلك » ودعا بثياب فألبسه إياها وراح معه المجنون كأصح أصحابه ، ينشده ويحدثه ، وبلغ ذلك رهطها فتلقوه في السلاح . وقالوا له « يا ابن مساحق »لا والله ، لا يدخل المجنون منازلنا أبداً أو يموت . فقد أهدر لنا السلطان دمه » فأقبل بهم وأدبر فأبوا فلمـا رأى ذلك قال المجنون « نصرف » فقال له المجنون « والله ما وفيت لي بالعهد » قال له . « انصرافك بعد أن آيسني القوم من اجابتك أصلح من سفك الدماء » .

ومن هذه القصص الغريبـة الخبر مألوفة ما ذكره الرواة عن قصة النار . قيل لقيس : « ما أعجب شيء أصابك في وجدك في ليلي ؟ » . قال « طرقنا ذات ليلة ضيفان ولم يكن عندنا لهم أدم فأرسلني أبي إلى منزل أبي ليلى وقال لي . أطلب لنا منه ادماً فأتيته ، فوقفت على خبائه ، فصحت به ، فقال ما تشاء ؟ فقلت طرقنا ضيفان ولا أدم عندنا لهم ، فأرسلني أبي نطلب منك أدماً ، فقال ياليلى ، اخرجي إليه النحي ، فجعلت تصب السمن فيـه ، ووقفت نتحدث ، فألهانا الحديث وهي تصب السمن وقد امتلأ القعب ولا نعلم جميعاً ، وهو يسيل حتى انتقعت أرجلنـا بالسمن ، قال فأتيتهم ليلة ثانيـة أطلب ناراً وأنا متلفع ببرد لي ، فأخرجت لي ناراً في عطبة ، فأعطيتها ووقفت نتحدث فلما احترقت العطبة مزقت من بردي خرقة ، وجعلت النار فيها ، وكلما احترقت مزقت أخرى واشتبكت بها النار حتى لم يبق عليَّ من البرد إلاّ ما أداري عورتي » .

ومنها أيضاً قصة الظبي ، قيل للمجنون أي شيء رأيته أحب إليّ ؟ قال « ما أعجبني شيء قط فذكرت إلاّ سقط من عيني ، وأذهب ذكرها بشاشته عندي . غير أني رأيت مرة ظبياً فتأملته وذكرت ليلى ، وجعل يزداد في عيني حسناً . ثم إنه عارض الذئب وهرب منه فتبعته حتى خفي عني فوجدت الذئب وقد صرعه وأكل بعضه فرميته بسهم فما أخطأت مقتلاً . وبقرت بطنه فأخرجت ما أكل منه ثم جمعته إلى بقية سلوى ودفنته وأحرقت الذئب » .

ومنها أيضاً قصة حج قيس إلى الكعبة قالوا : بعد أن رفض أبو ليلى تزويجه من ليلى أيس منها وزال عقله جملة . وقال الحي لأبيه حج إلى مكة وادع الله عزّ وجلّ له ، فلعل الله أن يخلصه من هذا البلاء . فحجّ أبوه . ولما صاروا بمنى سمع صائحاً في الليل يصيح ياليلى فصرخ صرخة ظنوا أن نفسه قد تلفت فيها فسقط مغشيًا عليه . فلم يزل حتى أصبح ثم أفاق حائل اللون ذاهلاً . ثم قال له أبوه « تعلق بأستار الكعبة واسأل الله أن يعافيك من حب ليلى » . فتعلق بأستار الكعبة ثم قال « اللهمّ زدني حبًا وبها كلفاً ، ولا تنسيني ذكرها أبداً » فهام حينئذٍ واختلط عقله فلم يضبطه . قالوا . « فكان يهيم في البرية مع الوحش ولا يأكل إلاّ ما ينبت في البرية من بقل ، ولا يشرب إلاّ مع الظباء » .

ووردت غير ذلك أخبار عن لقاء قيس وليلى في حي الزوج الجديد .

* * *

واعتمد شوقي على هذه الأخبار التي لم يطمئن إلى صدقها صاحب الأغاني ، والتي لا تتمشى والمألوف من أمور هذه الحياة التي يحياها الناس . ففي الفصل الأول يظهر ابن ذريح في حي ليلى ويمهد في الحديث عن أمر قيسٍ بحديث مع أهل الحي عن أخبار السامة والصحراء وعن الحياة في البادية والحضر . ويسوق الحديث عن الشعر إلى التحدث عن قيس ويروي خبر الظبي ويدعو ابن ذريح ليلى إلى الاهتمام بشأن قيس ، فتوضح ليلى له حقيقة مشكلتها منذ البداية فهي عاشقة لقيس ، مقرة بعبادتها إياه هذا الحب ، على أنها لا تستطيع الزواج به لتشبيبه بها فتقول :

أنا بين إثنتين كلتاهما النار فلا تلحني ولكن أعني
بين حرصي على قداسة عرضي واحتفاظي بمن أحب وضني

وينصرف السامرون ، فيخلو المسرح للقاء قيس وليلى وتمثل قصة النار.. فيحترق كم قيس وهو في نشوة نجواه لها ، ويغمى عليه ، فيقبل المهدي والدليلي ، فتزيد العقبة القائمة بين زواجهما وضوحاً ، ويحث المهدي قيساً على الانصراف حتى لا يسمع القوم تشبيبه بها .

وهذا الفصل جيد من الوجهة المسرحية إذا قارناه بالفصل الأول في مصرع كليوبترا ، فقد قدّم للجمهور الشخصيات الرئيسية ، ولخص الأزمنة والحوائل القائمة ، وصحب العرض المسرحي عرض تمثيلي متنوع الحوادث فيعقب التمهيد تمثيلاً للموقف يجعل الجمهور يلمس الأزمة لمساً ولا يكتفي بسماعها ويبين بوضوح أمزجة الشخصيات وبواطنها ومحاور سلوكها. ويصحب الحوار الحركة المسرحية بصورة لم توجد في مسرحية شوقي الأولى .

* * *

على أننا نقابل النزعة الغنائية في الفصل الثاني من المسرحية ، ونلمس ضعفها المسرحي وهدفها الغنائي . فكما ورد في مصرع كليوباترا مناظر تعتمد في تأثيرها في نفوس الجمهور على الغناء والرقص والموسيقى ، بحيث تطغى هذه التأثيرات على الحركة المسرحية والتطور الرئيسي المباشر للموضوع ، كذلك ترد في هذا الفصل أناشيد الحوار وطرائف الأطفال دون أن تتصل اتصالاً مباشراً قويّـا بالموضوع . فبعد أن تظهر بلهاء الجارية ، ومعها الذبيحة التي قرأ عليها العرّاف تمائمه ، ويرفض قيس أن يذوقها ، تظهر جماعتان من أطفال الحي ، وتتغنى الجماعة الأولى بهواه ، وتشيد بفضله كشاعر ، وتذم الجماعة الثانية هواه وتشيد بإثمه ، ويصرف الجماعتين تابعه زياد ، ثم يغمى على قيس ويعثر عليه ابن عوف وهو مار بالطريق فيعرفه . ثم تمر قافلتان تنشد كل منهما نشيداً يعبر عن العاطفة الدينية في الجمهور ويشيد بالحسين . ويذكر اسم ليلى في أحدهما فيصحو قيس ، ويحاور ابن عوف ويسأله أن يتوسط من أجله لدى آل ليلى . فيتبرّع ابن عوف بذلك .

ويظهر في هـذا الفصل صفات ضعف شوقي العام في فصله الثاني ، إذ يكثر فيه الحشو الغنائي ويقل العمل المسرحي الرئيسي. على أن الغناء في هذه المسرحية أكثر اتصالاً بالموضوع وبجاله ، من الغناء المجرد في مصرع كليوباترا ، ففي هذه المسرحية اتخذ وسيلة . ولو أنها واهية لإيقاظ قيس بينما يحتال عليه المؤلف في المسرحية الأولى فينشد الشاعر نشيد الخمر

ويجعل من كليوباترا شاعرة ينشد لها المغني نشيد « الحب والحياة » وتبدأ الحركة المسرحية من نهايته .

وفي الفصل الثالث يبلغ الركب حي ليلى ، ويبدأ بتشجيع ابن عوف لقيس الذي يوشك أن يغمى عليه . فيظهر المهدي الذي يلوم ابن عوف على توسطه لقيس . ويستهوي ابن عوف بعض أهل الحي إلى جانب قيس ، فبينما تسعى جماعة أخرى إلى الفتك بقيس يحول المهـدي دون ذلك ، ويبرز منازل خطيباً يريد أن يؤلب القوم عليه ، ثم يكشف بشر عن خبيئة نفسه ، وينتهي أمر منازل بمبارزة بينـه وبين زياد خلف المسرح يختفي بعدها منازل ويذكر شخص أن آخر سيصير زوج ليلى هو ورد ، وينتهي الفصل بتأكيد هذه الحادثة ، وهي زواج ليلى منه وانصراف ابن عوف فاشلاً حانقاً . وينصرف قيس وهو موشك على الجنون وينتهي الفصل بإظهار ليلى لندمها على شرعها في رفض الزواج بقيس .

وفي هذا الفصل تبرز الأزمة الكبرى ويتحرك الموضوع بعدها نحو المأساة . وهو مليء بالحركة وعناصر التشويق كما في اختلاف القوم في أمر قيس . وبه صراع حسي واضح بين منازل وزياد ، وصراع نفسي غامض في نفس ليلى في نهاية الفصل ، وحبذا لو كان أكثر منه المؤلف وقلل من الصراع الحسي الأول ، فالصراع النفسي أعمق أثراً وأجل قدراً من الصراع الخارجي المحسوس ، كما أن القضاء على منازل بهذه الصورة يبدو مفتعلاً إلى حد كبير فزياد في حيه ويشاركه في رأيه كثيرون ، ولا يبدو الموت عقاباً عادلاً له . على أن هذا المنظر لا نظير له في المسرحية الأولى كما سبق القول .

ويرتفع الستار في الفصل الرابع عن منظر من مناظر الجن بالقرب من ديار بني ثقيف ، وفي مقدمتهم الأموي شيطان قيس الذي يريد أن يحتفي بقدومه . والذي يخبر قومه بقصته ، ويقبل قيس ويحيط به الجن ، ويتحدث اليهم قيس الذي يقتنع بوجود شيطانه بعد أن كان ينكره ، ثم يسأله عن الطريق إلى ديار بني ثقيف فيدله عليها . هذا في المنظر الأول من الفصل . أما المنظر الثاني فيقبل فيه قيس الى دار ليلى ويلتقي مع زوجها الذي يمهد له لقاءه بها . ويلتقي قيس بليـلى ويغريها بالفرار معه فترفض رغم حبها له ، ورغم ما لاقت في سبيله فيثور عليها ويهجرها . ويشتد اليأس المكبوت في نفس ليلى ، ويقوى الصراع النفسي فيها فتسرع

إلى منيتها . وتحدث المأساة بعد هذا الفصل خلف الستار .

ويعيب هذا الفصل ظهور الشياطين قبل ظهور قيس . والشياطين شخصيات مسرحية رديئة إذا ظهرت بشكل قاطع ، فهي لا ترى في الحياة. وربما أمكن تعليل وجودها بعد ظهور قيس على أنها أوهام عقله السقيم . وقصتها مع سليمان في بداية الفصل حشو لا يلزم للموضوع الرئيسي وكان من الممكن اختصاره بحيث تبرز فيه ناحية الشر الذي يدفع قيس إلى إغراء ليلى ، ويوحي له بهجرها ، فيكون تمهيداً طريفاً لحوادث المنظر الثاني ومشيراً الى الكارثة المقبلة . ويبرز في نهاية الفصل نهاية الصراع في نفس ليلى ، ويلمح للكارثة بقوة لم تظهر في مصرع كليوباترة . وحبذا لو كان المؤلف تعمق في تصوير هذه النوازع الانسانية وجعلها محور تطور الموضوع .

وتحدث مأساة قيس في الفصل الخامس . فيظهر على المسرح قبر ليلى ، ومناظر العزاء . ثم ينصرف القوم ويقبل الغريض وابن سعيد وأمية وسعد ، وفيهم المغني والشاعر ، ويتحدثون حديثاً يبعث على التشاؤم بما يذكر من القبور والموتى . وينشد الغريض نشيد وادي الموت ثم ينصرفون ، ويقبل قيس وحده ، ويقابله بشر ويعزيه . ويفاجأ قيس بنبأ موت ليلى فيغمى عليه عند قبرها ، ويدخل في دور الاحتضار الأخير ، ويرثي نفسه وليلى ويسب شيطانه ويناجي ظبياً سارحاً ، ويظهر ابن ذريح ويرثي ليلى ثم يحتضر قيس ويموت.

وفي هذا الفصل، كما في فصل موت كليوباترة في المسرحية الأولى، يستجمع الشاعر مقدرته الغنائية ، ويعتمد على أدوات مسرحية خارجية ليحدث عن طريقها التوتر المسرحي المحزن ، ويثير في الجو روح المأساة . ولم يتقن المؤلف بعد التدرج إلى الكارثة ، عن طريق تحليل الشخصيات ، وتطورها النفسي الطبيعي نحوها ، وإنما صبغ الشعر بروحه . وقد كان من الممكن أن نلمس حدوث الكارثة لوجود عيب في نفس قيس تنفذ منه المأساة إليه لا أن تلقى تبعتها على الشيطان في نهاية المسرحية ، فيقول قيس له : —

إذهب وإن لم أدر   روح أنت أم شبح
كنت قرين السوء لي   وكنت شر من نصح
لولاك ما بحت بما   خدش ليلى وجرح

فعرض الموضوع في هذه المسرحية ، رغم الاسترسال الغنائي ، قد تقدم إلى حدّ كبير عنه في مصرع كليوباترا ، وتقسيم فصولها وحركتها وانسجامها ، فهي أقرب إلى المثل الأعلى من المسرحيـة الأولى ، على أنه لم يصور بعد التطوّر الدقيق لأزمة تتوتر وتحل عن طريق التحليل النفسي العميق للشخصيات ، بل إن بعض الشخصيـات قد صوِّر تصويراً لا يتفق والواقع العادي من الحياة ، وكلها لم تبلغ بعد التعقيد الفني والعمق الإنساني البعيـد ، ولم يزل الشعر رائد الشاعر الأول .

وأضرت الحوادث التي اقتبسها الشاعر من الأغاني والخاصـة بشخصية قيس والتي قامت على الـكثير من الإحالات . يقول الدكتور طه حسين عن حب قيس « يظهر هذا الحب دائماً بصور غير مألوفة ولا ملائمة للطبيعة البشرية ، حتى طبيعة العشاق المدلهين ، فلست أعرف عاشقاً أغمي عليه كما أغمي على قيس ابن الملوح ، ولست أعرف عاشقاً شهق وزفر كما شهق ابن الملوح وزفر . كان يكفي أن تتحدث إليه ليلى بحديث يشعره أنها تحبه ليسقط على وجهـه مغشيًّا عليـه . وكان يكفي أن يذكر له شيء عن ليلى يدل على أنها تحبه أو يدل على أنهـا تعرضت لمكروه ليسقط على وجهه مغشيًّا عليه ، وكان يقضي حياته كلها أو أكثرها ساقطاً على وجهه أو هائماً على وجهه . وقصة المجنون سخيفة ضعيفة مملوءة بالإحالة والمبالغة لا يستطيع الناس أن يؤمنوا بها أو يطمئنوا إليها مهما يكن حظهم من السذاجة . وكيف يريدني على أن أومن بهذا الخبر الذي يزعم أن المجنون وقف يتحدث إلى ليلى وفي يده نار فأخذت النار تحرق برده حتى أتت عليه ، ونالت من جسمه ، وهو لا يشعر ؟ ثم كيف تريد على أن أصدق أن هذا الرجل جنّ وانتهى به الجنون إلى أن يهيم على وجهه ويستأنس بالوحش »

والواقع أن شوقي قد أجهد نفسه في أن يجعل محور شخصية قيس عبقريته كشاعر يفتن الناس بشعره ، ويبدو قيس منسجماً حين تصير هذه العبقرية محور شخصيته ، على أنه لم يبرأ تماماً من نوبات الجنون واستحالات الأخبار التي أصابت شخصيته بالضـعف المسرحي ، وأخرجتها عن مألوف الحياة . وقيس ضعيف يبالغ في وصف ضعفه الشاعر ، ويفسد حين يوصف بالجنون ، فهو مهما نال منه العشق لا يضعف ضعفاً يدفعه إلى فعل ما نسبه إليه . وقد انتقد الرواة هـذه الصفات والحوادث التي رويت عن المصدر الأصلي ، واحتاط صاحب

الأغاني في إيرادها . وكان على شوقي أن يفكر مليًّا قبل إيرادها وجعلها محوراً لشخصية بطله . وكان من الممكن أن يكون العاشق في حدود العقل ، ويظهر بهذا المظهر في بداية المسرحية كما في قوله :

إذا طاف قلبي حولها جنّ شوقه   كذلك يطغى الغلة المنهل العذب

وقوله عن تداويه بقول الشعر :

فما أشرف الايفاع إلاّ صبابة   وما أنشد الأشعار إلاّ تداويا   (ص ٨)

وتمكن منه حب ليلى حتى رأى ملامحه فيما يرى من كائنات فيقول :

فمالي لا أحقق غير ليلى   وإن كثر السواد لدى حماها (ص ٥٢)

وكانت ليلى أسلم في تصويرها وأكثر انسجاماً من قيس من ناحية ، وكليوباترا من ناحية أخرى ، وقد اتخذ لها المؤلف صورة واضحة في ذهنه ، ولو أنه لم يتعمق في سبر أغوارها . على أنها اكتسبت ألواناً واضحة ، فهي فتاة بدوية موزعة بين إخلاصها لهواها وإخلاصها للتقاليد ، على أنها تنسى أحدهما حين تنغمس في الآخر ، فتنسى هواها حين تعطى الفرصة للفصل في أمرها . وتنسى التقاليد حين تخلو إلى قيس ولا تراها العيون . ومشكلتها واضحة في أقوالها للناس . فتقول لابن ذريح :

أنا بين اثنتين كلتاهما النـار لا تلحني ولكن أعني   (ص ١٤)
بين حرصي على قداسة عرضي   واحتفاظي بمن أحب وضني

وتقول لابن عوف عن قيس :

إنـه   منى القلب أو منتهى شغله
ولكن أترضى حجابي يزال   وتمشي الظنون على سدله ؟   (ص ٧٨)

وتستقر على حال بعد الأوان فتقول لقيس :

كلانا قيس مذبوح   قتيل الأب والأم
طعينان بسكين   من العادة والوهم

وتقول لنفسها :

أبقيس وبي هوى عبقري   يسلب العقل من ذويه ويردى
علة البيد من قديم وداء   ضاع فيه الرقى وحار المفدى

ما سلاحاه حين يقتل إلاً   من عفاف ومن وفاء بعهد   (ص ١٢)

على أنها تحيا أمامنا حين تتنازعها الدوافع المتضاربة ، ويبرز الصراع النفسي في داخلها ، وهو قليل في المسرحية كما في قولها :

رباه ماذا قلت ماذا كان من   ذنب الأمير الأريحي وهاني
في موقف كان ابن عوف محسناً   فيه وكنت قليـلة الإحسان
قالوا انظري ما تحكمين فليتني   أبصرت رهدي أو ملكت عناني
ما زلت أهذي بالوساوس ساعة   حتى قتلت اثنين بالهـذيان (ص ٨٢)

وعند ما يسير هذا الصراع إلى نهايته المحتومة تشير إليه بقولها :

قلبي من اليأس حين حل به   أحس يا ورد أنه انصدعا
المتمني بالعيش منتفع   ولن ترى يائساً به انتفعا
القدر اليوم والقضاء على   حربك قيس وحربي اجتمعا   (ص١٢٢)

والمهدي صورة أوفر حظاً من عناصر الإنسانية من البطلين . وتحيا فيه صورة البادية المتعددة الجوانب . وهو شيخ يمثل تقاليد البادية ويحافظ عليها ويقدرها ، وعنه ورثت ليلى صفاته ، على أن إنسانيته دائمة الظهور . فهو يحب قيساً رغماً عنه ويقول له وهو في غيبوبته :

أبا المهـدي عـوفيت   ويا بورك في عمـرك
أراني شعـرك الو   يل وما أروي سوى شعرك
كما لذَّ على الكـره   كلام الله المـشرك   (ص ٢٩)

وهو رؤوف بقيس يمنع عنه الأذى ويقول لقومه حين يريدون الفتك به : —

لا — دم قيس دمنا لا نقربه   يكفيه منا أننا نخيبـه
ونصرف الأمير عما يطلبه   (ص ٥٤)

ويقول في ذلك أيضاً : —

دم الود والقربى وإن كان ظالماً   عزيزٌ علينا أن نراه يسيل   (٧٣)

ويعطف على ابنته فيرد على ابن عوف حين يلومه على قسوته بابنته : —

أأظلم ليلى ؟ معاذ الحنان   متى جار شيخ على طفله   (٧١)

ويضحي بهذه التقاليد ويندم على تمسكه بها بعد أن تموت ليلى ويسبق السيف العذل .
ومنازل صورة لا بأس بها للمنافس ويكشف عن ذاتيته منذ البداية بقوله عن قيس : —

عدوي المبين وما بيننا ولا بين صاغيينا جفا
هام بليلى وهامت به لقد كنت أولى بهذا الهوى
وإني لأبدي إليه الوداد وأخفي له في الضلوع القلى (١٨)

ويستمر على هذه الصورة في المسرحية حتى يلقى حتفه ، محتفظاً بصفاته الرئيسية .

على أن تصوير الشخصيات ما زال بسيطاً ، تسير فيه الشخصيات العواطف الشائعة العامة ولا ينفذ المؤلف منها كثيراً إلى ما وراء سطحها وعناوينها ، ولم يسع إلى تحليل نوعي دقيق للشخصية . فلا نرى في قيس العاشق إنساناً خاصاً ، أو في ليلى إنسانة خاصة تميز كلاً بين أفراد النوع من عشاق البادية ، بل لا نرى فرقاً كبيراً بين هوى كليوباترا وهوى ليلى ولا تظهر في شخصياته تلك الخاصية التي نجدها في « روميو وجوليت » لشكسبير من حيث نوعية التشخيص والتحليل ، بحيث ننفذ إلى ما وراء النوع من فرد خاص فنلمس فيه كائناً حياً كالكائنات التي تعيش بيننا ، وتحتفظ بإنسانيتها في كل عصر . وأين قيس من روميو الشاب الخيالي الذي أحب في أول حياته لمجرد الفكرة ، حتى استقرت عواطفه فجأة حول جوليت ، الفتاة الساذجة التي تهوى فجأة ، وتحب حباً بسيطاً ساذجاً عنيفاً — ابن عدو بيتها — وأين تلك الصفة النوعية التي نجدها في باريس من منازل ، لقد شغل شوقي عن هذا العمق في التحليل والتعقيد الفني بالانصراف إلى الشعر ، غير مدرك لهذه الآفاق الواسعة البعيدة المدلول .

الحوار

وبينما حافظ شوقي على الصور الأصلية للحوادث التي اقتبسها من الأغاني وحافظ على بعض الشخصيات الرئيسية وصورها العامة ، حصر ابتكاره الرئيسي في التوجيه الغنائي للحوار ، وورد في المسرحية بعض شعر المجنون ، إمّا بأصله وإما مشطوراً ، وإمّا استوحى منها فاحتفظ بروحها وأعاد صياغتها . وما زالت الإجادة الغنائية مثله الأعلى ، وما زال محور مسرحه نظم الشعر على نظام القصيدة شكلاً ومادّة . بحيث لا يمكن التمييز بين ما ألفه شوقي

من حوار وما اقتبسه من شعر غنائي . فاللون الغنائي لون مسرحه بأجمعه . فمن صور الحوار التي اقتبسها الشاعر من الأغاني ما قاله قيس : —

أبى الله أن تبقى لحي بشاشة   فصبراً على ما شاءه الله لي صبرا
رأيت غزالاً يرتعي وسط روضة   فقلت أرى ليلى تراءت لنا ظهرا
فيا ظبي كل رغداً هنيئاً ولا تخف   فإنك لي جار ولا ترهب الدهرا
وعندي لكم حصن حصين وصارم   حسام إذا عملته أحسن الهبرا
فما راعني إلا وذئب قد انتحى   فأعلق في أحشائه الناب والظفرا
ففوقت سهمي في كتوم غمستها   فخالط سهمي مهجة الذئب والنحرا
فأذهب غيظي قتله وشفى جوى   بقلبي أن الحر قد يدرك الوترا

وورد في المسرحية على هذه الصورة في قول بشر عن قيس : —

رأيت غزالاً يرتعي وسط روضة   فقلت أرى ليلى تراءت لنا ظهرا
فقلت له يا ظبي لا تخش حادثاً   فإنك لي جار ولا ترهب الدهرا
فما راعني إلا وذئب قد انتحى   فأعلق في أحشائه الناب والظفرا
ففوقت سهمي في كتوم غمزتها   فخالط سهمي مهجة الذئب والنحرا

ومن صوره ما قاله المجنون لزوج ليلى يسأله عنها : —

بربك هل ضممت إليك ليلى   قبيل الصبح أو قبلت فاها
وهل رفت عليك قرون ليلى   رفيف الأقحوانة في نداها

وورد في قول قيس في الفصل الرابع من المسرحية بصورته الأصلية ، ومن ذلك أيضاً ما قاله قيس وورد في الأغاني والمسرحية قوله : —

وأجهشت للتوباد حين رأيته   وكبر للرحمن حين رآني
وأذريت دمع العين لما رأيته   ونادى بأعلى صوته فدعاني

ومما حوّر شوقي في صورته الأصلية ، أو استوحى منه شعراً ، ما ورد في الأغاني على هذه الصورة ، وهو من قول قيس : —

إذا ذكرت ليلى عقلت وراجعت عوازب قلبي من هوى متشعب

وقوله : —

وداع دعا إذ نحن بالخيف من منى فهيج أطراف الفؤاد وما يدري

دعا باسم ليلى غيرها فكأنما أطار بليلى طائراً كان في صدري

وورد في المسرحية في قول قيس : —

ليلى منادٍ دعا ليلى فخفَّ له نشوان في جنبات الصدر عربيد

ليلى انظروا البيد هل مادت بأهلها وهل ترنم في المزمار داود

إذا سمعت اسم ليلى ثبت من خبلي وثاب ما صرعت مني العناقيد (ص٢٤)

وما ورد في كتاب الأغاني في قول قيس يصف ليلاه : —

وعلقتها غراء ذات ذوائب ولم يبد للأتراب من ثديها حجم

صغيرين نرعى البهم يا ليت أننا إلى اليوم لم نكبر ولم تكبر البهم (١٢)

وورد في المسرحية على هذه الصورة ، كقول قيس يغري ليلاه بالهروب من زوجها :

أخذنا وأعطينا إذ البهم ترتعي وإذ نحن خلف البهم مستتران

ولم نك ندري يوم ذلك ما الهوى ولا ما يعود القلب من خفقان (١١٤)

وما ورد في الأغاني على هذه الصورة قول قيس في يائيته : —

أراني إذا صليت يممت نحوها بوجهي وإن كان المصلى ورائيا (٦٨)

وورد في قوله في المسرحية يصف هواه : —

إذا الناس شطر البيت ولوا وجوههم تلمست ركني بيتها في صلاتيا (٥٢)

وتبين هذه الشواهد الاتجاه الغنائي في الحوار في هذه المسرحية . وتمثل التصور المسرحي في إدارته ، كما تبين سبب البساطة في تحليل الشخصيات والبطء في تحريك الموضوع ، وتبين المثل الأعلى الذي سعى شوقي إلى بلوغه ، وهو التأثير عن طريق الشعر الذي يخاطب العاطفة ، ويطرب بما يتشبع به من صفات موسيقية .

على أن الحوار قد زاد في المرونة في هذه المسرحية ، ولئن عثرنا في مواضع متفرقة على استرسال في إنشاد الشعر ، يبرره حيناً تنفيس قيس به عما يجول بنفسه ، وما يشعر به من

حزن أو وجد أو يأس ، ولا يبرره حيناً إلاّ ارضاء الجمهور الذي يحب سماع الأغاني كما في الأناشيد التي تنشد لذاتهـا فتكون حشواً مسرحيًـا ، إلاّ أنه بشكل عام قد أتى أكثر اتصالاً بمواقف الموضوع، وتطور حوادثه ، وأتى قصير البحور والأوزان ، قليل الأبيات في الحوار الواحد ، ويحتال على العيوب الغنائية بالغناء بدلاً من الإنشاد .

ولا عجب أن بقيت هذه المسرحية من بين مسرحيات شوقي تمثل حتى اليوم . فموضوعها إنساني ، متصل بتاريخ العرب ، وشخصياتها بدوية طريفة ، وشعرها يستهوي النفوس، ولو لم تبلغ بعد عمقاً في التحليل واتساعاً في لوحة التصوير ، والتعقيد في سبك الحوار ، وادارة الحركة المسرحية في شكل أزمة واضحة تتطور نحو المأساة من داخل نفسيات المسرحية. فقد شغل عنها شوقي — على ضرورتها المسرحية — بالحوار وإنشاد الشعر الذي يتصل بالشخصيات ، وإنما تكون الشخصيات والحوادث وسيلة إليه ، وبلغ التوفيق بين هذه العناصر المسرحية والأدبية غايته في مآسي شوقي في هذه المسرحية .

على أنه لا يجب المبالغة في تقدير قيمتها ، فما زالت مسرحية العشاق التي كتبها شكسبير ، والحوائل التي سببت حدوث هذه المأساة، تضع أمامنا صورة لما قد ترتفع إليه مسرحية تمثل هذا الجانب من الحياة . وقد كان شوقي شاعراً غنائيًـا انتقل إلى المسرح ، وكان شكسبير ممثلاً اتصل بالمسرح من بداية حياته . ووفق كل منهما بقدر ما هيئت له ظروف الحياة من نجاح .

على أنه من الواضح أن هذه المسرحية تقدمت في منهجها الفني تقدماً كبيراً على منهج مصرع كليوباترا . وإننا لنعثر فيها على مناظر يكثر بها الاستطراد الغنائي ،وأغلبها في الفصل الثاني من كل مسرحية ، كما نعثر على حشو لا يضير المسرحية حذفه ، كمنظر قيس والجن في بداية الفصل الرابع . والمنظر الذي يتحدّث فيه قيس مع شيطانه في نهاية الفصل الخامس ، والجزء الذي يلتقي فيه مع عفراء ويدور الحديث حول الذبيحة . وبذلك يتطوّر الموضوع تطوّراً سائغاً لا حشو فيه . ويمكننا حينئذٍ أن نلمس بين المناظر صلة ، وفي الحركة سرعة، دون أن تفقد المأساة كثيراً من قيمتها .

وينبغي أن نشير إلى مناظر مسرحيـة تتجمع وتتفرّق في ثنايا المسرحية ، وهي مناظر

قوية التأثير لمداولها الإنساني الدائم ، وتكثر عند لقاء قيس بليلى ، إذ يجتمع فيها — إلى قوة الشعر والموسيقى قوة العاطفة المتقدة ، وإدراك الجمهور للحائل بين قيس وليلى ، فيصبغ على هذا اللقاء صورة حزينة ، ومثل هذا المنظر منظر متكرر أيضاً حين يلتقي قيس بليلى في ديار بني ثقيف ، وينكشف القناع عن قلبيهما فيفصحان عما يجدان ، وما زال الجمهور يشعر أيضاً بالحائل بين الشخصيتين ، ويزيد التوتر نظراً لخطورة هذا اللقاء في المجال العدائي الذي توجد فيه الشخصيتان .

وتبدو في هذه المسرحية أولى بوادر شعور شوقي بلوازم التأثير المسرحي ، وأحسن الطرق إلى الوصول إلى نفوس الجمهور . تدل على ذلك مناظر الصراع من نفسي داخلي وحسي خارجي . وتكثر مناظر الصراع النفسي في نفس ليلي وقيس ، وتزيد من حيويتهما حين تصطدم في نفسيهما الأهواء ، كما تفعل ليلى حين تخير بين قيس أو ورد ، فتختار ورداً مطيعة صوت عقلها ، ثم تندم ، ثم ينبعث صوت قلبها المكبوت بعد ذلك فتنفث ألمها في تصوير صراع ما زال في أولى صوره الفنية ، وسنرى تطوّره فيما بعد في آمال وسنلمسه أيضاً في نفس ليلى حين يهجرها قيس في نهاية الفصل الرابع غاضباً فينتهي بها الصراع إلى غايته المحتومة وهي الموت .

ونرى صوراً من الصراع الحسي عند ظهور منازل ، وكشفه عن خبيئة نفسه ، ونرى استمراراً لهذا النزاع مع امتزاجه بتهكم مسرحي لجهل قيس به ، حتى يبلغ غايته في الفصل الثاني ، حين يجاهر منازل به ويلقى حتفه نتيجة له . وسنرى صوراً لهذين النوعين من الصراع في مسرحية شوقي التالية ، وهي قمبيز ، بعد أن مهد لها المؤلف في هذه المسرحية . وسنرى صورة له في مسرحية شوقي التالية وهي علي بك الكبير . لا سيما في المناظر التي يجتمع فيها مراد وآمال .

ولكن هل غير شوقي نواة مسرحه ؟ وهل صار الحوار نتيجة للتعبير عما يجول في نفوس الشخصيات ، أم لا يزال يدفعها ويجرها إلى نهاياتها ؟ أغلب الظن إن الشعر ما زال رائد شوقي الأول . وإنما سعى إلى توفير شخصيات ذات ملامح عامة لم يسم إلى تفصيلها ، والتعمق في تحليلها ، وما زالت غايته الشعر الجيد الأخاذ ، ولم يحكم شوقي توضيح الأزمة ومفاجأة الجمهور بها بعد أن تتطور تطوراً نفسيًّا دقيقاً .

على أنه قد اتجه الى ذلك في هذه المسرحية التي فاجأ فيها بشر قيساً بخبر موت ليلى ، ثم تعجل موت قيس بعد ذلك بعض التعجل .

الفصل الرابع

قمبيز

لم يكن حظ هذه المسرحية من النجاح والتوفيق في التأليف والاخراج ما بلغت من ذلك المسرحيتان الأولى والثانية . فقد أنقذ المسرحية الأولى ، وهي مصرع كليوباترا — على عيوبها — الأناشيد الغنائية والشهرة التاريخية ، والموضوع ، وبعض المناظر التي تدور حول مقابلات العشاق وأحاديث العواطف ، ونجحت المسرحية الثانية لاندماج العناصر الغنائية في الموضوع المسرحي إلى حدٍّ كبير ، وتطور الموضوع تطوراً فاق تطور الموضوع الأول من الناحية المسرحية .

بينما ظهرت أماكن الضعف في منهج شوقي في هذه المسرحية ، وأفلت من يده زمام الموّضوع ، فاضطربت المناظر والفصول واختلطت الشخصيات وكثر الحشو في المناظر والحوار وتفكك الموضوع ، وانعدمت الصلة بين أجزاء كثيرة من الحوار ، واتسم بصفة النظم الغنائي ، وانعدمت الصفة المسرحية إلى حدٍّ كبير ، رغم استعانة الشاعر برجال المسرح والمخرجين على إصلاح عيوبها — وترجع أهم أسباب هذا الاضطراب في المسرحية إلى اختيار الموضوع أصلا ، فشوقي يحتال احتيالاً على تصوير مأساة قمبيز حيث يدير فيها دفة الحوادث من انتصاره لانتحاره . فيحدث في سبيل ذلك التواء في الحوار ، وانعدام في التطور المنطقي والسيكولوجي بين أجزاء الموضوع وبين الشخصيات .

وأكثر فصول المسرحية اضطراباً هو الفصل الأول . إذ يعلن فيه خطبة قمبيز لابنة فرعون ، وتتقدم نيتيتاس لتفدي بنفسها بلادها ، وترضى بالزواج على أنها ابنة فرعون لتدفع عن مصر شر العجم . هذا في المنظر الأول . أما في المنظر الثاني فيبارك رجال قمبيز الخطبة ، وفي المنظر الثالث يرى رجال وفد قمبيز في مصر الترف والضعف ويتحدثون عن آثار

مصر ، ثم يحتفي بهم رجال فرعون ، وتكشف لنا نيتيتاس عن دافع آخر يدفعها للتضحية بنفسها ، وهو حبها اليائس لتاسو والتماسها في هذا الزواج مهرباً .

يتخلل هذا المرض العام ما يشتت انتباه الجمهور عن متابعة الشخصية الرئيسية والموضوع الرئيسي ، فيرى أمامه في المنظر الأول نفريت ونتيتاس وتاسو وفرعون ، ثم يعرض أمامه في المنظر الثاني مجموعة أخرى من الشخصيات ، ويعرض أمامه مناظر مختلفة للرقص والغناء ويكثر فيها الحديث عن الطعام ، ووصف الآثار المصرية وسحرها ، وغير ذلك من أحاديث جانبية تطغى على تطوّر الموضوع الرئيسي ، فالمؤلف قد استرسل في تحليل البيئة الخارجية ونسي شخصيته الرئيسية ونرى في ذلك عيباً وهو الشاعر الغنائي الذي يرى في الشعر غاية ، ويضحى في سبيله بمطالب المسرح الرفيعة الأخرى من تحليل نفسي يكون فيه الشعر وسيلة ، ولا بدّ من إزالة ما في هـذه المناظر الثلاثة من حشو حتى يستقيم الموضوع ، وتتضح فيه بوادر الأزمة ، ويقتصر الحوار على إظهار رفض ابنة فرعون الذهاب إلى فارس ، وعزم نتيتاس على إفتداء وطنها بنفسها ، ورفعه فوق ما بينها وبين تاسو ، فذلك يقلل من قيمتها الوطنية ، ويحط من شأن تضحيتها بنفسها ، ويحذف ما شغل به شوقي مادة فصله الثاني من حشو غنائي وموسيقى ورقص ، فهو لا يساعد على تطور الحركة المسرحية بشكل مرض .

ونرى نتيتاس في الفصل الثاني في قصر قمبيز في مدينـة سوس الفارسية ، تستعيد في بدايته الملـكة حبها لتاسو ، ثم تسرد حلماً يمهد لدخول فانيس ويبين عزمه على خيانة مصر ، ويدخل قمبيز وقد اكتشف حقيقة الملـكة ، ويجابه قمبيز الملـكة بفانيس ، فتتحول من الانكار إلى محاولة منعه عن غزو مصر ، بالوعيد تارةً وبالرجاء تارةً أخرى . ويدخل رسول يعلن موت أمازيس فرعوناً القديم ، وتولية ابسماتيك مكانه . وبذلك صار الغزو أمراً واقعاً لامفر منه .

ليت الأحداث والحوار ارتبطا بهذا التطور المباشر للأمور ولم يتخلله استرسال وحشو قصد به الإسهاب والتطويل والإطناب حيث مست الحاجة إلى الايجاز والتركيز . وقد كان من الأصلح لنيتيتاس أن تصير شخصيتهـا محورها الوطن وفدائه ، ويحذف الجزء الذي تستعيد فيه حبها لتاسو فهو مفتعل مصطنع ، وضار أكثر منه نافع ، إذ يقلل من قدر

التضحية في أعيننا . ولعله من الأصلح كذلك حذف الحشو الذي يدور حول ألوان الطعام والشراب الذي تناولته الملكة ، وهو غير لائق بشخصيتها ومكانتها ، ولا يناسب المقام الذي يدور فيه . وبذلك يتطور الموضوع الرئيسي وتتجلى أزمته .

ويعرض في بداية الفصل الثالث من المسرحية مناظر متعاقبة مفككة عن الموت ، تفرض فرضاً من الخارج على الشخصية والتاريخ والموضوع إرضاءً لعواطف المؤلف الوطنية وعواطف الجمهور ، ولإنهاء المسرحية بطريقة ما ، رغم قصرها عن بلوغ الغاية الفنية الرفيعة . وفي المنظر الأول تلقي نفريت بنفسها في النيل نادمة على أنانيتها القديمة ، وفي المنظر الثاني يتحاور بعض الفتية العابثين مع عجوز لعوب ، ويتحدثون عن ظلم جند الفرس للمصريين بعد الفتح ، واغتصابهم للممتلكات وانتهاكهم للحرمات . ثم يظهر قمبيز ويحضر أمامه أسرى النوبة ، ويفك وثاقهم فيرقصون له ويغنون ، فيوزع عليهم الهدايا . ثم يؤتى أمامه بفرعون مكبلاً ، ويدور بينه وبين فرعون حوار يكشف عن شجاعة فرعون ، ويثور قمبيز بالتدريج فيأمر بقتل فرعون ، ويحضر تاسو أمامه وتدخل نيتيتاس فتعجب بانقلاب تاسو الى بطل وطني . ويفرح تاسو حين يسمع ذلك ، ويأمر قمبيز بقتله ويطعن فانيس بعد ذلك بخنجره ، ويتبعه بقتل شيخ فارس سأله التأني ، ويأمر باحضار أبيس ، ويثور لرؤيته ، ويطعنه بخنجره أيضاً ، ثم يبلغ جنونه ذروته فترقص أمامه أشباح قتلاه ويختلط عليه الأمر فيطعن نفسه ويموت ، ويندب أهل فارس قمبيز . ويندب كهنة مصر آبيس .

وعيوب هذا الفصل هو اعتماده في التأثير على سلسلة الأحداث المثيرة التي تملأ المسرح بالقتلى ، دون اتصالها اتصالاً منطقيًّا بالتطور النفسي للشخصيات والحوادث في بداية المسرحية . فكيف تطورت نفريت وتاسو من الأنانية إلى حب الوطن ؟ وكيف ظهر فرعون الجديد أبيًّا ؟ — لا توجد حلقات هذا التطور ، ولعله من الخير أن يحذف حديث قمبيز عن نيتيتاس واستنجاده بها فهو مفتعل وقمبيز في نشوة جنونه .

وقد أحدث هذا الاضطراب في الموضوع اضطراباً في الشخصيات والحوار تناقضاً في الأفعال والأقوال . فنيتيتاس الوطنية المخلصة في بداية المسرحية تقول عن قمبيز :

صدقت تتا هو زين الشباب إله القنا قمر الغيهب

إذا غلبت في القتال الملوك وفي السلم عزّ فلم يغلب
يسيطر كالشمس سلطانه على مشرق الأرض والمغرب
ولكن متى ياتنا دلهت بنات الفراعين بالأجنبي (ص ١٩٩)

كيف ينسجم هذا الحوار مع قولها عنه « نمر الفرس الخشن » (ص ٥٣) . وقوله هو عن نفسه « أنا وحش أنا غول » (ص ٨٨) ؟

وكيف يدور بين الملكة والوصيفة حوار عن الطعام بعد أن يفزعها حلمٌ تقصُّه على خادمتها ؟ — تقول الوصيفة بعد أن تقص الملكة حلمها الرهيب :

رؤياكِ يا سيدتي من نفسها مؤوَّله
نالتك من عشاء أمس ثقلة وبيله
فتقول الملكة : ماذا أكلت مع قمبيز وما قدم له ؟
الوصيفة : كان العشاء ملكتي مائدة محمله (ص ٦٣)

وتصف ألواناً من الطعام لا يصح أن تثير فضول ابنة فرعون ، فقد ذاقت مثله وأشهى منه ، مما ورد وصفه في بداية المسرحية . ثم إنها قد شهدته وأكلت منه ، ومن المستبعد أن يطيب لها الاستماع إليه وهي مشغولة البال بحلمها الرهيب .

وكيف يتفق عزم نيتيتاس على التضحية بنفسها في سبيل وطنها في بداية المسرحية ، لتدفع عن مصر شر العجم ، كما في قولها لفرعون وابنته : —

أتيت أفدي بنفسي البلاد وأدفع عن مصر شر العجم
فإنكِ أن ترفضي يزحفوا كزحف الذئاب ونحن الغنم (ص ٥)

وتذكر في بداية الفصل لنفريت : —

آمون قد مدَّ إليك وإلى الوادي يده
وقد كفى مصر البلاء والخطوب المرعده
وكفى من ربوعنا نار المجوس الموقده (ص ٤)

ثم تتنبأ بعد ذلك في نهاية الفصل بالغزو كأنه حقيقة آتية لا ريب فيها فتقول : —

أفيقي بنت فرعون فما يزهو بك السكر

غداً تذرو رياح الفر س من موتاك ما تذرو
غداً يصبغ من شط الشط بالدم النهر
غداً يهتك عن أربا بك المحراب والستر
فما تاسو وفتيان كتاسو في الحمى كثر
هم النحل وإن هابوا لقائي وأنا الزهر (ص ٥٠)

ويظهر هذا التناقض أيضاً في أقوال الوفد الفارسي ، فيقول أحدهم في بداية المسرحية عن خطبة بنت فرعون لقمبيز : —

خطبنا إليهم أمس بنت مليكهم فما كان إلاّ الاحتقار جواب
وأشفق أهلوها وقالوا حمامة دعاها إلى الوكر السحيق غراب (ص١٤)

ويدور بين رجال الوفد الحوار الآتي : —

الأول : أعلمتم ما ذا يردد في القصر ؟ وماذا يقال همساً ووحيا ؟
الآخر : أهازل أنت ؟ .
الأول : بل سمعت حديثاً إن يكن مفترى فماذا عليا
آخر : إنه يهذي دعوه كاذبٌ لا تسمعوه
آخر : ما الذي زخرف
الثاني : . . . . ألقت كذبة الأجيال فوه
يزعم الملكة نفريت إبنة الملك أمازس
ترفض السير مع الو فد إلى أقطار فارس (ص ١٧)
آخر : ما خطبه ما يدعي امض بنا لا تسمع
آخر : يقول فرعون مصرا لم يرض قمبيز صهرا
الثاني : من أمازيس ما الأميرة ما مصر؟ أي الأرض من بقمبيز يهزا
أهذا خبر يروى ؟ غبيٌّ أنت والله
أتحت القبة الزرقا ء من يسخر بالله

وكيف يتنبأ رجال الوفد في بداية المسرحية بالغزو المقبل ، الذي يبنى سببه على اكتشاف قمبيز لحقيقة نيتيتاس ويقولون في بداية المسرحية : —

أحدهم : فما أنت سوى جنة هي الخلد وطيفه في الخلد
يهب عليها غداً عاصف من الفرس أنى تمشي حصد
ثالث : صدقت أخا الفرس قلت الصواب غداً يعصف الفرس أو بعد غد (ص١٧)

وهل يتفق الحوار الذي يدور بين أتباع قمبيز وموقف يثور فيه قمبيز ويفتك بمن حوله ولا يطمئن أحد منهم على حياته؟ويدور موضوع هذا الحديث عن الضمير بين اثنين : —

رستم : وأين منزلة الضمير ؟ .
حيدر : . . . . موضع من الجسد
أنظر هنا يا رستم القلب وها هنا الكبد
وها هنا الضمير بين القلب والكبد عقد
رستم: هنا الدجاج والحمام ها هنا بلا عدد
حيدر : والبط والإوز والحمام والدند
وكل ما تسرق أو تخطف من هذا البلد

فهذه الأحاديث لا تتفق والمواقف التي تقال فيها ، وتسبب تضارباً في الشخصيات التي تفوه بها ، إذا أضفنا إلى ذلك تصوير شوقي لفرعون كغاصب للعرش بشكل لا يناسب كرامة الملوك، وتصويره لابنته بصورة الفتاة الآنيّة ، وتاسو بصورة الغبي المضيع الوفاء في بداية المسرحية، وتغييرهُ لهذه الصور في نهاياتها حتى تتمشى وميوله كشاعر بلاطي شكلاً لا روحاً، وتصويره لأفراد الشعب بهذه الصورة الهازلة ، أمكننا إدراك بعض أسباب سقوط هذه المسرحية بعد تمثيلها لأول مرة ، وأمكننا إدراك دوافع النقد العنيف الذي قوبلت به من النقاد المعاصرين، وقد انصب معظمه على تصوير عيوب المسرحية من الناحية الأدبية والقومية.

فأخذ عليه الأستاذ عباس محمود العقاد مآخذ أدبية هي اضطراب النظم في فم الممثل الواحد في الموقف الواحد ، والتصرف في وزن أسماء الأعلام ، والتجاوز في الفصل والوصل والهمز، والتحقيق والمقصور والممدود . هذا من الناحية الأدبية . أما من الناحية التاريخية فقد أخذ عليه في شيء من العنف غير قليل ، الخروج على بعض حوادث التاريخ ، وسوء تصوير حياة أهل مصر القديمة (قمبيز في الميزان ص ١٦) .

أما عن العيوب الأدبية فمن السهل الاعتذار لها بأنها ليست عيوباً بالمعنى الدقيق ،

إذ يتمسك الناقد بالشكل في صياغة الحوار دون جوهره . وليس من الخطأ أن يتلوّن الحوار تبعاً لتغير العواطف الجياشة في نفس الشخصية ، بل إننا نلوم شوقي في مسرحياته الأولى على تمسكه ببحر واحد ووزن وقافية واحدة ، في حوار طويل المدى ، يتمم التحليل عواطف متباينة متعاقبة ، على أن يبحث عن وسيلة تكسب هذا التغير في الشكل وحدة في الجوهر العام ، فالحوار في المسرحية وسيلة لا غاية : وسيلة إلى التعبير عما في نفس الشخصية ، ونريد بها أن تكون وسيلة مرنة طيعة لا جافة صلبة . وحبذا لو لم يقتصر شوقي على ذلك في تلك الأسطر القليلة التي أحصاها عليه الناقد ، واتخذها أسلوب مسرحه عامة مع تهذيبها ومحاولة اتخاذ البحر وحدة الحوار دون القافيـة ، مقارباً بذلك الشعر المرسل في الأدب المسرحي الغربي ، وربما أدى ذلك إلى التخفيف من وطأة النزعة الغنائية وإلى توجيه مسرحه في اتجاهه الصحيح .

وأما عن تغير صور أسماء الأعلام والقصر والمد فلا لوم على كاتب يفعل ذلك لضرورة فنية . فاللغة وسيلة تتكيف للضرورات الفنية الشعرية بشكل لا يؤدي بها إلى الإبهام .

اما عن الخروج على حوادث التاريخ العـام ، فقد ذكر أن الشاعر غير مقيـد بتفاصيل التـاريخ ، وإنما مطالب بتحقيق روحه العامّـة ، ويبتكر في حـدود الحوادث البارزة من الحوادث الأخرى والشخصيات ما يساعده على إبرازها في صورة فنية خاصة . ومقياسنا فيما يذهب إليه من تحليل وتعليل هو الصدق المساير لمنطق الحوادث والطبيعة البشرية واحتمالات سلوكها ، ورائدنا ورائده في ذلك القلب البشري الذي يتدسس إلى جوانبـه ويحلل نوازعه ويؤلف منها وحدة منسجمة حية . فالفن فن لأنه لا يقلد الطبيعة تقليـداً حرفيّـا ، وإنما يبرزها في صورة فنية بها من الابتداع والخيال أشياء غير قليلة ، وإنما يخضع خياله لمنطق الحياة في صورها وأشكالهـا ، بحيث تبرز لنا الصورة الفنية وكأنها قطعة من الحيـاة نقية مصفاة من الشوائب .

وإذا طبقنا هذا الكلام على الحوادث التاريخية والمسرحية في قمبيز ، تجاوزنا عن الكثير مما أحصاه الناقد في أخطاء المسرحيـة ، على أننا نأخذ على المؤلف الافتعال في إيراد صور الانتحار في نهاية المسرحية، فهي صور تبدو غير طبيعيـة أمام الجمهور المسرحي . كما نأخذ

عليه عجزه عن تفهم حياة الشعب التي لم يتقن معرفتها وصورها . ونتفق مع الناقد في قصور الشاعر عن إبراز نواحٍ وطنية قوميــة كانت بين سمعه وبصره فيما لديه من حقائق تاريخية . فلم يؤيد التاريخ ، ولم يستلزم خروجه عليه ضرورة مسرحيــة فنية ، ولم يسع إلى ذلك وهو يبرز صوراً وطنية قومية ، بل إن ما نسبه شوقي إلى مصر وأهلها من فرعون وابنته وشعبه وحاشيته هو صفات الضعف والليونة ، ولم يكن المرتزقة من الجنود اليونانية في جيش مصر فقط ، وليست هي سبب الهزيمة ، وإنما كانت في جيوش الفرس أيضاً . ولم تكن مصر ضعيفة كما صوّرها شوقي ، وإنما يذكر التاريخ ، ويذكر الأستاذ العقاد ناقد شوقي ، أن دارا أراد غزوها فأحجم عن ذلك لقوتها ورغم انضمامهـا لأعدائه وحين أراد قمبيز ذلك أعد لغزوها عدة عظيمة ، فجعل لـكل فارس مصري ستة من فرسانه ، وأتى بأسطوله ومشاته . على أنه احتال رغم ذلك في دخول مصر ، فوضع في مقدمة جيشه ما قدسه المصريون القدماء من حيوانات . ولم يصبر المصريون على حكمه بعـد الفتح وإنما قاموا بثورات عديدة وكافحوا الفرس طويلاً حتى استقلوا . بل حضر دارا الأول بعد قمبيز إلى مصر وسعى إلى التقرب منهم وقتل واليه لغلظته ، وبنى معبداً لآمون ، واشترك في موكب الحزن على أبيس هذا من ناحية وطنية المصريين .

أما من ناحية الشخصيات الوطنيــة فقد فاض تاريخ القدماء لأحس المصري بالملح التي اشتهر بها أهل مصر والفكاهة التي وصفوا بها . ولم يقتل وهاب رع ولم يكن ساقيه . ومن السهل معرفة سبب تهاون شوقي في إبراز هذه الصور ، إذ لم يحس الوطنية المصرية بشكل قوي يجعله يرى المصري الخالد الدائم في كل العصور .

وكان من الممكن معالجة أمر قمبيز وجعله نواة جيدة للمسرح لا بهـذه الصورة المزرية المجنونة التي تتصرف على المسرح تصرفاً شاذاً غير متوقع ، عن طريق تحليل أقره التـاريخ وأشار إليه الناقد لشوقي وهو إدمانه على تناول الخمر . وعن طريق هذا الإدمان يمكن تعليل نوبات الصرع والجنون التي انتابتــه ، حتى إنه قتل ساقيه ليثبت لقومه أن يده لم تصبهـا الرعشة بعد .

ولم يثبت ثبوتاً قاطعاً إلقاء المصريين لعروس حية في النيل ، فقد أنكر هيرودوت ذلك

وأشار أن المصريين رمزوا إلى ذلك بتماثيل من الطين ، ووجدت أمثالها في مقابرهم ومدافنهم وكان حريًّا به أن يدافع عن تلك الخرافة لا أن تقرن نتيتاس تضحيتها بها ، وكأنه أضرّ من حيث أراد أن ينفع .

* * *

على أنه لا ينكر أن المؤلف قد أنفق جهداً كبيراً في تأليف هذه المسرحيـة فهي أول مسرحية يؤلفها ويعتمد فيها على التاريخ وحده ، ويستقل بنفسه إلى حدّ كبير وبينما كانت أمامه مسرحية لشكسبير استوحى منها في مسرحية مصرع كليوباترة في المناظر والشخصيات والألوان العامة، وبينما كان أمامه كتاب الأغاني ونظم المجنون فيه يستعين به على سبك تطور الحوادث وتأليف الحوار وإدارته ، اعتمد في هذه المسرحيـة على ما اكتسب من خبرة في المسرحيتين الأولى والثانية ، وما اكتسب من خبرة بعد اتصاله بالتمثيل والممثلين والمخرجين فأتت المسرحية في ثلاثة فصول كثر فيها الحشو والاستطراد واختلط الحوار واختلطت الشخصيـات في أماكن شتى ، وحاول الشاعر إبراز صورة ترضي الشعور القومي فأخفق ، إلاّ أننا نلمس في ثنايا تلك العيوب بعض محاسن وتقدماً في أسلوب تأليف الشاعر ، وخطوة تبين تكيفه بالمسرح ، وبداية شعوره بلوازمه ومقتضياته الخاصّـة ، فبين هـذه الصور المضطربة مناظر منتظمة متفرقة تقوم على الصراع النفسي أو الصراع بين الشخصيات ، وترتفع إلى درجة ما من السمو ، ويدور فيها الحوار كما يدور حوار مسرحي سريع متشبع بالحركة .

ومن ذلك صور الصراع بين نتيتاس وقمبيز في فارس . فهي متقدمة تقدماً ملحوظاً على صور الصراع في مجنون ليلى بين منازل وزياد، وتتصف بصفة طبيعية ميزت الصراع بين ليلى وابن عوف ، وهو صراع يجمع بين الصفة الحسية والعقلية ، بين صراع الجسم وصراع العقل . ويتسم بسمة حزينة تجعله أعمق في النفس أثراً مما يتعلق به من نتائج تتصل بالمأساة الأصلية . ومن ذلك أيضاً صورة الصراع بين قمبيز وفرعون وهو صراع عقلي يجذب انتباه الجمهور ويتصل بنفسه ويعمق فيه تأثيره . ففيه صراع بين القوة الظافرة

والكبرياء المهزومة . وهي صورة لا تخرج على ما اتصف به فراعنة مصر من كبرياء واعتزاز بالنفس :

كما أن المفاجأة الأخيرة في المأساة تمثل تمثيلاً مسرحيًا ، ولا تلخص تلخيصاً ، أو توصف وصفاً فنلمس تطور قمبيز — رغم خشونة وصف هذا التطور — نحو المأساة ، ولا نكتفي بسماع الشعر ، وإنما نرى صوراً لنفوس إنسانية تتصل بنفوسنا على المسرح ، وتلك خطوة كبرى في تقدم فن شوقي المسرحي . وقد مهد لها في مجنون ليلى بوصف التطور النفسي الذي طرأ على ليلى في المسرحية السابقة حتى وصل بها الصراع إلى تحطيم نفسها . دون أن نرى أو نلمس ما يحدث بين الفصول من أحداث هامة ، يجب أن تمثل أمام الجمهور وذلك صميم الفن المسرحي .

* * *

ويجدر بنا أن نشير إلى الجانب الفكاهي في مسرحية شوقي فقد قام معظمه في مصرع كليوباترا على فكاهة لفظية تدور بطريقة مصطنعة بين شخصيات محترفة ، مثل أنشو المضحك ، وزينون العجوز ، وقام معظمه أيضاً في مجنون ليلى على قصص يدور بين ابن ذريح وبشر حول أخبار قيس . ويبرز الجانب الفكاهي في هذه المسرحية من طبيعة الشخصيات بصورة ضعيفة . فتثور الفكاهة بين الفتية والعجوز . فالعجوز تحاول إغراء الفتية بجمالها وتزعم محاولة بعض الناس إغراءها ، ووصفها بما ليس فيها ، والفتية يعابثونها ويسخرون منها . تلك صورة نراها حولنا وتتكرر كل زمن ، وهي في هذه المسرحية بصيص من فكاهة الشخصية ستستكمل صورتها وتبلغ غايتها في المسرحية الأخيرة وهي «الست هدى» .

وهذه المسرحية تمثل مرحلة الانتقال من طور إلى طور في فن شوقي الذي لم يؤت فسحة من الوقت للتطور الواسع . وتقف هذه المسرحية بين مسرحياته الأولى التي وضحت فيها السمات الغنائية وضوحاً أفسد الشخصيات وتطور الموضوع المسرحي ، بحيث يختفي ، ما يجب أن يمثل على المسرح وراء الستار، وينشد على المسرح ما كان يجب أن يختفي ، وبين مسرحياته التالية التي يبرز فيها الحركة المسرحية على المسرح فتمثل الحوادث تمثيلاً ، ولا يكتفي بوصفها وإنشادها ، وتحيا فيها الشخصيات إلى حد كبير ، فنحس في نفوسنا عواطف

ونوازع نفسها حية تتردد في جوانبها الآمال والآلام وتصطدم بينها الأهواء ، وتبرز فيها صفات البيئة ، وتمتاز بها أمزجة خاصة .

* * *

ولكن هل تخلص شوقي في النهـاية من شيطان الغناء ؟ لقد بقيت رواسبه في هذه المسرحية : فما زالت عنايته بالنظم رائده الأول ، وغايته الأخيرة ، ولا نرى في الشخصيات عمقاً نفسيـًّا ، وليس الحوار وسـيلة للتعبير عن العواطف الدقيقة للنفس البشرية ، وإنما اكتفى شوقي في ذلك بوصفهـا بأوصاف عامة وعناوين عريضـة في شعر خلاّب مفعم بالاستطراد الغنـائي ، ولم يتعمق شوقي كثيراً في داخل هـذه النفوس وإلى ما وراء هذه العناوين .

وبينما اتـكأ فيهـا في بعض المواضـع على مواقف طرقهـا في مسرحياته السابقـة كمواقف العشاق ، كتاسو ونفريت ، وتاسو ونيتيتاس ، بعد أن جرّب ذلك بين كليوباترا وأنطونيو ، وحابي وديلانه في المسرحيـة الأولى بصورة بدائية ، ثم توسع في مسرحيته التالية ، فأفاض في وصف المواقف الغرامية بين قيس وليلى ، وصارت وحدة التأثير في مسرحيته . وسنرى في هذه المسرحية بوادر جديدة للتأثير المسرحي في مسرح شوقي ونواحي أكثر جودة من الناحية الفنية ، تبرز بسهولة طبيعية ، وهي ازدواج الصراع النفسي مع الصراع الحسي ، وشيوع النوع الأول ، واتقـان المفاجأة والتهكم المسرحي والتطوّر المنطقي والنفسي للحوادث ، وسنرى هذه المناظر في « علي بك الـكبير » و « عنترة » على أن في هذه التجربة الحاضرة بوادر تصوير مثل هذه المناظر ، ففي موت قمبيز مفاجأة غير طبيعية التطوّر سنراها أكثر اتقاناً في نهاية علي بك الـكبير » و « عنترة » . وفي « قمبيز » صور من الصراع سنراها أكثر تطوّراً في آمال ، وسنراها واضحة السمات بين عنترة وأهل عبلة وخصومه .

وفي بعض منـاظر هـذه المسرحيـة قوة وانسجام في الحوار ونظـام في تحليل الشخصيات ، وخلو من الحشو والاعتماد على الشعر في التأثير وحده ، فنرى في المسرحيات

القادمة تطوُّراً أكثر انتظاماً للشخصيات والحوادث ، وخلوُّها من الحشو إلى حدٍّ كبير وُنرى اعتماد الشاعر — إلى جانب الشعر — على وسائل المسرح العامة .

وقد كان لعنف النقد الذي قوبلت به هذه المسرحية تأثير محفز على الشاعر ، فاستنهض عزمه للاجادة والتجريب من جديد ، بل والتجريب في تأليف أنواع أخرى غير المأساة الغنائية فيما بعد ، كما في « أميرة الأندلس » وهي تجربة في المسرحية النثرية ، وفي « الست هدى » وهي تجربة في الملهاة الغنائية : وان في ضيق المدة التي تطور فيها فن المؤلف المسرحي لشاهد على ما لاقى من جهد ، وما تجشم من عناء .

وكلاء المقتطف ومحلات الاشتراك

في العاصمة والقطر المصري ادارة المقتطف بشارع القاصد — باب اللوق
في بيروت — سوريا — جورج افندي عبود الاشقر ص. ب رقم ٩٢٩
في طرابلس الشام الاستاذ عبدالله الياس حصني
في دمشق — شملان — الشهداء الاستاذ السيد حمدي القواص
في شرقي الاردن — عمان } الاستاذ يعقوب عودات
وفي فلسطين } القدس الشريف باب الساهرة
في حمص — سوريا الخوري عيسى اسعد
في حلب شارع السويقة السيد عبد الودود الكيالي وأولاده أصحاب المكتبة العصرية
في صيدا نقولا افندي حربصي داغر — صيدلية الهلال
في حماه السيد طاهر افندي النعساني

في الارجنتين Mr. N. J. Nazer
Avenida de Mayo 1370
Buenos Aires, Rep. Argentina

في الولايات المتحدة والمكسيك وكندا وكوبا Mr. Naguib Shehadi
8012 Narrows Avenue
Brooklyn N. Y—U. S. A.

قيمة الاشتراك في المقتطف تدفع مقدما

عن سنة
ص
١٢٠ في القطر المصري والسودان
١٤٠ في سوريا ولبنان وفلسطين وشرقي الاردن والعراق «بريد عادة»
٧ دولارات لاميركا الشمالية
٦ دولارات لاميركا الجنوبية وجمهورية الأرجنتين
وفي سائر الجهات ٣٠ شلناً

ملاحظة { يخصم ٢٠٪ من قيمة الاشتراك للاساتذة والطلبة الذين يرفقون طلبهم بشهادة من مدير المدرسة تشجيعاً لهم }

مطبوعات المقتطف

في ادارة المقتطف طائفة من أفيد الكتب العصرية والعلمية والروايات الأدبية

م		م	
٤٠	الفتح مستمر للاستاذ فؤاد صروف	٣٠	تراث مصر القديمة
٥٠	معجم الحيوان : للفريق الدكتور امين باشا المعلوف	٢٠	رجال المال والاعمال : للمقتطف
		١٥	رواية اميرة انكلترا
٣٥	فصول في التاريخ الطبيعي: للمقتطف	٣٥	نواح مجيدة من الثقافة الاسلامية
٣٥	مختارات المقتطف	٣٠	علم الاجتماع الديني ليوسف شلحت
		٢٠	صقر قريش : للاستاذ علي أدهم
٤٠	الرواد : للمقتطف	٢٠	معجم الاحلام : جزء اول
٤٠	رواد الشرق العربي	٢٥	القضايا الاجتماعية : للدكتور شهبندر
٣٠	الناطقون بالضاد في أمريكا	٤٠	موكب الحياة ٣٨ قصة عالمية
٢٠	خيوط الغمام : ديوان شعر	٤٠	المنتخبات الجزء الثاني: للطفي السيد باشا

هذه الاسعار يضاف اليها ٢٠ ٪ اجرة البريد في داخل القطر المصري وخارجه

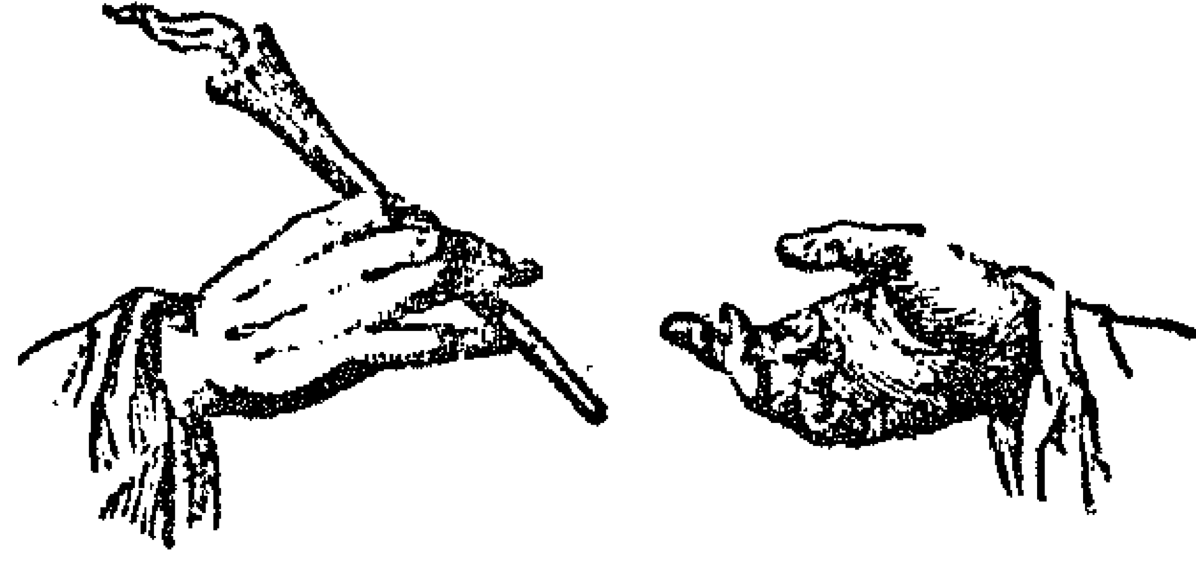
المقتطف

يوزعه

في فلسطين : شركة فرج الله

في لبنان والشام : شركة فرج الله وحتي اخوان

في العراق : محمود حلمي



المقتطف

الجزء الخامس من المجلد العاشر بعد المئة

١٠ مايو ١٩٤٧ — ١٩ جمادى الثاني ١٣٦٦

المقتطف

مجلة علمية صناعية زراعية

لمنشئيها

الدكتور يعقوب صرّوف و الدكتور فارس نمر

رئيس تحريرها اسماعيل مظهر

قيمة الاشتراك — في القطر المصري ١٢٠ قرشاً مصرياً وفي سورية ولبنان وفلسطين وشرقي الاردن والعراق ١٤٠ قرشاً مصرياً وفي الولايات المتحدة ٧ دولارات اميركية وفي عدن وأفغانستان وايطاليا والمانيا وبلاد الانجليز ٣٠ شلناً

اشتراك الطلبة والمدرسين — قيمة الاشتراك للاساتذة والطلبة الذين يرفقون طلبهم بقيمة الاشتراك وبشهادة من رئيس المدرسة تكون ١٠٠ قرش مصري في مصر و ١١٠ قروش مصرية في الخارج بالبريد العادة

الاعداد الضائعة — الادارة لا تعد بتعويض المشتركين ما يضيع من اعدادهم في الطريق ولكن نجتهد ان نفعل ذلك

المقالات — لا تقبل المقالات للنشر في المقتطف الا اذا كانت لهُ خاصة ولا يعد قلم التحرير بارجاع المقالات التي لاتنشر فنرجو من حضرات الكتّاب ان يحتفظوا بنسخة من المقالات التي يرسلونها

العنوان — ادارة المقتطف بالقاهرة — مصر

AL-MUKTATAF

An Arabic Monthly Review of Current Science and Literature.

Published in Cairo Egypt

Founded 1876 by Drs. Y. Sarruf & F. Nimr

Edited by I. Mazhar

المقتطف

الجزء الخامس من المجلد العاشر بعد المئة

١٠ مايو سنة ١٩٤٧ — ١٩ جمادى الثاني سنة ١٣٦٦

وطننا الشرق

الساكت على الحق شيطان أخرس . صدق رسول الله .

وأشد ما يكون السكوت على الحق خطراً على مستقبل الأمم ، أن يروح زعماؤها يغرونها بأنها في سبيل النجاح وهي في الواقع في سبيل الانحلال والضعف .

خطأ أن تقاس عظمة الأمم بعدد الأفراد أو بالثروة أو بالأبنية والعمائر ، إذا كانت نفوس الأفراد خراباً ، إلاّ من أوهام العظمة ، وخيالات القوة والفتوة ، وفتنة المظاهر المرئية ، ومن وراء جمّاع هذه المظاهر انحلال يعمل جميع المرافق ، وبخاصةٍ إنحلال في العقلية وإنحلال في الفكر ، وإنحلال في الأخلاق .

حفنة من المقدونيين فتحوا العالم ، ودوّخوا الشرق برمّته في زمان الإسكندر المقدوني . ودوّخ هانيبال رومية العظمى بجيش خليط من القراطجة والغال والنوميديين وأهل إسبانيا ، وكاد يقضي على مجد الدولة الرومانية . وبضعة آلاف من العرب فتحوا الدنيا من نهر السند الى بحر الظلمات . وفي العصر الحديث حكمت بريطانيا خمس العالم ، والإنجليز لا يتجاوزون الاربعين مليوناً من الأنفس .

آية ذلك كله أن نفوساً عامرة تستعبد نفوساً خربة ، وأن أخلاقاً متماسكة تستقوى على أخلاق منحلة ، وعقولاً تفكر تخضع عقولاً جامدة ، وأفكاراً مثالية تستعلي على الارضيات .

ونحن الشرقيين في هذا الطور الذي هو في الواقع طور انقلاب حقيقي ، إنما نتوهم أننا نتطوَّر الى الأصلح ، وإننا نقتدي بالمثل ونتتفع بالمثلات ، في حين أن العالم يجرنا وراءه جرًّا ويشدّنا الى عجلته شدًّا ، كأننا الصخور لا تتحرك إلاَّ بالدفع القوي الشديد ، وكأننا الموتى ينقلهم الأحياء ، أو الدمى تتلاعب بها الأيدي ، أو الكرات تتدافعها صوالجة الفرسان ، أو علامات صُمٌّ تحركها أيدي اللاعبين على رقعة الشطرنج .

ما أردت بهذا تسفيهاً ، ولا أردت به تثبيطاً للهمم ولا قتلاً للحوافز . وإنما أريد به أن أرفع عن الحقائق خِمار الباطل ، وأن أفتح العيون على الوقائع كما هي كائنة ، لا كما تصورها لنا الأوهام . وفي هذا وحده محك الحياة الأممية وقوة الشعوب : إن أرادت الحياة واجهت الحق ومضت الى الحقيقة ، فخفرت من قواها وحشدت من كامن عنفوانها ما تستقوى به على أسباب الضعف .

هذه فلسطين تأكلها الصهيونية ، وتسهر على قتلها قوى اليهودية في أنحاء العالم ، ونحن نسبح في أحلام . يقول المسلمون منّا أن أمة محمد بخير . ويقول النصارى إنّ الأمر لله . نعم أن أمة محمد بخير ما دامت تأكل وتشرب ، وإن أكلت التراب وشربت الكدر . ونعم مرة أخرى أن الأمر لله ، ولكن أمر الله في هذه الدنيا مع الأقوياء ، لا مع المستذلّين الخوارين ، الذين تتفجر في حجورهم قنابل الصهيونية ، وهم على صلواتهم عاكفون ، كأنما هذه الدنيا صلاة وصوم وزكاة ولا شيء غير هذا . وما كان الدين إلاَّ سبيلاً للقوة ، وما كانت العقيدة إلاَّ أداة الحرية والاستقلال والتنعم بمثاليات الحياة .

وهذا شمال أفريقية تدس بريطانيا في شرقيه أصبعها المسمومة ، وتضحك فرنسا على ذقون أهل الجزائر وتونس ومراكش ، وتعمل على تفرقة هؤلاء العرب ، والعالم العربي كله واقف ينظر كأن هذه الدنيا لا تحفل به ، وكأن أهل هذه البلاد من المريخ أو من زحل .

قطعت فرنسا بين أهل شمال أفريقية وبين العالم العربي كل صلة . فلا تدخل هنالك مجلة أو كتاب أو صحيفة إلاَّ مهرَّبة ، كأن العقل العربي في غير تلك البلاد لا يُنتج الا سموماً تخشى فرنسا أن تسمم أهل المغرب الأقصى حنوًّا منها وعطفاً وإشفاقاً . ويدخل مصر ، قلب العالم العربي ، ثمانين صحيفة فرنسية كلها سمٌّ زعاف ، وكل دعايات سياسية وغير سياسية

وكلهـا فجور وإثم ، وإثارة للشهوات الخسيسة ، ونحن وقوف ننظر كأن الأمر لا يعنينـا في شيء .

* * *

وفي مصر ، ومنها يتطرّق الأثر إلى العالم العربي ، صحافة تمثل مناطق النفوذ الدولي في هذه البـلاد ، وثمت في غيرها من أرجاء الشرق ، فهذه صحافة للدعاية الأمريكيـة ترمينا بكل جائحة نكراء ، وداهية ليلاء ، من غثاثات ما يلقي به الغرب في سلة المهملات ، فيصيب من أخلاقنا انحلالاً ، ومن جيوبنا ثروات ، وتلك صحف أخرى تروّج لفرنسا الغاشمة الآثمة المعتدية على شرف العرب وحرية العرب ، تلك الدولة التي تحاول فرنسة شمال أفريقية وقتل العربية والاسلام في نفوس ناشئتها وجعلهـا ولايات فرنسية تمثل في برلمان فرنسا ، وتدين بأدب فرنسا ، وما تعدّ فرنسا من هذه البلاد إلاّ رجالاً تقودهم الى القتل في ميادين الحرب دفاعاً عن أرضها فيذهبون فدية لأبنائها ، فيراق الدم السامي الذميم ، فداءً للدم اللاتيني الكريم . وهذه انجلترا تتغلغل بدعايتها السّامة في جسم الشرق فتنصر حزباً على حزب ، وطائفة على طائفة ، وتلعب بعقول أولاء وهؤلاء ، ومن وراء ذلك كله مصالح انجلترا لا تعرف في سبيلها ذمة ولا شرفاً ولا وفاءً ، وتجد منا من يقولون إنهم شرفاء ، وإنهم معقولون ، وزاد الطين بلة أن هؤلاء الشرفاء المعقولين قـد رموا الشرق بكل أفاق مجرم من أهل شرق أوربا الدائنين بالصهيونية وأسكنوهم فلسطين التي هي كبد الشرق ونور عينه المبصرة ، زاعمين أن هؤلاء القتلة السفاحين مظلومين مشرّدين ، فباسم الانسانية ينصفون ، ولـكن بقطعة من أرض العرب وعلى حساب العرب . على أن هؤلاء إنما ينظرون إلى شرق الأردن باعتباره فلسطين الشرقية وإلى لبنان والشام باعتبـارها فلسطين الشماليـة ، والى بلاد العرب والعراق ومصر باعتبـارها مناطق النفوذ الصهيوني . ومع قيام كل هذه الحقائق التي تدمغ جبين أعق الناس للحق ، تحاول بريطانيـا أن تثبت من أقدامهم ، وأن توثق لهم في فلسطين ولو جلد ضباطها وخطف نضاتها جهرةً من منصـّة العدل في رائعة النهار ، ولو عجزت عن تنفيذ حكم الاعدام في مجرم قضت العدالة بأنه عضو فاسد في جسم الجماعة الانسانية ، وتقف مترددة بين أن تقـدم وبين أن تحجم ، كأنما هذه الصهيونيـة هوّة سحيقة تكاد تبتلع مَن ؟ . . . . تبتلع بريطانيـا . كلاّ ، وإنما هي

السياسة التقليدية ، سياسة الجور والعدوان والظلم الصارخ والأفك الموروث . سياسة شرق يؤكل وغرب يأكل .

***

ليس كلامنا هذا بمحتاج الى دليل منطقي وقد قامت عليه الأدلة المادية تؤيده وتدفع عنه الشبهات . هو الحق الصارخ المدوّي : والساكت على الحق شيطان أخرس .

أنظر ماذا يقول الصهيونيون (١) .

« لا نقاتل في سبيل تحقيق حصة معينة من الهجرة اليهودية ، بل نرمي الى تحقيق الهدف التاريخي الذي تتوخاه أمتنا : وهو تحرير أرضنا من الحكم الأجنبي » .

١ — أصبح لهؤلاء وطن يريدون تحريره من نير الحكم الاجنبي : بالطبع حكم العرب وحكم الانجليز . هل سمعتم أيها العرب بسفاهة تعلو هذه السفاهة . أو وقاحة تبذ هذه الوقاحة ؟ أو رأيتم وحوشاً كواسر تود أن تلغ في دماء العرب ، أشد من هؤلاء افتراساً أو لصوصاً أنهم لصوصية ؟

يقولون :

« إن صداقة الشعب البريطاني لأمتنا أسطورة تمزقت إرباً في هذا الجيل ولا سيما في أثناء إبادة ستة ملايين يهودي في أوربا .

٢ — الانجليز الذين عادوا العرب وقمعوا ثورتهم الحقة بكل سلاح دفاعاً عن اليهود والصهيونيين قبيل الحرب العظمى ، الانجليز الذين لموا شملكم على حساب العرب ، وأسكنوكم أرض العرب عدواناً وظلماً ، الانجليز الذين وضعوا السلاح في أيديكم لتقتلوا العرب وتنتزعوا عنوة أرض العرب ، تمزقت صداقتهم بالنسبة اليكم في هذا الجيل . لماذا ؟ لانهم لم يحولوا بين هتلر وقتل ستة ملايين يهودي . ولكن اسقوا أيها الصهيونيون أحلافكم القدماء وأعداءكم اليوم هذه الكأس المرة ، فانهم ولا شك يستحقون ما هو أمر منها مذاقاً .

يقولون :

« سنعمل على مواصلة النضال فيما وراء حدود فلسطين . طبيعي أن نستمر على الهجرة غير المشروعة .

....

(١) نقلت الصحف أن مراسل وكالة « اليونيتدبرس » وجه الى الارهابيين في فلسطين أسئلة تلقى عنها ردوداً نقتطف منها هنا ما نعلق عليه . الاهرام ١ / ١ / ١٩٤٧

٣ — معنى هذا أيها العرب أن البحر وراءكم والعدو أمامكم ، الصهيونيون يتطلعون الى ما وراء فلسطين . ألم يمش يهودي في شرق الاردن بقدمه ؟ ألم يخرج موسى بشعب اسرائيل من مصر ؟ أليس اليهود متجر في العراق ؟ أليس لهم صيرفي في الشام ؟ أليس لهم أفاك أو قصاب في لبنان ؟ أليس لهم جالية حقيرة في اليمن ؟ أليس لهم بقية في بلاد العرب ؟ فكيف إذن لا يتطلعون الى ما وراء فلسطين .

يا أبناء العرب ذوقوا فتنتكم .

يقولون :

إذا هاجمنا العرب الذين لا نسعى الى قتالهم فسنحمي أنفسنا . وإذا شنوا هجوماً على المستعمرات اليهودية فسنرد عليهم بالحرب .

٤ — المعنى المفهوم من هذه العبارة ، على حد أسلوب الشراح ، ان العرب الدخلاء إذا هاجمونا نحن الاصلاء ، فسوف نثخن فيهم ونقتلهم شر قتل ، أما الهجوم على المستعمرات اليهودية فمعناه الحرب. الحرب تعلنها دولة الافاقين على أمجاد العرب . أما القول بأنهم لا يسعون الى قتال العرب ، فسره خدعة عجيبة ، هي أن هنالك عدواً ثالثاً هو الانجليز ، فاذا تخلص الصهيونيون من الانجليز ، فالطبيعي أن يتحولوا الى العرب ليخرجوهم من أرضهم .

يا أبناء العرب ذوقوا فتنتكم .

***

ذوقوا فتنتكم . ذوقوا مرارة الانقسام والغفلة والتهاون . ذوقوا مرارة التواكل والبغضاء والتقاطع . ذوقوا ما تنتج سخائم الأنفس وحفيظات الصدور .

من العرب الآن من يعامل يهوداً ، ومنهم من يمد يده لليهود ، ومنهم من يشارك اليهود ، ومنهم من يُشجّع اليهود على السيطرة على الصحافة العربية ، قلب هذه البلاد النابض ، ولسانها القائل ، وعينها المبصرة ، ووعيها الحي .

نعم . صادقوا اليهود ليخرجوكم من أرضكم ، صادقوهم ليقتلوكم ، عاملوهم ليسرقوكم ، صاحبوهم ليضلوكم ، ثقوا بهم ليفسدوكم ، قدّموا اليهم أيديكم ليلقوا بكم في جهنم .

يا أبناء العرب ذوقوا فتنتكم .

***

ولنعد بعد ذلك الى فرنسا الغاشمة ، عدوة الاسلام وعدوة المسلمين ، فننقل شهادة واحد من أهلها . قال الأستاذ جوستاف لوبون [١]

(١) حضارة العرب ص ٩٣ الترجمة العربية للاستاذ زعيتر

« ويجمع أولئك الحضريون والأعراب على مقت الأوربيين القاهرين لهم وحقدهم الهديد عليهم . ويضحي الجزائري ، الذي نصفه بالخلي المتردد المكسال القانع الوضيع المتزيد ، بماله ونفسه . ويشترك في كل عصيان وتمرد للخلاص من حكم الأجنبي الذي فتح بلاده ، وقد تم إبادة عرب الجزائر بوسائل منظمة كالتي اتخذها الامريكيون لابادة اصحاب الجلود الحمر . ولكن الذي اعتقده هو أن الفرنسي لن يستطيع حمل الجزائري على التفرنس ، وان من المتعذر أن يسود السلام في قطر واحد بين العرب والفرنسيين الذين ينتسبون الى عرقين مختلفين . وقد سمعت هذا الرأي الذي يجتنب تدوينه في الكتب عادة من جميع أولي البصائر في الجزائر ، واني أوافق عليه موافقة تامة » .

تمت أقوال جوستاف لوبون ووقع فيها بامضائه ، كما يقال في محاضر الشرطة .

وإذن ففي شمال أفريقيـة العربي المسلم معركة بين العرب وفرنسا ، معركة تحاول فيها فرنسا القضاء على أهل هذه البلاد بوسائل أمريكية استخدمت في القضاء على أصحاب الجلود الحمر . أما وأن فرنسا لا تستطيع اليوم ، وقد فتح العالم عينيه على مفاسدها الاستعمارية ، أن تمحو العرب من شمال أفريقية ، فهي تعمل على فرنستهم . وأول خطوة يخطوها مستبد أعمى في هذا السبيل هي القضاء على شيئين : اللغة والدين ، وبمعنى أفصح وأظهر : العربية والاسلام .

يأبناء العرب : ذوقوا فتنتكم . ذوقوا مرارة الغفلة . ذوقوا علقم ما أمدتكم به الباطنية والتصوّف والزهد وخلع رداء القوة التي هي روح الاسلام ، وارتداء أثواب الضعف والمسكنة والذلة ، التي هي روح الوثنية .

يأبناء العرب : لقد أقمتم لكل معنى من معاني الضعف وثناً عكفتم عليه ، فحطموا اليوم هذه الأوثان ومزّقوا أغلالها وارموا في وجه كل فرنسي بحجر من أحجارها ، وفي وجه كل مستعمر يحاول أن يأكلكم بقذيفة من بقاياها . فان لم تفعلوا فأنتم المأكولون ، وأنتم المفرنسون وأنتم المكلتزون ، وأنتم المؤمركون ، وأنتم الخاسرون في الدنيا وفي الآخرة .

وإنما أخراكم هي ثمرة دنياكم ، والأمر بيدكم ، فاذا أردتم فان ارادة الله معكم ، واذا لم تريدوا فقد أتتكم آياته فنسيتموها ، وكذلك اليوم تنسون ويحل عليكم عذابٌ مقيم .

يأبناء العرب : اذكروا دائماً قولة عبد الحميد طاغية الترك : إن أوربا تحاربنا حرباً دينية في قالب سياسي .

* * *

على أن فرنسا حتى بعد أن فتح العالم عينيه على مقاصدها الاستعمارية لا تزال تجري على سياسة الفرنسة في شمال أفريقية ، فأخذت تلوّح لاخواننا الشماليين باصلاحات لخة غثة ، لتصرفهم عن طلب الاستقلال وعن نواياها في « الفرنسة » ، وقد علمت من ثقة أن هنالك مشروعاً للتعليم كفيل بأن يفرنس شمال أفريقية في ربع قرن من الزمان ، يوضع الآن موضع التنفيذ الى جانب محاولات ترمي الى كف العيون عن النية الخبيثة المبيتة لأهل هذه الأقطار العربية الصميمة .

ولقد ننقل هنا شيئاً من تلك الدعاية الواسعة التي تنشرها فرنسا مظهرةً حدبها الكاذب على أهل تلك البلاد بعد أن أمعنت فيهم قتلاً وخمشاً وتجريحاً ، وبعد أن أنزلتهم أحط دركات الجهل والفقر والجوع ، وبعد أن نشرت في بلادهم شعور الخوف ، وأذاقتهم مرارة النقص في الأنفس والأولاد والثمرات (١) .

فقد نقلت الصحف دعاية فرنسية طويلة عريضة عن شمال أفريقية تحت عنوان « سياسة التقرب من المسلمين » ، وهي في الحقيقة الواقعة « سياسة فَرْنَسة المسلمين في شمال أفريقية » ، وهي في مجموعها ضحك على ذقون أهل الاسلام واهل الشرق ، دعاية ظاهرها التقرب وباطنها الاستعمار ، وغرس كل سيئة من سيئات الخلق الفرنسي في نفوس هؤلاء العرب ، واقتلاع كل فضيلة شرقيــة ورثوها مع الأجيال الطوال . ولقــد حدثني نابه من أهل تلك البلاد فقال : ان أصحاب المسؤولية من الفرنسيين ، وهم بالطبيعة أولئك الذين يعملون على فرنسة شمال أفريقية ، يعتقدون أن أكبر عقبة في سبيل سياستهم الاستعمارية هو « القرآن » . فانظر بربك ماذا نكون اذا صحت هــذه الرواية ، وهي ولا شك صحيحــة ، ان لم تكن صحتها آتية عن طريق النقل ، فإنها صحيحة من طريق الواقع .

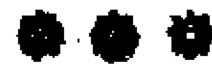
---

(١) أنظر الاهرام في ٢٠ من يناير سنة ١٩٤٧ .

جاء في تلك الدعاية أن فرنسا عفت عن متهمين جزائريين ، وانها عينت وزيراً مفوضاً مسلماً ، وعينت مستشارين مسلمين ورئيساً مسلماً لمحكمة الجزائر ، وشرعت تدرّس الحضارة الاسلاميــة في السوربون ، وأخذت تنظم الضمان الاجتماعي وتنظر في مشكلة الأيدي العاملة ، الى غير ذلك من الأفك الذي يخجل أن يدعيــه قاطع طريق لا حكومة متمدينــة في القرن العشرين .

تمن فرنسا على أهل شمال أفريقية بذلك كأنما هي تقول لهم « أيها الأفارقة » : أنظروا كيف أنزل عن كبريائي وأتدنى اليكم ، فأعين منكم وزيراً مفوضاً ، ومستشاراً مسلماً ، ورئيساً مسلماً لمحكمة !!!

اما اذا كان للخجل حمرة ، فانها ولا شك لم تعرف وجه فرنسا .



ان مشكلة فلسطين ومشكلة شمال أفريقية هما أعضل مسائل الشرق والغرب . على أن ما في تينك المشكلتين من تعقد وجمود إنما هو راجع قطعاً الى أن أوربا تحاربنا حرباً دينية في قالب سياسيّ . وإلاّ فأين الحق الذي ينادي به مُهرّجو السياسة الاوربية والأمريكية ، وأين حق الأمم ، وأين تقرير المصير ، وأين حرية الشعوب الصغيرة ، وأين ضمان حقوقها ؟ أين كل هـذا اذا كانت أبسط الحقوق الجليــة الظاهرة تصبح بين أيدي هؤلاء مشكلات أعقد من ذنب الضب .

لقد خرج العالم من الحرب الأخـيرة وقد طبقت آفاقه الدعايات صارخة بأن العدل قد محق القوة . ولـكن لم يكد السلم ينشر رواقه حتى أنسنا من أصحــاب العدل وأصحاب الحرية الذين شدخوا آذاننا طوال سنين بأنهم حفظة العدل والقوامين على الحرية ، إنهم انما يتبعون موحيات القوة ويتـكلمون بلسان القوة ، وها هي ذي جيوشهم يعج بها الشرق وأسلحة فرنسا تروح وتغدو عبر أسيا لتقتل رجال الشعوب الصغيرة في أندونسيا والهند الصينية ومدغشقر باسم الحضارة التي تعمل على فرنسة كل شبر من أرض تطأه قدم فرنسية

إذا كان المبدأ الأساسي في العدل الدولي هو ذلك المبدأ الذي قرره ميثاق الاطلنطي

إذن يكون لكل دولة من الدول الحق في أن تناضل حرة طليقة في سبيل تقرير امورها الخاصة من غير ان تتعرض لعدوان دولة او دول اخرى . وهذا المبدأ إن كان من المبادىء المقررة في القانون الدولي ، إلاّ انه قد حاز قوة أكبر بأن أصبح الفكرة الأساسية التي قامت عليها هيئة الأمم المتحدة .

وبربك ما هو العدوان ؟ هو ان تتذرع دولة بالقوة لارغام دولة اخرى على الخضوع لأمرٍ لا تريده ، أو اتخاذ موقف تأباه أو يتعارض مع مصالحها . هو على الجملة تدخل بصورة من الصور في أمور دولة أخرى أو شعب يريد أن يكون ذا دولة تدخلاً تعوزه القوة .

نضرب بذلك مثلاً دعوى الصهيونية في فلسطين . فان من الأشياء المسلمة في العرف الدولي أن طول العهد بامتلاك بقعة من الأرض ، يوثق حق أية أمة في امتلاك البقعة التي تسكنها . وإذا كانت هذه الحجة هي حجة كل قانون دولي او غير دولي يستند اليها شعب من الشعوب في امتلاك الأرض التي يسكنها ، كان حق العرب في فلسطين واضح لا يحتاج إلى تلك المؤتمرات التي لا ترمي إلاّ إلى انتزاع فلسطين من العرب بوثيقة يوقع فيها العرب لصالح الصهيونيين ، صنائع بريطانيا .

* * *

إذا كان ما يدعي الصهيونيون من حق في فلسطين راجع إلى وثائق تاريخية ، فانّ حق العرب يرجع إلى أكثر من ألف سنة ، وحق اليهود يرجع الى ذكريات كادت تعفّي عليها أحداث الزمن . واذا كان حقهم راجع إلى وعد بلفور ، فان هذا الوعد أشنع عدوان يذكره تاريخ البشرية جميعاً .

إن واجب كل عربي واضح لا يحتاج الى بيان . واجب يحفز كل عربي الى الجهاد بكل ما أوتي من قوة ومالٍ وجاه حتى يستقر حق العرب في فلسطين ، ويعترف الغرب أن الشرق يأبى الآن أن يؤكل كما أوكل في الأيام السوالف .

اسماعيل مظهر

العائدون

رأيتهم كما كنت أراهم قديماً ، يجلسون منفردين في شمس الشتاء أمام مقهى المعلم شيحة ، يترشفون القهوة ويدخنون الطباق في القصبات الطويلة ويسعلون ويبصقون على الأرض . وقد اطمأنت نفوسهم وخفّت حدّة الكبرياء التي كانت تملؤهم وقلّ التحدّي الذي كانت ترسله نظراتهم للناس في ازدراء واحتقار . واتجهت أبصارهم إلى تراب الأرض وكانت لا ترتضي السماء متجهاً لها .. تماماً تماماً ، كما كنت أراهم قديماً . ورأيته فيهم ، قد عاد مثلهم ، إلى شمس الشتاء أمام المقهى يترشف القهوة ، وقد سكنت نفسه وخفّت حدّة الكبرياء التي كانت تملؤه وقلّ التحدّي الذي كانت ترسله نظراته للناس في ازدراء واحتقار واتجه بصره الى تراب الأرض . يا للأقدار ! . إن عجلة الزمن لتدور دورانها السريع الترتيب ، وإنها لتقلب الأوضاع ثم . . ثم لا تلبث أن تعيدها . . ثم تقلبها لتعيدها ثانية ! . . لقد رأيته فيهم وعرفته سريعاً ، وكنت أنوي أن أحييه ، ولكنه زاغ مني ، أعني من نظراتي، واتجه ببصره إلى .. إلى تراب الأرض . . ولكن ؟ . . أكان اتجاهه للأرض وهروبه من مواجهتي ينسيني إياه ؟ . . مطلقاً ، لقد عرفته سريعاً ، ومرّت بخاطري كل أحداث قصته ، من بدئها حتى هذه اللحظة التي رأيته فيها . . إنها ليست قديمة إلى حدّ النسيان . . إنها قريبة لم يتعد عمرها السنة الرابعة . . أجل أربعة أعوام هي كل عمر قصته على التحقيق ، فقد كان ميلادها على بصري وسمعي وفي رعايتي . . إنني أذكر ذلك جيداً جيداً . . أذكر هذه الأمسية التي أتى فيها ذلك الفتى إلى منزلي يطلب مقابلتي ليخطب زكية خادمتنا الشابة ومعه أمها . وسمعت أم زكية وهي تقول لي : يا سيدي لقد جاءني هذا الشاب يخطب زكية ، وأنا كما تعرف يا سيدي أرملة جاهلة مسكينة لا عائل لي أو لبناتي اليتيمات ، وقد قمتَ أنت يا سيدي برعاية زكية حتى نضجت في رعايتك ، وأريد منك اليوم أن تتم جميلك معها فتتولى

أمر هذا الزواج وتبحثه برأيك السديد ، فان رأيته صالحاً مناسباً ووافق رضى من نفسك فافعل . . . . والله لا يضيع أجر إحسانك ورعايتك لهـذه اليتيمـة » . وحين انتهت الام من حديثها هذا ، بدأت أسأل الفتى عن اسمه وعمله وأسرته وحالته الاجتماعية . . إنه شاب في السادسة والعشرين من عمره تقريباً ، أسمر البشرة معروق الجسد له شارب صغير وشعر طويل لا تغطيه قلنسوة أو نحوها ، ويرتدي ثيـاب أفرنجية ينبيء شكلها وحركاته هو فيها عن أنه حديث عهد بلبسها . . وحين سألته عن عمله أجاب بأنه عامل ، واستوضحته أي عمل يعـمله فقال خرّاط ميكانيكي . قلت فهذا عمل حسن في صناعة ناجحة موفقة ، ولكن أين تعمل أفي مصانع الحـكومة أم في مصانع الجيوش المحاربة ؟ قال باستعلاء : وتحدٍّ في مصانع الجيش البريطاني . . وعرفت منه أنَّ أجره في الشهر يتعدى السّتة من الجنيهات ، وهذا مبلغ لا بأس به يكفي حاجة منزل معتدل لأسرة صغيرة تتكون من زوجين كسيد هذا وزكية . . ثم أتممت استيضاحاتي كلها منه ، وكانت كل إجاباته مما يطمئن تقريباً . وكانت أم الفتاة تجيب معـه في معظم إجاباته . وكانت زكية تحوم حولنا متعللة بقضاء بعض الحاجات لتسترق السمع ولتطمئن على نفسها ، فـكنت ألمح في عينيها لمعة الفرح والرضى ... لـكنني مع كل هذا ، كنت أرى في عيني سيد هذا ، شيئاً غريباً يكاد يكون مناقضاً لما يبديه أمامي من تأدب وخشية .. أقول كنت أرى هذا الشيء الغريب في عينيه حتى بعد أن استعلمت عن عمله وبعـد أن سألت عنه في موطنه القريب منا . . كنت في حالة تشبه عدم الرضى عن هـذا الخاطب رغم تأكدي من صدقه في معظم ما أجابني عنه . لست أدري لماذا ؟ ولقـد كاشفت زوجتي بشعوري هذا ، فأبدت موافقتها لي في هذا التشكك . ثم .. ثم عادت هذه الزوجة الطيبة فترددت وخالفتني وأخذت تلح عليّ في قبول هذا الزواج وإنهائه وترك هذا التشاؤم والتشكك ، بعد الذي رأته من إقبال الفتاة وسرورها . وبعد الذي نمي إليها من أن الفتاة تميل إلى الشاب الخاطب وأنها تبادله عاطفة وحبّـا قديمين . . والذي ألان من تشددي ، ولم يبدّد من شكي شيئاً مع ذلك ، هو ميل أم الفتاة إلى إنهاء هذا الزواج ، ورضاؤها عنه . وكانت زوجتي الطيبة تقول لي : مالك متردّداً متشككاً ؟ فأجيبها بما في نفسي من قلق وحيرة وشك ، سببها هـذا الشيء الغريب الذي كانت تنبئني به عينا الفتى ، ومن أن فتاة مسكينة

كزكية خدمتنا هذه الحقبة الطويلة من الزمن بنزاهة وإخلاص حتى صارت منا كالإبنة وصرنا منها كالأهل ، لا يجب أن نتساهل في أمر تزويجها هكذا سريعاً ولأول قادم ، بل يجب أن نتروَّى وننتظر حتى يأتيها زوج مناسب معروف لنا أو لأمها من قديم، ونعرف أهله ونشأته وسيرته ونعرف له عملاً ثابتاً دائماً بدل العمل الموقوت في مصانع موقوتة كمصانع الجيوش المحاربة . . . وكنت أقول لها ، لزوجتي ، إن مجرَّد مجيء أي شاب يشتغل في صناعة معروفة ناجحة بمصانع الجيش البريطاني ومرتبه يزيد عن ستة جنيهات وإنه يسكن في عطفة رُبَيِّعْ بدرب الملحفية لا يكفي مطلقاً ضماناً لقبوله زوجاً . ايخيل إليّ يازوجتي العزيزة الطيبة أنه فتى من هؤلاء الفتيان المتعطلين الذين يعمرون المقاهي البلدية ويسيرون في الطرقات يتسكعون في شمس الشتاء الدافئة أو ظل الصيف يتبادلون بذيء السباب والشتائم ويتجاوبون الضحكات الغليظة النابية ، وأنه إنما يكون رزق هذا العمل بسبب ذلك الرواج الذي سببته الحرب والذي لا يلبث أن يزول بزوال الحرب وبعدها يعود الفتى إلى رفقته وإلى تسكعه وإلى مقهاه البلدي وإلى تبادل السباب البذيء مع رفاقه . .

ولكن زوجتي هذه الطيبة القلب ظلت بي تجادلني وتحاورني وتقنعني بأنه مهما يكن من أمر ، فمن سيتزوَّج هذا الفتى ؟ أليست فتاة كزكية يجعلها سيدة بيت وأم أولاد ؟ أفليسا هو وهي من بيئة متحدة في الفقر والجوع والشبع بل والطباع والعادات في الأغلب الأعم ؟

وكان آخر ما صنعته معي زوجتي في شأن هذه الزيجة ، أن دخلت عليّ حجرتي الخاصَّة ذات مساء ، وأخذتني من يدي بقوة وقادتني نحو غرفة الخدم ، وكانت زكية بداخلها وحدها ثم أوقفتني بعيداً بحيث لا ترانا زكية بينما نراها نحن ونسمعها بسهولة ، فماذا سمعت وماذا رأيت ؟ يا لعجبي ويا لدهشتي ! . . هذه زكية تبكي بحرقة ومرارة وتندب حظها السيء الذي جعلني أقف حائلاً بينها وبين أمنيتها العزيزة في الحياة والتي هي الزواج من سيد بالذات . . رأيتها بعينيَّ وسمعتها بأذنيّ تنتحب وتردد في ولولة حزينة مؤثرة : « يا مصيبتي السوداء . . يا حظي التعس المنكود . . يا ربي ماذا صنعت من شرٍّ لسيدي حتى يحول بيني وبين راحتي وسعادتي . أجزاء إخلاصي له ولأولاده كل هذا الزمن يكون تعذيبي وتضييع حظي يا ربّ . . يا رب خذني إليك وأنه حياتي بدل هذا التعذيب والشقاء . . » وكلاماً آخر كثيراً غير ذلك

ثم تزيد فتلطم وجهها وتشد شعرها .. فمدت متخاذلاً كئيباً وصوت زوجتي الطيبة يرن في أذني : أسمعت أرأيت ؟ أفبعد كل هذا لا تزال مصرّاً على انتقاء زوج آخر لها أصلح من هذا الزوج ؟

***

وتمّ الزواج .. أعني زواج زكيـة من سيد بعينه .. ومرّ عام للزواج وعام .. وتبع العامين عام ثالث ثم — ثم ماذا ؟ أكان زواجاً سعيداً موفقاً كما أمّلت زكية ، وكما تمنّت أمهـا ، وكما كانت ترجوه زوجتي ؟! .. الواقع أن الزواج ظلّ سعيداً عدة أسابيع بعـد الزفاف أو لعلها بضعة شهور ، ثم أدركه شيء من الملل .. أعني ملل الزوج وضيقه بحيـاة الاستقرار والأمن والدعة والركون إلى منزل محدود تدبره فتاة عاقلة قانعة مثل زكيـة ، وراوده ميل وحنين إلى حياته القديمة والسهر مع رفقته القدامى الذين انتزعته منهم حيـاة الزوجيـة ، والذين أنعشهم رواج الحرب وتيسير العمل المستمر والـكسب المتصل وزوال البطالة والتعطل والـكساد .. فعاد إليهم ولقوه فرحين بعودته .. وسرّه أن رآهم ورأى المقهى في نشاط عجيب وانتعاش غريب وسمر لذيذ ونور غامر ودفء لطيف .. إنه تغيير شامل للحال القديمة ، فهذه الزحمة وهذه الحركة وهذا السرور ، ثم هؤلاء الرفقاء قد تغيرت جلستهم وتغيرت هيئاتهم وتبدلت مشروباتهم التي لم تكن قديماً تتعدى تكة القهوة أو قصبة الطباق الطويلة فاستبدلت تكة القهوة بأكواب الشاي والسحلب والبندق بل وبالخمر أيضاً ، واختفت قصبة الطباق الطويلة وحلت محلها النارجيلة الأنيقة . وراعته هذه التغييرات وتلك الانقـلابات ، واستهوته ، وصادفت من نفسه غراماً وهوى فأقبل على السهر واندمج مع الرفاق وجاراهم في الانفاق والشراب والسهر وتردد معهم على دور السينما .. وهـذه السينما هي الأخرى قد جدّت في حيـاتهم ولم تكن هوية قديمة فيهم وإنما شجعهم على ارتيادها وأغراهم بها هذا الرواج الجديد الذي سببه العمل المستمر والـكسب المنظم .. وزادوا على السينما، لوناً آخر من ألوان المتاع هو بالضرورة لازم وهامّ لمن يسهر في المقهى ويشرب الخمر ويرى في دور السينما الرقص الخليع والأجساد الرخيصة العارية ، ويستمع إلى الأغاني الرقيعة ويشاهد المغامرات المبتذلة الدنيئة .. هـذا اللون هو النساء وعشق النساء ومواعدتهنّ

وصحبتهن إلى دور السينما والسير معهن في الطرقات والأزقة المظلمة المحيطة بالمقهى . اندمج الزوج تماماً في هذه الحياة وأحبها وكلف بها وصار ينظر إلى البيت ، أعني زوجته وأولاده نظرة ضيق وكره . . وصار مرتبه لا يكفي لحياة هذا البيت ، ولهذه الحياة الساهرة اللاهية المعربدة ، وكثرت النفقات وزادت عن المرتب ، واضطر الزوج إلى الاستدانة والقرض ، والاستدانة لا تتم إلا برهن ، ومن أين له ما يرهنه ليحصل على المال ان لم يكن هذا الذي يرهنه قرط زكية أو خاتمها أو عقدها أو بعضاً من نحاسها أو أثاثها أو حتى ثيابها وثيابه . . وظل على ذلك وما يُرهَن لا يُرد . . وليفي الراهن معذور في عدم رد الرهنية فهو يعطيه المال برهينته على عِدّة فتمضي العِدة وسيد لا يرد المال ليأخذ الرهينة وليفي ينتظر وينتظر ثم يتصرف في هذه بالبيع أو نحوه . .

وتغيرت أخلاق الفتى ومعاملاته وأحاديثه تبعاً لكل هذا الذي جدّ في حياته فقسا على زوجته وعلى أولاده وضاق بها وبهم ، فالحديث الحاد المرتفع ، والسباب القاسي ، والضرب الموجع ، كل هذه صارت لازمات مكملة لشخصيته .

وكانت زكية تزورنا كثيراً وتشكو إلينا وتحدثنا بكل هذا وهي تتفطر حزناً وحسرة وكنت أستمع لشكواها وأتألم لها وأعيرها اهتماماً كبيراً . وأنظر إلى زوجتي نظرة تعرف معناها جيداً . إنها نظرة لوم وعتب قاسية . فقد كنت أرجو لزكية زوجاً يكافئها إخلاصاً وحبّاً وعطفاً واهتماماً بشؤون البيت والأسرة ، وكنت بسببي لرد هذا الزوج المستهتر لولا . . لولا القضاء المقدور والقدر المسطور ، كما كانت زوجتي تقول .

تلك كانت أعوام هذا الزواج الثلاثة ، وذلك هو وصفها الدقيق الصادق لا تزيّد فيه ولا مبالغة ، بل قد يكون الوصف مقتضباً ناقصاً كثيراً جدّاً عن نفس الصورة الحقيقية . وما أدري ما الذي يشغلني ويهمني جدّاً ويرغمني ارغاماً على متابعة أخبار هذا الزواج وأحداثه ، مع اعتقادي الجازم بأنه واحد من عشرات ألوف الزيجات التي تمت بسبب هذا الرواج وذلك الانتعاش اللذين أوجدتهما الحرب ، لا أكثر ولا أقل . لست أدري ما سبب ذلك الاهتمام مني ، وما أدري ، بالضبط إن كان السبب هو قلقي على مستقبل فتاة كزكية خدمتنا باخلاص وأمانة توجبان الوفاء لها ؟ أم هو القلق على مستقبل أطفالها

من جراء سلوك هذا الزوج المستهتر الأحمق ؟ أم هو القلق على مستقبل عشرات الألوف من هاتيك الزوجات أمثال زكية اللائي كان رواج الحرب الموقوت سبب تزويجهن من عشرات الألوف من الأزواج المستهترين الحمقى أمثال سيد ؟ أم هو القلق على مستقبل مئات الألوف من أبناء هاتيك الزوجات وأولئك الأزواج ، الذين سيكونون جيلاً آخر حديثاً والذين سيصيرون ، حتماً كآبائهم عاطلين لا يجدون عملاً يقتاتون منه ولا يهتم بهم أحد ولا مجتمع ولا حكومات . والذين سيظلون في عطلتهم ينتظرون حرباً جديدة ليعيدوا سيرة آبائهم فيتزوجون وينسلون ألوف الألوف و.. و.. ؟ ؟ ربما كان كل ذلك جميعه هو مبعث قلقي وتفكيري وشغلي وتتبعي لأخبار هذا الزواج وأحداثه وأنبائه ! . .

وذات مساء ، بعد مرور هذه الأعوام الثلاثة ، وجدت زكية تدخل على حجرتي دامعة العين حزينة القلب . . وسألتها عن خطبها فما استطاعت أن تغالب البكاء إلا بعد فترة غير قصيرة . قالت لي : لقد طلقني الليلة ياسيدي . طلقني الآن وطردني بأولاده الثلاثة بعد ان أتى على كل ما أملك وأضاعه ماذا . . ماذا أصنع يا سيدي ؟ . لو كنت وحيدة لهان أمري ، لكننا أربعة أنفس نحتاج الطعام والكساء والمأوى الأمين ، وأمي مسكينة لا تكاد تقوى على كفاية نفسها ويتيماتها ؟ .

ولم يكن الظرف مما يحلو فيه اللوم ، فعمدت الى مواساتها بكلمات طيبة ، ووعدتها بأن أكلف أحد المحامين بشكوى هذا الزوج الغادر المتمرد وإلزامه بنفقاتها هي وأولادها ، واطمأن بالها بعض الشيء وخرجت من عندي وقد خفت حدة الألم في نفسها . ولم أكذبها الوعد ، فقد كلفت أحد المحامين المعروفين برفع دعوى النفقة وسارت الدعوى في طريقها الطبيعي وحكم لها بنفقة شهرية قيمتها ثلاثمائة قرش . وسرني وسرها هذا الحكم السريع المعتدل ، ورحنا نتأهب ونعد العدة للتنفيذ وحجز قيمة النفقة من راتبه الشهري . لكن . .

لم يكن تمرد سيد على زكية ، وإيذاؤها ، والاستيلاء على متاعها وإضاعته ، ثم طردها وتطليقها ، هو كل ما كنت أتوقعه وأخشاه من هذه الزيجة قبل إبرامها ، كما أخبرت به زوجتي الطيبة في حينه . . فقد تم ووقع بالفعل أقصى ما كنت أتوقعه ! . . فقد جاءتني زكية بعد شهرين من تاريخ صدور حكم النفقة ، ممتقعة الوجه واجفة القلب ! . . ماذا يا زكية ؟ هل من جديد ؟ وأجابت بذلة وحسرة بالغتين : لقد رُفت . . رُفت الفاجر وطرد من عمله في المُستغنى عنهم جراء تمرده وإساءته إليّ . . لقد استغنوا عنه ووفروه مع عديدين من أمثاله المتمردين . لكني يا سيدي أرى أن هذا الرفت والطرد ليسا عقاباً له أو مصيبة أصابته . . لكنها مصيبة لي أنا ولأولادي بالذات . . من أين سآخذ النفقة التي قدرتها

الحكمة ؟ من أين لي غذاء هؤلاء الصغار ؟ ! . . وبلغ بي الألم حدّاً كبيراً فضغطت أسناني بعضها ببعض ولم أستطع الكلام ، ولكن زوجتي اللبقة قالت على الفور وفي حماسة واندفاع ، هذا لا يهم .. معنا حكم ننفذه فإن عجز عن الدفع حبسناه وأدخلناه السجن ، وفي السجن مذلة له وانتقام كبير . وابتسمت أنا ابتسامة باهتة حزينة لهذه الزوجة الطيبة البلهاء ، ثم قلت موجهاً الحديث لصاحبة الأمر : إسمعي يا زكية ، لا أمل يا ابنتي في مثل هذا الرجل ولا فائدة وراء الحكم الذي تحتفظين به ، ولا في السجن الذي سيذله ويهينه . إذ ماذا ستأخذين أو تفيدين من سجنه وإذلاله ؟ اعتمدي يا إبنتي على الله وثقي بقدرة الله ورحمته. قالت : والله يا سيدي ما أملت في خير مطلقاً يصيبني منه وإني لعالمة بنهايته هذه من يوم أن حدثتني ونصحتني قبل الزواج فلم أستمع ولم أنتصح .. أذكر تماماً قولك لي إنها فورة الحرب ، وكثرة الأعمال التي تسببها الحرب ، وما تلبث الحرب أن تزول فيزول بزوالها كل ما سببته من فورة ومن نشاط ومن عمل ويسرّح ألوف هؤلاء العاملين ويعودون الى حياة التبطل وقد خلفوا وراءهم جيوشاً من الزوجات والأطفال يبحثون عن القوت والكساء . أجل أذكر كل ذلك .. ولكنه عمى القلب وضلال العاطفة أقصياني عن الطريق السويّ . لكن الآن يا سيدي ! قلت : ماذا ؟ قالت : أن أطرد ذكره من رأسي وأفكر جديًّا في أمري . قلت : فذلك هو الواجب . قالت : أريدك أن تأخذ بيدي . قلت : فأنا لن أتقاعس عنك . قالت : يمكنك يا سيدي بحكم مركزك أن تلحقني بإحدى المستشفيات (تمرجية) في مستشفى قصر العيني أو مستشفى الملك أو مستشفى الأطفال . أي مستشفى » . .

وأعجبتني شجاعة الفتاة ، ووجدت من نفسي قدرة على مساعدتها على تيسير عمل لها ، ففعلت . والتحقت الفتاة بمستشفى قصر العيني وصارت تسعى لرعاية أولادها الصغار ليكبروا ، وليصيروا كأبيهم عمالاً في مصانع الجيوش المحاربة في الحرب المقبلة ، ثم في فترة عملهم ورواجهم . . يتزوجون وينسلون ، ثم يعودون بعد انتهاء الحرب الى حياة التبطل والتسكع لا يهتم بأمرهم أحد ولا مجتمع ولا حكومة .

ذكرت هذه القصة الأليمة حين رأيتهم ، ورأيته فيهم ، يجلسون في شمس الشتاء الدافئة أمام مقهى المعلم شيحه ، يترشفون القهوة ، ويدخنون الطباق في القصبة الطويلة ويسعلون ويبصقون على الأرض ، وقد اطمأنت نفوسهم ، وخفت حدة الكبرياء التي كانت تملأهم وقلّ التحدي الذي كانت ترسله نظراتهم للناس في ازدراء واحتقار ، واتجهت أبصارهم الى تراب الأرض وكانت لا ترضى السماء متجهاً لها . . تماماً .. تماماً كما كنت أراهم قديماً . . قبل الحرب .

محمد طلبه رزق

جريمة أم قصاص

هذه قصة للكاتب القصصي الشهير جوزيف كونراد وهو بولوني الاصل انجليزي الثقافة ويعد من كبار القصصيين الانجليز . ويريد أن يظهر في هذه القصة كيف أن سوء الظن اذا استشرى واستفحل قد يتملك ضمير المرء حتى يحكم بالظن من غير دليل ثم يعاقب بالظن .

كان (س) ربان سفينة حربية وكان طويل القامة وقوراً جاداً صريحاً يكره النفاق والغش، وقد انتهز فرصة إجازة قصيرة فزار حبيبته وجعل يبثها حبه . وكانت مستلقية على مقعد وهو راكع بجانبها وقد أسلمت إليه يدها فجعل يقبلها وكأنما منعها التعب من تحريكها. ولأمر ما اضطربت أحاسيسها واختلطت في صدرها حتى اهتز من تنفسها أنفاساً عميقة . ولكنها قالت بصوت يكاد لا يختلف عن صوتها المألوف — قص علي قصة — وقد أخفى الظلام دهشة جليسها وابتسامته إذا ذكرته نفسه إنه حدثها قبل قولها هذا حديث حبه وهو أغلا ما يحدث به رجل امرأة ولم يحدثها به لأول مرة فقال — قصة ؟ — « نعم لمَ لا ؟ » قالت ذلك بلهجة دلال امتعاض المرأة التي ترى أن رغبتها نافذة كشريعة القانون ومن الصعب تجنبها أو اغفالها . فردد قولها لمَ لا ؟ بلهجة الساخر ، وكان متغاضباً من خروجها من حديث الحب بسهولة كما تخلع المرأة ثوباً أنيقاً . قالت وكان صوتها يهتز في نبراته اهتزاز جناح الفراشة في الضوء « إنك قبل هذه الحرب كنت تقص قصصك وأحاديثك الشائقة . فأين هي ولمَ تغيّرتَ ؟ » قال — ولكن العالم الآن يقاسي ويلات الحرب والحرب تغير أحوال النفوس — قالت قص إذاً قصة عالم آخر — قال إذا كنت تعنين عالم الآخرة فلا يستطيع أن يقص عليك قصته إلاّ من رحل إلى ذلك العالم ثم عاد منه — قالت — لا أعني الآخرة وإنما أعني عالماً آخر في هذا الوجود — قال سأعود بعد قليل من اجازتي إلى عملي وواجبي — كأنه بهذا القول يعاتبها لقطع حديث الحب . قالت دعنا من ذكر

الواجب فإنه قد يكون في هذه الأيام أمراً شنيعاً مادامت الحرب قائمة — قال إنك تقولين ذلك إذ تظنين أن الواجب أمرٌ محدود. كلاَّ إنَّ في الواجب ما لا حدَّ له من الغفران ... ألا ترين ذلك ؟؟ قال هذا القول وهو ينظر إليها بحدّة مدققاً النظر — ثم صمت قليلاً وعاد فقال سأحدثك بقصة ربّان سفينة حربية فهي قصة من قصص عالم البحار وهي قصة حياة وموت — قالت كما في هذا العالم ؟ قال ماذا تتوقعين عند ما يرسل إنسان من طينة هذا الخلق المعذب كي يبحث ؟ وماذا كان يجد غير ذلك عند ما يبحث ؟ وكيف تستطيعين أن تفهمي ؟ قال ذلك وكان يعالج حرارة الألم . ولكنها قالت — هل هي قصة فكاهة ؟ قال ستكون قصة نفسي وربما كانت قصة فكاهة ولكنها فكاهة قاسية مؤلمة بالرغم من أن مدافع السفينة الحربية لم تطلق بل ظلت صامتة كالمنظار المكبر . ولا يغيبنَّ عنك إنها قصة عالَم مضحك في هزله وجدّه وفي سلمه وحربه . وكانت الحرب قائمة فوق الأرض وتحتها وعلى البحار وتحت البحار وفي الهواء . فهو عالَم غير حكيم . إلاَّ أن بعض الكياسة لم يَخْلُ منها جماعة من التجار في الامم المحايدة . وكان لا بدَّ من مراقبتهم مراقبة دقيقة فأرسلت الحكومة ربان السفينة الحربية لمراقبتهم حين شاع ان بعضهم ياتي بخزانات طافية ملؤها الوقود السائل في بقاع معينة كي تلتقطها غواصات الأعداء وتتمكن بهذه الوسيلة من البقاء بعيدة عن قواعدها ومن اغراق سفننا الحربية والتجارية بمن فيها من محاربين أو مدنيين من رجال ونساء وأطفال . ومما كان يدهش له ربان السفينة الحربية ان سطح البحر قلما كان يتغير عن حالاته في وقت السلم . فكان من الصعب أن يعتقد الرأي أن في قاع البحر كميناً مخبأً معدًّا لهلاكه حتى يرى سفينة تصاب أمامه وتغرق قبل أن تعرف ما حدث لها . ثم ينطوي عليها سطح البحر كأنْ لم يحدث شيء . عندئذٍ يوقن انه سيهلك يوماً ما كما هلك أهل تلك السفينة وسيغرق كما غرقوا وربما كان ذلك مباغتة وهو آمن . وعندما يوقن بذلك ربما يحسد جنود البر إذ يمسحون العرق والدم من وجوههم عند نهاية المعركة ويرون أشلاء الذين هلكوا ويرون الأرض الممزقة كأنها تتألم وتدمى — نعم إنها وحشية ولكنها وحشية صريحة . أما البحر فانه يدعي أن الدنيا بخير وهي ليست بخير — إذ أنه يطوي في أعماقه آثار الجرائم التي تجترم على سطحه . قالت « آه . . . اني أعرف انك موسوم

بالصراحة وصدق السريرة والغضب للحق ... ان الغضب للحق عقيدتك » فنظر إليها بقلق وقال « أليست هي عقيدتك أنتِ أيضاً ؟ ألسنا شريكين ؟ » ثم عاد الى قصته فقال ان الليل صريح في اخفائه للاشياء في عرض البحار وكأن الليل نفاق صديق قديم قد عرفت نفاقه وألفته واسترحت إليه، أما الضباب فانه يخفي ولا يريح ويغش وكأنه لا يغش . ففي يوم من أيام الضباب كانت السفينة الحربية تسير قرب شاطىء صخري كثير الاخطار بسبب الصخور التي تغمرها المياه واذا خفّ الضباب لاح الساحل كأنما رسم بالحبر الأسود على ورق رمادي اللون — قال مساعد الربان الحربي اني أرى شيئاً طافياً على سطح الماء . وعندما اقتربت السفينة منه رأوا أنه برميل أو خزان وربما كان من تلك الخزانات الطافية التي يلقيها بعض التجار الجشمين المحايدين كي تلتقطها غواصات الأعداء فتأخذ ما بها من الوقود السائل . هكذا شاع الخبر وان لم يقم على صحته دليل إلاّ اذا كان ما رآه ربان السفينة الحربية ومساعده دليلاً . قال يحدث نفسه ولكن لماذا لم تلتقط السفينة التجارية الخزان بعد تفريغه . فأجابته نفسه قائلة لعلّ ربانها رأى ضرورة في الاختفاء قبل التمكن من التقاطه . فبدأ الظن يتحول يقيناً في نفسه وشعر باشمئزاز من خيانة بعض المحايدين وغدرهم . فقالت حبيبته الذي يحدثها اني أستطيع أن أفهم اشمئزازك . قال نعم فان الغش والخيانة لا يجوزان في الحب والحرب لأن الحب والحرب داعيان يدعوان النفس الى المُثُل العليا ، ومن الجائز أن يستغلا عنها بدعوى ضرورة النصر فيهما — قال واستمرت السفينة في مسيرها فازدادت كثافة الضباب وانقطعت الأصوات أو خفتت لأن الضباب يجعل الأصوات تتضاءل أو تنقطع ولم يستطع إنسان في السفينة الحربية رؤية إنسان آخر . وكان صوت وقع أقدام الملاحين كأنه وقع أقدام أرواح وأشباح . وكان الرّبان الحربي قد درس هذا الشاطىء وعرف أنّ أمامه خليجاً فرأى أن يرسو بسفينته في ذلك الخليج حتى ينجلي الضباب وعندما استقرت السفينة في الخليج كان الضباب كثيفاً حتى أنه منع الأعين من رؤية الشاطىء إلاّ أن صوت الأمواج وهي تصدم ذلك الشاطىء كان يصل إلى السفينة الحربية كأنه من عالم آخر غريب على قربه منها . وبعد قليل خف الضباب من ناحية مدخل الخليج فهمس مساعده في أذنه قائلاً إني أرى سفينة قرب مدخل الخليج ، فدقق الرُّبان النظر فرآها وقال من غرائب حسن الحظ أن سفينتنا لم تصطدم بها أثناء دخولنا . وكان يظنها في بدء الأمر من السفن

التي تتاجر بنقل البضائع من ثغر إلى ثغر على ذلك الساحل، إلا أن شكاً بدأ يتردد في ذهنه وفي ذهن الضابط المساعد الذي قال اننا دخلنا الخليج من غير ضجة ولكن ربانها لا بدَّ أن يكون قد أحسَّ بدخولنا ومع ذلك فانه لم ينذرنا بوجوده كي نتخذ الحذر لمنع الاصطدام. وكأنه هو ورجاله كانوا صامتين من الخوف، قال الربان الحربي نعم يخيل لي أنَّ الأمر كما تقول وزاد شكه في أمر السفينة التجارية فأرسل اليها ضابطاً ينظر في أمرها ويمنعها من الخروج فذهب الضابط ثم عاد وسأله رئيسه قائلاً هل هي من سفن هذا الساحل؟. قال لا يا سيدي إنها سفينة غريبة ضلَّ صاحبها الطريق بسبب الضباب واختلال آلاتها فلجأت الى هذا الخليج خشية أن تهشم على الصخور في أثناء سيرها. وقد أصلح رجالها آلاتها وهي مهيأة مستعدة للسير، لكن ربانها لا يجرأ على الرحيل إذ أنه يجهل الاتجاه الذي ينبغي أن يتجه إليه في سير السفينة فالتفت رئيسه الى مساعده وقال لقد كنت مصيباً إذ قلت أن رجالها كانوا صامتين من الخوف كي لا نعرف وجودهم. لكن مساعده بدأ يشك في شكه فقال إنَّ الضباب يا سيدي يحجب الأصوات ويطمسها حتى الأصوات التي في سفينتنا نكاد لا نسمعها. ولعلَّ الضباب الذي منعنا من رؤية السفينة التجارية في أثناء دخولنا منع ربانها من رؤية سفينتنا. ثم ما ذا كان مراده من إخفاء وجوده؟ قال رئيسه كي يهرب فلا ننظر في أمره. قال المساعد ولماذا لم يفعل؟. لماذا لم يهرب إنه لو حرَّك سفينته ربما سمعنا صوتاً خافتاً في الضباب ولكن الضباب كان يحجب السفينة في طرفة عين فلا نعرف أين ذهبت. وعاد الضابط الذي نظر في أمرها لاتمام حديثه. فقال إنَّ أوراقها مستوفاة لا عيب فيها وبضائعها ليست من البضائع المحرَّمة في الحرب وهي ذاهبة إلى ثغر إنجليزي ولم أجد فيها مدعاة لسوء الظن ورجالها ليس عليهم مظاهر ريبة وربانها من أهل شمال أوربا. والظاهر إنه كان قد احتسى خمراً وبدأ يفيق من خمارها وقد أخبرته أني لا آذن له بالرحيل. فقال إنه لا يجرأ على أن يحرك سفينته من مكانها في هذا الضباب سواء أذنت له بالرحيل أم لم آذن — ولكن رئيسه لم يستطع قهر شكه وقال أليس من الجائز أن تكون هذه السفينة هي السفينة التي تموّن غواصات الأعداء بالوقود السائل في خزانات طافية كالخزان الذي رأيناه. قال مساعده إنك لا تستطيع إثبات ذلك يا سيدي، والظاهر من تقرير الضابط الذي نظر في

أمرها إنه لا توجد مدعاة للريبة . قال الرُّبان الحربي سأذهب اليها وأستطلع أمرها بنفسي. وحب الاستطلاع هو مدعاة الكره أو الحب، فما الذي كان يأمل أن يجد فيها ؟ أنه كان يتلمس الشبهات ويأمل أن يجد فيها ما يسوغ شكه حتى يصير دليلاً . ولعله كان يأمل أن يرى أو يشم أو يذوق دلائل الغدر والخيانة أو ان يوحى اليه فيها إيحاءً يحوّل شكه الى يقين فيستطيع أن يعمل عملاً حاسماً وأن يوقع قصاصاً صارماً عادلاً . ذهب الربان الحربي الى السفينة التجارية فقابله صاحبها . وكان رجلاً ضخم الجسم كثّ اللحية وكان واضعاً يديه في ثيابه كأنما كان يخشى أن يقبض عليهما أحد، أو هكذا خيّل للقائد الحربي فان الشك إذا ساور النفس اتخذت له من كل أمر دليلاً وإن كان ليس بدليل . وكان صاحب السفينة التجارية يتمايل في مشيته فهل كان تمايله من الخوف إذ أن خيانة المحايد بتموينه غواصات الاعداء عقابها الموت ؟ . أم كان تمايله من بقايا أثر الخمر التي ظهرت رائحتها لمن قاربه ؟ . وفتح باب حجرته وأسند ظهره إلى جدار الحجرة قليلاً كأن به دواراً من الخوف أو هكذا خيّل للقائد الحربي ولكنه ما لبث أن تبعه الى داخل الحجرة وأنار المصباح الكهربائي ثم أعاد يديه بسرعة إلى ثيابه كأنما خشي أن يقبض عليهما عدوٌّ وأتى بنفسه على مقعد قائلاً « ها أنا ذا » ولاح عليه كأنما أدهشه صوته أو هكذا خيل للربّان الحربي الذي كان ينظر إليه كأنما يريد بنظراته أن يصل الى أعماق نفسه فيعرف أسرارها . ثم قال صاحب السفينة أريد أن أقول لك يا سيدي أني لا أعرف أين أنا فقد لزمنا الضباب أسبوعاً وكُسِرَ جهاز السفينة وكان يتكلم بسرعة كأنما يريد أن يقنع الرُّبان الحربي بالرغم منه أو هكذا خُيِّل للرُّبان الحربي ، ومع ذلك فقد كان في حديثه فترات سكوت قصيرة كل فترة هي بضع ثوان. وقد خُيِّل للرُّبان الحربي أن تلك الفترات من فترات السكوت كانت من خشية الزلل في قص قصة ملفقة ولو أنه لم يلح على وجه صاحب السفينة شيء من هذا الشعور وخُيِّل للرُّبان الحربي أن القصة مرتبة ترتيباً قلما يبلغه صدق الحديث: ولكن ربما كان هذا الظن من شكه الذي لم يستطع مغالبته ، بل كان في أثناء حديث صاحب السفينة يحدث نفسه حديثاً آخر عن جشع بعض المحايدين وتموينهم غواصات الاعداء فكأنهم هم الذين أغرقوا ضحاياها . حدّث نفسه هذا الحديث كي لا يقتنع وكي لا يخدعه حديث صاحب السفينة

وكي يشعل نار البغض في قلبه . قال صاحب السفينة إن هذا الضباب يملأ النفس قلقاً فاني لا أكسب إلاّ الكفاف من رزق أسرتي وأشار الى صورهم المعلقة على الجدار .

قال القائد الحربي : ولكن هذه الحرب ستغنيك وتغني أسرتك . قال صاحب السفينة إذا لم تتهشم السفينة وأخسرها . ولكن لماذا تغضب ياسيدي إذا درّت الحرب على التجار أرباحاً . إننا لم نشعل نار الحرب ولو قعدنا وامتنعنا عن العمل للكسب ما انتفع العالم . قال الربّان الحربي لقد أوضحت لي كيف صرت الى هذا المكان ووصلت الى هذا الساحل ودفتر سجل سير السفينة يؤيد ما تقول . ولكن من المستطاع تلفيق هذا السجلّ . فأطرق صاحب السفينة ثم رفع رأسه بعد قليل ونظر الى الربّان الحربي قائلاً ولكن هل تسيء بي الظن ؟ لأي أمر يا سيدي ؟ وبماذا تتهمني ؟ ان بضائع سفينتي لغير انجليزي. قال ذلك بصوت خيل للربان الحربي أنه متغير من الخوف كأن به بحة من القلق ولكن الربان الحربي كان يسائل نفسه لماذا لم ينذرنا بوجوده عندما دخلت سفينتنا الخليج. ولماذا كان جهاز سفينته مهيئاً للسير ؟ أليس ذلك دليلاً على أنه هو الذي يموّن غواصات الأعداء ؟ ثم خرج الربان الحربي واستعرض الملاحين وسألهم أسئلة فلم يستطع من اجابتهم أن يثبت كذب صاحب السفينة . فقال لا شك إنه وعدهم أجراً كبيراً ومكافأة خاصّة ثم هم لايخشون منا شيئاً ما داموا لا يبوحون بشيء . لم يظفر الربان الحربي بأي دليل يثبت سوء ظنه ويسوغ شكه، ولكنه رأى أنه يحدث نفسه كأن أمر غدر هذا التاجر المحايد وخيانته لقانون الحياد أمرٌ ثابت لا شك فيه . وعاد الى الحجرة فتلقاه صاحب السفينة وعلى وجهه دهشة فنظر اليه الربان الحربي وقال : يخيل لي ان دهشته مصطنعة مبالغ فيها فهي ليست دهشة طبيعية بل هو يتكلف الدهشة كي يقيم الدليل على براءته . فشعر باشمئزاز من غدر الناس ونفاقهم وقال في نفسه : لا شك ان كل الناس من آكلي اللحوم البشرية . أليس المال الذي يكسبه التاجر من تموين الغواصات ويشتري به قوته وهو من لحم الضحايا الذين تغرقهم تلك الغواصات ؟ . فكأنه يأكل من لحم الضحايا . ثم نظر إلى التاجر صاحب السفينة التجارية وقال له ممتحناً ومختبراً ألم ترَ شيئاً طافياً على وجه الماء ؟ . قال التاجر : قلت لك يا سيدي ان الضباب كان يلازمنا فلم نستطع أن نرى شيئاً . قال الربان الحربي ولكننا استطعنا ان نرى خزاناً من وقود سائل طافياً على وجه

الماء وكان الضباب يخف في بعض الأحايين ، ثم أخبره بما استنتجه من تموين بعض التجار المحايدين لغواصات الأعداء. فوقف صاحب السفينة كأنه قد صعق وألفى صعوبة في التنفس ثم تكلف ابتسامة حائرة مرتبكة لا معنى لها . فاتخذها الربان الحربي دليلاً آخر على انه مجرم . وقال ان المحايدين الذين يرتكبون هذا الجرم خليقون بعقوبة أشد من عقوبة الشنق .

فقال صاحب السفينة وهو متعجل في قوله نعم. نعم . نعم . ثم فكر قليلاً وقال ربما . ربما .

قال الربان الحربي وهو محنق مغيظ ربما انهم خليقون بعقوبة أشد من الشنق .

قال صاحب السفينة بهدوء نعم ولكن المغري لهم أولى بالعقاب يا سيدي . المغري الذي يأتي بصرّة ملؤها الذهب الى رجل فقير لا يجد قوت عياله إلاّ بشق النفس فيفكر في تعاسة ذويه وفي الذهب الذي أمامه وأنا لا أذكر هذا عن نفسي فانك قد لا تدرك يا سيدي اني على ضخامة جسمي ليست لي الأعصاب السليمة القوية التي تدفع بي الى المغامرة فأكتفي بالرزق القليل المكفول اذ لا أستطيع المخاطرة ؟ ولكن الرجل الفقير الذي يستطيع المخاطرة لا يتخيل ما يحل بركاب السفن التي تغرقها الغواصات لأنها مناظر لا يشهدها ، فهو لا يرى الاّ الذهب وشقاء أسرته التي يسعى لكسب قوتها فيرضى أن يموّن الغواصات بالوقود السائل خلسة ويوهم نفسه انه لم يشترك في اغراق أناس . ولا أعني نفسي يا سيدي. فأنا رجل لا قدرة له على المغامرة ولو غامرت مثل هذه المغامرة لأصابني الجنون من القلق وخوف العاقبة أو لحاولت إغراق قلقي باحتساء الخمر ليلاً ونهاراً . فمن أية ناحية نظرت الى هذه المغامرة أرى الوبال والخراب

قال الرُّبان الحربي وقد اقترب وجهه من وجهه بل الموت لا الخراب وحده !

قال صاحب السفينة هذه مسألة لا تهمني يا سيدي

قال الربان الحربي ومع ذلك فلا بد أن ترحل من هنا الآن — قال صاحب السفينة : في هذا الضباب ؟ قال نعم . لا بد أن ترحل في هذا الضباب الآن ، قال صاحب السفينة : ولكني لا أعرف أين أنا ولا أدري كيف أقود السفينة في اتجاه ينجيها من الصخور

المغمورة . قال الربان الحربي ساخراً : آه انك لا تدري ؟ إذاً سأدلك على الاتجاه الذي تسلكه بسفينتك — ثم ذكر له إتجاهاً باصطلاح السفن في البحار فتردد صاحب السفينة وقال أمن الحتم أن أرحل في هذا الضباب ؟ . قال الربان الحربي نعم من الحتم وإلاّ ... وإلاّ فقال صاحب السفينة لا داعي للتهديد يا سيدي سأرحل كما تريد... ثم رحل بسفينته .

والتفت الربان الحربي الى حبيبته التي كان يحدثها حديث القصة واقترب منها قائلاً : أتعرفين إلى أي شيء كان يؤدي ذلك الاتجاه الذي دله عليه الربان الحربي ؟ انه كان يؤدي الى صخور مغمورة لا تنجو منها سفينة ترتطم بها وقد اصطدمت بها السفينة وغرقت وغرق كل من كان بها . وهذا دليل على أن ربانها لم يكن كاذباً في قوله انه يجهل أين هو فانه لو كان يعرف ، ما سار في الاتجاه الذي دله عليه الربان الحربي . نعم لقد كان صادقاً ولكن صدقه لا يدل على براءته — قال الربان الحربي ذلك بقلق وهو يحاول أن يقنع نفسه أن لا داعي للقلق

* * *

ثم ترك الربان الحربي دعوى نسبة حادث القصة الى رجل آخر وقال نعم أنا الذي وجهته الى تلك الصخور المغمورة وكنت أظن أن ذلك امتحاناً له واختباراً اختبر به صدق نفسه وبراءته . ولكني الآن لا أدري أكان ذلك اختباراً صحيحاً أم أني دفعته هو ومن معه الى الهلاك بالتهديد . وعندما أفكر في احتمال براءتهم يخيل لي أني أرى جثثهم في قاع البحر تأكل منها الأسماك . نعم لا أدري أكنت قاضياً وقع جزاءً عادلاً صارماً ، أم كنت أثيماً ارتكب جرماً كبيراً ؟ .

فمدّت حبيبته يدها الى ذراعه وقالت . . . مسكين . . . مسكين يالتماسك أيها المسكين !

فسحب الربان الحربي ذراعه وقبّل يد حبيبته منصرفاً — وقال لا أدري أكنت قاضياً أم مجرماً ؟ . لا أدري ولن أدري . وسأعيش ما عشت في هذه الحيرة .

— منقولة عن الانجليزية بتصرف قليل — ع . ش

الوضع الاجتماعي
والعوامل المؤثرة فيه

« كل الأنهار تجري إلى البحر والبحر ليس بملآن . إلى المكان الذي جرت منه الأنهار ، إلى هناك تذهب راجعة » .

الشرق ، اليوم ، هو ذلك البحر الذي تصب فيه أنهار الثقافات من جميع أنحاء الدنيا . هو كالبحر في سعته وعمقه ، لكنه الآن ، ليس كالبحر في طبيعته . من البحر تتصاعد الأبخرة ، فتنعقد غماماً ، فتتساقط قطرات تكر جميعها راجعة إلى البحر ، ما جرى منها على سطح الثرى ، وما تغلغل في باطنه . الشرق صابر يرمق هذه المياه المتدفقة ، وينصت بلذة إلى هديرها ، ويستوعب برضي وغبطة ما تأتي به من خير وشر . هو اليوم في دور الاستعطاء والاقتباس . ولا بدّ من أن يأتي يوم يعيد فيه سيرته الأولى . فمنذ البدء ، ومن هذا الشاطىء ، سارت مع الموج أول فكرة عن الله ، وشعّ نورها في أرجاء المسكونة ، وأرشدت الناس إلى السماء وإلى الملكوت وما فتئت الانسانية منذ ذلك اليوم تتغذى بالزاد الذي انبثق عن هذا الشرق وتتأثر به في جميع ألوان نشاطها . ويقيني ان طور النبوءات التي ترسو قواعدها على الخيال الجامح والايمان المطلق الكفيف قد مضى ، وأن الانسانية في سيرها الطويل تدنو من العقل المقنع بالخيال ، المضمخ بالايمان ، وتبتعد رويداً رويداً عن الخيال المطلق الصرف . وإن هذا البعد سيزداد وذلك الدنو سيتعاظم . وإنها سوف لا تسير إلاّ في أثر نبي تمثل الحضارات والفلسفات والديانات وسبر أغوار الانسانية ، واهتم بتنظيم أحوالها وعلاقاتها الدنيوية التي تمهد لها السبيل للآخرة ، وأقام الدليل على تفهمه لازدواج الانسان . إن الديانات القديمة قد بالغت في الدعوة إلى الآخرة وأمعنت في اغفال المشكلات الرئيسية المعقدة التي تواجهها البشرية في مراحل وجودها . لسنا بحاجة الى من يشذب غرائز العيش فينا التي تكيفها الاختبارات وتنقيها الآلام ، بل إننا ننشد في أعماقنا نوراً يتعدى عتمة الجسد وينفذ إلى أقداس الانسان ، إلى الأسلاك الخفية التي تربطه بالألوهية الشاملة .

إن فكرة الإله ، المنبثقة عن الشرق ، قد فرضت أولاً على العالم فرضاً . ثم ما لبثت أن أصبحت هذه العقيدة أقدس ما في الوجود وأخلده على الاطلاق . وقد ظلت عبقرية

الغرب ، طيلة الأجيال التي تصرّمت على البشرية ، عاجزة عن ولادة فكرة جامعة انسانية تضاهي في سموها وقداستها وشمولها الرسالات الروحية التي جاءت على ألسنة أنبياء الشرق . ولأول مرة ، بعد هذا العقم الطويل ، تمخض العقل الغربي عن أول « رسالة » . إنها لا تتمم ما فات من الرسالات الأولى ، بل إنها تنسف وتنقض كل ما جاءت به تلك الرسالات . إن الغاية التي توخاها الأنبياء والرسل ، ودأبوا على تحقيقها ، هي أن يرفعوا الإنسان من الأرض الى السماء ، من الشر الى الخير ، من الخطيئة إلى الطهارة ، من مخالب الشيطان إلى حضرة الرحمن . أما « رسالة » كارل ماركس ، في تصوره المادّي للتاريخ ، فانها تهبط بالإنسان من السماء الى الأرض ، وتنتزعه من أحضان الألوهية لتلقي به في أتون الطبائع البشرية المطلقة من كل قيد ، ولتجعله رهن مشيئة الأساليب الإقتصادية السائدة .

وكما أنّ الفكرة الدينية قد تعهدتها مؤسسات ، تولت التبشير بها ، حيناً بالقلم واللسان ، وأحياناً باليد ، واعتبرت أمراً واقعاً مقدّساً في عرف الجماعة ، وهكذا ، فإن المادية التاريخية تولت التبشير بها أحزاب منظمة تنظيماً آلياً ، واقتلعت العقيدة الدينية الأصيلة في أصقاع كثيرة وحلّت محلها ، وكما أنّ مبدأ الألوهية قد تجسّد في اليهودية والمسيحية والإسلام ، كذلك المادّية التاريخية التي قال بها ماركس قد تركزت في الدول والأحزاب الشيوعية . فنشأ عن ذلك أن الانسان في هذا العصر أصبح واقفاً على مفترق الطرق ، وهذه الطرق مشتبهة غير متشابهة . وقد ارتطمت المفهومات الدينية التي اقتبسها عن أنبيائه ورسله بمفهومات وتفسيرات مادّية جديدة للكون والحياة والانسان ، تفرضها بعض الدول على الشعب فرضاً ، وتتحرّى العقائد والنظريات .

وقبل كل شيء تصطدم المادّية التاريخية بالمعتقد الديني وتنافي جوهر الدين وما يتفرّع عنه منافاة تامّة . فالعقيدة الدينية تقول : في البدء كانت الكلمة : وأن الشعور الديني شامل ، متأصل في أعماق الانسان ، غريزي ، وما انفكّ منذ الأزل وهو يعزو الوجود وما فيه الى قدرة تسمو على الشمول والإحاطة والإدراك الإنساني . ولم يتورّع البعض عن القول إن الإنسان حيوان متدين . أما الشيوعية الماركسية فتؤمن بالعقيدة القائلة : في البدء كانت المادّة . وبينما نرى الكتب المقدسة تقرر أن الله قد خلق الإنسان ، يجعل التصوّر المادّي للتاريخ الانسان خالقاً لله ولفكرة الألوهية . ويتوقع الشيوعيون في السياق الطويل نضوب النزعة الدينية ونموّ الفكرة الإلحادية . ولا تأملن أن يكون هذا النضوب ثمرة للنزاع الطبقي تلقاء المؤسسات الدينية والفكرة الدينية ، أو انتشار الثقافة وتبلورها في الذهن ، بل نتيجة للتحرر من العوز . لأن النزعة الدينية حسب التعليل الذي أوجدته المادّية التاريخية

للدين، ما استقرت في النفوس وتمكنت أصولها في القلوب، والتفت كالأفعى حول البشرية، إلاّ في زمن موغل في القدم، كان الانسان فيه خاضعاً لقوى لا طاقة له على كفاحها ومصارعتها. وفي تلك الحالات التي تخور فيها عزيمة الانسان من جراء الجوع والجهل، يأخذ يتعلل ويلهو بالدين ويمارس الصلاة ويتخيل آخرة تعوّض عليه ما فاته من الحظ في الدنيا، بغية أن ينسى آلامه الحاضرة فتمكنت الخرافة من استعباده والسيطرة عليه وتسييره وفق هواها، بدلاً من أن ينبذها ويتحرر منها. وينبغي على الدولة، في مثل هذه الحال، وهي أقوى وأكبر مؤسسة سياسية، أن تقود الحملة التحريرية من ربقة الكوابيس الوهمية.

وقد جاء في المادة ١٢٤ من الدستور السوفياتي الصادر في ٥ دسمبر ١٩٣٦ ما يأتي:

« ولكي نضمن للمواطنين حرية الضمير، أصبحت الكنيسة في الاتحاد «السوفياتي» والمدرسة منفصلة عن الدولة، وللمواطنين حرية ممارسة العقائد الدينية وحرية الدعوة ضد الدين ».

وبتنا في هذه الأيام نسمع من يقول أن الشيوعية تشبه المسيحية من وجوه كثيرة وإنها لا تناقض مطلقاً الصورة التي أرادها يسوع للمجتمع البشري. ومن يتدبر هذا القول الذي أريد به باطل، بروية ودرس وتمحيص، يدرك أن الجمع بين المذهبين مستحيل. فإنّ الشيوعية تؤمن أن الإنسان لم يتطوّر من حال إلى حال إلاّ بتأثير المادة فقط. فهي التي تنشىء وتنمي وتعين وجدانه وخياله واتجاهاته الفكرية. أما المسيحية ككلّ الرّسالات السماوية شقيقاتها، ترسو اصولها على الإيمان بالله والآخرة والدينونة والاعتراف بالملكية والخير والمحبة. وما من قوة تستطيع أن تؤثر بالانسان وتخلقه خلقاً جديداً إلاّ ملكوت السموات، « يشبه ملكوت السموات خميرة أخذتها امرأة وخبأتها في ثلاثة « أكيال دقيق حتى اختمر الجميع. » وان يسوع لم يناد بثورة تقلب نظم الاجتماع والاقتصاد والسياسة. إنه حث الفرد أن يثور على نفسه لا على غيره، وان يكافح ما يكمن فيه من مفاسد وشرور، لا أن يخاصم جاره أو أيّاً كان من الناس. ذلك يقيناً منه ان الاصلاح لا يأتي من الخارج بل ينبع من الداخل، من أعماق الشخصية، من ذلك الكهف الذاتي «وأما أنا فأقول لكم ان كل من ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها في قلبه. اجعلوا الشجرة جيدة وثمرها جيداً، أقول لكم ان كل كلمة بطالة يتكلم بها الناس سوف يعطون عنها حساباً يوم الدين. أيها الفريسي الأعمى نقّ أولاً داخل الكأس والصحفة لكي يكون خارجهما أيضاً نقياً ». إنه لم يحرض الفقراء على الأغنياء ولم ينغمس بالنزاع الناشب بين هاتين الطبقتين دائماً وأبداً، لا ممالأة أو رهبة منه للطبقة الغنية، ولا استهتاراً أو مقتاً للطبقة الفقيرة، بل لأن هذا النزاع العنيف لا ينبثق عنه صلاح وخير بل فساد وشرّ.

إنه لم يتورّع عن التنديد الشديد بالأغنياء فيقول : « ويلٌ لكم أيها الأغنياء . ويلٌ لكم أيها الشباعى لأنكم ستجوعون » ، ويلتفت إلى الفقراء قائلاً « طوباكم أيها الجياع الآن لأنكم تشبعون . طوباكم أيها المساكين لأن لكم ملكوت الله » . إن التلويح بالآخرة لا بدّ من أن يحدث صدًى بعيداً في تلك النفوس القاتمة المظلمة التي انكمشت على الضلال إذ انكمشت على الفلس ، وضمت جوانحها على الحقد والبغضاء إذ أبت أن تنفتح على المحبة والعطاء ، وغلّت يدها إلى العنف فلم تستمرىء اللذة المنبثقة عن البذل والسخاء . ان الكلمات الوديعة التي تفوّه بها يسوع ، الصادرة عن نفس مطمئنة مؤمنة لن تنسجم مع تلك الحشرجة الشيوعية الصادرة من صدور مفعمة بالأحقاد والضغائن والبغض . « ان الشيوعيين يصرحون علانية أن نواياهم لا يمكن أن تتحقق إلاّ إذا مني النظام الاجتماعي التقليدي بانقلاب عنيف » . وبينما نرى يسوع يقول لأحد الذين معه : « رد سيفك إلى مكانه لأن كل الذين يأخذون بالسيف بالسيف يهلكون » . نسمع الجماعات الشيوعية تصرخ بلسان جورج ساند : « الكفاح أو الموت . الصراع الدامي أو العدم » . وتنشر إحدى الجرائد الماركسية الثورية هذا النداء الذي يدعو إلى ثورة لا تبقي ولا تذر ، ولا تقع فيه على أثر للرحمة أو الانسانية. «هيا اذبحوا ! ليكن الانتقام فظيعاً» هكذا يجب أن تكون لازمة الأناشيد الثورية، وهكذا سيكون الصوت الذي سوف تطلقه اللجنة التنفيذية بعد انتصار طبقة العمال . « ففي الأوقات العصيبة يتحتم على كل ثوروي مؤمن أن يضع دائماً نصب عينيه هذا المصير : اما أن يتوصل للقضاء على أكبر عدد ممكن من أعدائه ، أو يتأهب للقضاء على نفسه » . وجاء في جريدة أخرى : « ان هذا الجمهور . . . يفهم جيداً أن من مصلحته أن يذبح المالك ويحرق الأكواخ الموبوءة ، ويستولي على القصور الجميلة التي شادها بنفسه ، ويحطم الصناديق الحديدية ، ويقلب كل سلطة : فيشنق الملك والوزراء والشيوخ والنواب والمحامين وضباط البوليس وكل أذنابهم . ان هذا الجمهور الحقير سوف لا يصبح أكثرية إلاّ في يوم الثورة بالذات » .

ما هي القوى التي تكيف المجتمعات البشرية وما هي المؤثرات التي تحدد وتعين الوضع الاجتماعي ؟ على هذا السؤال يجيب كارل ماركس ، ومن خلال جوابه تتبدى نظريته القائمة على التفسير المادي للتاريخ : « ان الناس في انتاجهم الاجتماعي خلال وجودهم ، تنشب بينهم علاقات محدودة ضرورية خارجة عن ارادتهم . وان العلاقات الناجمة عن الانتاج تتناسب مع درجة التطور الذي بلغته قوى الانتاج المادية . ومجموع هذه العلاقات الناشئة عن الانتاج تكون بنية المجتمع الاقتصادية ، وهي الأساس الذي يقوم عليه بناء حقوقي وسياسي ويتصل بأشكال معينة من الوجدانات الاجتماعية . إن أسلوب الانتاج في الحياة المادية يطبع

مظاهر الحياة الاجتماعية والحقوقية والفكرية على وجه العموم . وليس وجدان النـاس هو الذي يحدد كيانهم ، بل على العكس ، فان كيانهم الاجتماعي هو الذي يحدد وجدانهم » .

وجاء في « البيان الشيوعي » على لسان ماركس وانجلز : « أنحتاج إلى ذكاء حاد وعميق لنفهم ان أفكار الناس ونظراتهم الواقعية ، وكذلك مبادئهم التي تتعلق بالماهيـات ، وبكلمة وجدانهم ، تتحور جميعها تبعاً لظروف وجودهم وعلاقاتهم الاجتماعية ويتكلمون عن الافكار التي تثير المجتمع بكامله . وهم في ذلك لا يقررون إلاّ واقعاً وهو ان العنـاصر التي يتكوّن منها كل مجتمع جـديد ، قد تكونت في المجتمع القديم ، وان انحلال الأفكار القديمة يسير جنباً إلى جنب مع انحلال ظروف المعيشة القديمة » .

ولـكي تتحقق آمال ماركس وانجلز وتصدق نظريتهما ينبغي أن تنشب ثورة عنيفة يتم فيها النصر للطبقة العاملة التي تأخذ على عاتقها نسف المجتمع البشري التقليدي وازالة رأس المال وكل أساليب الانتاج القديمة التي اعتمدتها البشرية في الزمن القديم .

هذه هي زبدة النظرية التي قال عنها انجلز نفسه : « ان ناموس المادية التاريخيـة الذي اهتدى إليه كارل ماركس ، يضاهي ناموس الجاذبية الذي توصل نيوتن لـكشف عنه » . ويقول لابريولا : « ان الشيوعية تستطيع أن تتنبأ عن المستقبل » .

يبدو لنا من فحوى هذه الأقوال ان الشطط الذي تنطوي عليـه يطغي على الصواب ، وان المغالاة تفوق حد الاعتدال وذلك راجع لسببين : أما الاول فهو ان المتشيعين المغالين قد عدوا نظرية المـادية التاريخية في عداد النظريات العلمية الثابتة التي لا تقبل النقض مطلقاً وتصدق في كل زمان ومكان ، والثاني لأنهـا تناولت بالتفسير والتعليل حالات اجتماعيـة ـتاريخيةـ نفسية . وفي التاريخ والاجتماع لا يمكننا أن نرتجل نواميس اعتباطاً ونقرر أن الجماعات ستسير حتماً بموجبها . فاعتبرنا النظرية القائمة على الظن ، أو التي ثبتت صحتها في ازمنة وأمكنة وحالات معينـة ولم تختبر في أزمنة وأمكنة وحالات مختلفة ، قانوناً علميّـاً لا يتزعزع .

ان كتاب « رأس المال » الذي ألفه ماركس نحا فيه نحواً جديداً وأثار اهتمام المفكرين عامة والمؤرخين خاصـّة ، إذ أنه أشار مشدداً إلى الدور الذي يلعبه العامل الاقتصادي في حياة الأمم وكيان الشعوب . كان الأساس الذي يرسو عليه علم التاريخ والدراسات الاجتماعية واهياً جدّاً . كان المؤرخون لا يعنون إلاّ بالناحية السياسية والعسكرية . ويعد الملك وحده قوة وحيدة فعالة في جميع نواحي حياة الأمة . ولما نزل نؤرخ العصور الأدبية ونحددها تبعاً للعصور السياسية .

ومما لا مشاحة فيه أن التطوّرات التي طرأت على أساليب الانتاج قد أحدثت تطوراً في العلاقات الـكائنة بين العامل وصاحب العمل ، وقضت على الجفاء ، واللامبالاة التي اتسمت

بها العصور التي تقدمت الثورة الصناعية ، وأثرت في حياة العمال ومستوى معيشتهم ومدة عملهم ومقتنياتهم من أثاثٍ وأوانٍ وثياب وغذاء . ذلك لأنَّ الإنتاج السريع الوفير سبَّب أرباحاً هائلة تدفقت على صناديق أرباب العمل وجيوب العمال . وعن ارتفاع الأجور تفتق الذهن عن رغبات جديدة أو كامنة . وبفضل الامكانيات المادّية التي أصبح ينعم بها العامل وشيوع الحرية ، وانتفاء الامتيازات ، وتعدُّد نواحي الخير في الحضارة الحديثة ، استطاع أن يلج جميع الأبواب ويتمتع بصنوف اللذات وبفضل تقنين مدّة العمل أصبح ينعم ببحبوحة من الوقت ينفقها في اللهو والعبث ، أو الانصراف للاستزادة من الثقافة ، أو الاستمتاع بالجوّ العائلي . وفي ظلّ النظام الاقتصادي السائد تصدعت أركان العائلة وطغت الروح الفردية في أعضائها فتبدَّد شمل الأسرة . وقد توقع ماركس هذا المصير الكئيب الذي تنتهي إليه العائلة . فيقول : « إنَّ الكلام الفارغ عن العائلة والتربية والحنوّ القائم بين الآباء والأبناء يصبح مدعاة للاشمئزاز ما دامت الصناعة العظيمة ماضية في القضاء قضاء مبرماً في صفوف العمال على الروابط العائلية . فيعامل الأولاد وكأنهم سلع تجارية بسيطة وأدوات للعمل . فالأسرة بدلاً من أن تكون ملاذاً لأعضائها يفزعون إليها كلما أحدقت بهم الهموم قد تفرق أبناؤها وتشتتوا . وهكذا فقدت العائلة العنصر الهام الذي يبرّر وجودها ويدعو لإجلالها ، وهي الوحدة التي ينميها الاجتماع وما يتخلل الاجتماع من تعاطف ومحبة وعنايةٍ . وتحوَّل البيت الى مجرد مخدع يفد إليه أفراد من مختلف الانحاء وفي أوقات مختلفة ، قد أنهكهم التعب ، وامتصَّ المجتمع ما في قلوبهم من حبٍّ وعطف ، وقضى المعمل والشارع على ما في نفوسهم من عفةٍ وطهارةٍ ، واستنزف الطيش ما في جيوبهم من مال . وبما أن المرأة في المجتمع الماركسي تعد عاملاً اقتصادياً أولاً وأمّاً ثانياً ، فقد انتزع صغارها من حضنها وأرسلوا إلى رياض الأطفال . ولئن قدّر لهم أن يحظوا بالعناية والغذاء فإنهم يظلون مفتقرين الى العطف والحنان اللذين لا ينضجان إلاَّ في صدر الأم . وبدأ العامل يحاكي من هو فوقه رتبة وغنى ويجاريه في معاشه وأطوار حياته . ولكي يبلغ الدرجة التي يصبو إليها ، ويتذوّق ألوان الترف والرفاهية ، عمد إلى تحديد النسل وأذن لزوجه وبنيه بالعمل كي يخففوا العبء عن كاهله . ثمَّ أنَّ التطوُّر الاقتصادي حدا بالحكومات أن تسنَّ قوانين تتعلق بالعمل وشؤون العمال فمنحتهم حق تأليف النقابات ، وضمنت لهم المساعدة في حالة المرض ، والتعويض في زمن الشيخوخة ، وفرضت شروطاً على أرباب العمل فيما يتعلق بالنساء والأولاد وحالة البناء وساعات العمل ... وأصبح للعمال بفضل تكتلهم وزن يذكر في الشؤون السياسية عامة .

هذه هي مجمل النواحي التي تأثرت ولا تزال تتأثر بالعامل الاقتصادي وبتطوّر أساليب الإنتاج. أما ماركس فانه يعزو الى العامل الاقتصادي، كما ظهر من أقواله، قوة تفوق حد التصوّر: فهو الذي يكيف شؤون معيشتنا والسياسة والحقوق والدين والأخلاق، وبالجملة جميع نواحي النشاط الإنساني. إن هذا التفسير المادّي للتاريخ ينسف نسفاً تامّاً جميع الآراء والنظريات التي تقول، وثبتت حقيقتها، إن الانسان يتأثر بالدين والأرض والعرق والخصائص الجسدية والنفسانية. وبمعزل عن المؤثر المادّي، فانه يمر بهذا الكون كما تمر سحابة صيف. فالدين الذي ينكر أثره ماركس من أعظم المؤثرات في المجتمع البشري. وقد ساهمت الديانات مساهمة عظمى في جميع التطورات والمراحل التي مرت بها البشرية. وكثيرون يعزون تقدم بعض الشعوب الى رقي الديانة وسمو مبادئها التي يعتنقها أبناؤها. ثم أن الدين في لبابه مبادىء أخلاقية تهذب سلوك الانسان وتصلح نفسه وتطهرها من أدرانٍ كثيرة. والدين يتوخى السلام الدائم للانسان في هذا العالم والحياة في جوٍّ من المحبة. وكل رسالة دينية تتضمن نواهي ومواعظ تأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر وتحض على البر والرأفة والوفاء. وأن الانسان تأثر الى مدى بعيد جداً بالطبيعة وما يتعاقب عليها من فصول ويكر من ليل ونهار. نعم أنه تأثر بالنهار الذي يبعثر الأفراد ويبدد الشمل، وبالليل «ليل الأشباح والأرواح والأخيلة» كما يقول جبران ليل الظلام والمخاوف التي تفرض الاجتماع فالائتلاف. وبهذا الصدد يقول: ألان: «إنّ مؤسساتنا وليدة الليل قبل أن تكون وليدة الجوع أو العطش أو الحب». ومن نظام الحراسة الذي يفرضه الليل يمكننا أن نفهم «لماذا تفضل الأمانة على الشجاعة». ولن يقوى الانسان أن ينجو من أثر المرأة وما ينشب بينه وبينها من علاقة، وما يتخلل هذه العلاقة من حبٍ وبغض، ووصلٍ وهجر، وما تتصف به من قبح وجمال، وما يؤثر عنها من فضيلة ورذيلة... ويتأثر كذلك بالرجال والأولاد، والصحة والمرض، والحرب والسلم، والكفر والايمان. من هذه الأمور وغيرها يتكوّن نسيج حياتنا. ولاختلاف التضاريس، وتنوّع المناخ، وحدوث الغزوات والحروب والمجاعات، والحدود المنيعة التي تحدّ من فعاليات الشعوب ومن مدى اختلاطها واحتكاكها، نصيب عظيم في نشوء المدنيات ونموها وتقهقرها.

إن مبدأ المادّية التاريخية ينافي تماماً مبدأ المسؤولية في الانسان ويئد حرية الاختيار، وتسقط عنه مسؤولية الخير والشر ولا يحق للمجتمع أن يناقشه الحساب لأن لا قدرة له ولا حيلة في صوغ طباعه وتهذيب مناقبه وعواطفه بل هي رهن مشيئة قوة جامدة آلية.

والايمان بالمادية التاريخية يولد عقيدة الجبرية الاقتصادية التي تحدد مصير الانسان

تحديداً رياضيًّا . فما دامت أساليب الانتاج هي التي تعين وجدان الأفراد والجماعات فينبغي أن تتماثل الجماعات البشرية في أخلاقها وعواطفها ودياناتها وفنونها وآدابها ، إذا تماثلت أساليب الانتاج فيها وبلغت درجة واحدة من التطور الاقتصادي . وفي الواقع ان التمايز في هذا العصر الصناعي قد عظم وازداد وضوحاً وانتشاراً . ولا تتوفر المماثلة إلاّ في البيئات المتبدية المنكمشة . ومرد ذلك الى أن الجماعات البشرية لا تخضع للمؤثرات الاقتصادية فقط ، بل أنها تتأثر بجميع التيارات ، من أدبية وعلمية وفنية ونفسية وبدنية ، التي تتفاعل طليقة ضمن تخوم القطر الواحد ، وتتأثر بالتيارات المنبثقة عن مختلف البلدان . وقد أصبح من الميسور في هذا العصر انتشار الحضارات . ويزداد التنوع ويعمق ويعظم بمقدار ما يتمتع الانسان بحرية العمل والقول والفكر والوجود . فالعمال الذين يعملون مجتمعين ساعات معدودات في المصانع ، يتفاعلون فقط ضمن الجو العملي وما يتفرع عنه من اهتمام بمصالحهم وأجورهم . لكنهم لا ينسلخون عن المجتمع الذي يعيشون بين ظهرانيه ، ولا ينقطعون عن التأثر والتأثير به من شتى النواحي . ان المجتمع زاخر بالمؤسسات الثقافية من علمية وأدبية وفنية ، والصحافة والمسارح والنوادي والكتب وغيرها من ألوان النشاط الفكري والاجتماعي .

وإذا كانت الشيوعية الماركسية مؤمنة بمناعة وصحة التفسير المادي للتاريخ ، وان الانسان لا فكاك له من سلطان أساليب الانتاج ، ولا يستطيع فرد مهما سما أن يكون دولاباً يدور يمنةً بين دواليب تدور يسرةً ، فعلامَ نراها تتوسل لاقرار هذا المبدأ بشتى الوسائل والسبل : انها تشجع كل حركة ترمي الى الاضراب والانتقاض والشغب ، وتوجه الصحافة والتأليف والتفكير والوجود توجيهاً صارماً عنيفاً لا رحمة فيه ولا هوادة ، وفق هذه الأهداف . ونراها تعاكس وتعوق كل اصلاح ، اجتماعيًّا كان أم اقتصاديًّا ، ذلك لأن كل محاولة ترمي الى اصلاح الفاسد تؤخر الثورة التي تقلب المجتمع انقلاباً يمتد الى الأعماق .

ويقيني أن الآلة التي ابتكرها الانسان والأساليب الاقتصادية التي طرأت على الانتاج لم تنفرد وحدها بالتأثير في حياة العمال أنفسهم ، بل أن الفضل العظيم يعود الى زعماء انبثقوا من صميم الشعب يحملون بين جوانحهم قسطاً كبيراً من العطف والرحمة وقسطاً أكبر من الفهم والوعي لشؤون العمال ومشاكلهم . ومن الامتهان لعبقرية الانسان وفكره وخياله ان نهبط به الى مستوى الآلة الجامدة ونقارن بينه وبينها . وان في شخص ماركس نفسه ما ينقض قوله ويدحض زعمه . فعندما وضع تآليفه لم يكن سوى مثالي idéologue من طراز كبير . فمثله ومثل غيره مثل مشكاة استضاء بها العمال للاهتداء الى الحقوق المهضومة . ولعل حالة العمال لم تكن ما هي عليه الآن لو لم يوجد ماركس .

ذكرت قبلاً أن لابريولا يقول « إن الشيوعية تستطيع أن تتنبأ عن المستقبل » والآن أتساءل : هل تحققت النبوءات التي توقع ماركس حدوثها ؟ لقد تنبأ أن الملكية الصغيرة سائرة في طريق الزوال وستحل محلها الملكية الجماعية . ويرد السبب إلى انتشار وسائل الإنتاج والقوى البشرية التي تتبدد فيما لا طائل تحته والفقر الذي أصاب التربة من جراء الاستغلال المتتالي ، إن هذه النبوءة — ازالة الملكية الفردية — لم تتحقق طبيعيـاً ، بل تمت في الأقطار التي استعمل فيها العنف والمصادرة بغية تنفيذ هذه النظرية . أما في البلدان الأخرى فقد عمدت الحكومات الى تحديد الملكية الفردية تأميناً للمصالح العامة ولإيجاد الانسجام بين مختلف الطبقات لا القضاء عليها . وفي عام ١٨٥٠ كان عدد الأسر في انجلترا التي تملك من ١٥٠ — ١٠٠٠ جنيه ، ٣٠٠٫٠٠٠ عائلة . وفي عام ١٨٨١ بلغ هـذا العدد ٩٩٠٠٠٠ أسرة . فما دام عدد الذين يملكون يزداد ، وعدد الذين لا يملكون يتضاءل ، فإننا نبتعد شيئاً فشيئاً عن المحجة التي تنبأ عنها ماركس . وفي ذلك يقول كوتسكي : إذا كانت المساوىء الكبرى الناجمة عن أسلوب الإنتاج الرأسمالي لاصقة بأوائله فقط ، وينبغي أن تتناقص فيما بعد ، واذا كان عدد أولئك الذين يملكون يزداد ، وإذا كانت المتناقضات الاجتماعية تتضاءل شيئاً فشيئاً ، وإذا كانت الطبقات العاملة تأمل أن تتحرر أو على الأقل أن تحرز مكانة مرضية ، فأية فائدة تنجم عن الاشتراكية ؟ أقر بصراحة إنني أعتبر الاشتراكية خطأ فادحاً » .

وليست الحروب التي ملأ ذكرها بطون التواريخ . إلا نزاعاً بين الطبقات التي تعود في منشئها إلى التفاوت في المراحل الاقتصادية . ويقول انجلس : « إن ماركس أول من اكتشف الناموس العظيم الذي يسم الحركة التاريخية . وطبقاً لهذا الناموس ، فان كل ما حدث من المعارك التاريخية في الحقل السياسي والديني والفلسفي وفي أي حقل آخر مثالي ، ليست إلا تعبيراً صادقاً تقريباً عن المعارك التي تنشب بين الطبقات الاجتماعية . وينجم عن هذا الناموس أن وجود هذه الطبقات ونزاعها يرتبطان بالمرحلة التي بلغتها حالتهما الاقتصادية وأساليب الانتاج ، وأخيراً بأسلوب المبادلة الذي يتفرع عن الانتاج » .

ويستخلص من رسالتين كتبهما انجلس إحداهما في ٢٧ اكتوبر ١٨٩٠ والاخرى في ٢٥ يناير ١٨٩٤ أن الظواهر الاقتصادية هي الباعث الأول على حدوث المظاهر السياسية والحقوقية وحتى التصورات الدينية التي لا تعد إلا ظلالاً اقتصادية . ولو لم يوجد نابوليون لاحتل آخر مكانه . فان كل شيء رهن الواقع والضرورة » .

هل الحروب التي جرت في العصور القديمة أم الحديثة كانت حروباً طبقية أم حروباً بين الأمم ؟ ان جميع الحروب التي نشبت في الشرق والغرب لم تكن حرباً بين الطبقات ، بل انها

في الصميم نزاع بين القوميات التي تقطن أوطاناً معينة وتتكلم لغة واحـدة وتنتسب إلى أقوام تخضع في كينونتها لدورة حياة واحدة . وان العامل لما يحقق حلم ماركس الجميل : « العمال لا وطن لهم » لجميع الأحداث ، وأقواها الحرب الأخـيرة برهنت أن العامل مواطن قبل وبعد كل شيء وإنه ينظر إلى الامور ويزنها من خـلال مصلحة أمته . وما من ثورة أو حرب أو عصيان إلاّ ساهمت فيها جميع الطبقات وكانت نتيجة لعوامل اقتصادية وسياسية واجتماعية وعرقية وغير ذلك من الأسباب الخفية . من ذا الذي قام بأعباء الثورة الفرنسية ؟ يقول سان سيمون : « ان الثورة الفرنسية كانت من صنع العلماء والفنانين الذين آذتهم النظم الاقطاعيـة في الصميم ، فقذفوا بالمعدمين الجهلة ضد المالـكين المحافظين » . وليست أساليب الانتاج التي حدت بالشعب إلى الثورة ، بل كتـابات ڤولتير التي ما انفكت تحض على التحرر الذهني حتى تنال الحرية ، وكتابات روسو التي كانت تدعو إلى الفوضى الاجتماعية إلى أن تحصل المساواة والعدل . ولم يقم العبيـد وحدهم في الثورة التي نشبت في روما ، بل كان يوجد بينهم عدد غير قليل من الأغنياء الذين كانت تحدو بهم الرغبة إلى تسلم زمام الشؤون السياسية التي لا تتطلع إليها الطبقة الفقيرة المعدمة . فتضافرت مطامع الطبقة الفقيرة التي تتوخى العدل الاجتماعي ومطامع الطبقة الغنيـة التي تنشد المنصب والجاه . وان الحروب الصليبية لم يكن سببها الباعث الاقتصادي ولم يكن رائدها الاقتصاد ولم يلمح فيها ظل للطبقات والفوارق العنصرية واللغوية والاقليمية ، بل إنها صهرت قوميات شتى كانت متباعدة متباغضة . وتعود في أبعد أسبابها إلى نعرات دينية تمثلت في الفريقين المتحاربين . وان الذي دفع إليها ونمى الحركة وجعلها تشمل معظم شعوب أوربا البابا ذاته . ولا يتطرق الشك إلى مدى السلطة التي كان يتمتع بها يومئـذٍ . فقـد جمع في قبضته السلطتين الزمنيـة والروحية . ولم يكن يسعى لتيسير سبل التجـارة ، بل كان يسعى لانتزاع القبر المقدس من قبضة الدولة المسلمة المسيطرة . وقد ترتب على هذه الحرب الدينية نتائج اقتصادية خطيرة : فتوهجت العلاقات بين الشرق والغرب ولاحت للفريقين امكانيات تجارية لم تكن في الحسبان فان القبر المقدس أصبح يجذب سنويّـا ألوفاً من نصارى الغرب الذين يؤمون الديار المقدسة. وقد نشأ عن تدفق الحجاج الى سوريا شركات للملاحة في البندقية ومرسيليا . ولست أعدو الغرض المعقول إذا قلت أن اكتشاف أميركا فكرة نبتت من صميم العـلاقات التي تلت تلك الحروب . إذ من المعلوم أن مدن الشرق : القسطنطينية وحلب ودمشق وبغداد ، كانت أسواقاً لحاصلات الشرق الرئيسة . وان ابان غزوتهم سوريا قد تعرّفوا الى هذه المراكز . وتذوّقوا الأفاويه وشاهدوا العاج والأقمشة الحريرية والسجاد . وعلامَ كان يبحث كولمبوس ؟ ألم

تكن الهند ، منبع الغرائب ، هدفه ؟ وان البرم الذي أصاب التجار من طول الطريق الشرقية وأثرها في ارتفاع الأسعار حملت أولي الشأن على التفكير جدياً في الاتصال مباشرةً بالهند . وعلى أثر الحروب الصليبية تغيرت معظم خطوط الملاحة وطرق التجارة البرية. ولا يتسع المجال لذكر الفوائد الزراعية والصناعية والعلمية التي حصل اقتباسها من قبل الطرفين لدن احتكاكهما .

وتستولي علينا الحيرة إذا ما رمنا تعليلاً صحيحاً لاختراع المطبعة . هل هي التطورات الاقتصادية أم الثقافية التي وجهت ذهن جوتنبرج ودفعته للبحث والتفكير بطريقة تريح الناس من عناء النسخ ؟ لا نجد لذلك تعليلاً معقولاً إلاّ في التقدم الثقافي وتفتح الأذهان وما ينشأ عن ذلك من رغبة ملحة للمطالعة والبحث والتنقيب واقتناء الكتب . وعلى أثر اختراع المطبعة ، وطبع الكتاب المقدس ونشره بين الناس بلغة سهلة سلسة ، بعد أن كان وقفاً على الكهنة ولا يتجاوز نطاق الصوامع والأديرة ، حصلت حركة الاصلاح الديني التي نادى بها لوثيروس . زد إلى ذلك الكراهية التي كانت تضمرها الشعوب الشمالية للشعب الايطالي الذي يتحكم في شؤون الكنيسة . وقد أزكى لوثيروس هذا الاستياء بعد عودته من روما إذ قال : « ان الجرائم في روما لا توصف . فمن الألمان شريرون. أمّا الطليان فانهم كفرة ويهزؤون بالدين الحقيقي . إنهم يسخرون منّا نحن المسيحيين ، لأننا نؤمن بكل ما جاء في الكتاب . . . ويخشون القديس أنطونيوس أكثرمما يرهبون المسيح . . . » وكانت النهضة الأدبية في القرن السادس عشر نتيجة لازمة لبعث الثقافتين الأغريقية واللاتينية ونشر المؤلفات القديمة . إن المطبعة أحدثت حركة للنهضة في القرن السادس عشر ، أما في القرن التاسع عشر فانها نشرت المجلة والجريدة . ولا يمكننا بحال من الأحوال أن نحدد الأثر العظيم والدّور الكبير الذي لعبته الصحافة في العصر الحديث . إنها أكبر أداة للتوجيه والاذاعة في هذا الجيل . وإنّ ماركس نفسه مدين للصحافة التي عملت على تبسيط ونشر نظرياته ومبادئه في صفوف الشعب . ولا يعد تحقيق الماركسية الشيوعية في روسيا انتصاراً لمبدأ المادّية التاريخية بل تكذيباً قاطعاً وتأييداً صارماً لضعف النظرية وفشل النبوءة. ذلك لأن الثورة الشيوعية نشبت في البلاد التي لم تترعرع فيها الرأسمالية وتظهر مفاسدها ومساوئها ، وإن أساليب إنتاجها كانت متأخرة إذا ما قورنت بالدول الغربية ، لكن استتباب الأمر للشيوعية عام ١٩١٧ يعود إلى ضعف الجهاز الحكومي القيصري الذي انهار عند أول صدمة، وبانهياره آلت البلاد إلى يد حازمة حديدية هي الحزب الشيوعي . وقد تكون روسيا مدينة في ثورتها الاجتماعية ـ الاقتصادية ـ السياسية لا الى ماركس وتلاميذه فحسب، بل الى الشبان الذين عاصروا مراحل الثورة الفرنسية ، وشهدوا يقظة الروح القومية في البلاد التي غزاها نابليون ، ورأوا

عن كثب الفرق الهائل بين مستوى حالة الفلاح الفرنسي والفلاح الروسي . ويقول «پليكانوف» في كتابه القيم «المدخل الى تاريخ روسيا الاجتماعي» الذي ألفه وهو متشبع بمبدأ التصور المادي للتاريخ ، ان الانتصار الذي أحرزته القبائل المتبدية على الروسيا في اقطاع كييف ، اضطر الجماعات الروسية أن تنسحب صوب الشمال والشمال الغربي من روسيا ، مما أدى إلى تأخر ظهور المدنية الروسية وسبب انحطاط الطبقات القروية . ويذكر أيضاً ان للوسط الجغرافي الروسي اثراً بارزاً في التاريخ السياسي من جميع الوجوه .

ولا يمكننا ان نسلم بصحة قول أنجلس : «إن كل شيء رهن الواقع والضرورة» . فالظروف تكوّن الجو الملائم لظهور الشخصيات ، لكنها لا تخلق الأشخاص وما ينطوون عليه من خلق وفكر وخيال . ولو كان الأمر للظروف التي يسري تأثيرها على الجماعات بمعدل واحد لجملتهم نسقاً ، وعلى درجة واحدة من الوعي والفهم ، فلو لم يظهر محمد في الحجاز يومئذٍ لما ظهر غيره . والبرهان على ذلك أن تلك البلاد عجزت عن انجاب شخصية كمحمد قبل أن يولد وقبل أن يبلغ سنّاً معلومة رغم أن ظروف المعيشة وملابسات الحياة وأحوال الجزيرة لم تصب بتغيير أو تبديل . وما من عظيم كان وليد ضرورة ساعة ظهوره ، أو استجابة لنداء الجماعات المتضورة . ولو كان وليد الضرورة القاهرة لما حورب مصلح ولا نبي ولا اضطر هو أن يحارب الجماعات التي ظهر في وسطها أو يكافحها تارةً باليد وطوراً باللسان . فيسوع صلب ، ومحمد هاجر وحارب بغية اقرار فكرة التوحيد في القلوب . وان يسوع يعبر عن الحقيقة التي اكتنفت رسالته إذ يقول : «ما جئت لالقي سلاماً بل سيفاً . فاني جئت لافرق الانسان ضد أبيه والابنة ضد أمها والكنة ضد حماتها» . ولو كان المجتمع العربي يشعر آنئذٍ بتعطش حقيقي إلى رسالة سماوية لما عامل محمداً معاملة تجلت فيها الغلظة والقسوة والكفر . وكيف نستطيع أن نعلل تغلغل الرسالات السماوية رغم منافاتها المبادىء السائدة والعقائد المستقرة ورغم العراقيل التي تعترضها ، والشر الذي يلاه المبشرون بها .

جميلٌ أن نجمع في العقيدة بين الولاء للأرض والتطلع الى السماء ، ونصل في الحياة بين القلب والبطن ، ونوفق بين رغبات الروح ومتطلبات الجسد . وليس بجميل أن تحول الأرض بيننا وبين السماء وتطغي المادة على الروح . انني أؤمن بالانسان وما فيه من قوى فاعلة في سبيل الخير والجمال والحق ، وأؤمن ان الحياة سوف لا تنفك تغربله في غربال اللذة والألم كي تدنيه هيناً فشيئاً من المحبة القصوى التي تتجلى في المحبة الشاملة . وركب الانسانية ما انفكّ سائراً صوب هذا الهدف رغم وعورة الطريق وطولها وكثرة الأهوال وخور العزائم .

صافيتا — سوريا **الياس يعقوب**

المرأة في البرلمان

لم تذهب صيحات الاتحاد النسوي عبثاً . ولا انطلقت صرخات السيدات أدراج الرياح بل قرعت آذان كثيرين من ذوي الهوارب،واستجابت لها نبضات قلوب الطبقات الراقية . وجاوبتها نغمات عواطفهم ونبرات رشادهم . وكان من هذه النبضات ان صحت عزيمة الأستاذين الكبيرين سعادة علوبة باشا وسعادة علي زكي العرابي باشا ان يتقدما إلى البرلمان كل منهما على حدة بمشروع قانون يخوّل المرأة المصرية حق الانتخاب . وقد كان لي الحظ أن اطلع على قسط من مشروع علوبة باشا فرأيته مُدعماً بالمنطق القاهر والحجج الدامغة فضلاً عن السندات القرآنية الناصعة الحق .

ولا ندري الآن ماذا يلاقي هذا المشروع من مناقشات أعضاء البرلمان ، وبكم يهاجم من الحجج الواهية والبراهين المتصدعة . ولكننا نعلم منذ الآن إنه سيلاقي من خشونة الجنس واعتصاب النفوس المتعصبة وقذائف التقاليد المتحجرة ما يستميل عنه إلى نقيضه من أكثرية المجلس . وقد تكون أكثرية ساحقة . ومهما كانت قليلة أو كثيرة فالأرجح ان المشروع يحبط في المرة الأولى ويصفق لحبوطه الأنانيون المستبدون المستلذون الاستعباد . على أن حبوطه لا يكون هلاكاً إلى الأبد . بل لا بدّ أن يبقى فيه رمق ، أو أنه يولد ثانية عن يد ذينك الفاضلين اللذين في مقدمة من يدفعون بالمجتمع المصري إلى الامام في سبيل رقيه ويشترك معهما آخرون ممن يتفقون معهما في هذه النزعة الاجتماعية المباركة .

على أننا نعرف منذ الآن ماذا تكون حجج المعارضين والمقاومين والمناكدين الذين من خليقتهم محبة الاستبداد ، والمختمرين بعقيدة أن المرأة مهما ارتقت فبحكم خُلُقها يجب أن تكون أمة أو شبه أمة،على الرغم من منح الكتب المقدسة لها حقوقاً اجتماعية واقتصادية كحقوق الرجل .

أول حجة عند خصوم المشروع أن المرأة خُلقت بطبعها ثانوية للرجل ، ولها وظيفة

في الأسرة، تختلف عن وظيفة الرجل كل الاختلاف بل هي دونها قيمة وشأناً . وبالتالي يمتد هذا الاختلاف إلى جميع الأحوال الاجتماعية .

يقولون إن وظيفة الرجل خارج المنزل مختصة بالسعي إلى الرزق للقيام بمعيشة الأسرة . وإن وظيفة المرأة حضانة الأولاد وتربيتهم والقيام بجميع الواجبات المنزلية .

حسنٌ . ولكن هل وظيفة المرأة هذه دون وظيفة الرجل قيمة ؟ وهل تقتضي مجهوداً أقل مما تقتضيه وظيفة الرجل ؟ لا لعمري . إن وظيفتها أهم جداً وأغلى قيمة وعملها أشق جداً من عمله . فلكي تقدم المرأة للمجتمع رجلاً وطنياً نشيطاً ونافعاً ومخلصاً لوطنه يجب أن تحمله جنيناً في أحشائها تسعة أشهر أولاً . ثم تضمُّه إلى صدرها وفي حجرها شهوراً أخرى ، ثم ترعاه بضع سنين إلى أن تقدمه الى المدرسة فالكلية . ولا تنتهي مهمتها بشأنه حتى بعد أن يصير يافعاً ، بل بعد هذه السن تبقى مشغولة به عاطفة عليه مهتمة بحياته إلى أن يستقل . أضف إلى مهمة تربيته سائر الواجبات المنزلية المعروفة . هذه وظيفة المرأة إذا كان عندها ولد واحدٌ، فما بالك اذا كان عندها بضعة أولاد ؟ لا أظن أباً من الآباء من يجهل أو يتجاهل أن عمله الذي يستعظمه تجاه عمل المرأة إنما هو عمل يومي يجري على وتيرةٍ واحدةٍ منذ يضع نظامه إلى أن يتقاعد عنه . فمتى جرى الرجل في سياق العمل أصبح النظام يعمل من تلقاء نفسه من غير أن يعنت هو فيه نفسه كثير الاعنات . لذلك يجد الرجل عنده متسعاً من الوقت للتسكع في طريق الحياة والاختلاف الى المقاهي والملاهي والمعشر الفكه وأحياناً إلى المعشر الفاسد .

فاذا كانت تلك وظيفة المرأة التي هي مهمة إعداد رجال المستقبل وبنيان المجتمع المتين أفلا يجب أن يكون لها ضلع في إدارة هذا المجتمع ولو من قبيل الرأي أو اختيار ذوي الرأي والادارة ؟

* * *

وأقوى حجة يحتج بها خصوم المشروع هي أن السواد الأعظم من النساء عندنا لا يزلنَ أميّات جاهلات ، فلا يصلحنَ للتمثيل في البرلمان ولا للانتخاب . يمكن إعطاؤهنَّ هذا الحق متى تعلمنَ ولو بعض العلم أو تعلمنَ القراءة والكتابة على الأقل ، إذ تصبح معلوماتهنَّ بشؤون الحياة أوسع نطاقاً منها الآن ولا سيما إذا صرنَ يطالعنَ الجرائد والمطبوعات الأولية كأخواتهنَّ الاوربيات والاميركيات .

حسن . هذا صواب . فإذن يجب أن نُلغي برلماننا بتاتاً ونعود الى الحكم

المطلق لأن السواد الأعظم من الرجال كالسواد الأعظم من النساء أميّون جهلة لا يفهمون شيئاً من مشاكل الحياة الاجتماعية ، ومن السياسة الوطنية . وإذا كانت الأمية سبباً حتميّاً لحرمان الفرد من حق الانتخاب ، فالانصاف يقضي أن يحرم جميع الأميين رجالاً ونساءً من هذا الحق على السواء ، وأن يقتصر على المتعلمين فقط من الفريقين . وحينئذٍ نرى أن عدد المنتخبين لا يفوق على عدد المنتخبات (بكسر الخاءين وفتحهما) لأنه ما من أبٍ مثقف ولو بعض الثقافة في هذا الأوان يحرم بناته حق التعلم الى حدٍّ ما . ولا نرى فتىً متعلماً إلاّ نرى تجاهه فتاة متعلمة . ولا مزية للرجال على النساء في المعرفة . كلا الفريقين في الثقافة والأميّة سواء .

واما أن نمنح حق الانتخاب لكل ذكر بالغ ونمنع هذا الحق عن كل أنثى على الاطلاق حتى المثقفة ، فهو من أغرب سخريات الزمان وأضحك المضحكات . أليس مستهجناً أن تقبع السيدة الجليلة هدى هانم شعراوي رئيسة الاتحاد النسوي في العالم العربي في بيتها يوم الانتخاب وان يذهب بواب دارها الى دار الانتخاب لكي يعطي صوته ؟ أو أن يذهب خادم السيدة أمينة السعيد لكي يعطي صوته وهي تحرم هذا الحق .

وإذا كان لا بد من عدم الانصاف هذا بين الفريقين فيجب على الأقل أن تعطى السيدة المتعلمة حق الانتخاب أسوةً بالأمي الجاهل وتحرم منه المرأة الأمية ريثما تتعلم . والاّ فهذا الاجحاف سبة في دستور البلاد .

أفظع مما تقدم أن يكون بين نواب الأمة أميون لا يحسنون كتابة كلمة غير كتابة امضائهم التي مارسوها لهذا الغرض على الرغم من أن الدستور يحرم على الأمي أن يرشح نفسه للنيابة .

* * *

أما حرمان المرأة المثقفة من حق النيابة في البرلمان فيبرره خصوم المشروع بأن المرأة مقيدة بواجباتها المنزلية ، فلا يجوز أن تترك هذه الواجبات لكي تخوض غمار السياسة وتحضر الجلسات وتناقش، وأخيراً توافق أو لا توافق . وإذا كانت الواجبات المنزلية تمنع نيابة المرأة فواجبات الرجل المعاشية تمنعها أيضاً . على كلا الفريقين واجبات فما يمنعها هذا الحق يمنعه ؟

والعادة أن يكون النواب من الأشخاص الموسرين القليلي الواجبات الشخصية ولهم متسع من الوقت لحضور الجلسات البارلمانية . والمجلس لا ينعقد إلاّ مساءً بعد انصراف الناس من أعمالهم . والسيدة التي يساعدها خدمها في ادارة المنزل لها أيضاً متسع من الوقت

في ذلك المساء كما أن لها وقتاً للزيارات والملاهي . وبالطبع لا ترشح نفسها الا المرأة الموسرة التي عندها خدم وبرهات كثيرة من الوقت لحضور الجلسات فضلاً عن المطالعة وتدوين المذكرات ونحو ذلك .

وحاصل القول أننا لا نرى أن انشغال المرأة في واجباتها النيابية في البرلمان يحول دون قيامها بواجباتها المنزلية ، كما أن انشغال الرجل في البرلمان لا يعرقل أعماله . فهذا الاعتراض واهٍ سخيف كغيره من الاعتراضات المتقدمة .

وقد انتخبت السيدات في برلمانات أوروبا وأميركا وكانت لهنّ آراء صائبة ونفوذاً فما قصرنَ في واجباتهنّ المنزلية بسبب إنشغالهنّ في مجالسهنّ النيابية .

ولجانب من الرجال عقيدة فاسدة يستنكرون بها انشغال المرأة في السياسة ويستهجنون وجودها في المجالس النيابية ونحوها ، وهي أن المرأة أضعف عقلاً من الرجل إلى غير هذا من مزاعم انحطاط عقلية النساء . وهي عقيدة سخيفة لا يخجل مغرورو الرجال وأغبياؤهم أن يجاهروا بها وإلى جانبهم زوجات راقيات لا ثقات بهم وهم يحرصون على كرامتهنّ .

يجعلون هذه الحجة في مقدمة الحجج عند نقاشهم في هذا الموضوع على الرغم من أن وقائع الحال تخرس أفواههم إذا كانوا يعقلون . فقد نزلت المرأة في جميع البلاد المتمدنة إلى مضمار العمل ونافست الرجل فيه كما نافسته في ميدان تحصيل العلم ، حتى عندنا نافست الطالبات في جميع الكليات الطلبة ، وفي كثير من الامتحانات تفوقنَ عليهم . فما ظهر في هذا الجنس اللطيف قصور عقلي بتاتاً . والتحقيقات الفسيولوجية والدماغية خاصّةً برهنت على أن المرأة والرجل متساويان في القوى العقلية . وليس لفريق مزية أو فخر على الفريق الآخر . ونرى في ميدان الأدب الآن أقلام كاتبات في كثير من المجلات تبزُّ أحياناً أقلام الكتّاب المنعوتين بالقديرين .

ولعلَّ بعض الأنانيين من الرجال يقولون إننا إذا منحنا هذا الحق للسيدات فلا نعود نستطيع ان « نكيفهنَّ » . وهذا قول سخيف لا يصدق إلاَّ على بعض النساء المتدللات المغرورات ، وهؤلاء لا يمكن أن يرتقينَ إلى منصة النيابة البرلمانية . ولا تستطيعون أيها الأنانيون أن « تكيفوا » هؤلاء « المدللات » سواء أكنَّ في مجلس النواب أو في مجالس الأصحاب . فهنَّ نائبات لكم على كل حال رضيتم أم لم ترضوا .

نقولا الحداد

أمس واليوم

حالة مصر الزراعية

يجود علينا الغرب أحياناً برجال يخلصون للشرق ويتدبرون مشكلاته ويتقصّون أسبابها ويشيرون بما يرونه من علاج . ومن أولئك المستشرقين انجليزي اسمه الأستاذ كراوتشلي A. E. Crouchley كان يعمل أستاذاً في كلية التجارة بجامعة فؤاد الأول ووضع من تسعة أعوام كتاباً نفيساً باللغة الانجليزية عن « التقدم الاقتصادي لمصر الحديثة »[1] في نحو ثلاث مئة صفحة .

وقد رأينا أن ننقل بضعة فصول من هذا الكتاب ونعلّق على ما أورده المؤلف حسبما نرتئيه ، ونضيف إليه ما عرض لنا في بحوث حديثة العهد ، لأن هذا المبحث من خير ما كتب عن اقتصاد مصر الحديثة .

* * *

التاريخ موصول الحلقات ، مسلسل الوقائع والأحداث ، لا يقف ولا يبطيء . اليوم هو ابن الأمس وهو أبو الغد . ورغم أن مهمة المؤرخ — إذا تحرّينا الدقة — تتعلق بالماضي فقد يغتفر القارىء لنا إذا نحن استشففنا من أحداث الماضي الخطوط الرئيسة للمستقبل ، وهي المسائل التي ستعرض لنا لا محالة في القريب الداني أو البعيد النائي . ولعله يعذرنا إذا بحثنا هذه المسائل على ضوء تقدم مصر الاقتصادي الحديث .

وأول ما يواجهنا ، مشكلة السكان . فقد نما عدد السكان من مليونين إلى نحو ستةعشر مليوناً (المترجم — يبلغ تعداد مصر الآن نحو ١٩ مليوناً) في قرن وثلث قرن ، وهم آخذون في الزيادة بسرعة فائقة . وكثيراً ما يعربون عن الخوف من اكتظاظ البلاد بالسكان ، سواء في الوقت الحالي أو في الغد القريب مما قد يفضي إلى زيادة ضغط السكان على الموارد الحالية للبلاد ، وما يتبع ذلك من خفض مستوى المعيشة .

غير أننا ينبغي أن نذكر أن مصر كانت تعاني نقص السكان لمّا كان عدد قطانها يبلغ مليونين ، وإننا لم نستطع الزعم بأن هذا النقص قد عولج إلا في القرن الحالي . ولا يمكن

(1) The Economic Development of Modern Egypt.

القول إن مصر مزدحمة اليوم بالسكان ، فهناك مساحات كبيرة من الاراضي حديثة العهد بالاستصلاح في شمال الدلتا وقف تقدمها فعلاً بسبب نقص الأيدي الزراعية العاملة . ففي منطقة شربين تبلغ كثافة السكان ٩٥ نسمة في كل كيلومتر مربع ، وفي كفر الشيخ تبلغ ١١٣ نسمة ، وفي كفر الدوار تبلغ ١٣٠ نسمة . وتبلغ كثافتهم من ناحية أخرى في شبين الكوم ٨١١ ، وفي منوف ٧٦٨ ، وفي ميت غمر ٧٠٦ . ويبدو أن في هذه المناطق عدداً زائداً على الحاجة من السكان . والمشكلة الرئيسية هي مشكلة سوء توزيعهم . غير أن الفلاح محافظ بطبعه ومن أعسر الأمور إقناعه بتغيير مكان سكناه ولا سيما أهل الصعيد الذين يعيشون في مصر العليا .

وليس ثمة بوادر تدل على احتمال ازدحام البلاد بالسكان في الغد القريب لأن الاراضي الصالحة للزراعة في مصر يمكن زيادتها بمقدار ٥٠ في المئة إذا أنفقت بضعة ملايين من الجنيهات على الري والصرف .

وبديهي إننا سنصل في النهاية الى المرحلة التي تصبح فيها زيادة مساحة الاراضي الزراعية صعبة أو مستحيلة . وكلما زدنا الضغط عليها أدى ذلك إلى نقص الغلّة في مناطق واسعة . وإذا ظلّ عدد السكان ينمو طوال هذه المدة ، فقد ينشب أمام أعيننا خطر زيادة ضغط السكان على موارد البلاد . بيد أننا نستطيع أن نأمل ، قبل بلوغ تلك المرحلة أن يفضي التعليم العام وتوفير الوسائل الصحية ، والتأثير النفسيّ للقرى النموذجية ، والعوامل ذات التأثير التي تستخدم الآن (كالسيارات واللاسلكي والجمعيات التعاونية ... الخ) أن تفضي جميع هذه العوامل إلى غرس الرغبة في الفلاح في تحسين حالته الصحية والاجتماعية ورفع المستوى العام للمعيشة في القرى ، فينمو الجيل الجديد مشبعاً بآراء أوسع أفقاً من آرائنا ، وأقوى عزيمة من أسلافه ، فيرى الفرد — كما يحدث الآن في عدد كبير من البلدان الأخرى — أن يخفّض عدد أفراد أسرته رغبةً في تحسين حالة معيشة أطفاله .

وانتقدم الصناعة — في هذه الحالة — شأن كبير . ولا يزعم أحد أن تصبح مصر دولة صناعية تتخلى عن الزراعة كليّة . ومن المبالغة أن نحسب أن الصناعة تستطيع توفير عملٍ لقدرٍ لا حدّ له من السكان المتزايدي العدد . وتستطيع الصناعة في الآونة الحاضرة أن تستوعب بضعة آلاف آخرين من العمال من السكان الذين قد يصل تعدادهم قريباً إلى عشرين مليوناً . غير أن الأجور المرتفعة التي يتقاضاها العمال في الصناعة من شأنها أن ترفع مستوى المعيشة في الريف إمّا مباشرة : بأن ترفع المستوى ارتفاعاً جليّاً بالنسبة لما كان عليه قبلاً ، أو غير مباشرة : بأن تزداد هجرة الريفيين إلى المدن وسيطّرد ازدهار الصناعة بدوره

لأن تحسين مستوى المعيشة في المناطق الريفية سيؤدي حتماً إلى زيادة حاجات الريفيين. وكلما تحضّر الشعب كثرت مطالبه وزادت حاجاته.

غير أننا لا نستطيع أن نرجو حدوث تقدم فعلي ما لم يحقق الرخاء الزراعي. ويجمع جميع المطلعين، وتجمع الإحصاءات كذلك، على أن الأراضي التي تروى ريًّا دائماً رغم أنها تنتج أكثر من محصول واحدٍ في العام، تميل سريعاً إلى فقدان خصوبتها. وتحتاج تبعاً لذلك إلى مقادير مطردة الزيادة من الأسمدة والمخصّبات الكيميائية. وحتى بعد التوسل بهذا العلاج، يصبح معدل المحصول أقلّ بكثير من محصول الأراضي التي تروى بنظام ريّ الحياض. ويحتمل أن تكتشف في المستقبل وسيلة تجمع بين الخصوبة التي تتأتى من تلقاء ذاتها وفقاً لنظام الحياض، وبين زيادة عدد المحاصيل التي تنتج عن نظام الري بالترع (أي وسيلة تجمع بين خير ما في نظامي الري الدائم والحوضي). ومن الضرورات الأولى لتحقيق هذا، اتباع نظام الصرف الملائم. أما الضرورة الثانية فهي إتاحة فرصة كافية للتربة تستريح فيها.

وقد يأتي زمن يوضع فيه تشريع ينص على الفترات التي تستريح فيها التربة في شتى المناطق. وقد يكون من الصالح إلى جانب ذلك أن تغطى الأراضي التي «تستجمّ» من عناء الزراعة بماء الفيضان مرة في كل سنتين أو ثلاث سنين لكي تجدّد التربة شبابها بانتظام وتستعيد خصوبتها ومقدرتها الإنتاجية.

ويبدو أن أيسر سبل الإصلاح اتباع ما يلي:

أولاً — يجري العمل سريعاً لتحويل الأراضي الخاضعة لنظام الحياض في مصر العليا إلى أراضٍ تروى ريًّا دائماً. وسيؤدي ذلك إلى إضافة نحو مليون فدان أخرى إلى الأراضي التي تروى ريًّا صيفيًّا وإلى زيادة مماثلة في مساحة الأراضي التي يمكن زرعها قطناً.

ثانياً — ينبغي درس مسألة إنشاء خزانات كبيرة أخرى في أعالي النيل. ويمكن القول إنّ ضبط النيل، لأنه لم يتمّ حتى الآن، لم يبدأ بعد. وما دامت مقادير كبيرة من الماء تضيع هباءً في كل خريف مع الفيضان، وجب أن نقول إن ضبط النيل غير كامل. وقد وضعت فعلاً بعض المشروعات لإنشاء سلسلة كاملة من الخزانات عند منابع النيل، ويرجى أن تفضي هذه المشروعات عقب تحقيقها الى التحكم في هذا النهر الجبار المارد، ووضعه تحت إشراف مهندس الري وإمرته.

وسيعوزنا مورد مطرد الزيادة من الماء لريّ وإصلاح ما يربى على مليون فدان من الأراضي في الوجه القبلي ريًّا سنويًّا، وإصلاح نيفٍ ومليوني فدان من الأراضي البائرة

في الوجه البحري ، ولزيادة مساحة الاراضي المزروعة أرزاً وتحسين وسائل الري في الوجه البحري وتوفير الماء اللازم للتبكير بزراعة محصول الذرة النيلية الكبير . ويقدرون أنّ مقدار الماء الذي يخزنه خزّانا أسوان وجبل الأولياء في الوقت الحالي لا يتجاوز نصف الكمية التي سنحتاج إليها عند تنفيذ مشروعات الإصلاح .

وتتقدم الآن أعمال تحويل الأراضي الى الري الدائم واصلاحها في الوجه القبلي تقدماً حثيثاً . أما في الدلتا فان نشر وسائل الصرف من جهة ، وزيادة موارد الماء الصيفي من جهة أخرى ، هما من الضرورات الاولية لمباشرة أعمال اصلاح الأراضي المزمع تنفيذها . غير أن كل تقدم آخر يعرقله قلة الأيدي العاملة — وهو أمر يبدو عجيباً في بلد مكتظ هكذا بالسكان . ومن الصعب ، ولا سيما في الوجه القبلي ، إقناع الفلاح بالمهاجرة علاوة على أن مما يعرقل الهجرة رأس المال الكبير الذي يمس الحاجة اليه في كثير من الأحوال . ولذلك ، قد يبطىء التقدم في الوقت الحالي إلى أن يزداد عدد السكان في تلك المناطق ويتوفر رأس المال اللازم .

وينبغي أن نلاحظ أن تحويل الاراضي التي تروى بالحياض الى الري الدائم لا يصادف تأييداً إجماعيًا ، لأن الخبراء الزراعيين يقولون إن خصوبة التربة تميل الى الهبوط ، وإن معدّل الانتاج يميل إلى النقص إذا عولجت الأراضي الزراعية بهذه الكيفية . وهنا تبدو مشكلات الصرف ، وتعوزنا مقادير متزايدة من الأسمدة الصناعية الغالية الثمن . والواقع أن النظام الحالي يؤدي إلى ضياع قدر كبير من الانتاج ، فبدلاً من أن يستخدم طمي النيل الخصيب في تجديد التربة سنويًا ، يضيع هباء ويلقي به النهر إلى البحر مما يضطرنا إلى تعويض هذا النقص باستخدام الأسمدة الكيمائية . والنظام المنطقي الصحيح هو أن نعمل على الجمع بين الري الصيفي والفيضان السنوي ويمكن تحقيق هذا في مساحات كبيرة من الأراضي التي لا تزال تروى حياضيًا باستخدام مضخات ارتوازية بدلاً من تحويل الأراضي من الري بالحياض إلى الري الدائم. وقد يتبيّن لنا مستقبلاً أن من الخير استخدام نظام الفيضان الموسمي في المناطق التي حولت فعلاً .

وعلى كل حال ، فإن النظام الحالي ، وضياع ماء الفيضان المحمّل بالطمي في البحر المتوسط هو تبذير وإسراف جليان لا مدعاة لهما وإفراط في مواد ثمينة . فإن ثلثي ما يجري في مجرى النيل من الماء ، يصبّ في البحر المتوسط سنويًا ويحدث هذا في أشهر الفيضان أي من شهر أغسطس إلى شهر ديسمبر عندما يستمدّ النهر تسعين في المئة من مائه من نهري عطبرة والنيل الأزرق ، ويكون الماء محملاً بحمل سخيّ من الغرين من جبال اثيوبيا . وكان جزء

كبير من هـذا الماء يحوّل إلى الأحواض (وفقاً لنظام الري بالحياض) فيرسب الطمي فيها قبل أن يواصل الماء سيره إلى البحر . أما اليوم ، فإن عيون جميع القناطر والسدود تفتح على مصراعيها إبّان فترة الفيضان خشية أن يعوق الطمي عملها او أن يرسب في الخزانات ، فيندفع الماء كله بسرعة دفّاقة رأساً إلى البحر حاملاً معه شحنة غنية من التربة البكر ، تعكر صفاء البحر المتوسط وتحيل زرقته إلى لون ترابي قاتم لمسافة بضعة أميال ، ثم يضيع هذا الغرين إلى غير رجعة . ويقدرون أن الطمي الذي يفقد في كل عام لو وزع توزيعاً عادلاً على ثمانية آلاف فدان ، لبلغ ارتفاعه متراً .

ولو أنّ هـذا الراسب الثمين اختزن في البحيرات المنخفضة على طول الساحل الشمالي للدلتا بدلاً من قذفه الى البحر المتوسط لأمكن سريعاً — وبدون كبير نفقة — تحويل هذه المساحات الشاسعة إلى أراضٍ خصبة صالحة للزراعة .

(المترجم : تبلغ مساحة البحيرات الشمالية التي يشير إليها الكاتب حسبما جاء في تقويم الحكومة المصرية لعام ١٩٣٨ ، ٦٤١٫٠٠٠ فدان تفصيلها كما يلي :

بحيرة مريوط	٥٩٫٠٠٠	فدان
« ادكو	٣٥٫٠٠٠	«
« البرلس	١٤٠٫٠٠٠	«
« المنزلة	٤٠٧٫٠٠٠	«
جملة	٦٤١٫٠٠٠	فدان

وكل ما يعوزنا لاصلاح هـذه البحيرات هو تحويل ماء الفيضان بوساطة سلسلة من القنوات ، إلى البحيرات ، ثم ترك الماء يشق طريقه الى البحر بنفسه عن طريق الفجوات الشمالية . وسيفضي إبطاء مجرى النهر إلى ترسيب الطمي في قعر البحيرات وسرعان ما يؤلف طبقات سميكة . وكلما ارتفع مستوى الأرض بما يرسب عليها من الغرين ، أمكن تحويل مجرى الفيضان الى مناطق أخرى . ولا يزال في الوجه البحري أراضٍ واسعة منخفضة بطول ساحل البحر المتوسط يمكن إصلاحها . غير أنه من الضروري الاسراع في تنفيذ هـذه المشروعات في أقرب وقت ممكن . ويقدرون أن قيمة الغرين الذي يضيع الآن تبلغ مليون جنيه سنويًا . وقد بلغت الخسارة الآن حدًّا أعلى بسبب تحويل أراضي الحياض إلى الري المستديم .

وبتنفيذ مشروعات الري الجديدة مستقبلاً في السودان وأثيوبيا وأواسط أفريقيا ،

يمكن التدرج في ضبط النيل . والهدف الأسمى الذي يهدف اليه مهندس الري هو الوثوق من عدم ضياع قطرة واحدة من ماء النيل . وسيأتي الوقت الذي فيه لا يقذف الى البحر سوى ماء الصرف المحمل بالأملاح . ولكن قبل أن يجيء هذا الزمن ، ينبغي أن تلتفت مصر إلى تدبر هذا المورد المؤكد من الثروة التي تضيع اليوم هدراً .

***

ولعلّ مشكلة الصرف أدعى الى الاسراع في علاجها من سواها ، فقد أدركت الحكومة أن من الواجب عليها في هذا الصدد توفير مصارف عميقة رئيسة مجهزة بمضخات قوية لتجعل مستوى ماء التربة منخفضاً . غير أن هذه المصارف الرئيسة ، لكي تصبح ذات تأثير فعال ، تحتاج إلى أن تكون متصلة بعدد لا حصر له من المصارف الثانوية تغطي المنطقة التي يراد صرف الماء منها بأسرها . وإن توفير هذه المصارف مهمة كبيرة تلقى على عاتق الحكومة لأنها لا تملك الهيئة التي تشرف عليها أو الوسائل التي تعالجها بها ، وليس من وسيلة لارغام أصحاب الأملاك أنفسهم على توفير المصارف في أراضيهم . ولن يكون من المتيسر تنفيذ هذا . فنظام الصرف ، ليكون فعالاً ، ينبغي أن ينظم في رقعة واحدة واسعة بمقتضى نظام تعاوني يكون لكل فلاح نصيب فيه . غير أن عدداً كبيراً منهم لا يملك المال اللازم لتحقيق هذا المشروع الكبير النفقة . فضلاً عن أن توفير المصارف المكشوفة (كالترع) مضيعة للأرض التي تشغلها لأن عشرة في المئة من الأراضي المزروعة تستغل في المصارف المكشوفة. أما صغار الملاك ، فان حفر مصارف مكشوفة، مهما تكن صغيرة ، كاف لأن يشغل أرضهم بأسرها . وحل هذه المشكلة قد يكون بتوفير مصارف مغطاة ، وهي أنابيب تمدّ تحت الأرض على عمق مناسب بنظام منحدر قليلاً لتستدرج ماء التربة إلى قنوات الصرف . ولهذا النظام مزايا جمة ، فمتى تمّ تحقيق هذا المشروع ، لن تحتاج الانابيب إلى نفقات أخرى لصونها ، ويصبح الصرف مؤكداً ، ولا يضيع شيء من الأرض كما هي الحال في المصارف المكشوفة .

***

ـــ ويبدو أن الحكومة ليست على استعداد الآن لتشرع في تنفيذ هذا المشروع الوثّاب. غير انه من الواضح أن المشروع لا يمكن تحقيقه تحقيقاً مرضيًّا إلاّ إذا أمكن تنظيمه تنظيماً مركزيًّا . وعلى هذا ، فالحل النهائي هو أن تؤلف الحكومة الهيئة اللازمة للإشراف عليه ، على أن تقتسم الحكومة والزراع نفقاته عن طريق زيادة الضرائب الزراعية مثلاً .

القطن المصري

ويبدو أنّ هناك شيئاً من الريب في أن يظل القطن اسنوات قادمة محور الاقتصاد المصرى . فليس في مصر محصول سواه يمكن زراعته في مساحات واسعة وبيعه بمقادير كبيرة تدرُّ على الفلاح المصري ربحاً يوازي ربحه من بيع محصول القطن . وإذا كانت الزراعة القطنية قد تقدمت في مصر ، فسبب ذلك راجع إلى انها برهنت على نجاح شهده محمد علي ، وهو الذي أدخل هذه الزراعة في مصر ، ثم احسّ به الفلاح نفسه . وإن أيّ نزول كبير في سعر القطن قد يفضي — وكثيراً ما أفضى — إلى عدول بعض الفلاحين عن زراعته وقتيًّا واستبداله بمحصولات أخرى . غير أن الأسعار ما تكاد ترتفع حتى يقبل الفلاح من جديدٍ على استنبات القطن .

ويحتمل كذلك ان تواصل مصر إصدار نسبة كبيرة من محصولها إلى الخارج وقد أفضى تقدم صناعة الغزل والنسج في مصر إلى حجز مقادير مطردة الزيادة في هذه البلاد للاستهلاك المحلي . ومصر تستهلك في الآونة الحالية خمسة في المئة من المحصول لاستخدامه في صناعة النسج المحليـة . ويوازي انتاج المنسوجات القطنية المحلية نحو ثلث ما تحتاج البلاد إليـه منها . فاذا أتى وقت استطاعت فيه مصر أن تنسج كل ما تحتاج إليه من المنسوجات محليًّا ، فلن تستهلك سوى خمسة عشر في المئة من الانتاج القطني الحالي . وإذا زادت غلّة القطن مستقبلاً ، كما هو متوقع ، فإن النسبة ستنخفض عن هذا التقدير .

والواقع أن شطراً كبيراً من الحاجة المحلية ينصبّ على السلع القطنية الرخيصة وكان يمكن مواجهة هذه الحاجة باستخدام القطن ذى التيلة الضعيفة كالقطن الهندي مثلاً . ولـكن الحـكومة تحظر الآن استيراد القطن من الخارج ، والنتيجة المباشرة لهذه الحالة هي أن تعمد المصانع المحليـة إلى غزل القطن المصري الجيّد لاستخدامه في أغراض ليست كبيرة الشأن . ويبدو أن من مصلحة الاقتصاد المصري عامةً الترخيص باستيراد قطن ذى تيلة رخيصة لينسج في المصانع المصرية مما يؤدي إلى خفض أسعار السلع القطنية للطبقات الفقيرة وإلى بيع القطن المصري ذى الرتبة العالية بأسعار مرتفعة في الخارج .

ومن الضروري لمصر كذلك أن تعرف بالتحديد أي اتجاه في التقـدّم القطني يحقق لها خير مصالحها مستقبلاً . فمنذ نشوب الحرب (المترجم — حرب ١٩١٤ — ١٩١٨) وضعت سياسة لإجراء التجارب تعدّل كلما تحوّل اتجاه السوق . فحدث بعد الحرب مباشرةً أن زاد الطلب زيادة غير عادية على القطن طويل التيلة كالسكلاريدس وزاد سعره

على سعر القطن الأميركي كثيراً . وكان الفلاح يتبين أن من الخير له أن يزرع مساحات شاسعة من أرضه بالسكلاريدس رغم إن معدّل إنتاج الفدان لم يكن كبيراً جـدّاً . وعلى كل حال ، اتجه الرأي منذ ذلك الحين إلى زراعة أنواع رخيصة من القطن للاغراض التي كان السكلاريدس يستخدم فيهـا قبلاً ، وانخفض سعر هـذا القطن لأن الأسواق محدودة نوعاً . وإذا دعت الحاجة مستقبلاً إلى زراعة هذا الصنف الممتاز من القطن ، فلا يُـظنّ أن تستطيع مصر مواجهتها سريعاً .

والسوق الآن محدودة في وجه هذه الأصناف ، غير ان هناك سوقاً غير محدودة للقطن المعروف باسم Uppers . والواقع ان القطن المصريّ من هذا النوع أجود من القطن الأميركي حتى ان الغزالين يؤثرون القطن المصري على الأميركي . ولكن نظراً لأن سوق القطن الأميركي توازي أضعاف أضعاف ما تستطيع مصر أن تنتجه من القطن فهناك احتمال بأن يباع أكبر قدر من القطن المصري . والعقبة الوحيدة هي مسألة السعر . فإذا بيع القطن المصري بسعر القطن الأميركي كان معنى هذا أن تباع سلعة جيدة بثمن سلعة أقلّ جودة . ومن الناحيـة الأخرى لن يكون من المحتمل بيع محصول مطرد الوفرة بثمن مرتفع ما لم يكن هناك طلب عليه . فينبغي أن تهدف سياسة مصر القطنية مستقبلاً إلى العمل على زيادة الطلب على القطن المصري وعلى جعل البلاد الأخرى تفضله عن الأنواع الأخرى .

أما في ما يختص بالأسعار التي ينبغي أن يباع القطن المصريّ بها ، فإنهـا تتوقف على السعر العالمي الذي يتحكم فيه الأميركيون إلى حدٍّ كبير . وكل ارتفاعٍ أو نزول في الأسعار في أميركا يصحبه تأثير مماثل في مصر . وقد يتفاوت السعران قليلاً ، بيد أن المعروف عادة أن مصر عاجزة عن أن تؤثر تأثيراً حاسماً في سعر القطن في العالم . والأمر الوحيـد الذي تتحكم فيه مصر إلى حدٍّ ما ، هو أفضلية القطن المصري على القطن الأميركي . وتستطيع مصر إذ تعمل جاهدة على تعريف الغزّالين والعملاء التجاريين بجودة القطن المصريّ مما يؤدي بدوره إلى زيادة الطلب عليـه ، أن تزيد الدخل الاجمالي الذي تظفر به من بيع المحصول . وليس في الطاقة تحقيق هذا إلاّ بالدعاوة المنظمة وإنفاق بدر المال على الاعلان عن القطن المصري . ولسوف تـغطّـي نفقات الإعلان عدة مرات بما تربحه مصر من بيع قطنها .

ولهذا الأمر شأن كبير لأن الموقف الحالي في ما يختص بإنتاج العالم من القطن غير مستقرّ فمنذ عام ١٩٣٢ احتفظ سعر القطن بمستوى مرتفع بسبب النقص الـكبير في انتاج القطن الاميركي . وعكفت الدول الأخرى على تحيّن هذه الفرصة فزادت إنتاج القطن بنسبة كبيرة حتى تضاعف الانتاج فيها منذ عام ١٩٣٢ . ولا يتوقع أن تستمر هـذه الحالة بدون تغيير

والإجراء البديهي هو عقد مؤتمر عالمي للدول منتجة القطن . غير ان زيادة المساحة المزروعة قطناً والمصالح المتباينة للدول التي تزرعه تجعلان من العسير جداً إدراك اتفاق عام . وان تركيز السيطرة على الأسواق في يد أميركا ستتبعه فترة يمكن أن يزيد الانتاج فيها على الاستهلاك ويفضي هذا الى نزول عام في الأسعار. وإذا تركت السوق حرة فان السعر سيحدد نفسه بنفسه ، غير أن هذا سيكون له ضحايا . أما المناطق التي تنتج القطن على الهامش (أي أنه ليس المحصول الرئيسي لها) فستضطر إلى العدول عن انتاجه بسبب نزول أسعاره . ولا ريب في أن بعض البلدان يستطيع أن يتحول إلى زراعة محصولات أخرى . أما مصر ، فانها ستتأثر بلا ريب بنزول أسعار محصولها الرئيسي، بل يحتمل أن تتجه النية الى زراعة محصولات أخرى بدلاً منه . غير أن المزايا الطبيعية العظيمة التي تساعد مصر على انتاج القطن قد تحفزها على العودة الى زرع القطن حالما يعود السعر العالمي الى مستوى اقتصادي مستقر لأن القطن هو المحصول الذي يدر على زراعه أكبر دخل فضلاً عن أن انتاج مقادير كبيرة منه وقلة نفقات الانتاج (باستثناء ايجارات الأراضي ويحتمل أن تنزل قيم الايجارات بسبب هذه الأحوال الجديدة) سيجعلان لمصر مقاماً ملحوظاً كبلد منتج للقطن .

ويعود إقبال مصر على زراعة القطن الى سببين رئيسيين أولها ، كما أسلفنا ، جودته وثانيهما : انتاجه الوفير .

وعلى الرغم من التدهور الذي حدث في مستهل هذا القرن ما فتىء متوسط انتاج الفدان من القطن في مصر يبلغ نحو ثلاثة أضعاف متوسط انتاج الفدان في أميركا .

وينبغي أن يهدف الفلاح والحكومة الى زيادة المزايا التي تتمتع بها مصر ، وذلك بزيادة انتاج الفدان وتحسين أنواع القطن . وإذا تسنى إتمام ذلك فليس ثمة ما يحول دون ارتفاع انتاج القطن إلى ١٥ مليون قنطار أو أكثر .

وليس معنى هذا أن تزرع مصر القطن دون سواه من المحصولات الأخرى ، بل إن الحاجة الشديدة لتدعو — على النقيض من ذلك — إلى أن تسعى مصر سعياً حثيثاً إلى تعزيز أساس الرخاء الاقتصادي بادخال محصولات جديدة ، والتوسع بقدر الطاقة في زراعة ما يتضح أنه وفير الربح . ولن تقتصر جدوى ذلك على توفير موارد ثروة إضافية كبيرة القدر وحسب ، بل ستساعد على الاقلال بقدر المستطاع من التقلب الاقتصادي الذي سيحدث لامناص ما دامت ثروة مصر تتوقف على سعر محصول واحد .

وديع فلسطين

أعظم مستنبطات القرن العشرين

المجهر الكهربي

وصفت المجهر الكهربي، وصفاً مقتضباً وذلك في نبذة بعنوان « ثمرات الحرب (الأخيرة) في العلوم والفنون » نشرت في باب الأخبار العلمية بمقتطف يناير سنة ١٩٤٥، ثم ضمن مقال آخر تحت عنوان (أحدث المكتشفات التي أسفرت عنها الحرب الماضية، نشر في مقتطف مارس سنة ١٩٤٦، ثم في غير ذينك الجزءين — فجاءتني عقب ذلك عدة رسائل من فئة من القراء والمشتركين الجدد، تطلب إليّ كتابة مقال مسهب، على ذلك الجهاز العجيب، مع توخي تبسيط الموضوع ما أمكن، فوعدتهم بإجابة رغبتهم عندما تسنح الفرصة، وها أنذا موفٍ بوعدي لهم فيما يلي: —

هو جهاز تمّ اختراعه سنة ١٩٤٠ واشتهر في ذلك الحين بأنه أعظم مستنبطات القرن العشرين. بيد أن رائع منافعه العامة والخاصة، وكذا ثماره العلمية اليانعة المدهشة التي سوف يجنيها العالم في مستقبل أيامه، وهي التي لم تذع على الجمهور الا حديثاً، تحدونا على موافاة قرائنا بما أسفر عنه هذا الاختراع من المنافع الباهرة واليك البيان: —

لا مراء في القول ان هذا الميكروسكوب قد شقّ طريقه في عشرات الميادين، لخير البشرية، لخليقٌ بنا أن نعترف مع التحفظ بأنه لم يَفُقْهُ في خطر شأنه في التاريخ الا القليل من المخترعات. ولنضرب لك الأمثلة الآتية وهي تشمل أشياء شتى مما تقع عليه أبصارنا في جميع أحوالنا. ولنبدأ بملابسنا أولاً وهي من ألزم لوازمنا،

فكل منا يكره مثلاً انتفاخ بنطلونه عند موقع ركبتيه منه وذلك في جلوسه وعند سيره، وكانت هذه المعضلة مما حلّها الجهاز الكهربي. ذلك لأنه أقوى من سائر المجاهر البصرية بدرجة تتفاوت بين خمسين مرة ومائة مرة. وهذا من شأنه تسهيل الاضطلاع بمهمة فحص الغزل الذي تنسج منه المنسوجات، ثم تحليله تحليلاً مدققاً ودراسته دراسة محكمة بغية الوقوف على مبلغ تأثره بالمياه والدهن والحوامض، بل سائر المواد التي تستهدف

لها المنسوجات . ومن ثمة نجم اختراع أنواع فائقة من الصموغ النباتية إبتغاء التوسل بها الى علاج الغزل لتكسب المنسوجات التي تحاك منه، الدرجة القصوى لمقاومة انكماشها وتشويه شكلها . ومن هذا القبيل أنَّ عالماً من أهل متشيغان تذرّع بهذا الميكروسكوب الفاخر الى استكشاف حقائق كثيرة خاصة بالأسنان البشرية ، اذ جاء بأجزاء دقيقة من سنّ طاحنةٍ ووضعها تحت الجهاز الكهربي الضخم النفيس الذي يبلغ ارتفاعه سبع اقدام وثقله ١٣٠٠ رطل انجليزي وثمنه ١٣٠٠٠ دولار فأبصر العجب العجاب . إذ أيقن أنه يكبّـر حجم المرئيات مائة ألف مرّة . فاستطاع العالم بذلك الجهاز البديع التقاط صور فوتوغرافية للقنوات الخيطية الدقيقة التي تتخلل أضراس كل امرئ .

ومن أغرب الأمور أنه قد تبيّـن له أن طول هاتيك القنوات يقرب من خمسين ميلاً في الضرس الواحد ، وأن متوسط مايحويه من القنوات المشار اليها هو ٨٠٠٠٠٠ قناة .

ونعني بالعالم الأمريكي المومأ اليه ، الدكتور ث . هـ . جرولد Dr. C. H. Gerould المعروف في مدينة ميدلند بولاية متشيغان ، وهو مهندس المباحث العلمية في شركة داو الكيميائية ، وفي اعتقاده إمكان الحصول على نتائج مدهشة في منع نقد الاسنان ووقايتها من التلف ، عندما يدخل الجهاز الكهربي في ميدان طب الأسنان .

وقد أصبح ميسوراً للأطباء معرفة المصدر الرهيب للانفلونزا . وذلك لأول مرة في التاريخ ، بَلْـهَ التمكن من قياسه ومشاهدة شكله . وهو المصدر الذي بلغ من دقته أن قدراً طفيفاً جداً منه يكفي لحقن خمسمائة فأر وقتلها بحقنة منه لا يزيد حجمها على النقطة التي ستختم بها هذه الجملة . وما برحنا نذكر وباء الانفلونزا المروع الذي اجتاح كثيراً من آفاق العالم منذ أكثر قليلاً من ربع قرن ، حيث قضى على ملايين من الناس ، وكيف كان العلماء حينئذٍ يعزون ذلك الوباء الى جرثومة صغيرة عصوية الشكل تكمن في أنوف المصابين وحلوقهم . ثم اخترع العلماء لقاحاً لعلاج ذلك الداء . ولم يكونوا مخطئين في كشف مصدر المرض ، ولكنهم لم يدركوا صغر حجمه، ذلك لأن الميكروسكوب البصري المعروف يكبر قطر الشيء المرئي ٢٠٠٠ مرة . ومن ثمَّ تعذّرت عليهم معرفة المصدر الحقيقي للعدوى لتناهي دقته تناهياً حمل الخلايا التي تكـبّـره وتدق

به، تطغى عليه وتخفيه عن وسائلهم الكشافة . فأفضى الأمر إلى تضليل الأطباء عند قيامهم بصنع اللقاح الذي أعدوه لذلك القصد . إذ كانت المادة التي استعملوها في تحضيره يظنونها كلها من الفيروس [١] على حين أنها لم تكن كذلك . بل كان عُشرها فحسب منه نفسه وسائرها من الخلايا الكبرى . أما الآن فإن إدراكهم لحجم الفيروس وشكله وتأثيره في المصاب ، (كما تتبين بالجهاز الكهربي) سيعبِّد الطريق للقضاء الأخير على أوبئة الانفلونزا المستعصية المنتشرة في العالم .

ويكاد يستحيل على العقل البشري أن يتصور الآن مبلغ مفعول الجهاز الكهربي في مجال تكبير المنظورات . وحسبنا أن نقول إنه يضخم الابرة المعتادة فيجعلها مثل حجم نصب واشنطن [٢] ويكبر الجرثومة حتى تبلغ حجم الوسادة . ويضخم كُريَّة الدم فتصير كحجم مائدة الكتابة .

وبينما يستطيع الجهاز البصري المألوف تثخين الطرف الرفيع لفرخ الورق مثلاً حتى تبلغ ثخانته ثلاث عقد أصابع ، يتاح لهذا الجهاز الجديد تثخينها إلى تسع أقدام . وكذلك يمكنه تضخيم الشعرة البشرية إلى حجم جذع شجرة قطره ست أقدام . ثم إن حقيقة إمكان تكبير الذرات الصغيرة من المواد، فوق أصلها ١٠٠٠٠٠ مرة على الأقل مع الاحتفاظ بجميع تفصيلاتها في صورتها الفوتوغرافية، وكذا تيسير تضخيم الصورة الفوتوغرافية في بعض الأحوال حتى تفوق أصلها ٢٠٠٠٠٠ مرة أو أكثر ، هما من العوامل الجوهرية التي تبعث على تحقيق أحلام العلماء، التي فحواها إن جزيئات المادة وذراتها ستصير يوماً ما من المرئيات المألوفة . ولا عجب فان دراسة الجزيئات غدت من الموضوعات التي يعنى بها العلماء . ومن ثمة يزعمون أن الزمن

---

(١) الفيروس Virus لفظ انكليزي يقصد به عامل من نواقل العدوى وهو أقل جرماً مما تستطاع رؤيته بالمجاهر .

(٢) هو نصب مقام في متنزه الكابيتول حيث شيدت دواوين الحكومة ومجلس نواب الولايات المتحدة الاميركية . وهو عمود أبيض ضخم مقام تذكاراً لجورج واشنطن أول رئيس لتلك الجمهورية الامريكية الكبرى ويبلغ ارتفاعه ٥٥٥ قدماً وله مصعد وسلم حديدي مؤلف من ٩٠٠ درجة يرتقيها الصاعد الى قنته التي يزينها رأس من الالومينيم . ويمتد ذلك المتنزه على شاطىء نهر بوتوماك حيث توجد سلسلة من المباني الحكومية الفخمة ومنها المتحف الوطني والمعهد السميثوني .

الذي سيتمكنون فيه من رؤية الذرة قد أزف ، ما دام في وسع الميكروسكوب الكهربي إظهار ذرات الأشياء الصغيرة جداً التي لا يزيد قطرها على جزء واحد من عشرة ملايين من عقدة الأصبع . أو بعبارة أخرى الذرات التي تقل ٤٠٠٠٠ مرة عما تستطيع العيون البشرية إبصارها .

وقد بُدِئ في أوربا بالأعمال التمهيدية لهذا الجهاز منذ سنة ١٩٢٠ . اما التجربة الأولى التي جربت في القارة الأمريكية فحدثت في كندا في سنة ١٩٣٦ إذ قام بها الدكتور إ . ف . برتون ، وذلك في جامعة تورنتو حيث أنشأ أول جهاز من هذا النوع في أمريكا . وكان الدكتور ف . ك . زووريكين الموظف بشركة الراديو الأمريكية أول عالم اخترع الجهاز الكهربي التجاري الأول وركبه في الولايات المتحدة الأمريكية وذلك في سنة ١٩٤٠ . ويربى عدد المجاهر الكهربية المستعملة الآن في العالم على ١٥٠ جهازاً . وذلك في ميادين العلوم والصناعات . وكانت صلاحيته للمنافع التجارية احدى النتائج التي أسفرت عنها المباحث التي دارت في الراديو المصور « التلفزة » . .

أما قاعدة ادارة هذا الجهاز فهي من المبادئ الإنقلابية من كل الوجوه ، في عالم الميكروسكوبات إذ لا تدخل في تركيبه عدسات زجاجية ولا تسلط عليه أشعة ضوئية . وإنما قوام (الرؤية) فيه ، موجات موجهة من الكهيربات تطلق بسرعة لا يصدقها العقل بوساطة طاقة كهربية تبلغ ٥٠٠٠٠ فولط ، ثم تضاعفها الجالات المغنطيسية .

والمعروف أن أقصى قوة التكبير للجهاز البصري هي ٢٠٠٠ مرة وذلك بحسب نوع الضوء نفسه أي وفق ما يسمح به طول الموجة الضوئية بأسرها ، ويمكن تكبيرها (المرئيات) أيضاً ولكن دون تكبير دقائقها .

أما طول موجة الكهيربات عند ما تطلق بسرعة عظيمة فتعادلها في الضوء ١٠٠٠٠٠ مرة . ومن ثمة تصير احتمالات التضخيم بها أكبر نسبيًّا . وهذا الجهاز هو في الواقع صمام كهربي ضخم ، ويعد صنواً أكبر لصمامات الراديو الذي في دارك .

وفي ميدان علم الجراثيم يستعمل هذا الجهاز لمشاهدة البكتيريا وتصويرها ولكشف مصادر عدوى الأمراض التي تستحيل رؤيتها بالجهاز الضوئي المألوف . ذلك لأنها أدق جداً

مما يكشف بوساطته . كما يستعمل لدراسة تكوين البكتيريا والخلايا البشرية وغيرها من دقائق الأجسام ، التي لم تبصرها عين قط .

ومما يجدر ذكره بشأن استعمال الجهاز الـكهربي في الميدان التجاري، أن صاحب مزرعة كبيرة لتربية المواشي في إقليم وآيو منج الواقع في غرب الولايات المتحدة الأمريكية اقتنى حديثاً جهازاً كهربيًّا ليتخذه وسيلة لاستكشاف خصب الثيران . ثم استخدم طبيباً بيطريًّا ليباشر هـذه الدراسة قصد الوقوف على العوامل المختلفة التي تجعل بعض الثيران الخصابة المنتقاة ، التي يخيل لناظرها أنهـا أصلح ما تكون للغرض المطلوب منها فيخيب الظن فيها إذ يقلُّ نتاجها عن الثيران التي هي أحطُّ منها .

وقد حذت حذوه شركة الأليومينيم الأمريكية فاستخدمت جهازاً كهربيًّا لمراقبـة منتجاتها، ولمراجعة نماذج المواد وفحصها . وأتيح لشركة كبيرة للزيت المعدني أن تكشف بهذا الجهاز أسباب انسداد مرشحاتها الضخمة وتوقفها عن عملها ، إذ تبيَّـن بوساطته أن مصدر تعطيل هاتيك المرشحات هو افتقارها الى مفتاح محكم يتحكم في الحرارة .

وربَّ قائل يقول، عقب اطلاعه على الصور الفوتوغرافية العجيبة التي تصوّر بالجهاز الـكهربي ، ونعني بها صور دقائق عوامل نقل الأمراض ، وأحجامها وأشكالها وتكوينها ، « ماذا عسى أن نستفيد من هذه جميعها ؟! » فنجيبه إن تلك الصور ، حيال الناظر إليها غير الفنيّ تشبه في غرابتها وغموضها، مثيلاتها التي تُصوّر بأشعة رنتجن . ولكنها عند العالم المتمرّن على « قراءة » الصور الفوتوغرافية العلمية ، نبراساً قويًّا ينير له غوامض مباحثه .

ومما لا ريب فيـه أنّ اختراع الميكروسكوب البصري المعروف قد عبَّـد الطريق لاكتشاف الجراثيم ودراستها ، ومنها الخاصـة بأمراض التيفود والحمى الصفراء والمـلاريا والدفتيريا والسـلّ التدرني . وهو الأمر الذي أفضى إلى علاجها واختراع اللقاحات التي تشفيها أو تمنعها . وهـذا كلهُ يوضح لنا ماذا يرجى من الجهاز الـكهربي . ومثال ذلك البعوض ، وهو آفة عامة فإن هذا الجهاز الجديد، يبين لنا دقائق جسم البعوضة إذ يكبرها حتى تبلغ حجم قبـة الـكابيتول (١) فيتيـح للباحث عن كثب فرصة رؤية التركيب الآلي

---

(١) مجلس نواب الولايات المتحدة الامريكية

المعقد لكل عضو من أعضاء البعوضة ووظائفه وتكوينه، فيسهل عليهم معرفة طريقة نقلها للأمراض وعدواها .

ولا غرو فالجهاز الكهربي يضخم صورة القصبة الهوائية ليرقة البعوضة تضخيماً عظيماً جداً حتى تظهر دقائقها جلية كل الجلاء، وإن يكن حجمها الأصلي يقل كثيراً عن نصف جزء من مليون من عقدة الأصبع . فمن المعقول إذن ، من كل الوجوه ، أن نتوقع كون دراسة تلك التفصيلات ستميط لنا اللثام عن معلومات جديدة تؤول الى وقاية الأنام من غوائل البعوض القتال . وقد مكن الجهاز الكهربي العلماء من اثبات إحدى نظرياتهم المحبوبة التي جالت في خواطرهم أحقاباً مديدة ونعني بها احتواء الجسم البشري على قوات دفاعية تدرأ عنه الجراثيم التي تهاجمه . وتسمى أعداء البكتيريا والفيروسات Virus (عوامل نقل العدوى) باكتيروفاج . ولم يكن في وسع العلماء دراسة هذه العوامل الدفاعية أو رؤيتها ، وان كانوا قد استطاعوا تخيل أشكالها ووظائفها . أما الآن فقد أصبح في مقدورهم الحصول على سلاسل رائعة من صورها الفوتوغرافية تمثلها سابحة في مجاري الدم ، ثم محتشدة فيه بغية مهاجمة القصيات «الباشلس» حيث يشاهدون الحرب الشعواء التي تنشب بين بعضها وبعض فلا تستغرق أكثر من عشر دقائق ثم تنتهي بهزيمة الجراثيم .

وفي خلال عشرين دقيقة يتمزق شملها وتتفكك أجزاؤها ثم تتحطم تحطيماً تامـًا . وذلك بعد انقضاء نصف ساعة . وحينئذٍ تتجلى صورتها الختامية كأنها انفجرت انفجاراً كاملاً إذ تتبدد ذراتها المحطمة منتشرة فوق ساحة الوغى . ويتيسر اتمام احدى هذه الصور في زمن يقل عن يوم فتقوم مقام جواب شافٍ ، هو الذي ظل رجال المباحث الطبية ينشدونه بلا فتور عشر سنوات .

ومن المكتشفات التي تكشفت بالجهاز الكهربي فأحدثت انقلاباً في ميدان الزراعة تبيان فيروس مرض البرقشة « التبقيع » الذي ينتاب التبغ (الدخان) والذرة وقصب السكر ، إذ يظهر على أوراقها فيفسد محصولاتها فيخسر أربابها سنوياً ملايين الجنيهات ، وقد غدا في امكان العلماء دراسة ذلك العدو الأزرق الذي يفسد الدخان ، دراسة محكمة إذ يتسنى لهم تحليل تركيبه ومعرفة تكوينه . وستكون الخطوة التالية التي سيخطونها هي

اختراع الوسيلة التي تقضي عليه قضاء مبرماً . (وقد علمت من المطلعين أن وزارة الزراعة المصرية ستقتني مجهراً كهربيًّا عما قريب لتستخدمه في مباحثها)

والجهاز الكهربي يكبر تيلة القطن الصغيرة جدًّا فيجعلها تظهر لنا طويلة كعمود المصباح، وهذا عدا إظهاره لتكوينها الداخلي . فيتبين الخبراء وجوهاً كثيرة بشأن سر صلاحية القطن وتفوّقه . وهي الصلاحية التي جعلته لاغنى عنه في شتى المرافق وأهمّها .

وبالجهاز الكهربي تيسر لأول مرة رسم ذرّات الزبد التي توجد في اللبن الحليب ، لتسهيل فحصها ، وكذلك صار بحث أدق ذرّات الصلب بحثاً صحيحاً أمراً ميسوراً ، بغية تقديم معلومات صحيحة إلى المهندسين، وارشادهم الى تحسين أنواع الخاليط التي توجد لديهم منه . وهذا الى جانب تمكينهم من اختراع غيرها .

وفي ميدان العجائن الكيميائية ، يبين الجهاز الكهربي للعلماء طريقة اتحاد جزيئين أو أكثر متشابهين من جزيئات المادّة لتكوين جسم مركب ذي جزيئات أثقل وخواص طبيعية مختلفة ، وان يكن مؤلفاً من العناصر نفسها بالنسب عينها . وهذه هي الوسيلة التي أتاحت تركيب أغلب العجائن الكيميائية المعروفة في هذا العهد .

ثم إنّ سناج الكربون ، وهو المادة العجيبة التي تمكن إطارات السيارات من قطع مسافات شاسعة تختلف بين ٣٥٠٠٠ ميل و ٥٠٠٠٠ ميل ، قد تمّت دراستها دراسة منتجة ، وذلك بالجهاز الكهربي . وقد تكشف للمهندسين الذين يدرسون الذرات الصغيرة ، الألفة العجيبة الكائنة بين المطاط وسناج الكربون . ثم أسفرت مباحثهم في هذا الموضوع عن استيقان ما يحتاج اليه لتركيب المطاط الصناعي ، فنجم عن هاتيك المعلومات ، جعل الكاوتشوك الصناعي يكاد يقوم مقام الطبيعي منه في أداء ما يستخدم فيه من الأغراض .

وبهذا الجهاز الحديث عينه صوّرت صور فتّانة للقتال الذي تدور رحاه بين الجراثيم والبنيسلين ، ومنها صورة تبين الجراثيم التي توجد في الصديد . وذلك في وضعها الطبيعي المضطرب ، وصورة أخرى التقطت عقب حقن الجسم بالبنيسلين وهي تمثل الجراثيم ممزقة شر ممزق .

× وما برح العلماء يهدفون إلى اتمام جهاز مساعد لهذا الجهاز العصري ليكشف لهم

عن العناصر التي يؤلف منها كل نموذج يعرض لفحصه به . وقوام ذلك التحليل الكيميائي ، هو اختلاف سرعة الكهيربات في الذرات المختلفة الأنواع . ويتنبأ مهندسو الجهار الكهيربي بتوسيع نطاق استعماله توسيعاً يشمل ميدان الزراعة فيصبح وسيلة لتحسين المزروعات وذلك بمعاونته للباحثين على كشف وسائل جديدة لمكافحة آفاتها وزيادة أحجام المنتجات وتكثير غلاتها .

ويؤكد كثير من العلماء وجود هرمونات (رسل كيميائية) ذات تأثير ثابت في نضج شخصية المرء أو قمعها . وأن المورثات « عوامل الوراثة » التي توجد في الخلايا الجنسية هي أيضاً عوامل نقل الميزات الوراثية . ثم يقولون : —

أما وقد أصبحت الجزيئات وربما الذرات أيضاً قريبة من حيز الرؤية البشرية ، فماذا عسى أن يحول دون مشاهدة هاتيك الهرمونات المورثات ثم دراستها . وهي التي تربط كل جيل بغيره ؟ !

فاذا حلّ ذلك العصر المرتقب الذي سوف نتمكن فيه من السيطرة على الوراثة والشخصية ، صار في وسعنا تجديد الجنس البشري تجديداً رائعاً . والمعروف من تاريخ اختراع هذا الجهار وتحسينه أنه منذ سنة ١٩٣٠ حدث تقدم عظيم في تحسين الجاهر الكهيربية في الدول المختلفة ولا سيما في المانيا إذ تبين للعلماء أن الكهيربات تسير في الصمامات المفرغة من الهواء في خطوط مستقيمة إلاّ اذا اعترضتها مجالات كهيربية أو مغنطيسية . وانه من الميسور جعل هاتيك المجالات تقوم مقام العدسات الزجاجية وتعمل عملها . وأن في نوع من الجاهر الكهيربية تنبعث تلك الكهيربات من فتيلة ساخنة ، كما هي الحال في صمام الراديو ، ثم تنتقل عاجلاً وتُركّز بمغناطيس على الشيء المراد فحصه [1] .

وبعد كتابة ما تقدم اطلعنا على نبذة في احدى المجلات العلمية الأمريكية بعنوان (اختراع جديد يمكن الجهار الكهيربي من رؤية الدقائق التي لا يزيد حجم كل منها على جزء من

(١) وهذا ما قلته حرفياً في مقال على معجزات العلوم والفنون نشرته في مقتطف مارس سنة ١٩٤٦ تستطيع المجالات المغنطيسية والكهربية توجيه موجات الكهيربات الى أي صوب كما يتيسر لك توجيه المياه بخرطوم ري الحدائق الى أية ناحية تقصدها .

٥٠ بليوناً من عقدة الاصبع فرأينا أن نلحقها بهذا البحث مسرورين لأنها تحقق ما تكهن به العلماء وورد ذكره في هذا المقال وذلك في الفقرة المميزة بهذه العلامة × بصفحة ٣٥٩

قد تمت حديثاً زيادة قدرة الجهاز الكهربي في تضخيم حجم المرئيات من مائة الف مرة الى أكثر من مائتي الف مرة وذلك بعدسة مغنطيسية محسنة اخترعها الدكتور جيمس هيليار Dr. James Hillier وبمعاونة زميله بري سميث ، وهما يعملان في معاهد المباحث العلمية الخاصة بشركة الراديو الأمريكية في برنستون باقليم نيوجرسي بالولايات المتحدة الأمريكية

وقد أعلنت هذه الخطوة العظيمة في سبيل فتح العالم الذي هو أحط من المرئيات الصغيرة جداً التي لا ترى بالعين المجردة . وقد تم هذا الاعلان برسالة علمية قدمها الى المعهد الامريكي لعلم الطبيعيات الدكتور هيليار ، ذكر فيها أنه قد نجح في تحسين العدسات المغنطيسية التي تركز الموجات الكهربية تركيزاً بالغاً من شأنه تسهيل تمييز الدقائق التي تنفصل عن الأجسام انفصالاً لا يزيد بعد كل منها عن الاخرى على جزء من خمسين بليون من عقدة الاصبع .

ورغم هذا الظفر العلمي العظيم فقد أوضح الدكتور هيليار أنه لا يزال تجاهه معضلات فنية جمة تستوجب الحل قبل تعميم هذه الدرجة السامية من القدرة على التحليل لتصوير صورة جلية جامعة لدقائق المرئيات ونشرها بين العلماء أجمعين .

والمظنون أن للدقائق المؤلفة للجزيئات الكبيرة ، وكذلك تأثير العقاقير في البكتيريا ستكون من ضمن الأشياء التي سيكشف عنها اللثام فتتجلى للانام في مستقبل الأيام

ولا يخفى أن الصور الصحيحة التي تستطاع رؤيتها ونعني بها الصور الخاصة بتكوين الجزيئات ، ستفتح ميادين رحبة جديدة في الكيميا العضوية ، وهو العلم الذي حبانا بمواد النيلون والحرير الصناعي وغيرهما من العجائب الكيميائية . كما أمدنا بالمطاط الصناعي والعقاقير المنقذة للحياة . أما في ميدان الطب ، فمن المحقق أن معلوماتنا الجديدة الخاصة بالتكوين الدقيق للفيروسات (عوامل نقل عدوى الأمراض) والخلايا الحية ستساعدنا مساعدة جليلة على استئصال ذينك الداءين اللذين لم نتغلب عليهما حتى الآن ، وهما شلل الأطفال والسرطان . ولا محيص قبل ختم هذا البحث من وصف أجزاء هذا المجهر الجبار

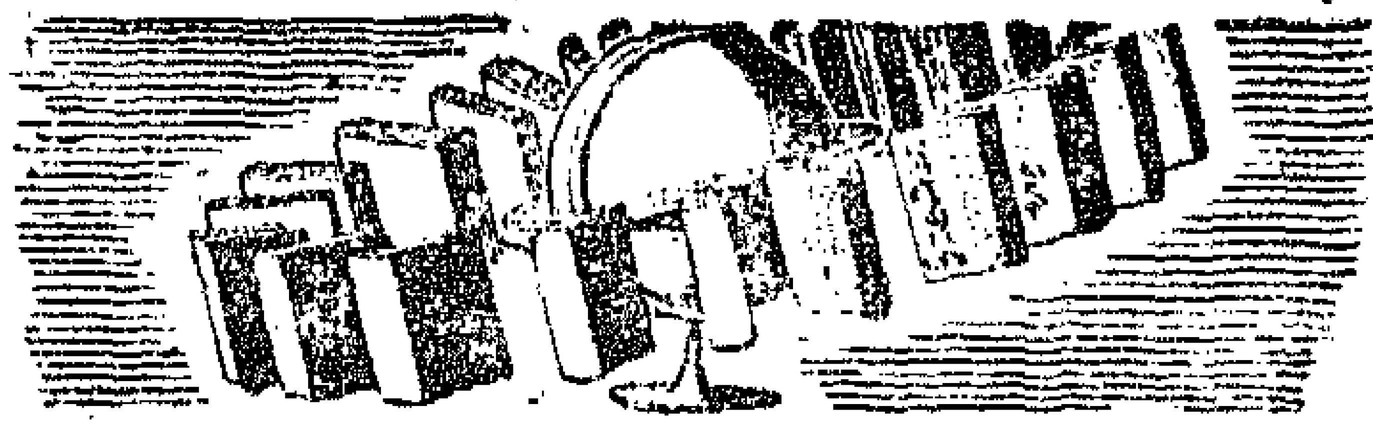
وطريقة استعماله فنقول إن مصدر الاضاءة في المجهر الكهربي ، قطب كهربي سلبي ساخن تنبعث منه كهيربات فتمرّ هذه الكهيربات بقطب ايجابي في وسطه ثقب صغير . ويشحن هذا القطب بكهربا ايجابية تعجل مسير هاتيك الكهيربات . وفي الجهاز لفة سلك على شكل دائرة جوفاء تولد مجالاً مغنطيسيًّا يقوم بحني مجاري هاتيك الكهيربات حنياً يصيرها كشعاعة موازية للجسم المراد فحصه فتسلط عليه فتخترق الأشعة الكهربية ذلك الجسم اختراقاً يتفاوت بحسب تكوينه ، حيث يقوم مجال مغنطيسي آخر بحشدها في بؤرة واحدة فتكوّن صورة مكبّرة ، ثمّ إن الأشعة الكهربية ، التي تؤلف جزءاً من تلك الصورة يتم تكبيرها أيضاً بالمجال المغنطيسي الثالث فتتكوّن منها صورة مكبرة أيضاً. فيتبين من هذا أنّ المغنطيسات الكهربية الثلاثة تقوم مقام العدسات في الجهاز البصري . ولذا تسمى بالعدسات المغنطيسية. ولكن هذه العدسات المغنطيسية لا يمكن تحريكها كما تحرك العدسات الزجاجية ، بل يتاح إحداث التأثير المقصود منها بتغيير التيار . والصورة المكبرة في الجهاز الكهربي تؤلف بشعاعة كهربية خفية ، يتسنى إظهارها بحجاب متألق يتلقاها . أما الصور الفوتوغرافية فتصنع بجعل الشعاعة الكهربية تسقط سقوطاً مباشراً على لوح فوتوغرافي . ولما كانت الشعاعة الكهربية لا تؤدي عملها إلاّ في أنبوب مفرغ من الهواء فلا بدّ من وضع الجسم المراد فحصه بالجهاز الكهربي في فجوة ملائمة له في الجهاز ثم إغلاقه عليه مع تفريغ الفجوة من الهواء . ومن الميسور إنجاز هذه الأعمال جميعها في ١٠٠ ثانية وذلك باستعمال الجهاز الكهربي العام الذي تصنعه شركة الراديو الأمريكية R. C. A. من طراز EMU — إـام ـيو فينجم عن ذلك أن الدقائق التي تقل أحجامها عن جزء من مليون من عقدة الاصبع تسهل رؤيتها .

عوض هنري

استدراك

وقع في المقال الخامس بالدكتافون المنشور في الجزء السابق من المقتطف خطأ مطبعي لم يتح لنا التنبيه عليه في حينه وهو ، وجوب حذف الجملة الآتية وذلك في سياق الكلام في العمود الاول من ص ٢٩٩ وها هي ذي : —

« فيقوم التليفون مقام بوقه حينما توضع السماعة في موضعها » فيستقيم المعنى ويزول الغموض .



مكتبة المقتطف

الطب العربي

مقدمة لدرس مساهمة العرب في الطب والعلوم المتصلة به تأليف الدكتور أمين أسعد خير الله أستاذ الجراحة في الجامعة الامريكية في بيروت — ٢٧٤ صفحة من القطع الكبير : بيروت ١٩٤٦

كتابٌ من الكتب الجامعة في هذا الباب ، وضع مقدمته المرحوم علي ابراهيم باشا جرّاح مصر الأول عليه رحمة الله فقال إن هذا الكتاب قد وعى تاريخ الطب في مصر والشرق كله وتضمّن المعرفة الطبية منذ كان العرب في الجاهلية الأولى ثم في صدر الإسلام من عهد الخلفاء الراشدين ، وتوسع في الطب العربي ومؤرخيه ، وكشف عمّا خطه العرب وما ترجموه .

ولقد ألّف هذا الكتاب باللغة الانجليزية ونشر بها ، فترجمه دكتور من الفضلاء هو الدكتور مصطفى أبو عز الدين ووضع للترجمة مقدمة هي على إيجازها للتعريف بمثل هذا العمل الكبير تدل أقوى دلالة على تعرف ما كان للعرب من أثر في العلوم عامة وعلم الطب خاصة . فمن ذلك مثلاً أن ابن الهيثم كان أول من قال بأن شبكية العين هي مركز المرئيات التي تنقل منها الى الدماغ بواسطة عصب البصر ، وإن وحدة الصورة من الباصرتين تعود إلى تماثلها في الشبكيتين . واكتشف ابن النفيس الدّورة الدّموية الرئوية قبل سرفيتوس بمئتين وخمسين سنة ، ووصف مجيء الدّم فاسداً الى القلب ومنه الى الرئة حيث يختلط بالهواء ثم يعود الى القلب نقيّاً ليوزعه على الجسم . وعلي بن عباس المجوسي سبق هارفي بمئات السنين إلى كتابة أقرب وصف للدورة الدموية في الأوعية الشعرية . وأبو القاسم الجرّاح العربي المشهور والمعروف بالزهراوي استعمل ربط الشرايين قبل إمبرواز بياري بأجيال وهو نفسه وصف داء الهيموفيليا وقال إنه « عائلي » . وكان أطباء العرب أول من قال بانتقال الأمراض السارية بواسطة المخالطة .

على أننا أحوج ما نكون في هذا العصر الى معرفة تاريخنا . ولقد تغير فهم التاريخ في العصر الحديث فانتقل معنا من مجرَّد رواية الأحداث الى تحليل الحياة العقلية والاجتماعية وتفهُّم أسبابها ونتائجها وعلاقتها بالحاضر والمستقبل . ولا شك عندي أنَّ هذا الكتاب من دعامات التاريخ المثلى في تاريخ العربية .

قصة النزاع بين الدين والفلسفة

تأليف الدكتور توفيق الطويل مدرس الفلسفة بكلية الآداب بجامعة فاروق الاول :
٢٦٩ صفحة من القطع الكبير : ١٩٤٧ القاهرة

انقسم المؤرخون قسمين : أحدهما يرى أن لا نزاعْ بين الدين والفلسفة وعمدتهم في ذلك أن اللاَّهوت هو الذي ينازع الفلسفة ، أما جوهر الدين فلا . وثانيهما يقول بأن الدين واللاهوت كليهما ينازع الفلسفة . ولعلّ السبب في ذلك عدم تحديد المقصود بكلمة « فلسفة » وكذلك عدم تحديد المقصود بكلمة « دين » . ولا شك أنه من أصعب الأمور تحديد المفهومين تحديداً جامعاً يقيم البحث في تنازعهما على قاعدة ذات حدود وروابط يأتم بها المؤرخ أو الناقد . ومن حيث بدأت البحث في ذلك الأمر انتهيت الى فكرة غامضة في دلالة المفهومين : مفهوم الفلسفة ومفهوم الدين . وإذن تكون مهمة المؤرخ الذي يتصدَّى للكلام في تاريخ ذلك الصِّراع إنه لا يجعل همه في التعريف بل في الاثبات والتقرير ، واستخلاص الفكرة العامة في ذلك من مقتضى الواقع ، لا من مقتضى الدلالة التي تتحيز في ذهنه من معنى الفلسفة ومن معنى الدين .

ما من شك في أن هنالك صراعاً وقع بين الفلسفة والدين . وما من شك في أن ذلك الصراع قد توالت عليه ألوان من العقيدة والفكرة والتقييد والتحرر ، والحقيقة والخيال ، والاثبات والنقض ، وتوالته قوًى كثيرة هذه جاذبة وتلك دافعة ، وهي حيناً حارة مضرمة ، وحيناً هادئة باردة الانفاس . ولعلي لا أكون مخطئاً خطأً كبيراً إذا قلت أن السبب في ذلك هو ذلك التنوح الفكري الذي ظل يمايل العقل الانساني حيناً الى ناحية الفلسفة ، وحيناً إلى ناحية الدين . فكثيراً ما خرجت من بحوث الفلسفة نزعات دينية ، وكثيراً ما خرجت بحوث الدين عن مذاهب فلسفية . ومرجع ذلك ومآله هو لدى الحقيقة العقل البشري ونزعات النفس وتأثير العوامل الاجتماعية والاقتصادية خاصة في رسم الطريق الذي ينتحيه الفكر . واني لعلى يقين من أن المذهب الذي أذهب اليه في هذه الناحية صحيح في مجموعه ، وهو

عندي أن درس مثل هذه الأشياء وبخاصة ظواهر الصراع بين ناحيتين من نواحي الحياة الانسانية كالدين والفلسفة ، ينبغي أن يخضع أول شيء لتحليل العوامل المحيطة بالانسان في عصر من العصور وبخاصة عوامل الاجتماع والاقتصاد وما يعتورها من مظاهر عقلية ومادية . فقد نرى مثلاً أن نبلاء فرنسا قبيل ثورتها الكبرى كانوا ملاحدة نزاعين الى التحرر الفكري ، فحمي وطيس النزاع بين الدين والفلسفة ، فلما دهمتهم الثورة بويلاتها وأخرجتهم من ملكوتهم ونزعت عنهم امتيازاتهم ، ارتدوا مؤمنين بالله واليوم الآخر ، وأموا الكنائس يلتمسون من جدرانها السلوى والمغفرة .

قد يكون هذا المذهب في واقع الأمر هو المذهب الايجابي في تحليل حقيقة الصراع بين الدين والفلسفة ، ولن نستطيع أن نصل الى الأسباب الحقيقية في اضطرام هذا الصراع حيناً ، وهدوئه حيناً آخر ، من غير أن نرجع الى الملابسات الاجتماعية والاقتصادية .

الكتاب الذي نحن بصدده من الكتب التي نحتاج اليها كل الاحتياج ، وقد رتبه مؤلفه الفاضل بحسب العصور ، وحصر كل همه في رواية الوقائع وقصها ، ولعله يوافقنا على مذهبنا الذي نذهب اليه في كتابة هذا التاريخ ، ولعلنا نفوز منه برأي فيه

الآداب السامية

مع بحث مستفيض عن اللغة العربية وخصائصها وثروتها وأسرار جمالها ، تأليف الاستاذ محمد عطيه الابراشي المفتش العام بوزارة المعارف : ٢٥٨ صفحة من القطع الكبير : ١٩٤٦ : القاهرة

تقصّى الأستاذ الفاضل مؤلف هذا الكتاب نشوء اللغات السامية فبدأ بتعريف شامل لما يعنى الكتاب من اللغات الساميَّة ، وعقب على ذلك بالكلام في فروع الأصل اللغوي السامي فعقد فصلاً في اللغة العبرية وعقب عليه بفصول في الفنيقية والارامية والسريانية ، ثم تخلص من ذلك إلى الكلام في العرب واللغة العربية . ولعلّ أعظم ناحية من نواحي الكتاب هو اتباع الطريقة المثلى في هذه البحوث وهي الطريقة التاريخية التي تظهرك على تسلسل الأسباب وتتالي الصور في انسجام كامل، يخلق في الذهن فكرة عامة عن موضوع البحث . ولقد قرأت ذلك الكتاب على بعد موضوعه عن دراستي الخاصة ، فاذا بي في صميم آداب العربية ، أربط بين أجزائها وأوفق بين ما تنافر منها ، فأخرج من جماع ذلك بتصور صحيح في أصل لغتنا العربية الجيدة والكثير من خصائصها التي أضفت عليها من الجمال والقوة ما يجعلها في طليعة لغات العالم كله .

تاريخ العصر الحاضر

تأليف رفيق التميمي — يافا — فلسطين

مؤلف مدرسي لطلاب الثانويـة ، جرى فيه مؤلفه على الطريقة الحديثة في وضع كتب التاريخ وأقصد بالطريقة الحديثة طريقة القصص التاريخي الملائم لتكوين فكرة عن الحالات السياسية التي تقوم في الأزمنة والأمكنة المختلفة ، قاصرة على تاريخ العرب والانعطاف نحو تاريخ الشرق إذا جدّت حاجة الى ذلك . ولكن المؤلف قد أدرك ذلك النقص الذي يبدو جليـّاً في كل المؤلفات المدرسية الحديثة ، فعقد فصلاً ممتعاً في « نهضة العرب في القرن العشرين » « وآخر في الحركة الفكرية في العصر الحاضر » فأكمل بذلك نقصاً نأنسه في كثير من الكتب التي يدرس عليها الطلبة في معاهدنا . ولعلنا نستطيع بعد قليل ان ندخل في مادة التاريخ عما قريب تاريخ التغاير الاجتماعي والاقتصادي ، وتفسير الاحداث الجارية بمقتضى ذلك فنخلص الى جوهر التاريخ وأسبابه و نترك قشوره وظواهره .

أحلام الربيع

من شعراء الحجاز الحدثين المجيدين الأستاذ طاهر زمخشري وقد أخرج أخيراً ديوان « أحلام الربيع » طاقة من الورد جمعت من كل لون زهرة .

ففي الديوان تحية للملكين فاروق وعبد العزيز عند اجتماعهما في رضوى وفي القاهرة ، وتحية لعاهل الجزيرة بعنوان « عودة الصقر » عند اجتماعه بالقطبين السياسيين روزفلت وتشرشل ، وقصائد شتى فاضت بها قريحة الشاعر في مناسبات متباينة .

وأبرز صفة في الشاعر الزمخشري حبه للسهولة غير المتكلفة واجتنابه للجفو من الكلام وإيثاره المعاني السافرة عن المعاني المستترة .

وديوان « أحلام الربيع » من أول دواوين الشعر الحديث في الحجاز التي عرفت طريقها الى المطبعة ولم يسبقه من قبل سوى بضعة دواوين تكاد لقلتها تعد على الأصابع .

وأهدى الشاعر الزمخشري ديوانه لسعادة الدكتور محمد حسين هيكل باشا « من بناة النهضة الفكرية في مصر والشرق العربي » كثمرة من ثمار تشجيعه وزهرة من الزهرات التي تعهدها بالرعاية اعترافاً له بالجميل .

وقد صدّر هذا الديوان بمقدمة نفيسة للشاعر المصري الأستاذ حسن كامل الصيرفي أوضح فيها مميزات صاحب الديوان .

١ — الله

للاستاذ عباس محمود العقاد — صفحاته ٣٠٠ صفحة من القطع الكبير طبع بمطبعة دار المعارف بمصر

آية جديدة على ما بلغه من الذهن العبقري من النضج ، والتفوق ، تتجلى في هذا المجهود الجبار ، الخصب ، الذي يقدمه — المؤلف — في حلبة الآثار العقلية ، الخالدة ، عن بارىء الكون ، ومدبر العالم ، ومبدع الكائنات ، فقد تناول فيه هذا الجانب المذكور في الطبيعة البشرية . والذي يمكن أن يطلق عليه الوعي الالهي . بالدراسة المستوفاة ، والبحث العميق ، فالانسان مزود بهذه الحاسة الوجدانية التي تنهض على الإيمان الفطري بخالق الانسانية ، فليس عمل الأديان إزاء هذا الوعي بالعمل الخالق له ، بل هو بمثابة الغذاء الذي يتطلبه الكائن الحي ، وتطوره ، وإكماله ، فالتدين غريزة في كيان الشخصية الانسانية ، ولكن هذه الغريزة قد لبثت الدهور . وهي تتخذ مظاهر ساذجة ، بدائية ، مسايرة للحياة العامة في مختلف ألوانها حتى بلغت أوج حيويتها عندما تهيأت لاستقبال آخر رسالة من قبل السماء : فعصور الوثنية ، وفترات التوجس من بداوات الطبيعة لم تخل من التدين ، بل كل هذه أثواب كانت ترتديها تلك الغريزة ، والذي يجرد ، أو يحاول تجريد الانسان في ثنايا تلك الحقب من التدين يتجنى على الحقيقة ، ويخطئه توخي الانصاف ، والأستاذ — العقاد — قد إتكأ على أمتن دعامة عند ما رجع بهذه الظاهرة إلى أصولها ، وتتبعها في منابتها الأولى ، ثم أخذ يسايرها في شتى صورها عند البدائيين ، والفلاسفة وفي الشرائع السماوية ، وأخذ يعرض تلك الصور التي إستطاع العقل في طفولته ، وشبابه أن يتمثلها عن — الله — ويناقشها في دقة وفهم ، ومقدرة ، ويفصل في اللباقة بين الجواهر ، والأعراض واللباب والقشور ، وما أكثر ما استنفدت هذه المشكلة من قوى المفكرين الذين استخدموا العقل ، وتدرعوا بالمنطق ، أو من هؤلاء الذين احتكموا إلى الوجدان ، واستجابوا للعاطفة والكل يجهد في تدعيم الصورة التي هدته إليها تجاربه الفكرية ، أو ألهمته إياها عاطفته الدينية المشبوبة ، ولكن ستظل وراء هذه المجادلات الشكلية ، وبعد هذه الخلافات العرضية حقيقة لا يمكن جحدها ، ولا سبيل إلى نسيانها ، أو تجاهلها ، وهي شعور الانسان الفطري بأن هناك قوى فوق طاقة العقل تمثلها ، ومعرفة كنهها ، تسيطر على الكائنات ، وتدبرها ، وفق قانون ثابت ، مطرد حكيم ، هذا بعض ما انتهى تقريره بالمنطق الحكيم ، الأستاذ — العقاد — والإيمان مرده إلى الوجدان ، والشعور ، وما عمل العقل إلاّ التفرقة بين الباطل والصحيح ، والزائف ، والسليم ، فليس العقل هو الذي يوجد الإيمان بل هو يقويه

ويدعمه عن طريق العقل ، ويبعد عنه الشوائب فلا ضير ، إزاء هذه الحقيقة، على كينونة الدين من تقدم الفكر ونشاطه ، هذا التقدم الرائع ، ما دام لكل ميدانه ، ومجاله ، ورسالته ، وأن هذه الدعايات المأفونة التي تذهب إلى أن المذاهب الاجتماعية يمكن أن تحل محل الأديان ، وتؤدي عملها ، وأن التقدم كفيل بمحو الأديان . فرية باطلة ، لا سند لها ، ولا بقاء ، ومهما كان من تفوق العقل وإزدهار العلم ، فهو يقوي العقيدة ، ويفلسف الإيمان ، لا أن ينال منه ، كل هذه الشبه ، وأمثالها ، قد تعرّض لها الأستاذ ـ العقاد ـ وفندها ، وردها إلى ما يجب أن تنتهي اليه ، فكم من فلاسفة ، ومفكرين ، نازلهم الأستاذ ، واستطاع أن يأخذ منهم قصب السبق وأن يديل من أيديهم الحجة فكانت آية على جبروت هذا العقل الجبار ، الذي اقتحم هذا السبيل الذي تكثر أشواكه ، ومزالقه ، بقدم ثابتة ، وجنان يقظ ، وقلب ثابت ، وهو طريق يثير اشفاق الكثيرين ويملأ قلوبهم رعباً ، وأفئدتهم هولاً ، فيتقونه ، وينأون عنه ، ولكن هذا المفكر الجسور ، قد ضرب في أنحائه ، وجاب معالمه ، وقدم ما يجمل أن يقدم من ثماره ، ولعلَّ في عمل هذا الرائد ما يمهد السبيل الى اكتشاف ما يستتر في باطنه من كنوز ينتفع بها في حياتنا الدينيـة ، والعقلية ، وفي تاريخنا لفكرة التدين ، وإبراز الألوان التي استطاع العقل أن يخلعها على — الإلـه — وعلى أي الصور تسنى له أن يتمثله ؟ فهي مراحل مغرية ، مشوّقة ، تستهوي اللب وتستلفت الخاطر ، والكتاب يجب أن يقرأه كل مثقف ، ليرى خلاصة مركزة لتلك المجهودات التي أنفقت العصور ، والأعمار في سبيلها ، وينال ما يستحقه من عناية العلماء ، والباحثين من دراسـة ، وتعليق ، وأن يستقبل بما هو أهل له ، فهو عصارة ما بذلته البشرية حيال هـذا السر العظيم ، ودراسات لنظريات الفلاسفة ، وآراء المفكرين ، واستعراض لكل ما يدور في هذا المجال ، وهو من حيث الدراسة . فهو يحمل طابع الأسـتاذ — العقاد — وخصائص ذهنه ، من حيث دقة بحثه ، واستيفاء أطراف موضوعه ، وقوة شخصيته ، وعنفوانها ، وأنها تروعك بجبروتها . مهما كانت الشخصية التي بجوارها ، هذه كلمة عابرة في هذا الكتاب الذي آمل أن يقابل بما هو خليق به من الدراسة ، والعناية .

٢ — الموازنة بين الطائيين للآمدي

شرح وضبط وتعليق للشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد

الأستاذ محيي الدين من الشخصيـات العلميـة ، القلائل التي وهبت كل حياتهـا ، سخية ، جوادة ، للعلم ، والبحث ، والدراسة ، والتأليف ، في هدوء ، وصمت بعيـدة عن

ضجة الاعلان ، غير آبهة بألوان الدعاية ، تاركة لوجودها ، وأعمالها ، أن تنطق بأروع بيان وتجلجل في مسامع العصر ، مفوضة إلى التاريخ — وهو أحكم الحاكمين — تقدير انتاجها ، وانصافها ، فلو أننا نعيش في بيئة تزن الأعمال بالقسطاس المستقيم ، لكان لهذا العالم الثبت ما له في هذا الجو الذي تطفو على سطحه كثير من الفقاقيع ، فلقد زود هـذا الجيل بأزواد تنوء بها المجامع الضخمة ، وهو متعدد النواحي العلمية ، من أدبية ، وتاريخيـة ، ولغوية ، واسلامية ، عميقها ، يجول في ميادينها بقدم ثابتة ، وذهن قوي ، وحسبه أنه قد تولى هذا التراث النحوي الذي تركته العصور ، وهو أشد ما يكون اضطراباً ، مما جعل مهمة الدارس له غاية في المشقة ، والعسر ، حتى كاد اليأس من الانتفاع بهذه الذخائر يقضي على كل شيء ، فأولاها عنايته ، وأوقف عليها نشاطه حتى استطاع أن ينشئ وقد أخرجهـا جميعاً في أبهى حلة من الاخراج العلمي والتنظيم والتبويب ، والفهـارس مما كان له أجمل الأثر في المعـاهد والجامعات التي تتولى تلك الدراسات العربية ، وقد عزّ عليه أن يرى كتب الفقه الاسلامي تعاني تلك العلل التي يعرفها كل من تصدى للدراسات الفقهية فأخذ في إصلاحها ، وتهذيبها ، وتقريبها إلى الأفهام ، ولو ذهبت أعدّد ما قام به ، ويقوم من تلك المجهودات لطال بي القول. وحسبه أنه أصبح يتفرد بمكتبة من انتاجه ، واخراجه وهو عالم ضليع ، واسع الاطلاع عميقه ، وأديب ممتـاز له ذوقه ، وفهمه ، وبصره في النقد الأدبي ، وهو جزل الاسلوب ، متين العبـارة ، غير أنه يرى أن هـذه الكتب وهي كل تراثنا أولى بالجهود لإصـلاح ما يعتورها من اضطراب ، ويشيع فيها من خطأ جرّه عليها اجحاف عصور الظلم والركود ، وتزيده تمسكاً بهذه العقيدة عدم توافر الجهود اللازمة في هـذا الميدان ، فهو يؤثر داءماً هذا الميدان على غيره ، لأن في إحياء هـذه الآثار ، ورد عادية البلى عن حماها ، نوع من التجديد ذو المساهمة ، والكتاب الذي نحن بصدده من أهم الكتب التي عنيت بالنقد الأدبي ، فهو يدور حول شاعرية شاعرين من فحول شعراء الأدب العربي ، وهما : أبو تمام ، والبحتري ، فيتناول مواضع الجودة وينبه على مواطن الضعف في آثارهما ، ويحاول أن يبين كل ذلك فالكتاب له قيمته من حيث هو يؤرخ مرحلة من مراحل تطور النقد عنـد العرب ، ويبصر الناشيء بمواطن الجودة ، ومآخذ الضعف ، ويعين على تذوق الأدب ، وهذا — الكتاب يعد من أمهات الكتب في هذا النوع غير أنه كان يعاني ذلك الداء المخامر الذي يطغى على أمثـال هذه الآثار من التحريف والتشويه ، والاضطراب ، ممـا يحول بينها وبين الانتفاع بهـا في سهولة ، ويسر ، فاستطاع الأستاذ الفاضل — أن ينقي ما فيه من الشوائب ، ويخلصه من الأغلاط ، ويصلح ما فيه من فساد ، ويبوّبه ، وينسقه ، ويضع له الفهـارس ، ويخرجه

إخراجاً علميّـا ، دقيقاً ، فمهد السبيل للانتفاع بهذا المورد العذب في النقد الأدبي وهي رسالة لا يضطلع بهـا إلاّ هؤلاء الذين أتيحت لهم ثقافة ، شاملة ، مركزة ، ورزقوا من الصبر ما يعينهم على هـذه المجهودات ، ومن الاخلاص للعلم ، ما يحبب إليهم كل صعب في سبيل تأدية رسالتهم وكل هذه الخلال يتحلى بها هذا الأستاذ المخلص ، وفقه الله لخدمة العلم ، والنهوض برسالة العلماء .

محمد عبد الحليم البوزيد

١ — مصر الظافرة

١٣٠ صفحة من قطع المقتطف — المطبعة الاميرية ببولاق

البكباشي عبد الرحمن زكي مدير المتحف الحربي أديب أغنى المـكتبة العربية في ناحية كانت هي فقيرة فيها فأنشأ ثقافة عسكرية مزج فيها بين الأدب والتاريخ والفنون العسكرية ولم يقف به نشاطه عند العمل في حدود عمله العسكري من تكوين مكتبة عسكرية وإدارة مجلة للجيش وتنظيم المتحف الحربي وتقوية روح التأليف والـكتابة بين رجال الجيش وتحبيب المطالعة للجنود . فهو ما ينفك بين حين وآخر يتحف المـكتبة العربية بأثر جديد له .

وقد أصدر أخيراً الطبعة الثانية من كتابه « مصر الظافرة » وهو صفحة من تاريخ مصر القومي ، استعرض فيها حقب التاريخ كما يستعرض موكباً من المواكب اجتمعت فيه ألوان شتى من تاريخ مصر الفرعونية حتى العصر الحديث وذلك في عرض شائق وأسلوب جميل .

والـكتاب بالرغم من صغر حجمه وضخامة الموضوع الذي تناوله مؤلفه الفاضل ، قد استوفى الموضوع حقه من الأداء فلم يخل ايجازه بشيء من صور التاريخ المصري عصراً فعصراً . وهذا الموضوع يتصدى له خبير به فيحسن تصويره ويلم بشتاته ويعرض للقارىء صفحة هي بحق جديرة بما توج به الـكتاب بالـكلمة الذهبية للمغفور له الملك فؤاد الأول وهي « ستكون مفاخر ماضينا وتراثنا الخالد خير عون لنا في بعث وطننا من جديد ، وفي التقدم به نحو الـكمال الانساني ، ذلك الـكمال الذي ظلّ — على تناحر الشعوب واختلاف الفلاسفة في جميع الأقطار والأزمان — مذ كان أرسطو حتى تولستوي — حلم العصور الـكثيرة المتعاقبة ، والمنارة اللامعة المغرية في آفاق البشرية السامية »

٣ — صحيفة البلاد السعودية

كان لليقظة التي بعثها العاهل العظيم جلالة الملك عبد العزيز آل سعود في الجزيرة العربية أثرها في كل منحى من المناحي عمرانية أو ثقافية ... وآية ذلك تلك النهضـة القوية التي تبدو آثارها فيما ينتج أدباء الجزيرة في هذه الآونة .

ولقد نهضت الصحافة هناك في عصره نهضة تبشر برقي، وإسراع في هذا الرقي . فهناك من الصحف الآن ما تضارع صحف البلاد العربية الأخرى، ولها من الرسالة التثقيفية ما يدعو الى الاعجاب . وفي مقدمة هذه الصحف صحيفتان إحداهما شهرية وهي «المنهل» التي يصدرها الأستاذ عبد القدوس الانصاري — وقد سبق أن نوهت بها في هذه المجلة — والأخرى «صحيفة البلاد السعودية» وتصدر يوم الاثنين من كل أسبوع في حجم الجرائد اليومية . ويتولى إصدارها الشركة العربية للطبع والنشر ويرؤس تحريرها أديب ممتاز الذهنية رقيق الأسلوب قوي التعبير هو الأستاذ عبد الله عريف يعاونه في ذلك فريق كبير من أدباء الجزيرة العربية البارزين من أمثال الأساتذة احمد عبد الغفور عطا ومحمد حسن عواد وطاهر زمخشري وحسين عرب وحسين سرحان ومحمد حسن فقي والأنصاري وحسن عبد الله القرشي وعزيز ضيا وغير هؤلاء ممن يحملون علم النهضة الأدبية في الحجاز .

وقد أصدرت هذه الصحيفة بمناسبة دخولها في سنتها الثانية عشرة عدداً ممتازاً في طباعته الملونة وفي إخراجه وفي موضوعاته وقصائده ضمَّ الكثير من نتاج من ذكرنا من هؤلاء الأدباء الأفاضل ومن كثيرين غيرهم ، وقد توّج بكلمة لحضرة صاحب السمو الملكي الأمير عبد الله الفضيل ، وازدان بكلمات لحضرات أصحاب السعادة الأساتذة محمد مرور الصبان وعبد الرؤوف الصبان والشيخ ابراهيم السليمان وفضيلتي الشيخ محمد بن نافع والسيد صالح شطا والأمير الاي علي بك جميل .... وانها لنهضة مباركة يرجع الفضل فيها الى الجهود التي بذلها عاهل الجزيرة العظيم وآل البيت السعودي الكريم الذين يحتضنون النهضة الفكرية ويعملون على رفع منارها وإعادة الحياة الأدبية إلى الجزيرة كما كانت في أزهى عصورها .

الصيرفي

اختزال واكد

وضع حضرة الأستاذ فؤاد واكد رئيس قسم الاختزال بمجلس النواب المصري كتاباً يتضمن شرحاً وافياً للطريقة التي ابتدعها للاختزال باللغة العربية بعد ما درس طرق الاختزال باللغة الانجليزية وألم الماماً تامًّا بكيفية تبسيط هذا العلم واستعماله في سهولة ويسر.

ويقول الأستاذ واكد أن ما حفزه إلى إخراج هذا الكتاب هو ما تبينه من افتقار اللغة العربية إلى مثيل له يسهل تداوله والاعتماد عليه في درس هذا الفن .

١ — أشواك

للاستاذ سيد قطب

دار سعد مصر — ١٤٨ صفحة من الحجم المتوسط

لم أكد أفرغ من تلاوة قصة أشواك التي صدرت أخيراً للأستاذ سيد قطب حتى تناولت قصة « سارة » للاستاذ عباس محمود العقاد ، لأن مشابهة ملحوظة بين القصتين استوقفت نظري . فالقصتان على ما يتضح من سياقهما مستمدتان من حياة كاتبيهما . وموضوع كل منهما يكاد يكون واحداً ، فمحوره أن شاباً يحب فتاة فتبدي له الفتاة من التدله والصدّ ما يقطع الصلة بين العاشقين .

ولم يسترع انتباهي تشابه موضوع القصتين وحده ، بل راعني فضلاً عن ذلك تقارب جليّ في تخيّر عنوانات الفصول في كل من الروايتين . فبينما يعنون العقاد فصلاً « بشكوك » يعنون قطب فصلاً « بأشواك » . وبينما يتخذ الأول العنوانات التالية « وكان صباح » و« مضحكات الرقابة » و« من هي » و « القطيعة » يتخذ الثاني العنوانات التالية « موعد » « سخريات » و« أنثى » و « القطيعة » وجليّ أن المعاني تتقارب وإن تباعدت الألفاظ شيئاً ما .

ولا أريد أن يؤخذ كلامي على أن الأستاذ قطب نقل من الأستاذ العقاد ، فلكل منهما طريقته الخاصة في الكتابة وفي معالجة « تجربة الحياة » التي عرضت له ، لكل منهما أسلوب خاص في معاملة المرأة سواء كان ذلك في حياة الواقع ، أو دنيا الخيال والتصور ، ولكن هذا التشابه فرض نفسه عليّ فرضاً رغم الشقة المسيحة بين زمن قراءة كل من هاتين الروايتين .

واستوقف نظري في قصة الأستاذ قطب شيء من التحرر من التقاليد التي تواضعت عليها العائلة المصرية . ومن ذلك مثلاً أن بطل روايته خطب لنفسه فتاة ، فكانت هذه المزيّة تؤهله لأن يقتحم عليها حجرة نومها ويفجأها وهي أدنى إلى العري منها الى الستر ، وكانت تخوّل له أن يبيت في دارها دون أن يعترض والداها على ذلك ، وكانت تبيح له أن ينفرد بها في بمر الدار ويعتصرها اعتصاراً ويرشف منها ما شاء من رحيقها المذخور . بل إنه ، حتى بعد أن قطع كل صلة بها ذهب إلى دارها فدهش جميع الذين كانوا فيها ولم تحل دهشتهم هذه دون أن يختلي الخطيب السابق بخطيبته السابقة بعد استئذان أهلها ، ليفاتحها في موضوع حلم حلمه يتعلق بأخص خصائص المرأة .

وفي رأيي أن القاصّ اندفع بعض اندفاع في إعداد هذه المواقف لأنه لو تحرّى مطابقة قصته للواقع المألوف لتجنب هذه الأخطاء .

وبعد فالقصة لا تفتقر إلى عنصر التشويق ، وإلى الظلال ، فهي حافلة بهما ، ولعلّ خاتمتها « الحالمة » أجمل ما فيها لأنها تعرض لنا فكرة جديدة هي « الأبوّة التصورية » أي أن يخال رجل نفسه أباً لطفل ليس من صلبه .

٢ — جرائم واغتيالات القرن العشرين

للأستاذ عبد الحليم الجندي

الجزء الثاني — دار سعد مصر — ١٦٠ صفحة متوسطة

أصدر الأستاذ عبدالحليم الجندي المحامي بأقلام قضايا الحكومة كتاباً من جزأين عنوانه « جرائم واغتيالات القرن العشرين » تحدث في الجزء الأول عن ابراهيم الهلباوي بك أول نقيب للمحاماة في مصر وتناول في السفر الثاني حياة محاميين بريطاني وفرنسي تضلّعا من فنّهما وتميّزا على أقرانهما بما وهبا من استعدادٍ فطريّ لمراس المحاماة ، كأن مهنة المرافعة لم تخلق إلاّ لهما .

والسكسوني هو مارشال هول ، وهو معروف للمصريين بدفاعه الجبار في قضية مقتل الوجيه علي فهمي بيد زوجته الفرنسية مرجريت فهمي ، وقد استطاع بقوة حجته وتحايله على الحقائق واختلاقه أموراً لا نصيب لها من الصحة أن ينقذ موكلته مرجريت من المقصلة مع ثبوت جرمها ومغالاة القانون في عقاب مقترف جريمة القتل .

كان رجلاً يناضل المقادير بل ويوجهها حسبما يشاء ، فقد كان في طاقته أن ينتزع من بين براثن الموت متهمين ثبت جرمهم واعترفوا بإثمهم على الملأ ، أو كما قال الأستاذ الجندي « كان يستخرج القاتل من القفص ليستجوبه كشاهد لا كمتهم ! »

بعثت إليه معجبة به رسالة تثني فيها عليه وترجوه أن يوافيها بصورة « أكبر المحامين رشاقة وعبقرية » فما كان منه إلاّ ان بعث إليها مرحباً شكره وأرفق كتابه بصورة محامي خصمه !

ولكن هذا المحامي الذي جلجل صوته في ساحات القضاء في بريطانيا كان سيء الحظ في حياته الخاصة إذ حدثت جفوة بينه وبين زوجته وكانت حلبة القضاء ميداناً شُهِّر فيه بمحامي بريطانيا الأكبر وأصبحت أخصّ علاقاته بزوجته موضوعاً تلوكه الألسنة وتجترّه الأفواه .

والمحامي الفرنسي هو هنري روبير ، وهو متفرّد في صفاته ، عبقريّ في فنّ الكلام وفن الكتابة ، يلعب بالألفاظ لعباً ، ويحاور ويداور ما شاء له المقام حتى يواتيه الظفر بثماره الناضجة

لو أراد لأصبح وزيراً في فرنسا ، ولو شاء لتصدّر الساسة في بلاده في مستهل هـذا القرن ولـكنه انقطع للمحاماة مفسحاً وقته بعض الشيء للتأليف والتسويد . وليس في الوسع أن أصور هنري روبير كما صوره الأستاذ الجندي . فقـد نشره الـكاتب من قبره وبث فيه روح الحياة ليراه القارىء نابضاً بالحيوية متجسماً أمام مخيلته .

فاسمعه يقول :

« نحن الآن في المحـكمة ، وها هو ذا النائب العمومي يترافع ، وذلك محام هادىء يكاد ينام ؛ ولـكنه نهض الآن بادي الرشاقة ، رفيع القامة ، قوي الصوت ، واضح الـكلام ، ينطلق في سرعة غريبة كأنه يخشى فوات الميعاد ! إنه يتكلم كأنه يتحدّث ، وها قد مضت بضع دقائق دون أن يظهر إنه محام عظيم ، ولـكنه قد أوغل في الصميم ، وحميت الوقدة ، واندلع لهيب النار ، وانساقت الحجة متدافعـة معجلة ، فهو يضرب يميناً ، ويضرب شمالا ، كلاعب السيف ، ضربات منظمة ،وأحياناً كثيرة ضربات غير منظمة ، تسحر العيون ... أو كما شبهوه بالحاوي ، إذ يبهر المحلقين بصيحاته وحركاته المتقطعة ، بينما هو يلتقط على أعينهم أعظم شيء في أيديهم ، وهو هنا روح المتهم ! » .

إنه كتاب ممتع ، لأنه كتاب حيّ . لا نقرأ فيـه عن أناس ، وإنما نرى فيه أناساً . كتاب كالمعرض أو كشريط السينما يجسم لك الحوادث ويبين لك من ظلالها أمجاد المحاماة وفضائلها . وكاتبه الأستاذ الجندي يمسك بقلمه بإحكام فلا يدع خلجة إلاّ يحسن تصويرها ، ولا يدع زفرة إلاّ يجلوها للعيان .

وديع فلسطين

ظواهر الطرح الروحي

نشرت مكتبة الهلال في الفجالة هذا الـكتاب لمؤلفه حضرة الأستاذ أحمد فهمي أبو الخير ويعرف كثيرون من القراء أن حضرة المؤلف توفر على دراسة العلم الروحي وألف فيه كتباً كثيرة وترجم كتباً أخرى عن اللغات الأجنبية ولهذا العلم أنصار في أوربا وغيرها وله في مصر قراء متعددون . والـكتاب الذي بين أيدينا يبحث في الأحلام والتواصل الروحي خلالها وطرح الروح خلال النوم والعقل الباطن والوحي والرؤيا الصالحة والموت الظاهري وعلامات الموت الحقيقي والغيبوبة والتخشب وظاهرة التلبثي والتجريب العلمي فيهـا والسيكومتري (تقصي الأثر في لوحة الفضاء والزمن) وكيف تتجسد الأرواح المطروحة وتتكلم . وفي الـكتاب كثير من الصور . ولا شك في أن موضوعات الـكتاب وما فيها من طرافة ولذة كفيلة بالاقبال عليه من المهتمين بالشؤون الروحية .

فهرس الجزء الخامس

من المجلد العاشر بعد المئة

٣١٣ وطننا الشرق : اسماعيل مظهر

٣٢١ العائدون (قصة) : محمد طلبة رزق

٣٣١ جريمة أم قصاص (قصة) : ع . ش

٣٣٧ الوضع الاجتماعي : الياس يعقوب

٣٤٩ المرأة في البرلمان : نقولا الحداد

٣٥٣ أمس واليوم — حالة مصر الزراعية والقطن المصري : وديع فلسطين

٣٦٢ الجهر الكهيربي : عوض جندي

---

٣٧٢ مكتبة المقتطف * الطب العربي . قصة النزاع بين الدين والفلسفة . الآداب السامية . تاريخ العصر الحاضر . أحلام الربيع . ١ـ الله ـ ٢ — الموازنة بين الطائيين للآمدي ، محمد عبد الحليم أبو زيد ـ ١ ـ مصر الظافرة ـ ٢ ـ صحيفة البلاد السعودية : الصيرفي . اختزال واكد ـ ١ ـ أشواك ـ ٢ ـ جرائم واغتيالات القرن العشرين ، وديع فلسطين . ظواهر الطرح الروحي .

---

٣ — لحق

١٠١ — ١٤٤ المسرحية في شعر شوقي : تأليف محمود حامد شوكت

JANUARY — MAY 1947

يناير — مايو سنة ١٩٤٧

المقتطف

مجلة علمية صناعية زراعية

لمنشئيها

الدكتور يعقوب صرّوف والدكتور فارس نمر

أنشئت سنة ١٨٧٦

المجلد العاشر بعد المئة

AL-MUKTATAF

A MONTHLY ARABIC SCIENTIFIC REVIEW

Edited by : Ismail Mazhar

VOL. 110

Founded 1876 By Drs Y. Sarruf & F. Nimr

فهرس المجلد العاشر بعد المئة

من المقتطف

وجه

(ا)

الآب انستاس ماري الكرملي ١٤٩ ، ١٩٥ ، ٢٩١
الأثر الدنيوي في الفن القبطي ١٣٦
أحاديث الاطفال التجارية وكيفية تسجيلها ٣٠٠
الأدب ثورة فيه . احمل قلمك ١٧٩
الأدب الرخيص ١٧٧
الأديان أصلها ٢٥١
الاستحمام وفوائده الصحية والطبية ١٤١
أشعة ما دون الأحمر والتخاطب بها ٢٢٩
الأطفال عشراء الوحوش ٩٥
أمس واليوم ٣٥٣
الانسان ما هو ٢٥٩

(ب)

البصل علاج للسرطان ٢٨٨

وجه

البنيسلين أقراص منافعه ٢٠٢

(ت)

تبرع لبناني لمكتبة الجامعة الاميركية ببيروت ٧٣
التخاطب بأشعة ما دون الأحمر ٢٢٩
التربية والتعليم ١٦٣
تنبيهان على قصيدة ٢٩٦

(ج)

جهاز رائد لاسلكي للأجواء ٢٣١
جهاز مسجل للحديث التليفوني ٢٣٥

(ح)

حالة مصر الزراعية ٣٥٣
الحرب والسلم ٢٠٣
الحضارة واختلاف الطبائع ١٩١

وجه

الحق والقوة — لحق يناير ١٩٤٧
الحلاقة جهاز لها ٣٠٢

(د)

الديكتافون ٢٩٧

(ر)

رائد لاسلكي للأجواء ٢٣١
الرادار كيف يشتغل ١٧١
الرياضيات في العلوم الطبيعية ١٣٣

(س)

سائل يعجل النمو البدني ٢٣٢
السرطان علاجه والبصل ٢٨٨
السلم الدائم والحلف العام ٢٨٣

(ص)

صحافتنا تنحدر ٤٥
صحتك كيف تحفظها ٢٠١
الصراع في العالم العربي ١٠١

وجه

(ع)

العدسات اللاصقة ٢٦٧
العيش مائة عام ٦٣
عيناك ٢٠١

(غ)

الغبار تنفيضه بالكهرباء ٣٠١

(ف)

الفكر العربي ١٠

(ق)

قاتل سوس القمح سره ٢٣٣
قنطرة لاستخراج الدم ٢٢٨

قصة

العوبة الحرية ١٩
أم من الجحيم ١١٥
جريمة أم قصاص ٣٢٩
دلائل الخيرات ٦٧
الشيطان — الملاك ٢٧٤
القدر ٢٢١
قصة للتاريخ ٥٦
العائدون ٣٢١

قصيدة

الى النيل ٤٤
أنغام باكية ٢٠٢

وجه

برلمان الطبيعة ١٠٠
تلمس في الظلام ١١٣
الربيع ٢٥٨
سكرة الموت ٢٢٦
الفتاة ٢٨
ظمآن ٢١٩
عالم العين ١٢٠
عانس ٩٢
غروب شمس ٢٨٠
الماضي الخالد ٢٧٣
النار ١٧٦
واجمل خيالك واقعاً
أو مت عنا ٤٨
وقفة على قبر أخي ٢٦٥

(ك)

كالورى ٤٣
الكتاب اللبناني ٢٥٥
الكنوز النفيسة في
القهامات الخسيسة ٣٢
كيف نعيش مائة عام ٦٣
كيمياء النواة والنظائر ١٦٧

(ل)

لواحق المقتطف
الحق والقوة يناير
لورد كليف فبراير

وجه

المسرحية في شعر شوقي
مارس وابريل ومايو

(م)

المجهر الكهربي ٣٦٢
المحاكم المختلطة في تاريخ
مصر القديم ١٧
المدرس الدولي ٢٤٣
مدرسة الاسكندرية ٨٣
المرأة في البرلمان ٣٤٩
مطران خليل الشاعر ٢٤٧
« « تكريمه ٢٤٨

مكتبة المقتطف

الآداب السامية ٣٧٤
أشواك ٣٨١
أعلام الجيش والبحرية
في مصر ٣١٠
أعمدة التلغراف ٨٠
الاقطاع والديون
في العراق ٨١
أمهات المؤمنين
وأخوات الشهداء ٣٠٦
أوديب — تيسيوس ٨١
أولادنا ٣١١
أؤمن بالانسان ٨١
تاريخ العصر الحاضر ٣٧٥

	وجه
تاريخ الفلسفة الأدبية في العصر الوسيط	٨١
تاريخ مصر في عهد البطالمة	٨١
تراجم اسلامية	١٥٧
ترجمة الامام أحمد ابن حنبل	٨١
جرائم واغتيالات القرن العشرين	٣٨٢
ديوان أحلام الربيع	٣٧٥
ديوان المرائس	٢٤٠
ديوان ليالي الشاطىء	٢٣٩
ديوان وابل وطل	٢٤١
دفاع عن العلم	١٥٨
رباعيات عمر الخيام	٢٣٦
الرسالة الخالدة	٧٦
روضة الطفل	١٦٠
سادهانا أو تحقيق الحياة	٣٠٩

	وجه
السلام الاجتماعي	٨١
صحائف مطوية	٧٤
صور من التاريخ العربي	٢٣٧
الطب العربي	٣٧٢
ظواهر الطرح الروحي	٣٨٣
عصر الاشتراكية	٣٠٣
قصة النزاع بين الدين والفلسفة	٣٧٣
كيف نسوس حياتنا بعد الخمسين	١٥٥
الله	٣٧٦
مدونة جوستنيان في الفقه الروماني	٨١
مصر الظافرة	٣٧٩
الملل والنحل	١٢٢،٣٥
الموازنة بين الطائيين	٣٧٧
النار الخالدة	٣٠٧
الناطقون بالضاد	١٦١،٨١
نبي الاسلام	٨١

	وجه
وطنيتي	٣٠٧
يسألونك	٧٨
(ن)	
نتحدى	٢٩
النساطرة في آسيا	١
النظائر وكيمياء النواة	١٦٧
النظارات (العدسات) اللاصقة	٢٦٧
(ه)	
هذي هي الأغلال	١٥١
الهواء تسخيره ومنافعه	٢٢٧
(و)	
واجب الشاب العربي	٤٩
الوضع الاجتماعي	٣٣٧
وطننا الشرق	٣١٣





Bibliotheca Alexandrina
0551391